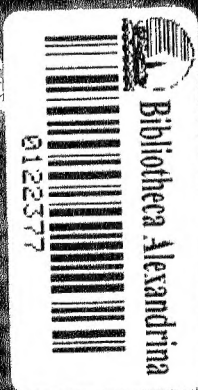


الدكتور مصطفى الشكعة



دار عربية للبيانات



DM-UR



[illegible]

الْبَيْتُ الْحَمْدِيُّ

البَيْتُ الْمَحْمُودُ

دكتور مصطفى الشكعة

المُشَارَرُ
لِلدَّارِ الْمُصَيَّرِ رَيْبَ اللَّيْنَانِيَّةِ



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، واهب النعم ، وبارئ النسم ، وخالق السموات والأرضين ، مالك يوم الدين ، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد إمام المرسلين وخاتم النبيين ، الذى حباه ربه بالتكريم ، وحيّاه فى القرآن الكريم بالخير العميم ، فى قوله - عز وجل - : ﴿وَلَئِكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وبعد :

فإن السيرة النبوية حافلة بأسباب الهداية ، مسددة بقوافل من النور ، يجتنى الناس منها عماد الإيمان ، ويثبتون قواعد الإسلام ، فينعمون بسعادة الدنيا ، ويحققون النجاة فى الآخرة .

ومحمد ﷺ كان مدده القرآن الكريم ، الذى أعجز الأولين والآخرين ، وأداته البيان الناصع ، والبلاغة الأسرة ، فى مجتمع عرف بالفصاحة ، وتزيّن بالشعر ، وتجمل بالبيان ، فكان محمد ﷺ سيد ذلك المجتمع أدبا وفضلا قبل المبعث ، وفصاحة وبيانا وإلهاما بعد نزول الوحي والتكليف بأمانة الدعوة وحمل الرسالة .

كان محمد ﷺ أفصح الفصحاء ، وأبين الأبيناء ، وكان يعلن ذلك فى قوله الشريف : « أنا أفصح العرب بئذ أنى من قريش ، وريت فى بنى سعد » ، وكان أبو بكر - رضى الله عنه - يقول له : يا رسول الله ؛ ما رأينا الذى هو أفصح منك . فكان يجيبه بالقول الشريف : « أدبنى ربي فأحسن تأديبي » .

لقد فاض بيان محمد ﷺ على العالمين منذ أكرمه الله بالرسالة ، وظل هذا الفيض النورانى يواكب الحقب والأزمنة ، يستضيء به المسلمون ، وينهل منه المهتدون ، وإذا

كانت السيرة العطرة في جوانبها المتعددة قد لقيت اهتماما من العلماء فرووها، ومن المؤرخين فسجلوها، وتسابقت الأجيال في روايتها، وتلاحقت الجهود في الحفاظ عليها، فإن جانب البيان المحمدي كان ولا يزال في حاجة إلى مزيد من الجهود لإبانتها، وعديد من البحوث لتجليته، هذا مع الاعتراف بفضل السابقين الذين توفروا على جوانب من بيان رسول الله ﷺ فجّلّوها، وأطراف من فصاحته فدرسوها ووثقوها.

غير أن الجانب الأكبر من هذه الكنوز النبوية لا يزال محتاجا إلى مزيد من التجلية والجمع والترتيب والتوثيق، وتقديم ذلك كله في دراسة مستقلة من خلال منهج متماسك وعرض متناسق.

ولقد أكرمني الله - تعالى - بأن وفقني للاضطلاع بهذا العبء الجهيد الذي بدأته منذ بضعة عشر عاما، كانت همتي خلال تلك الأعوام منصرفة إلى شرف معايشة بيان رسول الله ﷺ أجلس إليه، وأتوفر عليه، أسبح في بركاته، وأغوص في لجاته، وأقتبس من نفحاته، حتى خرج هذا الكتاب إلى حيز الوجود. أسأل الله - سبحانه - أن يتقبله قربة إليه، خالصا لوجهه الكريم، وأن يكون هذا العمل وسيلة إلى شفاعة رسول الله ﷺ وذريعة إلى السقيا من حوضه رشقات لا أظمأ بعدها أبدا، وسيلا إلى الاستظلال برايته يوم البعث الأكبر، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

لقد جاء هذا الكتاب في عشرة أبواب، تضمّن كل باب عددا من الفصول، يقل عددها ويكثر طبقا للزيادة المقدمة، واستئناسا بالمنهج الذي جعلناه رائدا لهذه الدراسة.

لقد جعلنا عنوان الباب الأول « سمات الرسول وصفاته وشأئله في الجاهلية والإسلام »، وقد جاء الباب في فصول أربعة، تناول الفصل الأول جانبا من سيرته ﷺ قبل المبعث وبعده، فذكرنا رضاعته في بني سعد، واستسقاء جده عبد المطلب به وهو غلام، واحتكام قريش إليه في وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة، وإسهامه في حلف الفضول الذي ذكره ﷺ بعد المبعث في قوله: « لقد شهدت في دار عبد الله

ابن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، لو دعى به فى الإسلام لأجبت « كما ذكرنا زواجه من خديجة رضى الله عنها .

وفى نفس الفصل جاء ذكره ﷺ بعد المبعث ابتداء من نزول الوحي ، وموقف كل من خديجة وعمه أبى طالب بجواره ، يشدان من أزره ، ويساندانه فى الدعوة إلى رسالة السماء ، وقد ورد فى هذا الجزء من هذا الفصل ذكر صفته ﷺ كما أوضحها هند بن أبى هالة ، وعلى بن أبى طالب ، وأبو هريرة ، وحسان ، وعائشة ، والبراء بن عازب ، وغيرهم ممن عنوا بوصف رسول الله ﷺ كما ضم هذا الفصل وصف أبى سفيان بن حرب لرسول الله حين استقدمه قيصر الروم وسأله عن طبيعة رسول الله ودعوته .

وتناول الفصل الثانى « فصاحة رسول الله ﷺ » ونماذج من أقواله فى نطاق الإيجاز والتوسط والإطناب ، مع ذكر قوله ﷺ : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ، وربيت فى بنى سعد » وقوله : « أوتيت جوامع الكلم » .

واشتمل الفصل الثالث على « أدب الحوار فى كلام رسول الله » سواء أكان ذلك مع المهاجرين أم الأنصار ، ونماذج من حوارهم مع الوافدين عليه مثل ضمام بن ثعلبة ، ووائل بن حجر الحضرمى ، والطفيل بن عمرو الدوسى ، هذا فضلا عن حوارهم مع عبد الله بن سلام فى المدينة ، ومع سقانة بنت حاتم الطائى وأخيها عدى ، واليهودى زيد بن سعة الذى اعتنق الإسلام بعد حوار جرى بينه وبين الرسول ﷺ وكان زيد هذا واحدا من أحرار اليهود قبل إسلامه .

وتناول الفصل الرابع جانبا من فصاحة رسول الله ﷺ فى نطاق لغات القبائل التى كان يجهلها أهل الحجاز ، وذلك فى حوارهم مع الوافدين عليه ، أو العائدين إلى قبائلهم من أمثال طهفة بن زهير النهدى ، وجريز بن عبد الله البجلي ، وخزيمة بن ثابت السلمى ، وقد تبدت فصاحة الرسول فى حوارهم معهم بلغاتهم ، أو فى الكتب التى زودهم بها ، وولاهم من خلالها أمر قبائلهم بعد أن أعلنوا إسلامهم .

وفى الباب الثانى تناولنا بالدراسة كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك من قياصرة وأكاسرة وأقيال وملوك ورؤساء قبائل يدعوهم إلى الإسلام ، وقد جاء الباب فى ثلاثة فصول ،

تناولنا في الفصل الأول استعراض رسائله مع الملوك والرؤساء من أهل الكتاب، مثل قيصر وقد حمل الكتاب إليه دحية الكلبي، والمقوقس وقد حمل الكتاب إليه حاطب بن أبي بلتعة، والنجاشي وقد حمل الكتاب إليه عمرو بن أمية الضمري، وأوضحنا بشيء من التفصيل موقف كل ملك من هؤلاء الملوك من دعوة الرسول، مثل عناية هرقل بالكتاب، ورقة المقوقس في استقبال حامل الكتاب وحسن رده، كما عرضنا لتحقيق استجابة النجاشي لدعوة رسول الله واعتناقه الإسلام، وتولين الرد على المستشرقين وبعض تلامذتهم من بنى جلدتنا الذين حاولوا بوسائل مختلفة نفى استجابة النجاشي إلى دعوة الإسلام، وبالتالي نفى اعتناقه للحنيفية السمحة.

وفي الفصل الثاني تناولنا بالدراسة والتحليل كتب رسول الله ﷺ إلى غير أهل الكتاب من أعاجم وعرب، وقد كان كبير الأعاجم - كسرى - قد أساء استقبال حامل كتاب رسول الله عبد الله بن حذافة السهمي ومزق الكتاب في غلظة واستكبار، وتعليق رسول الله ﷺ على الخبر، وماتنبأ به من سقوط ملك كسرى سريعاً.

وأما ملوك العرب الذين استجابوا للدعوة فور أن استقبلوا كتب الرسول وحاملها فهم جيفر وعبد ابنا الجلندي مَلِكَا عَمَّان، والمنذر بن سَاقَى ملك البحرين، وأكثم ابن صيفى الذى صحب قومه إلى المدينة للمثول بين يدي رسول الله، ولكنه مات في الطريق قبل أن يصل ركبته إلى المدينة، وكان قد أعلن إسلامه قبيل وفاته.

بقى اثنان تمردا على دعوة رسول الله ورفضا كتابه إليهما، وهما هوزة بن على ملك اليمامة الذى طلب أن يكون له شيء من الأمر، فلم يُسَلِّمْ وباد ملكه، ومسيلمة الكذاب، وخبره معروف.

وتناولنا في الفصل الثالث استعراض كتب رسول الله ﷺ التى اصطحبها معها الوفود العائدة إلى أقوامهم، وفي مقدمتهم ذو المشعار الهمداني، وطهفة النهدي، ووائل بن حجر الحضرمي، وقطن بن حارثة العليمي الكلبي، ومالك بن مرارة الحميري، وكانت هذه الكتب - طبقاً لما أسلفنا القول - مشحونة بالغريب من الألفاظ، مليئة بغير المأنوس من الكلمات، جرى ذلك في كلام رسول الله في يسر

وانثيال ، وفيها أعطاهم الرسول عهدودا بالسيادة على أرضهم ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة واستمسكوا بتكافل الإسلام .

وكان موضوع الباب الثالث من هذا الكتاب « عهدود الرسول ومعاهداته » ومثلما أن الرسول هو الصادق الأمين ، فكذا كانت عهدوده متممة بالصدق ، موسومة بالأمانة ، مقرونة بالوفاء نصًا وروحًا ، شكلا وموضوعا .

إن هذا الباب طويل نسبيا ، ومن ثم فقد ضم ستة فصول ، كان الفصل الأول عن العهدود في القرآن الكريم وتطبيق رسول الله ﷺ لها ، وتناول الفصل الثاني عهدود ما قبل الهجرة ، وفي مقدمتها عهدود ﷺ لتميم الدارى حين سأل الداريون الرسول أرضاً فوهبهم إياها . ومن عهدود ما قبل الهجرة بيعة العقبة الأولى التى مثلت أولى مراحل دخول الإسلام إلى يثرب ، ثم بيعة العقبة الثانية وكانت فى السنة التالية فى أواسط أيام التشريق ، وفيها بايع المسلمون من أهل المدينة رسول الله ﷺ بيعة المناصرة والحفاظ عليه وعلى الدعوة ، وهى البيعة البعيدة الأثر فى مسرى الدعوة الإسلامية ، وقد كان العباس عم رسول الله شريكا فيها فى جانب الرسول على الرغم من أنه لم يكن بعد قد أعلن إسلامه .

وفى الفصل الثالث عرضنا وثيقة المودعة بين المسلمين واليهود فى المدينة ، وقد أملى الرسول هذه الوثيقة بعد خطوات ثلاث تمثلت فى بناء مسجد قباء ، ثم بناء مسجده بالمدينة ، ثم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، ثم كانت وثيقة المودعة سالف الذكر التى تكونت من سبع وأربعين مادة ، وبعقد هذه الوثيقة نشأت دولة المدينة التى قامت على أساس المواطنة الإسلامية ، وتمثل هذه الوثيقة خطوة أولى وأساسية فى نظام الدولة الحديثة ، ومن أهم موادها أن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، ومنها أن من خرج من المدينة فهو فى أمان ، ومن قعد فهو فى أمان إلا من ظلم وأثم ، ومنها المادة الفريدة التى فحواها : « من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم » .

وفى شأن هذه المعاهدة نقرر ما قرر غيرنا من المهتمين بدراسة المعاهدات فى الماضى

والحاضر أنه لم يمهد لليهود احترام في التاريخ مثلما مهدت لهم هذه الوثيقة، ولكنهم لا يحفظون عهداً.

وَالْفَصْلُ الرَّابِعُ خُصَصْنَاهُ لَصَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ - أَوْ مَعَاهِدَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ ، كَمَا يَسْمِيهَا بَعْضُ دَارِسِي السِّيَرَةِ - وَقَدْ كَانَتْ سَنَةً سِتْ مِنْ الْهَجْرَةِ ؛ إِذْ خَرَجَ الرَّسُولُ مِنَ الْمَدِينَةِ يَرِيدُ الْعُمْرَةَ وَفِي صَحْبَتِهِ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ صَحَابِيٍّ يَرِيدُونَ تَأْدِيتَهَا مَعَهُ ، وَقَدْ حَفَلَتْ الْحُدَيْبِيَّةُ بِأَحْدَاثٍ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا تِلْكَ الْمَقَاوِضَاتُ الْمُتَلَحِّقَةُ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَ الرَّسُولِ وَمَشْرِكِي قُرَيْشٍ ، وَمِنْهَا احْتِجَازُ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ حِينَ قَامَ بِتُمَثِيلِ رَسُولِ اللَّهِ فِي مُحَادَثَاتِ الْحُدَيْبِيَّةِ دَاخِلَ مَكَّةَ ، وَمِنْهَا بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ الَّتِي كَانَتْ مَهْرَجَانًا إِسْلَامِيًّا لِلشَّهَادَةِ وَالْفِدَاءِ ، وَفِيهَا بَايَعُ الْمُسْلِمُونَ الرَّسُولَ عَلَى قِتَالِ قُرَيْشٍ ، وَفِيهَا حَيَّاَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ الْكَرِيمُ :

﴿ الْقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَايَعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾

وَفِيهَا كَانَ الصَّلْحُ عَلَى أَنْ يَنْصَرِفَ الْمُسْلِمُونَ عَائِدِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ يَعُودُوا فِي الْعَامِ الْقَادِمِ ، وَأَنْ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا عَشْرَ سِنِينَ فَضْلًا عَنْ بَقِيَّةِ الشُّرُوطِ الَّتِي جَاءَتْ فِي ذَلِكَ الْفَصْلِ .

ثُمَّ نَزَلَ سُورَةُ الْفَتْحِ الَّتِي بَشَّرَ اللَّهُ فِيهَا الْمُؤْمِنِينَ بِفَتْحِ مَكَّةَ فِي قَوْلِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴾

وَمِنَ الْمَعْجَزَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ أَنَّهُ لَمْ يَمْضِ عَلَى صَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ عَامَانِ حَتَّى فَتَحَتْ مَكَّةَ .

وَفِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ عَرْضْنَا لِعَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ مَعَ نَصَارَى الشَّامِ : مَعَ صَاحِبِ أَيْلَةَ ، وَمَعَ أَهْلِ مَقْنَا . ثُمَّ مَعَ نَصَارَى نَجْرَانَ .

كَمَا تَنَاولَ الْفَصْلُ السَّادِسُ عَهْدَهُ ﷺ لِكُلِّ مَنْ ثَقِيفٌ وَآلِيَمَن .

وَالْبَابُ الرَّابِعُ كَانَ مَوْضُوعَهُ « خُطْبُ الرَّسُولِ ﷺ » وَإِنَّهُ لَيْسَ بِغَائِبٍ عَنِ الْخَوَاطِرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هُوَ سَيِّدُ الْفَصَاحَةِ وَإِمَامُ الْبَيَانِ ، وَمَنْ ثُمَّ فَإِنْ خُطِبَهُ هِيَ سَيِّدَةُ الْخُطْبِ

فصاحة وبيانا وحكمة وتبياناً، ومن هنا تظهر أهمية هذا الباب بشكل خاص .

ولقد قسمنا هذا الباب إلى أربعة فصول، عرضنا في الفصل الأول للخطابة قبل الإسلام، وأشهر خطباء العرب آنئذ .

والفصل الثاني خصصناه لخطبه ﷺ في الدعوة إلى الله، والوعظ، والتربية وحسن التوجيه، وحب الله، وحب القرآن، وحب الناس، وأول خطبة خطبها في المدينة، وخطبة أول جمعة في المدينة .

والفصل الثالث تضمن فتح مكة وخطبته ﷺ وسماحته يوم الفتح، وعدداً آخر من خطبه يوم الأحزاب، وخروجه المعلن إلى تبوك، ونهاذج من سلوك صحابته، وكثرة الأحداث المواكبة لتلك الغزوة المتميزة .

وأما خطبة الوداع فقد أفردنا لها فصلاً مستقلاً هو الفصل الرابع، وذلك لأهميتها بلاغة وشريعة، فقد تضمنت هذه الخطبة الوصايا الأخيرة لرسول الله ﷺ وبها استكملت الشريعة أحكامها، ففيها القول الفصل في تحریم الربا، وحرمة الدماء، وإعلان المساواة بين الناس، وتشريع الدية في قتل الخطأ شبه العمد، وصلاح الأسرة، والوصية بالنساء ما لهن وما عليهن، وحق الزوج وحق الزوجة، والتوريث، وغير ذلك مما حوته خطبة الوداع من أحكام .

وبالباب الخامس من هذا الكتاب خصصناه لـ « أدعية الرسول وروحيّاته » وقد جعلناه في فصلين اثنين، فأما الفصل الأول فموضوعه « الدعاء والتساييح والابتهالات » ومن الطبيعي أن يكون هذا الفصل مثابة كبرى لروحانيات رسول الله ﷺ فهو كثير التعبد، كثير التسبيح، كثير الدعاء، كثير الصلاة، إنه ﷺ يدعو الله عند الأذان، وقبل الصلاة وبعدها، ويدعو الله في الصباح والمساء والليل، فلكل وقت دعاء، ثم دعاء القنوت، والاستخارة، ودعاء سجود التلاوة .

وثمت أدعية التعبد والتهجد والتساييح والابتهال، وهنا أيضاً سيد الاستغفار:

« اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما

استطعت، أبوء لك بنعمتك، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أعوذ بك من شر ما صنعت» .

وللرسول ﷺ دعاء التهجد المشهور لدى المتقين :

« اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن . . . » إلى آخر هذا الدعاء الرباني الوضيء .

ولرسول الله ﷺ دعاؤه الشهير في الطائف بعد تعرضه للأذى الشديد من قبيلة ثقيف إثر مطاردة الصبية له بالحجارة: « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين . . . » .

لقد حفل هذا الفصل بكثير من المدد الروحاني الذي علمنا الرسول إياه حتى نكون - نحن العبيد - على صلة دائمة برب العزة، تزيدنا ذلاً وقرباً إليه، وتزيدنا عزة ومنعة أمام خلقه .

والفصل الثاني من هذا الباب أفردناه للأحاديث القدسية من حيث موضوعاتها والتعريف بها، وكونها نورانية في مجملها، إشراقية في وجهتها، ففيها تنزيه الخالق عن الولد والشريك، وفيها التوحيد والتمجيد، والحمد والخشية، وفيها فضل العبادات وثوابها، وفيها ذكر الله، والتوبة، والشهادة، والجهاد، والصبر، وفيها الحشر والنشور، والجنة والنار، وفيها السماح والمغفرة، وفيها شفاعة محمد ﷺ الذي نسأل الله أن نكون أهلاً لشفاعته .

وكان لبّ اهتمامنا في الباب السادس وصايا النبي ﷺ وهي وصايا ونصائح تحمل كل المسلمين إلى مرافئ السعادة وشواطئ الإيمان، وقد جعلنا هذا الباب في ستة فصول، تناول الفصل الأول وصاياهم ﷺ إلى صحابته من قواد ومعلمين، فإن وصاياهم إلى قواد السرايا تشكل مدارس في قيادة الجيوش، وقد أوردنا وصيته لعمر بن العاص حين أخرجه إلى ذات السلاسل من بلاد قضاة، كما تمثلنا لوصاياهم للصحابه بوصيتين اثنتين، إحداها لمعاذ، والثانية لأبي الدرداء، تشتركان في عدد من القضايا، وتكمل

إحداهما الأخرى، ومن الوصايا البارزة تلك التى أوصى بها أبا ذر، وهى تضم بين دفتيها ثلاث عشرة وصية، وقد شرحناها بالتفصيل، كما ضم هذا الفصل عدداً آخر من وصايا ﷺ للنساء، وبخاصة وصيته لفاطمة، ووصيته لأم أنس.

واشتمل الفصل الثالث على وصيتين، إحداهما تعد من أنفس الوصايا وأقصرها؛ لأنها وقعت فى كلمتين اثنتين، وهى وإن كان الذى تلقاها رجلاً مغموراً إلا أن قيمتها عند جمهرة المسلمين تمثل جوهر بناء للنفس المسلمة، وهى قوله ﷺ: « لا تغضب ». وأما الوصية الثانية فكانت موجهة إلى رجل غير مسلم، انتهت به إلى مدارج الإيمان، فصار صحابياً معروفاً، هو أبو جرّ جابر بن سليمان.

والفصل الرابع جعلناه مختصاً بوصايا ﷺ بطلاب العلم، ولما كان طلب العلم فريضة على كل مسلم طبقاً لحديثه الشريف فإننا نتوقع إقبال الجحافل من الشباب على الجلوس فى حلقات العلم يسمعون من أصحابه، ويتلقونه من رجاله، وفى هذا المجال ردّدنا قول رسول الله ﷺ: « سيأتىكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا: مرحباً بوصية رسول الله ».

وكان موضوع الفصل الخامس هو وصايا ﷺ إلى الخليفة من بعده، وجمهرة الصحابة وسائر المسلمين.

ولما كان للأنصار شأنهم فى مسيرة الدعوة ومكانتهم الخاصة عند رسول الله ﷺ فقد كانت وصيته بهم حافلة بذكر أفضالهم، أمرة الصحابة بإكرامهم وتكريمهم، وغض الطرف عما يبدر من بعضهم من هنات، فكثيراً ما كان ﷺ يقول: « الأنصار كرشى وعييتى » ومن ثم كانت وصية النبى بالأنصار هى آخر وصاياهم.

والباب السابع من كتابنا هذا خصصناه للأمثال النبوية السائرة، وقد كانت الحكمة تسرى فى حواشى كلام رسول الله ﷺ حتى إن كلامه - باستثناء القليل منه - يشكل أمثالاً حكيمة سائرة، ومن ثم كان اهتمام جامعى الأمثال كبيراً بأمثال رسول الله ﷺ وقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول:

تناولنا فى الفصل الأول دراسة عن الأمثال والذين ألفوا كتباً فيها، وهم كثيرون، ثم

الأمثال النبوية وحدها، وأن أشهر من ألف فيها مكتفياً بها عن غيرها هو ابن خلاد الرامهرمزي.

ثم جعلنا الفصل الثاني مختصاً بموضوعات الأمثال النبوية السائرة، وقد شملت هذه الأمثال كل شيء في حياة المسلمين من عبادات ومعاملات وحياة اجتماعية وثقافية وتعليمية وعسكرية، وكل ما هو موصول الأسباب بأمور الدين والدنيا.

وأما الفصل الثالث فقد جعلناه لعرض نماذج قدمناها من ثلاثة كتب كانت أكثر عناية من غيرها بأمثال رسول الله ﷺ وهي: الأمثال لأبي عبيد، وأمثال النبي لابن خلاد الرامهرمزي، وجهرة الأمثال لأبي هلال العسكري.

والباب الثامن في كتابنا هذا هو « أسلوب القرآن وأسلوب النبي » وقد جعلناه في أربعة فصول:

الفصل الأول عنوانه « التسليم الفطري بأن القرآن كلام الله » هكذا فعل المؤمنون الأولون، وهكذا وقف المشركون أمامه متحيرين بدافع من فطرتهم البلاغية؛ لأن سماعهم القرآن كان يهزهم هزاً.

ولقد ضربنا لذلك عدداً من الأمثلة، منها: عتبة بن ربيعة حين ناب عن أعيان قريش في التحدث إلى رسول الله ﷺ كي يثنيه عن الدعوة إلى الله، فأسمعه النبي: ﴿ حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَبْعَةً مِثْلَ صَبْعَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴾ فقال عتبة لقريش: فكأن الكعبة مالت حتى خفت أن تمس رأسى من أعجازها.

ومثله أيضاً الوليد بن المغيرة الذي يسمع السورة نفسها فيقول عن القرآن الكريم ذلك القول الجميل الذي ذاع على ألسنة القرآنيين: إن أعلاه لمورق، وإن أسفله لمعذق، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وليس هذا من كلام البشر.

ومثال ذلك أيضاً البدوي الذي سمع رجلاً يقول: ﴿ فَأَصْدَعَ بِمَا تَوَمَّرُ ﴾ فخرّ ساجداً يقول: سجدت لفصاحة هذا الكلام.

والفصل الثانى جعلنا عنوانه « القرآن معجزة محمد ﷺ » وفيه عرضنا لوجوه الإعجاز عند عدد من العلماء المعنيين بموضوع إعجاز القرآن الكريم وبخاصة الخطابى والباقلانى وأبى الحسن الماوردى، ثم عرضنا وجوه الإعجاز عند كل واحد من هؤلاء العلماء بشىء من التفصيل، مع الإشارة إلى وجهة نظر الباقلانى فى الفرق بين أسلوب القرآن وكلام الرسول.

وفى الفصل الثالث قدمنا نماذج اختيرت لتلقائيا من الكتاب العزيز من سور: فصلت، المؤمنون، الرعد، الكهف، الحج، فاطر، البقرة، آل عمران، النور، الإسراء.

إنها مجرد نُقول مما وقعت العين عليه دون اختيار سابق أو اعتبار متعمد، كما نقلنا نماذج أخرى من كلام الرسول ﷺ سواء من حكمه أو توجيهاته أو خطبه، فإذا هى فوق كلام الشعراء والخطباء والحكماء والأبيناء، إنها فى إشراقها فوق كلام البشر ودون كلام الله.

والفصل الرابع خصصناه لعرض تناول القرآنى والتناول النبوى لقضايا بعينها عالجها القرآن، وتحدث فيها رسول الله ﷺ مثل: رحمة الله، الجهاد فى سبيل الله، اليتامى والمساكين، مكانة الأنصار ومحبتهم، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما ألمحنا إلى موضوعات الربا، الظلم، طلب العلم، كنز المال، وغير ذلك. فإذا كلام الله معجز بإطلاق، وإذا بكلام الرسول دون كلام الله وفوق كلام جميع الناس.

وبالباب التاسع خصصناه لموقف رسول الله ﷺ من الشعر، وجعلنا عنوانه « الرسول والشعر » وهى قضية تبدو لأول وهلة وكأنها شائكة تحتاج إلى حرص فى التناول وتردد فى إصدار الأحكام، ذلك أن نصوصا ثلاثة تفرض نفسها على الباحث الذى يعالج تلك القضية: نصوص من القرآن الكريم، ونص من الحديث الشريف، فأما النصوص القرآنية فهما قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَبًّا وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿ (١) وقوله تعالى:

(١) سورة يس، الآيتان: ٦٩، ٧٠.

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (١)

وأما الحديث الشريف فهو قوله ﷺ : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قبحاً خير من أن يمتلىء شعراً » .

لقد ذهب قلة من المفسرين إلى أن هذه النصوص تفيد تحريم الشعر، غير أن الأمر ليس كذلك ، فإن قوله تعالى : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ يعني أن الله - سبحانه - لم يمنح محمداً ﷺ ملكة الشعر؛ لأن محمداً أسمى مكانة وأرفع مرتبة من أن يكون شاعراً، وكان ذلك رداً على الذين ظنوا أن محمداً شاعر، وأن القرآن شعر؛ ولذلك كانت بقية الآية ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ﴾ وأما الآيات التي جاءت في سورة الشعراء فإن المقصود بها الشعراء العابثون الذين يقولون الشعر المنحرف الذي ينال من أعراض الناس، ويتنقص من مروءاتهم، أما الشعراء المؤمنون الذين يحسنون القول ويعملون من الشعر أداة للدفاع عن الفضيلة ووسيلة لمكارم الأخلاق، فهؤلاء هم الذين عنتهم الآية الكريمة بالاستثناء؛ لأنهم مؤمنون يعملون الصالحات، ويذكرون الله، ومن ثم يكون الحديث الشريف الذي استقبح حفظ الشعر إنما يقصد ذلك الشعر الذي يتخذ وسيلة للإضرار عوضاً عن أن يكون أداة نفع وهداية.

ولقد كان شعراء رسول الله فرسان الكلمة، خاضوا معارك الدعوة والدفاع عنها والذود عن حياضها بأقلامهم وأشعارهم، مثلما خاضها غيرهم من الصحابة بسيوفهم ورماحهم، بل إن من بين شعراء رسول الله من خاض المعارك بشعره وسيفه مثل عبد الله ابن رواحة الذي دافع عن الرسول وذاد عن الدعوة بشعره، مثلما اشترك فيها بسيفه قائداً لجيش المسلمين في غزوة مؤتة، وظل ممسكاً بسيفه إلى آخر قطرة في دمه، ونال شرف الشهادة في سبيل الله .

(١) سورة الشعراء ، الآيات ٢٢٤ - ٢٢٧ .

لقد قام الشعر بمهام عظمت في صحبة رسول الله ﷺ ومن هنا كان هذا الباب أطول من غيره من أبواب هذا الكتاب؛ إذ تضمن تسعة فصول:

فالفصل الأول تعامل مع قضية « الرسول وموقفه من الشعر » وفيه تناولنا حقيقة أن الرسول لم يقل الشعر، ورفضه للشعر القبيح، ولكنه كان يستمع إلى الشعر الجاد ويمتدحه ويطرى صاحبه، وهو ﷺ القائل في أكثر من مناسبة حال استماعه إلى شعر جيد: « إن من البيان لسحرا » وقال لخفاف الثقفي حين أنشده شعرا جميلا: « إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة ». وحين سمع بيت سويد بن عامر المصطلقى:

لَا تَأْمَنَنَّ وَإِنْ أَمْسَيْتَ فِي حَرَمٍ
إِنَّ الْمَنَايَا بِكَفَى كُلِّ إِنْسَانٍ

قال: « لو أدركته لأسلم ».

وكان ﷺ يردد الشعر مع الصحابة يوم أحد لما دميت أصبعه متمثلا قول عبد الله بن رواحة:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا أَصْبَعُ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ

وكان عنوان الفصل الثانى « شعراء الصحابة يمدحون الرسول » والشعراء الصحابة من الكثرة بمكان، وكانوا يتسابقون في مدح رسول الله ﷺ بالقول الجميل والشعر الأخاذ، وفي مقدمتهم حسان بن ثابت، والعباس عم رسول الله ﷺ والعباس بن مرداس السلمى، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، ومالك بن نمط، وعمرو بن سالم الخزاعى، وأنس بن زعيم، وخفاف بن نضلة الثقفى، وبجير بن زهير بن أبى سلمى.

كان هؤلاء الشعراء وغيرهم يطلبون إليه ﷺ أن يستمع إليهم ينشدون مدائحهم فيه، فكان يستجيب لهم، تكريرا لهم، وتشجيعا لقرائحهم.

وكان الفصل الثالث فى « استسقاء النبى ﷺ » لقد كان الشعراء ينشدون الرسول

الاستسقاء بشعرهم ، وقدمنا أكثر من مثال في ذلك ، منها استسقاء جده عبد المطلب لقومه حين كان الرسول غلاما ، وقد رفعه جده على عاتقه .

وكان الرسول من سماحة النفس وبشاشة الوجه بحيث يطلب من الصحابة أن ينشدوه شعرا قاله عمه أبو طالب - وكان أبو طالب شاعرا مجيدا مقلداً - وقد استسقى به ﷺ وهو طفل .

وخصصنا الفصل الرابع للرسول وخبر قس بن ساعدة ، وكان قس بن ساعدة حكيما فصيحاً خطيباً شاعراً يؤمن بالله وبالبعث والقيامة ، كان الرسول يسأل الصحابة من منهم يروى أبيات قس :

في الذاهيين الأولين من القرون لنا بصائر

وأبياتا أخرى له ، فيسارع بعض الصحابة إلى إنشادها بين يديه ، فيقول ﷺ : «يرحم الله قساً ، أما إنه سيعث يوم القيامة أمة وحده» .

ومثلما خصصنا قس بن ساعدة بفصل وحده ، فقد خصصنا كعب بن زهير وخبر إسلامه بفصل مستقل به أيضا هو الفصل الخامس . إن كعباً بعد أن كان لسان سوء في حق الدعوة وصاحبها ﷺ يثوب إلى رشده بتوجيه من أخيه بجير ، فيذهب إلى رسول الله ويدخل إليه في مسجده عند صلاة الصبح ويعلن توبته ، ثم ينشده قصيدته الشهيرة «بانت سعاد» فيحسن الرسول الاستماع إليه ، ويخلع عليه بردته ، وحين عرض كعب بالأنصار في ييب من قصيدته بسبب موقف بعضهم منه طلب إليه الرسول أن يمدحهم ، فاستجاب إلى طلب الرسول ﷺ ومدحهم بأبيات رقيقة .

وكان عدد من صحابييات رسول الله شاعرات مجيدات ، ومن ثم أفردنا هن فصلا في هذا الباب هو الفصل السادس ، وجعلنا عنوانه « الصحابييات الشاعرات » اللاتي تأتى في مقدمتهن الحسناء ، وكان الرسول ﷺ يستمع إليها مستحسنا شعرها ، ومنهن صفية عمة رسول الله ، ونعم امرأة الصحابي شماس بن عثمان ، وقد قالت في رثائه أبياتا - من أرق ما قيل في الرثاء ، وقتيلة بنت النضر التي أسمعت رسول الله رثاءها في أبيها ، وكان أسر وقتل يوم بدر ، فتأثر رسول الله عند سماعه أبياتها وقال : « لو بلغنى هذا قبل

قتله لمننت عليه « وفي سياق الفصل عرضنا للشيء - أخت رسول الله من الرضاع - وشعرها فيه طفلاً، ثم شعرها حين وقعت في السبي يوم حنين وهو لا يعرفها، وما كان من إكرامه لها، وهند بنت أثاثة التي كانت تناقض شعر هند بنت عتبة في أبياتها في مقتل حمزة عم رسول الله ﷺ.

ولقد تضمن الفصل السابع « الشعر عام الوفود » حيث كانت القبائل تبعث بوفودها إلى المدينة ومعهم خطباءهم وشعراؤهم يعلنون إسلامهم ويبايعون رسول الله ﷺ مثل همدان، وجهينة، وبنى عذرة، ومزينة، وبنى كلب، وبنى قشير، وبنى تميم، لقد صنعت بعض هذه الوفود ما يشبه مهرجانات للشعر، وكان من أشهر هذه الوفود التي احتفلت بالشعر على نطاق واسع وفد تميم وعلى رأسهم عطار بن حاجب ابن زرارة، والزبرقان بن بدر، والأقرع بن حابس، وجرت مباريات في الخطابة والشعر بين خطباء الرسول وشعرائه وخطباء تميم وشعرائها، كان الفوز فيها لشعراء رسول الله وخطبائه، وكان لحسان القدح المعلن في ذلك، حتى إن الأقرع بن حابس قال: إن هذا الرجل - يقصد الرسول - لمؤتى له، كخطيبه أخطب من خطيبنا، وكشاعره أشعر من شاعرنا!!

كان عام الوفود علامة من علامات النصر للإسلام والمسلمين، القبائل تتوافد يتقدمها شيوخها، والشعراء يتسابقون في إعلان إسلامهم، وتقديم البيعة لرسول الله ﷺ.

وتناولنا في الفصل الثامن شعر الغزوات والسرايا، وهو كنز نفيس وتراث جليل اشتمل على نماذج من الشعر في غزوة الخندق، وبنى قريظة، ومؤتة، وفتح مكة، وغير ذلك، وكان أبطال شعراء المسلمين في هذه الغزوات حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، والعباس بن مرداس، وغيرهم من شعراء الدعوة، وكانت ثمت معارك شعرية أخذت شكل النقائض بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين، ومن الأخبار الطريفة أن بعض شعراء المشركين أعلنوا إسلامهم يوم فتح مكة، ونقضوا كل ما سلف لهم من شعر، واستنكروا كل ما صدر عنهم من قول، وعلى رأسهم عبد الله بن الزبيري.

وكان الفصل التاسع والأخير في هذا الباب مخصصا لمراثى شعراء الرسول لشهداء الغزوات . إن القدر من الشعر الذى قيل في هذا الغرض من الكثرة بمكان ، ومن الوفرة بمقدار ، ومن الرقة وَجَيَّشَان العاطفة بحيث فرض نفسه على مسيرة الشعر العربى في موكب الدعوة الإسلامية الباكرة .

كانت أكثر المناسبات وفرة في الرثاء غزوة أُحُدِ إثر استشهاد عدد كبير من الصحابة ، وعلى رأسهم حمزة عم رسول الله الذى استأثر بأكبر قدر من قصائد الرثاء ؛ وذلك لمكانته بين الصحابة ، ولحزن رسول الله عليه حزنا شديدا .

لقد شكّل شعر غزوة أحد معركة شعرية كبرى ، خاضها من الجانب الإسلامى حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . ومن جانب المشركين عبد الله ابن الزبعرى ، وضرار بن الخطاب الفهرى ، وهبيرة المخزومى ، وعمرو بن العاص ، بل لقد اشتركت فيها بعض الشاعرات مثل صفية عمة رسول الله وشقيقة حمزة ، ونُعْمُ من جانب المسلمين ، وهند بنت عتبة من جانب المشركين .

كان محور المعانى التى دارت عليها المعركة الشعرية الإيمان بالله ، والعزة بالإسلام ، وحب الاستشهاد في سبيل الله ، ونعت الجانب الآخر بالشرك والضلال ، وأما محاور معانى الشعر عند المشركين فلم تزد عن طَرْقِ المعانى الجاهلية ، والافتخار بقتل حمزة ورفاقه .

ومثلما نشط شعر الرثاء بعد موقعة أحد ، فإنه قد ازداد نشاطا أيضا بعد غزوة مؤتة حيث استشهد أمراء الجيش الثلاثة الواحد بعد الآخر : زيد بن حارثة ، ثم جعفر بن أبى طالب ، ثم عبد الله بن رواحة ، وقد استأثر جعفر بالنصيب الأوفر من قصائد الرثاء لمكانته الخاصة عند رسول الله ؛ فهو ابن عمه ، وأول المهاجرين إلى الحبشة ، وهو واحد من أقرب رجال بيت النبوة شبيها برسول الله ، ولشدة حزن الرسول لموته وبكائه عليه حتى انتحب ، وكان الرسول ﷺ يقول له : « أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي » .

ومن عجائب غزوة مؤتة أن عبد الله بن رواحة ثالث أمراء جيشها كان قد رثى نفسه بأكثر من مقطوعة شعرية وهو في طريقه إلى أتون المعركة .

والباب العاشر والأخير من كتابنا هذا، موضوعه « الأنواع البلاغية في كلام رسول الله ﷺ » .

لقد وجد البلاغيون والنقاد ثروة كبيرة، وزادًا وأفرا من الموضوعات البلاغية في كتاب الله وكلام رسول الله ﷺ .

ولما كان البلاغيون قد حصروا الأنواع البلاغية في أقسام ثلاثة، هي : المعانى، والبيان، والبديع، ثم وضعوا تحت كل قسم ما يتناسب معه من أنواع، فقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول :

اختص الفصل الأول بعلم المعانى وما يقع في إطاره من أنواع، وإذا كان البلاغيون قد حصروا مسائل علم المعانى في عشرة موضوعات، فإن الذى نتعامل معه منها في مجال الكلام النبوى أربعة فقط، هي : الإيجاز، والإطناب، والإيهام والتفسير، والمساواة .

ولقد تمثلنا للإيجاز بنماذج كثيرة من كلام الله، وكلام الرسول، وهو في الحقيقة إيجاز وإعجاز، وتناولنا الإطناب من خلال المنهج نفسه في الكتاب والسنة، ثم عرجنا على الإيهام والتفسير، وهو كثير في كتاب الله، وفي كلام رسول الله، ثم عرضنا للمساواة في كلام الرسول، وهو بحر واسع ما بين الشاطئين؛ لأن الأصل في كلام رسول الله هو التوسط والمساواة، فهو السمت الغالب على كلامه ﷺ ولقد أجرينا تطبيقات كثيرة، وعرضنا نماذج متنوعة .

والفصل الثانى من هذا الباب خصصناه « للبيان » وكان أول ما عنيانا به في هذا الفصل هو موضوع التمثيل والمماثلة، وهو كثير في كتاب الله، وكلام رسول الله ﷺ وقد جرى التمثيل في كلام الرسول في مجالات كثيرة، مثل الاعتصام بالكتاب والسنة، ومكانة الرسالة المحمدية، ومثل مكانة الرسول بالنسبة للأنبياء الآخرين، والقرآن وقراءته، والجلوس الصالح وجلوس السوء، ومماثلات للعبادات من وضوء وصلاة وصوم، وتمثيلات عدة لبناء المجتمع الإسلامى .

وانصرف اهتمامنا كذلك إلى بقية الأنواع البلاغية في إطار « البيان » وبخاصة التشبيه

والمجاز والاستعارة والكناية، وأوردنا تعريفا شافيا لكل نوع من هذه الأنواع، وأتينا بنماذج منها .

ولقد عمدنا إلى توسيع الحديث عن المجاز؛ لأنه كثير في كلام رسول الله، مثلما هو كذلك في الكتاب العزيز، ذلك أن المجاز هو الأصل الذي تتفرع عنه أصناف البيان، فالاستعارة من المجاز، والتشبيه من المجاز، وكذلك الكناية من المجاز. ولقد جئنا بنماذج كثيرة من المجاز النبوي، وقد كان لكتاب «المجازات النبوية» للشيخ الرضوي يد كريمة في تقديم مادة علمية وفيرة لنا في هذا الفصل، أعانت على تقديمه في إطار من الكفاية والوضوح.

والفصل الثالث جعلناه «للبديع» في حديث رسول الله، ولقد قسم البلاغيون البديع إلى أقسام عديدة، غير أن أشهرها وأكثرها استعمالا قسمان، هما: السجع، ثم الجناس، والسجع مستقبح إذا كان متعسفا معاكسا للطبع، مثل سجع الكهان الذي ذمه رسول الله ﷺ أما السجع الذي يوافق الطبع فهو ذلك الذي سرى حميدا في كلام رسول الله ﷺ ولقد حفل الفصل بنماذج كثيرة من سجع رسول الله.

وكان تناولنا للجناس في حديث رسول الله فيه مزيد من الإبانة والإيضاح، فقد قسم البلاغيون الجناس إلى جناس كامل، وجناس غير تام أو ناقص، فأما الجناس التام فلم نعر في كلام رسول الله إلا على مثال واحد هو قوله ﷺ: «خلوا بين جرير والجرير» يقصد بذلك أن يترك جرير بن عبد الله قابضا زمام الناقة. وأما الجناس غير التام فقد تجاوزت أصنافه خمسة عشر صنفا، ولم تكن أحاديث رسول الله متعاملة معها جميعا، وإنما وردت بعض الأحاديث ذات الجناس المختلف، والمطلق، والمصحف، والمضارع، والمعكوس، ولكنها قليلة ونادرة.

تبقى بعد ذلك المحسنات المعنوية الأخرى التي جاءت في كلام رسول الله ﷺ وهي الطباق، والمقابلة، ثم لزوم ما لا يلزم، وهو قليل سواء في القرآن أو في الحديث، ثم الإحصاء، واللف والنشر، وهما موجودان في كلام الله وكلام الرسول، ولكنها أيضا قليلة إلى حد الندرة، وعلى الرغم من ذلك فلقد عمدنا إلى تقديم ما هو متاح من نماذج هذه الأنواع، ما هو شائع منها وما هو نادر أو قليل.

وفي الختام نسأل الله أن يتقبل هذا الجهد، وأن يجعله مصدر نفع لمحبي كلام رسول الله ، ونبع معرفة لكل من شغلوا بسيرة رسول الله ، وجميع من شاقهم أن يدرسوا بيان محمد ﷺ فهو أفصح الفصحاء وأبين الأبيناء، يحدو كلامه التوجيه الإلهي لشخصه الشريف في قوله: « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ويحدد مقاصده النهج المستقيم الذي تمثل في قوله ﷺ: « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ ﴿ وَلَكَ الْحَمْدُ رَبَّنَا وَلَكَ الشُّكْرُ ، عليك توكلنا وإليك أنبنا ، وعليك قصد السبيل .

مصطفى محمد الشكعة

مصر الجديدة في ٢٨ من المحرم ١٤١٦ هـ .

٢٦ من يونية (حزيران) ١٩٩٥ م .



سمات الرسول وصفاته وشمائله في الجاهلية والإسلام

الفصل الأول : قبل المبعث وبعده

الفصل الثاني : فصاحته ﷺ

الفصل الثالث : أدب الحوار في كلام رسول الله

الفصل الرابع : الرسول يتحدث لغات القبائل



الفصل الأول

شخصية محمد : قبل المبعث
وبعد المبعث

سمات الرسول ﷺ وصفاته وشمائله قبل المبعث وبعده

في الجاهلية :

محمد ﷺ سيد البشر وخاتم الرسل ، وهو البشير النذير ، وهو الصادق الأمين ، ورسول رب العالمين ، الشفيع يوم العطش الأكبر ، حيث لا شفاعاة لنبي إلا هو ، صاحب العلم الكبير الذى يظل به أمته يوم الحشر العظيم ، أمته شهداء على الناس وهو عليهم شهيد ، اصطفاه الله واجتباؤه فخصه بالتكريم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١) وأكرمه بعظمة ورفعته الذكر ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾^(٢) وأثره بين جميع رسله بالرسالة الخاتمة : رسالة الإسلام الذى يجب ما قبله ، فهو بحق خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، ورسول رب العالمين .

كان محمد ﷺ قبل الرسالة فتى قريش الذى إليه يطمثون ، وبأمانته يعترفون ، وباستقامته يضربون الأمثال ، فكان يعرف بينهم بالأمين ، وكان ﷺ ذا مهابة وجلال وجمال وهو فى فجر صباه ، وكان علماً فى قومه ، ما من قرشى لا يعرف محمداً الصبى المستقيم ، والشاب الأمين ، مع تلافيه حضور مجتمعاتهم الصاخبة ، فقد عصمه الله من أوزارها ، وجنبه المشاركة فى عاداتهم الجاحمة ، وأنجاه ربه من مبادها ، ومن ثم كانت صفحته قبل الرسالة وضاءة الجنبات ، وسيرته قبل النبوة عاطرة النفحات .

ولعل من المستحب ونحن نتحدث عن محمد ﷺ قبل البعثة أن نذهب بعيداً فى الزمان إلى ديار بنى سعد ، حيث كان محمد الرضيع يلقي الحب والعناية ، والحنان والرعاية ، من مرضعته حليلة ، ومن ابنتها الشبيهة أخت محمد فى الرضاع .

(١) سورة القلم ، الآية : ٤

(٢) سورة الشرح ، الآية : ٤ .

كان للشيء إخوة آخرون أشقاء ، رُضِعَ ويافعون ، ولكن أحداً منهم لم يلق من الحب منها ما لقي محمد الرضيع الذي بحلوله بينهم حل الخير واتسع الرزق وعمت البركة ، هذا فضلاً عن جمال الطفل محمد ، وطيب ريحه وبهاء طلعتة وفرط رفته .

كان من عادة نساء العرب أن يرقصن أطفالهن الرضع بضرب من الشعر عرف «بشعر الترقيص» . ولشدة تعلق الشيء بحب أخيها الرضيع محمد ، فقد أثرته دون بقية إخوتها الأشقاء بأبيات من إنشائها بالغة الرقة ، داعبته بها غناء ونشيداً .

قالت الشيء (واسمها حذافة ، وقيل : خذامة) ترقص الرضيع محمداً : (١)

يا ربنا أبق أخى محمداً حتى أراه يافعاً وأمرداً
واكبث أعاديته معاً والحسدَا وأعطه عزاً يدوم أبداً

هذا أخ لي لم تلده أُمى وليس من نسل أبى وعمى
فديته من محمول مُعِمٍّ فأنمِه اللهم فيما تُنمى

وكان محمد ﷺ يستسقى به وهو طفل إذا ضرب القحط قومه وعز المطر ، ذلك أن جده عبد المطلب - أو شبيهة الحمد - كان إذا عم القحط ، وجفت الأرض ، وأضير الزرع والضرع ، فزع الناس إليه ليستسقوا بدعائه ، فكان إذا نهض إلى ذلك حمل حفيده محمداً الغلام على عاتقه ، ثم بدأ دعاء الاستسقاء .

إن «رُقَيْقَةَ» بنت أبى صيفى القرشية ، وكانت لدة لعبد المطلب تروى خبراً في هذا الشأن ، وقد استسقى عبد المطلب لقومه ، وحفيده محمد محمول على عاتقه ، فقالت (٢):

« تَتَابَعْتُ عَلَى قُرَيْشٍ سِنُو جَدِّ ، أَقَحَلَتِ الْأَرْضَ وَالضَّرْعَ ، وَأَرْقَتِ الْعَظْمَ ، فَبَيْنَا

(١) سبل الهدى والرشاد ١ / ٤٦٤ .

(٢) منال الطالب ١ / ٢٠٢ أخرجه الخطابي وأبو نعيم والزعفرى ، وهو من حديث المسور بن مخرمة بن نوفل قال مخرمة : حدثتني أُمى رُقَيْقَةَ .

أنا راقدة - اللَّهُمَّ - أو مُهَوِّمةٌ ، ومعى صَبَوْتِي ، إذا أنا بهاتفٍ صَبَيْتِ يَصْرُخُ بصوتٍ صَحِلٍ ، أَقْشَعَرَّ له جلدى ، يقول : يا معشرَ قريش ، إن هذا النبىِّ المبعوث منكم قد أَظْلَمْتُمْ أَيَّامَهُ ، وهذا إِبَّانٌ نُجُومِهِ ، فَحَيَّ هَلَاً بِالْحَيَا وَالْخِصْبِ ، أَلَا فانظروا فيكم رجلاً وَسَيْطاً عَظَماً جُساماً طَوَالاً ، أبيضُ بَضًّا ، أَشَمَّ العِزِّينِ ، أَوْطَفَ الأَهْدَابِ ، سَهْلٌ الحَدَّيْنِ ، له فَخْرٌ يَكْظُمُ عليه ، وَسُنَّةٌ تَهْدِي إليه ، أَلَا فَلْيَخْلُصْ هو وولده ، وَلْيَدْلِفْ

المعاني:

رَقِيقَةٌ: هي بنت أبى صَبِيٍّ بن هاشم بن عبد مناف . ويُشبه أن تكون تصغير الرِّقَّة ، وهى كل أرض إلى جَنْبٍ وإِذْ يَنْسِطُ عليها الماءُ أَيَّامَ المَدِّ ، ثم يَنْصَبُ ، فتكون مَكْرُومَةً للنبات .
واللَّدَّةُ : مصدر وَلَدَ يَلِدُ لِدَةً ، كالعِدَّة والزَّيَّة ، مِن وَعَدَ ووَزَنَ . أي : أنها كانت في سِنِّ عبد المطلب بن هاشم ، وِمن أقرانه ، لِاتِّفَاقِ ولادتهما ، وكان عبد المطلب عَمَّهُا .
والجَذْبُ : القُحْطُ .
والأصل في سَنُو : سَيُونُ . فحذف النُّونَ لِإِضافتها إلى الجَذْبِ ، وهو من الجمع الشَّاذَّةُ .
وَأَفْخَلَتْ : أي أَيْبَسَتْ الأرض فلم تَدْعُ فيها نباتاً ، وَالضَّرِغُ فلم تَدْعُ فيه لَبَنًا .
ويروى : « أَفْخَلَتْ الظِّلْفُ وهو للنَّشَاءِ كالحافِرِ للفرس ، وتُرِيدُ ذَاتَ الظِّلْفِ ، أي : أن السَّيْنِ المُجْدِبَةِ هَزَلَتْ الماشية .
وَيُرَوَّى : « وَأَفْنَتِ العَظَمَ » أي : أذابته .
والرُّقُودُ : النُّومُ المُسْتَحْكَمُ المُتَمَدُّ .
والتَّهْوِيمُ : النُّومُ الخفيف ، يقال : هَوَّمَ وَتَهَوَّمَ ، وكأنه من الهامة : الرأس . أي : حَرَّكَ رأسه من التَّعَاسِ .
والصَّبُوةُ : الأولاد الصَّغار ، جمع صَبِيٍّ .
والمهاتِفُ : الصائح ، وأكثر ما يُطْلَقُ على مَنْ لا يُرى شَخْصُهُ .
والصَّبِيَّتُ : العالي الصوت .
والصَّرَاخُ : غَلُُّ الصَّوْتِ .
والصَّحِلُ : الذي في صوته بُحَّةٌ تُذْهِبُ حِدَّتَهُ ، وهو مُسْتَلَدٌّ في السَّمْعِ .
وَأَقْشَعَرَّ الجِلْدُ : إذا ارْتَعَدَ وقام شَعْرُهُ ، كَالَّذِي يَغْرِضُ له عند مُفَاجَأَةِ البرد .
وإِبَّانٌ نُجُومِهِ : وقتُ ظُهورِهِ . وإِبَّانٌ : فِعْلانٌ من أَبَ الشَّيْءُ : إذا تَبَيَّنَ .
ونجم النَّبْتِ يَنْجُمُ : إذا طَلَعَ وظَهَرَ .
وحَيَّ هَلَا : كلمة مُركَّبة من كلمتين ، إحداها حَيَّ ، ومعناها هَلُمَّ وَأَقْبِلْ ، والأخرى هَلَا ، وهى حَثٌّ واستعجالٌ .
والحَيَا - مقصوراً - : المَطَرُ ؛ لِأَنَّ به حياة الأرض .
والخِصْبُ : ضدُّ الجَذْبِ ، وهو مِن أثر المطر .
وَالْوَسِيطُ : أَفْضَلُ القومِ ، من الوَسَطِ .
وَالْعَظَامُ : العَظِيمُ القَدْرُ .
وَالْجُسامُ : العَظِيمُ الجِسْمِ .
وَالطَّوَالُ : الطَّرِيقُ القامِةُ .
والبَقْصُ : الرِّيقُ اللَّوْنِ الذى يُؤَثِّرُ فيه كُلُّ شَيْءٍ .

إليه من كُلِّ بَطْنٍ رَجُلٌ ، أَلَا فَلْيَسْتُنُوا مِنَ الْمَاءِ ، وَلْيَمَسُّوا مِنَ الطَّيِّبِ ، وَلْيَسْتَلِمُوا الرُّكْنَ ، وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ سَبْعاً ، ثُمَّ لِيَرْتَقُوا أَبَا قُبَيْسٍ ، أَلَا وَفِيهِم الطَّيِّبُ الطَّاهِرُ لِدَائِهِ ، أَلَا فَلْيَسْتَسْقِ الرِّجُلُ ، وَلْيُؤَمِّنِ الْقَوْمُ ، أَلَا فَغَشْتُمْ إِذَا مَا شِئْتُمْ وَعِشْتُمْ .

قالت : « فَأَصْبَحْتُ - عَلِمَ اللَّهُ - مَذْعُورَةً ، قَدْ قَفَّ جِلْدِي ، وَوَلَّهَ عَقْلِي ، فَاقْتَصَصْتُ رُؤْيَايَ ، وَنِمْتُ فِي شِعَابِ مَكَّةَ ، فَوَالْحُرْمَةِ وَالْحَرَمِ إِنْ بَقِيَ بِهَا أَبْطَحْتُ إِلَّا قَالَ : هَذَا شَيْبَةُ الْحَمْدِ ، وَتَنَامَتْ عِنْدَهُ رَجَالَاتُ قُرَيْشٍ ، وَانْقَضَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ

= وَالْعَزِيزِيُّ : الْأَنْفُ ، وَقِيلَ : أَعْلَاهُ .

وَالشَّمَمُ : ارْتِفَاعُ أَثَرَةِ الْأَنْفِ ، مَعَ امْتِدَادِ الْقَصْبَةِ .

وَالْأَهْدَابُ : شَعَرُ أَجْفَانِ الْعَيْنِ .

وَالْوَطْطُ : طَوُّهَا .

وَسَهْلُ الْحَدَّيْنِ : طَوِيلُهَا غَيْرِ نَاتِيهَا .

وَالكَظْمُ : الْكَثْمُ وَالْإِمْسَاكُ عَلَى الشَّيْءِ . تَرِيدُ أَنَّهُ مِنْ ذَوِي الْفَخْرِ وَالشَّرَفِ ، وَهُوَ يُخْفِي حَسَبَهُ وَلَا يَتَبَجَّحُ بِهِ .

وَالشَّنَّةُ : الطَّرِيقَةُ الْوَاضِحَةُ . أَيْ أَنَّ سَجِيَّتَهُ وَسِرَّتَهُ الْجَمِيلَةَ تَهْدِي النَّاسَ إِلَيْهِ وَتَجْمَعُهُمْ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهَا : « أَلَا فَلْيَتَخَلَّصْ هُوَ وَوَلَدُهُ » أَيْ : فَلْيُتَمَيِّزُوا ، وَلْيَتَفَرَّدُوا مِنَ النَّاسِ .

وَالْبَطْنُ : مَا دُونَ الْقَبِيلَةِ وَفَوْقَ الْقَبِيلَةِ مِنَ الْعَشِيرَةِ .

وَالشَّنُّ بِالشَيْنِ الْمَعْجَمَةُ - : صَبَّ الْمَاءِ عَلَى الرَّأْسِ وَالْبَدَنِ مَتَفَرِّقاً ، وَمِنْهُ شَنُّ الْغَارَةِ : إِذَا أَخَذْتَهُمْ مِنْ نَوَاحِيهِمْ .

وَاسْتِلَامُ الرُّكْنِ : لَمَسُهُ بِالْيَدِ وَتَقْبِيلُهُ .

وَالْعَتِيقُ : الْقَدِيمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَالْعَتِيقُ أَيْضاً : الْكَرِيمُ الْخَيَّاطُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

وَاللَّدَاثُ : جَمْعُ لَدَاةٍ . تَعْنِي أَنَّ مَوْلَدَهُ وَمَوْلَدَ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِ مَوْصُوفٌ بِالطَّهْرِ وَالطَّيِّبِ .

وَالِاسْتِسْقَاءُ : طَلَبُ الشَّقْيَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى .

وَقَوْلُهَا : « أَلَا فَغَشْتُمْ إِذَا مَا شِئْتُمْ » أَيْ : مُطَرِّئْتُمْ ، وَهِيَ بِكَسْرِ الْغَيْنِ ، وَقدْ تُقَسَّمُ .

وَقَفَّ الْجِلْدُ : إِذَا تَقَبَّضَ وَارْتَعَدَ .

وَالرَّكَّةُ : الْحَيْرَةُ وَاللَّدَهَشُ وَذَهَابُ الْعَقْلِ .

وَالشُّعَابُ . الْأَوْدِيَةُ وَالْأَرْقَةُ فِيهِ .

وَالْحُرْمَةُ : حُرْمَةُ الْبَيْتِ . وَالْحَرَمُ : حَرَمُ مَكَّةَ .

وَالْأَبْطَحِيُّ : مَنْسُوبٌ إِلَى أَبْطَحٍ مَكَّةَ ، وَهُوَ ظَاهِرُهُمَا ، وَهُمْ سُكَّانُهَا مِنْ قُرَيْشٍ وَأَهْلِهَا .

وَشَيْبَةُ الْحَمْدِ : لَقَبُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، سُمِّيَ بِهِ لِشَيْبَةِ كَانَتْ فِي رَأْسِهِ حِينَ وُلِدَ ، وَاسْمُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ : شَيْبَةُ ، وَقِيلَ : عَامِرٌ ، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ ؛ لِأَنَّ هَاشِمًا أَبَاهُ تَزَوَّجَ سَلَمَى بِنْتَ زَيْدِ النَّجَارِيَّةِ ، فَوَلَدَتْهُ ، فَلَمَّا تَوَقَّى هَاشِمٌ وَشَبَّ الْغُلَامُ انْتَزَعَهُ عَنْهُ الْمَطْلَبُ مِنْ أُمِّهِ ، وَأَرَدَفَهُ عَلَى رَاحِلَتِهِ ، وَقَدَّمَ بِهِ مَكَّةَ فَسَأَلَهُ النَّاسُ عَنْهُ ، فَقَالَ : هُوَ عَبْدِي ، حَيَاءٌ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ : هُوَ

ابْنُ أَخِي ، لِثَلَاثَةِ هَيْئَتِهِ سَاعَتَهُد ، فَقَالَ النَّاسُ : أَرَدَفَ الْمَطْلَبُ عَبْدَهُ ، وَلَزِمَهُ هَذَا الْاسْمُ .

رجُلٌ ، فشَنُّوا ، ومَسُّوا ، واستَلَمُوا واطَّوَّفُوا ، ثم ارتَقَوْا أبا قُبَيْسٍ ، وطَفِقَ القَوْمُ يَدْفُونَ حَوْلَهُ ، ما إِنْ يُدْرِكُ سَعْيُهُمْ مَهْلَهُ ، حتى قَرَّوا بِذُرْوَةِ الجَبَلِ ، واستَكَفُّوا جَنَابِيَهُ .

فقام عبدُ المطلب ، فاعتَصَدَ ابنَ ابنِهِ محمداً ، فرفعه على عاتقه ، وهو يومئذٍ غلامٌ قد أَيْفَعَ أو كَرَبَ ، ثم رفع يديه فقال : « اللهم سادَّ الحَلَّةِ وكاشَفَ الكُرْبَةِ ، أنتَ عالمٌ غيرُ مُعَلَّمٍ ، ومَسْتُوٌّ غيرُ مُبَخَّلٍ ، وهذه عِبْدَاؤُكَ وإِماؤُكَ بِعِذْرَاتِ حَرَمِكَ ، يَشْكُونَ إِلَيْكَ سَنَتَهُمْ ، أَذْهَبَتِ الخُفَّ والظِّلْفَ ، فاسْمَعَنَّ اللهم وَأَمْطِرَنَّ عَلَيْنَا غَيْثاً مُزْبِئاً مُغْدِقاً » . تقول رقيقة : فورَبَّ الكعْبَةِ ما رامُوا حتى تَفَجَّرَتِ السَّيَاءُ بِمائها ، وَكَظَّ الوادِى بِشَجيجِهِ ، فسمعتُ شَيْخانَ قُرَيْشٍ وَجَلَّتْها : عبدُ الله بنُ جُدعانَ ، وَحَزَبَ بنُ أُمَيَّةَ ، وهشامُ بنُ المغيرة ، تقول لعبدِ المطلب : هنيئاً لك أبا البَطْحاءِ » . وفى ذلك تقول رقيقة :

= والدَّفِيفُ : المرُّ السَّريع ، وقد دَفَّ يَدْفُ .
 والسَّعْيُ : فوق المشى ، ودَوْنُ العَدُو .
 والمَهْلُ بالإسكان : الثُّؤَذَةُ والثَّائِي .
 والمَهْلُ ، بالتحريك : التَّقْدُمُ .
 واستَكَفُّوا به : أخذوا به وصاروا حَوْلَهُ ، من الكِفَّةِ - بالكسر - وهى ما كان مستديراً ، مثل كِفَّةِ الميزان .
 والجَنابُ والجَنابةُ : الجانبُ والناحية .
 واعتَصَدَ الرجلُ بالصَّبِي : إذا أخذَ بَعْضِيهِ وَزَقَعَهُ .
 والعاتِقُ : أعلى الكَتِفِ إلى صفحة العُنُقِ .
 والعِيداءُ - بكسر العين والباء وتشديد الدال والمد والقصر - العَيْدُ ، جمع عَيْدٍ .
 والعَلْدِراتُ : جمع عَدْرَةٍ ، وهى فِئاء البيت .
 والسَّنَةُ : الجَلَدُ .
 والخُفُّ للبعير : كالحافر للفرس ، وأرادت ذوات الخُفِّ .
 والمُزْبِئُ : المطرُ الدائمُ المقيم ، المُغْنى عن الارتياحِ لعمومه .
 والمُغْدِقُ : الواسعُ الكثير .
 وما رامُوا : أى ما تَرَجَّحُوا وما زالُوا ، وقد رامَ يَريمُ : إذا فازَ ، ولا يكادُ يستعمل إلا فى النفى .
 وَكَظَّ الوادِى واكتظَّ : إذا امتلأَ .
 والشَّجِيجُ : الماءُ المصبوبُ التَّدْفِقُ ، فَعِيلٌ بمعنى مفعول .
 وإنَّما قالوا لعبدِ المطلب : أبو البطحاء - وهى صحراء مكة ونواحيها - لأنَّ أهلها عاشوا به ، وباستسقائه ، كما يُقال للمِطْعَمِ : أبو الأضياف .

بَشِيَّةِ الْحَمْدِ أَسْقَى اللَّهَ بَلَدَنَا
فَجَادَ بِالمَاءِ جَوْنِي لَهُ سَبَلٌ
مَنَا مِنَ اللَّهِ بِالمِيمُونِ طَائِرُهُ
مُبَارَكُ الْوَجْهِ يُسْتَسْقَى الْغَيْمُ بِهِ
وَقَدْ فَقَدْنَا الْحَيَا وَاجْلَوَدَ الْمَطَرُ
سَحَا فَعَاشَتْ بِهِ الْأَنْعَامُ وَالشَّجَرُ
وَخَيْرَ مَنْ بُشِّرَتْ يَوْمًا بِهِ مُضَرُّ
مَا فِي الْأَنَامِ لَهُ عِذْلٌ وَلَا خَطَرُ

يورد محمد بن يوسف الشامي الصالحى هذا الخبر الذى يصور جانباً من صفات الرسول ﷺ وهو فى مستهل صباه (١):

ذكر أبو هاشم محمد بن ظَفَرٍ فى «خَيْرِ الْبَشَرِ بِخَيْرِ الْبَشَرِ» : حَجَّ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفَى حَكِيمُ الْعَرَبِ ، وَالنَّبِىُّ ﷺ فى سَنِ الْحُلُمِ ، فَرَأَاهُ أَكْثَمُ ، فَقَالَ لِأَبِى طَالِبٍ : مَا أَسْرَعَ مَا شَبَّ أَخُوكَ ! فَقَالَ : لَيْسَ بِأَخَى وَلَكِنَّ ابْنَ أَخَى عَبْدِ اللَّهِ ، فَقَالَ أَكْثَمُ : أَهْوِ ابْنَ الدَّبِيحِينَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَجَعَلَ يَتَوَسَّمُهُ ثُمَّ قَالَ لِأَبِى طَالِبٍ : مَا تَظُنُّونَ بِهِ ؟ قَالَ : نَحْسَنُ بِهِ الظَّنَّ ، وَإِنَّهُ لَوْفَى سَخَى . قَالَ : هَلْ غَيْرَ هَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، إِنَّهُ لَذُو شِدَّةٍ وَلِينٍ ، وَمَجْلِسُ رَكِيْنٍ ، وَفَضْلُ مَتِيْنٍ (تَلَاخِظْ بِلَاغَةِ أَبِى طَالِبٍ) . قَالَ : فَهَلْ غَيْرَ هَذَا ؟ قَالَ : إِنَّا لَتَتِمِّينَ بِمَشْهَدِهِ ، وَنَتَعَرَفُ الْبَرَكَةَ فِيمَا لَمَسَهُ بِيَدِهِ . فَقَالَ أَكْثَمُ : أَقُولُ غَيْرَ هَذَا ، إِنَّهُ لَيَضْرِبُ الْعَرَبَ قَامِطَةً - يَعْنِى جَامِعَةً - بِيَدِ حَائِطَةٍ ، وَرِجْلُ لَائِطَةٍ ، ثُمَّ يَنْعَقُ بِهِمْ إِلَى مَرْتَعٍ مَرِيعٍ ، وَوَرْدٍ سَرِيعٍ ، فَمِنْ اخْرُورِطٍ إِلَيْهِ هَدَاهُ ، وَمِنْ اخْرُورِ عَنْهُ أَرَدَاهُ .

وفى تعففه ﷺ عن المشاركة فى عادات الجاهلية تقول أم المؤمنين عائشة - رضى الله

وَسَقَى وَأَسْقَى بِمَعْنَى ، وَقِيلَ : سَقَيْتُهُ لِسَقَاتِهِ ، وَأَسْقَيْتُهُ لِمَاشِيَتِهِ وَأَرْضِيهِ .

وَاجْلَوَدَ الْمَطَرُ : أَيْ ذَهَبَ وَقَلَّ ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْجَلَوْدِ فى السَّيْرِ : إِذَا أَسْرَعَ .

وَالْجَوْنِيُّ : مَنْسُوبٌ إِلَى الْجَوْنِ ، وَهُوَ الْأَسْوَدُ أَوِ الْأَبْيَضُ ، يَعْنِى مَطَرًا جَاءَ مِنْ سَحَابٍ أَسْوَدَ أَوْ أَبْيَضَ .

وَالسَّبَلُ - بِالتَّحْرِيكِ - الْمُسَبَّلُ ، وَقَدْ أَسْبَلَتْ السَّمَاءُ : إِذَا هَطَلَتْ .

وَالسَّحُّ : الدَّافِقُ الْمُسْتَابِعُ .

وَالْمِيمُونُ طَائِرُهُ : أَيْ الْمُبَارَكُ الْمُقْبِلُ السَّعِيدُ . وَهُوَ مِنَ التَّيْمُنِ بِالتَّحْرِيكِ ، وَغَيْدُهُ التَّشَاوُمُ بِالتَّحْرِيكِ الْبَارِحِ . وَتُرِيدُ بِهِ

النَّبِىَّ ﷺ .

وَالْعِذْلُ : الْمَثَلُ وَالنَّظِيرُ ، وَقَدْ تَكَسَّرَ عَيْنُهُ وَتَفَتَّحَ .

وَالْخَطَرُ - بِالتَّحْرِيكِ - الْقَدَرُ وَالْمَنْزِلَةُ ، وَهَذَا خَطَرٌ لِهَذَا وَخَطِيرٌ : أَيْ مِثْلُهُ فى الْقَدَرِ .

(١) سبل الهدى والرشاد ٢ / ١٨٩ .

عنها - : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يعيب كل ما ذبح لغير الله ، فما ذقت شيئاً ذبح على النصب حتى أكرمنى الله برسالته »^(١).

وأما مكارم الفعال وجلائل الأعمال وخطير الاجتماعات والمسارة إلى عمل المروءات فكان محمد الشاب يحرص عليها ويسهم فيها ، وإن قصة إعادة بناء الكعبة والاختلاف عن أى القبائل يضع الحجر الأسود فى مكانه من ركن البيت معروفة ، فلما أن اتفقوا على أن يضعه أول قادم ، وكان ذلك القادم هو الشاب محمد بن عبد الله استبشر الأقسام خيراً ، وقرؤا عينا ، فإن إجماعهم على حب محمد وتقديرهم لطهارة نفسه ونقاء ثوبه جعلهم يسندون الأمر إليه ، وكان ما كان من فرشه ثوبه ووضع الحجر الأسود فى وسطه ، ثم طلب من كل قبيل أن يمسك طرفاً من الثوب ، ويرفعوه إلى مستوى مكانه من البيت ، ثم أخذه بيده الكريمة ووضع فى مكانه المعروف منذ أن رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل إلى يومنا هذا وإلى يوم يبعثون .

ويدخل فى إسهامه ﷺ فى كريم الفعال ومشاركته فى الخطير من الاجتماعات شهوده حلف الفضول ، والإشادة بهذا الحلف والتنويه بفضلله .

يروى جبير بن مطعم -رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أحبُّ أن لى به حُمْر النِّعم ، ولو دعى به فى الإسلام لأجبت »^(٢).

كان هذا الحلف فيما روى محمد بن يوسف الصالحى^(٣) فى ذى القعدة قبل المبعث بعشرين سنة مُنْصَرَف قريش من الفِجَار ، ولرسول الله ﷺ يومئذ عِشْرُونَ سنة . وكان أكرم حِلْف سُمِع به وأشرفه فى العرب .

وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وكان سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاصى بن وائل السَّهمى ، وكان ذا قَدْر وشرف بمكة ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدئى الأحلاف : عبد الدار

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم ، صفحة ١٤٦ .

(٢) السيرة لابن هشام ١ / ١٣٤ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٢ / ٢٠٨ .

ومخزوما وجمحا وسهما ، فأبوا أن يعينوا الزبيدي على العاصي بن وائل وزبروه ونهروه ،
فلما رأى الزبيدي الشرّ رقى على أبي قُبَيْس عند طلوع الشمس وقريش في أندية حول
الكعبة فقال بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته يبتن مكة نائي الدار والنفر
ومُخرم أشعث لم يقض عُمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر
إنّ الحرام لمن تمّت مكارمه ولا حرام لشوب الفاجر الغدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال : ألهذا مترك ؟ فاجتمعت هاشم وزُهرة
وتيمّ في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاما ، فحالفوا في القعدة في شهر حرام
قياما فتعاقدوا وتعاهدوا ليكوننّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه
ما بلّ بحر صوفة وما رَسَا جزاء وثبير مكانها ، وعلى التآسي في المعاش . فسَمَّت
قريش ذلك الحلف حلف الفضول وقالوا : لقد دخل هؤلاء في فضول من الأمر . ثم
مشوا إلى العاصي بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه .

وقيل في سبب تسمية هذا الحلف بحلف الفضول أن كان قد سبق قریشا إلى مثل
هذا الحلف جرهم في الزمن الأول فتحالف منهم ثلاثة هم ومن تبعهم ، أحدهم :
الفضل بن فضالة . والثاني : الفضل بن وداعة . والثالث : الفضل بن الحارث . هذا
قول القُتَيْبِي . وقال الزبير : الفضل بن شراة ، والفضل بن قضاة ، فلما أشبه حلف
الآخر فَعَلَ هؤلاء الجرهميين سُمِيَ حلف الفضول ، والفضول : جمع فُضِل ، وهي
أسماء أولئك الذين تقدم ذكرهم .

وهناك قول آخر في هذا الشأن رواه الحميدي عن سفيان عن عبد الله بن محمد وعبد
الرحمن بن أبي بكر قالوا : قال رسول الله ﷺ : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان
حلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت ، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها ، ولا يعز
ظالم على مظلوم » (١) .

(١) سبل الهدى والرشاد ٢ / ٢٠٩ عن السهيلي .

إن رواية الحديث على هذا النسق توضح لماذا سمي الحلف بحلف الفضول .

كان محمد ﷺ طفلاً بينما توفي أبوه إبان حمل أمه به ، كفله جده عبد المطلب منذ مولده ثم كفله عمه أبو طالب بعد وفاة جده ، ومن ثم لم يكن صاحب مال ، ولكنه كان بقومه عزيز الجنب ، وبسلوكه فتى قريش الذي لا يرجحه شاب آخر ، وقد صور عمه أبطالب مقام ابن أخيه أجمل تصوير وأبلغه حين تقدم بخطب خديجة لمحمد قائلاً^(١):

« الحمد لله الذى جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد بن عبدالله ابن أخى من لا يوازن به فتى فى قريش إلا رجح عليه براً وفضلاً ، وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونبلاً ، وإن كان فى المال قُلٌّ ، فإنها المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببت من الصداق فعلى » .

تلك كانت شمائل محمد ﷺ فى صباه وقبل المبعث : سلوكه إرهابى بنبوته ، وخلقه يرشحه لمكانته ، وأدبه يبشر برسالته .

إن أم المؤمنين خديجة الكبرى تصف الرسول ﷺ حين أخبرها بخبر الوحى ، ووصف نزول جبريل عليه وقال لها : « لقد خشيت على نفسى » فقالت - رضى الله عنها - تسرى عنه وتطيب خاطره وتثبت جأشه : « كلاً ، والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر » ثم أتت به بعد ذلك ابن عمها « ورقة بن نوفل » على النحو الذى فصلته كتب السيرة .

بهذه الكلمات الشديدة الإيجاز ، البعيدة الأعماق النبيلة المرامى ، وصفت أم المؤمنين خديجة محمداً أكمل وصف ، وصورته أصدق تصوير فى إيمان كامل بكل كلمة قالتها ، وكل لفظ نطقت به ، فلقد كانت تلك النعوت بعض أوصاف محمد ﷺ .

(١) صبح الأعشى ١ / ٢١٣ .

بعد المبعث :

إن محمدا الإنسان هو نفسه محمد الرسول المختار ، إن خلائقه وشأئله من جود وشجاعة وتقوى وحياء وأمانة وصدق وعفة وتصون وحب للناس وصلة للرحم ، كل أولئك وأكثر قد تجمعت في محمد الرسول وتحققت زبدتها في شخصه العظيم .

هذا عبد الله بن عباس حبر هذه الأمة يصف رسول الله عن خبر به فيقول : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه كل ليلة في رمضان فيدارسه القرآن » ثم يمضى ابن عباس قائلا : فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة .

وعن نسبه ومكانته بين بنى آدم يقول ﷺ :

« إن الله - عز وجل - اختار خلقه ، فاختار منهم بنى آدم ، ثم اختار بنى آدم فاختار منهم العرب ، ثم اختار العرب فاختار منهم قريشا ، ثم اختار قريشا فاختار منهم بنى هاشم ، ثم اختار بنى هاشم فاختارنى منهم ، فلم أزل خيارا من خيار ، ألا مَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ فَحَبِّى أَحَبَّهُمْ ، وَمَنْ أَبْغَضَ الْعَرَبَ فَبِغْضِى أَبْغَضَهُمْ » (١).

ومن المواقف الجليلة التى وُصِفَ خلالها النبى ﷺ ذلك الموقف الذى وقفه أبوسفیان ابن حرب أمام قيصر لكى يستقضى فيه قيصر بعض خبر النبى ، وكان قد تسلم رسالة من الرسول ﷺ حملها دحية الكلبي ليسلمها إلى عظيم بصرى ، ليقوم هذا الأخير بدفعها إلى قيصر ، وكان قيصر آنذاك قد كتب له النصر في حربه مع الفرس ، فسار من حمص إلى إيلياء (اسم من أسماء بيت المقدس) في رحلة شكر لله على نصره إياه على جند فارس ، فلما أن تسلم قيصر كتاب رسول الله ﷺ قال حين قرأه : التمسوا لى هاهنا أحداً من قومه ، ولم يكن هذا الواحد غير أبى سفيان صاحب العداوة الشديدة لرسول الله ، فقد كان إذ ذاك على الكفر ، فهو لم يسلم إلا في فتح مكة في قصة معروفة .

(١) الشفا للقاضى عياض ، ص ٤٨١ رواه الطبرانى عن ابن عمر .

وها نحن ننقل الخبر كما رواه ابن عباس مستمداً من أبي سفيان نفسه. قال ابن عباس: (١) « أخبرني أبو سفيان أنه كان بالشام في رجال من قريش قدموا للتجارة في المدة التي كانت بين النبي ﷺ وبين كفار قريش . قال أبو سفيان : فَوَجَدْنَا رَسُولَ قيصِر ببعض الشام ، فانطلق بنا حتى قدمنا إيلياء ، فأدخلنا عليه ، فإذا هو جالس في مجلسه وعليه التاج وحوله عظماء الروم . فقال لترجمانه : سلهم أيهم أقرب نسبا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ قلت : أنا أقربهم إليه نسبا . قال : ما قرابة ما بينك وبينه؟ قلت : هو ابن عمي . قال - أي : أبو سفيان لابن عباس - : وليس في الركب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري ، قال : أدنوه مني ، ثم أمر بأصحابي فجعلهم خلف ظهري عند كتفي ، ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه : إني سأثله عن هذا الذي يزعم أنه نبي ، فإن كذب فكذبوه .

قال أبو سفيان : والله لولا الحياء يومئذ أن يَأْتُرَ عني أصحابي الكذب لكذبت عنه ، ثم قال لترجمانه : قل له : كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول أحد منكم قبله ؟ قلت : لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا ، قال : فهل من آبائه مَنْ مَلَكَ ؟ قلت : لا ، قال : فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم ، قال : فيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون ، قال : فهل يرتد أحد سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا ، قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن الآن منه في مدة - يشير إلى المدة التي قاضاهم النبي ﷺ عليها يوم الحديبية وآخرها يوم الفتح - ونحن نخاف منه أن يغدر ، ولم يكن كلمة أُدْخِلَ فيها شيئا أَنْتَقِصُ به لا أخاف أن تؤثر عني غيرها . قال : فهل قاتلتموه وقاتلكم ؟ قلت : نعم ، قال : فكيف حربكم وحربه ؟ قلت : كانت دولا وسجالا ، يدال علينا المرة ، ويدال عليه الأخرى ، قال : فماذا يأمركم به ؟ قلت : يأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ، قسم المغازي ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

قال : - أى : أبو سفيان - فقال لترجمانه : قل له : إني سألتك عن نسبه فيكم فرزعت أنه ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك : هل قال هذا القول أحد منكم قبله ؟ فرزعت أن لا . فقلت : لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتى بقول قد قيل قبله ، وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فرزعت أن لا ، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك : هل كان من آباءه من مَلَك ؟ فرزعت أن لا ، فقلت : لو كان من آباءه ملك قلت : رجل يطلب ملك آباءه ، وسألتك : أشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فرزعت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل . وسألتك : هل يزيدون أم ينقصون ؟ فرزعت أنهم يزيدون . وكذلك الإيمان حتى يتم . وسألتك : هل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فرزعت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخلط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد ، وسألتك : هل يغدر ؟ فرزعت أن لا . وكذلك الرسل لا يغدرون ، وسألتك : هل قاتلتموه وقتلكم ؟ فرزعت أن قد فعل وأن حربكم وحربه يكون دولا ، وكذلك الرسل تبلى وتكون لها العاقبة ، وسألتك : ماذا يأمركم به ؟ فرزعت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة . وهذه صفة نبي قد كنت أعلم أنه خارج ، ولكن لم أظن أنه منكم ، وإن يكن ما قلت حقا ، يوشك أن يملك موضع قدمي هاتين ، ولو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت لقيته - أى : لقاءه - ولو كنت عنده لغسلت قدميه .

قال : ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ وأمر به فقريء ، فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلِمَ تَسْلَمَ ، وأَسْلِمَ يُوْتِكَ الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين (*) »

﴿ قُلْ يَا هَلْ أَكْتَبَ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا

(*) الأريسيون هم فلاحو السواد ، مفردة : أريس ، وقيل : هم قوم من المجوس غير أنهم لا يعبدون النار ، ويزعمون أنهم على دين إبراهيم - عليه السلام - وقيل : إنه نسبة إلى فرقة تعرف بالأريسية في هرط هرقل ، وقيل غير ذلك .

اللَّهُ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا
فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١﴾

قال أبو سفيان : « فلما أن قضى مقالته علت أصوات الذين حوله من عظماء الروم
وكثر لغتهم ، فلا أدري ما قالوا ، وأمر بنا فأخرجنا ، فلما أن خرجت مع أصحابي
وخلوت بهم قلت : لقد أمر أمر ابن أبي كبشة (***) هذا ملك بنى الأصفر يخافه .

قال أبو سفيان : والله ما زلت ذليلاً مستيقناً بأن أمره سيظهر حتى أدخل الله قلبي
الإسلام وأنا كاره » .

إن وصف المرء بالشئال - فضلاً عن ذروة الشئال - يكون عادة من أصحابه ، أو
من قوم ليسوا بالأصحاب ولا بالأعداء ، أما أن يحىء الوصف بقمة المحامد وذروة
المكارم من عدو ، يزجى هذه الأوصاف مؤمناً بها وإن كان كارهاً لذكرها ، فهذا هو
الأمر العجيب ، إن أبا سفيان وهو في شدة عداوته لمحمد وذروة كراهيته للإسلام يقرر
في إجاباته لقيصر أن محمداً ذو نسب ، وأنه الصادق غير الكاذب ، وأن أحداً لا يدخل
دينه ثم يخرج منه ، وأنه صادق العهد لا يغدر ، وأنه شجاع في الحرب ، وأنه يأمر
بعبادة الله لا يُشركُ به شيء ، وينهى عن عبادة الأصنام ، ويأمر بالصلاة والصدق
والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وأين يحدث ذلك ؟ يحدث عند قيصر وكبار
رجال دولته من حوله ، ولا يجد قيصر حرجاً في أن يمتدح محمداً ، بل يستخرج هذه
الشهادة الجليلة بشئال محمد ﷺ من قلب مشرك لم ينشر صدره للإسلام إلا في وقت
متأخر .

وما دمننا بسبيل تسجيل أوصاف رسول الله ﷺ فإن من أدقها تناولا وأكثرها شمولاً
وصف هند بن أبي هالة التميمي ابن السيدة خديجة حين سأله ابن أخته الحسن : (١)

قال الحسن بن علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - : سألت خالي هند بن أبي هالة

(***) أمر أمره يعني عظم شأنه ، وابن أبي كبشة أراد به النبي ﷺ على سبيل النبل منه ، فقد ورد في الأخبار أن أبا كبشة
رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان فعبد الشعري ، فنسبوه إليه للاشتراك معه في مطلق المخالفة في
دينهم .

(١) منال الطالب في شرح طوال الغرائب ، لمجد الدين بن الأثير ١ / ١٦٨ .

التميمي عن حلية النبي ﷺ وكان وصافاً له ، وأنا أشتهى أن يصف لي منها شيئاً لعلّي أتعلّق به .

فقال : « كان رسول الله ﷺ فخماً مُفخّماً ، يتلأأ وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع ، وأقصر من المشدّب ، عظيم الهامة ، رجّل الشعر ، إن انفردت عقيصته فرق ، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفرّه ، أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزجّ الحواجب ، سوايح في غير قرن ، بينهما عرق يدّره الغضب ، أفنى العرين ، له نور يعلّوه ، يحسبه من لم يتأمله أشمّ ، كث اللحية ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، أشنب ، مُفلّج الأسنان ، دقيق المسرّبة ، كأنّ عنقه جيد دُمية في صفاء الفضة ، مُعتدل الخلق ، بادناً متماسكاً ، سواء البطن والصدر ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس ، أنور المتجرد ، موصول ما بين اللبة والسرّة بشعر يجري كالخطّ ، عارى الثديين والبطن ممّا سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعلى الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، سبط القصب ، شئن الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، مُحصان الأخصين ، مسيح القدمين ، ينبؤ عنهما الماء ، إذا زال قلّماً ، يخطو تكفّناً ، ويمشى هوناً ، ذريع المشية ، إذا مشى كأنها ينحطّ من صعب ، وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جُلّ نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسّلام . »

قلت : صف لي منطقه .

قال : « كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكّت ، لا يتكلّم في غير حاجة ، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه ، ويتكلّم بجوامع الكلم ، فضلاً لا فضول ولا تقصير ، دميئاً ليس بالجاف ولا المهين ، يُعظّم النعمة وإن دقّت ، ولا يدّم منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يدّم ذواقاً ولا يمدّحه ولا تغضبه الدنيا ، ولا ما كان لها ، فإذا تُعوطى الحق لم يعرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، لا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلّها ، وإذا تعجّب قلبها ، وإذا تحدّث اتّصل بها ، فيضرب بباطن راحته اليمنى بباطن إبهامه اليسرى ، فإذا

غَضِبَ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ ، وَإِذَا فَرِحَ غَضَّ طَرْفَهُ ، جُلَّ ضَحِكُهُ التَّبَسُّمُ ، وَيَقْتَرُّ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الْغَمَامِ .

قال الحسن : فَكَتَمْتُهَا الْحُسَيْنَ زَمَانًا ، ثُمَّ حَدَّثْتُهُ فَوَجَدْتُهُ سَبَقَنِي إِلَيْهِ ، فَسَأَلَهُ عَمَّا سَأَلْتَهُ ، وَوَجَدْتَهُ قَدْ سَأَلَ أَبَاهُ - يَعْنِي عَلِيًّا كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - عَنْ مَذْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ وَشَكْلِهِ ، فَلَمْ يَدْعُ مِنْهُ شَيْئًا . فَقَالَ : « كَانَ دُخُولُهُ لِنَفْسِهِ مَأْذُونًا لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَكَانَ إِذَا أَوَى إِلَى مَنْزِلِهِ جَزَاءً دُخُولُهُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءَ : جِزَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَجِزَاءَ أَهْلِهِ ، وَجِزَاءَ لِنَفْسِهِ ، ثُمَّ جِزَاءَ جُزْءِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، فَيَرُدُّ ذَلِكَ عَلَى الْعَامَّةِ بِالْخَاصَّةِ ، وَلَا يَدْخُرُ عَنْهُمْ شَيْئًا . » وَذَكَرَ دُخُولَ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ فَقَالَ : « يَدْخُلُونَ رُؤُودًا ، وَلَا يَفْتَرِقُونَ إِلَّا عَنْ دَوَاقٍ ، وَيَخْرُجُونَ أَدِلَّةً . »

وَذَكَرَ مَجْلِسَهُ فَقَالَ : « مَجْلِسُ حِلْمٍ وَحَيَاءٍ وَصَبْرٍ وَأَمَانَةٍ ، لَا تُرْفَعُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ ، وَلَا تُؤَبَّنُ فِيهِ الْحُرْمُ ، وَلَا تُثْنَى فَلَتَاتُهُ ، إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جِلْسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِهِمُ الطَّيْرُ ، فَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا ، كَانَ دَائِمُ الْبِشْرِ ، سَهْلُ الْخُلُقِ ، لَيِّنُ الْجَانِبِ ، لَيْسَ بِقَطْطٍ وَلَا غَلِيظٍ ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا فَحَّاشٍ وَلَا عَيَّابٍ وَلَا مَدَّاحٍ ، وَلَا يَقْبَلُ الثَّنَاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِئٍ (١) » (*) .

(١) منال الطالب في شرح طوال الغرائب ، لمجد الدين بن الأثير ١ / ١٦١ ، ١٦٢ .
(*) حلية النبی : صفته . المربع : المعتدل القامة . المشدب : الطويل البائن الطول . الهامة : الرأس ، وعظم الرأس دليل على وفور العقل . الشعر الرّجل : الذي ليس شديد الجموعة ولا شديد السبوبة بل بينهما . العقيصة : الشعر المجموع كهيئة المضفور . وقيل : هي الخصلة من الشعر إذا عُقِصَتْ . الانفراق : الفصل بين الشيئين ، أى : كان لا يفرق شعره . وفرة : أعفاه من الفرق . شحمة الأذن : طرفها الأسفل . اللون الأزهر : الأبيض المضيء . الزنجب : دقة الحاجبين وسبوغهما إلى آخر العين مع تقوس خلقة ، القرن - بفتحتين - : أن تلتقى طرفاهما مما يلي أعلى الأنف ، وهو غير محمود عند العرب ويستحبون البلج - بفتحتين - وهو بياض ما بين رأس الحاجبين وخلوه من الشعر . السوابغ : جمع سابغ ، وهو الطويل التام . العرنين : الأنف . القنا : طول الأنف ودقة أرنبته مع ارتفاع في وسط قصبته . الشمم : ارتفاع رأس الأنف . سهل الخدين : ليس فيهما نترة وارتفاع . الضليع الفم : العظيم الواسع . الشنب : رقة الأسنان ودقتها وتحديد أطرافها . الفلج : تباعد ما بين الثنايا والرباعيات ، الفرق - بفتحتين - فرجة بين اللثتين . المسربة - بضم الراء - : ما دق من شعر الصدر سائلا إلى السرة . البادن : الضخم التام اللحم . الكراديس : جمع كردوس ، وهو رأس كل عظم كبير وملتحق كل عظمين ضخمين كاللثيين والمرفقين . اللبّة - بالفتح - : الوهدة التي في أعلى الصدر في أسفل الحلق . الشثن : الغليظ الأطراف والأصابع . السبط : الممتد في استواء . الأخص من القدم : الموضع الذي لا يصل إلى الأرض منها عند الوطء ، مسيح القدمين : أى ظاهرهما =

كان ذلك وصف هند بن أبى هالة للنبي ﷺ طبقاً لما رواه له الحسن ابن أخته - الزهراء فاطمة - وكان الحسن قد سأل خاله هنداً عن صفة النبي ﷺ وكان هند وصافاً ، وقد رأينا ملحفاً مختصراً ببعض صفات النبي ذكرها أمير المؤمنين على بن أبى طالب لولده الحسين رضى الله عنه . وها نحن نثبت وصفاً طبقاً لما نعت به على بن أبى طالب - كرم الله وجهه (١) :

« لم يكن بالطَّويل المُمَغَط ، ولا القصير المتردّد ، كان ربعةً من القوم ، ولم يكن بالجعد القطط ولا السَّبَط ، كان جعداً رجلاً ، ولم يكن بالمطهم ولا المكثم ، أبيض مشرب أذعج العينين ، أهدب الأشفار ، جليل المشاش والكتد ، أجرد ، شثن الكفين والقدمين ، دقيق المسربة ، إذا مشى تقلّع ، كأنما يمشى فى صلب ، وإذا التفت التفت معاً ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو خاتم النبيين ، أجود الناس كفّاً ، وأرحب الناس صدرّاً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس بدمّة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة . من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه . يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله . »

= مسح غير متعقد . إذا زال زال قلماً : يعنى قالعا لرجله من الأرض ، وفى حديث آخر : « كأنما ينحط من صلب » والآنحدار من الصبب . التكفو : تمايل الماشى إلى قدام كما تتكفأ السفينة والغصن إذا هبت الريح . الهون - يسكون الوار - : المشى فى رفق ولين . الدرير : السريع . الملاحظة : أن ينظر الرجل بلحظ عينه - وهو شقها الذى يلى الصدغ والأذن . يسوق أصحابه : يقدمهم أمامه ويمشى وراءهم . طويل السكت : يعنى طويل السكوت . الأشداد : جمع شديق ، وهو جانب الفم . جوامع الكلم : القليلة الألفاظ الكثيرة المعانى ، ومنه الحديث : « أوتيت جوامع الكلم » يعنى القرآن . الدمث : السهل اللين الخلق ، وأصله من الدمث وهو الأرض اللينة السهلة . الجافى : المعرض المتباعد عن الناس ، من الجفاء . المهين : - بضم الميم وفتحها - فالضم من الإهانة ، أى : لا يبين أحداً ، والفتح من المهانة ، وهى الحقارة والصغر . الدواق : اسم ما يداق باللسان ، أى : لا يصف الطعام بطيب ولا بشاعة . إذا تعوطى الحق لم يعرفه أحد : أى إذا نيل من الحق أو تعرض للقدح فيه تنكر عليهم وخالف عادته معهم حتى لا يكاد يعرفه أحد منهم . الجزء الذى لله : اشتغاله بعبادته ومناجاته فى ليله ونهار . الجزء المختص بأهله : هو الوقت الذى يصحبهم ويعاشرهم فيه ، الجزء المختص بنفسه : هو الجزء الذى لا يتعبده فيه ولا يعاشر أهله ، فقسمه قسمين بينه وبين الناس .

الرواد : جمع رائد ، وهو الذى يتقدم القوم يكشف لهم حال الماء والمرعى قبل وصولهم إليه . يخرجون أدلة : جمع دليل ، أى : يدلون الناس بما قد علموه منه وعرفوه . لا يفترون إلا عن ذواق : أى : لا يفترون إلا عن علم يتعلمونه يقوم لهم مقام الطعام والشراب . لا تؤبن فيه الحرم : أى لا تقلد ولا ترمى بعب ، والحرم : جمع حرمة ، وهى المرأة وما يلزم الإنسان حفظه وصونه . لا تنشئ فلناته : لا يتحدث عن مجلسه بهفوة أو زلة ، يقال : نشئت الحديث فأنشأه أنشأه : إذا أذعته . السخاب : فقال من السخب وهو الضجة واضطراب الأصوات ، ويرى بالسبين والصاد .

(١) المصدر السابق ١ / ١٧٤ .

زاد في رواية أخرى « كان ضَخَمَ الرأس ، عَظِيمَ العينين ، كَثَّ اللَّحْيَةُ ، أَزْهَرَ اللَّوْنَ ، أَبْيَضَ ، مُشْرَباً بَيَاضَهُ حُمْرَةً ، أَسْوَدَ الْحَدَقَةَ ، لَا قَصِيرَ وَلَا طَوِيلَ ، وَهُوَ إِلَى الطَّوْلِ أَقْرَبُ ، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ ، وَلَا الطَّوِيلِ الْمُتَشَنَّى ، وَلَا الْقَصِيرِ الْفَاحِشِ ، شَعْرُهُ إِلَى شَحْمَةِ أُذُنِهِ ، عَرِيضَ الْجَبْهَةِ ، مُقَلَّجَ الشَّيَا ، أَسِيلَ الْحَدِّ ، عَلَى شَفْتِهِ السُّفْلَى خَالٌ ، كَأَنَّ عُنُقَهُ إِبْرِيْقُ فِضَّةٍ ، بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ ، كَأَنَّ كَفَّهُ مِنْ لَيْنِهَا مَسٌّ أُرْتَبَ ، كَأَنَّ عَرَقَهُ اللَّوْلُؤُ ، وَإِذَا جَاءَ مَعَ الْقَوْمِ غَمَرَهُمْ ، وَإِذَا ضَحِكَ تَبَسَّمَ ، لَيْسَ بِسَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ » (*) .

هذا ما رَوَى في صفته عن علي بن أبي طالب ، على اختلاف طُرُقِهِ ، بِإِسْقَاطِ الْمُتَكَرِّرِ مِنْهَا فِي الطَّرْقِ .

إِنَّ الَّذِينَ وَصَفُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَثِيرُونَ ، وَكُلُّهُمْ رَأَوْهُ رَأَى الْعَيْنِ ، فَهَذَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ خَادِمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَصِفُهُ وَقَدْ سَمِعَهُ رُبْعَةَ بَنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ (١) :

« كَانَ رُبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ ، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ ، أَزْهَرَ اللَّوْنَ لَيْسَ بِأَبْيَضٍ أَمْهَقٍ وَلَا آدَمَ ، لَيْسَ بِجَعْدٍ قَطَطٍ وَلَا سَبِطٍ رَجُلٌ ، أَنْزَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ ، فَلَبِثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سَنِينَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ ، وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سَنِينَ ، وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلَحْيَتِهِ عَشْرُونَ شَعْرَةً بَيَاضاً » .

قَالَ رُبْعَةَ : فَرَأَيْتَ شَعْرًا مِنْ شَعْرِهِ فَإِذَا هُوَ أَحْمَرٌ ، فَسَأَلْتُ ، فَقِيلَ : أَحْمَرٌ مِنَ الطَّيِّبِ .

وَقَدْ وَصَفَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، يَقُولُ مَرَّةً فِي صِفَتِهِ ﷺ : « كَانَ

(*) الْمُقَطَّعُ - بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ الثَّانِيَةِ - الشَّدِيدُ الطَّوْلُ ، وَأَصْلُهُ مِمْنَعُطٌ ، فَادْغَمْتَ النَّونَ فِي الْمِيمِ . الْمُتَرَدَّدُ : الَّذِي تَرَدَّدَ بَعْضُ خَلْقِهِ فِي بَعْضٍ فَاجْتَمَعَ بَدَنُهُ وَتَدَاخَلَ قَصْرًا . الْقَطَطُ - بِالْفَتْحِ - : هُوَ الْمُتَنَاهِي الْجَعُودَةُ . السَّبِطُ - بِالْفَتْحِ - الَّذِي لَا جَعُودَةَ فِيهِ أَصْلًا . الْمَطْهَمُ : الْمُنْتَفَخُ الْوَجْهَ . الْمَكْلَثَمُ : الْمُسْتَدِيرُ الْوَجْهَ ، وَقِيلَ : هُوَ الْقَصِيرُ الْخَنُكُ . الْمَشْرَبُ : الَّذِي خَالَطَ بَيَاضَهُ حُمْرَةً . الْأَدْعَجُ : الشَّدِيدُ سَوَادِ الْعَيْنِ مَعَ سَعْتِهَا . الْأَهْدَبُ : الطَّوِيلُ شَعْرُ الْأَجْفَانِ . الْمَشَاشُ : رَمُوسُ الْعِظَامِ كَالْمَنْكِبَيْنِ وَالْمَرْفَقَيْنِ . الْكَتَدُ - بَفَتْحِ الْكَافِ وَكَسْرِهَا - : مَا بَيْنَ الْأَكْتَافِ إِلَى الظَّهْرِ . الْعَرِيكَةُ : الْخَلْفَةُ وَالسَّجِيَّةُ .

(١) صَحِيحُ الْبَخَارِيِّ بَابُ صِفَةِ النَّبِيِّ ٢ / ١٨١ .

ربعة وهو إلى الطول أقرب ، شديد البياض ، أسود شعر اللحية ، حسن الثغر ، أهدب أشفار العينين ، بعيد ما بين المنكبين ، مفاض الخدين ، يطأ بقدمه جميعا ليس لها أخص ، يقبل جميعا ، ويدبر جميعا ، لم أر مثله قبل ولا بعد » (١).

وكان أبو هريرة ربما حدث عن النبي ﷺ فيقول : « حدثني أهدب الشفرين أبيض الكشحين ، إذا أقبل أقبل جميعا ، وإذا أدبر أدبر جميعاً ، لم تر عين مثله ولن تراه » (٢).

وفي الصحيح : « كان النبي ﷺ مربوعا ، وقد رأيت في حلة حمراء ، ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كأن الشمس تجري في جبهته » .

وقد قال حسان بن ثابت في وصفه :

وأحسن منك لم تر قط عيني

وأجمل منك لم تلد النساء

خُلِقَتْ مُبرأً من كل عيبٍ

كأنك قد خلقت كما تشاء

وتصف أم المؤمنين عائشة رسول الله ﷺ وهو يتكلم فتقول : « ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسر دكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصل ، يحفظه من جلس إليه » (*) .

وعن أذبه ﷺ يقول له أبو بكر مرة : لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك - أى : علّمك - ؟ قال : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .

وأما عن الشبيه فقد كان كل من الحسن والحسين حفيديه ﷺ يشبهانه ، يقول أبو جحيفة - رضى الله عنه - : رأيت النبي ﷺ وكان الحسن بن علي - عليهما السلام -

(١) الأدب المفرد ، الحديث رقم ١١٥٥ - الأهدب : الذى طالت أهداب عينيه وكثرت أشفاره ، مفاض الخدين ، أى : مستوى الخدين .

(٢) المصدر السابق ، الحديث رقم ٢٥٥ .

(*) السرد : متابعة الكلام على الولاء أو التوالى .

يشبهه ، وعن عقبة بن الحارث قوله : صلى أبو بكر - رضى الله عنه - العصر ، ثم خرج يمشى ، فرأى الحسين يلعب مع الصبيان ، فحمله على عاتقه وقال : بأبى شبيهه بالنبي لا شبيهه بعلى ، وعلى يضحك (١).

إن واصفى رسول الله ﷺ من الصحابة كثيرون ، مثل على بن أبى طالب وعائشة أم المؤمنين ، وأنس بن مالك ، وأبى هريرة ، والبراء بن عازب ، وهند بن أبى هالة ، وأبى جحيفة ، وجابر بن سمرة ، وأم معبد ، وعبدالله بن عباس ، ومعرّض بن معقيب ، وأبى الطفيل ، والعداء بن خالد ، وخريم بن فاتك ، وحكيم بن حزام ، وغيرهم ، ولقد جمع القاضى عياض أهم أوصافه مستعينا بكلام من أسلفنا ذكرهم وقال (٢):

« أزهو اللون ، أدعج ، أنجل ، أشكل ، أهذب الأشفار ، أبلج ، أزج ، أقنى ، أفلج ، مدور الوجه ، واسع الجبين ، كث اللحية تملأ صدره ، سواء البطن والصدر ، واسع الصدر ، عظيم المنكبين ، ضخيم العظام ، عبل العضدين والذراعين والأسافل ، رحب الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، أنور المتجرد ، دقيق المسربة ، ربعة القد ، ليس بالطويل البائن ، ولا القصير المتردد - ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاله ﷺ رَجَل الشعر ، إذا افترضا حكا افتر عن مثل سنا البرق ، وعن مثل حب الغمام (البرد) ، إذا تكلم رثى كالنور يخرج من ثنياه ، أحسن الناس عنقا ، ليس بمطهم ولا مكلثم ، متماسك البدن ضرب اللحم » .

ويذكر القاضى عياض فضل الله على سيدنا محمد ﷺ في خلقه فيشير إلى كمال خلقته ، وجمال صورته ، وقوة عقله ، وصحة فهمه ، وفصاحة لسانه ، وقوة حواسه وأعضائه ، واعتدال حركاته ، وشرف نسبه ، وعزة قومه ، وكرم أرضه .

هكذا وجدنا كثيرا من الصحابة يصفون رسول الله ، وكلهم صادق في وصفه ، فالكل متفق بعضهم مع بعض في ذكرهم أوصافه ، ولكن الأمر الجليل أن عددا من الصحابة لم يستطيعوا ذكر أوصاف رسول الله ﷺ ليس لقصور في بلاغتهم أو عيب في

(١) البخارى : ج ٢ باب صفة النبي ص ١٨٤ .

(٢) كتاب الشفا ، ص : ٣٨ .

بيانهم ، فلقد كانوا بلغاء أئيناء ، ولكن لأن رسول الله ﷺ كان من المهابة بحيث لم يجروا على إطالة النظر في وجهه الكريم ، فهذا عمرو بن العاص - وهو من هو قربا إلى رسول الله - يقول : « ما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له ولو سئلت أن أصفه ما أطق ؛ لأنني لم أكن أملأ عيني منه » .

ويروى أنس - وكان خادما رسول الله ﷺ وملازمه - « أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر ، فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر ، فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ، ويتبسمان إليه ويتبسم لهما » (١) .

وأما أخلاقه الأخروية فهي : الدين ، والعلم ، والحلم ، والصبر ، والشكر ، والعدل ، والزهد ، والتواضع ، والعفو ، والفق ، والجود ، والشجاعة ، والحياء ، والمروءة ، والصمت ، والتؤدة والوقار ، والرحمة ، وحسن الأدب والمعاشرة .

ويذكر القاضي عياض ما اختص الله به سيدنا محمدا ﷺ فيقول (٢) :

اختصه الله بفضيلة النبوة ، والرسالة ، والخلة ، والمحبة ، والاصطفاء ، والإسراء ، والرؤية ، والقرب ، والدنو ، والوحي ، والشفاعة ، والوسيلة ، والفضيلة ، والدرجة الرفيعة ، والمقام المحمود ، والبراق ، والمعراج ، والبعث إلى الأحمر والأسود ، والصلاة بالأنبياء ، والشهادة بين الأنبياء والأمم ، وسيادة ولد آدم ، ولواء الحمد ، والبشارة ، والندارة ، والمكانة عند ذي العرش ، والطاعة ، والأمانة ، والهداية ، ورحمة للعالمين ، وإعطاء الرضى والسؤل ، والكوثر ، وسماح القول ، وإتمام النعمة ، والعفو عما تقدم وتأخر ، وشرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، وعزة النصر ، ونزول السكينة ، والتأييد بالملائكة ، وإيتاء الكتاب والحكمة ، والسبع المثاني ، والقرآن العظيم ، وتركبة الأمة ، والدعاء إلى الله ، وصلاة الله - تعالى - والملائكة ، والحكم بين الناس بما أراه

(١) الشفا للقاضي عياض ٢ / ٣٠ .

(٢) الشفا ١ / ٣٨ .

الله ، ورفع الإصر والأغلال عنهم ، والقسم باسمه ، وإجابة دعوته ، وتكليم الجمادات والعُجم ، وإحياء الموتى ، وإسماع الصُّم ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير القليل ، وانشقاق القمر ، وردّ الشمس ، وقلب الأعيان ، والنصر بالرعب ، والاطلاع على الغيب ، وظلّ الغمام ، وتسييح الحصا ، وإبراء الآلام ، والعصمة من الناس .

إن محمدا ﷺ هو النبي المصطفى ، وهو الرسول المجتبي ، وإنّ اصطفاء الله له واجتباءه إياه يتطلبان بدهاء أنبل الفضائل ، وأكرم الشائِل ، وأكمل السمات ، وأجلّ الصفات ، وأرفع المواهب ، وأسمى المناقب ، ومن ثم فقد كرمه الله - تعالى - في كثير من آيات كتابه العزيز بالإطراء الإلهي حيناً ، وبالقسم بشخصه حيناً آخر ، وبالقسم على تكريمه حيناً ثالثاً .

فالله - سبحانه - يقول في مقام إطرائه ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ويقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ويقول : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴾

ويقول : ﴿ وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ وفي مقام القسم يقول الله - تعالى - : ﴿ يَس * وَالْقُرْآنُ الْحَكِيم * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ويقول : ﴿ لَا أَقِيمُ هَذَا الْبَلَدَ * وَأَنْتَ حِلُّ هَذَا الْبَلَدِ ﴾ ويقول : ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ * وَمَاقَلَى * وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَى ﴾

ولعل من أجل الأوصاف التي وصف بها رسول الله بالسنة البشر هو قول السيدة عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - : « كان خلقه القرآن ، يرضى برضاه ويسخط بسخطه » . نصر الله وجهه عائشة ، وصلى وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .



الفصل الثاني

فصاحة محمد ﷺ

فصاحة محمد ﷺ وبلاغته

فصاحة رسول الله ﷺ أمر معترف به عند العرب منذ فجر صباه ، وهو يعلم ذلك في نفسه ، مثلما يعلمه الآخرون ، ولذلك كان ﷺ يقول : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت في بنى سعد » وفي رواية : « في بنى سعد بن بكر » .

ولم يكن رسول الله ﷺ يقول ذلك على سبيل الفخر والمباهاة ، وإنما كان ذلك منه على سبيل الحقيقة والتقرير ؛ فإن فصاحة لسانه ونقاء بيانه أمران مقرران عند الخاصة فضلا عن الجمهرة ، وقد قال له أصحابه : ما رأينا الذى هو أفصح منك !! فقال ﷺ : « وما يمنعنى وقد نزل القرآن بلسانى ، لسان عربى مبين » (١) .

إن القاضى عياضا - وهو ينظر في قوله ﷺ : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت في بنى سعد » يقول : فجمع له بذلك ﷺ قوة عارضة البادية وجزالتها ، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها ، إلى التأييد الإلهى الذى مدده الوحي الذى لا يحيط بعلمه بشرى (٢) .

ويصف القاضى عياض فصاحة رسول الله ﷺ فيقول : « وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذى لا يجهل ، سلامة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معانٍ ، وقلة تكلف ، وأتى جوامع الكلم ، وخص ببدايع الحكم ، وعُلم السنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها في منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله » (٣) .

(١) الشفا للقاضى عياض ١ / ٤٧ .

(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها .

(٣) السابق ١ / ٤٤ .

وسوف يتبين لنا ذلك بوضوح كامل في الفصل الخاص بكتبه ﷺ للوفود .

وأما مصطفى صادق الرافعي إمام مدرسة الكتابة الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري فيسبح في خضم نفحات حديث « أنا أفصح العرب الحديث » ويقول : لو كان فيهم - أي : في العرب - أفصح منه لعارضوه به . ثم يستطرد قائلاً : كان مولده في بني هاشم ، وأحواله في بني زهرة ، ورضاعه في سعد بن بكر ، ومنشؤه في قريش ، ومتزوجه في بني أسد ، ومهاجرته إلى بني عمرو : وهم الأوس والخزرج ، لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة ، ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة .

ويمضى مصطفى صادق الرافعي قائلاً : فكان ﷺ يعلم كل ذلك على حقه - أي لغات العرب على اختلاف مواطنهم واشتراك اللغات وانفرادها بينهم - كأنها تكشفه أوضاع اللغة بأسرارها ، وتبادره بحقائقها ، فيخاطب كل قوم بلحنهم وعلى مذهبهم ، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطاباً ، وأسدهم لفظاً ، وأبينهم عبارة ، ولم يعرف ذلك لغيره من العرب (١) .

إن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - تصف كلامه وبيانه قائلة : « ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسر دكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس إليه » .

وهذه أم معبد صاحبة الحديث الطويل المشهور في وصف رسول الله ﷺ تصف كلامه فتقول : حلو المنطق ، فُضْل ، لا تَزُرْ ولا هَذُر ، كأن منطقهم خرزات نُظْمَن ، وكان جهير الصوت حسن النغمة ﷺ (٢) .

هكذا كان كلامه ﷺ وهكذا كان أدائه حين ينطق ، وللأداء الأمثل قواعد وأصول ، أرسى أسسها وأحكم بنيانها رسول الله ﷺ فلا تشدق ولا تردد ، ولا استعلاء ولا تفهيق ، فقد ذم هذه الخصال وقبحها ، ونبه المتحدثين إلى تجنبها في قوله ﷺ : « إن

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص ٣١٥ ، ٣١٨ .

(٢) الشفا ١ / ٤٧ .

أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة ، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » (١) .

ولقد أكثر أعرابى عنده الكلام ، فقال ﷺ له : « يا أعرابى ، كم دون لسانك من حجاب ؟ » قال : شفتاى وأسنانى . فقال ﷺ : « إن الله يكره الانبعاث فى الكلام فنضّر الله وجه امرئ قصر من لسانه واقتصر على حاجته » (٢) أى : الاندفاع فيه والإكثار .

إن أبا الحسن الماوردى يلتقط هذا الملحظ النبوى البلاغى - أو كأنه فعل ذلك - فيصف فصاحة رسول الله ﷺ بحسبانها واحدة من خصاله فيقول : كان من خصال رسول الله ﷺ أنه أفصح الناس لسانا ، وأوضحهم بيانا ، وأجزهم كلاما ، وأجزهم ألفاظا ، وأصحهم معانى ، لا يظهر فيه هجنة التكلف ، ولا يتخلله فيهقة التعسف ، وكان يقول : « أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون » وكان ﷺ يقول أيضا : « إياك والتشادق » (٣) .

ومن أجل أوصاف فصاحة الرسول ﷺ ما سطرته يراع الجاحظ فى هذا المقام إذ يقول بعد أن وصف شيئا من فن فصاحة الرسول : وأنا ذاكر بعد هذا فنا آخر من كلامه ﷺ وهو الكلام الذى قلّ عدد حروفه وكثرت معانيه ، وجلّ عن الصنعة ونزّه عن التكلف ، وكان كما قال الله - تبارك وتعالى - قل يا محمد : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ فكيف وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب التعقيب ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصود فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة ، وشُيّد بالتأييد ، ويُسّر بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول ، وجمع بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له

(١) رواه الترمذى .

(٢) أعلام النبوة ص ٢٦٦ .

(٣) المصدر السابق الصفحة نفسها .

قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يَقُمْ له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطيء ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قطّ أعمّ نفعا ، ولا أَفْصَدَ لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح من معناه ، ولا أبين في فحواه من كلامه ﷺ» (١).

ولأول مرة تقرر صفة البلاغة بصفة الفصاحة ، وذلك في بعض ما وصف به أبو الحسن الماوردي كلام رسول الله ﷺ يقول الماوردي ذاكرا بعض سمات البلاغة وصفات الفصاحة الكامنة في منطقة ﷺ: (٢).

«إن كلامه جامع لشروط البلاغة ومعرب عن منهج الفصاحة ، ولو مُزجَ بغيره لتمييز بأسلوبه ، ولظهر فيه آثار التنافر ، فلم يلتبس حقه من باطله ، ولبان صدقه من كذبه هذا ولم يكن متعاطيا للبلاغة ، ولا مخالطا لأهلها من خطباء أو شعراء أو فصحاء ، وإنما هو من غرائز فطرته ، وبداية جِبِلَّتِهِ ، وما ذاك إلا لغاية تراء ، وحادثة تشاد .

ويضيف القاضي عياض لونا آخر من فصاحة لسان الرسول ﷺ وبلاغة قوله فضلا عن نصاعة اللفظ وبراعة المنزع هو قوله : (٣)

« وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول ، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذي لا يُجْهَل ، سلاسة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معاني ، وقلة تكلف . أوتى جوامع الكلم ، وخُصَّ ببدايع

(١) البيان والتبيين ٢ / ١٧ ، ١٨ .

معاني بعض الألفاظ : التعقيب كالتعقير : هو أن يتكلم المرء بأقصى قعر فمه . الفلج - بالفتح والسكون ، وبالتحريك أيضا - : الفوز والظفر . الهمز : العيب في الغيبة . واللمز : العيب في الحاضرة . الحصر : العنى في الكلام .

(٢) أعلام النبوة ص ٢٦٨ .

(٣) الشفا ١ / ٤٤ .

الحكم . وعُلمُ ألسنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويجاوزها بلغتها ، ويباريها في منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله وليس كلامه مع قریش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ، ككلامه مع ذى المشعار الهمداني - وطهفة النهدي ، وططن بن حارثة العليمي - والأشعث بن قيس ، ووائل بن حُجر الكندي وغيرهم من أقيال حضرموت وملوك اليمن .

ومن نماذج أقواله ﷺ التي إعجازها في إيجازها فبهرت العقول ، وأذهلت الفطن ، طبقا لما ذهب إليه أبو الحسن الماوردي في وصفها - وهو أُمى من أمة أمية ، لم يقرأ كتابا ولا درس علما ، ولا صحب عالما ولا معلما - ما سطره في تعامله معها على هذا النحو الرفيع : (١)

« أتى بما بهر العقول وأذهل الفطن ، من إتقان ما أبان ، وإحكام ما أظهر ، فلم يعثر فيه بزلل في قول أو عمل ، وجعل مدار شرعه على أربعة أحاديث ، أوجز بها المراد ، وأحكم بها الاجتهاد ، أحدها قوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » والثاني قوله : « الحلال بينٌ والحرام بينٌ ، وبين ذلك أمورٌ مشتبهاة ، ومن يحمم حول الحمى يوشك أن يقع فيه » والثالث قوله : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » والرابع قوله : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

وإذا كان الماوردي قد رأى من بلاغة الرسول ﷺ أن جعل مدار شرعه على أربعة أحاديث ، فإنه قد مضى في ضرب الأمثلة لبلاغة إيجاز الرسول من واقع ذكر عدد من أقواله الشريفة التي جرت مجرى الأمثال ، وهو ما سوف نتناوله بشيء من التوسع والتفصيل في فصول قادمة إن شاء الله .

يقول الماوردي : إن من إيجازه قوله ﷺ : « الناس بزمانهم أشبه » وقوله : « ما هلك امرؤُ عرف قدره » وقوله : « لو تكاشفتهم ما تدافنتم » وقوله : « السعيد من وعِظ بغيره » وقوله : « حبك للشيء يعمى ويصم » وقوله : « العقل ألوف مألوف » وقوله : « أفضل

(١) أعلام النبوة ص ٢٦٣ ، ٢٦٦ .

الصدقة جهد المقلّ» وقوله : « اليد العليا خير من اليد السفلى » وقوله : « ترك الشر صدقة » وقوله : « الخير كثير وقليل فاعله » . وقوله : « نزلت المعونة على قدر المؤونة » .

ويتحدث القاضي عياض عن الكلام المعتاد لرسول الله ﷺ فيقول : (١)

وأما كلامه المعتاد ، وفصاحته المعلومة ، وجوامع كلمه وحكمه المأثورة ، فقد ألف الناس فيها الدواوين ، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب ، ومنها ما لا يوازي فصاحة ولا يبارى بلاغة ، كقوله ﷺ : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » وكقوله : « الناس كأسنان المشط » و « المرء مع من أحب » و « لا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له » و « الناس معادن » و « ما هلك امرؤ عرف قدره » و « المستشار مؤتمن » وهو بالخيار ما لم يتكلم » و « رحم الله عبدا قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم » وقوله : « أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين » و « إن أحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطأون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون » وقوله : « لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ، ويخل بما لا يغنيه » وقوله : « ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها . . . » وقوله : « اتق الله حيث كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » و « خير الأمور أوسطها . . . » وقوله في دعائه : « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتلئم بها شعني ، وتصلح بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكّي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وتردّ بها ألفتي ، وتعصمني بها من كل سوء ، اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ، ونزل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء » .

ويمضي القاضي عياض على رسله ضاربا المثل تلو المثل من بلاغة رسول الله ﷺ في أغراض مختلفة ، ومناسبات متباينة ، شأنه في ذلك شأن من شغفوا برسول الله حبا وبرسالته إيمانا ، وببلاغته تعلقا .

ولقد صدق القاضي في ذكر أن الناس قد أَلْفُوا في فصاحته ﷺ الدواوين ، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب ، فإنه قلما لم يهتم عالم من علماء المسلمين - فضلا عن

أواسطهم - بسنة رسول الله وحديثه الشريف ، منذ أن ألفوا الكتابة فيها إلى يومنا هذا ، وإلى يوم يبعثون .

وها نحن من الذين ينتظمون هذا الموكب الشريف حباً في رسول الله ، وإجلالا لسنته ، وطمعا في شفاعته ورغبة في بركته - صلى الله عليه وعلى آله إلى يوم الدين .

ليس من شك في أن القاضى عياضا قد تمثل نهج من ساروا قبله في هذا المضمار الشريف ، الذين حفلوا ببلاغة رسول الله ، ومنهم القاضى الماوردى الذى أسلفنا بعض انطباعاته في هذا الشأن ، وها هو يضرب بعض الأمثلة لبلاغة الرسول ﷺ ممثلة في الإيجاز^(١)، منها قوله ﷺ :

« لا تزال أمتى بخير ما لم تر الأمانة مغنما ، والصدقة مغرما » وقوله ﷺ : « رحم الله عبدا قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم »

وقوله ﷺ : « ثلاث منجيات ، وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات فخشية الله تعالى في السر والعلانية ، والاقتصاد في الغنى والفقر ، والحكم بالعدل في الرضا والغضب ، أما المهلكات فشح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

لله در رسول الله !! فما أبين وما أبلغ وما أسمى هذا القول ، إيجازا وإعجازا ، وحكمة وتنويرا !!

ومن آيات إعجازه القول وإيجازه البيانى في تربية النفس المؤمنة قوله ﷺ : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »

ومن قسم الإيجاز من بين أقواله ﷺ ذلك الحديث الشريف الذى رواه أبو حفص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وجعله النووى استفتاحا للأربعين حديثا التى اختارها من بين أحاديث رسول الله ﷺ : قال عمر - رضى الله عنه - : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله

(١) أعلام النبوة ، ص ٢٦٧ .

ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

إن هذا الحديث الشريف ليس مثالا للإعجاز البياني وحسب ، وليس طرازا للإيجاز البلاغى فقط ، مع أن كل عبارة من عباراته قمة إعجاز ومعجزة إيجاز ، ولكنه طراز لأدب التعبير وجلال الصوغ ، إن محمدا الذى أدبه ربه يلتزم الأدب الربانى فى عباراته ، فإذا كانت الهجرة إلى الله ورسوله قال : فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى أمر آخر ، مثل دنيا يصيبها ، أى : ربح ومال ومغنم ، أو إلى امرأة يريد هاله ، لم يقل ﷺ : فهجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، وإنما قال فى مضمار من أدب الإيجاز : فهجرته إلى ما هاجر إليه .

إن هذا اللون من الأحاديث الشريفة يمثل دروسا فى أدب الكلمة ، وعفة اللفظ ، ونقاء العبارة ، ودقة المحتوى ، ورقة التناول ، إن الربيع بن سليمان يقول : سمعت الشافعى يقول : يدخل هذا الحديث - يعنى حديث : إنما الأعمال بالنيات - فى سبعين بابا من الفقه .

ومن صور الإيجاز المبهـر فى حديث رسول الله ﷺ ما رواه أبو عمرو - وقيل : أبو عمرة - سفيان بن عبد الله قال : قلت يا رسول الله : قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا غيرك .

قال : « قل آمنت بالله ، ثم استقم » رواه مسلم (١) .

إن هذا الحديث الشريف واحد من النماذج النبوية الكثيرة فى الإيجاز الموصول الأسباب بالإعجاز البيانى وإعجاز المعانى ، فإن قول رسول الله فى حديثه هذا يمثل الإسلام كل الإسلام ؛ ذلك أن الإسلام إيمان بالله ، ومن آمن بالله فقد آمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر من بعث ونشور وحساب فى نطاق الثواب والعقاب وجنة

(١) الأربعون النووية ، الحديث رقم ٢١ .

ونار، ويدخل في ذلك أصلا الإيمان بمحمد رسولا ، وبالإسلام دينا ، وبالقرآن كتابا منزلا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

هذا تفسير موجز للجزء من حديث رسول الله : « قل آمنت بالله » ثم يأتي بعد ذلك بقيه الحديث الذى هو لفظ واحد يمثله فعل أمر مسبوق بحرف عطف : « استقم » إنه لفظ جامع شامل مؤداه الالتزام باتباع أوامر الله ، والانتها عما نهى عنه ، ولقد سبقنى إلى هذا المعنى جمهرة علماء المسلمين حين قالوا : معنى الاستقامة لزوم طاعة الله تعالى ، وقالوا أيضا : هى من جوامع الكلم ، وهى نظام الأمور ^(١) . فإذا تحققت الاستقامة - بعد الإيمان - فى سلوك الفرد والجماعة فى كل ما يتصل بأسباب الحياة كان ذلك محققا لوجود المجتمع الأمثل وهو مجتمع الإسلام ، وضمن المسلمون سعادة الدنيا وعزتها ، وثواب الآخرة وثمرتها .

وعن حارثة بن وهب - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتَل جَوَاطٍ مستكبر » .

إن الضعيف المستضعف الذى قصده رسول الله هو الذى يكف أذاه عن المسلمين ، ويخفف جناحه لهم ، ومن ثم يتظاهر بالضعف ويمارس سلوكه مع جمهرة المسلمين ، وأما العتَل فهو الغليظ الجافى ، والجَوَاطُ : هو الجموع المنوع ، وقيل : الضخم المختل فى مشيته ، وهذه الصفات تتنافى مع سلوك المسلم ، وبالتالي لا يكون صاحبها من أهل الجنة .

وهكذا يكون الرسول ﷺ قد عرّف أهل الجنة وأهل النار فى ألفاظ قليلة محدودة ، يعبر لفظها عن معناه ، ويحمل جرسها مرماه ، ففريق الجنة ضعيف متضعف ، وفريق النار عتَل جَوَاطٍ مستكبر .

وهكذا لا تقف فصاحة رسول الله ﷺ عند حد الكلمات المأنوسة ، ولكنها تتعدى

(١) رياض الصالحين ص ٥٣ ط : مصطفى البابى الحلبي .

ذلك إلى كلمات ؛ وإن كانت غير مأنوسة ، فهي دقيقة التعبير لفظا وبينة وجرسا .

ومن ألفاظ رسول الله ﷺ التي تحمل بنيتها معانيها ، ويشتمل جرسها على مدلولها ما رواه جابر- رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون » قالوا : يا رسول الله قد علمنا (الثرثارون والمتشدقون) فما المتفيهقون ؟ قال : « المتكبرون » (١).

يعلم رسول الله ﷺ صحابته أن الثثرة - وهى كثرة الكلام بغير هدف أو طائل - ، والتشدق - وهو التطاول على الناس في الكلام - والتفيهق ، وهو التكبر ، من مساوئ الأخلاق التي تباعد بين أصحابها وبين مجلس الرسول ﷺ مثلها في ذلك مثل بعض عظام الذنوب ، ولذلك فإن صحابة رسول الله ﷺ كانوا أقل الناس كلاما إلا فيما يكون فيه صلاح الناس ، أما تلتفهم في الكلام وتواضعهم في القول ، فكان ذلك جزءا من تكوينهم الذي نشأهم عليه الصادق الأمين .

وفي هذه المناسبة يؤثر عن أمير المؤمنين على - كرم الله وجهه - قوله : « ما ندمت على كلمة لم أقلها قط » .

هكذا ينبه رسول الله ﷺ إلى أن التقعر والتشدق والتفيهق في الكلام صفات مذمومة ، وسلوك غير محمود ، يتناقضان مع فضيلة حسن الخلق .

ومن ضروب الإيجاز المحمدي في ترغيب المسلمين إلى التزام العبادات وتحبيبها إليهم ذلك الحديث الموجز في قوله ﷺ : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » رواه مسلم .

وهكذا نرى بلاغة الإيجاز الشاملة على نورانية الترغيب وغاية التحبيب .

ولا يظن ظان - ونحن في معرض الحديث عن البلاغة النبوية في مضمار الإيجاز - أن تلك المأثرة البيانية موقوفة على الإيجاز دون الإطناب ؛ لأن فصاحته ﷺ متحققة في كل

(١) سنن الترمذي ، كتاب البر والصلة ٤ / ٣٧٠ الحديث رقم ٢٠١٨ .

جملة ، مستوفاة في كل كلام ، إيجازا واعتدالا وإطنابا ، فهذا أمر مسلم به ، وسوف نعرض له بإفاضة في باب مستقل ، ولكن لا بأس - ونحن في حديث الإيجاز - أن نضرب مثلا سريعا لبلاغة الإطناب في كلام رسول الله . قال ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » رواه مسلم .

إن رسول الله ﷺ يحض المسلمين أفرادا وجماعات على الدعوة إلى الهدى مرغبا إياهم إلى فعل ذلك في حاشية من القول النبيل الجميل ، ولو أنه اكتفى بالقول - في نطاق الترغيب - بعبارة : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه » ووقف على ذلك دون زيادة لما عدّ الكلام من ضروب الإطناب ، وكان في هذا القدر من الألفاظ كفاية لتحقيق المراد ، ولكنه ﷺ بما جبل عليه من قمة الفصاحة وذروة البلاغة أكمل العبارة بهذا القول المؤكد لمعناه في سلاسة من القول وحكمة من الصوغ : « لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا » وهنا يكون الإطناب ، ولكنه إطناب بليغ أكد المعنى المراد بجملة خفيفة على السمع ، سريعة الانسياب إلى القلب ، فورية القبول من النفس ، وبنفس المعيار يمكن تطبيق ذلك على النصف الثاني من الحديث .

نعود في سرعة إلى ما كان يشغلنا من حديث رسول الله ﷺ وهو ظاهر الإيجاز البليغ المعجز الذي لا يجارى . يقول رسول الله ﷺ في مجال تربية المسلمين على التواصل ، وتنشئتهم على الفضائل : « عائد المريض على مخارف الجنة حتى يرجع » ومخارف الجنة روضاتها .

هذا كلام لا يسمو فوقه إلا كلام رب العالمين ، فمن ذا الذي يستطيع تصوير هذا المعنى في ثياب من تلك الألفاظ العذّاب ، المحملة بقوافل من التبشير بالجنة لمن عاد مريضا إلا محمد ﷺ أى دنيا من البلاغة حوث هذا المعنى ؟ وأى قبيل من الرقة الرقاقة المحببة اشتمل عليه هذا القول ؟ !

وقبل أن تنتهى من هذا الفصل يجمل بنا أن نشير إلى أسلوب رسول الله وهو يتعامل

مع إحدى صديقات أم المؤمنين خديجة الكبرى بعد وفاتها ، أسلوب البساطة المطلقة .
كان رسول الله ﷺ أوفى الأوفياء ، ومن الوفاء بمكان أن يظل يذكر خديجة بعد وفاتها
كلما سنحت الفرصة بذلك ؛ يترحم عليها ، ويمجد ذكرها . فهو القائل - والرواية
لأبي هريرة - : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ،
ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم زوجة فرعون » وفي الأدب المفرد من حديث
أنس : كان النبي ﷺ إذا أتى بالشئ يقول : « اذهبوا به إلى فلانة فإنها كانت صديقة
لخديجة » .

وعن عائشة - رضى الله عنها وأرضاها - : جاءت عجوز إلى النبي ﷺ فقال :
« كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟ » قالت : بخير بأبى أنت وأمى يا
رسول الله . فلما خرجت قلت : يا رسول الله ، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟!
فقال : « يا عائشة ، إنها كانت تأتينا زمن خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان » .

ولكثرة ما كان يذكر الرسول خديجة بالخير ، كانت أم المؤمنين عائشة تغار منها ، أو
بالأحرى تغار - كزوجة - من كثرة احتفال الرسول ﷺ بزوجه الأولى ، ولا عليها في
ذلك ؛ فهي من البشر . ومن رواية أبي داود مرفوعا إلى السيدة عائشة - رضى الله عنها -
قولها : ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة - رضى الله عنها - وما
رأيتها قط ، ولكن كان - أى : الرسول - يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها
أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة ، فربما قلت له : كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا
خديجة ؟ فيقول : « إنها كانت وكانت ، وكان لى منها ولد » .

ومن آيات تكريم رسول الله ﷺ لخديجة - أو بالأحرى لذكرى خديجة - أنه في فتح
مكة ضرب خيمته بالحجون حيث كانت ترقد أم المؤمنين خديجة في قبرها ، وارتفع علم
الرسول ، ومن نفس المكان أشرف على معركة الفتح الأعظم ، ومنه دخل أم القرى
حيث نصر الله عبده وأعز جنده .

قمة أدب التعبير :

من قمم الأدب في التعبير حوار الرسول ﷺ مع ابنته زينب حين أجارت زوجها أبا
العاص ، وتلك هي كمال القصة :

أصابته إحدى سرايا رسول الله ﷺ مالا كان عند أبي العاص زوج زينب بنت رسول الله ﷺ وكان أبو العاص لا يزال على الشرك ، وهرب أبو العاص ثم جاء في الليل إلى بيت زينب في طلب المال ، واستجار بها ، فلما كثر رسول الله ﷺ في صلاة الصبح ، صرخت زينب من صُفَّة النساء - قائلة - : أيها الناس ، إنى قد أجرت أبا العاص ، فلما سلم النبي ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال : « هل سمعتم ما سمعْتُ ؟ » قالوا : نعم ، قال : « أما والذي نفسى بيده ما علمت بشيء حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أديانهم » .

ثم دخل رسول الله ﷺ إلى زينب فقال : « أكرمى مثواه ، ولا يخلصنَّ إليك ، فإنك لا تحلين له » .

هنا تتجلى عظمة رسول الله ﷺ في معنيين :

الأول هو مطالبته زينب أن تكرم مثوى الرجل الذى كان زوجها لها وصهرها لرسول الله ﷺ ثم أوقف الشرك وعدم المسارعة إلى الإسلام هذا الزواج ، وهذا الطلب بالإكرام هو قمة أدب السلوك .

والثانى هو ذلك التعبير الذى جاوز غاية الأدب وقمة التهذيب فى عبارة غير مسبوقة فى كلام البشر ، وذلك قوله ﷺ : « ولا يخلصنَّ إليك فإنك لا تحلين له » وذلك تنبيه من الرسول الأب إلى زينب الابنة التى لا شك كانت تدرك ذلك وتعرف كيف تحافظ على نفسها ، ولكن الدين يقتضى التنبيه ، فكان ذلك التنبيه الراقى الأدبى الذى لا يחדش حياء ، ولا يجرح أنوثة ، ولا ينال من مروءة .

أما بقية القصة فهى مثال لمروءة الرسول حيال أبي العاص ؛ لأنه يعرف سريرة نفسه وصفاء معدنه ، وجماع خلقه ، قال الرسول ﷺ للأَنْصار : « إن تحسنوا وتردوا عليه المال فهو الذى نحب » ثم يستطرد قائلا : « وإن أبيتم فهو فى الله أنتم أحق به » فردوه إليه أجمع .

وفى رواية أنه ﷺ قال للأَنْصار : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها - أى : لزَيْنَب -

وتردوا عليها ما لها فافعلوا » ذلك أن زينب بنت رسول الله قد بعثت في فداء أبى العاص بهال وبقلادة كانت أمها خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى عليها .

فقال الأنصار : نعم يا رسول الله ، فأطلقوه وردوا عليها المال والقلادة .

لقد فعل الرسول ﷺ هذا في زينب لأنه رَقَّ لها ، إذ لم يكن عندها من المال ما يكفى للقداء ، فبعثت بالقلادة التى كانت لأمها وجهزتها بها وقت زواجها ، ولم يكن لأبى العاص مال ، وإنما كانت عنده أموال لقريش وبضائع يتجر بها .

أما ما كان من أبى العاص فإنه ارتحل إلى مكة ، فأدى إلى كل رجل من قريش ماله ، فقالوا : جزاك الله خيراً ، فقد وجدناك وفياً كريماً ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، والله ما منعنى من الإسلام عنده - أى : عند رسول الله في المدينة - إلا مخافة أن تظنوا أنى إنما أردت أكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم أسلمت . ثم خرج حتى قدم المدينة على رسول الله ﷺ فرد إليه زوجته زينب بالنكاح الأول ، وبقي بالمدينة حتى سار مع على إلى اليمن فاستخلفه على اليمن لما رجع ، ثم كان مع على يوم بؤيع أبو بكر .

ويتجلى ذلك أيضاً حين سمعت السيدة عائشة رسول الله ﷺ يكثر من ذكر السيدة خديجة ، وهو لا يذكرها إلا بالخير العميم ، ويهش للقاء صديقاتها ويؤثرهن بكثير من الصلوات وفاء لذكراها ، قالت له :

« وهل كانت إلا امرأة عجوزاً ؟ فقد أبدلك الله خيراً منها ۱۱۹ »

فغضب الرسول حتى اهتز مَقَدَّم شعره من الغضب ثم قال : « لا والله ما أبدلنى الله خيراً منها ، آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذَّبني الناس ، وواستنى فى ما لها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الولد إذ حرمنى أولاد النساء » .

فقالت عائشة : « فقلت فى نفسى : لا أذكرها بسيئة أبداً » .

لم تكن هذه طبيعة السيدة عائشة - رضى الله عنها - ولكنه كان طبع الزوجة فيها التى تغار على زوجها ، ذلك أن السيدة عائشة نفسها تصف أم المؤمنين زينب بنت

جحش - وهى أيضا ضربتها - فتقول : لم أر امرأة فى الدين خيرا من زينب وأتقى عند الله - عز وجل - وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة .

ولم يقف وفاء رسول الله ﷺ عند وفائه لخديجة خاصة ، وللمسلمين عامة ، بل اتسع قلبه الكبير لمكة المكرمة مسقط رأسه الشريف وأرض مولده ، وملعب صباه ، وملتقى وحى الله ، وميدان كفاحه ثلاث عشرة سنة منذ أكرمه ربه بالرسالة وخصه بالوحي . إن كلمات الوفاء التى خص بها زوجها خديجة ببلاغتها وعمقها تعانق كلمات الوفاء التى صدرت عنه ﷺ حين غادر مكة مهاجرا ، فقد قال ﷺ حين خرج من الغار - غار ثور - ونظر إلى مكة بعين دامعة وقسمات وجه حزين : « ما أطيبك من بلد وأحبك إلی ، ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك » .

بهذه الكلمات البليغة الموجزة ، وبهذه الجمل القليلة الحزينة ودع رسول الله ﷺ مكة حبا منه لها ، ووفاء من نفسه الشريفة لأم القرى . تماما مثلما صدرت عن قلبه ولسانه الشريفين كلمات الوفاء الموجزة فى حق أم المؤمنين خديجة الكبرى .

ومثلما قال الرسول ﷺ فى مجال الوفاء ما قاله من بلاغة الإيجاز ، فإن الأسلوب القولى نفسه يصدر عنه ﷺ فى مجال القناعة ، وما أكثر ما قال فى القناعة .

عن عبدالله بن محصن الأنصارى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من أصبح منكم آمنا فى سربه ، معافى فى جسده ، عنده قوت يومه ، فكانها حيزت له الدنيا بحذاقها » رواه الترمذى .

والسرب : هو القوم ، وقيل : النفس .

إن حديث بلاغة الإيجاز عند رسول الله ﷺ حبله طويل ، وسياقه ممتع ، وحصاده وفير ، ولكننا نكتفى بهذا القدر مختمين هذا اللون من حديث الإيجاز فى أقوال رسول الله ﷺ بهذا المثال :

روى البخارى - رحمه الله تعالى - فى التاريخ ، والحارث بن أبى أسامة ، وابن منّده ، والطبرانى ، والبزار ، والبيهقى ، رجال ثقات عن عبد الرحمن بن أبى عقیل الثقفى -

رضى الله عنه - قال : انطلقت في وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ فأتيناه فأنحنّا بالباب وما في الناس رجل أبغض إلينا من رجل نلج عليه ، فلما خرجنا بعد دخولنا عليه فخرجنا وما في الناس رجل أحب إلينا من رجل دخلنا عليه . قال : فقال قائل منا : يا رسول الله ألا سألت ربك ملكاً كمّلك سليمان ؟ قال : فضحك رسول الله ﷺ ثم قال : « فلعل لصاحبكم عند الله أفضل من ملك سليمان - عليه السلام - إن الله - عز وجل - لم يبعث نبياً إلا أعطاه دعوة ، فمنهم من اتخذ بها دنياً فأعطيتها ، ومنهم من دعا بها على قومه إذ عصوه فأهلكوا بها ، وإن الله - عز وجل - أعطانى دعوة فاختبأتها عند ربى شفاعة لأمتى يوم القيامة » (١) .

وهكذا تكون بلاغة الإيجاز في حديث الشفاعة خاتمة لهذا النوع من فن القول عند رسول الله ﷺ فاللهم اجعلنا ممن يبعثون تحت رايته ، ويرتوون من حوضه ، ويفوزون بشفاعته ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٢) .

(١) سهل الهدى والرشاد / ٦ / ٥٥٦ .
(٢) سورة الشعراء ، الآيتان : ٨٨ ، ٨٩ .



الفصل الثالث

أدب الحوار في كلام النبي ﷺ

أدب الحوار في كلام النبي ﷺ

كان رسول الله ﷺ أكثر الناس أدبا في الحوار والسلوك ، وأشدّهم حياء ، وأوفرهم مجاملة للآخرين ، كان هذا سلوكه مع الناس جميعا حتى مع مشركي قريش إذا حادّثهم في غير شئون الدعوة ، كانت وفرة أدبه ، ورقة مجاملته من الأمور التي يعرفها عامة الناس وخاصّتهم على وجه سواء .

كان أنس بن مالك - رضى الله عنه - خادما لرسول الله ﷺ ملازما له نحو عشر سنين في دار الهجرة ، ولأنّس أخبار كثيرة رواها عن أدب رسول الله وحلمه وتلطّفه مع العام والخاص .

يقول أنس في وصف آداب رسول الله وسمته : « ما شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ قال : ولا تناول أحد يده فيتركها حتى يكون هو الذي يتركها ، وما أخرج ركبتيه بين يدي جليس له قط ، وما قعد إلى رسول الله ﷺ رجل قط فقام حتى يقوم » (١) .

وفي رواية أخرى عن أنس قال : « ما أخرج رسول الله ﷺ ركبتيه قط بين يدي جليس له : ولا قعد أحد إلى رسول الله ﷺ فيقوم حتى يقوم الآخر ، ولا ناول يده النبي ﷺ فيترك يده حتى يكون الرجل هو يتركها » (٢) .

وعن ابن أبي أوفى يقول : « كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر ، ويقلّ اللعن ، ويطيّل الصلاة ، ويقصر الخطبة ، وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين ،

(١) أخلاق النبي وآدابه ، للمحافظ أبي محمد عبدالله بن محمد الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ الحديث رقم ٣٩ الدار المصرية اللبنانية .

(٢) المصدر السابق الحديث رقم ٤٠ .

فيقضى له حاجته» (١).

وعن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - قالت : « ما ضرب النبي ﷺ امرأة قط ، ولا ضرب خادماً قط ، ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله عز وجل ، ولا نيل منه فانتقم من صاحبه ، إلا أن تنتهك محارمه فينتقم » (٢).

كانت تلك بعض صفات رسول الله ، ولونا من ألوان سلوكه ﷺ وكان هذا السلوك يتضح في حوار مع غيره من البشر أفراداً كانوا أم جماعات ، حضراً كانوا أم بدواً ، مشركين كانوا أم مؤمنين ، كتابيين كانوا أم مسلمين ، أنصاراً كانوا أم مهاجرين . وإنا لموردون نماذج من حوار رسول الله مع هؤلاء الذين تمثلناهم ، وحواره ﷺ يأخذ لكل حالة مقتضاها ، ولكل موقف لبوسه ، في نطاق من نصاعة البيان ، وسلاسة القول ، ورقة الحوار ، وسعة الصدر ، وجلال التسامح ، وكظم الغيظ ، ويسر الإقناع ، ضارباً بذلك الأمثال للمسلمين - بل للناس جميعاً - أن يتمثلوا حلمه ، ويحفظوا قوله ، ويلتزموا سبيله ، ويتبعوا سنته ، ويقتفوا أثره .

فمن نماذج الحوار الذي جرى بين الرسول ﷺ وبين واحد من البدو من مشركى العرب ، ذلك الحوار الذى أجراه ضمام بن ثعلبة مبعوث قبيلة سعد بن بكر الذى يورده ابن هشام على النحو التالى : (٣)

بعث بنو سعد بن بكر « ضمام بن ثعلبة » وافداً إلى رسول الله .

فقدم عليه وأناخ « ضمام » بعيره ، على باب المسجد ثم عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله جالس فى أصحابه .

وكان « ضمام » رجلاً جليداً ، أشعر ، ذا غديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله فى أصحابه . فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ .

فقال رسول الله : « أنا ابن عبد المطلب ! » قال : أحمد ؟ قال : « نعم ! » .

(١) أخرجه النسائي ٣ / ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الفضائل ج ٤ / ٧٩ والبخارى ٦ / ٣٥٦٠ وأبو داود ٤ / ٤٧٨٥ .

(٣) السيرة ٢ / ٥٧٣ ، ٥٧٤ ط مصطفى البابى الحلبي .

قال : يا ابن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك المسألة ، فلا تَجِدَنَّ في نفسك .

قال : « لا أجد في نفسي ، فسل عما بدا لك » .

قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك : الله بعثك إلينا رسولا ؟

قال : « اللهم نعم » .

قال : فأنشدك الله إلهك ، وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك . الله أمرك أن تأمرنا أن نعبد وحده ، ولا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟

قال : « اللهم نعم » .

وفي رواية أنه قال : يا محمد . . أتانا رسولك ، فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك !

قال : « صدق » قال : فمن خلق السماء ؟ قال : « الله ! » قال : فمن خلق الأرض ؟

قال : « الله ! » قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : « الله » .

قال : فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال : الله أرسلك ؟

قال : « نعم . . » .

قال ضمام : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا ؟ قال : « صدق ! » .

قال : فبالذي أرسلك : الله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم ! » .

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام وشرائعه على هذا النحو ، حتى إذا فرغ قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه . ثم لا أزيد ولا أنقص ، وانصرف إلى بعيره راجعاً .

فقال رسول الله : « إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة » .

فأتى ضمام بعيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم به أن قال : بثست اللات والعزى !! قالوا : مه يا ضمام ! اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون . . قال : ويلكم ، إنهما - والله - لا يضران ولا ينفعان . إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا ، استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه . .

قال : « فوالله ما أمسى في الحى من ذلك اليوم رجل ولا امرأة إلا مسلما » .

إن المتتبع لهذا الحوار يظن أنه من جانب واحد ، ذلك أن ضماما كان يسأل في صيغة الاستيضاح ، وكان الرسول يجيب بما يفيد الإيجاب ، ولكن حقيقة الأمر أن حوارا قد جرى قبل ذلك بين ضمام وبعض قومه عن الإسلام حتى إنه استوعب أركانه بشكل شمولي تجلّى في صيغ الأسئلة التي وجهها إلى النبي ﷺ ثم جرى حوار آخر بينه وبين نفسه انتهى به إلى اليقين الذي جعله يؤمن بتلك القيم الربانية فيما لو كان ما بلغه عن الإسلام صحيحا ، ثم جاء ضمام بعد ذلك إلى رسول الله الذي قرأ في وجهه - أى : وجه ضمام - ملامح الإيثار ، وإذا كانت فراسة المؤمن لا تخيب ، فإنه يكون من باب أولى ألا تخيب فراسة النبي ؛ لذلك كان الرسول في حوار ضمام معه لا يزيد في إجاباته عن : « نعم » « والله نعم » وكانت هذه « النعمات » أبلغ إجابة في هذا المقام ، ولذلك فإن ضماما لم يتردد ، ولم يضيّع وقتا ، بل سارع إلى الإيمان والنطق بالشهادتين ، وأبدى الامتثال لأركان الإسلام التي أقره عليها رسول الله ﷺ وانصرف على الفور .

وهنا يقول الرسول ﷺ : « إن صدق ذو العقيصتين - يعنى الضفيرتين ، وكان ضمام ذا ضفيرتين - دخل الجنة » وقد كان ضمام عند صدق فراسة رسول الله ﷺ إذ أنه لم يكتف بإعلان إسلامه وحده ، وإنما بات جميع قومه مسلمين ، ويعلق عبدالله بن عباس على هذا الأمر قائلا : فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة (١) .

كان حوار ضمام مع رسول الله ﷺ فيه خشونة ، ولكن حلم رسول الله تذبذب أمامه

(١) يراجع أيضا كتاب الطبقات الكبرى - وفد سعد بن بكر ٢ / ٢٩٩ .

كل خشونة ، وتلين حياله كل شدة ، لقد تحمل الرسول ﷺ خشونة رجل لا يعدو أن يكون واحداً من سادة قومه البسطاء .

فإذا ما انتقلنا إلى ذكر حوار لوفد آخر عليه ثياب الملك ، وجدنا لونا آخر من كرم رسول الله وتلطفه واحتفائه بضيفه والتبشير بمقدمه قبل وصوله بليال ثلاث .

روى البخارى - رحمه الله - فى التاريخ ، والبزار ، والطبرانى ، والبيهقى عن وائل بن حُجر - رضى الله عنه - قال : بلغنا ظهور رسول الله ﷺ وأنا فى بلد عظيم ورفاهة عظيمة ، فَرَفَضْتُ ذلك - أى : رفضت الرفاهة - ورَغِبْتُ إلى الله - عزَّ وجلَّ - وإلى رسول الله ﷺ فلما قَدِمْتُ عليه أخبرنى أصحابه أنه بَشَّرَ بمَقْدِمِي عليهم قبل أن أقدم بثلاث لَيَالٍ . قال الطبرانى : فلما قَدِمْتُ على رسول الله ﷺ سَلَّمْتُ عليه فَرَدَّ عَلَىَّ ، وبسط لى رداءه وأجلسنى عليه ، ثم صعد منبره وأقعدنى معه ورفع يديه وحمد الله تعالى وأثنى عليه ، وصلى على النبى ﷺ واجتمع الناس إليه فقال لهم : « يا أيها الناس ، هذا وائل بن حُجر قد أتاكم من أرض بعيدة ، من حضرموت ، طائعا غير مُكره ، راعبا فى الله وفى رسوله وفى دين بيته ، بَقِيَّةُ أبناء الملوك » . فقلت : يا رسول الله ، ما هو إلا أن بلغنا ظهورك ، ونحن فى مُلْكٍ عظيم وطاعة ، وأنتك راعبا فى دين الله . فقال : « صدقت » .

وعن وائل بن حُجر قال : جِئْتُ رسول الله ﷺ فقال : « هذا وائل بن حُجر جاء حُبًّا لله ولرسوله » وبسط يده وأجلسه وضمَّه إليه وأصعده المنبر ، وخطب الناس فقال : « ارفقوا به فإنه حديث عهد بالملك » . فقلت : إن أهلي عَلبُونى على الذى لى ، فقال : « أنا أعطيك وأعطيك ضِعْفَهُ » . الحديث (١) .

هكذا كان احتفاء الرسول ﷺ بوائل بن حجر الحضرمى الملك ابن الملوك ، يجلسه ويضمه ويصعده على المنبر ، لأنه يعلم أن بقية من رواسب الملك لا تزال تسرى فى دمائه ، ولقد كان وائل بالفعل على ما تصوره رسول الله ، فقد أمر النبى معاوية بن أبى سفيان أن يرافقه وينزله منزلا بالحرّة ، قال معاوية : فانطلقت به وقد أحرقت رجلى

(١) سبل الهدى الرشاد / ٦٦٥ .

الرمضاء ، فقلت : أردفني ، قال : لست من أرداف الملوك ، قلت : فأعطني نعليك أتوقى بهما من الحر ، قال : لا يبلغ أهل اليمن أن سوقا لبس نعل ملك ، ولكن إن شئت قصرت عليك ناقتي فسرت في ظلها . قال معاوية : فأتيت النبي ﷺ فأنبأته بقوله ، فقال : « إن فيه لعبة من عبية الجاهلية » .

هكذا كان يلتقي رسول الله بالوفاد أو الوفود ، فيتعامل معهم على قدر طبيعتهم ، ويحاولهم بما يتسق وأحوالهم .

وفي حال وائل بن حجر لم يكتف النبي ﷺ بتكريمه بحسن التلقى ورقة الحوار وحسن الضيافة وحسب ، بل إنه زوده بكتاب كريم حملة معه إلى قومه كتدعيم لشخصه ، وفي الوقت نفسه يشكل الكتاب تعهدا قبله وائل بشروطه ، جاء فيه :

« هذا كتاب من محمد النبي لوائل بن حجر قتل حضرموت : إنك أسلمت ، وجعلت لك ما في يديك من الأرضين والحصون ، وأن يؤخذ منك من كل عشرة واحد ، ينظر في ذلك ذو عدل ، وجعلت لك فيها ألا تُظلم ما قام الدين ، والنبي والمؤمنون عليه أنصار » (١) .

إن نماذج الحوار الذي كان يجري بين رسول الله ﷺ وبين الوافدين عليه من الناس سواء أكانوا قادمين عليه في مكة أو في المدينة لما ينه العدل الكامن في صدر الإنسان ، فيدفع به إلى ساحة الاقتناع ، ثم بعد ذلك إلى رحاب اليقين . وها نحن نتمثل الآن بحوار لم تسجل ألفاظه ، ومع ذلك فلنر نتيجته .

كان الطفيل بن عمرو الدؤسي - فيما يروى ابن هشام - يحدث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها فمشى إليه رجال من قريش وقالوا له : يا طفيل إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا - يعني محمدا - قد أعضل بنا - يعني اشتد أمره - وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وإننا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا .

(١) الطبقات الكبرى ٢ / ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

كان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً ومع ذلك فإنه يقول : فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً . ولا أكلمه حتى حشوت فى أذننى حين غدوت إلى المسجد كُرسُفاً - يعنى قطناً - خشية أن يبلغنى شىء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمع .

ويمضى الطفيل قائلاً : فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة ، فقممت منه قريباً ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت فى نفسى : واثكل أمى ، والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذى يأتى به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته ، فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ، فقلت : يا محمد ، إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذننى بكسوف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك ، فسمعته قولاً حسناً ، فاعرض على أمرك ، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، وتلا عليه القرآن . يقول الطفيل : فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يا نبى الله ، إنى امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم وداعيتهم إلى الإسلام ، فادع الله أن تكون لى آية عوناً لى عليهم فيما أدعوهم إليه ، فقال : « اللهم اجعل له آية » .

قال الطفيل : فخرجت إلى قومى حتى إذا كنت بشيئة تطلعنى عليهم وقع نور بين عينى مثل الصباح ، فقلت : اللهم فى غير وجهى ، إنى أخشى أن يظنوا أنها مُثْلَةٌ وقعت فى وجهى لفراقى دينهم ، فتحول النور فوق فى رأس سوطى ، فجعل القوم يتراءون ذلك النور فى سوطى كالقنديل المعلق ، وأنا أهبط إليهم من الشيئة حتى جثتهم فأصبحت فيهم . فلما نزلت أتانى أبى - وكان شيخاً كبيراً - فقلت : إليك عنى يا أبت ، فلست منك ولست منى ، قال : ولم يا بنى ؟ قلت : أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ قال : أى بنى ، فدينى دينك ، فقلت : فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال حتى أعلمك ما علمت ، فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم .

ثم أتتني صاحبتى فقلت : إليك عنى ، فلست منك ولست منى ، قالت : لم ؟
بأبى أنت وأمى ، قلت : قد فرق بينى وبينك الإسلام ، وتابعت دين محمد ﷺ
قالت : فدينى دينك ، قلت : فاذهبى إلى حمى ذى الشرى فتطهرى منه ، وكان ذو
الشرى صنماً لدوس ، وكان الحمى به وشل من ماء يهبط من جبل ، فذهبت فاغتسلت
ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام فأسلمت .

ثم دعوت دوساً - يعنى قبيلته - إلى الإسلام فأبطلوا على ، ثم جئت رسول الله ﷺ
بمكة ، فقلت له : يا نبي الله ، إنه قد غلبنى على دوس لهوهم فادع الله عليهم ،
فقال : « اللهم اهد دوساً ، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم » قال : فلم أزل بأرض
دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ومضى بدر وأحد
والخندق ، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معى من قومى ، ورسول الله ﷺ
بخير ، حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس ، ثم لحقنا برسول الله ﷺ
بخير ، فأسهم لنا مع المسلمين ، ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ حتى إذا فتح الله عليه
مكة قلت : يا رسول الله ، ابعثنى إلى ذى الكفين - صنم عمر بن حُمّة - حتى أحرقه ،
فخرج طفيل إليه ، وجعل يوقد النار عليه ، ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبّادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

إنى حشوت النار فى فؤادكا

وهكذا كان حوار الرسول ﷺ مقنعاً للعقلاء ، هادياً للنجباء من أمثال الطفيل بن
عمرو الدوسى الذى لم يعلن تفاصيل حوارهِ مع الرسول ، وعلى الرغم من ذلك فقد
سعى لإسلام أبيه ، ثم إسلام صاحبتِهِ ، ثم إسلام دوس فى أكثرها . (١)

نماذج الحوار التى تمثلنا بها فيما سلف من صفحات كان الطرف الثانى فيها صنفاً من
الرجال لم يكونوا قد أسلموا بعد ، ولكن كانوا بسبيلهم إلى الإسلام ، أو أسلم الواحد
منهم ولكنه حديث عهد بالإسلام .

يبقى بعد ذلك أن نتمثل لنماذج من الحوار جرت بين الرسول ﷺ وبين أفراد من

(١) قصة إسلام الطفيل فى سيرة ابن هشام ١ / ٣٨٢ وما بعدها .

المسلمين الذين انتظموا الدعوة ، وانخرطوا في سلوكها ، واندمجوا في مضمارها .

إن من أنفس نماذج هذا الطراز من الحوار ، ذلك الذى جرى بين شاب من جمهرة شباب المسلمين - وإن لم يكن من خيارهم - وبين رسول الله ﷺ إن الشاب فى غيبة رشفه ، والانصياع لغريزته ، يطلب إلى رسول الله ما لم يطلبه أحد قبله ، فهو يطلب أن يؤذن له بالزنا ، فلما سمعه الناس صاحوا غضابا ، ولكن رسول الله ﷺ معلم البشرية ومبرىء سقامها ، لا يغضب ، وإنما يقرب الشاب إليه ، ويعالج ما يطلبه من الإذن له بالفاحشة بالحوار الهادى الذى يشتمل على الكلمة الطيبة ، والموعظة الحسنة ، والنصح الجميل .

إن مجمل الخبر كما رواه الإمام أحمد عن أبى أمانة بإسناد جيد هو :

أتى شاب النبى ﷺ فقال : يانى الله أتأذن لى فى الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبى ﷺ : « قربوه ، اذن » فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أتحب لأهلك ؟ قال : لا ، جعلنى الله فداك . قال : « كذلك الناس لا يحبونه لأهماتهم . أتحب لابنتك ؟ » قال : لا ، جعلنى الله فداك . قال : « فكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم » وزاد الراوى ابن عوف : حتى ذكر العممة والخالة . وهو يقول فى كل واحدة : لا ، جعلنى الله فداك ، والنبى ﷺ يقول : كذلك الناس لا يحبونه » ثم وضع الرسول ﷺ يده على صدره وقال : « اللهم طهر قلبه ، واغفر ذنبه وحصل فرجه » فلم يكن شىء أبغض إليه من الزنا .

وهذا صحابى جليل هو جابر بن عبدالله يجرى رسول الله معه حواراً فى عامة شئونه ، يسأله عن أحواله الخاصة والعامة ، فإن وجد ثمت ما يحتاج فيه جابر العون أعانه ، وكان هذا شأن رسول الله ﷺ مع صحابته ، كان لهم الأب الحانى ، والمربى العظيم ، والراعى الأمين .

... عن الحجاج بن أبى عثمان الصواف ، عن أبى الزبير ، عن جابر - يعنى جابر ابن عبدالله - قال : « غزا رسول الله ﷺ إحدى وعشرين غزوة بنفسه ، شهدت تسع عشرة ، وغبت عن اثنتين ، فبينما أنا معه فى بعض غزواته ، إذ أعبى ناضحى - يعنى

بعيرى - تحت الليل فبرك ، وكان رسول الله ﷺ فى آخرنا ، فى أخريات الناس ، فيزجى الضعيف ، ويردف ، ويدعو لهم ، فانتهى إلى - يعنى وصل إلى - وأنا أقول : يا لهف أمتاه ، وما زال لنا ناضح سوء ، فقال : « من هذا ؟ » فقلت : أنا جابر ، بأبى وأمى يا رسول الله ، قال : « ما شأنك ؟ » قلت : أُعْصِي ناضحى ، فقال : « أمعك عصا ؟ » قلت : نعم ، فضربه ، ثم بعته ، ثم أناخه ووطىء على ذراعه وقال : « اركب » فركبت ، فسأيرته ، فجعل جملى يسبقه ، فاستغفر لى تلك الليلة خمسا وعشرين مرة فقال لى : « ما ترك عبد الله من الولد ؟ » - يعنى أباه - قلت : سبع نسوة ، قال : « أَتَرَكَ عليك ديناً ؟ » قلت : نعم ، قال : « فإذا قدمت المدينة فقاطعهم ، فإن أبوا فإذا حضر جداد نخلكم - يعنى الذى يقطع زوائده - فَأَذْنِي » وقال لى : « هل تزوجت ؟ » قلت : نعم ، قال : « ممن ؟ » قلت : فلانة بنت فلان ، بأيم كانت بالمدينة ، قال : « فهلا فتاة تلاعبها وتلاعبك ؟ » قلت : يا رسول الله كنّ عندى نسوة تُحْرَق - يعنى أخواته - فكرهت أن آتيهن بامرأة خرقاء ، وقلت : هذه أجمع لأمرى ، قال : « فقد أصبت ورشدت » ، فقال : « بكم اشتريت جملك ؟ » قلت : بخمس أواق من ذهب ، قال : قد أخذناه - يعنى اشتريناه - فلما قدم المدينة أتيت به بالجمل ، فقال : « يا بلال ، أعطه خمس أواق من ذهب يستعين بها فى دين عبد الله ، وزده ثلاثا ، واردد عليه جملة » قال : « هل قاطعت غرماء عبد الله ؟ » قلت : لا يا رسول الله ، قال : « أَتَرَكَ وَفَاءً ؟ » قلت : لا ، قال : « لا عليك ، إذا حضر جداد نخلكم فَأَذْنِي » فَأَذْنَتْه ، فجاء ، فدعا لنا ، فاستوفى كل غريم ما كان يطلب ثمرا وفاء ، وبقي لنا ما كنا نجد وأكثر ، فقال رسول الله ﷺ : « ارفعوا ولا تكيلوا » فرفعنا ، فأكلنا منه زمانا » (١).

بهذه البساطة وهذا اليسر كان حوار رسول الله ﷺ مع صحابته ، يجرى الحوار ليتعرف على أحوالهم ، ويستكشف متاعبهم إن كان ثمت متاعب ، فيأخذ بيد الضعيف ، ويساعد المحتاج ، ويعاون من اضطربت شئونه وتغيرت أحواله ، ويسدى النصيح ويوجه نحو السداد .

ومن نماذج الحوار بين رسول الله وبين أحد أفراد الصحابة ، بل رأس الصحابة ما

(١) أخلاق النبى وآدابه ، الحديث رقم ١٧٠ .

كان بينه وبين أبي بكر حين صلى أبو بكر بالناس ، وكان رسول الله بعيدا عن المسجد ليصلح بين قوم مختلفين فيما بينهم . وذلك خبر الحوار :

عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ بلغه أن بنى عمرو بن عوف كان بينهم شر ، فخرج رسول الله ﷺ يصلح بينهم في أناس معه فحبس رسول الله ﷺ وحانت الصلاة فجاء بلال إلى أبي بكر - رضى الله عنهما - فقال : يا أبا بكر إن رسول الله ﷺ قد حبس وحانت الصلاة فهل لك أن تؤم الناس ؟ قال : نعم إن شئت ، فأقام بلال الصلاة وتقدم أبو بكر فكبر وكبر الناس ، وجاء رسول الله ﷺ يمشى في الصفوف حتى قام في الصف فأخذ الناس في التصفيق ، وكان أبو بكر رضى الله عنه لا يلتفت في الصلاة ، فلما أكثر الناس التصفيق التفت فإذا رسول الله ﷺ فأشار إليه رسول الله ﷺ فرفع أبو بكر رضى الله عنه يده فحمد الله ورجع الفهقري وراءه حتى قام في الصف ، فتقدم رسول الله ﷺ فصلى بالناس ، فلما فرغ أقبل على الناس فقال : « أيها الناس ما لكم حين نابكم شيء في الصلاة أخذتم في التصفيق ، إنما التصفيق للنساء ، من نابه شيء في صلاته فليقل سبحان الله ، فإنه لا يسمعه أحد حين يقول سبحان الله إلا التفت ، يا أبا بكر ما منعك أن تصلى بالناس حين أشرت إليك ؟ فقال أبو بكر : ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلى بالناس بين يدي رسول الله ﷺ (متفق عليه) .

معنى (حبس) : أمسكوه ليضيفوه .

إن هذا الحوار القصير الموجز الذى جرى بين الرسول ﷺ وبين أبي بكر يشف عن جوهر الرسول الكريم الذى يرضى بأن يصلى مأموما بأبى بكر ، وعن مقدار إعظام أبي بكر للرسول في كل المواقف ، وبخاصة في موقف الصلاة ، إذ يقول في أدب لا يتقنه إلا قلة من الصحابة وفي مقدمتهم أبو بكر : ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلى بالناس بين يدي رسول الله ﷺ ناهيك عن الدرس القصير في شأن الصلاة ، حيث إذا أراد الرجال أن ينهوا الإمام إلى شيء ما فالذى يجمل بهم هو التسبيح ، وأما النساء فالتصفيق .

إن نماذج الحوار التى أسلفنا التمثل بها كانت بين الرسول ﷺ وبين أفراد بذواتهم ، بعضهم ممن انتوى دخول الإسلام ، وبعضهم حديث عهد بالإسلام ، وبعضهم

ينقصه سلوك راشد فوجد الرشاد في حوار مع رسول الله ، وبعضهم صحابى يروى خبر حوار ، أو حوار مع صحابى اهتم بشأنه الرواة والحفاظ .

على أننا الآن بسبيل عرض نماذج من طراز مختلف في مبنى الحوار وطبيعته وأسلوبه ؛ لأنه جرى بين الرسول ﷺ وبين بعض أهل الكتاب ، فمن نماذج هذا اللون من الحوار، ذلك الذى جرى بين الرسول وبين الخبر زيد بن سعة وكان سببا في إسلامه .

إن راوى هذا الحوار هو عبدالله بن سلام ، ولكن عن طريقين أو سلسلتين إحداهما يبدوها ابن أبى عاصم ، والثانية يبدوها أبو زرعة .

قال عبدالله بن سلام : إن الله - عز وجل - لما أراد هدى زيد بن سعة ، قال زيد : ما من علامات النبوة شىء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه ، إلا اثنتان لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل إلا حلما ، فكنت أنطلق إليه لأخالطه فأعرف حلمه من جهله ، فخرج يوما من الحجرات - أى : الرسول ﷺ ومعه على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فجاء رجل يسير على راحلته كالدوى ، فقال : يا رسول الله إن قرية بنى فلان أسلموا ، ودخلوا في الإسلام ، وحدثتهم أنهم إن أسلموا أتتهم أرزاقهم رغدا ، وقد أصابتهم سنة - يعنى : قحط - وشدة ، وقحوط من العيش ، وإنى مشفق أن يخرجوا من الإسلام طمعا ، كما دخلوا فيه طمعا ، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشىء تعينهم به فعلت . فقال زيد بن سعة : فقلت : أنا أبتاع منك بكذا وكذا وسقا فبايعنى ، وأطلقت هميانى وأعطيته ثمانين دينارا ، فدفعها إلى الرجل وقال : اعجل عليهم بها وأغثهم .

فلما كان قبل المحل - يعنى حلول السداد - بيوم أو يومين أو ثلاثة ، خرج رسول الله ﷺ إلى جنازة البقيع ، ومعه أبو بكر وعمر ، في نفر من أصحابه ، فلما صلى على الجنازة ودنا من الجدار ، جذبت برديه جبذة شديدة حتى سقط من عاتقه ، ثم أقبلت بوجههم غليظ فقلت : ألا تقضينى يا محمد ؟ فوالله ما علمتكم بنى عبد المطلب لمطل ، وقد كان لى بمخالطتكم علم . قال زيد : فارتعدت فرائص عمر - رضى الله عنه - كالفلك المستدير . ثم رمى ببصره ، ثم قال : أى عدو الله ، أنقول هذا لرسول

الله؟ وتصنع به ما أرى؟ وتقول ما أسمع؟ فوالذى بعثه بالحق لولا ما أخاف فوته لسبقنى رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في تودة وسكون ، ثم تبسم ، ثم قال : «لأنا وهو أحوج إلى غير هذا ، أن تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن اتباعه»^(١) .

ثم يقول الرسول ﷺ - في رواية أبى زرعة - : « اذهب به يا عمر ، فاقض حقه وزده عشرين صاعا من تمر ، مكان ما رعته » قال زيد بن سعة : فذهب بى عمر - رضى الله عنه - ففضانى حقى ، وزادنى عشرين صاعا من تمر ، فقلت : ما هذا ؟ قال : أمرنى رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتك . فقلت : أتعرفنى يا عمر؟ قال : لا ، فمن أنت ؟ قال : أنا زيد بن سعة ، قال : الخبر ؟ قلت : الخبر ، قال : فما دعائك إلى أن تفعل برسول الله ﷺ ما فعلت ؟ وتقول له ما قلت ؟ قلت : يا عمر إنه لم يبق من علامات النبوة شىء إلا وقد عرفتها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتان لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ، فقد اخترته منه ، فأشهدك يا عمر أننى قد رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ، وأشهدك أن شطر مالى - فإنى أكثرها مالا - صدقة على أمة محمد ﷺ فقال عمر : أو على بعضهم فإنك لا تسعهم كلهم ، قلت : أو على بعضهم . قال : فرجع عمر وزيد ابن سعة إلى رسول الله ﷺ فقال زيد : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

هكذا لم يستغرق الحوار بين رسول الله ﷺ وبين زيد أكثر من جمل معدودة ظهر فيها حلم الرسول في ذروته ، ما زاد على أن ابتسم وقت أن هوجم ، ثم الكلمات الطيبة يحسن بها توجيه عمر ، ثم سداد الدين ومعه زيادة بدلا عن الترويع الذى أوقعه عمر في قلب زيد بن سعة .

لقد آمن زيد وصدق بمحمد ﷺ وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة .

ومن أجل ما يؤثر من حوار ، ذلك الذى جرى بين رسول الله ﷺ وبين سفانة ابنة حاتم الطائى وما خلعه عليها الرسول ﷺ من الرعاية ، وما حباها به من تكريم حين علم أنها ابنة كريم العرب فى الجاهلية حاتم الطائى ، ثم ذلك الحوار النفيس النبيل

(١) إلى هنا تنتهى رواية ابن أبى عاصم ، ثم تبدأ الزيادة التى جاءت برواية أبى زرعة .

الذي جرى بين الرسول ﷺ وبين عدى بن حاتم شقيق سفانة عند مقدمه إلى رسول الله طائعا بمحض اختياره حين عادت إليه أخته حرة طليقة محروسة بأمر رسول الله بنفر من قومها بعد أن كانت بين السبايا ، ثم صارت في مقدمة الحرائر بين قومها مثلما كانت على أيام أبيها .

ونحن نميل إلى أن نترك عدى بن حاتم يحكى الخبر بلسانه ، ويروى صيغة الحوار الذي جرى بين الرسول ﷺ وبين سفانة ، ثم بين الرسول وبينه (١).

قال عدى بن حاتم - رضى الله عنه - : بُعث رسول الله ﷺ بالبُثَّة ولا أعلم أحداً من العرب كان أشدَّ كراهية لرسول الله ﷺ حين سَمِعَ به مِنِّي ، أما أنا فَكُنْتُ امرأً شريفاً وكنت نصرانياً ، وكنت أسير في قومي بالمرْبَاع ، وكنت في نفسي على دين ، وكنت مَلِكاً في قومي لما كان يُصْنَعُ بى ، فلما سَمِعْتُ برسول الله ﷺ كَرِهْتُه أشد ما كرهت شيئاً ، فقلت لغلام كان لى عَرَبِي وكان راعياً لِإِبِلِي : لا أَبَا لك أَعْدِدْ لى من إِبِلِي أَجْمالاً ذُلَّالاً (٢) سِمَاناً فَاحْتَسِبْهَا قَرِيباً مِنِّي ، فإذا سَمِعْتَ بِجَيْشٍ لمحمد قد وُطِئَ هذه البلاد فَادْنُ . ففَعَلَ . ثم إنه أَتَانِي ذات غداة فقال : يا عَدِي ما كُنْتَ صانِعاً إِذَا غَشِيَتْكَ خَيْلُ محمد فَاصْنَعْهُ الآن ، فَإِنِّي قد رَأَيْتُ رَايَاتٍ فَسَأَلْتُ عنها فقالوا : هذه جيوش محمد . فقلت : قَرَّبْ لِي أَجْمالِي ، فَفَرَّ بِهَا فَاحْتَمَلْتُ بأهلى وولدى ، ثم قلت : اَلْحَقْ بِأَهْلِ دِينِي مِنَ النَّصَارَى بِالشَّامِ ، فَسَلَكْتُ الْجَوْشِيَّةَ (٢).

قال : فلما قدمت الشام أقمت بها ، وتخالفتنى خيل لرسول الله ﷺ فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت ، فقدم بها على رسول الله ﷺ في سبايا من طىء ، وقد بلغ رسول الله ﷺ هربى إلى الشام . قال : فجعلت ابنة حاتم في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تحبس فيها ، فمر بها رسول الله ﷺ فقامت إليه ، وكانت امرأة جزلة . وفي حديث على - رضى الله عنه - : لما أتى بسبايا طىء وقفت جارية جماء حمراء لعساء ، ذلفاء ، عيطاء ، شماء الأنف ، معتدلة القامة والهامة . قال : فلما رأيتهأ أعجبت بها ،

(١) السيرة لابن هشام مجلد ٢ / ٥٧٨ وما بعدها ط الحلبى ، وسبل الهدى والرشاد ٦ / ٥٧٧ وما بعدها .

(٢) ذللا : جمع ذلول - بفتح اللام - وهو اللين . آذنى ، أى : أعلمنى ، الجوشية : موضع بين نجد والشام .

وقلت : لأطلبن إلى رسول الله ﷺ أن يجعلها في فيئى . فلما تكلمت أنسيت جهاها لما سمعت من فصاحتها .

فقالت : يا محمد إن رأيت أن تُخلى عنا ولا تشمت بنا أحياء العرب فإنى ابنة سيد قومى ، وإن أبى كان يحمى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجائع ، ويكسو العارى ، ويقرى الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم طىء . فقال النبى ﷺ : « يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً ، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه ، خلوا عنها فإن أباه كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق » .

وفى حديث ابن إسحاق : فقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد فامن على من الله عليك . قال : « من وافدك ؟ » قالت : عدى بن حاتم . قال : « الفار من الله ورسوله ؟ » . قالت : ثم مضى رسول الله ﷺ وتركنى ، حتى إذا كان من الغد مر بى فقلت له مثل ذلك ، وقال لى مثل ما قال بالأمس . قالت : حتى إذا كان الغد مر بى وقد يئست منه ، فأشار إلى رجل من خلفه أن قومى فكلميه . قالت : فقامت إليه فقلت : يا رسول الله هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامن على من الله عليك . فقال ﷺ : « قد فعلت فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذنينى » . فسألت عن الرجل الذى أشار إلى أن أكلمه فقيل : على بن أبى طالب رضى الله عنه . (*) .

وأقمت حتى قدم ركب من بلى أو قضاة . قالت : وإنما أريد أن آتى أخى بالشام . قالت : فجئت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله قد قدم رهط من قومى لى فيهم ثقة وبلاغ . قالت : فكسانى رسول الله ﷺ وحملنى وأعطانى نفقة ، فخرجت معهم حتى قدمت الشام .

(*) معانى المفردات :

جزلة : عاقلة أو تامة الخلق ، أو ذات كلام جزل ، أى : قوى شديد . جاء - بفتح وتشديد - : التى لا قرن لها . حمراء : يعنى بيضاء . لعماء : يعنى فى شفتها سواد . ذلفاء : من الذلف - بالتحريك - وهو صغر الأنف واستواء الأنفة ، وقيل : ارتفاع فى طرفه مع صغر أنفته . عطاء ، أى : طويلة العنق فى اعتدال ، وللمذكر : أعبط . شفاء الأنف ، أى : مرتفعة قصبه الأنف مع استواء أعلاها وإشراف الأنفة قليلا .

قال عدى : فوالله إننى لقاعد فى أهلى إذ نظرت إلى ظعينة تصوب إلّ تؤمنا . قال : فقلت : ابنة حاتم ، قال : فإذا هيمى هى . قال : فلما وقفت على انسلحت تقول : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك وولدك وتركت بقية والدك عورتك (*) . قال : قلت : أى أخية لا تقولى إلا خيراً ، فوالله مالى من عُذر ، لقد صَنَعْتُ ما ذَكَرْتُ . قال : ثم نزلت فأقامت عندى . فقلت لها - وكانت امرأة حازمة - : ماذا ترين فى أمر هذا الرجل؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعاً ، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله ، فقد أتاه فلان فأصاب منه ، وأتاه فلان فأصاب منه ، وإن يكن ملكاً فلن تدل فى عز اليمن وأنت أنت . قال : قلت : والله إن هذا للراى .

وفى حديث الشعبى : قال : فلما بلغنى ما يدعو إليه من الأخلاق الحسنة ، وما قد اجتمع إليه من الناس ، خرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فدخلت عليه وهو فى مسجده ، وعنده امرأة وصبيان أو صبى ، وذكر قريهم من رسول الله ﷺ قال : فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر ، فسلمت عليه فقال : « من الرجل ؟ » فقلت : عدى بن حاتم . فقام رسول الله ﷺ فانطلق بى إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بى إليه إذ لقينته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفتها ، فوقف لها طويلاً فكلمتها فى حاجتها ، فقلت فى نفسى : والله ما هذا بملك .

قال : ثم مضى بى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من آدم محشوة ليفاً فقدمها إلى فقال : « اجلس على هذه » . قال : قلت : يا رسول الله بل أنت فاجلس عليها ، قال : « بل أنت » فجلست عليها ، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض . فقال : « يا عدى أخبرك أن لا إله إلا الله ، فهل من إله إلا الله ؟ وأخبرك أن الله تعالى أكبر ، فهل من شىء هو أكبر من الله عز وجل ؟ » ثم قال : « يا عدى أسلم تسلم » . فقلت : إننى على دينى . فقال : « أنا أعلم منك بدينك » فقلت : أنت أعلم منى بدينى ؟ قال : « نعم » يقولها ثلاثاً . « أأست ركوسيا ؟ » فقلت : بلى . قال :

(*) معانى المفردات :

الرهط : ما دون العشرة من الرجال . الظعينة : هى المرأة المرحلة ، أو الراحلة التى يرتحل عليها . تؤمنا ، أى : تقصدنا . انسلحت ، أى : أرسلت الكلام . القاطع الظالم ، أى : أنت القاطع ، أنت الظالم .

« أأست ترأس قومك ؟ » قلت : بلى . قال : « أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟ » قلت : بلى والله ، وعرفت أنه نبى مرسل يعلم ما يجهل . قال : « فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك » . ثم قال : « يا عدى لعلك إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين أن رأيت خصاصة من عندنا ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عدددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف » .

وفى رواية قال : « هل رأيت الحيرة ؟ » قلت : لم أرها وقد علمت مكانها . قال : « فإن الظعينة سترحل من الحيرة تطوف بالبيت فى غير جوار ، لا تخاف أحداً إلا الله عز وجل والذئب على غنمها » . قال : فقلت فى نفسى : فأين ذعار طيء الذين سعروا البلاد ؟ قال : « فلعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى الملك والسلطان فى غيرهم ؟ ! والله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم » . وفى رواية : « لتفتحن عليهم كنوز كسرى بن هرمز » . قلت : كنوز كسرى بن هرمز ؟ قال : « كنوز كسرى بن هرمز » .

وفى رواية : « ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج بملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه ، ويليقن الله أحدكم يوم يلقاه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنم ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا شق تمرة فبكلمة طيبة » . قال عدى - رضى الله عنه - : فأسلمت ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ قد استبشر (*) .

إن عديا - رضى الله عنه - يشهد وقد طال به الأجل إلى ما بعد المائة والعشرين من العمر أنه قد رأى الظعينة ترحل من الكوفة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله عز وجل .

(*) معانى المفردات :

الركوسية : دين بين النصارى والصابئة . المرباع ، أى : ربع الغنمة ، كان سادات الجاهلية يأخذونه . الخصاصة - بفتح الخاء - أى : الحاجة والفقر . ذعار طيء ، أى : الذين يفزعونهم . سعروا - بفتح السين - يعنى أوقدوا .

ويستطرد عدى - رضى الله عنه - قائلاً : وكنت فيمن كنوز كسرى بن هرمز ،
ولئن طالت بكم حياة سترون ما قاله أبو القاسم عليه السلام .

وهناك نماذج كثيرة لمواقف حوار رسول الله مع صحابته ، وهى - شأنها شأن غيرها
من ألوان حوار عليه السلام - نماذج عديمة النظير من بلاغة القول ، وأمانة القصد ، وفصاحة
التناول ، وأدب الخطاب ، وهو عليه السلام يحاور كل فرد أو فريق بما يلائمه من أهداف
الحديث وبيان المقصد ، ففي النماذج القليلة الثلاثة الماضية كان يحاور كتابيين ؛ لأن
زيد بن سعة كان يهودياً ، وعدى بن حاتم وأخته سفانة كانا نصرانيين مع بعض
الاختلاف مع نصرانية النجرانيين والروم ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان حوار عليه السلام
سفانة يفيض لطفًا وحنانًا وإشفاقًا ، حتى إنه لم يأذن لها بالمسير بعد أن فك أسرها إلا
مع من يأمنه عليها ، وكذلك كان حوار عليه السلام مع عدى - وكان فيه جاهلية - ولكن لين
حديث رسول الله ورقته وبساطته وحكمته وألفته ، كل ذلك جعل عديًا يدخل الإسلام
من أوسع الأبواب على ما مر بنا من حديث قبل قليل .

كذلك كان رسول الله عليه السلام في حوار عليه السلام مع الصحابة وإن اختلفت طبيعة الحوار مع
طبيعة المواقف ، وليس من شك في أن قضايا حوار الرسول عليه السلام مع الصحابة تختلف
عنها عند الآخرين ، بل هى مع المهاجرين قد تختلف عنها مع الأنصار بحكم طبيعة
كل موقف وسمة كل موضوع .

إن من أكثر نماذج حوار رسول الله عليه السلام نبلاً ذلك الحوار الذى كان مع الأنصار إثر
توزيع غنائم حنين ، إن النفوس الواجدة لم تلبث بعد حوار رسول الله معها ومكاشفتها
بعصب القضية ، لم تلبث أن هدأت ورضيت وتبدل غضبها رضى ، وموجدتها صفاء ،
وها هو الحوار بعد مقدمته التى تمثلت فى وصول خبر موقعة بعض الأنصار إلى مسامع
رسول الله ، وإصدار أمره إلى سعد بن عباد بجمعهم فى حظيرة من الحظائر لا يشرك
غيرهم معهم ^(١) .

روى ابن إسحاق ، والإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ، والإمام أحمد ، والشيخان

(١) سبل الهدى والرشاد ٥ / ٥٨٤ وما بعدها .

من طريق أنس بن مالك ، والشيخان عن عبد الله بن يزيد بن عاصم - رضى الله عنهم - أن رسول الله ﷺ أصاب غنائم حنين . وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم ، وفي رواية : طفق يعطى رجلا المائة من الإبل ، ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير ، فوجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم ، حتى كثر فيهم القالة حتى قال قائلهم : يغفر الله - تعالى - لرسول الله ﷺ إن هذا هو العجب ؛ يعطى قريشا - وفي لفظ : الطلقاء والمهاجرين - ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟! إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا ؟! وددنا أنا نعلم ممن كان هذا ، فإن كان من أمر الله تعالى صبرنا ، وإن كان من رأى رسول الله ﷺ استعتهنا .

وفي حديث أبى سعيد : فقال رجل من الأنصار لأصحابه : لقد كنت أحدثكم أن لو استقامت الأمور لقد آثر عليكم . فردوا عليه ردا عنيفا . قال أنس : فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم ، وقال أبو سعيد : فمشى سعد بن عباد إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إن هذا الحى قد وجدوا عليك فى أنفسهم . قال : « فيم ؟ » قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم فى قومك وفى سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء ، فقال رسول الله ﷺ : « فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ » قال : ما أنا إلا امرؤ من قومي ، فقال رسول الله ﷺ : « فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة - وفي لفظ : فى هذه القبة - فإذا اجتمعوا فأعلمنى ، فخرج سعد يصرخ فيهم حتى جمعهم فى تلك الحظيرة .

وقال أنس : فأرسل إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من آدم ولم يدع غيرهم ، فجاء رجال من المهاجرين فأذن لهم فيهم ، فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم ، حتى إذا لم يبق أحد من الأنصار إلا اجتمع له ، أتاه - أى : سعد - فقال : يا رسول الله : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، حيث أمرتني أن أجمعهم ، فخرج رسول الله ﷺ فقال : « هل منكم أحد من غيركم ؟ » قالوا : لا يا رسول الله إلا ابن أختنا ، قال : « ابن أخت القوم منهم » فقام رسول الله ﷺ خطيبا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « يا معشر الأنصار ألم آتكم ضلالا فهداكم الله - تعالى - وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف بين قلوبكم - وفي رواية : « متفرقين فألفكم الله ؟ » - قالوا : بلى يا رسول الله ، الله ورسوله أمنُّ وأفضل .

وفي رواية : قال رسول الله ﷺ : « ألا تحبون يا معشر الأنصار ؟ » قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ وماذا نجيبك ؟ المن لله - تعالى - ولرسوله ﷺ قال : « والله لو شئتم لقلتم فصدقتهم وصدقتهم : جئتنا طريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ، وخائفاً فأمنك ، ومخدولاً فنصرناك ، ومكذباً فصدقناك » فقالوا : المن لله - تعالى - ولرسوله ، فقال : « وما حديث بلغني عنكم ؟ » فسكنوا ، فقال : « ما حديث بلغني عنكم » ؟ فقال فقهاء الأنصار : أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئاً ، وأما أناس منا حديثه أسنانهم قالوا : يغفر الله - تعالى - لرسوله ﷺ يعطى قريشا ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم !! فقال رسول الله ﷺ : « إني لأعطي رجالاً حديثي عهد بكفر لآئلفتهم بذلك » .

وفي رواية : إن قريشاً حديثو عهد بجاهلية ومصيبة ، وإنني أردت أن أجبرهم وأتألفهم ، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة (*) من الدنيا تألفت بها قوما أسلموا ، ووكلتكم إلى ما قسم الله - تعالى - لكم من الإسلام ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم تحوزونه إلى بيوتكم ؟ فوالله لمن تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار .

وفي رواية : - « لو سلك الناس واديا وسلكت الأنصار شعباً - أنتم الشعار والناس دثار ، الأنصار كزشي وعيبتى ، ولولا أنها الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار » فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا بالله ورسوله حظاً وقسماً .

إن رسول الله ﷺ يعرف كم هي طيبة طينة الأنصار ، وكم هي صافية طبيعتهم ، وكم هي مؤمنة نفوسهم ، إنهم الدين آووا ونصروا ، ولكنهم بشر تتأثر عامتهم بما يتأثر به عامة الناس ، إن الرسول يذكرهم بما كانوا فيه من ضلال وما قد صاروا إليه من هداية في جواب قاطع حاسم ، ثم يدلّف إلى قلوبهم وما يجول فيها من خواطر وأفكار ثم يطرح على أسماعهم ما قد جال في خواطرهم قائلاً : « والله لو شئتم لقلتم فصدقتهم »

(*) اللعاعة : بقلة خضراء ناعمة ، شبه بها الرسول زهرة الدنيا ونعيمها ، والمقصود بها : بقية .

وَصُدِّقْتُمْ : جئنا طريدا فأويناك ، وعائلا فأسيناك ، وخائفا فأمنّاك ، ومخذولا فنصرناك ، ومكذّبا فصدقناك »

هنا تقرُّ بلابل القوم الساخطين ، فالرسول - في بلاغته وصراحته وصدقه - قد آمن على ما يجول بخواطيرهم ، ثم يبسط لهم الحكمة مما صنع « إني لأعطي رجلا حديثي عهد بكفر لثألفهم بذلك » ثم يختم الرسول الكريم حوارَه مع الأنصار على النحو الذي لا يرضيهم في دنياهم وحسب ، وإنما يرضيهم ويكرمهم في الدنيا والآخرة : « أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحاهم بالشاة والبعر ، وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم تحوزونه إلى بيوتكم ؟ فوالله لمن تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار » .

وكانت مدرسة محمد ﷺ تتسم ببلاغة القول وجمال البيان ، وكان الرسول ﷺ يعنى من خلال حوارَه مع صحابته يبتغى تنشئتهم على الفصاحة وحسن البيان . إن مصطفى صادق الرافعي رأس مدرسة البلاغة الإسلامية في العصر الحديث يجيء بهذا الحوار الفريد في مجال البيان المحمدي على هذا النحو : (١)

روى أنه ﷺ بينما هو جالس ذات يوم مع أصحابه إذ نشأت سحابة ، فقالوا : يا رسول الله ، هذه سحابة ، فقال : كيف ترون قواعدها أوميضاً ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنا !! قال : وكيف ترون رحاها ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد استدارتها . قال : وكيف ترون وبواسقها ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد استقامتها . قال : وكيف ترون برقها ؟ أو ميضاً أم خعياً أم يشق شقا ؟ قالوا : بل يشق شقا . قال : فكيف ترون جونها ؟ قالوا : ما أحسنه وأشد سواده . فقال - عليه السلام - : الحيا المطر ، وقواعد السحابة : أسافلها ، ورحاها : وسطها . وبواسقها : أعاليها ، ووميض : اللمع الخفى ، وخعياً - يسكون العين - أى : ضعيفا ، وجون السحابة : أسودها . فقالوا : يا رسول الله ما رأينا الذي هو أفصح منك !! قال : وما يمنعني من ذلك ، فإنما أنزل القرآن بلساني ، لسان عربى مبين .

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣٠١ طدار الكتاب العربى / بيروت .

ويعلق الرافعى على تعقيب الصحابة على رسول الله في قولهم : « ما رأينا الذى هو أفصح منك » قائلا : فتأمل قولهم : « ما رأينا الذى هو أفصح منك » فإن تعبيرهم « بالذى » يدل على تمكن هذا الاعتقاد منهم ، وأنهم يخبرون عن نظر ومعرفة واستقصاء ، وأنه ليس في جميعهم واحد يقال عنه « الذى » .

وصفحة الحوار مفتوحة دائما بين رسول الله ﷺ وصحابته تتناول مختلف الموضوعات وتغوص إلى أدق الشئون ، حتى تلك التى يبدو أن الحوار فيها محوط بالحرج والحديث حولها يدعو إلى إثارة النفوس ، مثل حديث الفقر والغنى ، أو مثل امتياز الأغنياء على الفقراء . إن شيئا من ذلك يثور في نفوس الصحابة ؛ لأن قدرة الغنى على كسب مزيد من الحسنات حين يبذل من ماله تضعه في مقام أسمى ورتبة أرفع بقدر ما ينفق من مال في سبيل الله ، وما يبذل من صدقات للسائل والمحروم وابن السبيل ، ولكن الصحابة ما إن يثيروا الموضوع في ساحة الحوار مع رسول الله حتى يجدوا الجواب مقنعا ، والرد مرضيا ، والعلاج شافيا ، إقناع ورضى وشفاء ، ليس للنفوس وحسب وإنما للنفوس والقلوب والعقول جميعا .

عن أبى ذر - رضى الله عنه - أن أناسا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبي ﷺ : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال :

« أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن منكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة » .

قالوا : يا رسول الله أياتى أحدنا شهوته ويكون فيها أجر؟ قال : « أرأيتم لو وضعها في حرام ، أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » ^(١) . رواه مسلم هكذا كان الحوار مع الرسول ﷺ علاجا لما كان يحول بخواطر بعض الصحابة من

(١) الأربعون النووية . الحديث رقم ٢٥ .

معانى المفردات : أهل الدثور : يعنى الأغنياء وأهل الوفرة . التهيلة : يعنى أن تقول : لا إله إلا الله .

تصور لفضل يفوز به أغنياء المسلمين دون فقرائهم بسبب الغنى ووفرة المال لدى الأغنياء ، وقلته لدى الفقراء . إن لدى الفقراء ما هو أفضل مما لدى الأغنياء ، لديهم التقرب إلى الله بكثرة التسبيح ، والإهلال بالتكبير ، والتكرار في التحميد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

إن هذا اللون من ألوان الحوار يمكن أن نطلق عليه الحوار التعليمي ، ولعل هذه التسمية أكثر ما تكون اتفاقاً وانطباقاً على حديث التعريف بالإسلام والإيمان الذي رواه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - :

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه : على فخذه وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرني عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله : كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال فأخبرني عن الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أماراتها قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، ثم انطلق ، فلبث ملياً ، ثم قال : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » . رواه مسلم .

إن هذا الحوار فرد في بابه ؛ لأنه ليس حواراً بين الرسول والصحابة ولا هو حوار بين الرسول وأحد من البشر . وإنما هو حوار طرفاه خاتم الرسل محمد ﷺ والروح الأمين جبريل - عليه السلام - جبريل يتولى توجيه السؤال ، والرسول ﷺ يجيب في دقة وبلاغة ووضوح وإيجاز . جبريل يسأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، ثم عن

الساعة ، والرسول ﷺ يعرف بكل من الإسلام والإيمان والإحسان تعريفا محددًا ، وأما حين سئل عن الساعة فكانت الإجابة التي لم ترتفع بلاغة فرد إلى أدنى مستوى من بلاغتها ، حتى صارت مثلاً يجرى على ألسنة البلغاء أهل المسائل : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » (١).

وكأنما كان القصد من سؤال جبريل للرسول ﷺ عن تعريف كل من الإسلام والإيمان على حدة هو وضع حدٍّ نهائي فاصل بينهما ؛ حتى يقرّ في قلوب المسلمين من كافة طبقاتهم أن الإيمان مرحلة أرفع من مجرد الإسلام ، مصداقاً لقول ربنا - عز وجل - :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (٢).

(١) رياض الصالحين . الحديث الأول في باب المراقبة .
(٢) الحجرات ، الآية : ١٤ .



الفصل الرابع

الرسول يتحدث لغات القبائل

الرسول يتحدث لغات القبائل

إن التنوع البلاغى فى أساليب الحوار وفنون القول لا يقف فى كلام رسول الله ﷺ عند حدٍّ من الحدود ، أو يقتصر على غاية من الغايات ، إنه السيل المتدفق ، السيل الذى لا يدمر ولا يجتاح ، وإنما هو السيل الذى يزرع الخير ، ويشيع النماء ، وينبت كل نافع من القيم والمعانى المتعددة الألوان ، المتكاملة الأهداف .

وإذا كانت ألوان الحوار التى قدمنا منها نماذج فى الصفحات السابقة قد جرت بين رسول الله ﷺ وبين أفراد مؤمنين وغير مؤمنين ، وبين جماعات بعضها احتلت سويداء قلب رسول الله ﷺ سمو مكانة ، وعلو مقام ، كالصحابة من المهاجرين والأنصار، وبين بعض الملائكة المقربين وبين رؤساء وملوك ، وبين دهماء وسوقة وغيرهم ، فإن ثمت نوعاً من الحوار جرى بين رسول الله ﷺ وبين بعض الوافدين عليه فى عام الوفود - عام تسع هجرية - اتسم بها لم يتسم به غيره من سابق ألوان الحوار الذى سبق التمثيل له .

لقد اشتمل ذلك الحوار الذى نحن بصدده على ظاهرة غير مسبقة ، تلك هى أن رسول الله ﷺ كان يخاطب كل قبيلة بلغتها أو بلهجتها المحلية مهما تعددت القبائل ، ومهما تنوعت اللهجات ، يحاورها ﷺ بأرفع أسلوب عرفته لهجتها ، وكأنه نشأ فيهاهم وأقام بينهم ، مع أنه لم يسبق له ﷺ أن التقى بهم ، أو زار منازلهم وديارهم ، ومن ثم فالمسألة هنا تتعدى نطاق البلاغة إلى معجزات النبوة ، وإلا فكيف تعلل هذه البلاغة الفائقة فى لهجات ومصطلحات لم تألفها البيئة التى نشأ فيها الرسول ﷺ ؟

يتمثل هذا اللون فى عديد من اللقاءات التى جرت بين رسول الله ﷺ وبين الوفود التى ارتحلت إليه فى المدينة المنورة عام تسع للهجرة ، ومنها ذلك الحوار الذى جرى بين الرسول ﷺ وطهفة بن أبى زهير النهدى ، وهذا خبره :

قال عمران بن حصين وحذيفة بن اليمان ، صاحباً رسول الله ﷺ : لما قدمت وفود

العرب على النبي ﷺ قام طهفة بن أبي زهير النهدي ، فقال : أتيناك يا رسول الله ، من غُورَى تِهَامَةَ ، بِأَكْوَارِ الْمَيْسِ ، تَرْتَمَى بِنَا الْعَيْسِ ، نَسْتَحْلِبُ الصَّيِيرَ ، وَنَسْتَحْلِبُ الْخَيْرَ وَنَسْتَعْضِدُ الْبَرِيرَ ، وَنَسْتَحِيلُ الرَّهَامَ ، وَنَسْتَحِيلُ - أَوْ نَسْتَجِيلُ - الْجُهَامَ ، فِي أَرْضِ غَائِلَةِ النَّطَا ، غَلِيظَةِ الْمُوْطَا ، قَدْ نَشِفَ الْمَذْهَنُ وَيَسَّ الْجُعَيْنُ ، وَسَقَطَ الْأُمْلُوجُ ، وَمَاتَ الْعُسْلُوجُ ، وَهَلَكَ الْهَدْيُ وَمَاتَ الْوَدْيُ ، بَرْتْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْوَثَنِ وَالْعَنَنِ ، وَمَا يَحْدُثُ الزَّمَنُ ، لَنَا دَعْوَةُ السَّلَامِ وَشَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ ، مَا طَمَا الْبَحْرُ ، وَقَامَ تِعَارُ ، وَلَنَا نَعَمٌ هَمَلٌ أَغْفَالٌ مَا تَبْضُ بِلَالٍ ، وَوَقِيرٌ كَثِيرُ الرِّسَالِ قَلِيلُ الرِّسَالِ ، أَصَابَتْهَا سَنَةٌ حَمْرَاءُ مُؤَزَلَةٌ ، لَيْسَ لَهَا عِلَلٌ وَلَا تَهْلُ .

فقال رسول الله ﷺ :

« اللهم بارك لهم في محضها ومخضها ، وَمَذْقِهَا وَفَرَقِهَا ، وَابْعَثْ رَاعِيَهَا فِي الدُّنْيَا بِيَانَعِ الثَّمَرِ ، وَافْجُرْ لَهُمُ الثَّمَرَ ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي الْمَالِ وَالْوَلَدِ ، مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ كَانَ مُسْلِمًا ، وَمَنْ آتَى الزَّكَاةَ كَانَ مُحْسِنًا ، وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَانَ مُخْلِصًا . لَكُمْ يَا بَنِي نَهْدٍ وَدَائِعُ الشَّرِّ وَوَضَائِعُ الْمَلِكِ ، لَا نَلْطَطُ فِي الزَّكَاةِ ، وَلَا نَلْحَدُ فِي الْحَيَاةِ ، وَلَا نَتَنَاقَلُ عَنْ الصَّلَاةِ » .

وكتب معه كتاباً إلى بني نهد : « من محمد رسول الله إلى بني نهد بن زيد : السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم يا بني نهد ، في الوظيفة الفريضة ، ولكم العارضة والفريضة ، وذو العنان الركوب ، وَالْفُلُوقُ الضَّيِّسُ ، لَا يُمْنَعُ سَرْحُكُمْ ، وَلَا يُعْضَدُ طَلْحُكُمْ ، وَلَا يُجْبَسُ دَرَكُكُمْ ، وَلَا يُوَكَّلُ أَكْلُكُمْ ، مَا لَمْ تَضْمُرُوا الْإِمَاقَ وَتَأْكُلُوا الرِّبَاقَ ، مَنْ أَقْرَبَا فِي هَذَا الْكِتَابِ فَلَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ ، وَالذِّمَّةُ ، وَمَنْ أَبَى فَعَلِيهِ الرُّبُوءُ » .

وفي رواية بعد قوله : « ووضائع الملك » : « ما لم يكن عهد ولا موعد » (١).

لقد لفت هذا النهج من القول أصحاب رسول الله وهم قمة فصحاء هذه الأمة

(١) منال الطالب لمجد الدين بن الأثير صفحة ٣٥ وما بعدها . وقد أخرج هذا الحديث أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، وأبو سفيان حمد الخطابي ، وأبو القاسم محمود بن عمر الزعفراني في الفائق ، والحافظ الأصفهاني ، وهو - كما يقول ابن الأثير - حديث متداول مشهور .

بعده ﷺ فما أن سمعوا محمداً ﷺ يتدفق بلهجات غريبة عنهم حتى قال له على بن أبي طالب : يا رسول الله ، نراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، ونحن بنو أب واحد ، فقال : « أدبني ربي فأحسن تأديبي ، وربيت في بني سعد » .

هكذا تتأكد الحقيقة بأن مقدرة رسول الله ﷺ فصاحة قول ، وتصرف لفظ ، وتعدد عبارة ، إنما هي منحة إلهية اختص بها دون سائر البشر ، حتى إن أصحابه حين سألوه بلسان علي بن أبي طالب عن تلك الظاهرة الفريدة كانت إجابته الشريفة : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .

- شرح الغريب :

الطهفة : من أسماء الأشجار مثل طلحة ، وهي أعلى الصُّليان ، وهو نبت تسمن عليه الإبل ، والطحف : الدرة ، واحدها : طهفة بفتح الطاء أو كسرهما .
 الغور : الأرض المنخفضة ، وهو ضد النجد .
 تهامة : اسم مكة وما حولها من الأغوار .
 الأكوار : جمع الكور - بالضم - وهو رحل البعير ، كالسرج للفرس .
 الميس - يسكون الياء - : شجر صلب أملس تتخذ منه الرجال ، وقيل أيضا : الميس هو الرجل ترمى بنا : تسرع .
 العيس : الإبل البيض التي في بياضها ظلمة خفية ، واحدها عيساء .
 الصَّبِير : سحاب أبيض متراكب ، وهو أقل السحاب مطراً ، واستحلاب الصبير : يعني استدراره .
 تستخلب : من الخلب ، وهو القطع والشق .
 الخبير : النبات .
 تستعصد : من العصد - يسكون الضاد - وهو القطع ، وبه سمى المعصد وهو المنجل .
 البربر : ثمر الأراك . أراد أنهم يجنون من شجره ويأكلونه للجذب والقحط .
 نستخيل : من خلَّته أخاله : إذا ظننته ، وتخيَّلت السحابة : إذا تهيأت كأنها تمطر .
 الجهم : الغيم الذي لا ماء فيه .
 الغائلة : المهلكة ، من غاله يغوله ، إذا أهلكه .
 النُّطاء : البعد ، والنطى : البعيد ، أى : أنها فلاة يُهلك بعدها من سلكها ، ويروى : غائلة المنطا - بفتح الميم - وهو مَقْل منه .
 الموطأ : موضع القدم في المشى .
 المدهن : - بضم الميم - : نقرة واسعة في الجبل أو الصخر يجتمع فيها الماء .
 الجعثن : أصل النبات .
 الأملوج : واحد الأماليج ، وهي ورق كأنه عيدان ، وقيل : هو نوى المقل ، والمقل : هو ثمر الدوم .
 العسلوج : الغصن الناعم الذي يتشعب ورقه .
 الهدى : الهدى ، وهو الذي يهdy من الإبل إلى الكعبة للنحر .
 الودى : الفسيل الصغير من النخل ، واحدها : ودية .

ولعل القارئ المستوعب لأعماق الحوار يلاحظ أن رسول الله ﷺ كان يحاور طهفة بلسان قومه الملىء باللفظ المستغلق فهمه والكلم الغريب معناه ، فإذا كان الموضوع مرتبطا بالعقيدة والشرعية عمد رسول الله ﷺ إلى اللفظ المأنوس والمعنى القريب ، ذلك لأن الحوار هنا خرج من إطار الخاص إلى نطاق العام ؛ لأن حديث العقيدة والشرعية ليس قاصرا على طهفة وقومه ، وإنما هو لجميع المسلمين على اختلاف لهجاتهم ولغاتهم ، فكانت اللفظة المحمدية الأسلوبية التي وضعت الكلام في الثوب الأنيق الفصيح ، والإطار المفهوم الواضح : « من أقام الصلاة كان مسلما ، ومن آتى الزكاة كان محسنا ، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصا » فلما انتهى الرسول ﷺ من ذكر هذه الأركان عاد إلى مخاطبة طهفة بلغة قومه بنى نهد في أغوار تهامة .

وإذا انتقلنا إلى حوار آخر من ألوان الحوار التي كانت تجرى بين رسول الله ﷺ وبين الوفود فإننا سوف نتمثل هذه المرة بحوار الرسول مع وافد من أطراف نجد ، إنه جرير ابن عبد الله البجلي الذي جاء يبائع الرسول في أحد عشر راكبا من قومه وقد رواه عبد الله ابن عباس على النحو التالي : (١).

« كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة قعد في مصلاه حتى تطلع الشمس ، فقال

= العنن : الاعتراض والاختلاف والباطل واللجاج .

طما البحر : ارتفع وعلا .

تعار : - بكسر التاء - جبل في بلاد قيس من أعمال المدينة لا يثبت شيئا .

النعم : - بفتح النون المشددة - اسم جنس يقع على الإبل والبقر والغنم ، وأكثر ما يستعمل في الإبل .

المهل : - بفتح الهاء والميم المهملة - التي لا رعاة فيها ، ولا من يصلحها ويهدبها .

الأغفال : جمع غفل - بالضم - وهي النعم التي لا سمة عليها . وقيل : الغفل : الذي لا يرجى لا خيره ولا شره ، وقيل :

أراد بها التي لا ألبان لها .

بقر يبض : إذا قطر منه اللبن .

البلال : - بالكسر والفتح - النداء ، واليسير من الماء قدر ما يبل الشيء .

الوقير : الغنم الكثيرة .

الرسل : - بفتح الراء والسين - ما يرسل من الماشية إلى المرعى ، وجمعه : أرسال .

والرسل - بكسر الراء - : اللبن .

السنة الحمراء : الشديدة الجذب ، ويروى (سنية) بالتصغير للتعظيم .

المؤزلة : - بكسر الزاى الخفيفة - الضيقة الشديدة .

(١) منال الطالب ص ٨٢ . والحديث رواه ابن قتيبة في غريب الحديث ١ / ٥٤٢ والزحشرى في الفائق ١ / ٤٣٢ .

يوماً : يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذى يمن ، عليه مسحة ملك . فطلع جرير بن عبدالله البجلي في أحد عشر راكباً من قومه ، فعقلوا ركا بهم ، ثم دنوا ، فقال جرير : يا معشر قريش ، أين رسول الله ؟ فقال رسول الله : يا جرير ، أسلم تسلم ، إن غلظ القلوب والجفاء والحبوب في أهل الوبر والصوف ، يا جرير ، إنك لن تستحق حقيقة الإسلام ، ولا تستكمل شريعة الإيمان حتى تدع عبادة الأوثان .

ثم قال : « أين تنزلون يا جرير ؟ » قال : نَنَزُّلُ في أكناف بيشة ، بين سَلَم وأراك ، وسَهْلٍ ودكدك ، ومُحْوِضٍ وعَنَّاك ، ونُخْلَةٍ وضالة ، وسِدْرَةٍ وآءة ، ونُجْمَةٍ وأئلة ، شتاؤنا ربيع ، ورَبِيعُنا مَرِيع ، وماؤنا يَمِيع ، لا يُقَامُ ما تَحُيُّها ، ولا يَحْسَرُ صابِحُها ، ولا يَعَزُبُ سارِحُها .

فقال النبي ﷺ : « أما إن خير الماء الشَّيْمُ ، وخير المالِ الغَنَمُ ، وخير المرعى الأراكُ والسَّالِمُ ، إذا أخلف كان لِحِينا ، وإذا أَكَل كان لِينا ، وإذا سقط كان دَرِينا » .

فقال جرير : يا رسول الله ، أخبرني عن السماء الدنيا ، وعن الأرض السفلى .

قال : « خلق الله السماء الدنيا من الموج المكفوف ، وحَفَفَها بالنجوم ، وجعلها رُجُوماً للشياطين ، وحَفَظَها من كل شيطانٍ رجيم ، وخلق الأرض السفلى من الزَّيْدِ الجُفَا ، والماء الكَبَاء ، سبحان خالقِ النور » .

ثم ذكر إسلامه ومبايعته (*) .

لعله من الواضح بمكان أن حوار رسول الله ﷺ مع جرير كان بلهجة بَجَلَة غير

(*) المعاني :

الفَج : الطريق والمسلك الواسع . أذواء اليمن : ملوكهم . الحوب - بضم الحاء - : الإثم . أهل الوبر والصوف : أهل الإبل والغنم . الأكناف : النواحي . بيشة : واد كان لبنى خفاجة . الدكدك : الرمل المتلبد بالأرض . العنَّاك : الرمل . آءة - بوزن عاهة - : شجر معروف . النجم : الثبت عما لا يقوم على ساق . المريع : الخصب . يميع : يسيل . الماتح : الذي يستعمل الدلو . الحسور - بضم الحاء والسين - : التعب . لا يعزب سارحها : لا تبعد مواشيهم في طلب المرعى . العازب : البعيد . الشبم : البارد . إذا أخلف : إذا أخرج الخلفة وهي الورق يخرج في النبات بعد الورق الأول . اللجين - بتشديد اللام المفتوحة - : ورق تأكله الإبل ، ويسمى الجبط - بفتح ثم كسر - الدرين - حطام المرعى إذا قدم وتفتت . اللين : من اللبن . الرجيم : المرجوم . الزيد الجفاء : ما جفاه الوادي . الماء الكبا - بفتح الكاف - : هو العالى العظيم ، من كبا الفرس يكمبو : إذا ربا وانتفخ .

المألوفة على أسماع الحضور من أهل الحجاز من مهاجرين وأنصار . وهذا الحوار وإن يكن حوار مبايعة فهو في الوقت نفسه درس من رسول الله ﷺ للسامعين جميعاً من وافدين ومقيمين .

ومن ألوان الحوار العجيبة المباركة ، ذلك الحوار الذي جرى بين رسول الله وبين رجل صدق به قبل الرسالة ، وآمن به قبل أن يوحى إليه ، وهذا هو سبب العجب في هذا الحوار . هذا الرجل هو خزيمة بن ثابت السلمى ثم البهزى ، وقيل : ابن حكيم بدلاً من ثابت ، وكان قد خرج مع النبي قبل البعثة في تجارة لخديجة ، والسفر يقتضى طول المصاحبة خاصة إذا استغرق أسابيع عديدة ، إن ما رآه خزيمة من سلوك محمد وشيئله التي لم يتصف بمثله غيره قد جعلته يعتقد أن محمداً هو النبي المنتظر ، فأمن به قبل أن يبعث ، ووعدته قبل أن يفترقا أن يسارع إليه متى سمع بخروجه ، ولكن تشاء المقادير ألا يلتقى خزيمة برسول الله إلا يوم فتح مكة ، أى : بعد المبعث بواحد وعشرين عاماً . وهذه هي جملة الخبر ونص الحوار كما أوردها الشيخ مجد الدين بن الأثير (١).

خرج مع النبي ﷺ في غير لخديجة بنت خويلد ، إلى الشام ، وكانت بينه وبين خديجة قرابة ، فقال له : يا محمد ، إنى أرى فيك خصالاً ، وأرى عليك من الناس محبة ، وأشهد أنك النبي الذي يخرج من تهامة ، وقد آمنت بك ، فإذا سمعت بخروجك أتيتك . .

فلما انصرفوا رجع خزيمة إلى بلاده ، فأبطأ عن رسول الله ﷺ ، حتى كان يوم فتح مكة ، فوقف على النبي عليه السلام ، فلما رآه قال : «مرحباً بالمهاجر الأول ، ما الذى ببطأ بك يا خزيمة ؟ أين ما وعدتني ؟ قال : يا رسول الله ، ما منعتني أن أكون من أول من أتاك ، وأنا مؤمن بك ، غير منكر لبيعتك ، ولا ناكث لعهدك ، وأنا مقرر بالقرآن ، كافر بالطغيان ، مؤمن بالرحمن ، بريء من الأوثان ، والله لقد أتيتك وعذرى عذد أصابعي هذه ، فما تهنئني عنك أن لا أكون أول من دان بدينك وأجاب دعوتك ، إلا أنه أصابتنا بعدك سنوات شداً متواليات ، تركت المخ راراً ، والمطى هاراً ، غاضت لها

(١) منال الطالب ، ص ٤٧ .

الدَّرَّةُ ، وَنَقَصَتْ لَهَا الثَّرَّةُ ، وَعَادَ لَهَا النَّقَادُ مُجَرَّنِيًا ، وَالذَّيْخُ مُحْرَجِيًا ، وَالْفَرِيْشُ مُسْحَنِكِيًا ، وَالْعَضَاءُ مُسْتَحْلِكِيًا ، أُيْسِتْ بِأَرْضِ الْوَدَيْسِ ، وَاجْتَا حَتْ جَمِيْمَ الْيَيْسِ ، وَأَفْنَتْ أَصُولَ الْوَشِيْجِ ، حَتَّى آلَ السُّلَامَى ، وَأَخْلَفَ الْخُزَامَى ، وَأَيْنَعَتِ الْعَنَمَةُ ، وَسَقَطَتِ الْبَرْمَةُ ، وَبَضَّتِ الْحَلَمَةُ ، وَتَفَطَّرَ اللَّحَاءُ ، وَحَمَلَ الرَّاعِي الْعُجَالََّةَ ، وَاکْتَفَى مِنْ حَمَلِهِ بِالْقَيْلَةِ ، أَتَيْتُكَ مُسْرِعًا غَيْرَ مَبْدُلٍ لِقَوْلِي .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَعْزِضُ عَلَى عَبْدِهِ نَصِيحَةً ، فَإِنْ قَبِلَهَا سَعِدَ ، وَإِنْ تَرَكَهَا شَقِيَ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ لِمُسَىءِ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَلِمُسَىءِ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَإِنْ أَحَقَّ ثَقِيلَ كَثَقَلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِنْ الْبَاطِلُ خَفِيفَ كَخَفْتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّ الْجَنَّةَ مَحْظُورٌ عَلَيْهَا بِالذَّلَائِلِ ، وَإِنَّ النَّارَ مَحْظُورٌ عَلَيْهَا بِالشَّهَوَاتِ . أَنْعَمَ صَبَاحًا ، تَرَبَّتْ يَدَاكَ» (*) .

(*) المعاني :

السلمى : منسوب إلى سليم (بضم ثم فتح) بن منصور من قبس عيلان . البهزى - بفتح الباء وسكون الهاء - : منسوب إلى بهز بن امرئ القيس بن بهثة - بضم ثم سكون - بن سليم .
العرير : الإبل تحمل الميرة والبز وغيرهما من بلد إلى بلد للتجارة .
النكت : نقض العهد . الطغيان : مجاوزة الحد ، وأريد به مخالفة سنن الإسلام وحدوده .
الأوثان : جمع وثن ، وهو كل ما يعبد من دون الله .
والرحمن : اسم خاص لله تعالى ، لا يطلق على غيره ، وهو فعلا ن ، من الرحمة ، للمبالغة .
والنهنهة : الكف والمنع والزجر عن الشيء ، والأصل فيه : نه ، بثلاث هاءات ، فأبدلوا من الهاء الوسطى نونا للفرق بين فَعَلَّلَ وَفَعَّلَ .
والدين : الطاعة ، يقال : دان له يدين : إذا أطاعه ودخل تحت حكمه ، ودان فلان بدين فلان : إذا أخذ به وتابعه عليه .

والسنوات : جمع صحة لسنة ، ويريد بها الجذب ، ولذلك وصفها بالشدة .
والرار : الرقيق الذائب ؛ لشدة الجذب والهزال ، فلان المخ مع السمن يكون ثخيناً يملأ العظم .
والمطى : جمع مطية ، وهى الناقة التى يركب مطاها ، أى ظهرها ، وقيل : لأنها يملأ بها فى السير ، أى : يمد ، يقال : مطوت بهم فى السير ، أمطو مطوا .
والهار - بتخفيف الراء - : الساقط الضعيف ، من هار يهوى هواراً ، فهو هائرٌ وهائرٌ وهارٍ ، بالرفع والجور ، فأما هائر فهو الأصل ، كقائل من قال .
ويروى : « هاراً » بالتشديد ، من هر يهر : إذا كلى فى وجهه وصاح عليه ، كما يهر الكلب ، أى : هر بعضها فى وجه بعض من الجهد وشدة الزمان .

.....

= والغبيض : النقص ، وغاضبت العين : إذا غارت .

والدرة : اللبن والمطر .

والثرة : كثرة اللبن . يقال : سحب ثر : كثير الماء ، وفاقرة ثرة : واسعة مخرج اللبن من الضرع ، ويقال فيها : الثرة بالكسر .

والنقاد : جمع نقد - بالتحريك - وهي رذال الضأن وصغارها .

والمجرثم : المجتمع المتقبض ، وتجمعها من الجذب ، لأنها لا تجد مرعى تنتشر فيه .

والنون زائدة . ولم يقل : مجرثمة ، لأن لفظ النقاد لفظ الاسم الواحد ، كالجدار والحمار .

وفي رواية : « اليراع » بدل « النقاد » . واليراع : الضعاف من الغنم وغيرها ، والأصل في اليراع : القصب ، ثم سمي به كل ضعيف ، ولذلك قيل للجبان : يراع ، كأنه خالي الجوف من قلبه ، خلو باطن القصب .

والديخ ، بالذال والحاء المعجمتين : ذكر الضبياع ، والأثنى : ذبيحة .

والمجرثم : الكالغ المتقبض من شدة الجذب ، والنون زائدة . أى : عم المحل حتى نال السباع والبهايم .

والفريش : صغار الإبل ، وقيل : صغارها الفرش . والفريش : الناقة التى ولدت حديثاً ، كالنفساء من النساء .

وقيل : الفريش من النبات : ما انبسط على وجه الأرض ، ولم يقم على ساق . وقال الأزهرى : هو الموضوع الذى يكثر فيه النبات .

والمسحكنك : الشديد السواد ، من الاحتراق . يقال : اسحكنك الليل : إذا أظلم ، والنون زائدة .

والعضاه : شجر الشوك ، وأحدثها عضة ، وهي أنواع كثيرة .

والمستحلل : الأسود ، يقال : أسود حالك ، أى : شديد السواد .

والبارض : أول ما يبدو من النبات ، من البهيمى وغيرها ، وهو نبت ينبت في السهل ، فهي ما دامت صغاراً : بارض ، فإذا طالت تبينت أنواعها .

والوديس والودس : أول نبات الأرض ، وأودست الأرض وتودست : إذا أنبتت ما غطى وجهها ، وقيل : هو ما طال منه وكثر .

واجتاح : أهلك واستأصلت .

والوشيج : ما تلف من الشجر . أى : أفنت أصول الشجر ، إذ لم يبق في الأرض ثرى ولا نداوة . وقيل : الوشيج : نبات له أغصان وورق لطاف .

والجميم : نبت يطول حتى يصير مثل جمة الشعر ، وقيل : هو ما طال من البارض ، والعميم أطول منه .

والبييس : اليباس من النبات . يقال : ييس فهو يبييس ، مثل سلم فهو سليم .

وأل : بمعنى عاد ورجع ، والأول : الرجوع .

والسلامى : عظام الأصابع ، جمع سلامية ، وهي الأنملة من أنامل الأصابع . أى : عاد المنخ إلى العظم ، يقال : آخر ما يبقى المنخ في السلامى .

والخزأى : نبت له زهر أزرق طيب الريح ، وهو خيرى البر .

وأخلف النبت : إذا أخرج نباتاً وزهراً ، فصار يخلف نباتاً قبله .

والعنمة : واحدة العنم ، وهو شجر له أغصان دقاق ، وثمر أحمر ناعم ، يشبه به البنان .

كم هو باش سيدنا رسول الله ، وأى قدر من الساحة كان هذا الذى يحمله بين جنبيه الشريفين ، فهذا الحوار الرفيع ، يجرى فى أعز أيام الإسلام مكانة ، يوم فتح مكة ، يوم النصر المبين ، اليوم الفصيل فى مسيرة دعوة الإسلام ، ومع ذلك ما إن رأى رسول الله صاحبه القديم خزيمة حتى قال والبشاشة تملأ عطفه : مرحبا بالمهاجر الأول ، ما الذى بطأ بك يا خزيمة ؟!

إن الناظر فى حوار رسول الله ﷺ يجده صورة وضاعة من شخصيته السامية ، وخلاتقه الرفيعة ، وشيمه الحميدة ، وفصاحته الفريدة ، وبلاغته العميقة ، وأسلوبه الوضاء ، ومحجته البيضاء ، حوار ﷺ آخذ بكل أسباب القول الوسيم الرقيق ، والأسلوب العذب الأنقى ، السهل الممتنع الذى تصافح معانيه الأسعاع ثم تنسرب فى يسر إلى مجامع القلوب ، وتلامس حكيمته العقول ، حتى تلك الجمل التى اقتضت مناسباتها أن تكون بنيتها ألفاظا بدوية ، أو كلمات غريبة لا تلبث النفس أن تقبل عليها ، وتقرب إليها ، سعيا وراء فهم مقاصدها ، واستيعاب معانيها ، فتصيب

= وأينعت الثمرة وينعت : إذا نضجت وأدركت .

والبرمة : واحدة البرم ، وهو ثمر الأراك ، ولاطعم له ، كانوا يضطرون إلى أكله عند الجذب ، فلما جاء الخصب سقط من شجرته واستغنوا عنه .

وبضت : أى سالت وتحلبت ، وكذلك ضبت ، على القلب .

والحلمة : رأس اللدى والضرع ، وهو أيضا نبات ينبت فى السهل .

والنفط : التشقق .

واللهاء : قشر الشجر . أى : تشقق فطلعت فروعه وأغصانه لإخراج الثمر .

والعجالة - بالضم - : اللبن الذى يحمله الراعى من المرعى إلى أصحاب الغنم قبل أن تصدر ، وإنما يفعل ذلك إذا كثر اللبن عليه ، فيحلبها فى المرعى .

ويروى : « العجالة » - بالكسر - وهى ما يحمل الراعى عليه زاده ، كالتيس ، والكبش .

وقيل : هما بالضم والكسر : ما يتعجله الإنسان .

والقبيلة - بالفتح - شرب نصف النهار ، من القائلة : شدة الحر . أى : إن الراعى يكتفى بشربه نصف النهار ، ولا يعرض لما يحمله ، من كثرة اللبن .

وبسط اليد : كناية عن الكرم والجود ، وفتح باب البر واللطف والرحمة .

ومسئ الليل والنهار : من باب إضافة اسم الفاعل إلى الظرف ، أى : المسئ فيها . والباء فى الليل والنهار متعلقة ببسط .

والخطر : المنع ، والمحذور : المنوع ، كأنه جعل عليه حظيرة ، وهو ما يتخذ من الشجر حول الغنم .

والدآليل : الدواهي والشدائد ، واحدها : دؤلول .

النفس ثراء من هدى رسول الله ، ونقاء من توجيهاته ، وارتواء من منهجه ، واستقامة من محبته فتنتعش فيها فضيلة التفكير ، ويزيد تنبها إلى نعمة الاقتناع به رسول حق ونبي صدق من لدن عزيز حكيم .

إن متتبع حوار رسول الله ﷺ يجد فيه شفاء لكل نفس ، وضياء لكل قلب ، وراحة لكل عقل ، ولبسا لكل جرح مهما تنوع موضوع الحوار وشخصه . أو تباينت صيغته وأهدافه ، فهو مع الأعرابي مختلف عنه مع الصحابي ، وهو مع الوثني غيره مع الكتابي ، ومع الملك غيره مع عامة البشر ، وهو مع الأنصار قريب إليه مع المهاجرين ، ولكنه في ذلك جميعا يأسر القلب ، ويخلب اللب ، ويأخذ المرء إلى وضاعة الحق ، ويضعه في نور اليقين ، ويفتح له أبواب الخير ، ويغلق دونه منافذ الشر ، ويحلج قرير العين في رحاب دوحة الإيمان ، ورحابة جنة الرضوان .



كتب الرسول ﷺ ورسائله

الفصل الأول : كتب الرسول إلى الملوك من أهل الكتاب .

الفصل الثاني : كتب الرسول إلى غير أهل الكتاب من ملوك وغيرهم

الفصل الثالث : كتب الرسول مع الوفود العائدة .



الفصل الأول

كتبه صلى الله عليه وسلم إلى الملوك من أهل الكتاب

كتبه إلى الملوك من أهل الكتاب

مرت الدعوة الإسلامية بقيادة رسول الله ﷺ بثلاث مراحل متميزة ، كانت المرحلة الأولى منها هي الأشد قسوة ، والأكثر مكابدة ، بسبب عنت قريش في مواجهتهم لرسالة السماء ، وإيقاع الأذى برسول الله وصحابته الأولين على النحو الذي جاء مفصلاً في كتب السيرة .

وكانت المرحلة الثانية هي تلك التي بدأت بوصول الرسول ﷺ إلى مهجره في المدينة ومن حوله الصحابة الذين وفدوا إلى دار الهجرة زرافات ووحدانا قبيل تحرك الرسول من مكة أو بعدها ، حيث لقوا من الأنصار كل ترحيب ودعم وإيثار وحماية ، هذا فضلاً عن المؤاخاة الكاملة التي أنشأها الرسول بين كل اثنين من المهاجرين والأنصار ، وفي هذه المرحلة الثانية صار للدعوة مركز ودولة في « يثرب » التي صار اسمها بعد هجرة الرسول إليها « المدينة المنورة » .

ومن ثم بدأت الدعوة تدافع عن نفسها ضد أعدائها بالمواجهة العسكرية ، فكانت غزوة بدر الكبرى وما صاحبها من نصر الله للمؤمنين على جموع الشرك ، ثم كانت أحد التي تخلى النصر فيها عن المسلمين لأنصارهم عن الاستمسك بتعليمات القائد الأعظم سيدنا محمد ﷺ والتخلي عن أماكنهم الحصينة ، والإسراع إلى جمع بعض الغنائم ، ومع أن الهزيمة كانت شديدة الإيذاء للنبي وصحبه ، فإنها كانت أيضاً درساً نافعا أفاد منه المؤمنون في الغزوات التالية ، وقد استمرت هذه المرحلة إلى أن كان صلح الحديبية سنة ست هجرية ، حيث جرى ما يشبه الاعتراف بدولة المدينة من قبل كفار قريش .

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة ما بعد صلح الحديبية إلى أن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وقد بسط علم الإسلام ضياءه على الجزيرة العربية بأكملها ، ففي المحرم

من السنة السابعة الهجرية (١) - أى : بُعِثَ صلح الحديبية مباشرة - بدأت أول حركة للدعوة الإسلامية خارج الحدود ، فى شكل حملة دبلوماسية مكثفة ، حيث أرسل الرسول ﷺ ستة نفر من الصحابة يحمل كل منهم كتابا إلى كبار ملوك عالم ذلك الزمان ورؤسائه ، فأرسل دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر الروم ، وعبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس ، وكان كل من قيصر وكسرى هما قطبي الرحي فى السيطرة على دائرة الأقطار المحيطة بالجزيرة العربية ، إذ كان قيصر يحتل بلاد الشام حتى شمالى الحجاز وله فيها نائب من أهل البلاد ، وكان كسرى يحتل الجزء الشمالى الشرقى من الجزيرة العربية ، كذلك أرسل النبى ﷺ حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر من قبل الروم ، وعمرو بن أمية الضميرى إلى النجاشى فى الحبشة ، وشجاع ابن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر ملك البلقاء الخاضع لنفوذ قيصر ، وسليط ابن عمرو إلى هوذة بن على الحنفى ملك اليمامة .

هكذا يكون الرسول قد وسع آفاق الدعوة ، فتجاوزت منطقة الحجاز إلى أطراف الجزيرة العربية ، بل تجاوزت الجزيرة كلها إلى امبراطوريتى الروم والفرس اللتين كانتا تتحكمان فى الأقطار الشامية وآسيا الوسطى ومصر والشمال الإفريقى من جانب ، وفارس والعراق وبقية الغرب الآسيوى من جانب آخر ، مما يؤكد أن الدعوة الإسلامية موجهة من رب العالمين إلى الناس جميعاً فى المشرقين والمغربين وليس للعرب وحدهم حسبما يزعم بعض المستشرقين وبعض الأفراد من مقلديهم الذين يحملون أسماء عربية .

وبعد نحو اثنين وعشرين شهرا ، وفى ذى القعدة سنة ثمان على وجه التحديد أرسل الرسول ﷺ ثلاثة نفر من الصحابة يحمل كل واحد منهم كتابا منه ﷺ إلى ثلاثة من ملوك أطراف الجزيرة على هذا النحو : عمرو بن العاص إلى جيفر وعبدالله ابنى الجلندى الأزديين ملكى عمان ، والعلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين ، والمهاجر بن أبى أمية المخزومى إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى ملك اليمن .

على أن رسائل الرسول وكتبه لم تتوقف بعد ذلك ، فقد كتب ﷺ العديد من الرسائل

(١) فى رواية أن ذلك كان فى ذى الحجة سنة ست .

إلى رؤساء القبائل ووجهاء العرب إما مبادأة ، وإما مع من وفدوا عليه معلنين إسلامهم - إذ كان يزودهم برسائل موجهة إلى أقوامهم لتثبيت ولايتهم عليهم ، ولتبصيرهم بفروض الإسلام وأحكامه في الدين أوفى أمور الحياة العامة على ما سوف نعلم إلى بيانه وذكر نهاج منه فيما سوف نستقبل من صفحات إن شاء الله .

كتب الرسول إلى الملوك من أهل الكتاب

بعث الرسول ﷺ برسائل إلى أربعة من أهل الكتاب ، والرؤساء هم : هرقل قيصر الروم ، والحارث بن أبي شمر الغساني ملك البلقاء ، والمقوقس الوالى الرومانى على مصر ، والنجاشى ملك الحبشة ، ولأن هؤلاء الملوك جميعا نصارى من أهل الكتاب فإن أسلوب الرسائل الأربع متقارب ، ومعانيها متشابهة .

كتابه إلى قيصر :

كان حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى قيصر هو دحية بن خليفة الكلبي ، الصحابي الجليل ، وترجح أكثر الروايات أنه سلم كتاب رسول الله ﷺ وهو يحج بيت المقدس ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام (*) » « أسلم تسلم » ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين (*) ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (*) » « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (١) .

كان طبيعيا أن تُحدث مثل هذه الدعوة دويا عظيما في بلاط قيصر ، بل إنها أحدثت

(*) دعاية الإسلام : الكلمة الداعية إلى الإسلام . أجرك مرتين يعنى لإيمان أتباعك بسبب إيمانك ، أو لإيمانك بعيسى ثم محمد . الأريسيون : هم الفلاحون والرعاة .

(١) النص في صحيح البخارى ٧ / ١ ، وتاريخ الطبرى ٨٧ / ٣ ، والكامل لابن الأثير ٨١ / ٢ وعيون الأثر ٢ / ٢٦٠ ، وزاد المعاد ٣ / ١٨ ، وصحيح الأعشى ٣٧٦ / ٦ ، تاريخ الإسلام للذهبي : قسم المغازى ٤١٩ ، والوثائق السياسية في العهد النبوى ١٠٩ .

ارتباكاً وحيرة مصحوبتين بتفكير عميق من لدن قيصر وبطانته ، خاصة وأنهم خارجون من حرب طاحنة جرت بينهم وبين كسرى ، وكان النصر حليفهم فيها .

قال قيصر لرجاله : التمسوا لنا ها هنا أحداً من قوم هذا الرجل نسألهم عنه ، وهو تصرف الساسة المحنكين والملوك الحكماء ، وكان أبو سفيان بن حرب وبعض صحبه من رجال قريش قدموا تجاراً إلى بلاد الشام إبان الهدنة التي كانت بين الرسول ﷺ وبين كفار قريش بعد الحديبية ، فأتاهم رسول قيصر يستدعيهم ليمثلوا بين يديه ، لكي يعرف منهم مزيداً من أخبار محمد ﷺ وشخصيته .

إن أبا سفيان يقص على عبدالله بن عباس ما جرى بينه وبين قيصر من حوار حدث في زمن لم يكن أبوسفيان قد أسلم بعد . يقول أبو سفيان (١) : إن هرقل (قيصر) أرسل إليه في ركب من قريش فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم في مجلسه وعليه التاج وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا لترجمانه فقال : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان : قلت : أنا أقربهم نسبا . فقال : أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم : إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كَذَبَنِي فَكَذَّبُوهُ . فقال : فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا على كذبا لكذبت عنه ، ثم كان أول ما سألتني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزدون . قال : فهل يريد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها (يعني : نحن غائبون عنه منذ مدة من الزمن) قال - يعني أبو سفيان - مستمرا في وصف الحوار - : ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة . قال هرقل : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب

(١) الذهبي : قسم المغازی ص ٤١٨ ، ٤١٩ طبعة دار الكتاب اللبناني .

بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول عبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آبائكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا . قلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءكم اتبعوه وهم أتباع الرسل . وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيوان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيوان حين تخالط بشاشته القلوب . وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بها يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف . فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية الكلبي إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه ، فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . »

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب ، كثر عنده الصخب ، وارتفعت الأصوات ، وأخرجنا . فقلت لأصحابي حين أخرجنا : لقد أمر أمر ابن أبي

كبشة (*) إنه يخافه ملك بنى الأصفر ، فما زلت موقنا أنه سيظهر - أى : يتغلب - حتى أدخل الله على الإسلام .

وإذا كانت رسالة النبي ﷺ قد قوبلت بهذا الاهتمام والاحترام من قبل قيصر ، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لعامله على بلاد الشام المنذر بن الحارث الغساني الذى أراد أن يوغر صدر قيصر ، وطلب إليه السير إلى المدينة لمحاربة الرسول ، ولكن حقه لم يجد أذنا صاغية ، إن قيصر قد أرسل ردًا جميلاً على كتاب الرسول ﷺ يقول فيه :

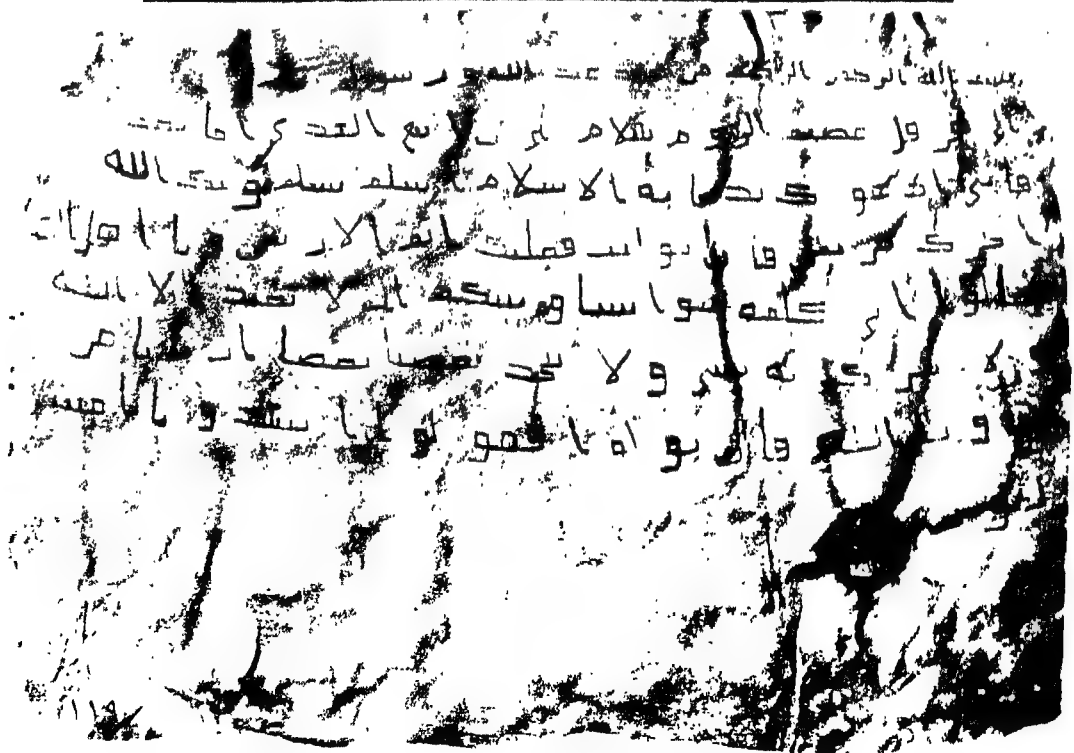
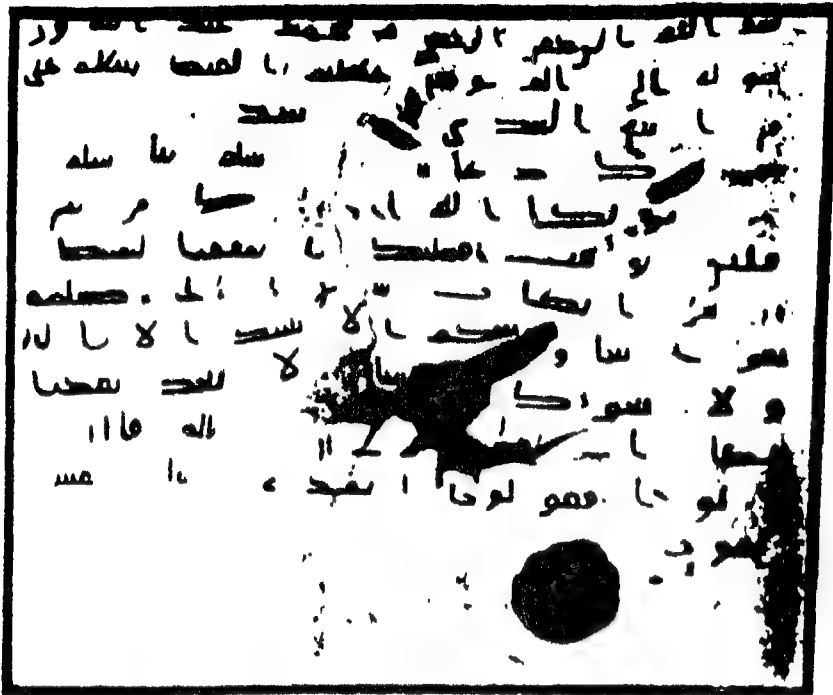
« إلى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى ، من قيصر ملك الروم . إنه جاءنى كتابك مع رسولك ، وإنى أشهد أنك رسول الله ، نجدك عندنا فى الإنجيل ، بشرنا بك عيسى بن مريم ، وإنى دعوت الروم أن يؤمنوا بك فأبوا ، ولو أطاعونى لكان خيراً لهم ، ولوددت أنى عندك وأغسل قدميك » .

إن القارئ لكل من رسالة رسول الله ﷺ ورد قيصر عليه يلحظ التجانس فى فحوى كل رسالة . صحيح أنه لا مجال للمقارنة بين أسلوب الكتاب المحمدى وبنيتة البلاغية الإعجازية وبين أسلوب كتاب قيصر فى الرد على كتاب الرسول ، وإنما الذى يدعو إلى التوقف والاعتبار هو محور الكتاب المحمدى الذى كل مداره على السلام . وتشجيع قيصر بالأجر الإلهى المضاعف ، والدعوة إلى عبادة الإله الواحد ، وأن لا يُشرك به شيء من خلال النظم القرآنى المعجز الذى اقتبسه رسول الله فى دعوته قيصر إلى الإسلام .

كان طبعياً أن يكون الرد على كتاب الرسول إيجابياً الجواب ، إذ يبدو أن قيصر كان على معرفة جيدة بالعقيدة المسيحية التى لم يكن قد أصابها كثير من التحول بعد ، كما كان على إلمام بآيات الإنجيل المبشرة برسالة محمد ، ولم تكن هذه الآيات قد محيت أو تعرضت للحذف مثلما هو حادث فى الأناجيل المعاصرة ، ومن ثم كانت إجابة قيصر ناجزة ومستجيبة ، وإن لم يكن أمر الاستجابة حادثاً من لدن رعاياه الروم .

(*) ابن أبى كبشة رجل من خزاعة خالف قريشاً فى عبادة الأوثان وعبد الشعرى فدعتهم مخالفته لهم أن يطلقوا عليه هذه الكنية ، وقد أراد أبو سفيان بقوله : ابن أبى كبشة ، أى : رسول الله ﷺ .

مخطوطات



كتابه ﷺ إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى :

كان الحارث بن أبى شمر ملكا على جنوب الشام ، وهى إمارة الغساسنة الذين كانوا ملوكا بالاسم ؛ لأن الحكم الحقيقى والأمر والنهى كان لقيصر الروم الذى كان يعدّ الغساسنة بمثابة حاجز بينه وبين عرب الجزيرة الذين كانوا يغيرون على أطراف دولة الروم بين الحين والحين .

وكان الرسول ﷺ يعرف من أمر الغساسنة أنهم على النصرانية ، وأنهم ذوو قوة ومال ، وقد وفد عليهم كبار شعراء الجاهلية ، مثل : النابغة ، وعلقمة ، وحسان ، وقالوا فيهم شعرا جميلا ، ونالوا الكثير من عطاياهم .

ونحن نرجح أن الرسول ﷺ كان على دراية بخشونة الملك الغسانى ، وبكراهيته للإسلام ، وتآليه قيصر ، وحضه إياه على حرب الرسول كردّ على كتابه إليه ، ومن ثم كان كتاب الرسول إلى الملك الغسانى فى حسم قاطع ، وتهديد واضح : إما الإسلام وإما زوال الملك ، وهذا نص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، فإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك » (١).

إنه كتاب اقتصر على الحسم والقطع والتهديد المباشر ، حمله فى ذى الحجة من السنة السادسة الصحابى شجاع بن وهب من بنى أسد إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى (٢)، فلما دفعه إليه قرأه ثم رمى به ، وقال : من ينزع منى ملكى ؟ وأنا سائر إليه ، وكتب إلى قيصر يخبره بالخبر ، فكتب إليه قيصر : لا تسر إليه ، وأله عنه .

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ، لمحمد حميد الدين ، ص ١٢٦ .

(٢) الطبرى . القسم الأول ٣ / ١٥٥٩ .

كتابه ﷺ إلى المقوقس :

كان المقوقس حاكم مصر من قبل الرومان ، وكان نصرانيا على دين قومه ، ويقرن أكثر المؤرخين اسمه بالإسكندرية ، فيقولون : المقوقس صاحب الإسكندرية ، وقد بعث رسول الله ﷺ بكتاب يدعوه إلى الإسلام هذا نصه : (١)

«بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

بعث الرسول بكتابه إلى المقوقس مع الصحابي حاطب بن أبى بلتعة ، فلما دخل عليه قال : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى - يعنى فرعون - فأخذه الله نکال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بغيرك بك . فقال المقوقس : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه .

فقال له حاطب : ندعوك إلى دين الإسلام الكافى به الله فَقَدْ ما سواه ، إن هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبى أدرك قوما فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبى ، ولسنا ننهك عن دين المسيح ، ولكننا نأمرك به .

فقال المقوقس : إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده الساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء ، والإخبار بالنجوى ، وسأنظر . . . ثم دعا كاتباً له

(١) عيون الأثر ٢ / ٢٩٥ ، السيرة الحلبية ٢ / ٣٧١ ، زاد المعاد ٣ / ٧٢ .

يكتب بالعربية ، فكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس
عظيم القبط : سلام عليك ، أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما
تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت
رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت
إليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك »

ولم يزد المقوقس على هذا ولم يسلم ، و الجاريتان هما : مارية وسيرين ، والبغلة هى :
دُلْدُل التى بقيت إلى زمن معاوية .

إن كتاب الرسول ﷺ إلى المقوقس لا يكاد يختلف فى صيغته ومضمونه عن ذلك
الذى بعث به فى نفس الوقت إلى قيصر إلا فى لفظ « القبط » التى وردت مكان لفظ
« الأريسيين » فى كتاب قيصر ، فالكتابان متشابهان فى عبارة « أسلم تسلم » وفى عبارة
« يؤتك الله أجرک مرتين »

والم تأمل فى أسلوب الكتاين يجدهما متسمين بالإيجاز البليغ ، وصفاء الكلمة ،
وسهولة المعنى ، وارتياح الصيغة ، وامتزاج الترغيب بالترهيب امتزاجا لبقا ، غير منفّر
ولا جارج .

لقد عمد الرسول ﷺ إلى العمل بأداب القرآن الكريم فى جدال أهل الكتاب فى قول
الله - تبارك وتعالى - : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾
لذلك كان رد كل من قيصر والمقوقس يفيضان أدبا واحتراما وتقديرا لرسول
الله ﷺ .

فأما رد قيصر فكان اعترافا صريحا : « إلى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى » وهو
المعنى الدقيق للآية القرآنية الكريمة من سورة الصف : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِىْ
إِسْرَءِيلَ إِنِّى رَسُوْلُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقاَ لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرُسُوْلٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى
أَسْمُهُ أَهْمَدُ ﴾ .

إن أحدا حتى الآن لم يطعن فى نص كتاب رسول الله ﷺ إلى قيصر ، وبالمثل فإن

أحدا لم يشكك في صيغة رد قيصر على كتاب رسول الله ، وهو الرد الذى يقول فيه :
«إلى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى» .

ومن المقطوع به أن قيصر لم يكن قد قرأ الآية الكريمة من سورة الصف التى ذكرناها ، بل إنه لم يكن يعرف شيئا عن النبي ﷺ ولذلك فقد سأل معاونيه أن يبحثوا له عن أحد يعرف شيئا عن هذا النبي الحديد ، وإذ بهم يعثرون على أبى سفيان ، وكان إذ ذاك في تجارة مع بعض قومه من قريش في بلاد الشام ، فيمثل بين يدي قيصر ويجرى بينهما من الحوار حول شخصية محمد ما قد أسلفنا ذكره قبل صفحات قليلة .

فإذا ما كان الأمر متعلقا برد المقوقس على كتاب الرسول ﷺ فإن الأخبار تذكر حسن استقباله لحاطب بن أبى بلتعة حامل الكتاب وحسن ضيافته إياه في الإسكندرية عدة أيام ، ثم ذلك الأدب الجهم في صياغة الرد الذى لم يحمل رفضا صريحا لنبوة محمد ، وإنما صيغ في لباقة وأدب ، أعرب من خلاله عن ظنه بأن النبي المرتقب يخرج من الشام ، ولكى يكمل المقوقس إخراج الموقف إخراجا حسنا فإنه قد حمل حاطبا بعض الهدايا القيمة التى ذكرناها وهى في جملتها جارتان صاحبتا مكانة عظيمة في القبط ، هما مارية وأختها سيرين ، وثياب من قباطى مصر وبغلة عرفت في كتب السيرة باسم (دُلْدُل) قيل : إنها أول بغلة رثيت في الإسلام ، وعمار ذكر في أكثر المراجع باسم (يعفور) وفي أقلها باسم (عفير) وخصى اسمه (مايور) أعتقه رسول الله وعسل وقده من قوارير .

ومن الطريف أن مارية وأختها سيرين قد اعتنقتا الإسلام قبل وصولهما إلى المدينة ، وعند وصولهما إلى المدينة بنى رسول الله ﷺ بهارية ، وأنجبت له ولده إبراهيم فخلقت نسباً ثانيا بين آل إبراهيم - عليه السلام - وبين مصر .

وأما سيرين فقد أهداها رسول الله ﷺ إلى حسان بن ثابت صاحبه وشاعره تكريما له ولها ، فأنجبت له عبد الرحمن .

ويجىء الحديث النبوى الشريف فيؤكد إصهار الإسلام إلى مصر في قوله ﷺ : « إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ؛ فإن لهم فيكم صهرا وذمة» .

وتتحقق نبوءة النبي ﷺ فلا تكاد تمضى سنوات تسع حتى يفتح المسلمون مصر سنة عشرة هجرية .

أما أصل خطاب الرسول إلى المقوقس فقد تم العثور عليه في كنيسة قرب بلدة إخميم في صعيد مصر ، وهو محفوظ بعناية كاملة في متحف توب قابى باستامبول ، وتلك صورة له :

كتاب الرسول إلى النجاشى ملك الحبشة :

لعل كتابا من كتب الرسول إلى الملوك لم يثر من النقاش والحوار مثلما أثار هذا الكتاب المبارك ، أما لفظ (النجاشى) فهو لقب يطلق على أى ملك يعتلى عرش الحبشة ، مثله في ذلك مثل (كسرى) عند الفرس ، و (قيصر) عند الروم ، و (فرعون) عند المصريين ، وهكذا .

أما النجاشى الذى نحن بصدد ذكره هنا فاسمه « أَصْحَمَةُ » . وإن كانت بعض المصادر قد ذكرته باسم الأصحم ، إن « أَصْحَمَةُ » لم يكده يتسلم كتاب رسول الله ﷺ الذى حمه إليه الصحابى الجليل عمرو بن أمية الضميرى حتى سارع إلى إعلان إسلامه والإيمان بالله رباً واحدا لا شريك له ، وبمحمد نبيا صادقا ورسولا هاديا . وسجل أَصْحَمَةُ إسلامه في كتاب حافل بالمودة ، مترع بدفء الإيمان ، بعث به ردا على دعوة الرسول له بالإسلام .

لقد فزع المستشرقون المحدثون من إسلام النجاشى ، فلم يجرأوا على إنكاره ، وإنما مالوا إلى استبعاد أن يسلم بهذه السرعة ، وقد ساقوا هذا الاستبعاد على سبيل الاستنتاج لا على سبيل التقرير ، وأوردوا في ذلك حججا واهية ، واستنتاجات مريضة . وإذا كان مثل هذه الافتراءات على ثوابت الأحداث الإسلامية غير مستغربة من كثير من هذه الطائفة من الدارسين الغربيين ، فإن الأدهى من ذلك والأمر أن تصدر هذه الترهات من دارسين مسلمين نقلا عن المستشرقين ، وبدون الرجوع إلى المصادر الإسلامية الثبته ، والمراجع العربية الصادقة ، الأمر الذى دفع بكاتب مسلم مجاهد هو اللواء محمود شيت خطاب أن يعطى هذا الأمر عناية خاصة ، فأصدر كتيباً قيماً بعنوان « إسلام النجاشى »

يرد فيه على بحث بعنوان « الرسائل التي بعث بها النبي إلى ملوك الدول المجاورة » نشرته مجلة « الفصيل » العدد ٥٥ في المحرم ١٤٠٢ هـ وفيه تورط كاتبه نقلا عن المستشرقين في إنكار إسلام النجاشي ، وبالتالي إنكار الكتاب الذي أعلن فيه اعتناقه الإسلام ردا على كتاب رسول الله ﷺ إليه .

وأما كتاب رسول الله ﷺ فهذا نصه : (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشي أصحابه ملك الحبشة ، أسلم أنت ، فأني أحمد الله إليك ، الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلق الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإنني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالة على طاعته ، وأن تبغني ، وتؤمن بالذي جاءني ، فأني رسول الله ، وإنني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى » (*) .

إن هذا النص يتميز بين كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك بأكثر من صفة ، أولها : البداية الكريمة بقوله ﷺ : « أسلم أنت » وفي رواية « سَلِّمْ أَنْتَ » وثانيها : التحية الدافئة في قول الرسول ﷺ لأصحابه : « أحمد الله إليك » ثم يتبع التحية بذكر عدد من أسماء الله الحسنى ، ثم تبع ذلك الحديث عن عيسى - عليه السلام - والإيمان به ، ووصف حقيقته خلقا وإنشاء وتكويننا بوسيلة إلهية مسبقة بخلقه - سبحانه - آدم عليه السلام .

هذا ، وإن من ميزات هذا الكتاب ظاهرة طوله نسبياً بالقياس إلى كتب النبي التي بعث بها إلى الملوك الآخرين ، ولأن النجاشي سابقة فضل على المهاجرين الأولين في هجرتهم إلى الحبشة وحسن استقبالهم ، وتكريم للرسول حين عقد له على أم المؤمنين

(١) عيون الأثر ٢ / ٢٦٤ وما بعدها . سبل الهدى والرشاد ٢ / ٥٢٤ وما بعدها . زاد المعاد ٣ / ٧١ وما بعدها . إعجاز القرآن للباقلاني . الوثائق السياسية ص ١٠١-١٠٣ .

(*) أصحابه : كلمة حبشية تعني بالعربية عطية . البتول لغة : من البتل ، وهو القطع ، ومنه العذراء البتول ؛ لأنها قطعت عن الرجال ، ولأنها انقطعت عن الدنيا لعبادة الله .

أم حبيبة ، وبعث بها معززة مكرمة إليه في المدينة ، فقد رأى النبي ﷺ أن يزيده تكريماً بأن عزز الوفد الذي يحمل الكتاب بأن جعل فيه ابن عمه جعفر بن أبي طالب الذي عرف بعد استشهاده في « مؤتة » بجعفر الطيار .

هذا ، وقد بدأ الرسول كتابه بالسلام وختمه بالسلام ، وهي ظاهرة تمثل احتفاء خاصاً ، وتكريماً متفرداً للنجاشي .

كان الرسول ﷺ يختار حملة كتبه إلى الملوك من الصحابة ذوي الفطنة واللياقة والجرأة والبيان ، وما كان أكثر البلغاء في حضرته ، وأوفر ذوي الفطنة في صحبته .

كان حامل الكتاب هو عمرو بن أمية الضمري طبقاً لما أسلفنا القول ، وبعد أن قدم كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي في حضرة رجاله وصحبة جعفر ابن عم رسول الله قال : يا أوصمة : إن على القول عليك الاستماع ، إنك كأنك في الرقة علينا ، وكأنا في الثقة بك منك ، لأننا لم نظن بك خيراً قط إلا لنناه ، ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد ، وقاض لا يحور ، وفي ذلك الموقع الحق وإصابة المفصل ، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى بن مريم ، وقد فرق النبي ﷺ رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له ، وأمنك على ما أخافهم عليه ، الخير سالف وأجر ينتظر .

وهنا رد النجاشي على عمرو قائلاً : أشهد بالله إنه للنبي الذي تنتظره أهل الكتاب ، وإن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل ، وإن العيان ليس بأشقى من الخبر . ثم بعث بكتاب أجاب فيه دعوة رسول الله ﷺ إلى الإسلام حملة عمرو بن أمية وجعفر بن أبي طالب .

جواب النجاشي على كتاب الرسول ﷺ (*) :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

إلى محمد رسول الله من النجاشي أوصمة بن الأبحر ، سلام عليك يا نبي الله من

(*) الوثائق السياسية ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

الله ورحمته وبركاته ، لا إله إلا الذي هداني إلى الإسلام ، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى لم يزد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد مر بنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك لرسول الله صادقا مصدقا ، وقد تبعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وقد أرسلت بابني أريحا بن أصحمة بن أبحر ، فإني لا أملك إلا نفسي ، وإن أمرتني أن أجيء فعلت يا رسول الله ، فإني أشهد أن ما تقول حق » .

بهذه العبارات المترعة بالإيمان الدافقة بالطاعة أعلن النجاشي إسلامه ، وكان ثاني الملوك الكتابيين الذين أسلموا ، أما أولهم فهو قيصر ، وذلك طبقا للوثيقة المتمثلة في رده على كتاب رسول الله .

ومن المعروف أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه ، ففي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه ، خرج إلى المصلى ، فصاف بهم وكبر أربعاً (البخاري ومسلم)

وفي حديث جابر - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ صلى على أصحمة فكبر أربعاً (١) .

ولقد أجمعت مصادر الحديث النبوي على إسلام النجاشي ، وقد استنبط فقهاء المسلمين من إسلام النجاشي وصلاة النبي عليه صلاة الغائب وتكبيره أربع تكبيرات في الصلاة عليه استنباطات في صلاة الجنازة اتبعها المسلمون منذ موت النجاشي حتى اليوم ، وستبقى ما بقى الإسلام وبقى المسلمون (٢) .

(١) حديثاً أبي هريرة وجابر وردا في كل من : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ص ١٩٣ وفتح الباري ٣ / ١٦٣ ، ١٦٤ ، والنووي على مسلم ٢ / ٣٣٧ .

(٢) إسلام النجاشي ، ص ١٨ لمحمود شيت خطاب .



الفصل الثاني

كتب الرسول إلى غير أهل الكتاب

كتب الرسول إلى غير أهل الكتاب

اقتصر تناولنا في الفصل السابق على كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك الذين يشتركون في صفة كونهم من أهل الكتاب ، فقد كانوا جميعاً نصارى ، وهم قيصر الروم ، وملك الغساسنة ، والمقوقس حاكم الإسكندرية ، والنجاشي ملك الحبشة ، ولأن للإسلام موقفاً وديناً من أهل الكتاب ، محدداً بأحكام ثابتة في علاقة الطرف الإسلامي بالطرف النصراني ، فقد اتسمت كتب رسول الله ﷺ إلى هؤلاء الملوك بطابع متميز من لين الخطاب ، ورقة المدخل ، ودفع القول ، على النحو الذي فصلناه .

ومن ناحية أخرى كان مبعوثو رسول الله وحاملو كتبه في موضع كريم من الحفاوة وحسن الاستقبال من لدن أولئك الملوك ، الذين استجاب اثنان منهم إلى دعوة الرسول وأعلنوا إيمانهم بالرسالة النبوية ، فدخلا في حظيرة الإسلام ، وهما قيصر الروم ونجاشي الحبشة ، وإن كانا قد رغبا عن نشر الدعوة بين رعاياهما لأسباب وردت في كتب التاريخ وفصلتها كتب السيرة ، وكان أشدها وضوحاً تعاضداً سلطة الكنيسة ، واستشراء نفوذ رجال الدين في كل من بيزنطة والحبشة .

ونحن هنا في هذا الفصل نعرض لكتب الرسول ﷺ إلى الملوك غير الكتائين الذين يجيء كسرى ملك الفرس في مقدمتهم ، يليه بعد ذلك ملوك العرب وأقياهم ، وسوف نلاحظ أن هذه الطائفة من كتب الرسول قد أخذت شكلاً مغايراً لذلك الشكل الذي اتسمت به كتبه إلى الملوك من أهل الكتاب ، وأن هذه الكتب قد جرت في إطار مختلف ، وسلكت مضماراً آخر ، بل مضامير متباينة عن تلك التي مرّ ذكرها .

كتاب النبي إلى كسرى :

اختار رسول الله ﷺ من الحديدية الصحابي عبد الله بن حذافة السهمي

ليكون حامل كتابه إلى كسرى أبرويز ملك فارس ، وكان عبد الله بن حذافة ذا دربة في معرفة بلاد فارس ، وكثير التردد على كسرى قبل إسلامه .
انطلق عبد الله بن حذافة السهمي مشرقا إلى المدائن ، حاملا كتاب رسول الله ﷺ مختوما وهذا نصه : (١).

كتابه إلى كسرى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى كسرى أبرويز عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فإنني أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين » أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم المجوس»

يقول عبد الله بن حذافة : انتهيت إلى باب كسرى ، وطلبت الإذن بالدخول عليه حتى وصلت إليه ، فدفعت بكتاب رسول الله ﷺ إليه ، فقرأ عليه ، فأخذه ومزقه .
هنا يتبين الفرق بين سلوك ملك كتابي وشراسة ملك وثني ، فالأولون أحسن كل منهم استقبال الكتاب وحامله ، وهذا ثار وزجر ومزق الكتاب وهم بقتل حامله ، ثم أخذته العزة بالإثم وعبر عما يجيش في نفسه ونفوس ملوك الأكاسرة من أن كل الناس عبيد لهم ، فقال : يكتب إلى هذا وهو عبيد !!

إنه في الوقت الذي رحب فيه الملوك الكتابيون بكتب رسول الله ﷺ قام كسرى الوثني بتمزيق الكتاب وتلفظ بكلمات وقحة ؛ ذلك لأن الأولين معودون على قراءة الكتب السماوية ، ووجدوا في كتاب رسول الله من خلال الآيات التي تضمنتها الكتب كلاما ربانيا يفيض حكمة ، ويتضوع نورا ، ويتغلغل في أعماق النفس إقناعا ، وأما كسرى فهو مشغول ببيوت النار ، ملازم لها ، يعبد النار بلهيبها وتدميرها ، فخشن طبعه ، وساءت نفسه ، وأظلم قلبه ، فكان سوء سلوكه ووقاحة تصرفه منسجمين مع

(١) عيون الأثر ٢/ ٢٦٢ ، ٢٦٣ . زاد المعاد ٣/ ٧١ . إجاز القرآن للباقلاني ، ص ١٣٤ .

طبيعة معبوده وسوء عقيدته ، إنه فضلا عن ذلك ثمت أمور أو ظواهر ينبغي ألا يغفل شأنها ونحن نعرض لهذه الواقعة .

أهمها هو ما قد سلفت الإشارة إليه من ضرورة اعتبار كسرى مشركا يعبد النار ، وليس كتابيا يؤمن بالله ، ويجيء بعد ذلك استهلال كتاب رسول الله بالإيمان بالله ورسوله وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، ويتلو ذلك إبلاغ كسرى بأن محمدا رسول الله لكل من كان حيا ، مع صيغة الإنذار الشديد لمن كفر « ويحق القول على الكافرين » وتلك نعمة لم يألّف سماعها ملوك الأكاسرة ، وأكثرهم رجال غلاظ يحسبون الناس جميعا عبيدا لهم .

هذا ، وقد صك سماع كسرى قول قارىء خطاب رسول الله : « فأسلم تسلم » وما تحمله هذه الجملة من معان أحس كسرى ساعتها أن عرشه يهتز من تحته ، فهو ليس مأمورا في شخصه وحسب ، وإنما عليه أن يتحمل إثم المجوس ، وهو قول أطار صوابه .

وأما أسلوب الكتاب فهو معجز في إيجازه واحتوائه - على قصره - عددًا من القضايا ، وقبائل من المعاني مع الشدة المهدبة ، والإصرار الذي لا يتزعزع .

والمأثور أن رسول الله ﷺ لما علم بفعلة كسرى وحقاقته قال : « مُزَقَّ ملكه » أى : مزق الله ملكه . ولقد تحققت دعوة رسول الله ﷺ ونبوءته ، إذ لم تمض سنوات عشر على هذا الحادث حتى كان عرش كسرى قد مزق كل ممزق تحت سنانك خيل المسلمين وفرسانهم في القادسية وماتلاها من انتصارات على مساحة الامبراطورية الكسروية .

ولاشك في أن دعوة رسول الله لكسرى قد أقضت مضجعه ، فأخذ يؤلّب ولاته على رسول الله ، ومنهم باذان واليه على اليمن الذي كان من أمره ما سجله ابن سيد الناس على هذا النحو : (١)

من حديث أبى هريرة وغيره أن كسرى بينا هو في بيت كان يخلو فيه ، إذا رجل قد

(١) عيون الأثر في فنون المغازى والشهائيل والسير ٢ / ٢٦٢ - ٢٦٤ .

خرج إليه وفي يده عصا ، فقال ياكسرى : إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا فأسلم تسلم ، واتبعه يبق لك ملكك ، قال كسرى : أخر هذا عني آثرا ما ، فدعا حجابيه وبوابيه فتواعدهم وقال : من هذا الذى دخل علىّ ؟ قالوا : والله ما دخل عليك أحد ، وما ضيعنا لك بابا ، ومكث حتى كان العام المقبل أتاه فقال له مثل ذلك ، وقال : إلا تسلم أكسر العصا ، قال : لا تفعل أخر ذلك آثرا ما ، ثم جاء العام المقبل ففعل مثل ذلك ، وضرب بالعصا على رأسه فكسرها ، وخرج من عنده ، ويقال : إن ابنه قتله فى تلك الليلة ، وأعلم الله بذلك رسوله ﷺ لحدثان كونه ، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك رسل باذان إليه ، وكان باذان عامل كسرى على اليمن ، فلما بلغه ظهور النبى ﷺ ودعاؤه إلى الله ، كتب إلى باذان أن ابعث إلى هذا الرجل الذى خالف دين قومه فمره فليرجع إلى دين قومه ، فإن أبى فابعث إلى برأسه - ويروى : وإلا فليواعدك يوما تقتتلون فيه - فلما ورد كتابه إلى باذان ، بعث بكتابه مع رجلين من عنده ، فلما قدما على رسول الله ﷺ أنزلهما وأمرهما بالمقام فأقاما أياما ، ثم أرسل إليهما رسول الله ﷺ ذات غداة فقال : انطلقا إلى باذان فأعلماه أن ربى - عز وجل - قد قتل كسرى فى هذه الليلة ، فانطلقا حتى قدما على باذان فأخبراه بذلك فقال : إن يكن الأمر كما قال فوالله إن الرجل لنبى ، وسيأتى الخبر بذلك إلى يوم كذا ، فأتاه الخبر بذلك ، فبعث باذان بإسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله ﷺ ويقال : إن الخبر أتاه بمقتل كسرى وهو مريض ، فاجتمعت إليه أساورته فقالوا : من تؤمّر علينا ؟ فقال لهم : ملك مقبل وملك مدبر ، فاتبعوا هذا الرجل وادخلوا فى دينه وأسلموا . ومات باذان فبعث رءوسهم إلى رسول الله ﷺ وفدهم يعرفونه بإسلامهم .

كتاب النبى إلى ملك عُمان :

كانت عمان مملكة مستقرة ، وكان يحكمها ملك يدعى جيفر بن الجلندى ويشرك معه أخاه « عبدا » فى إدارة ملكه والنظر فى شئونه ، وكانت مملكة عمان من أكثر ممالك العرب استقرارا وأوفرها خيرات ، وكان طبيعيا أن يكتب رسول الله ﷺ إلى ملكه يدعوه إلى الإسلام مثلما كتب إلى غيره من ملوك ذلك الزمان ، سواء أكانوا عربا أم أعجاما ، كتابيين أم وثنيين ، وكان رسول الله ﷺ على دراية واسعة من أمر كل ملك يكتب إليه

وحال مملكته ، وكان يعلم أن عمان وإن كان ملكها هو « جيفر » إلا أن مفتاح السياسة وإصدار القرار في يده أخيه الأصغر وشريكه في الحكم « عبد » ومن ثم أملى رسول الله على الصحابي أبي بن كعب كتابه باسم الأخوين جيفر وعبد مقدا اسم (جيفر) لكبر سنّه على اسم (عبد) لأنه الأصغر سنا ، ثم اختار رسول الله ﷺ الصحابي القائد عمرو بن العاص لكي يحمل الكتاب ويقطع به طريقا طويلا حتى يصل إلى عاصمة الملكين العربيين الأزديين (جيفر وعبد) ابني الجلندي وهذا نصه : (١).

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنني أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإنني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما ، وخيلك تحل بساحتكما ، وتظهر نبوتى على ملككما » .

كان عمرو بن العاص محاورا ذكيا ومفاوضا حكيما ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد توقع أن يجرى حوار بين حامل كتابه وبين الملكين الأزديين ، وهو حوار غير يسير ؛ لأن ملكي عمان يتسنان ملكا بعيد الشقة من المدينة المنورة ، الأمر الذي قد يدخل في روعهما استحالة تعرضهما لما يرغمهما على الإسلام من كتية جيش أو شدة حصار ، وهو ما حدث تماما ، وها هو عمرو بن العاص يروى تفاصيل الحوار وملخص الأحداث التي تمت في رحلته (٢).

قال عمرو : فخرجت حتى انتهيت إلى عمان ، فلما قدمتها عمدت إلى عبد ، وكان أحلم الرجلين وأسهلها خلقا . فقلت : إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك . فقال : أخى المقدم على بالسن والملك ، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك . ثم قال : وما تدعو إليه ؟ قلت : أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وتخلع ما عُبد من دونه ،

(١) عيون الأثر ٢/ ٢٦٧ ، زاد المعاد ٣/ ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) زاد المعاد ٣/ ٧٣ ، ٧٤ .

وتشهد أن محمدا عبده ورسوله . قال : ياعمرو إنك ابن سيد قومك ، فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا فيه قدوة . قلت : مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ووددت أنه كان أسلم ، وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام . قال : فمتى تبعته ؟ قلت : قريبا . فسألني : أين كان إسلامك ؟ قلت : عند النجاشي ، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم . قال : فكيف صنع قومه بملكه ؟ فقلت : أقروه واتبعوه . قال : والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت : نعم . قال : انظر ياعمرو ماتقول ، إنه ليس من خصلة في رجل أفصح له من الكذب . قلت : ماكذبُ وما نستحلّه في ديننا ، ثم قال : ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي . قلت : بلى . قال : بأي شيء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشي يخرج له خرجا ، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال : لا والله لو سألتني درهما واحدا ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله فقال له النياق أخوه : أتدعُ عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين بدين غيرك دينا محدثا ؟ قال هرقل : رجلٌ رغب في دينٍ فاختره لنفسه ما أصنع به ؟ والله لولا الضنُّ بملكي لصنعتُ كما صنع ، قال : انظر ماتقول ياعمرو ، قلت : والله صدقتك . قال عبد : فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه ؟ قلت : يأمر بطاعة الله - عز وجل - وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر ، وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان ، وعن الزنا وعن الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب ، قال : ما أحسن هذا الذي يدعو إليه ، لو كان أخى يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ، ولكن أخى أضنُّ بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا ، قلت : إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم . قال : إن هذا لخلق حسن ، وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ في الصدقات في الأموال حتى انتهت إلى الإبل ، قال : ياعمرو وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه ؟ فقلت : نعم . فقال : والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا .

قال : فمكثت ببابه أياما ، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى ، ثم إنه دعاني يوما فدخلت عليه ، فأخذ أعوانه بضبعي . فقال : دعوه ، فأرسلت ، فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعوني أجلس ، فنظرت إليه فقال : تكلم بحاجتك . فدفعت إليه

الكتاب مختوما ، ففضض خاتمه وقرأ حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته ، إلا أنى رأيت أخاه أرق منه ، قال : ألا تخبرنى عن قریش كيف صنعت ؟ فقلت : تبعوه إما راغب فى الدين ، وإما مقهور بالسيف . قال : ومن معه ؟ قلت : الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال ، فما أعلم أحدا بقى غيرك فى هذه الخرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعه توطئك الخيل وتبيد خضراك ، فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال ، قال : دعنى يومى هذا وارجع إلى غدا .

فرجعت إلى أخيه فقال : ياعمرو إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضمن بملكه ، حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لى ، فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أنى لم أصل إليه ، فأوصلنى إليه ، فقال : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب ، إن ملكت رجلا ما فى يدى وهو لا تبلغ خيله ههنا ، وإن بلغت خيله لاقت قتالا ليس كقتال من لاقى . قلت : وأنا خارج غدا ، فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه فقال : ما نحن فيما ظهر عليه ؟ وكل من أرسل إليه قد أجابه ، فأصبح فأرسل إلى فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا ، وصدقا النبى ﷺ وخليا بينى وبين الصدقة ، وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عوناً على من خالفنى .

ليس من شك فى أن السجية العربية فى حسن تفهم الخطاب الصادر عن أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء ﷺ قد سرت على الملكين الأزديين بعض أمرهما ، فلم يسرفا فى التأبى وإن كانا قد أعطيا الحوار حقه من الأناة والتفكر ، وإن الأمر المؤكد أن حصافة عمرو بن العاص وطول باعه فى الإقناع ، وعمق ملكته فى الحوار، قد قربت طريق الإيمان إلى الملكين الأزديين الوثنيين ، وكان الفضل قبل ذلك وبعده إلى الصيغة المحمدية فى بلاغة الكتاب ، وفى مقدمتها الشعار المشترك فى جميع كتب رسول الله ﷺ : « أسلم تسلم » فلقد كانت هذه الجملة على إيجازها الشديد تمثل الهبة المحمدية أمام قارئها ثم تنسرب إلى عقله ولبه فتقنعه ثم تفزعه ، ولكن الشعار هنا يأخذ صيغة الخطاب إلى اثنين بدلا من واحد ، فكانت عبارته « أسلم تسلم » ولقد استجابا للدعوة المحمدية فأسلما وسلميا .

كتاب النبي إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين :

الحق في هذا المقام أن الذى صدر عن رسول الله إلى صاحب البحرين ليس كتابا واحدا ، وإنما هما كتابان تخللهما جواب من ملك البحرين يطلب التوجيه والنصح فيما عرض له من صعب ، وإن كان الكتاب الأول قد أدى مهمته فور تسلم الملك إياه .

والبحرين ليست هى الجزر الحالية الواقعة فى الخليج العربى وحدها ، وإنما البحرين آنذاك هو مايعرف فى زماننا هذا بساحل عمان وما يتصل به من جزر مع الامتداد شمالا حتى حدود المملكة العربية السعودية من ناحية جنوبها الشرقى ، وقد أمدت بلاد البحرين تراث الشعر العربى بشاعرين جاهليين مجيدين ، هما : طرفة بن العبد ، والمتلمس ، والأول منهما ابن أخت الثانى .

كان المنذر بن ساوى ملكا للبحرين من قبل الفرس ، وقد اختار النبي ﷺ الصحابى الجليل العلاء بن الحضرمى وبعث معه سنة ٦ هـ كتابا إلى المنذر بن ساوى العبدى ، هذا نصه : (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى : سلّم أنت ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن من صلّى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم ، له ذمة الله وذمة رسوله ، فمن أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ، ومن أبى فإن عليه الجزية »
فأسلم المنذر ، وكتب إلى رسول الله ﷺ :

« أما بعد يا رسول الله : فإنى قد قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود ، فأحدث لى فى ذلك أمرك » .

هكذا كان استقبال المنذر لكتاب رسول الله إليه بالاستجابة الناجزة ، فاعتنق الإسلام من فوره ، ولعله كان يعرف شيئا غير قليل عن الإسلام ، وأن العلاء بن

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٨٨ ، وصبح الأعشى ٦ / ٣٧٦ .

الحضرمى قد قام بقسط من التعريف والترشيد ، ولكن مجتمع مملكة البحرين كان كما هو واضح من كتاب المنذر إلى رسول الله فيه تعقيد في الأجناس وتنوع في العقائد ، مما جعله يكتب إلى النبي ﷺ طالبا النصح والتوجيه ، فكتب ﷺ إليه مانصه : (١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى ، سلام عليك ، إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد : إني أذكرك الله - عز وجل - فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً ، وإني قد شفعتك في قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب ، فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية »

لقد ظل المنذر محافظاً على حسن إسلامه ، متمسكاً بعقيدته ، ومات قبل فتنة الردة .

كتاب النبي إلى هوزة بن علي :

هوزة بن علي صاحب اليمامة ، وفارس بني حنيفة وشاعرها ، وكان ذا صلة بكسرى ويزوره في المهمات ، كما كان يلقب بصاحب التاج ؛ لخرزات كانت تنظم على رأسه تشبهاً بالملوك ، وهو من أهل « قَرَان » وهم أفصح بني حنيفة ، وقد أرسل النبي ﷺ إليه كتاباً مع سليط بن عمرو العامري ، هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هوزة بن علي ، سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخُفِّ والحافر ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يدك »

يروى ابن قسيم الجوزية بقية الخبر قائلاً : (٢) .

(١) صبح الأعشى ٦/ ٣٧٦ ، والسيرة الحلبية ٢ / ٣٧٤ .

(٢) زاد المعاد ٣ / ٧٤ .

فلما قدم عليه سليط بكتاب رسول الله ﷺ محتوما ، أنزله وحياء واقرأ عليه الكتاب فرددا دون رد ، وكتب إلى النبي ﷺ : « ما أحسن ماتدعو إليه وأجمله ، والعرب تهاب مكانى ، فاجعل إلى بعض الأمر أتبعك » وأجاز سليطا بجائزة ، وكساه أثوابا من نسج هجر ، فقدم سليط بذلك كله على النبي ﷺ فأخبره ، وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال : « لو سألتني سبابة من الأرض ما فعلت ، باد وباد ما في يديه » .

فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح ، جاءه جبريل - عليه السلام - بأن هوزة مات ، فقال النبي ﷺ : « أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبى يقتل بعدى » فقال قائل : يا رسول الله من يقتله ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « أنت وأصحابك ، فكان كذلك » .

وذكر الواقدي : أن أركون دمشق - عظيم من عظماء النصارى - كان عند هوزة ، فسأله عن النبي ﷺ فقال : جاءنى كتابه يدعونى إلى الإسلام فلم أجبه ، قال الأركون : لم لم تجب ؟ قال : ضننت بدينى ، وأنا ملك قومى ، وإن تبعته لم أملك . قال : بلى والله إن تبعته ليملكنك ، فإن الخير لك فى اتباعه ، وإنه للنبي العربى الذى بشر به عيسى بن مريم ، وإنه لمكتوب عندنا فى الإنجيل : محمد رسول الله .

كان هوزة بن على الحنفى هو أول رئيس أو ملك عربى تمرد على دعوة رسول الله له إلى الإسلام . وكانت نهايته حسبا تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتشاء المقادير أن يخرج من ديار حنيفة بعد هلاك هوزة بقليل رجل يدعى النبوة ، واحتل فى مسيرة فجر الدعوة مكانا غير كريم ، إنه مسيلمة بن ثمامة بن كبير الحنفى الذى ادعى النبوة فجأة ، فلقبه النبي بمسيلمة الكذاب .

تذكر الرواية أنه لما فتح النبي مكة جاء وفد من بنى حنيفة إلى النبي ومنهم مسيلمة ، إلا أنه تخلف خارج مكة مع الرجال وهو شيخ هرم ، وأعلن الوفد إسلامه والرضا بالإسلام ديننا وبمحمد رسولا ، وذكروا للنبي مكان مسيلمة ، فأمر له بمثل ما أمر به لهم . فلما رجعوا إلى ديارهم إذ بمسيلمة يكتب كتابا إلى رسول الله هذا نصه :

« من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك ، أما بعد : فإننى قد

أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم يعتدون » (١) .

كانت هذه الفتنة غريبة في زمانها ؛ لأنها اشتعلت في الوقت الذي كانت فيه الجزيرة كلها قد أسلمت وجاءت وفودها متتابعة متلاحقة صوب رسول الله في المدينة تعلن إسلامها ومبايعتها .

كتاب النبي إلى مسيلمة :

حمل كتاب مسيلمة إلى رسول الله رجلاً ، فلما قرأه قال لهما : فما تقولان ؟ قالا : نقول كما قال . فقال ﷺ : « أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » ثم كتب إلى مسيلمة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب : السلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » كان ذلك في آخر سنة عشر .

مالبت الأيام في تلك الفترة أن شهدت وفاة رسول الله ﷺ بانتقاله إلى الرفيق الأعلى قبل القضاء على فتنة مسيلمة ، فقام أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ بتكليف خالد بن الوليد بقيادة جيش كبير من الصحابة لتأديب مسيلمة في ديار قومه بني حنيفة ، ودارت عدة معارك بين الجيش المسلم وجيش المرتدين انتهت في معركة « الجبيلة » بمقتل مسيلمة سنة ١٢ هـ .

كانت معركة مشؤومة فقد استشهد من جيش المسلمين فيها ألف ومائتا رجل ، منهم أربعمئة وخمسون من صحابة رسول الله .

كتاب النبي إلى أكثم بن صيفي (٢) :

إن جميع من وجّه رسول الله ﷺ إليهم كتبه كانوا ملوكا مثل قيصر وكسرى والنجاشي

(١) السيرة لابن هشام ٤ / ٦٠٠ .

(٢) سرح العيون ، ص : ١٤ .

والمقوقس وجيفر وعبد ابني الجلندي والمنذر بن ساوى العبدى والحارث الغسانى وهوذة ابن على . إن الرسول ﷺ قد كان البادىء بالكتابة إليهم داعيا إياهم إلى الإسلام ، وغنى عن البيان أن الرسول ﷺ كتب خطابه إلى مسيلمة ردا على رسالته الوقحة ، ولم يكن صاحب المبادرة بالكتابة إليه ، وأما أكثم بن صيفى فكان المرة الوحيد الذى بادأه رسول الله بالكتابة إليه رغم أنه لم يكن ملكا ، ولكنه كان فى نظر رسول الله ﷺ أرفع قدرا من ملك ، وأسمى مكانة من رئيس ؛ لأنه كان حكيم العرب قاطبة فى الجاهلية ، وقد عُمِّرَ طويلا ولم تتخل عنه حكمته خلال عمره الطويل .

ونحن نرجح أن الذى حمل كتاب رسول الله إلى أكثم هو ولده حبيش ، ذلك أنه لما بلغه مبعث النبى ﷺ قال : احملونى إليه ، قالوا : لا والله وأنت سن من أسنان العرب ، قال : فليأتته أحدكم فليسأله عن ربه وعما أمره به .

يقول أبوحاتم السجستاني فى كتابه « المعمرين » : فأتاه - يعنى رسول الله - ولده حبيش بن أكثم فقال : يا محمد ، بم بعثك ربك ؟ قال : « بعثنى بأن أكسر الأصنام » قال : بم أمرك ؟ قال : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »

فانصرف حبيش إلى أبيه فأخبره بكلام رسول الله ﷺ وقرأ عليه الآية الشريفة فجعل يرددنها ويقول : إن هذا لرب كريم يأمر بمعاسن الأخلاق وينهى عن مساوئها ، ثم جمع إليه بنى تميم وقام فيهم خطيبا يدعوهم إلى الإسلام ، فقال مالك بن نويرة : لقد خرف شيخكم ، فلا تتعرضوا للبلاء . فقال أكثم كلمته المشهورة : ويل للشجى من الخلى ، لهفى على أمر لم أدركه ولم يسبقنى ، ثم رحل إلى النبى فمات فى الطريق ، وبعث بإسلامه مع من كان أسلم معه . ويذكر شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى مزيدا من تفاصيل الخبر ، وأن أكثم حين سمع الآية الكريمة من ولده وقام خطيبا ودعا قومه إلى اتباع محمد ﷺ وقال لهم : إن سفيان بن مجاشع سمى ابنه محمدا حباً فى الرجل ، وإن أسقف نجران كان تحدث بخبره وبعثه ، وقال : يا قوم ، أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملامتها ، كونوا فى هذا الأمر رءوسا ولا تكونوا أذنابا ، وكونوا فيه أولا قبل

أن تكونوا آخراً . فقال مالك بن نويرة : شيخكم خرف ، فقال أكثم : ويل للشجى من الخلى ، والله ما عليك أسى ولكن على العامة . ثم نادى قومه فتبعه منهم مائة رجل ، منهم الأقرع بن حابس ، ورباح بن الربيع ، وصفوان بن أسيد ، حتى إذا كانوا دون المدينة بأربع ليال أيقن أكثم بالموت ، فقال لأصحابه : أقدموا على هذا الرجل فأعلموه أنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ، وانظروا إن كان معه كتاب بإيضاح ما يقول فآمنوا به واتبعوه وآزروه . فقدم القوم على رسول الله فأسلموا (١) .

لذلك لا تكون ثمت غرابة في أن يكون كتاب رسول الله إليه متميزاً عن غيره من كتبه التي بعث بها إلى الملوك والرؤساء . ففيه إجابة غير مباشرة لما كان يجري في فكر أكثم ويجول في خاطره ، وهذا هو نص الكتاب : (٢) .

« من محمد رسول الله إلى أكثم بن صيفى »

سلام الله ، أحمد الله إليك ، وإن الله أمرنى أن أقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له أقولها وأمر الناس بقولها ، وأخلق خلق الله ، والأمر أمر الله وكله إلى الله خلقهم وأماهم وهو ينشرهم وإليه المصير ، أذنتكم بأذنة المرسلين ، ولتسألن عن النبأ العظيم ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

لقد سعى أكثم بن صيفى على الرغم من شيخوخته الواهنة إلى لقاء رسول الله والتشرف بصحبته والمثول بين يديه ، والمسافة بعيدة بين ديار بنى تميم ومدينة الرسول ، ولكن شيخوخته لم تسعفه في تحمل أعباء الرحلة القاسية والسفر البعيد ، فلبى نداء ربه في الطريق ، ولئن كان قد حرم الصحبة الشريفة مع سعيه إليها ، فإن الله - سبحانه - قد عوضه بمنة كبرى ، فنزلت في شأنه الآية الكريمة من سورة النساء : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ . صدق الله العظيم .

هكذا قال عبدالله بن عباس حين سئل عن هذه الآية الكريمة .

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ١ / ١١١ ، ١١٢ .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ، وثيقة ١٤١ / ألف - ب ، ص : ٢٥٥ .



الفصل الثالث

كتب النبي مع الوفود العائدة

كتب النبي مع الوفود العائدة

يعرف عام سبعة للهجرة في علم السيرة النبوية بعام الوفود ، ذلك أن قبائل العرب قد دخلت الإسلام زرافات ووحدانا ، وقد تسابقت ملوكهم ورؤساؤهم ونوابهم إلى المدينة المنورة يبائعون رسول الله ﷺ ويشرفون بمجالسته وصحته والتزود من تعاليم الإسلام على يديه الشريفتين ، وكانت هذه الوفود يتسابق خطباؤها وشعراؤها ورؤساؤها في مديح الرسول وتسجيل شمائله ، وكانوا إذا ما قضوا مدة بقائهم بالمدينة ، وعزموا على العودة إلى ديارهم طلبوا أن يزودهم رسول الله ﷺ بكتب إلى أقوامهم لتثبيت مكانتهم إن كانوا ملوكا ، ولحسن توجيه جماعاتهم إذا كانوا أعيانا ، وقد حفلت كتب السيرة بأخبار هذه الوفود في وفرة وإفاضة بحيث شكلت خطبهم وقصائدهم ثروة أدبية إسلامية نفيسة وفريدة .

وقد توج رسول الله ناصية كل وفد بكتاب منه ، كان - ولا يزال - بمثابة تشریف لهذه القبيلة أو تلك ، يرفع من شأنها ويعلى من قدرها .

وإذا كنّا في هذا الكتاب لا نستهدف الاستقصاء وإنما نعمل إلى جذب الانتباه إلى هذه الثروة المباركة من كتب رسول الله ﷺ فقد اخترنا عددا من هذه الكتب التي حملتها الوفود معها ، على سبيل التمثيل وليس على سبيل الانتقاء ، وإذا جاز لامرئ أن ينتقى من كلام الأدباء وخطب الخطباء وقصائد الشعراء ، فإنه لا يجوز له ذلك عندما يعرض لكلام رسول الله خطباً كانت أو كتباً أو عهوداً أو غير ذلك . ومن ثم فقد سقنا نماذج من كتب رسول الله مع الأفراد أو الوفود الآتية ذكرها : طهفة بن أبي زهير النهدي ، ذي المشعار الهمداني ، وائل بن حجر الحضرمي ، قطن بن حارثة العُلميّ ، مالك بن مُرارة الرهاوي ، وفد بارق ، وفود خثعم ، أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل .

كتاب الرسول إلى بنى نهد مع طهفة :

طهفة بن زهير النهدي زعيم بنى نهد ، وهم قبيلة من تهامة اليمن ، وقد وفد على رسول الله ﷺ بعد أن أسلم ومعه وفد من قومه النهديين فوقف بين يدي رسول الله وألقى خطبة نيابة عن قومه في لغة وإن تكن سليمة البناء إلا أنها تطرق سمع الغريب عن جنوب تهامة كأنها لغة أخرى ؛ لما تشتمل عليه من ألفاظ غريبة ومسميات غير معروفة ولا مأنوسة . قال طهفة طبقاً لما رواه الصحابييان الجليلان عمران بن حصين ، وحذيفة بن البيان :

أتيناك يا رسول الله ، من غَوَزَى تهامة ، بأكوار الميس ، ترمى بنا العيس ، نَسْتَحْلِب الصَّيْر ، وَنَسْتَحْلِب الحَبِير ، وَنَسْتَعْضِد البَرِير ، وَنَسْتَحِيل الرِّهَام ، وَنَسْتَحِيل أو نستجبل الجِّهَام ، في أرض غائلة النُّطَا ، غليظة المَوَطَا ، قد نَشَف المَدَّهْنُ وَيَسَّ الجُّعْثُنُ وسقط الأمْلُوجُ ، ومات العُسلُوجُ ، وهلك الهُدْيُ ، ومات الودْيُ ، برئنا يا رسول الله من الوثن والعنن ، وما يحدث الزمن ، لنا دعوة السلام وشريعة الإسلام ، ما طَمَا البَحْرُ وقام تعارُ ، ولنا نَعَمٌ هَمَلٌ أَغْفَالٌ ما تَبَضُّ بِلَال ، وَوَقِيرٌ كثيرُ الرِّسَلِ قليلُ الرِّسَل ، أصابتهَا سَنَةٌ حمراءُ مُؤَزِّلَةٌ ، ليس لها عِلَلٌ ولا تَهَلُّ (*) .

● شرح كلمات طهفة :

الطهفة : من أسماء الأشجار مثل طلحة ، وهى أعلى الصُّلْبَان ، وهو نبت تسمن عليه الإبل ، والطهف : الذرة ، واحدها : طهفة يفتح الطاء أو كسرها .
الغور : الأرض المنخفضة ، وهو ضد النجد .
تهامة : اسم لمكة وما حولها من الأنوار .
الأكوار : جمع الكور - بالضم - وهو رحل البعير - كالسرج للفرس .
الميس : - بسكون الياء - شجر صلب أملس تتخذ منه الرحال . وقيل أيضا : الميس هو الرحل .
ترمى بنا : تسرع .
العيس : الإبل البيض التى فى بياضها ظلمة خفية ، واحدها : عيساء .
الصَّيْر : سحب أبيض متراكب ، وهو أقل السحاب مطراً ، واستحلاب الصبير يعنى استدراجه .
نستحلب : من الحلب ، وهو القطع والشَّق .
الحبير : النبات .
نستعضد : من العضد - بسكون الضاد - وهو القطع ، وبه سمى العضد وهو المنجل .
البرير : ثمر الأراك . أراد أنهم يجنونه من شجره ويأكلونه للجدب والقحط .
نستحيل : من خِلَّته أخاله : إذا ظنته ، وتخيَّلت السحابة : إذا تهبت كأنها تمطر .
الجِّهَام : الغيم الذى لا ماء فيه .

فقال رسول الله ﷺ :

« اللهم بارك لهم في محضها ونَحْضِهَا ، وَمَذْقِهَا وفِرْقِهَا ، وابْعَثْ رَاعِيَهَا في الذَّئْبِ بِيَانَعِ الشَّمْرِ ، وافْجُرْ لهم الشَّمَدَ ، وبارك لهم في المال والولد ، من أقام الصلاة كان مسلماً ، ومن آتى الزكاة كان محسناً ، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً . لكم يا بنى نَهْدِ ودائع الشُّركِ ووضائع المُلْكِ ، لا تُلْطِطِ في الزكاة ، ولا تُلْجِدِ في الحياة ، ولا نتناقل عن الصلاة ! » .

لقد استمع رسول الله ﷺ إلى خطاب طهفة برحابة صدر وابتسامة ثغر ، ولم يقف

= الغائلة : المهلكة ، من غاله يغره : إذا أهلكه .
 النَّطَاء : البعد ، والنطء : البعيد ، أى أنها فلاة يهلك بُعْدُهَا من سلكها ، ويروى : غائلة النطا - بفتح الميم - وهو مفعل منه .
 الموطأ : موضع القدم في المشى .
 المدهن : - بضم الميم - نقرة واسعة في الجبل أو الصخر يجتمع فيها الماء .
 الجعثن : أصل النبات .
 الأملوج : واحد الأماليج ، وهو ورق كانه عيدان ، وقيل : هو نوى المقل ، والمقل هو ثمر الدوم .
 العسلوج : الغض الناعم الذى يتشعب ورقه .
 الهدئ : الهدئ ، وهو الذى يهدى من الإبل إلى الكعبة للنحر .
 الودئ : الفسيل الصغير من النخل ، وأحدثها : ودية .
 العنن : الاعتراض والاختلاف والباطل واللجاج .
 طما البحر : ارتفع وعلا .
 تَعَارَ : - بكسر التاء - جبل في بلاد قيس من أعمال المدينة لا ينبت شيئا .
 النُّعم : - بفتح النون المشددة - اسم جنس يقع على الإبل والبقر والغنم - وأكثر ما يستعمل في الإبل .
 الهمل : - بفتح الهاء والميم المهمل - التى لا رعاة فيها ولا من يصلحها ويهديها .
 الأغفال : جمع غفل - بالضم - وهى النُّعم التى لا سمة عليها . وقيل : الغفل الذى لا يرجى لا خير ولا شره ، وقيل : أراد بها التى لا ألبان لها .
 بَضْ يَبْضُ : إذا قطر منه اللبن .
 البلال : - بالكسر والفتح - النداء والبسير من الماء قدر ما يبيل الشيء .
 الوقير : الغنم الكثيرة .
 الرسل : - بفتح الراء والسين - ما يرسل من الماشية إلى المرعى ، وجمعه : أرسال .
 والرسل : - بكسر الراء - اللبن .
 السنة الحمراء : الشديدة الجذب ، ويروى سُنَّةٌ بالتصغير للتعظيم .
 المؤزلة : - بكسر الزاى الخفيفة - الضيقة الشديدة .

الأمر برسول الله عند تزويد طهفة بكتاب إلى قومه النهديين ، ولكنه دعا لطفه وقومه بلسان قبيلة بنى نهد مع استعمال ألفاظهم ونهج أسلوبهم ، وقد قصد رسول الله بذلك أن يجاملهم ، ذلك أن حديث المرء بلغة ضيفه يحسب من قبيل التحية وباب التكريم ، هذا فضلا عن قدرة الرسول ﷺ على أن يتحدث لغات العرب جميعا بأفصح مما يتكلمها أصحابها .

أما وقد دعا رسول الله لنهد على النحو النبيل الذي سلف نصه ، فإنه يزيد القوم تكريما ، ويحمل طهفة كتابا إلى بنى قومه ، فيه نصح لهم وحسن توجيه ، بنفس الأسلوب وعلى نفس النهج ، يقول فيه : (١)

« من محمد رسول الله إلى بنى نهد بن زيد : السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم يابنى نهد ، في الوظيفة الفريضة ، ولكم العارض والفريش ، وذو العنان الركوب ، والفلق الضبيس ، لا يمنع سرحكم ، ولا يعضد طلحكم ، ولا يجبس دركم ، ولا يؤكل أكلكم ، ما لم تضرروا الإماق وتاكلوا الرباق ، من أقربا في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد ، والدممة ، ومن أبى فعلية الربوة » .

ويبدو أن طهفة كان من أوائل القادمين على رسول الله ﷺ في عام الوفود ؛ لأن على ابن أبي طالب - وكان حاضرا الحوار - أخذه التعجب فقال : يا رسول الله نراك تكلم

(١) منال الطالب لمجد الدين بن الأثير ١ / ٣٥ وما بعدها ، والعقد الفريد ٢ / ٥٣ وما بعدها . وقد أخرج الحديث أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي ، والزغشري في الفائق ٢ / ٢٢٧ وخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب في طهفة ص ٧٧٤ ، وابن حجر في الإصابة ٣ / ٢٩٧ في طهية .

معاني دعاء رسول الله وكتابه :

المحض : خالص اللبن . والمخض : ما غضض من اللبن وأخذ زبد . والمذق : اللبن المزوج بالماء . الدثر : المال الكثير ، وقيل : الخصب والنبات الكثير . الثمد : الماء القليل ، ودائع الشرك : المراد بها العمود والمواثيق التي كانت بينهم وبين من جاؤهم من الكفار في المهادنة . الوضائع : جمع وضاعة ، وهي ما يلزم الناس في أموالهم من الصدقة . لا نلظط : يعني لا نمنع .

الوظيفة : النصاب في الزكاة . والفريضة : الهمة المسنة ، أي : لا تأخذ في الصدقات هذا الصنف . الفارض : المريضة . الفريش من الإبل : الحديثة العهد بالتناج . الركوب : الفرس المدلل للركوب . الفلو : المهر . الضبيس : الصعب العسر الركوب . السرح : ما سرح من المواشي . يعضد : يقطع . الطلح : الشجر لا ثمر له . الدر : اللبن . الإماق : الغنط ، وقيل : إضمار الكفر . الرباق : جمع ربق : الحبل يجعل فيه عرى وتشد به البهيمة . تاكلوا الرباق : أي تنقضوا العهد . الربوة : الزيادة

وفود العرب بها لا نفهم أكثره ونحن بنو أب واحد ، فقال النبي : « أدبني ربي فأحسن تأديبي وربيت في بني سعد » .

حديث ذي المشعار الهمداني وكتاب رسول الله لقومه :

قدم على رسول الله ﷺ حين رجع من تبوك وفد همدان ، يضم فريقاً من رؤوسهم ، منهم : ذو المشعار مالك بن نَمَط ، ومالك بن أَيْفَع ، وضمَام بن مالك السَّلَماني وعميرة بن مالك الخارفي ، فلقوا رسول الله ﷺ وعليهم مقطعات الحبرات والعمام العدنية - طبقاً لرواية ابن هشام - برجال الميس على المَهْرِيَّة والأرجحية ، وذو المشعار ورجل آخر يرتحزان :

همدانُ خيرٌ سُوقَةً وأَقْيَالُ ليس لها في العالمين أمثالُ
محلها الهضْبُ ومنها الأبطال لها إطاباتٌ بها وآكالُ

ويقول الآخر :

إليك جاوزنَ سوادَ الريفِ في هَبَوَاتِ الصَّيْفِ والخريفِ
مُخَطَّاتٍ بحبالِ اللَّيْفِ (*)

عند ذلك قام ذو المشعار بين يدي رسول الله ﷺ فقال :

يا رسول الله نَصِيَّةٌ من هَمْدَانَ من كل حاضرٍ وباد ، أَتَوَكَّ على قُلُوصِ نَوَاجٍ مُتَّصِلَةٍ بحبائل الإسلام ، لا تأخذهم في الله لَوْمَةٌ لائمٍ من مَخْلَافٍ خارف ، وَيَأَمَ وشاكر ، أهل السَّوَادِ والقُودِ ، أجابوا دَعْوَةَ الرسول ، وفارقوا الآلهات والأنصاب ، عَهْدُهُمْ لا يُنْقَضُ عن سُنَّةٍ ماحل ، ولا سوداءٍ عَنَقَقِيرٍ ما أقام لَعَلَع ، وما جَرَى اليَعْفُورُ بِصَيْلَع .

(*) معاني المفردات :

المقطعات : ثياب غيطة . الحبرات : برود بيانية . الميس : خشب تصنع منه الرجال التي تكون على ظهور الإبل . المهريّة : إبل نجية تنسب إلى قبيلة مهرة اليمنية . الأرجحية : إبل تنسب إلى قبيلة أرحب اليمنية ، وهي بطن من همدان ، وقيل : أرحب فحل تنسب إليه النجائب .
السوقة : من هم دون الملوك من الناس . الأقيال : الملوك ، ومفردها قَيْلٌ - بفتح وسكون - . الإطابات : الأموال الطيبة . الآكال : ما يأخذه الملك من رعيته وظيفه لهم عليه . السواد : معناه هنا القرى الكثيرة ، والشجر والنخل . الريف : الأرض التي تقرب من المياه والأنهار . الهبوات : مفردها هبوة ، وهي الغبار . مخططات : أى أن لها خططاً ، وهي الحبال تشد في رؤوس الإبل على أنوفها .

فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لمخلاف خارف ، وأهل جناب الهضب ، وحِقَاف الرَّمْل ، مع وافدها ذى المشعار مالك بن نَمَط ، وَمَنْ أَسْلَمَ من قَوْمِهِ ، أن لهم فِرَاعَهَا ووهَاطَهَا وعَزَازَهَا ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، يأكلون علفها وَيَرْعَوْنَ عَفَاءَهَا [لنا من دِفْئِهِمْ وصِرَامِهِمْ ما سَلَّمُوا بالميثاق والأمانة ، وهم من الصَّدقة الثَّلَب والثَّاب والقَصِيل والفَارِض والدَّاجِن والكَبْش الحَوْرَى وعليهم فيها الصَّالِغ والقَارِح ، لكم بذلك عَهْدُ الله وذِمَامُ رسوله ، وشاهدُكُمْ المهاجرون والأنصار » (*) .

لعلنا نلاحظ هنا مثلاً لاحظنا في الكتاب السابق أن الرسول ﷺ قد خاطب القوم بلغتهم التي يفهمونها مع كونها مشحونة بالغريب من الألفاظ ، وغير المأنوس من

معاني مفردات حديث ذى المشعار :

النَّصْبِيَّة : خيار القوم . القلص : مفردها قلوص ، هى الإبل الفتية ، نواج : مسرعة . المخلاف : المدينة بلغة اليمن . خارف ويام وشاكر : قبائل يمنية . السواد - بفتح السين المشددة - يعنى الإبل . والقود : الخيل . الأنصاب : حجارة كانوا يذبحون لها ، لعلع : اسم جبل . اليعفور : ولد الظبية . صيلع : اسم موضع باليمن .

(*) معانى كتاب النبى ﷺ :

غلاف فى اليمن كالرستاق فى العراق . خارف : قبيلة يمنية . يام : بطن من همدان . شاكر : بطن من كهلان . جناب - بكسر الجيم - اسم موضع . الفراع : جمع فرعة ، وهو ما ارتفع من الأرض . الروهاط : ما اطمأن من الأرض . العزاز : ما صلب من الأرض . العلاف - بكسر العين - جمع علف كجبل ، وهو ما تأكله الدواب من نبات الأرض . العفاء : العاقى ، وهو ما ليس لأحد فيه ملك . الدفاء : نتاج الإبل وما ينتفع به منها ؛ سمي دفئاً لأنه يتخذ من أو بارها ما يستدفأ به . الصرام : النخل ، وأصله : قطع الثمرة . الثلب من ذكور الإبل : الذى هرم وتكسرت أسنانه . الثناب : المسنة من إناثها . الفصيل من أولاد الإبل : الذى فصل عن أمه من الرضاع . الفارض : المسن من الإبل . الداجن : الشاة التى يعلفها الناس فى منازلهم . الكبش الحورى : منسوب إلى الحور ، وهى جلود تتخذ من جلود الضأن ، وقيل : هو ما دبغ من الجلود بنير القرظ . الصالغ - بالصاد المهملة والغين المعجمة - وهو من البقر والغنم الذى كمل وانتهى ، ويكون ذلك فى السنة السادسة . ويقال بالسنيين بدل الصاد . القارج من الخليل : الذى دخل فى السنة الخامسة ، وجمعه قرح . طلايع : جمع طليحة أى : معيبة ، من طلع البعير - كمنع - طلحاً وطلاحة : أعيا .

الكلمات عند غيرهم ، وقد جرى هذا الغريب في أسلوب رسول الله ﷺ في يسر وانثيال وكأنه واحد منهم ، مع كمال البلاغة وتمام الإحاطة وشمول البيان .

وكان الرسول سخياً معهم ، مغدقاً عليهم حين أعطاهم عهداً بالسيادة على أرضهم ما بقى إسلامهم حسناً ، ولا يحسن إسلامهم إلا بإقام الصلاة التى هى عماد الدين ، وإيتاء الزكاة التى هى الركيزة الأساسية فى نظام التكافل الذى انفرد به الإسلام ، فضلاً عن كونها الركن الثانى فى العبادات ، والركن الثالث فى بنية الإسلام ، ولعل أبا بكر - رضى الله عنه - قد اعتمد فى حربه المرتدين على هذا النص من منطق رسول الله ، هذا وقد جعل رسول الله ﷺ العهد لله ، والذمة له ، والشهادة للمهاجرين والأنصار تكريماً لهم ورفعة لشأنهم .

هذا الموقف الجليل فى حضرة رسول الله ﷺ قد استولى على مجامع ذى المشعار ، فجاشت عاطفته ، وفاضت شاعريته ، فنطق بهذه الأبيات النفيسة (*) :

ذَكَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ فِي فَحْمَةِ الدَّجَى	وَنَحْنُ بِأَعْلَى رَحْرَحَانَ وَصَلَدٍ
وَهُنَّ بِنَا خَوْصَ طَلَائِحُ تَغْتَلِي	بِرُكْبَانَهَا فِى لَحَبٍ مُتَمَدِّدٍ
عَلَى كُلِّ فِتْلَاءٍ الدَّرَاعَيْنِ جَسْرَةَ	تَمُرُّ بِنَا مَرَّ الْهَجَفِ الْخَفِيدِ
حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ إِلَى مِنَى	صَوَادِرَ بِالرُّكْبَانِ مِنْ هَضْبٍ قَرْدٍ
بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ فِينَا مُصَدِّقٌ	رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مُهْتَدٍ
فَمَا حَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا	أَبْرَ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ
وَأَعْطَى إِذَا مَا طَالِبُ الْعُرْفِ جَاءَهُ	وَأَمْضَى بِحَدِّ الْمَشْرِفِيِّ الْمُهَنْدِ

(*) معانى ألفاظ الأبيات :

فحمة الدجى : سواد ظلمة الليل . رحرحان : جبل قرب عكاظ . صلاد : موضع باليمن . خوص : جمع خوصاء ، يعنى غائرة العيون . قلائص : جمع قلوص ، وهى الناقة الشابة . تغتلى : من الاغتلاء ، وهو الإسراع فى السير . اللاحب واللاحب : الطريق الواضح . الفتل : تباعد ما بين المرفقين عن جنبى البعير . الجسر : العظم من الإبل ، ومؤنثه : جسر . الهجف : الجافى الثقيل . الخفيدد : السريع من النعام . الراقصات : الإبل ترقص فى سيرها ، وهو ضرب من المشى . صوادر : رواجع . قرد : المكان الغليظ المرتفع . العرف : المعروف . المشرفى : سيوف نسبت إلى مشارف ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف . المهند : السيف المصنوع من حديد الهند .

كتب الرسول حين قدم عليه وائل بن حُجْر الحضرمي :

إن وائل بن حجر واحد من أبناء الملوك الذين وفدوا على رسول الله ﷺ في المدينة فأكرمه واحتفى به وأحسن استقباله طبقاً لما أوردناه في الفصل الثالث من الباب الأول ، وكان الرسول ﷺ على الرغم من سجيته السمحة في لقاء الوافدين عليه ، فقد خصّ وائلاً برعاية جعلته في مقدمة الوافدين مكانة وحسن استقبال ، خصه دون غيره بثلاثة كتب - وليس كتاباً واحداً - حملها معه في عودته إلى موطنه حضرموت ، وخصّه بأن بشر الصحابة بمقدمه قبل دخوله على رسول الله ومثوله بين يديه بفترة من الزمان .

إن مجد الدين أبا السعادات بن الأثير يروي خبر مقدم وائل بن حُجْر على رسول الله ﷺ على هذا النحو (١) :

وفد على النبي ﷺ بالمدينة ، وقد كان بشر به أصحابه قبل قدومه ، فقال : « يأتاكم وائل (*) بن حُجْر من أرض بعيدة ، من حضرموت ، طائعاً راغباً في الله عزَّ وجلَّ ، وفي رسوله ، بقيّةُ أبناء الملوك » فلما دخل عليه رحّب به وأدناه من نفسه ، وبسط له رداءه ، فأجلسه عليه ، وقال : « اللهم بارك في وائل وولده وولد ولده » واستعمله على الأقيال من حضرموت ، وكتب معه ثلاثة كتب ، كتابٌ خالصٌ له على قومه ، وكتابٌ له ولأهل بيته ، وكتابٌ له ولقومه :

(١) الفائق للزخشري ١/ ١٤ ، والإصابة ٣/ ٦٢٨ والطبقات الكبرى ١/ ٣٤٩ ومنال الطالب ١/ ٧٣ .

(*) المعاني :

وائل : اسم فاعل من أكل يَأْكُلُ وَالْأَ : إذا لجأ إلى شيء ، والمؤزَّل : المُلْجَأ .

وكان وائل قَبِيلاً من أقيال حضرموت ، ومن أبناء ملوكها .

وحُجْر - بضم الحاء - اسمٌ معروف ، تقول العرب عند الأمر تنكره : حُجْرَ له ، أى : دَفَعَا ، وهو استعاذة من الأمر . وأبو أمية ، هكذا يروى بالرفع في حال الجرّ ؛ لأنه اشتهر بذلك وعُرفَ به ، فجرى مجرى المثل ، وهذا المهاجر هو صحابيٌّ من بنى المغيرة المخزوميّ أخو أم سلمة . بعثه رسول الله ﷺ إلى الحارث بن عبد كلال الحِمْيَرِيّ ملك اليمن ، واستعمله على صناعة وغيرها ، ثم ولّاه أبو بكر بعده اليمن .

والأقيال : ملوك اليمن ، دون الملك الأعظم ، يكون كل واحد منهم مَلِكاً على قومه ومخلافه ، وهو جمع قَبِيل .

ويُسْتَعْسَى : أى يستعمل على الصّدقات ، من الساعى ، وهو عامل الصدقة الذي يأخذها من أربابها .

وَيَتَرَفَّل : يَتَسَوَّدُ وَيَتَرَأْسُ ، يقال : رَفَلْتُهُ فَرَفَلًا .

ففي الكتاب الأول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المهاجر بن أبو أمية ، إنَّ وائلاً يُسْتَسْعَى وَيَتَرَقَّل على الأقوال حيث كانوا من حَضْرَمَوْت .

وأما الكتاب الثانى فهو لوائل ولأهل بيته ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المهاجر بن أبى أمية ، لأبناء مَعْشَر وأبناء ضَمْعَج ، أقوال شَبَوَة ، بما كان لهم فيها من ملكٍ وعُمرانٍ ، ومَزاوِرٍ وعُزْمانٍ ، ومِلحٍ ومَحَجَرٍ ، وما كان لهم من مالٍ بحَضْرَمَوْت ، أعلاها وأسفلها ، من الجِوار والدِّمَّة ، الله لهم جازٌ والمؤمنون أنصارٌ إن كانوا صادقين » (*) .

ومن الوضوح بمكان أن هذا الكتاب الثانى يكاد يخلو من الألفاظ غير المأنوسة ، اللهم إلا أسماء الأقسام والقبائل والأمكنة ، وفيما عدا ذلك فالألفاظ مأنوسة ومفهومة .

والكتاب الذى أملاه رسول الله ﷺ موجه إلى وائل وإلى قومه جميعا من ملوك ومن هم فى مقام الملوك وإلى أهل حضرموت بصفة عامة ، وفيه الفرائض والتكاليف والأحكام ، وقد أجرى رسول الله ﷺ أسلوب الكتاب على سجية لغة القوم من أهل حضرموت ، وهى لغة غير معروفة ولا مأنوسة عند أهل الحجاز ، ولم تشر الأخبار من قريب أو بعيد أن النبى ﷺ قد زار حضرموت أو عايش الحضارمة فى مكة أو المدينة . وهو مع ذلك يتحدث لغتهم ويستعمل مصطلحاتهم ويجرى الخطاب بلغتهم فى يسر وانطلاق وكأنه عاش حياته بينهم ؛ فيستبدل النون بالعين ، والميم بالنون ، وغير ذلك مما درج عليه

● معانى : الكتاب الثانى :

مَعْشَرٌ وَضَمْعَجٌ : قبيلتان من حمير وأهل حَضْرَمَوْت ، وهما من آباء وائل بن حُجْرٍ وقومه .

وَضَمْعَجٌ - بالضاد المعجمة والجيم - : هو اسم الناقة الضَّخْمَة التَّامَة .

أقوال : لغة فى أقيال .

وَشَبَوَة : اسم الناحية التى كانوا بها من حضرموت .

وَالْعُمُرَان : المعمور من الأرض .

وَالْمَزاوِر : الرِّياض ، جمع مَزْرَعٍ ؛ لأنها تجمع أصناف الزَّهَر والنبات .

وَالْعُزْمان : المزارع - وقيل : الأكَرة - وهم حراث الأرض ، واحدها : أَغْرَمٌ ، وقيل : عَرِيمٌ .

وَمَحَجَرٌ : قرية معروفة بحضرموت ، وقيل : هو مَحَجَرٌ ، بالنون : موضعٌ معروف بها .

وَالجِوار والدِّمَّة : الأمان والمهد ، يقال : أَجَزْتُ فلاناً : إذا مَنَعْت من ظُلْمه ونَصْرته ، وأجاره الله من العذاب : أى

أنقذه . والاسم : الجوار .

أهل حضر موت في كلامهم في ذلك الزمان ، وهذا هو نص الكتاب الثالث :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى وائل بن حُجْر ، والأقيال العباهلة ، والأرواح المشاييب ، من أهل حَضْرَمَوْت ، بإقام الصلاة المفروضة ، وأداء الزكاة المعلومة ، عند محلّها ، على التَّيْعَة شاةً ، لا مَقْوَرَة الألياط ، ولا ضِنَاك ، والتَّيْمَة لصاحبها ، وأنطوا التَّبَجَة ، وفي السُّيُوب الخُمُس ، لا خِلَاط ولا وِراط ولا شِنَاق ، ولا جَلَب ولا جَنَب ولا شِغَار في الإسلام ، ومن أجبا فقد أَرَبَى ، وكلُّ مُسْكِر حرام ، ومن زنا مِمَّ يَكُر فاصْقُوه مائة ، واستَوْفِضُوه عاماً ، ومن زنا مِمَّ تُيَّب فَضَرِّجُوهُ بالأضاميم ، لا تَوْصِيم في الدِّين ، ولا عَمَّة في فرائض الله ، لكل عشرة من السَّرايا ما يَحْمِل القِرَاب من الثَّمَر . ووائل بن حُجْر يَتَرَقَّل على الأقيال ، أميرُ أمره رسولُ الله ، فاسمعوا وأطيعوا» (*) .

وجاء في الخبر أن وائلا طلب من رسول الله ﷺ أن يقطعه أرضا فأقطعه إياها ،

● معاني الكتاب الثالث :

والعَبَاهِلَة : الذين يُزَوِّغُونَ الناسَ بِخُسْنِ المنظر وجمال الهيئة والشَّارة ، واحداها : رائع كشاهد وأشهاد .
والأَرَوَاحُ : الذين يُزَوِّغُونَ الناسَ بِخُسْنِ المنظر وجمال الهيئة والشَّارة ، واحداها : رائع كشاهد وأشهاد .
والمَشَايِبُ : الزُّهْرُ المُسْتَبِيرُ الوَجْه ، الذين كأنما شُبَّتْ ألوانهم : أى أَوْدَعَتْ ، واحدهم : مَشْبُوبٌ ، يقال : شَبَّ النَّازُ يَشْبُو ، إذا أَوْدَعَهَا ، وَرَجُلٌ مَشْبُوبٌ : إذا كان أبيضَ الوجه ، أسودَ الشَّعَر ، حَسَنَ الْمَنْظَر .
وَيَحْمِلُ الزَّكَاةَ - بكسر الحاء - : الوقت الذي تجب فيه باستكمال الحول .
التَّيْعَة : الأربعون من الغنم ، وقيل : هى اسمٌ لَأَدْنَى ما تجب فيه الزكاة من الإبل والغنم وغيرها ، كأنها الجملة التى للشفاعة عليها سبيل ، من تاعَ إليه يَتَيْعُ : إذا ذهب إليه .
الْمَقْوَرَة . المُسْتَرْخِيَة الجلود بهزائها ، وقد أَقْوَرَ الجِلْدُ يَقْوَرُ أَقْوَرًا ، من قولهم : دارٌ قَوْرَاءُ ، أى : واسعة ، لأنه يُفَضَّل حينئذ عن الجسم ويتسعُ .
الْأَلِيَّاطُ : جمع الَّلِيْط ، وهو القَشْرُ اللاصق بالشَّجر والقَصَب ، من لاطَ حُبَّهُ بقلبي .
الضَّنَاك : المكتنزة اللحم ، من الضَّنَكِ : الضَّيْقُ ؛ لأن الاكتنارَ تَضَامٌ وتَضَائِقٌ .
أى : لا يؤخذ منهم الرَّذَى ولا النَّفِيسُ ، إنما يؤخذ الوَسْطُ .
التَّيْمَة : الشاة الزائدة على التَّيْعَة ، حتى تَبْلُغَ الفريضة الأخرى . وقيل : هى الشاة المربوطة المعلوفة فى البيت للاحتلاب ، وإيَّهما كانت فهى المحبوسة ، إما عن الصدقة ، وإمَّا عن الرِّفَى .
الإِنطَاء : الإعطاء ، لغة بآنية . يقال : أَنْطَى يُنْطَى ، كأعطى يُعطى .
والتَّبَجَة : الوسط ، والأصل : النَّج . أى : أعطوا المتوسطة بين الخيار والرَّذال .

.....

= والسَّيْبُ : الرِّكَاز ، وهو المال المدفون في الجاهلية ، أو المَعْدِن ، جمع سَيْب ، وهو العطاء ، لأنه من فضل الله على مَنْ أصابه . وقيل : السَّيْبُ : عُرُوقُ من الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ ، تَسِيَّبُ في المَعْدِن ، أى : تَجَرى فيه .
والخُمْسُ : سهمٌ من خمسة أسهم ، وتُضَمُّ مِثْمُهُ وتُسَكَّن .

والخِلَاطُ : مصدر خَالَطَهُ يَخَالِطُهُ مَخَالِطَةً وَخِلَاطاً ، والمراد به أن يَحِلِّطَ الرَّجُلُ مَالَهُ بِمالٍ غَيْرِهِ لِيَمْنَعَ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ ، أو يَبْخَسَ السَّاعِيَ فيها يجب له ، وهو معنى قوله في الحديث الشريف : « لَا يَجْمَعُ بَيْنَ مُتَفَرِّقٍ وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ مُجْتَمِعٍ حَسْبَةُ الصَّدَقَةِ » .
أما الجمعُ بين المتفرق ، وهو الخِلَاطُ : فمثل أن يكون ثلاثة نَفَرٍ ، لكل واحدٍ منهم أربعون شاةً ، وقد وجب على كُلِّ واحدٍ منهم شاةٌ ، فإذا أَظْلَمَ السَّاعِيَ جمعوها لثلاث يكون عليهم فيها إلا شاةً واحدةً .

وأما تَفْرِيقُ المجتمع : فإن يكون شريكاً ولكل واحدٍ منهما مائة شاةً وشاةً ، فيكون عليهما فيها ثلاث شياهُ ، فإذا أَظْلَمَ السَّاعِيَ فَرَقًا غنمهما ، فلم يكن على كُلِّ واحدٍ منهما إلا شاةً واحدةً ، فَتَنُوهَا عن ذلك .
والوَراطُ : أن يَحْمِلَ غَنَمَهُ أو إِبِلَهُ في وَهْدَةٍ من الأرض لِتَخْفَى على المُصَدِّقِ ، مأخوذةٌ من الوَرُطَةِ ، وهى الهُوَّةُ العميقة في الأرض ، يقال : تَوَرَّطَتِ الغَنَمُ : إذا وقعت في الوَرُطَةِ ، ثم استعير للناس إذا وقعوا في بَلِيَّةٍ يَغْشَى المَخْرَجُ منها .
وقيل : الوِراطُ أن يُعْتَبَرُ إِبِلُهُ أو غَنَمُهُ في إِبِلٍ غَيْرِهِ أو غَنَمِهِ ، لثلاثٍ يراها المُصَدِّقُ .

والسَّنَاقُ : المشاركة في السَّنَقِ ، وهو ما بين الفريضتين من كُلِّ ما تجب فيه الزكاة ، كالزيادة على الخمس من الإبل إلى العشر ، والزيادة على العشر إلى الخمس عشرة . أى : لا يُؤْخَذُ في الزيادة على الفريضة زكاةً ، إلى أن تبلغ الفريضة الأخرى . وإنما سُمِّيَ سَنَقًا ، لأنه ليس بفريضة تَامَّةٍ ، فكأنه مشنوقٌ ، أى : مكفوفٌ عن التمام ، من سَنَقَتْ الناقة بزمامها : إذا كَفَقَتْهَا .

فمعنى قوله : « لا سِنَاقٌ » أى : لا يَسْتَنِقُ الرَّجُلُ غَنَمَهُ أو إِبِلَهُ إلى مالٍ غَيْرِهِ ، لِيَبْطُلَ الصدقة ، وهو قريبٌ من الخِلَاطِ .
تقول العرب إذا وجب على الرجل شاةً في خمس من الإبل : قد أَشْنَقَ ، أى وجب سَنَقٌ .

والجَلْدُ : يكون في شيتين ، أحدهما في الزكاة ، وهو أن يُقَدَّمَ المُصَدِّقُ على أهل الزكاة ، فينزل موضعاً من أرضهم ، ثم يرسل إلى المياه مَنْ يَجْلِبُ إليه الأموال ، ويجمعها عنده ليأخذَ صدقتها ، فَنُهِى عن ذلك ، وأمر أن تُؤْخَذَ صدقاتهم على مياهم ، يقال : جلب الشيءَ يَجْلِبُهُ وَيَجْلِبُهُ ، جَلَبًا وَجَلَبًا .

والثاني : يكون في السَّنَاقِ ، وهو أن يَتَّبِعَ الرَّجُلُ فَرَسَهُ فَيُزْجِرَهُ ، وَيُجْلِبُ عليه ، حتا له على الجرى ، فَنُهِى عن ذلك .
يقال : جَلَبَ فَرَسَهُ يَجْلِبُ جَلَبًا : إذا صاح به مِنْ خَلْفِهِ ، واستحثه ، وأَجْلَبَ عليه مثله .

والجَنْبُ : يكون في الزكاة كالجَلَبِ ، وهو أن يأمر المُصَدِّقُ بالأموال أن تُجَنَّبَ إليه ليأخذَ صدقتها ، يقال : جَنَّبْتُ الدَّابَّةَ جَنْبًا : إذا قُدَّتْها إلى جَنْبِكَ . وقيل : هو أن يُجَنَّبَ رَبُّ المالِ بهالِهِ ، أى : يُبْعَدَ عن موضعه ، حتى يحتاج المُصَدِّقُ إلى الإبعاد في طلبه وأتباعه .

والشُّغَارُ : نكاحٌ كان في الجاهلية ، كان يقول الرجلُ للرجلِ : شَاغِرَتِي ، أى : زَوَّجْنِي بنتك أو أختك ، أو مَنْ تَلَى أُمَّتَهَا ، حتى أَزَوَّجَكَ أختى أو بنتى ، أو مَنْ ألى أُمَّتَهَا ، ولا يكون بينهما مَهْرٌ ، وقيل له : شِغَارٌ ، لارتفاع المهر بينهما ، مِنْ شَغَرِ الكلبِ : إذا رفع إحدى رجليه لِيَبُولَ .

وأجبا الرجلُ : إذا باع الزرع قبل أن يبدو صلاحه ، وأصله الهَمْزُ ، من جِأَ عن الشيءِ : إذا كَفَّ عنه ، لأن البُئَاءَ مُتَمَنِّعٌ من الانتفاع به إلى أن يُدْرِكَ ، وإنما حُفِّفَتِ الهمزة ليزاوج أَرْبَى .

وبعث معه معاوية بن أبى سفيان ليتسلمها ، ويبدو أنه كان بوائل بقية من استعلاء الملوك ؛ لأن معاوية قال له : أردفنى ، أى : أركب خلفك على الدابة التى تحملك ، فقال له وائل : لست من أرداف الملوك ، ورفض أن يردفه ، وقد عاش وائل إلى زمن خلافة معاوية ، فذهب إليه ، فتلقيه معاوية بالبشر وأكرمه . قال وائل : فوددت لو كنت حملته بين يدي .

كتاب الرسول لقبيلة كلب مع قطن بن حارثة العليمى :

كانت قبيلة كلب تسكن دومة الجندل وما حولها ، فقدم وفد بنى عليم - وهم بطن من كلب - ومعهم قطن بن حارثة العليمى وألقى خطبته نيابة عنهم بين يدي

= وقيل : أراد بالإجاء أن يُعَيَّب إبله عن المُصَدِّق ، من أجابته : إذا واريته .
وأزى : أى دخل فى الرِّبَا ، يقال : أزيى يُزىى إرباء ، وأصل الرِّبَا : الزيادة ، وقد ربا المَالُ يَزُبُو زُبُوًا ، والاسم الرِّبَا ، مقصور .
وقوله : « وَمَنْ زَنَا مِمَّ يَكُرُّ » قلب نون « مِنْ » ميمًا ، لوقوع باء « يَكُرُّ » بعدها ، وهو قلبٌ مُطَرِّدٌ إذا كانت النون ساكنة ، نحو غَنَرٍ وَغَنَرٍ .
وأما قوله : « وَمَنْ زَنَا مِمَّ يُكَيِّبُ » فَإِنَّ قَلْبَ النُّونِ مِيمًا لُغَةً يَابَانِيَّةً ، كما يقبلون لام التعريف ميمًا ، كقوله : « لَيْسَ مِنْ أَمْرِ » يريد : من البر .

والبُكَرُ والثِّيَّبُ يقعان على الرجل والمرأة ، فالبُكَرُ : الذى لم يتزوج ، والثِّيَّبُ : الذى تزوج .
والصُّرْبُ : الصُّرْبُ على الرأس ، ومنه فَرَسٌ أَصْقَعُ ، وهو المُنْبَيْضُ أعلى رأسه ، والمرادُ هنا الصُّرْبُ على الإطلاق .
والاستيفاضُ ، التَّغْرِيبُ والتَّغْيُّ والطَّرْدُ ، مِنْ وَفَضَ وَأَوْفَضَ : إذا عَدَا وأسْرَعَ ، واستَوْفَضْتَ الإِبِلَ . إذا تفرقت فى رعيها .
والتَّضَرِّيجُ : التَّذْيِيقُ ، مِنَ الضَّرَجِ ، وهو الشَّقُّ ، وثوبٌ مُضَرَّجٌ ، أى : مصبوغٌ بالخمرة ، وتَضَرَّجَ : إذا تَلَطَّحَ بالدم .
والأَصَامِيمُ : الحجارة ، واحدها إِصْمَامَةٌ ، إفعالة من الضَّمِّ ، وأراد بذلك الرَّجْمَ الذى هو حدُّ الزانى الثَّيِّبِ .
والتَّوَصِيمُ : الفُتُورُ والتَّوَانِي ، أى : لا إهمالَ لإقامة الحدود ، وأصله من الوَضَمِ : الضَّدْعُ . ثم قبل لمن به وَجَعٌ وتكسَّرَ فى عظامه : مُوَصِّمٌ ، كما قيل لمن فى حَسَبِهِ غَمِيْرَةٌ : مُوَصِّمٌ ، ثم شَبَّهَ الكَسْلَانُ المتشاكلَ بالوَجَعِ المتكسَّرِ ، فقيل : به تَوَصِّيمٌ ، والمعنى : لا مُحَابَاةَ فى دين الله ولا تَوَانِي .

وَالْعَمَّةُ : مِنْ عَمَّةٍ ، إِذَا سَرَّهَ وَحَطَّاه ، أى : لا تُسَرُّ فرائضه ولا تُخْفَى ، إِنَّمَا تُظْهَرُ وَيُجْهَرُ بها .
وَالسَّرَايا : جمع سَرِيَّةٍ ، وهى طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة ، تُبْعَثُ إلى العدوِّ ، سُمِّيَتْ بذلك لأنهم يكونون خيارَ الجيشِ ، من السَّرِيِّ : النَّقِيسِ ، وقيل : لأنهم يُنْقَدُونَ سَرًّا . وقيل : هو مِنَ السَّرِيِّ : سير الليل ، لأنَّ أكثرَ ما يُنْقَدُونَ فيه

والقرباب : شُبَّهَ جِرَابٍ يضع فيه المسافر زادَه وسلاحَه .

ويروى : « الْقِرَافُ » بالفاء ، جمع قَرَفٍ ، بالسكون ، وهو وعاءٌ من جِلْدٍ يُدْبَغُ بِالْقِرْقَةِ ، وهى قَشْرُ الرُّمَّانِ .
أوجب عليهم أن يُزَوِّدُوا كُلَّ عشرة من السَّرايا المجتازة بهم ما يَسَعُ هذا الوعاء من التَّمْرِ .

رسول الله ﷺ ، وقد استهلها بأبيات من الشعر في مدح الرسول ﷺ قال فيها :

رَأَيْتَكَ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا نَبَتْ نَضَاراً فِي الْأُرُومَةِ مِنْ كَعْبِ
أَغْرَرَ كَأَنَّ الْبَدْرَ سَنَةً وَجْهَهُ إِذَا مَا بَدَأَ لِلنَّاسِ فِي حُلُلِ الْعَصَبِ
أَقَمْتَ سَبِيلَ الْحَقِّ بَعْدَ اعْوَجَاجِهَا وَرَبِيتَ الْيَتَامَى فِي السَّقَايَةِ وَالْجَدْبِ

فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً يحمل فحواه ما تضمنه الكتاب الثالث الذي حمله وائل بن حجر السالف عرضه ، من حيث العبادات المفروضة من صلاة وزكاة وتفصيلات الصدقات التي عليهم تأديتها ، ومثلما أُملي الرسول ﷺ كُتبه لأهل حضرموت بلغتهم ولهجتهم ، فقد سلك ﷺ النهج نفسه مع قبيلة كلب ونواحي دومة الجندل من حيث اللغة واللهجة والألفاظ ومسمياتها . وهي إن بدت حوشية غير مأنوسة عند غيرهم فهي عندهم تحمل سمت البلاغة وغاية السلاسة . وهذا هو نص كتاب رسول الله ﷺ لـ كلب وأحلافها : (١)

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتابٌ من محمد رسول الله ، لعمائر كَلْبٍ وأحلافها ، وَمَنْ ظَاوَرَهُ الْإِسْلَامُ مِنْ غَيْرِهِمْ ، مَعَ قَطْنِ بْنِ حَارِثَةَ الْعُلَيْمِيِّ ، بِإِقَامِ الصَّلَاةِ لَوَقْتِهَا ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ بِحَقِّهَا ، فِي شِدَّةِ عَقْدِهَا وَوَفَاءِ عَهْدِهَا ، بِمَحْضَرٍ مِنْ شُهُودِ الْمُسْلِمِينَ : سَعْدِ بْنِ حُبَادَةَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُتَيْسٍ ، وَدُخْيَةَ بْنِ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيِّ . عَلَيْهِمْ فِي الْهَمْوَلَةِ الرَّاعِيَةِ الْبُسَاطُ الطَّوَارِ ، فِي كُلِّ خَمْسِينَ نَاقَةً ، غَيْرُ ذَاتِ عَوَارٍ ، وَالْحَمْوَلَةُ الْمَائِرَةُ لَهُمْ لِأَغْيَةٍ ، وَفِي الشَّوِيِّ الْوَرِيَّ مُسِنَّةً حَامِلٌ ، أَوْ حَائِلٌ ، وَفِيهَا سَقَى الْجَدْوُلُ مِنَ الْعَيْنِ الْمَعِينِ الْعَشْرُ مِنْ ثَمَرِهَا وَمِمَّا أَخْرَجَتْ أَرْضُهَا . وَفِي الْعَدَى شَطْرُهُ بِقِيَمَةِ الْأَمِينِ ، لَا تُزَادُ عَلَيْهِمْ وَظِيفَةٌ وَلَا تُقَرَّقُ . شَهِدَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ وَرَسُولُهُ . وَكُتِبَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ بْنُ شَمَّاسٍ (*).

(١) منال الطالب ١ / ٥٩ ، والعقد الفريد ٢ / ٣٤ ، والإصابة ٣ / ٢٨٣ .

(*) معاني الألفاظ :

العمائر : جمع عمارة ، وهي الحق العظيم ، أولها : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ .
من ظاوه الإسلام : أي عطفه أو عطف عليه ورفق به ، ومنه قيل لمن ترضع غير ولدها : ظئر .
الأحلاف : جمع حليف ، وهو المحالف والمعاهد .
وشدة عقدها : ما تعاقدوا عليه من الإيثار والوفاء بالعهود .
الهمولة - بفتح الهاء - : الإبل التي أهدت للرعى وتركزت ترعى حيث تشاء .

كتاب النبی مع رسول حمیر :

كان ملوك اليمن وأقياهم كثيرون العدد ، ومن ثم كثرت وفودهم إلى رسول الله ﷺ وكل واحد منهم يمثل المنطقة التي يلي شئونها ، ومنهم من اعتنق الإسلام وظل في دياره ، واكتفى ببيع رجل من رجاله أو بعض رجاله ليخبر رسول الله ﷺ بإسلامه ، وإن بعض ملوك حمير من بني كلال قد بعثوا إلى رسول الله ﷺ مالكا بن مرارة الرهاوي يحمل كتابا منهم إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم ، وهم الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد

والْبُسَاط - يروى بالضم والفتح والكسر - فأما الضم فهو جمع بسط بالكسر ، وهي التي معها أولادها ، وجمعت على فعال .

وأما الكسر ، هو جمع بسط ، بالكسر ، وهي الناقة التي تُركت ولدها لا يُمتنع منها ، ولا تُعطف على غيره . وبسط : بمعنى مبسوط .

وأما الفتح فهو الأرض الواسعة ، فيكون المعنى : في الحمولة التي ترعى الأرض الواسعة . والظُّوار : جمع ظنر ، وهي التي ظنرت على غير ولدها من النوق ، أي : عطفت عليه ، وأُست به لترضيته . وقوله : « وفي كل خمسين ناقة » أي : في كل خمسين ناقة ناقة . كأنه قال : في كل خمسين من الإبل الحمولة الراعية ناقة .

والتَّوار : بالفتح - : العيب ، وقد يُضم ، أي : لا تُؤخذ في الزكاة ناقة معينة ، كما لا يؤخذ منهم النفيس الكريم عليهم وإنما يؤخذ منهم الوسيط .

والحمولة - بالفتح - : ما يتحمل عليه الناس من الدواب ، سواء كانت عليها الأحمال أو لم تكن ، كالركوبة . وأما الحمولة - بالضم - فهي الأحمال . والحمول بلا هاء : الإبل التي عليها الهوادج ، سواء كان فيها نساء أو لم يكن . والماترة : التي تحمل الميرة ، وتحلب عليها الأقوات وغيرها ، وقد مارتهم يَمِرُّهم ، فهو مائر . واللاعي : الملقاة المطرحة متروكة ، لا تُعدُّ عليهم ، ولا يلزمون لها صدقة .

والشوي : جمع شاء . نحو كلب وكليب . وقيل : هو اسم الجمع ، كالمعز ، في المعز . والوري : السمين ، يقال : وري اللحم يرى ، فهو وار ووري : إذا اكتنز وسمين . والميسنة : الكيرة من البقر والشاء ، وهي التي أثنت بطلوع ثنيها ، ولا يراد بالميسنة الهرمة الكبيرة . والحامل : التي في بطنها ولدها .

والخائل : التي لم تحبل ، يقال : حالت الناقة وأحالت : إذا حملت عاما ولم تحمل عاما ، فهي خائل وتحيل . والجداول : النهج الصغير من الماء ، كالساقية .

والماء المعين : الذي جرت عيوته . يقال : حفرته حتى عثت ، أي : بلغت العيون ، والماء معين ومعيون : أي مجرى مسأل .

وأراد بالتمر : ما يخرج من غلة الزروع ، لأنها تمرها .

والعدئ - بكسر العين وسكون الدال - : ما لا يُسقى من الزرع ، ويُفتح بهاء المطر . والشطر : النصف . وقوله : « بقيمة الأمين » أي : لا يُحاف عليهم ، بل تُقوم غلتهم قيمة عدل ، ويُؤخذ الواجب منها . والوظيفة : ما يُقدَّر للإنسان من الشيء وعلى الملك من خراج وغيره . وقد وظفته توظيفاً .

كلال ، والنعمان قِيلَ ذِي رُحَيْنَ ومعاقر وهدان ، وذلك في شهر رمضان سنة تسع ،
وقبل مَقْدَم رسول الله ﷺ من تبوك .

أمر رسول الله ﷺ بِالْأَلَا أَنْ يَنْزِلَهُ وَيَكْرِمَهُ وَيُضِيفَهُ ، وكتب إليهم رسول الله ﷺ (١):
« أما بعد ذلكم : فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد : فإنه قد وقع بنا
رَسُولُكُمْ مَقْفَلَنَا مِنْ أَرْضِ الرُّومِ ، فَبَلَّغْ مَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ ، وَخَبِّرْ عَمَّا قَبْلَكُمْ ، وَأَبْنَا
بِإِسْلَامِكُمْ وَقَتْلِكُمُ الْمُشْرِكِينَ ، فَإِنَّ الله - تبارك وتعالى - قد هداكم بهداه إن أصلحتم
وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وأعطيتهم من الْمَغْنَمِ مُحْسَنُ الله وَمُحْسَنُ
نَبِيِّهِ وَصَفِيَّهِ ، وما كُتِبَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الصَّدَقَةِ [مِنَ الْعَقَارِ عَشْرُ مَا سَقَتِ الْعَيْنُ
وَسَقَتِ السَّمَاءُ ، وَعَلَى مَا سَقَى الْغَرْبُ نِصْفَ الْعَشْرِ . إِنْ فِي الْإِبِلِ الْأَرْبَعِينَ ابْنَةً لَبُونُ ،
وَفِي ثَلَاثِينَ مِنَ الْإِبِلِ ابْنٌ لَبُونٌ ذَكَرٌ ، وَفِي كُلِّ خَمْسٍ مِنَ الْإِبِلِ شَاةٌ ، وَفِي كُلِّ عَشْرِ مِنَ
الْإِبِلِ شَاتَانِ ، وَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ مِنَ الْبَقَرِ بَقْرَةٌ ، وَفِي كُلِّ ثَلَاثِينَ مِنَ الْبَقَرِ تَبِيعٌ جَدَعٌ أَوْ
جَدَعَةٌ ، وَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ مِنَ الْغَنَمِ سَائِمَةٌ وَخَدَّاهَا شَاةٌ ، وَإِنِهَا فَرِيضَةُ الله الَّتِي فَرَضَ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَةِ ، فَمَنْ زَادَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَمَنْ أَدَّى ذَلِكَ وَأَشْهَدَ عَلَى
إِسْلَامِهِ ، وَظَاهَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ : لَهُ مَا لَهُمْ وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ ، وَلَهُ

(١) سبل السلام ٦ / ٤٩١ وما بعدها .

المعاني :

الرَّهْأَوَى : - بفتح الراء - نسبة إلى قبيلة - وبالضم - الرُّهْمَا : بَلَدٌ بِالْجَزِيرَةِ ، وليس مُرَادًا هُنَا .
الْقَيْلُ : وهو أحد ملوك الْيَمَنِ دُونَ الْمَلِكِ الْأَعْظَمِ ، وقيل : ذُو رُحَيْنَ ، أى : ملكها : وهى قبيلة من الْيَمَنِ تُنْسَبُ
إِلَى ذِي رُحَيْنَ ، [وذو رُحَيْنَ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ جَمِيرٍ] وَرُحَيْنَ : جِصْنٌ كَانَ لَهُ ، وَرُحَيْنَ تَصْغِيرُ رُحَيْنَ : أَنْفُ الْجَبَلِ .
مَعَاظِرُ : - بفتح الميم وتخفيف العين المهملة وكسر الفاء وبالراء - : حَيٌّ مِنَ الْيَمَنِ . وقيل : برود من برود اليمن .
الْغَرْبُ : - بفتح الغين المعجمة وسكون الراء وبالموحدة - الدُّلُؤُ .
ابنة لَبُونُ : - بلام مفتوحة فموحدة مضمومة فواو فنون - : من الْإِبِلِ مَا أَتَى عَلَيْهِ سِتَانٌ وَدَخَلَ فِي الثَّالِثَةِ فَصَارَتْ أُمُّهُ
لَبُونًا ، أى : ذات لَبْنٍ .
التَّبِيعُ : - بفتح الفوقية وكسر الموحدة فمثناة تحتية فعين مهملة - : وَلَدُ الْبَقَرَةِ أَوَّلَ سَنَةٍ .
الْجَدَعُ : - بِالْجِيمِ وَالْدَالِ الْمَعْجَمَةُ الْمَفْتُوحَتَيْنِ وَصِنَ مَهْمَلَةٌ - : من الْإِبِلِ مَا دَخَلَ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ ، وَمِنْ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ
مَا دَخَلَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ ، وقيل : الْبَقَرُ فِي الثَّالِثَةِ .
سَائِمَةٌ وَخَدَّعَهَا : رَاعِيَةٌ وَخَدَّعَهَا .
ظَاهَرَ : عَاوَنَ .
الدِّمَّةُ : الْأَمَانُ وَالْعَهْدُ .

ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ ، وَإِنَّ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ مَا لَهُمْ وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ ، وَمَنْ كَانَ عَلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ نَصْرَانِيَّةٍ فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ عَنْهَا ، وَعَلَيْهِ الْجَزِيَّةُ عَلَى كُلِّ حَالٍ - ذَكَرَ أَوْ أَكْثَرُ ، حُرّاً أَوْ عَبْدٌ - دِينَارٌ وَافٍ مِنْ قِيَمَةِ الْمَعَافِرِ أَوْ عِوَضُهُ ثِيَاباً ، فَمَنْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّ لَهُ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ ، وَمَنْ مَنَعَهُ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ » .

وإذا كانت أكثر الرسائل التي مر ذكرها محمولة مع الوفود تفيد التعليم والتوجيه ، فإن هذا الكتاب يمثل عهداً بين المؤمنين بتوجيه من رسول الله ﷺ للنصارى واليهود ، يحفظ لهم حريتهم في البقاء على دينهم ، ولا يردون عنه ، ولهم ذمة الله ورسوله متى أدوا الجزية .

ولعل أسلوب هذا الكتاب أكثر يسراً من سابقه ، وذلك باستثناء تصنيف الماشية تبعاً لأعمارها وصفاتها .

وفود بارق وكتاب رسول الله لهم :

بارق : قبيلة أخرى من قبائل اليمن ، ويفهم من خبر وفودهم على رسول الله ﷺ أنهم لم يكونوا أسلموا بعد ، وإنما تم إسلامهم حال وفودهم على النبي ﷺ إذ دعاهم إلى الإسلام فأسلموا وبايعوا ، فكتب لهم الرسول كتاباً هذا نصه : (١)

هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ : لَا تُجَدُّ ثِيَابُهُمْ وَلَا تُرْعَى بِلَادُهُمْ فِي مَرْبَعٍ وَلَا مَصِيفٍ إِلَّا بِمَسْأَلَةٍ مِنْ بَارِقٍ ، وَمَنْ مَرَّ بِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي عَرْكِ أَوْ جَذَبٍ فَلَهُ ضِيَافَةٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَإِذَا أُنْعِثَ ثِيَابُهُمْ فَلَا بَنَ السَّبِيلِ اللَّقَاطُ يُوسِعُ بَطْنُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْتَسِمَ « شَهِدَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ، وَحَدَّثَنِي بَنُ الْيَمَانِ ، وَكَتَبَ أَبُو بَنِي كَعْبٍ .

(١) سبل السلام ٦ / ٤٩١ وما بعدها .

المعاني :

مَرْبَعٌ : الموضع الذي يُنْزَلُ فيه أيام الربيع ، واسم جبل قرب مكة . وأما مَرْبَعٌ - بكسر الميم - فال بالمدينة في بنى حارثة .

مَصِيفٌ - بميم مفتوحة فصاد مهملة مكسورة فمشناة تحتية ففاء - : مكان يُنْزَلُ فيه أيام الأَصْفِ .

عَرْكِ : تهريد الأرض من المَرْعى .

أُنْعِثَ : أدركت وتَضَجَّت .

يَقْتَسِمَ : يَجْتَنِّحُ ولم يُتَّقِ له أصلاً .

لعلنا نلاحظ هنا أن التعاليم التي حملها وفد بارق معه متضمنة في كتاب رسول الله
مبدأ اجتماعيا تربويا جليلا ، يتمثل في حق الضيف المسلم في أن يكرم ويقدم له
القرى .

كتاب الرسول وخبر الأكيدر بن عبد الملك :

الأكيدر بن عبد الملك الكندي كان ملكا على دومة الجندل ، و لرسول الله ﷺ كتاب
إليه حمله هو وخالد بن الوليد وهما عائدان معا إلى دومة الجندل بعد أن مثل الأكيدر بين
يدى رسول الله ، وقدم إليه هدية عبارة عن جبة من ديباج منسوج فيها الذهب .

ولقد روى خبر وفادة الأكيدر على رسول الله بأكثر من صيغة ، بل لقد اختلف في
إسلام الأكيدر ، فتقول إحدى الروايات : إنه أسلم بين يدي رسول الله ، وعاد إلى
مملكته ، ولكنه ارتد بعد وفاة الرسول فذهب إليه خالد وقتله ، وتقول رواية أخرى : إنه
لم يسلم أصلا وقد أمّنه الرسول على نفسه ما حفظ العهد الذي تضمنه كتاب الرسول
إليه ؛ لأنه كان ذميا نصرانيا ، فتركه الرسول على دينه وملكه وقصره ، ويدعو أن هذا
القصر كان من النفائس المشهورة ؛ لأن حسان بن ثابت قد ضمنه قصيدته اللامية
المشهورة التي قالها قبل الإسلام ، وفيها يقول في مدح الغساسنة : (١).

بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابُهُمْ
شُمُّ الأنوفِ من الطرازِ الأولِ
فلبثتُ أزماناً طويلاً فيهِمْ
ثم ادّكرتُ كأننى لم أفعلِ
إما ترى رأسى تغير لونه
شَمَطاً فأصبحَ كالثَغَامِ المحوِلِ
ولقد يرانى مؤعديّ كأننى
في قَصْرِ دُومَةٍ أو سَوَاءِ الهَيْكِلِ (*)

(١) ديوان حسان ص : ١٨٣ ، ١٨٤ ط دار إحياء التراث العربى - بيروت .

(*) معانى الألفاظ :

شُمُّ الأنوف : أصحاب أنف عزة . الشمط : بياض يخالط سواد الشعر . الثغام : نبات جبل يبيض لونه قبل
يبسه . سواء الهيكِل : وسط المعبد في الكنيسة .

والشعر الذى قيل فى دومة الجندل غير قليل ، وقد أورد ياقوت الرومى نماذج منه فى كتابه « معجم البلدان » (١) .

ومهما تكن طبيعة أخبار الأكيدر ، فإن الشئ المحقق أنه مثل بين يدي رسول الله حين جاء به خالد أسيراً أو شبه أسير ، وأنه خاطب رسول الله بصفته الشريفة بقوله : يا رسول الله ، وأن الرسول ﷺ آمنه وأكرمه وقبل هديته ، وأنه ﷺ زوده بكتاب ، هذا نصه : (٢)

« هذا كتاب من محمد رسول الله حين أجاب إلى الإسلام وخَلَعَ الأنداد والأصنام ، مع خالد بن الوليد سيف الله ، فى دُومَة الجَنْدَل وأُكْنافِها : أَنَّ لنا الضاحية من الضُّحَل والبُورِ والمعامى وأغفال الأرض والحلقة والسلاح ، ولكم الضامنة من النخل ، والمعين من المعمور ، لا تُعَدُّ سارِحَتكم ، ولا تُعَدُّ فاردتكم ، ولا يُحْظَر عليكم الثبات ، ولا يؤخذ منكم عُشْرُ البَنات ، تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤتون الزكاة لحقها ، عليكم بذلك الله وميثاقه » .

(١) معجم البلدان ، مادة (دومة الجندل) .

(٢) منال الطالب ص : ٦٤ ، والإصابة ١ / ١٢٥ - ١٢٧ .

المعاني :

والأنداد : جمع نَدٍّ وتَدِيدٍ ، وهما مثل الشئ المضاد له فى أموره ، ونادَهُ يُنادُهُ مُنادَةً ونِدَاداً ، من نَدَّ البعيرُ : إذا نَفَرَ واشتَقَصَى .

والأصنام : جمع صَنَمٍ ، وهو ما كانوا يتخذونه إلهاً من دون الله تعالى ، مما يصورونه .

وتَحْلُمُها : كناية عن تركها والتبرى منها ، كما يخلع الإنسان قميصه ، كأنه كان قد تَرَدَّى به واشتمل عليه ، فخرج عنه وفارقه .

والضاحية : النخلة الخارجة عن العِجَارَة ، وهى خلاف الضامنة .

والضُّحَلُ : الماء القليل ، وهو الضُّخْضاح ، ومنه قولهم للصخرة الضُّخمة التى لا يغمرها الماء لقلته : أَنانُ الضُّحَل .

والبُورُ : وهى الأرض الخراب التى لم تزرع .

والمعامى : جمع مَعَمَى ، وهو مَفْعَلٌ من العَمَى . يريد به الأراضى المجهولة التى ليس فيها أثرٌ عِبارَة . كالمُجْهَل والمجاهل .

والأغفال : جمع غُفْلٍ - بالضم - وهى الأراضى التى أَغْفِلَتْ وأُهْمِلَتْ ، فلا أثرٌ بها يدلُّ على عِبارتها ، ومنه الإِبْرُلُ الأغفال : التى لا يسمات عليها .

والحلقة - بسكون اللام - : الدُّرُوع .

والسَّلاحُ : اسم عامٌ ، يقع على السِّيف والرُّمَح والسَّهام ، وكلٌ ما يُتقاتلُ به .

وإذا كانت الفئة الغالبة من المؤرخين قد رجح - وقطع بعضهم - أن الأکیدر ظل على نصرانيته ، فإن صيغة الكتاب الذى نحن بصددہ تفيد أنه قد اعتنق الإسلام . فضلا عن أن سبب قتله كان ارتداده عن الإسلام .

والكتاب مثل الكتب الأخرى التى كتبها رسول الله ﷺ مع الوفود من حيث المبادئ الملتزمة والألفاظ المأنوسة لدى كل قوم وُجَّه الخطاب إليهم .

إن ثمت حقائق ينبغى الالتفات إليها فى مجال استعراض هذه النماذج من كتب رسول الله ﷺ إلى قبائل العرب وما قد صاحبها من شمائل رسول الله ﷺ سلوكا راقيا يليق بأدب الأنبياء ، وفطنة وضاعة تتفق وجلال النبوة ، وبلاغة رفيعة يحيط بها إلمام كامل بلغة جميع القبائل ، الأمر الذى لم يتوفر لعربى غير محمد ، هذا فضلا عن أدب الحوار ، وبشاشة الوجه ، ووضاعة القسيمات ، مع الإكرام والتكريم إلى المدى الذى يجعله ﷺ يبسط ثوبه لى مجلس عليه ضيفه .

ومن شمائله النبوية فى هذا المقام أنه ﷺ كان يشعر أبناء الملوك من الوافدين عليه بمعاملة خاصة مقصود إليها قصدا ؛ تأليفاً لقلوبهم ، وترطيباً لنفوسهم ، وكسباً لثقتهم حتى لا يظنوا أن الإسلام سلبهم حقا أو أفقدهم مكانة ، مع إشعارهم فى الوقت نفسه بالالتزام بأحكام الإسلام وأدبه ، والتأكيد على أن الناس تحت رايته سواء .

ومحمد ﷺ هو أبلغ البلغاء دون منازع ، ولكن لونا خاصا من بلاغته كان شديد الظهور فى هذه الطائفة من كتبه ، فقد وضع بشكل قاطع امتلاكه لخاصية لغات العرب جميعا ، والكتابة إلى كل قبيلة بلسانها ولهجاتها وألفاظها ومسمياتها ، مما أثار عجب

= والمعِين : الموضع الذى عانَ ماؤه ، أى : جَرَى .

والسَّارِحَةُ : المواشى إذا سَرَحَتْ إل المَرْعى وخرَجَتْ إليه .

وعَدَلُهَا : صَرَفُهَا عَنْ مَرْعى ثَرِيدٍ ، يقال : عَدَلَ عَنْ الشَّيْءِ وإليه : إذا مَالَ عَنْهُ وإليه .

والفَارْدَةُ : الشاةُ المنفردة الزائدة على الفَرِيضة ، لا تُعَدُّ عليهم وتُحْتَسَبُ فى الزكاة .

والحَظَرُ : المَنع . أى : لا تَمْنَعُونِ مِنَ الرِّعى أو مِنَ الزَّرْعَةِ حيث شِئْتُمْ .

والبِتَاثُ : المتاع مما ليس للتجارة .

الصحابه ، حتى إن على بن أبى طالب - وهو أحد قمم البلاغة - حدثه فى ذلك قائلا :
يا رسول الله ، نراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ونحن أبناء أب واحد .
هذا وإن هذه الكتب على الرغم من كونها تعليمية وتوجيهية إلا أنها تمثل عهدا نافذة
واتفاقيات منفذة ، وتشكل دبلوماسية مبكرة ، مهذبة الصوغ ، رفيعة القيمة ، أرسى
قواعدها فى سر وهاء آيين الأئناء وسيد الأنبياء .



عهود الرسول ومعهاداته

- الفصل الأول : العهود في القرآن الكريم .
- الفصل الثاني : عهود ما قبل الهجرة .
- الفصل الثالث : عهد المودة مع اليهود .
- الفصل الرابع : هدنة الحديبية ومعهاداتها .
- الفصل الخامس : عهود الرسول مع نصارى الشام ونجران .
- الفصل السادس : عهد ثقيف واليمن .



الفصل الأول

■ العهد في القرآن

العهود في القرآن الكريم

حفل القرآن الكريم بكثير من الآيات التي تناولت العهود والوفاء بها ، ذلك أن الوفاء بالعهود من شروط الإيمان ، ومن سمات المؤمنين أن يلتزموا بعهودهم ويدعوا لشروطها ، والله - سبحانه - يكرم الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه بقوله - عز وجل - :

﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (١).

وقد شرف الله - سبحانه وتعالى - الذين بايعوا الرسول في الحديبية ، ووعد الصادقين منهم بحسن الجزاء في قوله - تعالى - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوِّوِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢).

ويعظم الله - سبحانه وتعالى - شأن الموفين بعهدهم ، ويسلكهم في عقد النخبة المتميزة من المتقين الذين جمعهم الآية الكريمة من قوله - جل وعز - :

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي

(١) الأحزاب ، الآية : ٢٣ .

(٢) سورة الفتح ، الآية : ١٠ .

الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١﴾.

لقد كرم الله - سبحانه - الموفين بعهدهم في الآية سالفة الذكر ، فجعلهم مع صفوة
المؤمنين بالله وبالملائكة وبكتبته ورسله واليوم الآخر ، ومع المنفقين في وجوه الإنفاق التي
يجبها الله ، وهي الإنفاق على ذوى القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل والسائلين
وفي فك الرقاب ، ومع من أقاموا الصلاة فأحسنوا القيام بها ، ومن آتوا الزكاة في
مصارفها الحق ، ومع الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس .

ويهتم كتاب الله - عز وجل - بالوفاء بالعهد اهتماما شديدا ، وإن التوجيهات
الربانية في شأنه حاسمة قاطعة ملزمة ، لا تحتل أي قدر من التهاون وإن قل ، فيقول
- جل من قائل - : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ
تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢).

إن المتتبع لتسلسل الأحكام في كتاب الله سيقع بصره على الآية السابقة على هذه الآية
في كتاب الله وهي قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي
الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴾ وهي آية التوجيه الإلهي الأسمى لجمهرة المؤمنين ، ثم يتبعها مباشرة
بالأمر بالوفاء بالعهد وعدم نقض الأيمان ، ويقصر القرطبي الوفاء بالعهد في تلك الآية
بأنه لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو موافقة في أمر
موافق للديانة .

ومن العهود ذات القداسة التي احتفل بها الكتاب العزيز أيما احتفال ، تلك التي

(١) البقرة ، الآية : ١٧٧ .

(٢) النحل ، الآية : ٩١ .

قطعها - سبحانه وتعالى - على نفسه بالجنة وجعلها وعد حق عليه - عز وجل - في كتبه المقدسة : التوراة والإنجيل والقرآن لمن ينصرون رسالته ، فيقاتلون في سبيله فيقتلون وَيُقْتَلُونَ وهم الأنصار ، وذلك في قوله - عز وجل - :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١).

لقد نزلت هذه الآية في البيعة الثانية ، وهي بيعة العقبة الكبرى التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين ، وكان أصغرهم سنا عقبة بن عمرو ، ذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ عند العقبة ، فقال عبدالله بن رواحة للنبي ﷺ : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال النبي ﷺ : « اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، واشترط لنفسى أن تمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا : فإذا فعلنا ذلك ، فما لنا ؟ فقال الرسول ﷺ : « الجنة » . قالوا : ربح البيع ، لا نقييل ولا نستقيل ، فنزلت الآية الكريمة ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى . . ﴾

يقول الحسن البصرى : والله ما على الأرض مؤمن إلا يدخل في هذه البيعة .

ويقول الحسن أيضا : مر أعرابى على النبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ إلى آخر الآية ، فقال : كلام من هذا ؟ قال النبي : كلام الله ، فقال الأعرابى : بيع - والله - مربح ، لا نقييله ولا نستقيله ، فخرج إلى الغزو واستشهد (٢).

وعهود الله - سبحانه وتعالى - تبلغ في سموها وجوهر الحفاظ عليها ما يجعل المرء المؤمن يزداد إيمانا ، وما يجعل المرء المشرك يعيد النظر في سوء عقيدته ،

(١) التوبة ، الآية : ١١١ .

(٢) القرطبى تفسير الآية السابقة .

ويقترَب من الإيمان بالله رويدا رويدا ، إن عهود الله لا تُنقَض حتى مع المشركين .

يتجلى سمو العهد الإلهي في قوله - عز وجل - :

﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَنَشِرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ آلِيمٍ ۖ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝﴾ (١) .

لقد نزل الأمر الإلهي بالألا يحج بعد ذلك العام (التاسع للهجرة وفيه حج أبو بكر ، وقيل : العاشر ، وفيه كانت حجة الوداع) مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن المفسرين من ذهب إلى أن يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة ، ومنهم من قال : إنه يوم النحر استئناسا بقول الرسول يوم النحر في الحجة التي حج فيها : « أى يوم هذا ؟ فقالوا : يوم النحر ، فقال : هذا يوم الحج الأكبر » وقد استثنى الحكم الإلهي المشركين الذين تربطهم بالمسلمين معاهدة وثبتوا عليها ووفوا بها ولم ينقضوها ، استثناهم من منعهم من الحج إلى نهاية مدة معاهدتهم . وهنا تحضرنا الآية الجليلة في قوله - تعالى - : ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۖ﴾ التوبة : ١١١ .

هكذا يكون مبدأ عقد المعاهدات مشروعا في الإسلام ، باعتبار كونه نوعا من التنسيق لعلاقات المسلمين بغير المسلمين من كتابيين ومشركين .

سمات المعاهدات في الإسلام كما طبقها النبي

المعاهدات والعهود تعقد في الإسلام تحت شروط معينة ، منها : تنفيذ ما اتفق عليه

(١) التوبة ، الآيتان : ٣ ، ٤ .

فيها بين الطرفين ما دامت متمشية مع كتاب الله وسنة رسوله ، وذلك تقيدا بقول رسول الله ﷺ : « كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل »^(١) وكل ما يتنافى مع هذا الحديث الشريف فإنه يكون باطلا ، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله !؟ ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ، وإن كان مائة شرط ، قضاء الله أحق ، وشرط الله أوثق » متفق عليه واللفظ للبخارى .

يقول الدكتور محمد الصادق عفيفي : لقد أخذ بهذا التوجيه النبوي الكريم فقهاء القانون الدولي في العصر الحديث ، فوضعوا نصوصا ثابتة تكون بمثابة القوانين العامة لجميع الدول ، تحتكم إليها إذا حزبها الأمر ، ومن ثم إذا أبرمت إحدى الدول اتفاقية أو معاهدة وخالفت فيها نصا من نصوص القاعدة التشريعية العامة يكون الحكم ببطلان الاتفاقية أو المعاهدة .

ثمت شروط أخرى كثيرة لصحة المعاهدات وكمال فعاليتها ، مثل الرضا المتبادل بين طرفي العهد ، وتبعاً لذلك لا ينعقد عقد بالإكراه ، ومثل وضوح الحقوق والواجبات لكل طرف من أطراف العقد حتى لا تؤول المواد عند التطبيق تأويلا يبعث على الخلاف^(٢).

وتحتل حصانة المبعوثين مكانة جوهرية في الإسلام ، فلا يجوز مساءلتهم أو العدوان عليهم وإن تجاوزوا الحدود التي يجب مراعاتها ، ومثال ذلك ما ارتكبه رسولا مسيلمة الكذاب من حماقة في حضرة رسول الله ﷺ واكتفى بقوله الشريف : « أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكم »^(٣).

وإذا كان رسول الله ﷺ قد ضرب هذا المثل الرفيع في تعامله مع حاملي رسالة مسيلمة الكذاب ، فإنه ﷺ قد ضرب مثلاً من نوع آخر في الدقة والأمانة في تنفيذ العهود ، فإنه ﷺ لم يكذب ينتهي من توقيع وثيقة الهدنة مع سهيل بن عمرو ممثل مشركي

(١) السيوطي : الجامع الصغير ٢ / ٧٧ .

(٢) الإسلام والعلاقات الدولية ص : ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٣) السيرة لابن هشام ٢ / ٦٠١ .

قريش في الحديبية حتى فوجيء بأبي جندل بن سهيل بن عمرو - وكان قد أنعم الله عليه بالإسلام - وقد انفلت وهو يرسف في الحديد زاحفاً إلى حيث رسول الله ، فلما رأى سهيل ولده أبا جندل ، قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ، ثم قال : يا محمد ، قد لَحْتُ القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال : صدقت . فجعل سهيل يجذب أبا جندل من تلابيبه ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أَأَجْرُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتَنُونَنِي فِي دِينِي ؟! فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطينا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم » (١).

ولقد صبر أبو جندل ونزلت الآية الكريمة تكرمه هو ومن معه من المسلمين الصابرين والصابرات في قوله - تعالى - : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّارْتَعَلُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ ﴾ (٢).

(١) المصدر السابق ٢ / ٣١٨ .

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الفتح . والمعنى هو : لولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين بين ظهرائي الكفار بمكة جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ، لما كف أيديكم عنهم - أي : عن الكفار - وكان بمكة من ضعفاء المؤمنين تسعة نفر : سبعة رجال وامرأتان منهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، والوليد بن الوليد بن المغيرة ، وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة .



الفصل الثاني

عهود ما قبل الهجرة

عهود ما قبل الهجرة

إن عهود رسول الله ﷺ قبل الهجرة ثلاثة ، أولها كان لتميم الدارى ، والثانى والثالث كانا عند العقبة الأولى والعقبة الثانية .

عهد الداريين :

وفد الداريون وعلى رأسهم تميم الدارى على رسول الله مرتين : مرة قبل الهجرة ، ومرة بعد الهجرة ، ومن الجدير بالذكر أن تميم الدارى وقومه من لخم ، وليسوا أقرباء لبنى عبد الدار بن قصى .

فى المرة الأولى سألوا رسول الله ﷺ أرضا ، فدعا بقطعة من آدم وكتب ما نسخته : (١)
« بسم الله الرحمن الرحيم - هذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله للداريين إذا أعطاه الله الأرض ، وهب لهم بيت عيون ، وحبرون ، والمرطوم ، وبيت إبراهيم ومن فيهم إلى الأبد .

شهد عباس بن عبد المطلب ، وخزيمة بن قيس ، وشرحبيل بن حسنة وكتب .
فلما هاجر ﷺ إلى المدينة قدموا عليه وسألوه أن يجدد لهم الكتاب ، فكتب ما نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم :

هذا كتاب من محمد رسول الله لتميم بن أوس الدارى ، إن له قرية حبرون ، وبيت عيون ، قريتهما كلهما وسهلها وجبلها ، وماءهما وحرثها ، وأنباطها وبقرها ،

(١) الوثائق السياسية ١٢٩ - ١٣١ .

ولعقبه من بعده ، لا يحاقه فيها أحد ، ولا يلجها عليهم أحد بظلم ، فمن ظلم وأخذ منهم شيئا فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

وقرية حبرون : هى مدينة الخليل الحالية ، وقد أسلم تميم سنة ٩ هـ وقيل : سنة ٧ هـ وأقام بالمدينة زمنا ثم انتقل إلى الشام بعد مقتل ذى النورين عثمان ، فسكن بيت المقدس وهو أول من أسرج السراج بالمسجد .

بيعة العقبة الأولى :

من أخبار السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ كان يعرض نفسه على قبائل العرب فى الموسم ، وفى الموسم الذى أراد الله فيه إظهار دينه وإعزاز نبيه وبينما كان الرسول عند العقبة لقي رهطا من الخزرج وهم قبيلة من سكان يثرب فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه ، ودعاهم إلى الله - عز وجل - وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

كان الخزرج بحكم جوارهم اليهود قد سمعوا بمبعث نبي هذا زمانه ، فقال بعضهم لبعض : والله إنه للنبي الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فصدقوا الرسول ﷺ وقبلوا ما عرضه عليهم من الإسلام ، ثم قالوا لرسول الله : إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة شرّ مستطير فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله فلا رجل أعزّ منك (١) .

وكان عدد هذا الرهط من الخزرج ستة ، هم : أسعد بن زرارة المكنى بأبى أمامة ، وعوف بن الحارث بن رفاعه ، وكلاهما من بنى النجار ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله ، وقد ورد أنه أول من أسلم من الأنصار قبل العقبة الأولى بعام ، وهو غير جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى الصحابى ابن الصحابى .

(١) السيرة لابن هشام ١ / ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

فلما كان العام التالي حضر الموسم اثنا عشر رجلا من الأنصار بعضهم ممن أسلموا في الموسم المنصرم ، وقد لقوا رسول الله بالعقبة - وهى العقبة الأولى - فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وبيعة النساء قد ورد ذكرها في قوله تعالى : ﴿ يَبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾ (١) وكانت مبايعته ﷺ للنساء تعنى أنه يأخذ عليهن العهد والميثاق ، ومن ثم فإن مصطلح بيعة النساء لوفد الأنصار تعنى أنهم لم يبايعوه على القتال .

وأما هؤلاء النجوم الاثنا عشر أنصاريًا فهم : أبو أمامة أسعد بن زرار ، وعوف ومعاذ ابنا الحارث بن سواد بن مالك ، وثلاثتهم من بنى النجار . ورافع بن مالك بن العجلان ، وذكوان بن عبد قيس بن خلدة من بنى رزيق بن عامر . وعبادة بن الصامت ، وأبو عبد الرحمن بن يزيد بن ثعلبة من بنى عوف بن الخزرج . والعباس بن عباد بن نضلة من بنى سالم ، وعقبة بن عامر من بنى سلمة - بكسر اللام - وقطبة بن عامر بن حديدة من بنى سواد . وأبو الهيثم بن التيهان واسمه مالك ، من الأوس وعويم بن ساعدة بن عائش بن قيس من بنى عمرو بن عوف .

إن الصحابي الجليل الفارس الفاتح عبادة بن الصامت يروى خبر هذه البيعة فيقول : « كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثني عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفرض الحرب ، على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى بهتان نفترينه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتكم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله - عز وجل - إن شاء عذب ، وإن شاء غفر »

وفي رواية موفق الدين بن قدامة : (٢)

(١) الآية كاملة هي قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبَهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعَصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ لِبَايِعِهِنَّ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ الممتحنة ، الآية : ١٢ .

(٢) الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

« تبايعونى على السمع والطاعة ، فى النشاط والكسل ، وعلى الثقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن تقولوا فى الله لا تأخذكم لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم ، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة » .

وعند موفق الدين أيضاً فى ترجمة أبى أمانة أسعد بن زرارة نقيب النقباء :

قال الشعبى : قال النبى ﷺ ليلة العقبة : « يا معشر الأنصار : تكلّموا وأجزوا ، فإن علينا عيونا » . قال الشعبى : فخطب أبو أمانة أسعد بن زرارة خطبة ما خطب المُرُذُ ولا الشيب مثلها قط . فقال : يا رسول الله ، اشترط لربك ، واشترط لنفسك ، واشترط لأصحابك . قال ﷺ : « اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، واشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم ؛ واشترط لأصحابى المواساة من ذات أيديكم » قالوا : هذا لك ؛ فما لنا ؟ قال : الجنة . قالوا : أبسط يدك . ولم يكن هناك وثيقة مكتوبة .

فلما انصرف النقباء الاثنا عشر قافلين إلى يثرب بعد ذلك ، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى وأمره أن يقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين ، وكان منزله عند أبى أمانة أسعد بن زرارة .

بيعة العقبة الثانية :

فلما كان الموسم التالى رجع مصعب بن عمير إلى مكة . وخرج الأنصار من المسلمين مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله ﷺ « العقبة » فى أواسط أيام التشريق .

يقول كعب بن مالك : فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها نمنا تلك الليلة مع قومنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا هما أم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم

منيع أسماء بنت عمرو بن عدى ، وانتظرنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا
ومعه عمه العباس بن عبد المطلب (١).

لقد حضر العباس - وكان قريباً إلى قلب رسول الله - لكى يطمئن على ما أقدم عليه
ابن أخيه رسول الله من ربط أسبابه بأسباب الخزرج من أهل يثرب . وقد وجه كلاماً إلى
القوم مقتضاه إما أن يتحملوا التبعة كاملة فى الوفاء والمنعة وإلا فليعفوا أنفسهم مما هم
قادمون عليه .

قال الخزرج : قد سمعنا ما قلت . فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما
أحببت .

فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب فى الإسلام . ثم قال :
« أبايكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » .

قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال :

« نعم ، والذي بعثك بالحق ! لنمنعك مما نمنع منه أئزنا . . فبايعنا يا رسول الله ،
فنحن - والله - أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً » .

وقال أبو الهيثم بن التيهان : « يا رسول الله ! إن بيننا وبين الرجال حباً ، وإننا
قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيّت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع
إلى قومك وتَدْعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال :

« بل الدّم ، الدّم ؛ والهدم ، الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم
وأسلم من سلمتم » .

. . قال رسول الله ﷺ : « أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً ، ليكونوا على قومهم بما
فيهم » فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس . .
وتخير كل من الخزرج والأوس نقباءهم على النحو التالى : أبو أمامة أسعد بن زرارة ،

(١) ابن هشام ١ / ٤٤٠ ، ٤٤١ .

سعد بن الربيع ، عبدالله بن رواحة . رافع بن مالك بن العجلان ، البراء بن معرور ، عبدالله بن عمرو بن حرام ، عبادة بن الصامت ، سعد بن عبادة ، المنذر بن عمرو بن خنيس ، أسيد بن حضير بن سمالك ، سعد بن خيثمة ، رفاعه بن عبد المنذر . والجدير بالذكر أن كلا من أسيد ، وسعد ، ورفاعة من الأوس .

فلما اجتمع القوم لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة أخو بني سالم ابن عوف مبلغا القوم بخطورة ما هم مقدمون عليه من عهد ، وثقل التبعة التي ألقوها على كواهلهم :

« يا معشر الخزرج ! هل تدرون علام تباعون هذا الرجل ؟ » قالوا : « نعم » . قال : « إنكم تباعون على حرب الأحمر والأسود من الناس ! فإن كنتم ترون أنكم إذا هلكتم أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلاً ، أسلمتموه ، فمن الآن . فهو - والله - إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وأفون له بما دعوتكم إليه عن نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه . فهو - والله - خير الدنيا والآخرة » . قالوا : « فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فما لنا يا رسول الله ! إن نحن وفينا ؟ » قال : « الجنة » (١).

قالوا : ابسط يدك يا رسول الله . فبسط يده ، فباعوه على الشروط التي شرحها العباس بن عبادة بن نضلة .

يقول كعب بن مالك : كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور ، ثم بايع بعده القوم

ويؤكد عبادة بن الصامت بيعته قائلا : بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب .

لقد كان الأنصار بعد بيعتهم يتشوقون إلى الحرب في سبيل الله ويستعجلونها ، حتى إن رسول الله ﷺ لما طلب إليهم التفرق إلى رحالهم . قال له العباس بن عبادة بن نضلة - وهو الذي بصر قومه بخطورة تبعات البيعة - : والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنمليّن على أهل منى غدا بأسيا فانا ، فقال له رسول الله ﷺ :

(١) المصدر السابق ٤٤٧ .

« لم نؤمر بعد ولكن ارجعوا إلى رحالكم » .

وبيعة العقبة الثانية تكون قد انتهت مرحلة قاسية من مراحل الدعوة ، وبدأت مرحلة جديدة تفيها المسلمون تحت ظلالها مشاعر العزة ، ومكابدة الحرب ، وثمرات النصر ، وولادة أول حكومة إسلامية في المدينة المنورة تحت قيادة سيد الخلق وخاتم المرسلين .

ولذلك لم يبخل الرسول ﷺ على الأنصار بجميل الثناء وعظيم التكريم حين قال : «الأنصار كرشى وعيتى » ، وحين قال : « لو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلك شعب الأنصار » .



الفصل الثالث

عهد المودة بين المسلمين واليهود

الموادعة بين المسلمين واليهود في المدينة

وصل رسول الله ﷺ إلى قباء - وهى الضاحية الجنوبية للمدينة - وأقام بها أياما ، وبنى فيها مسجد قباء الذى يصلى فيه منذ بناء رسول الله كل من يزور المدينة المنورة بعد الصلاة فى مسجد رسول الله ، فقد ورد أن الصلاة فى مسجد قباء تعادل عُمْرَةً ، وهو المسجد الذى شرفه المولى - عز وجل - فوصفه فى كتابه العزيز بأنه « أسس على التقوى » وذلك فى قوله - تعالى - : بعد أن أمر رسوله ألا يصلى فى المسجد الذى أنشئ ضرازا : ﴿ لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ مَحَبَّةً لِيُحِبِّ اللَّهُ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾

انصرف الرسول ﷺ من قباء مواصلا سيره إلى المدينة وقد التف حوله الأنصار ، وفى مقدمتهم بنو النجار أحوال جده عبد المطلب الذين كانوا قد سارعوا إلى التشرف بالترحيب به والسلام عليه فى قباء ، وكان كل أنصارى يمسك بزمام « القصواء » ناقة رسول الله ، متوسلا إلى الرسول أن ينزل عنده ، مرغبا إياه فى ذلك بعبارات تفيض حبا وإجلالا ، ولكنه ﷺ كان يقول لهم : « دعوها فإنها مأمورة » وظلت الناقة تسير وقد أرخت عنانها ، ورسول الله على ظهرها ، إلى أن وقفت أمام دار أبى أيوب الأنصار ، فقال الرسول ﷺ : « ها هنا المنزل إن شاء الله » .

(١) التوبة ، الآيتان ١٠٨ ، ١٠٩ .

الرسول يغير اسم يثرب ويسميتها المدينة وطيبة :

كان الاسم الذى يطلق على المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ إليها هو « يثرب » فما أن حل بها الرسول البشير حتى غيّر اسمها إلى « المدينة » وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ :
« للمدينة عشرة أسماء هى : المدينة ، وطَيْيَّة ، وطابة ، ومسكينة ، وجابرة ، ومجبورة ، ويندد - كجعفر - ويثرب ، والدار » .

وفى صفة دار الهجرة يقول رسول الله ﷺ : « أمرت بقرية تأكل القرى ، يقولون يثرب ، وهى المدينة ، تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد » (١) .

ولقد نهى رسول الله ﷺ عن تسميتها بيثرب فى قوله ﷺ : « من سمى المدينة بيثرب فليستغفر الله ، هى طابة ، هى طابة ، هى طابة » . وهى رواية الإمام أحمد وابن أبى حاتم وابن مردويه بسند جيد عن البراء بن عازب رضى الله عنهما (٢) .

وفى رواية عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « لا تدعوها يثرب فإنها طيبة ، ومن قال يثرب فليستغفر الله ثلاث مرات ، هى طيبة ، هى طيبة ، هى طيبة » .

يقول الإمام الصالحى صاحب « سبل الهدى والرشاد » : إن سبب الكراهة فى تسميتها بيثرب إما لكون ذلك مأخوذاً من الثَّرب وهو الفساد ، أو من الثَّريب وهو المؤاخذة بالذنب . وكان ﷺ يحب الاسم الحسن ، ولهذا أسماها طيبة وطابة ، وأما تسميتها فى القرآن يثرب فذلك حكاية عن قول المنافقين (٣) .

هذا وقد أحصى بعض كُتَّاب السيرة خمسة وتسعين اسماً للمدينة مثل الزركشى فى : « إعلام الساجد بأحكام المساجد » ، ومجد الدين الفيروزابادى فى « الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف » ، والسيد نور الدين السمهودى فى « وفاء الوفا بأخبار دار

(١) صحيح البخارى كتاب (الحج) ٣ / ٥٠ .

(٢) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ٣ / ٤٢٧ .

(٣) المصدر السابق الصفحة نفسها .

المصطفى » ومحمد يوسف الصالحى الشامى فى « سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد » .

واحتفالاً منا بمدينة رسول الله ﷺ وتعميماً للفائدة فإننا نعرض نماذج من هذه الأسماء الخمسة والتسعين .

● **أَثْرِب** . وهى لغة فى يثرب ، وقيل : إن ذلك هو اسم من سكنها أولاً .

● **أَرْضُ اللَّهِ** . لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ (١) .

● **أُكَالَةُ الْقَرْي** . لقول رسول الله ﷺ : « أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقَرْيَ » (٢) وقيل : فى معنى « تأكل القرى » ثلاثة أقوال ، هى : أنها مركز الجيوش الإسلامية . أن أكلها وميرتها من القرى المفتوحة . أنها تفرغ القرى بوجوب الهجرة إليها .

● **الْبَاذَة ، والبَّرَة** .

لكثرة برها بأهلها خصوصاً ، ولجميع العالم عموماً ؛ لأنها منبع الأسرار وإشراق الأنوار ، وبها العيشة الهنية والبركات النبوية .

● **الْبَحْرَة ، والبَحْيِرَة ، والبَحِيرَة** .

يقولون : هذه بحرتنا ، أى : أرضنا وبلدنا ، والبحيرة مدينة الرسول ﷺ وهو تصغير البحرة ، والعرب تسمى المدن والقرى البحار (٣) .

● **بَلَدُ رَسُولِ اللَّهِ** . وذلك لقول رسول الله ﷺ : « إن الشياطين قد يئست أن تعيد فى بلدى » (٤) .

● **جَبَّار ، الجَابِرَة ، الجَبَّازَة ، المَجْبُورَة** .

سميت بهذه الأسماء الأربعة لأنها تجبر الكسير ، وتغنى الفقير ، وتجبر على

(١) النساء : من الآية : ٩٧ .

(٢) صحيح مسلم فى باب : المدينة تنفى شرارها .

(٣) إعلام الساجد ص ٢٣٥ ، والنهاية لابن الأثير ١ / ٦٢ .

(٤) النهاية ١ / ٢١٧ ونص الحديث هو « إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب ، ولكن فى التحريش بينهم » .

الإذعان ؛ لأنها جبرت البلاد على الإسلام (١).

● الخيرة ، الخير .

بالتشديد فى الأولى والتخفيف فى الثانية - بمعنى كثيرة الخير . وفى الحديث :
« والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

● الدار ، دار المختار ، دار الإيمان ، دار الأبرار .

وذلك لقوله - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ﴾ (٢).

ولأنها دار المصطفى المختار والمهاجرين والأنصار ، ولقوله ﷺ : « المدينة قبة الإسلام ، ودار الإيمان ، وأرض الهجرة ، ومبوء الحلال والحرام » .

● دار السنة ، دار الفتح .

لأن منها انتشرت السنة فى الأقطار ، ومنها فتحت مكة وسائر الأمصار .

● ذات الحِزَار .

بكسر الحاء : جمع حرة - بفتح الحاء - وهى الحجارة السود ؛ لكثرتها بها .

● ذات النخل :

ففى الحديث الشريف : « أريت دار هجرتى ذات نخل وحره » .

● الشافية .

للحديث الشريف « ترابها شفاء من كل داء » .

● طابة ، طيبة ، طيبة ، طائب .

روى مسلم عن جابر - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى سمي المدينة طابة » وفى رواية : « إن الله أمرنى أن أسمى المدينة طابة »

(١) هذا قول السمهودى فى وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١ / ١٠ .

(٢) الحشر ، من الآية : ٩ .

وعن وهب بن منبه : « إن اسمها في كتاب الله - هنا يعنى التوراة - طَيْبَة وطابة » .

● العاصمة .

وذلك لعصمتها المهاجرين من المشركين ؛ ولأنها الدرع الحصينة .

● العذراء .

وذلك لصعوبتها وامتناعها على الأعداء حتى تسلمها مالكتها الحقيقى سيد الأنام ﷺ .

● الغراء .

تأنيث الأغرّ : ذى الغرة واليباض فى مقدم الوجه ، والغرة أيضا : خيار كل شىء ، وغرة الإنسان : وجهه ، والرجل الأغر : يعنى الكريم ، واليوم الأغر : الشديد الحر ، والغراء : نبت طيب الرائحة ، والغراء : السيدة الكبيرة ؛ فسميت المدينة بذلك لأنها سادت القرى .

● قبة الإسلام .

وذلك لحديث رسول الله ﷺ : « المدينة قبة الإسلام » .

● المؤمنة ، المباركة .

لاتصاف أهلها بالإيمان ، ولقول الرسول ﷺ : « والذى نفسى بيده إن تربتها لمؤمنة » .

وهى مباركة ؛ لأن الله - تعالى - بارك فيها بدعائه ﷺ وحلوله بها ، ولقوله ﷺ : « اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ما جعلت بمكة من البركة » (١) .

● المحبّة ، المحبّة ، المحبوبة .

والأسماء الثلاثة مشتقة من لفظ (الحب) فهى محبة لساكنها العظيم ولسكانها المباركين وهى محبوبة منهم ومحبة إليهم .

(١) صحيح البخارى (كتاب الحج) والحديث رواه أنس .

● المحبورة .

من الخبر - بفتح ثم سكون - وهو السرور .

● المحروسة .

للحديث : « المدينة مشتبكة بالملائكة ، على كل نقب منها ملك يحرسها » .

● المختارة .

لأن الله - تعالى - اختارها للمختار من خلقه في حياته ومماته .

● المرحومة .

لأنها دار المبعوث رحمة للعالمين ، وبها تنزل الرحمات .

● المقر .

من القرار . وفي دعائه ﷺ لها قوله : « اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا حسنا » .

● المدينة .

وهي تسمية الرسول ﷺ لها استجابة للتوجيه القرآني الكريم ، ولتكراره في القرآن . والمدينة من : مَدَنَ بالمكان ، أى : أقام به ، أو من : دان إذا أطاع . إذ يطاع السلطان بالمدينة لسكانها ، وهي بيوت كثيرة تجاوز حد القرى ولم تبلغ حد الأمصار ، وقيل : يقال لكل مصر ، وتطلق على أماكن كثيرة ، ومع ذلك فهو عَلمٌ على المدينة النبوية ؛ بحيث إذا أطلق لا يتبادر الفهم إلى غيرها ، ولا يستعمل فيها إلا المعرفة ، أما النكرة فاسم لكل مدينة ، ونسبوا لكل : (مدني) وللمدينة النبوية (مدني) للفرق .

● مدينة رسول الله :

وذلك لقوله ﷺ في حديث الطبراني : « من أحدث في مدينتي هذه حدثا ، أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا » (١) فأضافها إليه لسكانها .

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ٣ / ٥ .

وجماع القول هو تغيير اسم مهاجر رسول الله ﷺ من « يثرب » إلى « المدينة » التي زيد إليها صفة « المنورة » تكريماً لها لخلول رسول الله ﷺ بها مقبلاً في حياته ، واحتوائها لرفاته الطاهر بعد وفاته ، ثم تعددت أسمائها وصفاتها في الأزمنة التالية ، وكل هذه الأسماء تدل على شرف المسمى ، وسمو قدره ، وجلال مكانته .

الرسول يبنى مسجده :

سلف القول أن الأنصار كانوا يمسون زمام ناقة رسول الله ﷺ ويتوسل الواحد منهم إلى الرسول أن ينزل عنده حوزاً للشرف وطلباً للبركة ، ولكنه ﷺ كان يقول لهم : «دعوها - أى : الناقة - فإنها مأمورة » وظل الأمر هكذا إلى أن وقفت أمام دار أبى أيوب الأنصارى ، فقال الرسول : « ها هنا المنزل إن شاء الله » .

كان مبرك الناقة عند المكان الذى صار باباً لمسجده ﷺ فقال وهو آخذ في النزول : ﴿ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ (١) . وكان المكان مربداً (٢) لتييمين ، هما : سهل وسهيل ابنا رافع بن أبى عمرو بن عائذ من مالك بن النجار ، وكانا في حجر أسعد بن زرارة ، فأرسل الرسول إلى بنى النجار بسبب موضع المسجد فقال : « يا بنى النجار : ثامنوني بحائطكم هذا » فقالوا : والله لا نطلب ثمنه إلا من الله . . وفى رواية أن الرسول ﷺ دعا بالغلامين وسأومهما بالمربد الذى يملكانه ليتخذاه مسجداً ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى أن يقبله هبة وابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً .

وهناك رواية عن النوار بنت مالك - أم زيد بن ثابت كاتب الوحي - أنها رأت أسعد ابن زرارة قبل أن يقدم النبى ﷺ يصلى بالناس الصلوات الخمس ويجمع بهم في مسجد بناه في مربد سهل وسهيل ابني رافع بن أبى عمرو بن عائذ ، وفى رواية عن أنس - رضى الله عنه - أن المسجد كان جداراً ليس له سقف وقبلته إلى القدس ، فأمر رسول الله ﷺ بالنخل بالغرق أن يقطع ، وأمر بتسوية الأرض ، وعمل رسول الله ﷺ مع الصحابة في

(١) سورة « المؤمنون » الآية : ٢٩ .

(٢) المربد : هو الموضع الذى يجعل فيه الثمر .

بناء المسجد بنفسه ، وطفق ينقل معهم اللبَنَ ترغيباً لهم في العمل ويقول مردداً بيت
عبدالله بن رواحة :

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

ويقول الزهري : إن رسول الله ﷺ كان يقول : اللهم لا خير إلا خير الآخرة فارحم
المهاجرين والأنصار ، فقد كان لا يقيم الشعر .

وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت : « بنى رسول الله ﷺ مسجده فقرب اللبن
وما يحتاجون إليه ، فقام رسول الله ﷺ فوضع رداءه ، فلما رأى ذلك المهاجرون الأولون
والأنصار ألقوا أرديتهم وأكسيتهم وجعلوا يرتجزون ويعملون ويقولون :

لئن قعدنا والنبي يعمل ذاك إذن للعمل المصلل

وكان الرسول يصّر على حمل اللبن ولا يرضى أن يتحمل عنه الصحابة بعض المشقة ،
فقد روى أسامة بن زيد عن أبيه - رضي الله عنهما - قال : خرج رسول الله ﷺ ومعه
حجر ، فلقبه أسيد بن حُصَير ، فقال : يا رسول الله أعطينيه ، فقال : « اذهب
فاحتمل غيره فإنك لست بأفقر إلى الله مني » .

وفي صفة المسجد يقول خارجة بن زيد بن ثابت : « بنى رسول الله ﷺ مسجده
سبعين في ستين ذراعاً أو يزيد ، لَبَنَةً لَبَنَةً من بقيق الخَبْخَبَةِ ، وقيل : الخَبْخَبَةُ - موضع
بالمدينة - وجعله جدارا ، وجعل سواريه خشباً شُقَّةً شُقَّةً ، وجعل وسطه رحبة ، وبنى
بيتين لزوجتيه » .

وعن الإمام جعفر الصادق أن النبي ﷺ بنى مسجده مرتين : بناء حين قَدِمَ أَقْلَ من
مائة في مائة ، فلما فتح الله عليه خيبر بناء وزاد عليه مثله في الدور (١) .

إن بناء الرسول ﷺ بهذه السرعة دلالة على أن الرسول قد شرع في بناء المجتمع المسلم
الذي يشكل المسجد ركيزته الأولى ؛ ففيه تلتقى جموع المسلمين للصلاة والعبادة ودراسة
شئونهم والتشاور في حل مشكلاتهم .

(١) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٤٨٥ وما بعدها ، فصل « في بناء مسجده الأعظم »

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

المؤمنون جميعاً إخوة تطبيقاً لقول الله - عز وجل - في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) .

لهذا شرع رسول الله ﷺ أول وصوله إلى المدينة في مؤاخاة المهاجرين والأنصار أخوة صادقة إلى درجة أن يتوارثوا بعد الممات ، وظلت هذه الموارثة قائمة ومقدمة على حقوق القرابة حتى غزوة بدر ونزول آية الموارث .

قال ﷺ : « تآخوا في الله أخوين أخوين » ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب وقال : « هذا أخي » .

وكان حمزة بن عبد المطلب - عم رسول الله - وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين ، وإليه أوصى حمزة يوم « أحد » إن حدث به حادث الموت ، جعفر أبي طالب (الطيار) ومعاذ بن جبل (وكان جعفر غائباً بأرض الحبشة) . أبو بكر وخارجة بن زهير . وعمر ابن الخطاب وعُثْبَان بن مالك . أبو عبيدة بن عبد الله الجراح (واسمه عامر) وسعد بن معاذ . عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع . الزبير بن العوام وسلامة بن سلامة بن وقش . عثمان بن عفان وأوس بن ثابت (من بني النجار) . طلحة بن عبيد الله وكعب ابن مالك . سعد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل وأُبَيّ بن كعب (من بني النجار) مصعب ابن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد (من بني النجار ، وهو أبو أيوب الأنصاري) . أبو حذيفة بن عتبة وعبد بن بشر بن وقش . عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان . وفي رواية : عمار بن ياسر وثابت بن قيس بن الشماس الخزرجي (خطيب رسول الله) . أبو ذر الغفار (جندب بن جنادة وقيل برير بن جنادة) والمنذر بن عمرو . حاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة (من بني عمرو بن عوف) . سلمان الفارسي وأبو الدرداء (عويم بن ثعلبة أخو بلحارث بن الخزرج) . بلال مؤذن الرسول وأبو رويحة عبد الله ابن عبد الرحمن الخثعمي . (يروى أن رسول الله ﷺ عقد لأبي رويحة لواء عام الفتح وأمر أن ينادى : من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن) .

(١) الحجرات ، الآية : ١٠ .

بهذه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار انتظم سلك الجماعة الإسلامية وتوحدت صفوفهم وانصهرت أرواحهم بعضها في بعض وصاروا يشكلون جدارا صلبا وحصنا حصينا تجاه شركائهم في سكنى المدينة وهم اليهود يقبائلهم الثلاث - بنى قريظة وبنى قينقاع وبنى النضير - وبقية من لم يسلموا بعد من الأوس والخزرج ، وصارت الجماعة مؤهلة لأن تخوض الغمار وتستأثر بالنصر وتحوز الفخار .

وثيقة المهادنة والموادعة :

سلف القول بأن مجتمع المدينة كان يتكون من المهاجرين والأنصار - وهم الأوس والخزرج - واليهود وبقية من لم يسلموا بعد من الأوس والخزرج ، ولقد ذوب الإسلام ما بين الأوس والخزرج من حقد ، وأزال ما بينهما من ضغائن ، ثم أخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار على النحو الموضح في الفقرة السابقة ، ولكي تستقر الأحوال في المدينة كان لا بد من خلق جو من الأمن بين جميع سكانها يسطر في وثيقة مكتوبة تلزم جميع الأطراف بنود محددة يستشعرون من خلالها الأمان على أنفسهم ، والحفاظ على عقائدهم وأموالهم ، وأن تحترم بنود هذه الوثيقة دون نقض أو إخلال ، وقد أملى النبي ﷺ بنود الوثيقة وارتضتها الأطراف جميعا . وهذا هو نصها (١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم ، وإنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم (أى : الحال التي جاء الإسلام وهم عليها) يتعاقلون بينهم ، وهم يفقدون عانيهم (العانى : الأسير) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو جُشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين

(١) السيرة لابن هشام ٥٠١/١ وعبون الأثر ١٩٧/١ والبداية والنهاية ٢٢٤/٣ والأموال ٢٠٢ وسبل الهدى والرشاد ٥٥٦/٣ ومجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي ، ص : ٤٧ .

المؤمنين ، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى . وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وأن المؤمنين لا يتركون مُفَرِّحاً (المفرح : المثل بالدين والكثير العيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وإن دَمَّةَ الله واحدة يحجر عليهم أذانهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وأن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضاً ، وإن المؤمنين يبىء بعضهم على بعض بيا نال دماءهم في سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن غير بينة (أى : قتله بلا جناية منه توجب قتله) فإنه قودُّ به إلا أن يرضى ولى المقتول . وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وأنه لا يحل للمؤمن آمن بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدثاً ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، لا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله - عز وجل - وإلى محمد ﷺ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته ، وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى

عوف ، وأن ليهود بنى جُشم مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته ، وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وأن لبنى الشَّطِيبَةِ مثل ما ليهود بنى عوف . وأن البر دون الإثم ، وأن موالى ثعلبة كأنفسهم ، وأن بطانة يهود « يعنى خاصتهم وأهلهم » كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وإنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فتنك فبنفسه فتنك وأهل بيته ، إلا من ظلم ، وإن الله على أبرّ هذا ، (يعنى على الرضا به) وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ، وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وأن الجار كالنفس غير مُضَار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخَافُ فسادَه فإن مرده إلى الله - عز وجل - وإلى محمد رسول الله ﷺ ، وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ، (يعنى أن الله وحزبه المؤمنين على الرضا به) ، وأنه لا تُجَار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على دَهِم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين ، إلا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قَبَلَهُمْ ، وأن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة » .

يقول الأستاذ الدكتور طه بدوى : إنه بعد بيعة العقبة الثانية وهجرة المسلمين من مكة إلى المدينة وامتزاجهم بالأنصار وتوحدتهم معهم داخل نطاق إقليم مشترك ، كل ذلك جعل للمسلمين أرضاً يأمنون فيها ، ويسيطرون على بعض مواردها الاقتصادية سيطرة تجعل لدى الأفراد نوعاً من الشعور بالتضامن فى تحقيق الخير المشترك الذى يهيم سرحلة التأسيس لمجتمع متميز ، ثم يبقى بعد ذلك العنصر الذى يفضى إلى تحويل هذا التجمع من مجرد مجتمع إنسانى إلى مجتمع سياسى تتوفر له السلطة السياسية ، وقد تحقق ذلك بوصول الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة ، وتولى السلطة فيها بعد أن وطد أركان

قطاعات المجتمع المختلفة بالوثيقة التي اصطلح كثير من الباحثين بتسميتها : « دستور المدينة » (١).

وهكذا نشأت دولة المدينة التي قامت على أساس المواطنة الإسلامية ، وهو أساس جديد لم يكن معروفا قبل ذلك ، ووصفت الوثيقة مجتمع المدينة بأنه أمة من دون الناس ، وحلت الرابطة الدينية محل الرابطة القبلية ، ذلك أن العرب لم يكونوا يجتمعون قبل الإسلام إلا على صلات من القرابة والنسب .

لقد ضمت الوثيقة سبعا وأربعين مادة طبقا لتقسيم الدكتور محمد حميد الدين لها ، وقد رأينا أن نعيد عرض الوثيقة طبقا للتقسيم الذي قدمها الدكتور حميد الدين من خلاله (٢).

بسم الرحمن الرحيم

١ - هذا كتاب من محمد النبي ، رسول الله ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ، وأهل يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم .

٢ - أنهم أمة واحدة من دون الناس .

٣ - المهاجرون من قريش على رُبُعَتِهِمْ ، يتعاقلون بينهم ، وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤ - وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٥ - وبنو الحارث بن الخزرج على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالقسط والمعروف بين المؤمنين .

(١) أصول علم السياسة : ٣٧-٤٢ .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص : ٥٩ وما بعدها .

معاني المفردات :

- على ربعتهم : أى أمرهم وشأنهم الذى كانوا عليه . وقال السهيل فى شرح السيرة : الحال التى جاء الإسلام وهم عليها .
- التعاقل : إعطاء المعاقل ، وهى الديات . أى : يكونون على ما كانوا عليه من إعطاء الديات وأخذها فى الجاهلية .
- العانى : الأسير .

- ٦ - وبنو ساعدة على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٧ - وبنو جشم على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٨ - وبنو النجار على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ٩ - وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ١٠ - وبنو النبيت على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ١١ - وبنو الأوس على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
- ١٢ - وأن المؤمنين لا يتركوا مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء ، أو عقلٍ (*).
- ١٣ - وأن لا يحالف مؤمنٌ مؤمناً مؤمنٌ دونه .
- ١٤ - وأن المؤمنين المتقين ، أيديهم على كل من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعةً (*) ظلم ، أو إثماً ، أو عدواناً ، أو فساداً بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم .

(*) المفرح : المثل بالدين ولا يجد قضاءه ، وقيل : هو الذي لا مال له ، وقيل : هو الذي لا عشيرة له .
العقل : الدية .

(*) الدسع : الدفع والعطية . وفي اللسان : أي طلب دفعا على سبيل الظلم .
الغازية : الجماعة تخرج للغزو .

يعقب بعضهم بعضاً : أي يتناوبون . فإذا خرجت طائفة غازية ثم عادت تكلف أن تعود ثانية حتى تعقبها أخرى غيرها ، يعنى أن يكون الغزو بينهم بالتناوب .
يبىء بعضهم عن بعض : أي يتعادلون ويتكافأون ويتساوون .

- ١٥ - ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .
- ١٦ - وأن ذمة الله واحدة ، يحجر عليهم أذانهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض ، دون الناس .
- ١٧ - وأنه من تبعنا من يهود ، فإن له النصرة والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصر عليهم .
- ١٨ - وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم .
- ١٩ - وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً .
- ٢٠ - وأن المؤمنين يُبىء بعضهم عن بعض ، بما نال دماءهم في سبيل الله .
- ٢١ - وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .
- ٢٢ - وأنه لا يحجر مشرك مالا لقريش ، ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن .
- ٢٣ - وأنه من اعتبط (*) مؤمناً قتلاً عن غير بينة ، فإنه قود به ، إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل ، وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .
- ٢٤ - وأنه لا يحل لمؤمن أقر بها في الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ، أو يؤويه ، وأن من نصره ، أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .
- ٢٥ - وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد .
- ٢٦ - وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ، ماداموا محاربين .
- ٢٧ - وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

(*) اعتبطه : أى قتله بلا جناية منه توجب قتله .

القيود : القصاص في القتل ، بمعنى أن القاتل يقاد به فيقتل . المحدث : الجانى .
العدل : الفداء . والصرف : التوبة . وقيل : الصرف القيمة ، والعدل : المثل (بكسر ثم سكون)
يوتغ : يهلك .

- ٢٨- وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٢٩- وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٣٠- وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٣١- وأن ليهود بنى جُشَم مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٣٢- وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٣٣- وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه ، وأهل بيته .
- ٣٤- وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .
- ٣٥- وأن لبنى الشَّطِيَّة مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن البر دون الإثم (*) .
- ٣٦- وأن موالى ثعلبة كأنفسهم .
- ٣٧- وأن بطانة يهود كأنفسهم .
- ٣٨- وأن لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد .
- ٣٩- وأنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته ، إلا من ظلم ، وأن الله على أبر هذا .
- ٤٠- وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .
- ٤١- وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم .
- ٤٢- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

(*) البرّ دون الإثم : أى أن البر بين أهل الصحيفة يحول بينهم وبين الإثم . يعنى أن البر والوفاء ينبغى أن يكون حاجزا عن الإثم .

حجزه فأنحجز : منعه وحال بينه وبين غرضه .
النصر هنا بمعنى المناصرة .

- ٤٣ - وأن يثرب حرام جوفها (*) لأهل هذه الصحيفة .
- ٤٤ - وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .
- ٤٥ - وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .
- ٤٦ - وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث ، أو اشتجار يخاف فساد ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره .
- ٤٧ - وأنه لا تجار قریش ولا من نصرها .
- ٤٨ - وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .
- ٤٩ - وإذا دعوا إلى صلح يصلحون ، ويلبسونه (*) فإنهم يصلحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين .
- ٥٠ - على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .
- ٥١ - وأن يهود الأوس ، ومواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة (*) . وأن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره .
- ٥٢ - وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم وآثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ .
- لقد كانت وثيقة المودة تلك مترعة بأسباب السماحة الإسلامية ، مليئة بالمبادئ

(*) الجوف : المظمن من الأرض ، والجمع أجواف .

يظن أن المراد بالحرمة هنا حرمة الجوار فلا يجير الجار مستجيراً إلا بإذن مجيره . وذهب آخرون إلى أن معنى هذا النص ألا تجير امرأة إلا بإذن أهلها . والأول أقرب إلى الصواب والله أعلم . ويؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ « قد أجرنا من أجزرت يا أم هانئ » بعد أن شكت إليه أن أخاها « على بن أبى طالب » أراد أن يقتل رجلاً من المشركين أجزارته بأمانها . والحديث متفق عليه .

الحدث : الأمر بالحادث المنكر .

(*) يلبسونه من لبسه : إذا خالطه واشترك فيه .

(*) إلى هنا ينتهى النص طبقاً لرواية ابن هشام ، وإن ماتلاً ذلك من زيادة فهي « عيون الأثر » ١ / ١٩٧ ، ١٩٨ .

الإنسانية ، فمن أبرز موادها أن « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » و « من خرج من المدينة فهو في أمان ومن قعد فهو في أمان إلا من ظلم وأثم » و « المسلمون جميعا ضد من ظلم أو بغى أو اعتدى أو أفسد بين المؤمنين ولو كان ولد أحدهم » و « أنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم » و « أن بطانة يهود كأنفسهم » و « أنه لا يآثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم » و « أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين » و « أن الجار كالنفس غير مُضَارٍّ ولا آثم » .

وكان من أنصع مواد هذه المعاهدة أن التحكيم في شئونها مرده إلى الله وإلى الرسول ﷺ وذلك في الفقرة رقم (٤٢) التي تقرر : « وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره » .

يقول الدكتور جعفر عبد السلام : إن المتمعن في نصوص الوثيقة يستخلص منها كيف اهتم الرسول ﷺ ببناء الأمة ، أى : تحديد الروابط السياسية والاجتماعية والقانونية بين فئات السكان ، فالرسول برغم إقامته الدولة على أساس العقيدة ، فإنه لم يغفل فئات السكان الأخرى التي تعيش معه في مكان واحد في الدولة الجديدة ، يؤدون واجبه نحوها في الدود عنها ، وصيانة أمنها الداخلى والخارجى ، والحفاظ على البناء الأساسى الذى وطده الرسول في يثرب (١) .

هذا فضلا عن عناصر أساسية في بناء الدولة الحاضرة اشتملت عليها الوثيقة وتنبه إليها صاحب البحث يمكن عرض أهم مبادئها على النحو التالى :

● إن تحديد العلاقات بين الأطراف يضعنا أمام لجنة تأسيسية هى كل بطون المدينة والمهاجرين إليها فضلا عن قائدها ونيبها ، وهذه اللجنة التأسيسية تضع عقدا اجتماعيا ترسى فيه مبادئ دستورية توضح أساس التعامل بين مختلف فئات المجتمع .

● شهدت أرض يثرب عملية بناء ضخمة تمت في العام الأول للهجرة ، فقد كان

(١) وثيقة إنشاء الدولة الإسلامية في المدينة ص ٣٥١ من مجلة الشريعة والقانون ، العدد الثانى - تصدرها كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر .

الرسول ﷺ يبحث عن إقليم الدولة ، أو الإقليم الذى يأوى إليه لى يتمكن من نشر دعوة الإسلام وبناء الأمة الإسلامية ، وقد وجد الرسول ضالته فى المدينة ، لذلك اهتم بأمر هذا الإقليم ، فحدده وجعله حرماً آمناً لمن يأوى إليه ، وإذا ما تتبعنا حياة الرسول فى المدينة نجده ﷺ قد اهتم بأمر عدة أهمها ثلاثة إنجازات كبيرة :

أولها : المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وهى عملية فريدة لم تتكرر فى تاريخ الإنسانية كلها .

وثانيها : وضع هذه الوثيقة .

وثالثها : بناء المسجد الذى هو دائماً فى الإسلام وحدة دينية واجتماعية وسياسية .

● اهتم الرسول بفكرة إقليم الدولة ؛ حيث نصّ فى الوثيقة على أن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، أى : تحريم قتل الأنفس ونهب الأموال ، بل تحريم قطع الشجر وقتل الطير .

وقد أورد المرحوم ظافر القاسمى أنه ورد فى بعض المراجع أن الرسول ﷺ أرسل بعض أصحابه لى يضعوا أعلاماً على حدود حرم المدينة بين لابتبها شرقاً وغرباً ، وبين جبل ثور فى الشمال وجبل عير فى الجنوب ووادى العقيق (١) .

● كان الضمان الاجتماعى يشكل مظلة ظليلة على مجتمع الدولة الإسلامية فى المدينة ، فقد جاء به الإسلام شاملاً وقام نظام الدولة الإسلامية على فرض الزكاة ، وفرض توزيع أموال من بيت المال على المحتاجين ، وهو ما نصت عليه الوثيقة فى وضوح . ذلك أن المسلمين لا يتركون مفرحاً - أى : مثقلاً بالدين - وإنما يعطونه بالمعروف فضلاً عن الفداء من الأسر وتحمل الديات .

هذا وقد ورد بالصحيفة نصوص على حرية العقيدة وعلى التأكيد على المساواة بين عناصر الدولة .

ومجمل القول أن هذه الوثيقة تعدّ سبقاً تاريخياً فى وضع وثائق بناء الدول ، وفى

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى ، ص : ٣٥ .

صياغة مبادئ وأسس تتضمنها الوثائق الدستورية الحديثة منذ أن بدأت الدول تعرف هذا المصطلح في القرن السادس عشر الميلادي حتى الآن .

إن اليهود لم يمهد لهم احترام في التاريخ بمثل ما مهدت لهم هذه الوثيقة المحمدية الشريفة ، فقد كان لهم نصيب في المغنم إذا ما قاتلوا مع المسلمين مما جعل بعض المؤرخين يعلل هذا التسامح العظيم تارة بأن الإسلام كان لا يزال ضعيفا آنذاك ، وتارة أخرى بأن هذا العهد كتب قبل أن تفرض الجزية ، ولكن الأمر ليس كذلك تماما ؛ لأن اليهود هم الذين نقضوا العهد ، وكان الإسلام قد خاض غزوة بدر ، وكان النصر المؤزر الكبير حليف المسلمين .

لم يصبر اليهود على فضيلة الأمانة وحفظ العهد اللذين ألزمهم بهما وثيقة العهد ، فعادوهم الحنين إلى طبيعتهم الغادرة ، وسجيتهم المخادعة ، فما أن يثس كفار قريش من الإيقاع بين مسلمي المدينة من مهاجرين وأنصار حتى كتبوا إلى يهود المدينة بعد موقعة بدر مهديدين ومرغبين ، وهنا بدأ الغدر يسيطر على نفوس اليهود ، فأجمعت بنو النضير على الغدر ، ورسوموا خطة خسيصة بأن أرسلوا إلى النبي ﷺ قائلين : « اخرج إلينا في ثلاثين رجلا من أصحابك ، ولنخرج في ثلاثين حبرا حتى نلتقى في مكان كذا » وقد عقدوا العزم على قتل الرسول ﷺ ثم ما لبثوا أن قال بعضهم لبعض : كيف نخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلا من أصحابه كلهم يحب أن يموت قبله ؟ ! فأرسلوا إليه : كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلا ؟ اخرج في ثلاثة من أصحابك ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا فليسمعوا منك ، فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك .

فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه ، وخرج اليهود مشتملين على الخناجر، وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ فأرسلت امرأة ناصحة من بنى النضير إلى أحد بنى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار ، وأخبرته بعزم بنى النضير على الغدر برسول الله ﷺ فأقبل أخوها سريعا حتى أدرك النبي ﷺ فسارّه بخبره قبل أن يصل إليهم ، فرجع النبي ، فلما كان من الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحاصروهم وقال لهم : « إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه » فأبوا أن يعطوا عهدا ، فقاتلهم

يومهم ذلك هو والمسلمون ، ثم غدا الغد على بنى قريظة بالخيل والكتائب ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه ، فانصرف عنهم وغدا إلى بنى النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة .

وهكذا أبت على اليهود طبيعتهم الغادرة إلا أن يخونوا العهد ، وينقضوا الوثيقة ، فكانوا البادئين في أسباب إجلائهم عن مدينة رسول الله ﷺ وتلك سليقتهم على مرّ السنين وكّر الدهور .



الفصل الرابع

هدنة الحديبية
أو
صلح الحديبية

صلح الحديبية

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ينظم شئون دولة الإسلام ، ويوظف أكتاف الأمن فيها ؛ لأن جماعات اليهود ، وزرافات المنافقين كانت للرسالة وصاحبها بالمرصاد ، لا تلبث أن تشعل فتنة أو تنقض عهدا بين الحين والحين ، وكان الرسول ﷺ لا يغادر المدينة إلا إلى غزوة يدرأ بها خطرا متوقعا أو عدوا متربصا ، فلما كان شهر ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة عقد العزم على زيارة بيت الله الحرام ، وأداء شعائر العمرة .

لم يكن الرسول ﷺ ليغادر المدينة إلا وقد اطمأن إلى أمن أهلها إبان غيابه ، وشعورهم بالاستقرار ، وأنهم بمنجاة من عدو كامن ، أو مهاجم متربص .

لقد قضى رسول الله السنة الخامسة للهجرة كلها وشهورا من السنة السادسة قبل ميعاد مغادرة المدينة إلى مكة وهو لا يكاد ينتهى من غزوة إلا إلى أخرى ، وذلك فضلا عن نصر الله له فى الخندق والقضاء على اليهود من فرق الأحزاب ، وهم بنو قريظة الناقضو العهد المتآمرون على المسلمين .

وخاض رسول الله ﷺ فى السنة الخامسة غزوة ذات الرقاع ، وغزوة دومة الجندل ، وغزوة الخندق أو الأحزاب ، ثم فى إثرها مباشرة غزوة بنى قريظة التى استأصل فيها شأفتهم وقضى على كل أسباب تأمرهم وأجلاهم عن المدينة .

فلما كانت السنة السادسة خاض رسول الله ﷺ غزوة بنى لحيان فى جمادى الأولى ، وأتبعها بغزوة ذى قرد ، ثم غزوة بنى المصطلق أو المريسيع فى شهر شعبان .

بذلك يكون رسول الله ﷺ قد تخلص من شرور أعدائه ، وأمن على نساء المهاجرين والأنصار وذرائعهم إن هو غادر المدينة إلى أداء العمرة ، وبخاصة بعد أن نصره الله على

الأحزاب فمزق شملهم ، وعلى بنى قريظة من يهود المدينة فهزمهم وأجلاهم وأمن شرورهم .

المسير إلى مكة :

خرج رسول الله ﷺ من المدينة بعد أن استعمل عليها نميلة بن عبد الله الليثي يريد زيارة البيت ، وسار ومن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب لا يريد قتالا في ألف وأربعمائة - على أصح الروايات - فلما كان بذي الحليفة^(١) قلد الهدى وأشعره^(٢) وأحرم بالعمرة هو وأصحابه ؛ ليأمن الناس من حربه ، وليعلمهم أنه خرج لزيارة البيت الحرام ، حتى إذا كان بعسفان أرسل بشر بن سفيان الكعبي يستكشف له الطريق ، فعاد الرجل من مهمته يخبر رسول الله بأن قريشا سمعت بمسيره ، فخرجت بنسائها وصبيانها ونزلوا بذي طوى - ضاحية لمكة - يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا ، وخرج خالد بن الوليد بخيله ورجاله إلى موضع يقال له كراع الغميم بين مكة والمدينة ، فقال رسول الله ﷺ معلقاً على حشود قريش : « يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة » - كناية عن الموت - .

ثم قال ﷺ : « مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِهِمُ الَّتِي هُمْ بِهَا ؟ » فقال رجل من أسلم ، أنا يارسول الله : فسلك بهم طريقاً وعراً كثير الحجارة بين شعاب ، فلما أفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي ، أمر رسول الله ﷺ أن يسلك الناس طريقاً يؤدي إلى ثنية المزارع مهبط الحديبية ، فسلكوا ذلك الطريق ، فلما رأت خيل قريش غبار مسيرة الرسول وصحبته رجعوا قافلين إلى قريش ، واستمر رسول الله حتى إذا سلك في

(١) هي مايعرف حالياً بآبار علق ، وهي ميقات أهل المدينة .

(٢) قلدها : يعني وضع في أعناقها شيئاً كقطعة من الجلد ليُعَلَّم أنها هدى .

وأشعرها : يعني ضرب صفحة السنام اليمنى بحديدة فلطخها بالدم إشعاراً بأنها هدى . وكانت هذه عادة العرب فيما يهدون إلى البيت الحرام من الذبائح .

ثنية المار بركت ناقته ، فقال الناس : خلأت الناقة - يعنى بركت - فقال الرسول ﷺ :
« ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل بمكة » ثم أردف ﷺ قائلا :
« لا تدعوني قريش اليوم إلى حُطّة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » وهكذا
كان محمد ﷺ إنسانا عاطفا حفيّا على ذوى رحمه وإن كانوا يريدون قتله .

ثم قال الرسول للناس : « انزلوا » قيل له : يارسول الله ما بالوادي ماء نزل عليه ،
فأخرج ﷺ سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه من قيل : هو ناجية بن جندب
ابن عمير بن يعمر بن أسلم سائق بدن رسول الله ، وقيل : بل هو البراء بن عازب -
فنزل به في قلب من تلك القلب فغرز في جوفه ، فجاش بالرّواء وتدفق بالماء الغزير .

فلما اطمأن رسول الله ﷺ في منزله الذي اختاره للركب ، أتاه بُدَيْل بن ورقاء
الخزاعي في جمع من قومه ، فكلّموا رسول الله وسألوه عن مقدمه ، فأخبرهم أنه لم يأت
لحرب يخوضها ، وإنما جاء زائرا للبيت ومعظم الحرمته ، فرجعوا إلى قريش ، وهنا تجرى
بين الفريقين ما يسمى بلغة العصر : محادثات ، ثم تتبعا مفاوضات .

لقد استغرقت هذه المحادثات أربع جولات ثم كانت المرحلة الخامسة هي
المفاوضات التي انتهت بعقد الهدنة أو الصلح الذي عرف في تاريخ السيرة النبوية
بصلح الحديبية .

جولات المحادثات :

كانت الجولة الأولى متمثلة في بديل بن ورقاء الخزاعي ورجاله - الذين مر ذكرهم -
الذين رجعوا لقريش فقالوا : يامعشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد ، وإن محمدا لم
يأت لقتال ، إنما جاء زائرا هذا البيت ، فلم تحسن قريش الاستماع إلى كلام الخزاعي
ورهمه ، وخاطبهم في خشونة قائلين : وإن جاء ولا يريد قتالا !! فوالله لا يدخلها
علينا عنوة أبدا ، ولا نتحدث بذلك عنا العرب .

والأمر الجدير بالذكر هنا أن خزاعة كانت عيبة نصح رسول الله ، أى : خاصته
وأصحاب سرّه : مسلمها ومشرّكها ، لا يخفون عنه شيئا كان بمكة .

وكانت الجولة الثانية من المحادثات أو الحوار حين بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ

ابن حفص بن عامر بن لؤى ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال : هذا رجل غادر ، فلما انتهى إلى رسول الله وكلمه ، قال له الرسول نحواً مما قال لبدليل وأصحابه ، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكانت جولة فاشلة .

وكانت الجولة الثالثة حين بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ الحليس بن علقمة بن زُبَّان - وكان يومئذ سيد الأحابيش (١) - وهو أحد بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : إن هذا من قوم يتألهون - أى : بتعبدون ويعظمون أمر الإله - فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه - فلما رأى الهدى يسيل عليه من جانب الوادى في قلائده ، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله - أى : الموضع الذى ينحرف فيه - رجع إلى قريش دون أن يصل إلى رسول الله إعظاماً لما رأى ، فقال لهم ذلك ، فقالوا له : اجلس فإننا أنت أعرابى لا علم لك .

هنا غضب الحليس وقال : يامعشر قريش : والله ماعلى هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم ، أَيَصَدُّ عن بيت الله من جاء معظماً له ؟ والذى نفس الحليس بيده لَتَحْلُنَّ بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرنَّ بالأحابيش نفرة رجل واحد . فقالوا له وقد استشعروا غضبه : مه ، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا مانرضى به . فكانت جولة محادثات ليست بين الرسول والحليس ، وإنما بين الحليس وقريش ، وكانت أقرب إلى النجاح على كل حال ؛ لأنها مهدت للجولة الرابعة التى كانت حاسمة .

بدأت الجولة الرابعة حين بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفى ، ولكنه قبل أن يتجه إلى رسول الله رأى أن يستوثق لنفسه من قريش التى تقرع كل من يعود إليها من عند رسول الله ، قال عروة موجهها كلامه إلى قريش : يامعشر قريش ، إني قد رأيت مايلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد - يعنى الواحد منكم مثل والدى - وقد سمعت بالذى نابكم ، فجمعت من أطاعنى من قومى ثم جئتكم حتى آسيتكم - يعنى عاونتكم - بنفسى . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم . فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين

(١) الأحابيش : من انضموا إلى قريش وليسوا منها ، وخبثى : جبل بأسفل مكة ، يقال : به سعى أحابيش قريش .

يديه ، ثم قال : يا محمد ، أجمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم ؟ إنها قریش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمر ، يعاهدون الله ألا تدخلها - یعنی مكة - عليهم عنوة أبدا ، وإيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا (١) .

هنا غضب أبو بكر - وكان قاعدا خلف رسول الله - فقال على غير سليقته لعروة : امصص بظر اللات ، أنحن ننكشف عنه ؟ قال عروة : من هذا يا محمد ؟ قال هذا ابن أبي قحافة . قال مشيرا إلى أبي بكر : أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها . ولكن هذه بتلك . ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله في الحديد ، فجعل يقرع يد عروة إذا تناول لحية رسول الله ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل ألا تصل إليك . فيقول عروة : ويحك - ما أفظك وأغلظك !! فقال عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة . قال : أى عُذَر : وهل غسلتُ سوءتَكَ إلا بالأمس ؟ (٢) فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا .

فقام عروة من عند رسول الله ﷺ وقد رأى مايصنع به أصحابه من تعظيم : لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ، فرجع إلى قریش فقال : يامعشر قریش ، إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله مارأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا ، قروا رأيكم .

إن قریشا كانت شديدة العناد إلى المدى الذى يجعلها أقرب إلى التجمد الأحق ، فلم تستجب لسفارة عروة وقد وصفته بالأمانة في قولهم : ماأنت عندنا بمتهم .

(١) أوشاب الناس : یعنی أخلاط الناس . بيضة الرجل : أهله وقبيلته وموطنه . تفضها : یعنی تكسرها . العوذ : جمع عائد ، وهى من الإبل الحديثة النتاج . والمطافيل : التى معها أولادها ، يريد أن قریشا خرجت ومعها نساؤها وأطفالها .

(٢) أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك من ثقيف ، فتهايج الحيان من ثقيف : بنو مالك رهط المقتولين ، والأحلاف رهط المغيرة ، فتحمل عروة دية المقتولين ثلاث عشرة دية .

حينئذ تجرى أحداث خطيرة تنتهى ببيعة الرضوان قبل أن يقر قرار قريش على الهدنة .

رسول الله ﷺ لسعة صدره ووفرة سماحته يرسل خراش بن أمية الخزاعي إلى قريش بمكة محمولا على بعير لرسول الله ﷺ اسمه الثعلب ؛ ليبلغ أشرافهم عن رسول الله ما جاء له ، ولكنهم يعقرون جمل رسول الله ويهمون بقتل خراش ، فتتصدى لهم الأحابيش ويحفظون على خراش حياته ويخلون سبيله .

إن قريشا لا تكتفى بحماقتها تلك ، وإنما تبعث أربعين رجلا - وقيل : خمسين - وأمروهم أن يطيئوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا ، ولكن حرس رسول الله يأخذونهم أخذا ، ويحضرونهم أمام رسول الله ﷺ فيعفو عنهم ، ويخلي سبيلهم برغم سوء فعلتهم وحماقتهم ، فقد كانوا رموا في عسكر رسول الله بالحجارة والنبل .

ثم يمضى رسول الله ﷺ في مسعاه الحميد ، ويفكر في إرسال أحد كبار صحابته سفيرا لدى قريش حتى ينجز ما لم توفق إليه رسل قريش . دعا رسول الله عمر بن الخطاب ليعثه إلى مكة مبلغا أشراف قريش ما جاء له ، فقال عمر : يارسول الله إني أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعى - يعنى يحمينى - وقد عرفت قريش عداوتى إياها ، وغلظتى عليها ، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى ، إنه عثمان بن عفان . فدعا رسول الله ﷺ عثمان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم بأن رسول الله لم يأت لحرب وإنما جاء زائرا للبيت معظما لحرمة .

ويتوجه عثمان إلى مكة ويلتقى بأبى سفيان وعظماء قريش - وكان أبان بن سعيد بن العاص قد لقيه حال دخوله مكة فأجاره - ويبلغهم رسالة رسول الله ، فلما فرغ من إبلاغها قالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فيقول لهم - وقد ربى فى مدرسة محمد ﷺ : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ فاحتبسته قريش عندها ، ولم تسمح له بالعودة ، فارتكبت بذلك جرما كبيرا ، وهنا يمكن المقارنة بين سماحة رسول الله ﷺ مع الأربعين أو الخمسين قرشيا الذى رموا معسكره بالحجارة والنبل حين أمر

بتخلى سبيلهم ، وعفا عنهم ، وقد كانوا مخربين مسلحين ولم يكونوا رسلا ، وبين فعلة قريش في حجزهم عثمان الذى كان سفيرا لرسول الله . لقد كان الموقف متمسبا بالغرابة والاستنكار لسوء ما فعلت قريش بحجز عثمان ، والحيلولة دون رجوعه إلى معسكر رسول الله ﷺ .

بيعة الرضوان :

لم يلبث الموقف أن تأزم حين أبلغ رسول الله أن عثمان قد قتلته قريش ، مما أدى إلى تحول كامل في كل الخطوات التى كان يمكن اتخاذها في نطاق السلم ومزيد من المفاوضات ، فيصدر رسول الله أمرا بالقتال في قوله ﷺ : « لانبرح حتى نناجز القوم » .

يروى الصحابى سلمة بن الأكوع قائلا : بينما نحن جالسون قائلون - أى : مسترخون وقت الظهيرة - إذ نادى منادى رسول الله - وكان عمر بن الخطاب - : أيها الناس ، البيعة البيعة ، فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . وأقبل الناس يبايعون متزاحمين ثم لبسوا السلاح وقامت أم عمارة إلى عمود كانت تستظل به فأخذته بيدها وشدّت سكيناً في وسطها .

يقول عبد الله بن أبى بكر : كان الناس يقولون بايعهم رسول الله ﷺ على الموت وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على ألا نفرّ .

والحق أن الرواية الراجحة في هذا الموقف أن الصحابة المرافقين لرسول الله ﷺ بعديدهم الألف والأربعمائة قد بايعوا رسول الله على عدم الفرار ، فإما الفتح وإما الشهادة ، ولم يتخلف منه أحد إلا الجذّ بن قيس ، وكان من المنافقين ، إن سلمة بن الأكوع يصفه حال تخلفه قائلا : لكأنى أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقتة يستتر بها من الناس .

لقد بايع كل الصحابة رسول الله إلا عثمان الذى كان الرسول ﷺ يرجع أنه محتجز وليس مقتولا . فعزّ عليه ﷺ ألا يكون مباعاً من المبايعين ، وهو يعلم قدر هذه البيعة وثوابها ، فبايع عنه بأن وضع يده الشريفة اليمنى على يده الشريفة اليسرى وقال :

«اللهم إن هذه بيعة عثمان فإنه في حاجتك وحاجة رسولك ، فأنا أبايع عنه » .

كانت البيعة تحت سَمْرَةٍ ، وهى واحدة شجر السَّمر وهو الطلح وسميت بيعة الرضوان ؛ لقول الله - سبحانه وتعالى - فى شأنها : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (١) .

وسميت أيضا بيعة الله لقوله - تعالى - فى شأنها : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (٢) .

وفى أجر المبايعين قال رسول الله ﷺ : «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة» (٣) .

كانت بيعة الرضوان بمثابة مهرجان للصمود وللفداء . تقول الرواية : إن أول من بايع رسول الله ﷺ هو سنان بن أبى سنان الأسدى ، قال لرسول الله : أبايعك على ما فى نفسك ، فقال ﷺ : وما فى نفسى ؟ قال : أضرب بسيفى بين يديك حتى يظهر لك الله أو أقتل . فصار الناس يقولون لرسول الله ﷺ : نبايعك على ما بايعك عليه أبو سنان . ومن الصحابة من بايع أكثر من مرة ، فقد بايع الصحابى سلمة بن الأكوع ثلاث مرات : مرة مع أول المبايعين ، ومرة مع أواسطهم ، ومرة مع أواخرهم ، ومن الذين بايعوا أكثر من مرة عبد الله بن عمر ؛ فقد بايع مرتين .

عجيب وعظيم أمر هؤلاء الصحابة الألف والأربعمئة الذين بايعوا محمداً ﷺ تحت الشجرة على الثبات والنصر أو الشهادة ، وهم يعلمون حق العلم أنهم سيواجهون قريشا وحلفاءها وأعوانها بكل ما تملك قريش من فرسان وعتاد وأموال وأحلاف . وأين ؟ إنه فى عقر دارها ، إنها بكل المقاييس المادية مغامرة غير محسوبة العواقب ، ولكن مقاييس رجال محمد لم تكن كذلك وإنما كانت مستمدة من إيمانهم بعقيدتهم وأنهم فى سبيل الله يقاتلون ، وقد ألفوا أن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وأنه ناصرهم

(١) الفتح ، الآية : ١٨ .

(٢) الفتح ، الآية : ١٠ .

(٣) السيرة الحلبية ٢ / ٢٠ .

على قلة عددهم ، ألم ينصرهم في بدر على قلة عددهم !! لقد صدق سنان بن أبي سنان الأسدي حين قال لرسول الله ﷺ : أبايعك على ما في نفسك ، فقال له الرسول : « وما في نفسي ؟ » قال : أضرب بسيفي بين بديك حتى يظهر لك الله أو أقتل . وكذلك صدق الناس حين قالوا لرسول الله : نبايعك على ما بايعك عليه سنان .

الجملة الأخيرة من المفاوضات وعقد الصلح :

ليس ثمة شك في أن قريشا قد علمت ببيعة المسلمين لرسول الله على القتال حتى النصر أو الشهادة ، ولقد خبرت قريش بأس المسلمين وبسالتهم قبل أربع سنوات في بدر ، ثم قبل عام واحد لمست صبرهم واستماتتهم أمام الخندق ، ولاشك أيضا في أن أخبار المسلمين في المدينة وهزيمتهم لبني قريظة المعتصمين بقلاعهم المترسين خلف حصونهم كانت ماثلة أمامهم .

كذلك كانت لاتزال تصك آذانهم الكلمات التي ألقاها بديل بن ورقاء الخزاعي في مسامعهم ، والنصائح التي وجهها إليهم الحليس بن علقمة سيد الأحابيش ، والصورة التي نقلها إليهم سفيرهم عروة بن مسعود الثقفي عن شخصية الرسول ﷺ وتعظيم رجاله له ، وأدبهم في حضرته ، وتعلقهم به وتمسكهم بدينه ، وأنهم لا يسلمونه أبدا . ونصائح عروة لهم في قوله : إنه - أي : رسول الله - عرض عليكم رشدا فاقبلوا ما عرض عليكم ، فإنني لكم ناصح مع أني أخاف ألا تُنصروا عليه .

قال جماعة من عقلاء قريش : إن الخير في أن نصالح محمدا على أن ينصرف عنا عامه هذا ولا يخلص إلى البيت حتى يسمع من سمع بمسيره من العرب أنا قد صددناه ، ويرجع قابلا - أي : العام القادم - فيقيم ثلاثا وينحر هديته وينصرف ، ويقيم ببلدنا ولا يدخل علينا ، فأجمعوا على الصلح والموادة ، اقترحوا وفدا من ثلاثة على رأسهم خطيب قريش سهيل بن عمرو ، وأما الاثنان الآخران فهما حويطب بن عبد العزى العامري ومكز بن حفص بن الأخيف ، وقالوا لسهيل : اذهب إلى محمد فصالحه ، وليكن في صلحك ألا يدخل مكة عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب أنه دخل علينا عنوة .

شروط الصلح :

ذهب سهيل إلى رسول الله ﷺ فلما رآه الرسول قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا ، وفي رواية أن الرسول قال لصحبه : سهل أمركم . جلس رسول الله ﷺ متريعا ، وكان واقفا على رأسه كل من عباد بن بشر وسلمة بن أسلم بن حريش وهما مقتنعان بالحديد ، فبرك سهيل على ركبتيه - وكان حريا به أن يفعل ذلك ، لأنه كان أسيرا في غزوة بدر ، وافتدته قريش ، فكلّم رسول الله ﷺ فأطال الكلام وارتفعت الأصوات وانخفضت ، فقال عباد بن بشر لسهيل : اخفض من صوتك عند رسول الله ، وأجرى سهيل حواراه مع رسول الله ﷺ والصحابة جلوس ، واتفقا على أن توضع الحرب بينهما عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم بعضا ، وأن يرجع رسول الله ﷺ عامه هذا ، فإذا كان العام المقبل قدمها فخلّوا بينه وبين مكة ، ليقيم فيها ثلاثا ، ولا يدخلها إلا بسلاح الراكب والسيوف في القرب لا يدخلها بغيره ، وأنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه - وإن كان على دين محمد - ردّه إلى وليه ، وأنه من أتى قريشا ممن اتبع محمدا لم يردوه عليه ، وأن بينهم وبين رسول الله ﷺ عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال^(١) . وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل . هنا توثبت خزاعة وقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتوثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم .

امتعض المسلمون وقد سمعوا الحوار وما قد حوى الصلح من شروط ، وكان أكثرهم معارضة لشروط الاتفاقية عمر بن الخطاب إلى المدى الذي جعله يكلم رسول الله ﷺ مفصحا له عما في نفسه من عدم الرضا ، وهي زلة ندم عليها عمر كثيرا فيما بعد ، ولكن سماحة رسول الله ﷺ وحده على أصحابه كانت من السماحة والسعة بحيث تستوعب مثل هذه المواقف ، ويغفر لمقترفيها ؛ لأنه رسول موحى إليه ، وهم بشر غير معصومين .

كان ذلك على مسمع من سهيل ، فأصرّ سهيل على شروطه ، فلما آن وقت الكتابة

(١) يريد أن تكف عنا وتكف عنك ، والإسلال : السرقة . والإغلال : الخيانة والغدر .

وثب عمر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، أَلست نبي الله حقا ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى . قال : عَلَكم نعطى الدِّينَةَ في ديننا ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إني عبد الله ورسوله ، ولست أعصيه ، ولن يضيعني وهو ناصرى » قال عمر : أو ليس كنت تحدثنا أننا سوف نأتى البيت فنطوف حقا ؟ قال : بلى ، فأخبرتكَ أنك تأتية العام ؟ قال : لا ، قال : « فإنك آتية ومُطَوَّفٌ به » .

ثم ذهب عمر إلى أبى بكر وسأله فيما جرى بينه وبين رسول الله ﷺ فقال أبو بكر وهو أقرب إلى الغيظ : أيها الرجل ، إنه رسول الله وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه - يعنى الزم أمره - حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق .

يقول عمر : والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ ، فيقول أبو عبيدة بن الجراح : ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله ﷺ يقول ما يقول ؟ تعوذ بالله من الشيطان وأنتهم رأيك . قال عمر : فجعلت أتعوذ بالله من الشيطان حياء ، فما أصابنى شيء قط مثل ذلك اليوم ، وعملت بذلك أعمالا لتكفر عنى ما مضى من التوقف فى امتثال الأمر ابتداء .

فلما شرع فى الكتابة قال سهيل : هات اكتب بيننا وبينك كتابا ، فدعا رسول الله ﷺ عليا فقال له : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » . فقال سهيل : أما الرحمن الرحيم فوالله ما أدرى ما هو ؟ ولكن اكتب : باسمك اللهم كما كنت تكتب . اكتب فى قضيتنا ما نعرف ، فقال المسلمون : والله لا تكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبى ﷺ : « اكتب باسمك اللهم » ثم قال : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، اكتب فى قضيتنا ما نعرف ، اكتب : محمد بن عبد الله . فقال رسول الله ﷺ لعلى : احمه ، فقال على : ما أنا بالذى أحماء - وفى رواية : أحمك - فجعل على يتلکأ ، وأبى أن يكتب إلا « محمد رسول الله » فقال رسول الله ﷺ : اكتب فإن لك مثلها وأنت مضطهد - يعنى مضطر - فأخذ أسيد بن الحضير وسعد بن عبادَة بيد على

ومنعه أن يكتب إلا « محمد رسول الله » وإلا فالسيف بيننا وبينهم ، فارتفعت الأصوات ، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخفضهم ويومئ بيده إليهم : اسكتوا . ثم قال : أرنيه - يعنى أرنى مكانها - فأراه إياه ، فمجاه رسول الله بيده وقال ، اكتب : محمد بن عبد الله ، فقال رسول الله لسهيل : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف ، فقال سهيل : لا والله لا نَحْدُثُ العربُ أنا أُحْدِثُنا ضُغْطَةً ، ولكن لك من العام المقبل ، فكتب ، فقال سهيل : على أنه لا يأتيك منا أحد بغير إذن وليه - وإن كان على دينك - إلا سدده إينا . فقال المسلمون : سبحان الله !! أكتب هذا ؟ كيف يردّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟ ! فقال رسول الله ﷺ : « نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاء منهم إينا سيجعل الله له فرجا ومخرجاً » .

وكانت الفقرة التى تلزم المسلمين بإعادة من يأتى إليهم من قريش بغير إذن أوليائهم قد فرضت نفسها على الموقف قبل أن يحف المداد ، ولما يوقع الطرفان الوثيقة بعد ، فقد كان لسهيل بن عمرو الذى يشكل الطرف الثانى فى المعاهدة ابن مؤمن ، وكان أبوه قد حبسه ووضعه فى القيد عقاباً له على إسلامه هو أبو جندل ، فبينما كان الطرفان يهيان كتابة وثيقة الصلح إذ بالجميع يفاجأون بوجود « أبى جندل » بينهم فى الحديبية يرسف فى قيوده ملقياً بنفسه بين أظهر المسلمين الذى خفوا إليه يرحبون به ويهنتونه ، فلما رآه أبوه سهيل قام إليه فضرب وجهه بغصن شوك ، وأمسك بتلابيه ثم قال : يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده ، فقال رسول الله ﷺ : « إنا لم نقض الكتاب بعد » قال سهيل : إذن والله لا أصالحك على شىء أبداً قال : فأجزه لى . قال : ما أنا بمجيزه لك . فقال أبو جندل : أى معاشر المسلمين ، أأرُدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً ؟ ألا ترون ما قد لقيت ؟ - وكان قد عذب عذاباً شديداً - فرفع رسول الله ﷺ صوته وقال : « يا أبا جندل : اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجا ومخرجاً ، إنا قد عقدنا مع القوم صلحاً وأعطينا على ذلك عهداً ، وإنا لا نغدر » .

وبانتهاه تحرير بنود الصلح شهد عليه رجال من المسلمين ورجال من المشركين : أبو بكر ، وعمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وعلى بن أبى

طالب، وعبد الله بن سهيل بن عمرو (أخو أبي جندل) ومحمود بن مسلمة، ومكروا ابن حفص .

لقد حرص رسول الله ﷺ على تنفيذ المعاهدة بكل موادها حتى قبل أن يتم التوقيع عليها طبقا لما جرى في قضية أبي جندل بن سهيل بن عمرو .

أبو بصير وأبو جندل :

وتمت موقف آخر حدث بعد عودة الرسول من الحديبية إلى المدينة ممثلا في ثقفي مسلم آخر هو أبو بصير عُبَيْدُ بْنُ أُسَيْدِ بْنِ جَارِيَةِ الثقفي حليف بنى زهرة ، أفلت من قومه سائرا على قدميه ساعيا إلى المدينة ، فكتب أزهر بن عبد عوف الزهري إلى رسول الله ﷺ كتابا بعث به مع خنيس بن جابر العامري يذكر عهد الصلح وردّ أبي بصير إلى مكة ، فقدم العامري إلى المدينة بصحبة دليل له يقال له (كوثر) بعد أبي بصير بثلاثة أيام ، فأمر رسول الله ﷺ أبا بصير أن يرجع معها ، فقال : يا رسول الله : تردني إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ ! فقال ﷺ : « يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله تعالى جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجا ومخرجا » فقال : يا رسول الله تردني إلى المشركين ؟ ! قال : « انطلق يا أبا بصير فإن الله سيجعل لك فرجا ومخرجا » .

فسار أبو بصير معها والمسلمون يسرون معه ويطيّبون خاطره ويشجعونه ، ولما أن وصلوا إلى ذى الحليفة وكان الوقت ظهرا صلى أبو بصير صلاة المسافر ، واشترك مع حارسه في تناول بعض الطعام ، وبجيلة ذكية استطاع أبو بصير أن يأخذ السيف ، فقتل العامري ، وهمّ بقتل الرجل الآخر ، ولكنه أفلت منه وخرج هاربا يعدو إلى المدينة وأبو بصير في أثره ، فلما انتهى إلى رسول الله قال له : ويحك مالك ؟ قال : قتل والله صاحبكم صاحبي وأفلت منه ولم أكد ، وإنني لمقتول ، واستغاث برسول الله فأمنه ، وأقبل أبو بصير فأناخ بغير العامري ودخل متوشحا سيفه فقال : يا رسول الله قد وفيت ذمتك وأدى الله عنك ، وقد أسلمتني بيد العدو ، وقد امتنعت بديني من أن أقتن ، فقال رسول الله ﷺ : « ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال » .

ثم خرج أبو بصير ومعه خمسة كانوا قد قدموا معه مسلمين من مكة حتى قدموا سيف البحر .

فلما بلغ سهيلاً قتل أبى بصير العامريّ اشتد وقال : ما صالحنا محمداً على هذا ، وجرت في ذلك مناقشات حول دية القتل ومن يتحملها ، ومن الطريف أن أبا سفيان ابن حرب كان من رآه أن الرسول ﷺ غير مسئول عن دم القتل .

وما يزيد القصة إمتاعاً أن أبا جندل بن سهيل بن عمرو انفلت فخرج هو وسبعون راكباً ممن أسلموا فلحقوا بأبى بصير ، ولأن أبا جندل قرشي فقد سلم له أبو بصير الأمر، فكان أبو جندل يؤمهم في الصلاة ، واجتمع إلى أبى جندل ناس من بنى غفار وأسلم وجهينة لا تترهم غير لقريش إلا أخذوها وقتلوا من فيها وضيقوا على قريش فلا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ، وتطور الأمر إلى جانب من الطرافة ، فأخذ أبو جندل يقول في ذلك شعراً منه : (*) .

أَبْلُغْ قَرِيشاً عَنْ أَبِي جَنْدَلٍ	أَنَا بَذَى الْمَرْوَةِ فِي السَّاحِلِ
فِي مَعْشَرٍ تَخْفِقُ رَأْيَاتُهُمْ	بِالْبَيْضِ فِيهَا وَالْقَنَا الدَّائِلِ
يَأْكُوزُونَ أَنْ تَبْقَى لَهُمْ رُقْنَةُ	مِنْ بَعْدِ إِسْلَامِهِمُ الْوَاصِلِ
أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُمْ مَخْرَجاً	الْحَقُّ لَا يُغْلَبُ بِالْبَاطِلِ
فَيَسْلُمُ الْمَرْءُ بِإِسْلَامِهِ	وَيُقْتَلُ الْمَرْءُ وَلَمْ يَأْكُلِ

ولما استشرى فزع قريش من أبى جندل وأبى بصير أرسلت قريش أبا سفيان إلى رسول الله ﷺ يسألونه ويتضرعون إليه أن يبعث إلى أبى بصير وأبى جندل ومن معهم ، وقالوا - وهنا تقع المفارقة العظمية - : من خرج منا إليك فأمسكه فهو لك حلال غير حرج أنت فيه ، وقال - أى : أبو سفيان - فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا باباً لا يصلح إقراره . فكتب رسول الله ﷺ إلى أبى بصير وأبى جندل يأمرهما أن يقدموا عليه ،

(*) المعانى : ذو المروة : موضع في أرض جهينة مما يلي سيف البحر بين مكة والمدينة .
القنا : جمع قناة ، وهى الرمح ، الدابل : صفة للقنا ، أى : أنها رماح رفاق .
لم يأتل : يعنى لم يحلف .

ويأمر من معها ممن اتبعهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم فلا يتعرضوا لأحد مَرَّ بهم من قريش وعيراتها ، فقدّم كتاب رسول الله على أبي بصير وهو يموت ، فجعل يقرؤه ومات وهو في يديه ، فدفنه أبو جندل وجعل عند قبره مسجداً . وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ ومعه ناس من أصحابه ورجع سائرهم إلى أهليهم ، وأمنت بعد ذلك عَيْرَاتُ قريش .

لنعد مرة أخرى إلى أعقاب رجوع رسول الله إلى المدينة بعد توقيع الهدنة ، فقد كان في الركب بعض ضعاف الإيمان بجدوى المعاهدة ، وكان ذلك قد شكل قضية عند واحد من مقدمي الصحابي وهو عمر طبقاً لما أوضحناه قبل صفحة أو صفحتين ، يروى البيهقي عن عروة أنه لما قفل رسول الله راجعاً قال رجل من أصحابه ﷺ : ما هذا بفتح ، لقد صُدِّدْنَا عن البيت وصُدِّدْ هَدِينَا ، وردّ رسول الله رجلين من المؤمنين كانا قد خرجا إليه ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال « بئس الكلام ، بل هو أعظم الفتح ، وقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ، ويسألوكم القضية - يعنى القضاء في العام القادم - ويرغبون إليكم في الأمان ، ولقد رأوا منكم ما كرهوا ، وأظفركم الله تعالى عليهم ، وردكم سالمين مأجورين ، فهو أعظم الفتح » ويمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في تنبيه عقول المسلمين وقلوبهم الذين لم يستوعبوا حكمة الهدنة ، وأنها كانت نصراً ومقدمة لانتصارات كبيرة : « أنسيتم يوم الأحزاب ؟ » ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُّونَا ﴾ (*) فقال المسلمون : صدق الله ورسوله ، فهو أعظم الفتح ، والله يأنبى الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأنت أعلم بالله وبالأمر منا .

إلى هنا يكون المسلمون جميعاً قد آمنوا بمنطق رسول الله ﷺ من أن الحديبية كانت أعظم فتح ، فقد أقنعهم رسول الله بالحجة الدامغة ، وذكرهم بمواقف ثابتة ومواقع سالفة ، ولكن مشيئة الله تأبى إلا أن تختتم هذا الموقف بالوحي منزلاً مصداقاً للمصدق المصدق خير الأنبياء وخاتم المرسلين .

(*) الأحزاب ، الآية : ١٠ .

يروى عمر بن الخطاب - وكان الصوت الأعلى في مجادلة رسول الله حول الحديبية - فسأله عن شيء ثلاث مرات فلم يرد عليّ ، فقلت في نفسي : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب نَزَرَتْ - أي : ألححت - رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك ، فحركت بعيري أمام الناس ، وخشيت أن ينزل في القرآن ، فما نشبت أن سمعت صارخا يصرخ بي ، فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء ، فقال النبي ﷺ : « لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ وَبَقِيَةُ السُّورَةِ إِلَى آخِرِهَا ، إِذْ يَقُولُ - عز وجل - : ﴿ نَحْمَدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا مُسْتَدِيمًا يَتَّبِعُونَ أَفْوَاجًا وَرَضُوا نَأْسِيَّاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝

ويزيد الموقف جلاء حول نزول سورة الفتح مارواه الصحابي الجليل مجمع بن جارية ابن عامر الأنصاري - رضى الله عنه - قال : شهدنا الحديبية مع رسول الله ، فلما انصرفنا عنها إلى « كُرَاعِ الْغَمِيمِ » - اسم موضع - إذا الناس يوجفون الأباعر - يعنى يسرعون السير - فقال الناس بعضهم لبعض : مال الناس ؟ ! قالوا : أوحى لرسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند « كُرَاعِ الْغَمِيمِ » فاجتمع الناس إليه فقرأ عليهم ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ فقال رجل من أصحاب

النبي ﷺ: أَوْهُوَ فَتَحَ ؟ فقال : « إِي والذي نفسى بيده إنه فتح » .

لقد صدق رسول الله وإيم الله ، فهو فتح عظيم ، وصدق الله - عز وجل - في تصديقه رسوله وتأنيده بوصف الفتح : بالفتح المبين ، وآيات ذلك وعلاماته كثيرة ، أولها أنه ﷺ ما كاد يعود إلى المدينة ويزيل وعثاء السفر حتى نادى بعالمية الرسالة ، وكاتب الملوك والأقيال ، وأرسل سفراءه يحملون كتبه إلى كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشي وبقية ملوك العرب وأمرائهم على النحو الذى أوضحناه فى الفصل الخاص برسائله ﷺ .

إنه لم يكد يمر العام ويحل شهر ذى القعدة من العام السابع حتى اتخذ رسول الله وصحبه العدة للمسير إلى عمرة القضاء - وتسمى عام القضية - فلما حلق رأسه قال لصحبه : « هذا الذى وعدتكم به » .

ولم يمرّ على صلح الحديبية عامان - وكانت مدة الهدنة عشرة أعوام - حتى نقضتها قريش فكان الفتح الأعظم ، وكانت عدة جيوش رسول الله ﷺ أضعاف عدد من رافقوه فى سفرة الحديبية ، واستسلمت قريش كلها ، وأعلنوا إسلامهم وعلى رأسهم أبو سفيان زعيم قريش وسهيل بن عمرو كبير المفاوضين ومنكر صيغة « بسم الله الرحمن الرحيم » و« محمد رسول الله » وموقع وثيقة الهدنة .

وفى ذلك اليوم - يوم الفتح - أخذ رسول الله ﷺ المفتاح وقال : ادعوا لى عمر بن الخطاب ، فقال : « هذا الذى قلت لكم » .

ولما كان الرسول ﷺ فى حجة الوداع أراد أن ينبه إلى أن هذا النصر كانت بدايته صلح الحديبية ، فوقف بعرفة وقال : « أى عمر ، هذا الذى قلت لكم إني رسول الله ، والله ما كان فتح فى الإسلام أعظم من صلح الحديبية »^(١) .

(١) مراجع صلح الحديبية : السيرة لابن هشام ، السيرة لابن كثير ، تاريخ الإسلام للذهبي (قسم المغازي) ، سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للصالحى ، السيرة الحلبية ، طبقات ابن سعد ، تاريخ الطبرى ، تفسير الطبرى ، السيرة النبوية للطبرى ، عيون الأثر ، البداية والنهاية . ، الكامل لابن الأثير ، الروض الأنف ، صحيح البخارى ، الوثائق السياسية للعهد النبوى لحميد الله .



الفصل الخامس

عهوده ﷺ
مع نصارى الشام ونجران

(١)

عهد الرسول ليوحنا بن رؤبة صاحب أيلة

تعد بلدة أيلة آخر الحجاز وأول الشام ، والبعض يعتبرها من الشام ، فقد اختلف الجغرافيون العرب كثيرا في تبعية البلدان للأقطار ، فهم يعتبرون واحة تيماء من الشام ، وهى تبعد عن تبوك جنوبا بنحو مائتى كيلومتر بمقاييس زماننا .
لقد كانت غزوة الرسول ﷺ في تبوك غزوة شامية ، ولقد منحه الله النصر والفوز فيها ، وانسحبت جيوش الروم شمالا .

يقول ابن هشام : إنه لما انتهى رسول الله إلى تبوك أتاه صاحب أيلة - وكانت غزوة تبوك سنة ٩هـ - على ما هو معروف - فصالحه وأعطاه الجزية ، فكتب له رسول الله ﷺ هذا العهد : (١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمانة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنه بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسيّارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يُمنعوا ماءً بِرِدُونُهُ ، ولا طريقاً يريدونه من بحر أو برّ » .

وفى هذا العهد قد يسر رسول الله على يوحنه صاحب أيلة وأهل أيلة ، ويبدو أنه كان من رجال الدين المسيحي ، ولرسول الله ﷺ معاملة متميزة مع رجال الدين النصارى ، حدث هذا مع صاحب أيلة ذلك الذى نتحدث عنه ، وحدث ذلك أيضا

(١) السيرة النبوية ٥٢٦/٢ وزاد المعاد ٧/٣ والوثائق السياسية ، ص : ١١٧ ، ١١٨ .

مع أهل (مقنا) الذين هم موضوع حديثنا بعد قليل ، وحدث أيضا مع نصارى نجران في مشاهدتهم وفي غيابهم .

لقد كان الرسول ﷺ كريما - كالعهد به - في تعامله مع أهل أيلة وصاحبها من خلال هذا العهد ، فلم يكتف بإعطاء العهد على ما في البر وحسب ، بل شمل العهد سفنهم في البحر ، وشمل من كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، لقد تعهد رسول الله ﷺ بأمانهم في طرق البر وطرق البحر ، وحذرهم بوضوح من نقضهم عهده .

(٢)

معاهدته ﷺ مع أهل مقنا

مقنا - بفتح الميم وسكون القاف - : بلدة على خليج العقبة بجوار أيلة ، ولقد أعطاها رسول الله ﷺ عهدا فيه مزيد من التفصيل بالقياس إلى ذلك الذي أعطاه لأهل أيلة ، ذلك أن أهل مقنا فيما يبدو قد صدرت عنهم بعض المشاحنات مما يفهم من نص عهد رسول الله لهم .

لقد كتب هذا العهد في نفس الوقت الذي كتب فيه عهد أهل أيلة ، وكان ذلك سنة ٩ هـ وقد أملاه رسول الله ﷺ على علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وهذا هو نص العهد :

« من محمد رسول الله إلى بني جَنْبَة وإلى أهل مقنا .

أما بعد : فقد نزل على آيتكم راجعين إلى قريبتكم ، فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون ، لكم ذمة الله وذمة رسوله ، وإن رسوله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم ، وإن لكم ذمة الله وذمة رسوله ، لا ظلم عليكم ولا عدى ، وإن رسول الله جار لكم مما منع منه نفسه .

فإن لرسول الله بَرَكَم وكل رقيق فيكم والكراع والحلقة (*) ، إلا ما عفا عنه رسول الله

(*) الحلقة : الماشية .

أو رسول رسول الله ، وإن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخلكم ، وربع ماصادات عروكم (*) ، وربع ما اغتزل نساؤكم ، وإنكم برئتم بعد من كل جزية أو سخرة ، فإن سمعتم وأطعتم ، فإن على رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم .

أما بعد : فيل المؤمن والمسلمين : من أطلع أهل مقنا بخير فهو خير له ، ومن أطلعهم بشر فهو شر له .

وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم ، أو من أهل رسول الله ، والسلام » (١) .

لقد تميزت هذه المعاهدة بعدة عناصر جعلت أهل مقنا متميزين على غيرهم ممن حظوا بعهود من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مثل قوله الشريف : « وإن رسوله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم » ومثل حص المسلميين على الإحسان إليهم ، والتحذير من الإساءة إليهم ، وذلك في قوله ﷺ : « من أطلع أهل مقنا بخير فهو خير له ، ومن أطلعهم بشر فهو شر له »

وقد زادهم الرسول ﷺ تكريما في أن جعل أميرهم منهم أو من أهل رسول الله ، وذلك في آخر مواد المعاهدة : « وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل رسول الله »

(٣)

معاهدته ﷺ مع نصارى نجران

إذا كانت كل من المعاهدتين السابقتين قد تضمنت الكثير من سماحة رسول الله ﷺ وكرمه وتيسيره على كل من أطراف المعاهدتين ، فإن معاهدته ﷺ مع نصارى نجران قد أترعت كرما وملئت سماحة وفاضة فضلا ، فقد منحهم ﷺ من الفضل والإكرام ما قد يعجزون هم أنفسهم عن أن يقدموه لأنفسهم ، لقد منحهم السماحة والتسامح ووهبهم الكرم والتكريم ، وخلع عليهم العفو والمعروف ، ولعل قوله ﷺ

(*) العروك : صياد السمك

(١) الوثائق السياسية ، ص : ١٢٠ ، وإمتاع الأسباع للمقرئى ٤٣٩ / ١ ، ومغازى الواقدي ٣ / ١٦٠ .

الذى جمع بين البلاغة والسباحة المتضمنتين في المعاهدة هو أوضح بيان لموادها . وهذا هو نص المعاهدة (١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب محمدُ النبي رسول الله ﷺ لأهل نجران : إذا كان عليهم حُكْمُهُ في كل ثمرة ، وفي كل صَفراءَ وبيضاءَ ورقيق ، فأفضلَ ذلك عليهم ، وتركَ ذلك كله لهم ، على ألفي حُلَّةٍ من حُلَلِ الأواقي : في كل رَجَبِ ألف حُلَّةٍ ، وفي كل صَفَرِ ألف حُلَّةٍ ، كل حُلَّةٍ أوقية من الفضة . فما زادت على الخراج ، أو نَقَصَتْ عن الأواقي فبالحساب . وما قَضَوْا من دروع ، أو خيل ، أو ركاب ، أو عروض أُخِذَ منهم بالحساب . وعلى نجران مئةُ رُشْلَى ومعتتهم ، ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك ، ولا تُجَبِّسَ رُشْلَى فوق شهر .

وعليهم عارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين فرساً ، وثلاثين بعيراً ، إذا كان كيد باليمن ومَعَرَّة . وما هلك مما أعاروا رُشْلَى من دروع ، أو خيل ، أو ركاب ، أو عروض ، فهو ضمين على رُشْلَى ، حتى يؤدَّوه إليهم .

ولنجران وحاشيتها ، جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم ، وأنفسهم ، وملَّتْهم ، وغائبهم ، وشاهدهم وعشيرتهم ، وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . لا يُغَيَّرُ أسْقَف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . وليس عليهم رُبِّيَّة ، ولا دُمُ جاهلية . ولا يُجَثَّرُونَ (*) ، ولا يُعَشَّرُونَ ، ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين .

ومن أكل رباً من ذى قُبَلٍ فذمتى منه بريئة . ولا يؤخَذُ رجلٌ منهم بظلم آخر .

(١) الوثائق السياسية ، ص : ١٧٥ ، ١٧٦ ، الوثائق السياسية اليمنية لمحمد بن علي الأكرع ، ص : ٩٤-٩٦ ، إمتاع الأسباع للمقرئ ١ / ٥٠٢ ، السير للشيباني ، باب ماجاء عن النبي وأصحابه في أهل نجران وتغلب ، وزاد المعاد ٤٧ / ٣ .

(*) لايجثرون : يعنى لا يكلفون بالجهاد . ولا يُعَشَّرُونَ ، أى : لا يدفعون الزكاة .

وعلى ما فى هذا الكتاب جوار الله ، وذمة محمد النبى رسول الله ، حتى يأتى الله بأمره ، ما نصّحوا وأصلّحوا ما عليهم ، غير مثقلين بظلم .

شهد أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف من بنى النّصر ، والأقرع بن حابس الحنظلى ، والمغيرة بن شعبة .

وكتب لهم هذا الكتاب عبد الله بن أبى بكر .

لقد أعطى رسول الله ﷺ هذه العهود لنصارى نجران برغم أنهم لم يستجيبوا لعروض الرسول ولم يقبلوا الملائنة التى استعدّ لها الرسول فخرج إليهم بسبويه الحسن والحسين وهما طفلان ومن ورائه فلذة كبده الزهراء البتول فاطمة ، فصاروا بعد ذلك من رعايا الدولة الإسلامية التى يحكمها سيد البشر ، وتحت حمايته .

إن هذه السماحة التى عامل بها الرسول نصارى نجران ، لم يقابلها تسامح ولو لمرة واحدة من نصارى أوروبا منذ أن نما لها ظفر أو نبت لها ناب ، وإن ما فعله نصارى أوروبا بالمسلمين فى الحروب الصليبية أو فى الأندلس أو فى الزمن المعاصر لنا فى فلسطين أو فى البلقان فى ضرب أهل البوسنة والهرسك لما تتقرز له نفس كل من يمتلك قدرا ضئيلا من الإنسانية .

وإن واحدا من أعلام المسلمين المعاصرين يستعرض من المعاهدة بعض فقراتها مثل هذا البند الذى يقرر « أن لنصارى نجران جوار الله وذمة محمد النبى ، على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم . وغائبهم وشاهدتهم ، وعشيرتهم وبيعهم . وألا يغيروا مما كانوا عليه ، ولا يغيّر حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغير أسقف من أسقفيتهم ، ولا راهب من رهبانيتهم ، ولا ما تحت أيديهم من قليل أو كثير .

وليس عليهم ربية ولادم جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطاء أرضهم جيش .

ومن سأل منهم حقاً فيبينهم النّصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا فدمتى منه بريئة ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر .

وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد رسول الله حتى يأتى الله بأمره مانصّحوا وأصلّحوا فيما عليهم غير منقلين بظلم » .

يقول الشيخ محمد الغزالي وقد قرأ هذه الفقرة القصيرة من المعاهدة وقد أترعت سماحة ، وفاضت رحمة ، وتدفت إحسانا : « ونحن نسأل على وجه التحدى : هل عاملت الطوائف المسيحية بعضها بعضا بهذه السماحة الرائعة ؟ أم كان ذلك مسلكا أضاء به الإسلام وحده ظلمات القرون الأولى ؟ »

ويمضى الشيخ الجليل فى وصف موقف هذه القبائل النصرانية من الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ قائلا :

ثم نسأل مرة أخرى : هل احترام أهل الكتاب ماعليهم من واجب ، وهل أنصفوا الدين الذى رعى ذمامهم ؟ .

لقد دخلت السنة العاشرة على الإسلام وهو يبسط تعاليمه على حساب الوثنية المتقلصة ، فإذا بعض القبائل فى الجنوب تنور ضده تحسب أن رجلاً من قريش ملك العرب بادعاء النبوة ، فليس يعجزها أن تقدم من مفاليكها من يزعم النبوة كذلك ؟ ! لعله يملك مثل ما ملك محمد بن عبد الله .

ومن المؤسف أن النصارى فى جنوب الجزيرة ساعدوا فى إشعال هذه الثورات ، وأن نصارى نجران كاتبوا الأسود العنسى فسار إليهم - وهو أحد المتنبئين - ثم رحل عنهم إلى اليمن ، فملكها حتى قتلت امرأته هناك وأراحت الأرض منه .

أكانت هذه الفتن معاونة لنصارى الشمال فى حربهم ضد الإسلام ، أم كانت شغباً يمليه الكره المجرد فحسب ؟ .

وما فعله نصارى نجران فى تأييد الأسود العنسى . فعل مثله نصارى تغلب فى تأييد مسيلمة الكذاب حين ادعى - هو الآخر - أنه نبي .

ونحن نفهم أن يرفض أهل نجران وبنو تغلب الدخول فى الإسلام ، وأن يؤثروا البقاء على ما اقتنعوا به من ديانتهم الموروثة ، لكننا لم نفهم بته أن يكذب رجلٌ بصحف الوحى العالى وأن يؤمن - مثلاً - بالبعكوة .

ذلك إن كانوا قد آمنوا حقاً بالأسود ومسيلمة .
أما إذا كان الأمر لا يعدو الإغانة على حرب الإسلام بأى سلاح ومع أى حليف ،
فهذه مسألة أخرى يختار فى علاجها أطباء القلوب (١) .

(١) فقه السيرة ، للشيخ محمد الغزالي ص : ٤٤٢ ، ٤٤٣ .



الفصل السادس

عهودُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لثقيف - لعمر وبن حزم حين
بعثه إلى اليمن

(١)

عهد رسول الله ﷺ لثقيف

لثقيف موقف غير كريم من رسول الله حين خرج من مكة إلى الطائف مستجيرا بهم ، فكانوا بثس المجير ، وناله ﷺ منهم أذى كبير ، وأمروا صغارهم أن يقدفوه بالحجارة حتى دमित قدماه الشريفتان على ما هو معروف تفصيلا في كتب السيرة .

ثم ازدهرت الدعوة الإسلامية ، وكتب الله النصر لرسوله ، وما فتىء الناس يدخلون في دين الله أفواجا باستثناء بعض القبائل التي كان لا مفر من غزوها حتى تستسلم ومنها ثقيف .

وحين غزا رسول الله ﷺ ثقيفاً لم يجعل لأذاهم له إبان لجوئه إليهم موضعاً ، ولا حاول أن يكون منتقماً منهم أو مضيفاً حساباً قديماً معهم ، فلم تكن هذه الثارات من شمائل محمد الذي لم يكن يرجح سعادته شيء بقدر هداية فرد واحد فضلاً عن هداية جماعة .

لقد غزا النبي ﷺ ثقيفاً ، فلما أن سمع صخر بن العيلة الأحسى بخيل رسول الله ، همّ بالاستعداد لمعاونة جيش رسول الله ، فركب في خيل يمدّ بها جيش النبي ﷺ ولكنه وجد النبي قد انصرف ولم يكمل الفتح ، فعاهد صخر الله ألا يفارق قصره حتى تنزل ثقيف على حكم رسول الله ﷺ فلما نزلوا على حكم رسول الله ، كتب صخر إلى النبي ﷺ مانصه :

« أما بعد فإن ثقيفا قد نزلت على حكمك يارسول الله ، وأنا مقبل إليك وهم في خيل » .

وما أن وصلوا حتى أمر رسول الله ﷺ بالصلاة جامعة ، وجرت مفاوضات انتهت بإسلامهم وعلى كتاب هذا العهد لهم (١) :

(١) بسم الله الرحمن الرحيم .

(٢) هذا كتاب من محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم لثقيف :

(٣) كَتَبَ : إِنَّ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ الذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَذِمَّةَ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ النَّبِيِّ ، عَلَى مَا كَتَبَ لَهُمْ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ :

(٤) إِنَّ وَأَدْيِهِمْ حَرَامٌ لِلَّهِ كُلُّهُ ، عَضَاهُ وَصَيْدُهُ وَظَلَمٌ فِيهِ وَسَرَقٌ فِيهِ أَوْ إِسَاءَةٌ .

(٥) وَثَقِيفٌ أَحَقُّ النَّاسِ بِوَجِّ . وَلَا يُعْبَرُ « طَائِفُهُمْ » وَلَا يَدْخُلُهُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَغْلِبُهُمْ عَلَيْهِ . وَمَا شَاءُوا أَحَدَثُوا فِي « طَائِفِهِمْ » مِنْ بَنِيَانٍ أَوْ سَوَاهٍ بِوَادِيهِمْ .

(٦) وَلَا يَحْشَرُونَ وَلَا يُعْشَرُونَ وَلَا يَسْتَكْرَهُونَ بِهَالٍ وَلَا نَفْسٍ .

(٧) وَهُمْ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، يَتَوَلَّجُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَيْثُ مَا شَاءُوا ، وَأَيْنَ مَا تَوَلَّجُوا وَلَجُوا .

(٨) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَسِيرٍ فَهُوَ لَهُمْ ، هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ حَتَّى يَفْعَلُوا بِهِ مَا شَاءُوا .

(٩) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دَيْنٍ فِي رَهْنٍ فَيُبْلَغُ أَجَلُهُ فَإِنَّهُ لِيَاظ (*) مُبْرَأٌ مِنَ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ دَيْنٍ فِي رَهْنٍ وَرَاءَ عُكَاظٍ فَإِنَّهُ يَقْضَى إِلَى عُكَاظِ بَرَأْسِهِ .

(١٠) وَمَا كَانَ لثَقِيفٍ مِنْ دَيْنٍ فِي صُحُفِهِمْ الْيَوْمَ الَّذِي أَسْلَمُوا عَلَيْهِ فِي النَّاسِ فَإِنَّهُ لَهُمْ .

(١١) وَمَا كَانَ لثَقِيفٍ مِنْ وَدِيعَةٍ فِي النَّاسِ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ غَنِمَهَا مَوْدِعُهَا أَوْ أَضَاعَهَا ، أَلَا فَإِنَّهَا مَوْدَاةٌ .

(١) الوثائق السياسية ص : ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(*) اللياط : الربا .

- (١٢) وما كان لثقيف من نفس غائبة أو مال فإن له من الأمن ما لشاهدهم . وما كان لهم من مال يلية فإن له من الأمن ما لهم بوج .
- (١٣) وما كان لثقيف من حليف أو تاجر فإن له مثل قضية أمر ثقيف .
- (١٤) وإن طعن طاعن على ثقيف أو ظلمهم ظالم ، فإنه لا يطاع فيهم في مال ولا نفس ، وإن الرسول ينصرهم على من ظلمهم والمؤمنون .
- (١٥) ومن كرهوا أن يلج عليهم من الناس فإنه لا يلج عليهم .
- (١٦) وإن السوق والبيع بأفنية البيوت .
- (١٧) وإنه لا يؤمر عليهم إلا بعضهم على بعض ؛ على بنى مالك أميرهم ، وعلى الأحلاف أميرهم .
- (١٨) وما سقت ثقيف من أعناب قريش فإن شطرها لمن سقاها .
- (١٩) وما كان لهم من دين في رهن لم يُلط فإن وجد أهله قضاء قضوا . وإن لم يجدوا قضاء فإنه إلى جمادى الأولى من عام قابل . فمن بلغ أجله فلم يقضه فإنه قد لاطه .
- (٢٠) وما كان لهم في الناس من دين فليس عليهم إلا رأسه .
- (٢١) وما كان لهم من أسير باعه ربه فإن له بيعه . وما لم يبع فإن فيه ست قلائص ، : نصفان حقاق وبنات كبون كرام سمان .
- (٢٢) ومن كان له بيع اشتراه فإن له بيعه .
- إن عهد الرسول لثقيف أقل ما يوصف به أنه يفيض أمنا ، ويموج كرما ، ونحن لا نستطيع أن نفضل بندا من المعاهدة على بند آخر ، وإنما تبقى قمة تكرمهم في قوله ﷺ : « وإنه لا يؤمر عليهم إلا بعضهم على بعض ، على بنى مالك أميرهم ، وعلى الأحلاف أميرهم » .

(٢)

عهد الرسول لعمر بن حزم

حين بعثه إلى اليمن

لقيت اليمن من عناية رسول الله وكرمه أكثر مما لقيه بلد آخر من بلدان الجزيرة ، فقد آثرهم بالعديد من خيرة صحابته رضي الله عنه بعث إليهم على بن أبي طالب ، وبعث إليهم معاذ بن جبل ، وبعث إليهم خالد بن الوليد ، كل يؤدى للإسلام بين ظهرائهم رسالة رفيعة وتوجيهات جليلة .

حتى أهل الكتاب من أهل اليمن لم يتوان رسول الله عن استقبالهم في المدينة ، والأمر بإعداد المأوى المريح ، والإقامة الكريمة ، ثم الجدل بالحسنى ، وأمرهم أن يعودوا محافظين على دينهم في سراحة وتكريم .

وأما بنو الحارث بن كعب الذين يخصهم هذا العهد الشريف فهم من أهل نجران وقد بعث رسول الله ﷺ إليهم خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر سنة عشر ، وقيل : في جمادى الأولى ، فأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثا ، فإن استجابوا قبل إسلامهم ، وإن لم يفعلوا قاتلهم . وكانوا أولى عزم وبسالة في القتال ، غير أنهم ما كادوا يسمعون رجال خالد يدعوهم إلى الإسلام حتى أجابوا ودخلوا فيما دعوا إليه ، فأقام فيهم خالد يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ، وكتب خالد إلى رسول الله ﷺ يسأله التوجيه ، فأجابه رسول الله بأن طلب إليه العودة إلى المدينة ، وأن يستصحب معه وفدهم ، فأقبل خالد إلى رسول الله وأقبل معه وفد بنى الحارث بن كعب ، منهم قيس ابن الحصين ذو الغصة ، ويزيد بن عبد المدان ، ويزيد بن المحجل ، وعبد الله بن قراد الزيادى ، وشداد بن عبد الله القناني ، وعمر بن عبد الله الضبابى .

وحين شرفوا بلقاء الرسول ﷺ أجرى معهم حوارا سماته الجدة وشيء من الخشونة ؛

لأنهم - فيما يبدو - كانوا قد تأخروا عن الدخول في دين الله وقاوموا الدعوة أول عهدهم بها .

يقول ابن هشام : (١) .

فلما قدموا على رسول الله ﷺ فرآهم ، قال : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟ قيل : يارسول الله ، هؤلاء رجال بنى الحارث بن كعب ؛ فلما وقفوا على رسول الله ﷺ سلّموا عليه ، وقالوا : نشهد أنك رسول الله ، وأنه لا إله إلا الله ؛ قال رسول الله ﷺ : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، ثم قال رسول الله ﷺ : أنتم الذين إذا رُجروا استقدموا ؟ فسكتوا ، فلم يراجعهم منهم أحد ، ثم أعادها الثانية ، فلم يراجعهم منهم أحد ، ثم أعادها الثالثة ، فلم يراجعهم منهم أحد ، ثم أعادها الرابعة ، فقال يزيد بن عبد المّدان : نعم ، يارسول الله ، نحن الذين إذا رُجروا استقدموا ، قالها أربع مرار فقال رسول الله ﷺ : لو أن خالدًا لم يكتب إلى أنكم أسلمتم ولم تُقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم ؛ فقال يزيد بن عبد المّدان : أما والله ما محمدناك ولا محمدنا خالدًا ، قال : فمن جحدتم ؟ قالوا : حمدنا الله - عز وجل - الذي هدانا بك يارسول الله ؛ قال : صدقتم . ثم قال رسول الله ﷺ : بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا : لم نكن نغلب أحدا ؛ قال : بلى ، قد كنتم تغلبون من قاتلكم ؛ قالوا : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله إنا كنا نجتمع ولا نفترق ، ولا نبداً أحدا بظلم ؛ قال : صدقتم وأمر رسول الله ﷺ على بنى الحارث بن كعب قيس بن الحُصين .

فرجع وفد بنى الحارث إلى قومهم في بقية من شوال ، أو في صدر ذى القعدة ، فلم يمكنوا بعد أن يرجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر ، حتى تُوفّي رسول الله ﷺ ورحم وبارك ، ورضى وأنعم .

لقد نصّب رسول الله على بنى الحارث بن كعب واحدا منهم مثلما فعل الصنيع نفسه مع ثقيف ، وتلك قمة الكياسة ولب السياسة ، ثم أرسل معهم الصحابي

(١) السيرة ٥٩٤/٢ وما بعدها .

الجليل عمرو بن حزم ليفقههم في الدين ويعلمهم معالم الإسلام وسنة رسول الله ،
ويأخذ صدقاتهم ، وزوده بهذا العهد :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

هذا بيان من الله ورسوله ، يأياها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، عهد من محمد النبي رسول الله لعمرو بن حزم ، حين بعثه إلى اليمن ، أمره بتقوى الله في أمره كله ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله ، وأن يبشر الناس بالخير ، ويأمرهم به ، ويعلم الناس القرآن ، ويفقههم فيه ، وينهى الناس ، فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر ، ويخبر الناس بالذي لهم ، والذي عليهم ، ويلين للناس في الحق ، ويشدد عليهم في الظلم ، فإن الله كره الظلم ، ونهى عنه ، فقال : « أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » ، ويبشر الناس بالجنة ويعملها ، ويُنذِر الناس النار وعملها ، ويستألف الناس حتى يفقهوا في الدين ، ويعلم الناس معالم الحج وسنته وفريضته ، وما أمر الله به ، والحج الأكبر : الحج الأكبر ، والحج الأصغر : هو العمرة ؛ وينهى الناس أن يصلي أحدًا في ثوب واحد صغير ، إلا أن يكون ثوبا يثنى طرفيه على عاتقيه ؛ وينهى الناس أن يحتبى أحد في ثوب واحد يُفضى بفرجه إلى السماء ، وينهى أن يعقص أحد شعر رأسه في قفاه ، وينهى إذا كان بين الناس هَيْج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، وليكن دعواهم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له ، فمن لم يدع إلى الله ، ودعا إلى القبائل والعشائر فَلْيُقْطَعُوا بالسيف ، حتى تكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له ، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين ويمسحون برءوسهم كما أمرهم الله ، وأمر بالصلاة لوقتها ، وإتمام الركوع والسجود والخشوع ، ويُغْلَسُ بالصبح ، ويهَجَّرُ بالهاجرة حين تميل الشمس ، وصلاة العصر والشمس في الأرض مدبرة ، والمغرب حين يقبل الليل ، لا يؤخر حتى تبدو النجوم في السماء ، والعشاء أول الليل ؛ وأمر بالسعى إلى الجمعة إذا نودى بها والغسل عند الرواح إليها ؛ وأمره أن يأخذ من المغانم خمس الله ؛ وما كُتِبَ على

المؤمنين من الصدقة من العقار عُشْرُ ما سَقَّت العين وسقت السماء ، وعلى ماسقى الغرب(*) نصف العُشر ؛ وفي كلِّ عشر من الإبل شاتان ، وفي كلِّ عشرين أربع شياه ، وفي كلِّ أربعين من البقر بقرة ، وفي كلِّ ثلاثين من البقر تبيع ، جَذَعُ أو جَذَعَة ، وفي كلِّ أربعين من الغنم سائمة وحدها ، شاة ، فإنها فريضة الله التي افترض على المؤمنين في الصدقة ، فمن زاد خيرا فهو خير له ؛ وأنه من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاما خالصا من نفسه ، ودان بدين الإسلام ، فإنه من المؤمنين ، له مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يُردُّ عنها ، وعلى كلِّ حالم : ذكر أو أنثى ، حُرٌّ أو عبد ، دينارٌ وافرٌ أو عوضه ثيابا .

فمن أدَّى ذلك ، فإن له ذمَّة الله وذمَّة رسوله ، ومن منع ذلك فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعا ، صلوات الله على محمد ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

وهذا العهد الذى أخذه ﷺ لعمر بن حزم من دقة الصوغ والاشتغال على توجيهات رسول الله ﷺ ما يجعله أهلا لأن يصدر عن أفصح الفصحاء الذى لا ينطق عن الهوى ، فما أجهل وما أجَلَّ أن يصدر العهد بالقول الكريم ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ ثم ترى بعد ذلك التوجيهات النبوية فيضا يغمر النفوس بالإيمان ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

ويتضمن العهد توجيهات بدیعة التسلسل ، استهلالها أن يبشر بالخير ويأمر به ، ثم تعليم القرآن الكريم الذى هو مفتاح التوحيد ، وأن يلين فى الحق ، ويشدد إذا ظلموا ، ويبشر بالجنة وينذر بالنار ، وأن يتألف قلوب الناس حتى يقبلوا عليه فيحسنوا الأخذ منه ، ثم يبصرهم بأمور دينهم من صلاة وحج ووثام ، وأن يعلمهم الطهارة والوضوء والصلاة ومواقيتها ، وألا ينسوا الجمعة وصلاتها والتطهر قبل الذهاب إليها ، ثم يفصل لهم الزكاة والصدقات تفصيلا لا يحتاج بعده إلى شرح أو بيان .

(*) الغرب : الدلو العظيم .

لقد كان هذا العهد من أواخر العهود التي صدرت عن رسول الله ﷺ إن لم يكن آخرها ، وفيه يبدو تمام الدين وكماله ، فقبل ذلك بعشرة شهور كان قد نزل قول الله عز وجل :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ ﴾



خطب الرسول ﷺ

- الفصل الأول : الخطابة قبل الإسلام .
- الفصل الثاني : خطب الدعوة إلى الله .
- الفصل الثالث : في فتح مكة وبعض الغزوات .
- الفصل الرابع : حجة الوداع وخطبة الوداع .



الفصل الأول

الخطابة قبل الإسلام

الخطابة العربية قبل الإسلام

كانت الخطابة عند العرب قبل الإسلام متألفة مستتمة أسباب البلاغة كاملة عناصر الفصاحة ، وكان للخطيب مكانة ربما رجحت مكانة الشاعر ، ذلك أن الخطيب يرتجل خطبته على السليقة وهو مستعد دائما لارتقاء المنابر ونثر درر الكلام وفيض الفكر، بينما يحتاج الشاعر إلى تحبير وإعداد .

وكانت الخطابة متنوعة الأسباب متعددة الأغراض ، وكانت أكثر موضوعاتها هي موضوعات الشعر نفسه ، مثل المدح والذم للأشياء والقضايا ، والمفاخرة ، والمنافرة ، والمجادلة والنصح ، وإشعال الحروب ، واستثارة الهمم ، ودفع العزائم والتحكيم في الخصومات واحتمال الديات ، ورعاية الجار ، كما كانت للخطابة موضوعات أخرى كالوفود على الملوك والأمراء المجاورين ، والسفارات ، مثل وفود قس بن ساعدة على قيصر . ووفود قيس بن رفاعه على النعمان بن المنذر في الحيرة ، وعلى الحارث بن أبي شمر في جلق ، ووفود أبي سفيان على كسرى ، ثم وفوده على قيصر وما جرى بينهما من حوار حول رسالة محمد ﷺ الذي انتهى بأن تنبأ قيصر بانتصار رسالة الإسلام طبقا لما أشرنا إليه في موضع سابق من هذا الكتاب ، وقد كانت هناك أيضا خطب يلقيها الخطباء في مناسبات الزواج .

ومن مشاهير خطباء العرب في الجاهلية قس بن ساعدة الإدياي الذي يصفه الجاحظ بأنه من الشعراء الخطباء الأبياء ، كما وصفه بأنه خطيب العرب قاطبة (١) ، وكعب بن لؤي الذي أرخ العرب بموته إلى أن جاء عام الفيل فأرخوا به ، وقيس بن سنان خطيب داحس والغبراء ، وخويلد بن عمر الغطفاني خطيب يوم الفجار ، وأبو طالب عم رسول الله ﷺ .

(١) البيان والتبيين ١ / ٥٢ .

فأما قس بن ساعدة فلقد شرفه رسول الله ﷺ بذكره والثناء عليه فقال : « رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت » .

وهو القائل : « آيات محكمات ، مطر ونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، ضوء وظلام ، وبرّ وأثام ، لباس ومركب ، ومطعم ومشرب ، ونجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج ، مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ؟ أم حبسوا فناموا ؟ » .

وهو القائل : « يا معشر إباد ، أين تمود وعاد ؟ أين الآباء والأجداد ؟ أين المعروف الذى لم يشكر ؟ والظلم الذى لم ينكر ؟ أقسم قسّ قسما بالله إن الله دينا هو أرضى من دينكم هذا » (١) .

ومن مشاهير الخطباء الجاهليين الذين أدركهم الإسلام فآمنوا سهيل بن عمرو بن عبد شمس ، وهو الذى تولى أمر الصلح بالحديبية ، وكان عمر بن الخطاب قد طلب أن ينزع ثنييه السفليين حتى يدلع لسانه ، فلا يقوم خطيبا بعد ذلك على رسول الله ، ولكنه أسلم وكان من المؤلفة قلوبهم .

ومن مآثر رسول الله ﷺ فى شأن سهيل أن عمر بن الخطاب حين استأذن رسول الله ﷺ فى أن ينزع ثنييه أجابه الرسول : دعها فلعلها تسرك يوما ، فلما مات النبى ﷺ قام سهيل بن عمرو فقال : « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » (٢) .

ومنهم عمرو بن الأهتم أحد وفد تميم على رسول الله ﷺ فى عام الوفود ، وهو الذى أعجب رسول الله ﷺ بنصاعة بيانه حين سأله عن الزبرقان بن بدر ، وهما ممن نادوا الرسول الكريم من وراء الحجرات ، وخبر ذلك قصة لطيفة يسمح المجال هنا بذكرها ، فقد سأل الرسول ﷺ عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر - وكانا ماثلين فى حضرة

(١) البيان والتبيين ١ / ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٥٨ ، وقد نسب آخرون هذا القول لأبى بكر .

الرسول - فقال عمرو : « مانع لحوزته ، مطاع في أدنيه » فقال الزبرقان غاضبا : « أما إنه قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدني شرفي » فقال عمرو : « أما إن قال ما قال ، فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر ، زمر المروءة - يعنى قليلها - لثيم الخال ، حديث الغنى ، فلما رأى - يعنى عمرو - أنه خالف قوله الآخر قوله الأول ورأى الإنكار في عيني رسول الله ، قال : يا رسول الله : رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الآخرة . فقال رسول الله ﷺ : « إن من البيان السحرا » .

إن الجاحظ ينسب إلى كل من إياد - قبيلة قس بن ساعدة - وتميم - قبيلة - عمرو بن الأهتمام - أن لهما في الخطب خصلة ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله ﷺ هو الذي روى كلام قس ، ولأنه ﷺ علق على كلام عمرو بن الأهتمام بقوله الشريف : « إن من البيان لسحرا » وفي مكان آخر من كتابه يقول الجاحظ : فهاتان الخصلتان خصت بهما إياد وتميم دون جميع القبائل (١) .

لقد كان النبوغ في الخطابة مصدرا من مصادر شرف القبائل يتغنى به شعراؤها في مفاخرهم ، مثل قول قيس بن عاصم المنقري يذكر محاسن قومه في الخطابة ، وبنو منقر بطن من تميم (٢) .

دَنَسٌ يَفْنَدُهُ وَلَا أَفْنُنُ	إِنِّي أَمْرٌ لَا يَعْتَرِي خَلْقِي
الأَصْلُ يَنْبِت حَوْلَهُ الْغُصْنُ	من منقرٍ في بيت مكرمة
بيض الوجوه مصابغٌ لُسْنُ	خطباء حين يقوم قائلهم
وهم لحفظ جوارهم فُطْنُ	لا يفتنون لعيب جارهم

وكان حسان بن ثابت يفخر بالبلاغة في الخطابة بخاله مسلمة بن خلد الصامت ، وبجده المنذر بن حرام ، في قوله : (٣)

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

(٢) عيون الأخبار ١ / ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٣) الديوان : القصيدة رقم ٥ .

إن خالى خطيب جابية الجو لان عند النعمان حين يقوم
وأبى فى سميحة القائل الفا صل يوم التفت عليه الخصوم (*)

وإذا كانت خطبة قس بن ساعدة قد عُدَّت أشهر خطب الجاهلية ، فإن المبرد يعد خطبة أبى طالب عم رسول الله ﷺ يوم عقد قران رسول الله على أم المؤمنين خديجة من أقصر خطب الجاهلية (١)، وسبب ذلك أن العرب كانوا يطيلون حين يخطبون فى مناسبات الزواج . يقول الخريمى الشاعر الأديب البلاغى الناقد : والسنة فى خطبة النكاح أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب (٢).

وإن خطب النكاح تعد من أصعب الخطب ، ومن ثم لم يكن يتقنها إلا الخطباء . البلغاء ذوو الحدق والفصاحة ، وكان عمر بن الخطاب - على فصاحته وتذوقه لجميل الكلام - يقول : ما يتصعدنى كلام كما تتصعدنى خطبة النكاح (٣) مما يعنى أن خطبة النكاح تشق على الخطيب ، ويصعب إنشاؤها على البلغاء ، وبرغم ذلك الذى ذكر عن صعوبة هذا النوع من الخطب نجد أن أبا طالب قد أنشأ خطبته فى مناسبة شريفة فى غير ما سرف فى القول أو مبالغة فى الكلام ، ودبجها فى ثوب من أناقة التعبير وسداد الحكمة ، ونصاعة البيان .

ولعل من الخير أن نختم تناولنا المقتضب للخطابة فى الجاهلية بهذه الخطبة البليغة الهاشمية القرشية ، وفيها يقول أبو طالب :

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس ؛ ثم إن محمد بن عبد الله - ابن أخى - من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه براً وفضلاً ، وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونبلاً ، وإن

(*) النعمان : هو النعمان بن الحارث الغسانى . سميحة : بئر بالمدينة احتكم عندها الأوس والخزرج إلى المنذر بن حرام .

(١) الكامل ٤ / ٤ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ١١٧ .

(٣) المصدر السابق ١ / ١١٨ .

كان في المال قلّ ، فإنما المال ظل زائل ، وعاريّة مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتكم من الصداق فعلىّ .

إن البلاغة العفوية واضحة المعالم في الخطبة من أولها إلى آخرها ، وإن محمدا الشاب الذي لم يكن قد تجاوز نصف عقد العشرينيات من عمره المبارك قد صورته عمه أدق صورة وأصدقها في سجع عفوى في كلمات « الفضل » و « العقل » و « النبل » فضلا عن أن صفات الفضل فيه جاءت مقرونة بالبر ، والعقل مقرونا بالكرم ، والنبل مقرونا بالمجّد ، ومن ثم فهو يرجح جميع فتیان قريش وسائر شبابها ، لقد عدد أبو طالب كل هذه المحامد في سطور معدودة ، ولكنها على قصرها فاقت مثيلاتها من خطب النكاح الطوال .



الفصل الثاني

خطب الدعوة إلى الله

خطابة رسول الله في الدعوة إلى الله

رسول الله ﷺ هو أبلغ العرب وأفصح قريش ، تنثال المعاني الرفيعة من فمه الكريم انثيال السيل ، لا يدانيه في ذلك قائل ، ولا يباريه خطيب وهو هكذا في كل حالاته ، سواء أقال كلاما مرسلأ أم اعتلى منبرا للخطابة ، أم حاور محدثيه ، أم أملى مستكثيه .

وبلاغة رسول ﷺ جاءت وراثته واكتسابا ، وراثته من بلاغة بنى هاشم في قريش ، واكتسابا من بنى سعد الذين استرضع في باديتهم ، وما زاد فضله في البيان أنه علم ألسنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها في منزع بلاغتها ، ولذلك كان ﷺ يقول : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت في بنى سعد » وقد سأله يوما أبو بكر عن سر فصاحته بقوله : ما رأينا الذي هو أفصح منك . فأجاب ﷺ قائلا : « وما يمنعني وقد نزل القرآن بلساني ، لسان عربى مبین » .

يقول ابن قتيبة في صفة خطب رسول الله ﷺ : تتبععت خطب رسول الله ﷺ فوجدت أوائل أكثرها « الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .

ويمضى ابن قتيبة في صفة خطب رسول الله ﷺ قائلا : ووجدت في بعضها : «أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته ووجدت كل خطبة مفتاحها الحمد إلا خطبة العيد فإن مفتاحها التكبير ، وتكبير الإمام قبل أن ينزل عن المنبر أربع عشرة تكبيرة» (١) .

(١) عيون الأخبار ٢ / ٢٣١ .

وأما صفته ﷺ حين يخطب فكان طبقاً لرواية جابر بن عبد الله : « إذا خطب أحمرته عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه حتى كأنه نذير جيش يقول : صباحكم ومساءكم ، ثم يقول : «بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويفرق بين أصبعيه السبابة والوسطى» (١) .

وكان ﷺ ينفر من الكلام الذى يتسم بالتصنع ، ولا يرتاح إلى السجع الذى يجافى الطبع . ويؤذى السمع ، وقد ضاق ذرعاً - على الرغم من حلمه الواسع - برجل قال كلاماً يستغرب فيه دية حكم بها رسول الله ﷺ لامرأة ضربتها ضرته وكانت حاملاً فأسقطت جنينها ، وكان الرجل - واسمه العلاء بن مسروح - وكان أخاً للمرأة الضاربة . قال ابن مسروح للرسول ﷺ : يا رسول الله : كيف ندى - أى : ندفع دية - من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهّل ، فمثل هذا يطل ؟ فقال - عليه السلام - : «أسجعا كسجع الجاهلية ؟» وفى رواية : «أسجعا كسجع الكهان ؟»

من البداهة بمكان أن قوله ﷺ لا يفيد باستكراه السجع ؛ لأن السجع ضرب من القول الجميل يزين الكلام ، ويريح الأسماع ، وكلامه ﷺ فيه سجع كثير جميل ، مثل قوله : «أيها الناس : أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام . تدخلوا الجنة بسلام» وإنما قصد الرسول بسجع الجاهلية أو سجع الكهان ذلك الكلام المتنافر الثقيل على الذوق والسمع وإن اتشح بقوالب السجع والتزم فواصله .

كانت موضوعات خطب رسول الله ﷺ هى كل ما يتعلق بالإسلام نفسه ، وأوها الدعوة إلى الله ، ثم التربية والتنبيه ، والوعظ وغرس التقوى فى نفوس العباد ، والتذكير بمضى الأجل وبزوال الدنيا وحتمية الموت وانتظار الآخرة ، وذكر الفرائض والعبادات والمحافظة عليها ، وحب الله ، وحب القرآن ، وحب الناس بعضهم بعضاً ، وخطبه فى الأيام العظام مثل دخوله المدينة ، وفتح تبوك ، وفتح مكة ، وعند المشاعر ، وخطبة الوداع التى ضمنها وأكد فيها على الحلال والحرام ، وإصدار الأحكام .

(١) أمثال الحديث للرامهرمزي ص : ١٩ .

الدعوة إلى الله :

لقد أثر عن رسول الله ﷺ كثير من الخطب في هذا المقام اتسمت بالقصر ، واختصت بالعمق والتركيز ، وتميزت بالتدرج في مضامينها .

كانت أولى هذه الخطب يوم أن نزل عليه قوله تعالى :

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(١).

فقال : « يا معشر قريش : اشترؤا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا بني عبد المطلب ، لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئا ، يا صفية عمة رسول الله ، لا أغني عنك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت رسول الله ، سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئا » البخاري . ٤٠٨ / ٨ ، ومسلم ١ / ١٣٢ .

ولأن هذه الخطبة هي أولى خطبه ﷺ فقد عمد فيها إلى الخطاب المباشر موجهها إياه إلى عشيرته الأقربين من قريش ، بادئا بالأعم ومتنها بالأخص ، وبالبعيد من العشيرة ، وينتهي بالقریب ، إنه ﷺ يبدأ بقريش على عمومها ، ثم بعمه العباس ، وعمته صفية ، وينتهي بالبنت فاطمة صغرى بناته ، وأقربهن إلى قلبه ، وأشبههن به خلقا وخلقا ، يحذرهم جميعا بأبلغ عبارة ، وبأعمق ما يحذر به المرء أمرا آخر أثيرا لديه ، مرددا ذلك التحذير البليغ « لا أغني عنك من الله شيئا » إنها دعوة الإيمان بالله التي تنجي من عذاب الآخرة وعقابها ، وتحض على صلاح الدنيا وعمرانها .

وتستمر استجابته ﷺ للأمر الإلهي ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ فيوسع دائرة النداء من إنذار أقرب الأقربين إلى الأقربين من بطون قريش ، وإذا كان النداء في الخطبة السابقة قد بدأ بالأقرب وهم قريش ، ثم بالأشد قربا وهما العم والعمة ، ثم بالأصق به ﷺ وهي فاطمة ، فإن النداء هذه المرة يبدأ بالأقرب من العشيرة ، ثم

(١) الشعراء ، الآية : ٢١٤ .

بالقريب البعيد، ثم بالقرب الأكثر بعدا ، وهم على الترتيب بنو عبد المطلب ثم بنو فهر ، ثم بنو كعب ، لقد صعد النبي ﷺ هذه المرة جبل الصفا ثم نادى :

« يا صباحاه : فاجتمع الناس عليه ، فقال : يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى كعب ، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم . أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا ، قال : إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » البداية والنهاية ٣ / ٣٨ .

إنه لما كانت قريش تثق في صدقه ﷺ وأمانته حتى إنها لقبته بالأمين ، فقد جعل الرسول مدخله في توجيه الإنذار إليهم من هذا الباب المأمون ، إذ قد امتحن إيمانهم بصدقه ، فلما أجابوا بنعم ، قال على الفور : « إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . ولأول مرة يذكر التحذير مقرونا بالعذاب ، وكان قبل ذلك في الخطبة السابقة مجرد تحذير لأهله الأقربين بأنه لا يغنى عنهم من الله شيئا .

ثم كانت بعد ذلك الخطبة الثالثة ، خطبة المواجهة الصريحة ، والمكاشفة الواضحة ، والدعوة الفاصلة .

لقد حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كَذَّبْتُ الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم .

والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة .

والله لَتَمُوتُنَّ كما تنامون ، وَلَتُبْعُنَّ كما تستيقظون ، وَلَتَحَاسِبُنَّ بما تعملون ، وَلَتَجْزُونَ بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا .

وإنها لجنَّةٌ أبدآ ، أو لنازٌ أبدآ » .

إن الشأن في هذه الخطبة يختلف عنه في سابقتها ، لقد بدأ ﷺ في الأولى موجها الإنذار بادئا بالأعم ومنتهيا بأخص الأخص وهي ابنته فاطمة البتول التي وضعها في موقف أبوة حانية بأنها بضعة منه « فاطمة بضعة مني » محذرا إياها بأنه - برغم

كرامته على الله - لا يغنى عنها منه شيئا ، وينسحب هذا التحذير تلقائيا على الآخرين .
وفي الخطبة الثانية كان خطابه ﷺ موجها إلى الأخص ثم الأعم ، مع إنذار شديد
الاعتصاب ، ولكنه مخيف لأنه تحذير بشديد العذاب .

أما هذه الخطبة فإنها تتميز بالمحتوى الزاخر ، والإيجاز البليغ ، والإعجاز المبهر ،
لقد انطلقت الخطبة من فمه الشريف حاملة أربعة عناصر ، يتلو الواحد منها الآخر ،
بفصحة كلها عن جوهر الرسالة السماوية التي أنيط بمحمد ﷺ أمانة إبلاغها للعشيرة
الأقربين في إطار من الإنذار الذي أهّل محمداً ﷺ للتبليغ به بالصيغة التي يراها مجدية
ثمرة .

كان العنصر الأول هو ذلك المدخل المتسم بالنقاء الذي يحمل سمات الحب
والتحجب إلى قومه ، واجتذاب مزيد من ثقتهم بما يقول ، وما أنفس ما يقول . « والله لو
كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم » .

ثم كان العنصر الثاني وهو التالى من حيث المنطق والعفوية متمثلا في الإبلاغ
الصريح بالرسالة « والله الذى لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس
كافة » .

ثم أطلق الرسول ﷺ العنصر الثالث بما يشبه الصدمة المنبهة من الغفلة ، المفيقة من
الضلال بحديث الموت المحتم ، والبعث ثم الحساب ، والثواب والعقاب .

ثم كان العنصر الرابع وهو الحاسم القاطع بأن المصير هو الخلود في الجنة
للمستجيبين ، والخلود في النار للمنكرين .

بعد هذه الخطبة بدأ الرسول ﷺ طريق الكفاح في سبيل الدعوة ، مواجهها من
الإنكار والاضطهاد ما تعجز عن تحمله كواهل ذوى العزم من الرجال ، فلم يستسلم
ولم تفتر له عزيمة ، ولم تَلْنْ له قناة حتى كان نصر الله .

الوعظ والتربية والتوجيه :

كان رسول الله ﷺ معلم هذه الأمة الإسلامية ، والأخذ بيدها إلى مسالك الهدى

والنور ، وواضعها على المحجة البيضاء ، الأمر بإذن من الله باتباع المعروف والنهي عن المنكر ، المبين لشرعية الله ، الشارح لكتاب الله ، المظهر للأحكام ، الموضح للعبادات ، الفاصل في المشكلات ، وحلال المعضلات ، القدوة للناس من شيوخ وشباب وذكور وإناث ، فكانت مدرسة محمد من صنع يده . وجماعة الإيمان من غرس يديه .

لقد كان ذلك كله حصاد أقواله المرسله ، وخطبه الأسرة ، وأفعاله المقررة ، ولقد حملت خطبه ﷺ قدرا كبيرا من هذه الأغراض ، وكان للوعظ والتوجيه والتربية القسط الأكبر والنصيب الأوفى ، فمن هذا الطراز هذه الخطبة الشاملة التي يذكر فيها رسول الله سائر الناس بالموت وحقيقته ومخلفاته ، والانشغال بعيب المرء عن عيوب الناس ، وبال دعوة إلى الكسب الحلال ، ومجالسة أهل العلم ، ومخالطة الفقراء والمساكين ، وإنفاق الفضل من المال ، وإمسك الفضل من القول ، والتزام السنة ، واجتناب البدعة .

لقد طرق رسول الله ﷺ هذه الموضوعات في خطبة شهيرة ، تتسابق معانيها إلى القلوب فتفتحهما في رضى ويسر ، وتتراكض أحكامها لتصافح الأسماع بأرق أسلوب ، وأدق معنى ، وأصدق قول . وأنصح بيان . قال ﷺ : (١)

« أيها الناس : كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب ، وكأن الذى نشييع من الأموات سَفَرٌ عما قليل إلينا راجعون ، نبوئهم أجداثهم ونأكل من ترائهم ، كأنا مخلصون بعدهم ، ونسينا كل واعظة ، وأمیناً كل جائحة .

طوبى لمن شغله عيئه عن عيوب الناس ، طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة ، طوبى لمن زكت وحسنت خليقته ، وطابت سريرته ، وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته الشنة ، ولم تستهوه البدعة » (*) .

(١) صبح الأعشى ١ / ٢١٣ وجمهرة خطب العرب ١ / ٥٢ ، وأعلام النبوة ١٦٧ .

(*) الجائحة : الهلاك . طوبى : مؤنت أطيّب ، ومن معانيها : الحسن والخير ، وشجرة في الجنة ، والجنة .

وفي الغرض السابق ، والحض على التعامل مع الحياة كأنسب ما يكون التعامل التنبيه إلى أن الأيام تطوى ، والأعمار تفتنى ، مما يدفع بالرجل الحصيف أن يكثر من الأعمال الباقيات الصالحات ، وينأى بنفسه عن الشهوات ، فالعمر سريع المضي ، والموت وشيك القدوم ، فمن أقواله عليه السلام في هذا المقام ما قاله في إحدى خطبه (١).

« ألا إن الأيام تطوى ؛ والأعمار تفتنى ، والأبدان في الثرى تبلى ، وإن الليل والنهار يتراكمضان تراكمض البريد ، يقربان كل بعيد ، ويخلقان كل جديد ، وفي ذلك - عباد الله - ما ألهى عن الشهوات ، ورغب في الباقيات الصالحات » .

ولما كانت الحياة والموت هما محور عناية رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوجيه والتنبيه والتحذير؛ لأن الدنيا دار الفناء ، والحياة فيها محدودة ، والآخرة هي دار البقاء ، والحياة فيها مخلدة ، ولما كان زاد الآخرة محمولا من الدنيا قبل الموت ، وحصاده في الدار الآخرة ، وفيها يكون الأجر والثواب على الإحسان ، والمساءلة والعقاب على الإساءة والكفران ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم إشفافا منه على المسلمين ، وخشية منه عليهم من عذاب أليم قد طرق هذا الموضوع مرات عديدة ، وها نحن نستعرض خطبة أخرى له صلى الله عليه وسلم بدأها فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (٢):

« أيها الناس : إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتبهوا إلى نهايتكم ، إن المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به ، وبين أجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ، ومن دنياه لأخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت ، والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت مستعتب ، ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار » (*) .

وفي التحذير من الدنيا يخطب صلى الله عليه وسلم خطبة أخرى طويلة ، يقول عنها الصحابي أبو سعيد الخدري - رضى الله عنه - : إنه صلى الله عليه وسلم بدأها بعد العصر ، وظل على منبره ماضيا في

(١) أعلام النبوة ص : ١٦٧ وأدب الدنيا والدين ، ص ١٤٩ .

(٢) عيون الأخبار ، كتاب العلم والبيان ٢ / ٢٣١ وأدب الدنيا والدين ص : ١٥٣ والبيان والتبيين ١ / ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(*) المعالم : مفردا معلما ، وهو الأثر يستدل به على الطريق .

والمراد : حدود الشريعة المطهرة . استعته : أعطاه العتبي ، وطلب إليه العتبي ، وهى الرضا والصفح .

وعظ الصحابة وتبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم حتى أوشكت الشمس على المغرب ،
وفي هذه الخطبة يحذّر الرسول الناس من الاعتزاز بالدنيا ؛ لأن الله استخلفهم فيها ،
ويحذّره من كيد النساء ، ويحضّهم على قول الحق إذا علمه الفرد غير آبه بالناس أو
خيفة منهم .

وتعد هذه الخطبة التي لم يصل منها إلينا إلا بضعة سطور من أطول خطب النبي ،
بل لعلها أطولها جميعا ، ثم يليها في الطول خطبة الوداع ؛ ذلك لأن خطبه ﷺ اتسمت
بالقصر ، بل إنه قد ذكر بين شأئله ﷺ أنه كان يقصر الخطب ، بل كان يأمر بقصرها
، وهو ما يتضح من أحجام خطبه ﷺ التي نعرضها في هذا الباب ، فإن عمار ابن ياسر
قد تكلم يوما - يعنى خطب - فأوجز ، فقليل له : لو زدتنا ؟ فقال : أمرنا رسول الله ﷺ
بإطالة الصلاة وقصر الخطب (١) .

روى الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري خبر هذه الخطبة فيقول :

خطب رسول الله ﷺ بعد العصر ، فقال : (٢)

« ألا إن الدنيا خضرة حلوة ؛ ألا وإن الله مُستخلفكم فيها ، فَنَظَرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ :
فَاتَّقُوا الدِّنْيَا ، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ .

أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا خَافَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ إِذَا عَلِمَهُ » .

قال : ولم يَزَلْ يَخْطُبُ حَتَّى لَمْ تَبْقَ مِنَ الشَّمْسِ إِلَّا حُمْرَةٌ عَلَى أَطْرَافِ السَّعَفِ ؛
فَقَالَ :

« إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيهَا مَضًى ، إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيهَا مَضًى » .

خطبه في حب الله وحب القرآن وحب الناس بعضهم بعضا :

لرسول الله ﷺ العديد من الأحاديث في حب المؤمنين بعضهم بعضا ، وفي أحاديث
المحبة عند رسول الله ﷺ ترغيب وترهيب ، وإغراء وتخويف ، ترغيب في حب الناس

(١) البيان والتبيين ١ / ٣٠٣ .

(٢) عن إعجاز القرآن للباقلاني ، ص : ١٣٤ وجمهرة خطب العرب ١ / ٥٤ .

وإغراء به ، وترهيب لمن عزف من محبة المؤمنين وتخويف من ذلك ، فمن ذلك قوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

ويقول ﷺ : « والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »
هكذا يربط رسول الله ﷺ المحبة بالإيمان ، فلا إيمان بغير الحب .

ويقول أيضا : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » .

وشبيه بالحديث السابق قوله ﷺ : « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في طاعة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة وأخفاها حتى لا تعلم شاله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » .

وعن حب الله وحب الرسول يروى أنس - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « ثلاث من كنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار »

هذه المعاني في الحب مثلما جاءت مروية في أحاديث الصادق المصدوق ﷺ فقد جاءت أيضا في خطبه ، والحب في هذه الخطبة هو حب الله الذى أحسن كل شيء خلقه ، وحب كتاب الله الذى هو أحسن الحديث ، وحب من أحب الله ، ومن المسلم به أن أول من يحبهم الله هو رسوله وحيبيه ومصطفاه ﷺ ثم سائر المؤمنين . يقول النبي ﷺ : (١)

« إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ؛

(١) الباقلانى ص : ١٣ وجمهرة خطب العرب ١ / ٥٣ .

من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

إن أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينته الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه .

أحبوا من أحب الله ، وأحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقسو عليه قلوبكم . اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا .

اتقوا الله حق تقاته ، وصدقوا صالح ما تعملون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

إن المرء ليحس وهو يستمع إلى خطب رسول الله ﷺ سائرهما - وإلى هذه الخطبة على وجه الخصوص - بسهولة الأسلوب ويسره وطهره ونقائه ، ووضاءته وبهائه ، وجماله وعدووته ، وفيضه وتدقيقه ، وانسراجه إلى مواقع القبول من قلوب المؤمنين انسرابا جميلا ؛ ذلك لأنها خطبة توجه المؤمنين إلى حب الله ، وحب كتابه ، وحب رسوله ، وحب المؤمنين بعضهم بعضا .

أول خطبة جمعة في المدينة :

المدينة المنورة كانت تسمى قبل هجرة الرسول إليها يثرب ، وكان أهلها أسبق أهل الحجاز إلى الإسلام ، وقد بايعوا رسول الله ﷺ بيعتين قبل أن يهاجر إليهم ، فلما أن أُذِن له ﷺ بالهجرة ، وكان من أمر أخبارها ما هو معروف ، كان أول منزله في « قباء » وهي ضاحية المدينة جنوبا ، تراث رسول الله فيها بعض الوقت عند بني عمرو بن عوف وأبنتي مسجدها . وكان الرسول ﷺ يشهد البناء ويستمع إلى عبدالله بن رواحة وهو ينشد مرتجزا : أفلح من يعمر المساجدا .

فيقول رسول الله : المساجدا .

فقال عبدالله : ويقرأ القرآن قائما وقاعدا .

فيقول رسول الله : وقاعدا .

فقال عبدالله : ولا يبيت الليل عنه راقدا .

فيقول رسول الله : راقدا .

وهو تقليد يحمل تحية للشاعر أو المنشد أن يردد المستمع اللفظ الأخير من البيت الذى يمثل القافية ، ولا يزال هذا التقليد الجميل معمولا به حتى الآن فى حلقات الشعر فى إمارات ساحل عمان . إنه تقليد نبوى كريم لتحية الشعراء الجادين .

ولما أن عزم رسول الله ﷺ على دخول المدينة أرسل إلى أخواله من بنى النجار - وهم أخوال جده عبد المطلب - فجاءوا متقلدين السيوف ، وقالوا لرسول الله وأصحابه : « اركبوا آمنين مطاعين » وكان يوم جمعة ، فركب الرسول ﷺ ناقته « القصواء » والناس من حوله ، وكان استقبال الناس له عند ثنية الوداع ترحيبا بالطبول والأناشيد ، وقد روت السيدة عائشة أن الأنصار استقبلوا رسول الله يومئذ منشدين مرددين : (١)

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

كان رؤوس الأوس والخزرج كل يطلب من رسول الله النزول بديارهم بعبارات رفيعة المعانى ، ملؤها الترحيب والثناء ، والحب والإجلال ، فكان ﷺ يقول : « إني أمرت بقرية تأكل القرى ، فخلوها - أى : ناقته - فإنها مأمورة » .

إنه بقدر ما كان أعيان المدينة وشيوخها سعداء بمقدم سيد الخلق ورسول رب العالمين إلى بلدهم ، كان عبدالله بن أبي بن سلول أشقى الناس وأتعسهم ، لقد أراد رسول الله أن يكرمه وينزل عنده ضيفا عليه ، ولكن ابن سلول يحرم نفسه هذا الشرف ؛ لأن نفسه مريضة ، وقلبه ملء بالحقد على رسول الله الذى بدد مقدمه المدينة أحلام ابن سلول بالملك على الخزرج ، وأما عبدالله بن سلام - رضى الله عنه - فقد قال - طبقا لرواية يحيى بن الحسن العلوى - : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه - أى : أسرعوا - فجئت لأنظر إليه ، فلما تبينت وجهه علمت أن وجهه ليس بوجه

(١) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٣٨٦ .

كذاب» فكان أول شيء سمعته يتكلم به أن قال : « يا أيها الناس أفسحوا السلام ، وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام ، وصلوا والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » ومثلاً أثر عن رسول الله ﷺ ثلاث خطب يوم أوحى إليه بأن « أنذر عشيرتك الأقرين » فقد أثر عنه ﷺ ثلاث خطب يوم الجمعة الذي وصل فيه إلى المدينة المنورة . لقد كانت خطبه ﷺ تتسم بالقصر ، ولكن المعاني التي تحتويها والمواعظ التي تشتمل عليها تنوء بشروحها ومضامينها الأسفار العديدة . كانت خطبة الجمعة في هذا اليوم هي الأطول والأكثر امتلاءً بالوصايا ، والأوفر احتواءً للمواعظ ، والجمع بين دلائل الإنذار والترهيب وبين جلائل البشارات والترغيب .

لقد روى ابن جرير الطبري عن سعد بن عبد الرحمن الجمحي أن رسول الله ﷺ خطب في أول جمعة صلوها بالمدينة في بني سالم بن عوف فقال : (١)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ ، وَأَسْتَغْفِرُهُ وَأَسْتَهْدِيهِ ، وَأُؤْمِنُ بِهِ وَلَا أَكْفُرُهُ ، وَأَعَادِي مَنْ يَكْفُرُهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، وَالنُّورِ وَالْمَوْعِظَةِ ، عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَقِلَّةٍ مِنَ الْعِلْمِ ، وَضَلَالَةٍ مِنَ النَّاسِ ، وَانْقِطَاعِ مِنَ الزَّمَانِ ، وَدُنُوٍّ مِنَ السَّاعَةِ ، وَقُرْبٍ مِنَ الْأَجَلِ ، مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ ، وَمَنْ يَعْصِيهِمَا فَقَدْ غَوَى وَفَرَطَ وَضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا . أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ مَّا أُوصِيَ بِهِ الْمُسْلِمُ الْمُسْلِمُ أَنْ يَحْضُرَهُ عَلَى الْآخِرَةِ ، وَأَنْ يَأْمُرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَاحْذَرُوا مَا حَذَّرَكُمُ اللَّهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَلَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ذِكْرًا ، وَإِنْ تَقَوَّى اللَّهُ لِمَنْ عَمِلَ بِهِ عَلَى وَجَلٍ وَخَافَةٍ مِنْ رَبِّهِ عَوْنٌ صِدْقٍ عَلَى مَا تَبْغُونَ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ ، وَمَنْ يُضْلِحِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَمْرِهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ لَا يَتَوَى بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ يَكُنْ لَهُ ذِكْرًا فِي عَاجِلِ أَمْرِهِ وَدُخْرًا فِيهِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، حِينَ يَفْتَقَرُ الْمَرْءُ إِلَى مَا قَدَّمَ . وَمَا كَانَ

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٢٢٥ وتفسير القرطبي ١٨ / ٩٨ ، ٩٩ وسبل الهدى والرشاد ٣ / ٤٧٨ ، ٤٧٩ .

مما سَوَى ذلك يَوَدُّ لو أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴿ وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ

بِالْعِبَادِ ﴾ هو الذى صَدَقَ قَوْلُهُ ، وَأَنْجَزَ وَعْدَهُ ، لا خُلْفَ لذلك ، فإنه يقول عَزَّ
وَجَلَّ : ﴿ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ فى عاجِلِ أَمْرِكُمْ وَآجِلِهِ
فى السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهُ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ وَمَنْ
يَتَّقِ اللَّهَ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا . وَإِنْ تَقَوَّى اللَّهُ تَوْقَى مَقْتَهُ وَتَوْقَى عِقَابَهُ وَتَوْقَى سَخَطَهُ وَإِنْ
تَقَوَّى اللَّهُ تَبَيَّضَ الْوَجْهُ وَتَرْضَى الرَّبَّ ، وَتَرْفَعِ الدَّرَجَةَ ، فَخُذُوا بِحَظِّكُمْ ، وَلا تَقْرَظُوا فى
جَنْبِ اللَّهِ ، فَقَدْ عَلَّمَكُمْ كِتَابَهُ ، وَنَهَجَ لَكُمْ سَبِيلَهُ ، لِيَعْلَمَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَ
الكَاذِبِينَ . فَأَحْسِنُوا كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ، وَعَادُوا أَعْدَاءَهُ ، وَجَاهِدُوا فى اللَّهِ حَقَّ
جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَسَاءَ كَمُ الْمُسْلِمِينَ ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنِنَا وَيَحْيَى
مَنْ حَيَّ عَن بَيْنِنَا ﴾ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَأَكْثِرُوا ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَاعْمَلُوا لما بَعْدَ
الْمَوْتِ ، فَإِنَّهُ مَنْ يُصْلِحْ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ يَكْفِهِ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ
يَقْضِى عَلَى النَّاسِ وَلا يَقْضُونَ عَلَيْهِ ، وَيَمْلِكُ مِنَ النَّاسِ وَلا يَمْلِكُونَ مِنْهُ . اللَّهُ أَكْبَرُ .
وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

وإنه مما يؤكد أن هذه الخطبة هى أول خطبة صلى بها النبى الجمعة ، ما ذكره ابن
عباس فى شأنها طبقا لرواية ابن كثير (١).

لقد كان مجتمع المؤمنين فى المدينة مشوقا إلى سماع كلام رسول الله قبل أن يؤمهم فى
صلاة أول جمعة يوم حل بديارهم ، ومن ثم فقد خطب أكثر من مرة فى نفس اليوم ،
وكانت خطبته الثالثة هى خطبة الجمعة ، وأما سابقتها فقد قيلتا فى مقام التوجيه
والتعليم قبل الاتجاه لأداء فريضة الجمعة التى يصليها الرسول لأول مرة ، فلم يرد ما
يفيد أنه ﷺ قد صلاها قبل الهجرة .

(١) البداية والنهاية ٣ / ٢٢٤ ونثر الدر للآبى ١ / ٢٦٠ .

ليس من شك في أن هذه الخطبة ذات لون خاص ، وهى فى محتواها ومضامينها وعناصرها تتفق مع جلال مناسبتها ؛ لأنها أول خطبة جمعة ألقاها الرسول ، ولأن مكان إلقائها دار الهجرة يوم وصوله ﷺ إليها ، ولأن مستمعيها هم تلاميذ المدرسة المحمدية الذين قام بإعدادهم خير إعداد مصعب بن عمير مبعوث رسول الله إلى المدينة لتعليم من آمنوا القرآن الكريم بعد بيعة العقبة الثانية ، ثم بقية من أسلموا من أهل المدينة ، وكانوا يمثلون بيوتنا بأكملها .

لقد اشتملت الخطبة على ما عرف بأركان خطبة الجمعة ، من حمد الله والثناء عليه ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، مع إبانة لفضل الرسالة وزمانها .

ولقد توالى وصايا الرسول فى هذه الخطبة بتقوى الله وطاعته فى صيغ شتى تزفها البلاغة المحمدية : « من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا ، ، وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما يوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله » وينال حديث التقوى عناية كبيرة ؛ لأن تقوى الله فيها عماد الأمر كله .

ومثلما طال الحديث عن التقوى فكذلك نال الإحسان ، والجهد فى سبيل الله ، والإكثار من ذكره تعالى ، والعمل لما بعد الموت قدرا كبيرا من عناية الرسول ﷺ فى تلك الخطبة .

ولقد تفردت هذه الخطبة أيضا بالإكثار من الاستشهاد بآيات كتاب الله حتى بلغ عدد الاستشهاد فيها بالقرآن الكريم خمس مرات .

إن كثيرا من خطب رسول الله ﷺ وأحاديثه فيها استشهاد بالقرآن الكريم ، ولكن هذه الخطبة قد تميزت - بسبب مناسبتها - بكثرة المواضع التى جرى فيها الاستشهاد بكتاب الله .

ومجمل القول فى هذه الخطبة أنها كانت نبراسا للمهاجرين ولأنصار على حد سواء اهتموا فيها بنوره ، واستضاءوا بضياءه ، مثلما اهتمت به أجيال المسلمين بعد ذلك وإلى أبد الأبدىين بمشيئة الله .

ثمت خطبة أخرى خطبها رسول الله ﷺ في اليوم نفسه ، ولكن في غير صلاة الجمعة وهذه الخطبة شديدة القصر لا تتجاوز ستة سطور في موضوع التقوى ، وقد تضمنت القول الشريف المحفوظ في قلوب المؤمنين : « فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنه عشر أمثالها إلى سبعمائه ضعف » .

إنه طبقا لسليقته ﷺ يقدم الإنذار ثم يردفه بالترغيب والبشرى ، فمثلا أنه نذير ، فهو أيضا البشير الذى يدعو إلى تقوى الله ، ومع دعوته هذه يذكر بعظيم ثواب الله ، ويكرر أن الله سبحانه غافر الذنب ، قابل التوب ، وسعت رحمته كل شيء .

ثم خطب ﷺ وقد استقر به المقام خطبة ثالثة بدأها بالصيغة الشريفة المأثورة وهى حمد الله والتعوذ به من « شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى ، قد أفلح من زينته الله فى قلبه ، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا من أحب الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم ، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى قد ساء الله خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا واتقوه حق تقاته ، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله يغضب أن ينكث عهده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

لقد استهدفت هذه الخطبة مزيدا من التوجيه النبوى الشريف ، فقد تغيات فى جماع مبانيها ومشتمل معانيها كتاب الله حفظا وانشغالا به وإقبالا عليه ذكرا وتلاوة ، كما اشتملت بعد ذلك على مجموعة من المواعظ المحمدية تبدأ بالترغيب فى حب الله وطاعته ، وتنتهى فى دعوة المؤمنين إلى التحاب ورعاية العهود .

أول خطبة جمعة :

على أن الأمر الجدير بالاهتمام هو أن الخطبة الأولى سالفه الذكر وإن كانت أول خطبة

جمعة لرسول الله ﷺ في المدينة المنورة ، فإنها ليست أول خطبة جمعة اعتلى فيها المنبر؛ لأن الصحابي طلحة بن عبيدالله يخبر أنه سمع رسول الله ﷺ على منبره يقول :

« ألا أيها الناس : تَوَبُّوا إِلَى رَبِّكُمْ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا ، وَبَادِرُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا ؛ وَصَلُّوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ بِكَثْرَةِ ذِكْرِكُمْ لَهُ ، وَكَثْرَةِ الصَّدَقَةِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ - تُرْزَقُوا وَتُؤَجَّرُوا وَتُنْصَرُوا .

واعلموا أن الله عز وجل قد افترض عليكم الجمعة في مقامى هذا ، في عامى هذا ، في شهرى هذا ؛ إلى يوم القيامة : حياتى ومن بعد موتى - فمن تركها وله إمام - فلا يجمع الله له شمله ، ولا يبارك له في أمره ، ألا ولا حج له ، ألا ولا صوم له ، ألا ولا صدقة له ، ألا ولا بر له .

ألا ولا يؤم أعرابى مهاجراً ، ألا ولا يؤم فاجرٌ مؤمناً ، إلا أن يقهره سلطانٌ يخاف سيفه أو سوطه » .

وبذلك - فيما لو صحت الرواية - تكون هذه الخطبة هى أول خطبة جمعة خطبها رسول الله ﷺ على منبره طبقاً لرواية طلحة (١) ذلك أن رسول الله يخبر صحابته أن الله سبحانه افترض عليهم الجمعة - مثلما فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء والمعراج - ولكن في يومه هذا الذى يخطبهم فيه ، وأنها ستظل فريضة عليهم إلى يوم القيامة ، ومن تركها فهو محروم من بركة الله . ولا يُتقبل منه حج ولا صوم ولا صدقة ولا بر .

ولأن الخطبة بِكْرٌ في موضوعها فقد اشتملت على حكم حاسم في شأن طبيعتها وكونها خطبة جمعة فرضها الله عليهم ولم تكن فرضت قبل ذلك ، هذا فضلاً عن أن النبى ﷺ يحض الصحابة فيها وجمهرة المسلمين على توثيق صلتهم بالله - عز وجل - بكثرة ذكرهم له - جل وعلا - وبكثرة الصدقات في السر والعلن ، وينبه ﷺ المسلمين إلى أمور تتعلق بصلاة الجماعة ، منها : ألا يؤم أعرابى مهاجراً ، وألا يؤم رجل فاجر رجلاً مؤمناً إلا في حالات القهر .

(١) إيجاز القرآن للباقلانى ص : ١٢٩ .

ومن خطبه ﷺ في العيد قوله ﷺ: (١)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ : آمَنُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ، ﴿ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » .

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » .

هَذَا يَوْمٌ أَكْرَمَكُمْ اللَّهُ بِهِ وَخَصَّكُمْ ، وَجَعَلَهُ لَكُمْ عِيدًا ، فَاحْمَدُوا اللَّهَ كَمَا هَدَاكُمْ لِمَا ضَلَّ عَنْهُ غَيْرُكُمْ ، وَقَدْ بَيَّنَّ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ ؛ غَيْرَ أَنَّ بَيْنَهُمَا شُبُهًا مِنَ الْأَمْرِ لَمْ يَعْلَمْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ ، فَمَنْ تَرَكَهَا حَفِظَ عَرْضَهُ وَدِينَهُ ، وَمَنْ وَقَعَ فِيهَا كَانَ كَالرَّاعِي إِلَى جَنْبِ الْحِمَى أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ ، فَعَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَاجْتِنَابِ سُخْطِهِ ، غَفَرَ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ » .

لقد تجلَّى البيان المحمدي أجمل ما يكون إشراقاً في اختياره ﷺ عناصر الخطب بحيث تكون منسجمة مع يوم العيد ، الذي هو نعمة من الله - سبحانه - حين هدى المؤمنين إلى الرسالة الإلهية التي يشكل العيد واحداً من نفحاتها ، وهنا اهتم رسول الله ﷺ بالحدِيث عن الحلال والحرام وما بينهما من شبهات ينبغي على المسلم تركها ؛ لكي يسلم عرضه ويبرأ دينه .



الفصل الثالث

خطبه
صلى الله
وسلم

في فتح مكة وبعض الغزوات

خطب الرسول في فتح مكة وبعض الغزوات

خطبة رسول الله يوم فتح مكة .

كان فتح رسول الله ﷺ مكة هو النصر الأعظم الذى بشر الله به محمدا في أكثر من آية ، بل أكثر من سورة : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴾ نزلت بعد الحديبية .

هكذا بشر الله بالفتح ، وهكذا صوره القرآن الكريم غفرانا ونعمة ، وهداية ونصرا .

وفي الفتح أيضا نزلت سورة النصر ، وتسمى أيضا سورة التوديع ؛ لأنها آخر ما نزل من القرآن بالمدينة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ وبنزولها أيقن رسول الله بنهاية أجله ، وأنها بمثابة نعى نفسه إليه .

كانت سورة الفتح تثبيتا له ﷺ ولأصحابه في الحديبية حين قبل شروط قريش التى رأى فيها بعض الصحابة إجحافا بالمسلمين ، وكانت سورة النصر تخليدا لانتصار دين الله ، وعودة البيت الحرام إلى أيدي المسلمين حتى أبد الأبد .

ومن الحقائق الكبرى أن صلح الحديبية الذى كان من شأنه ما ذكرنا هو نفسه السبب في فتح مكة ، وعودة الكعبة إلى الله ورسوله والمؤمنين ، بعد أن كانت قد دنست

بالأصنام منصوبة فيها ، وأوذيت بالأوثان منتشرة حولها ، وقد قيل : إن عدد أصنامها تجاوز الثلاثمائة حطمها رسول الله ﷺ يوم الفتح .

كان من شروط صلح الحديبية الذى عقد بين رسول الله ﷺ وقريش : أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل معه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل ، فدخلت بنو بكر في عقد قريش ، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ومؤمنها وكافرها . ولكن بنو بكر - حليفة قريش - نقضت العهد واعتدت على بنى كعب من خزاعة بمساعدة قريش بالمال والسلاح ، وساقوهم إلى الحرم وقتلواهم فيه ، فكان ذلك نقضا صريحا للعقد الذى أبرم بينهم وبين رسول الله ﷺ فخرج عمرو بن سالم الخزاعى ومعه بعض قومه واتجهوا إلى المدينة يطلبون العون والإغاثة من رسول الله ، ووقف عمرو أمام رسول الله وهو جالس في المسجد ، وأنشده هذه الأبيات :

يارب إني ناشد محمدا	حلف أبينا وأبيه الأتلا
قد كنتم ولدا وكنا والدا	نُمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أعتدا	وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا	إن سيم خسفا وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجرى مزبدا	إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا	وجعلوا لى في كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا	وهم أذل وأقل عددا
هم يبتونا « بالوتير » هُجدا	وقتلونا ركعا وسُجدا

فانصر هداك الله نصرا أيّدا

فلما انتهى عمرو من إنشاده قال رسول الله ﷺ :

« نُصِرْتُ ياعمرو بن سالم » . وفى رواية أن رسول الله قال : « لا نُصِرْتُ إن لم أنْصُرْ »

بنى كعب ممّا أنصُر منه نفسى . فأنشأت سحابة ، فقال رسول الله ﷺ : « إن هذه السحابة تستهلّ بنصر بنى كعب ، أبصروا أبا سفيان فإنه قادم عليكم يلتمس تجديد العهد والزيادة فى المدة . »

وكان خبر استغاثة عمرو بن سالم برسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد تأكد لأبى سفيان ، فأسرع فى القدوم إلى المدينة ، ودخل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة ، فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال لها : ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ ! فقالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس ، فقال لها : والله لقد أصابك يابئنة بعدى شر .

إن المرء المؤمن إذا ما خيّر بين حرمة العقيدة وحرمة البنوة ، لم يقصر فى اختيار العقيدة وترجيحها على صلة البنوة وحرمتها ، وهو ما فعلته أم المؤمنين أم حبيبة عليها السلام .

لم ييأس أبو سفيان زعيم قريش الذى كان - إلى عهد قريب - يصول ويجول فى النّيل من المسلمين وتهديدهم والتضييق عليهم فى أرضه ، فذهب يلتمس تفادى الحرب بمذمفعول الهدنة فترة زمنية أخرى فلم يفلح ، لقد طرق باب رسول الله ، ثم أتى أبا بكر ، ثم عمر ، ولكن دون جدوى ، فأتى عليا وعنده فاطمة وابنها الحسن ، وكان لا يزال صغيرا ، فعجرى بينه وبينهم هذا الحوار العجيب :

قال أبو سفيان : يا علىّ ، إنك أمّس القوم بى رحما ، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا ، فاشفع لى إلى رسول الله . فقال : ويحك يا أبا سفيان ، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة قائلا : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بُنيك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ فقالت : والله ما بلغ بُنى ذلك ، وما يحير أحد على رسول الله ﷺ قال : يا أبا حسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ فانصحنى فقال : والله ما أعلم شيئا يغنى عنك ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك ، قال أبو

سفيان : أو ترى ذلك مغنيا عنى ؟ قال : لا ، والله ما أظنه ، ولكن لا أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس ، إني قد أجرت بين الناس . ثم ركب بعيره فانطلق إلى مكة راجعا غير موفق فى مهمته^(١) .

أمر رسول الله ﷺ بالجهاز والاستعداد للزحف إلى مكة لفتحها ، وأعلم الناس بذلك وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتهم فى بلادهم »

غير أنه من الضرورة بمكان أن نقرر أن رسول الله لم يتخذ قرار الحرب والاستعداد للغزو إلا بعد أن رفضت قريش الانصياع لشروطه التى كان بعث بها إليهم مع ضمرة ابن سعد الضمرى ، خيرهم فيها بين إحدى ثلاث : أن يذوا قتلى خزاعة ، أو أن يبرأوا من حلف نفائة ، أو ينبذ إليهم على سواء ، فلما أبوا جد رسول الله ﷺ فى الجهاز للحرب ، حتى إن أبا بكر نفسه وهو صديق رسول الله قد فوجئ بذلك حين دخل على ابنته عائشة ورأى شيئا من جهاز رسول الله ، فقال لها : أين يريد رسول الله ﷺ ؟ فقالت عائشة : تجهز فإن رسول الله ﷺ غاز قومك ، فدخل رسول الله فمكث ساعة يتحدث مع أبى بكر ثم قال : هل تجهزت يا أبا بكر ؟ قال : لماذا يارسول الله ؟ قال : لغزو قريش ، فإنهم قد غدروا ونقضوا العهد ، وإننا غازون إن شاء الله . وأذن فى الناس بالغزو .

هنا يبدو ضروريا أن نشير إلى الخطأ الذى ارتكبه صحابى جليل هو حاطب بن أبى بلتعة الذى كتب رسالة إلى قريش يخبرهم فيها بالغزو ، حملتها امرأة فجعلتها فى رأسها ، ثم قتلت عليها ضفائرهما ، فأناب الوحي رسول الله ﷺ بذلك ، فبعث الرسول ثلاثة من الصحابة خلفها ، هم : على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وقال لهم : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ - موضع بقرب حمراء الأسد من المدينة - فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها . فلحقوا بالمرأة وأخذوا منها الرسالة وأحضروها للرسول ﷺ فإذا بها : من حاطب بن أبى بلتعة إلى بعض مشركى مكة يخبرهم بغزو الرسول لهم ، فجئء بحاطب وساءله الرسول عن فعلته فأبدى بعض

(١) تاريخ الإسلام - مجلد المغازى ، للحافظ شمس الدين الذهبى ص : ٤٣٧ ، ٤٣٨ .

العدر، فقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال له الرسول : «إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله تعالى اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» (١) .

جيش الرسول في الطريق إلى مكة :

وتقدمت جيوش الإسلام تحت راية رسول الله ﷺ في طريقها إلى مكة ، وعلى رأس كل جيش واحد من الصحابة أبطال الحرب : خالد بن الوليد ، الزبير بن العوام ، وسعد بن معاذ ، وضربت الخيام والفساطيط بالأراك على مقربة من مكة ، وخرج أبو سفيان ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء يستكشفون الخبر ، وظنوا أن الجيش لبنى كعب جاءت لتثأر لقتلها ، فلما دخل أبو سفيان وصاحبه المعسكر في جنح الليل أمسك بهم الحرس ، وأيقن أبو سفيان بالقتل بعد أن فطن إلى أنه أسير بأيدي المسلمين ، فنادى بأعلى صوته يطلب الغوث من العباس عم رسول الله ، وكانا صديقين في الجاهلية ، فأتاه العباس ودفع عنه القتل وخلّصه من أيديهم ، وقال له : إنك مقتول إن لم تسلم وتشهد أن محمدا رسول الله ، فكان يعزم على ترديد الشهادة ولكن لسانه لا ينطق بها ، وبات ليلته مع العباس ، وأما حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء فدخلوا على رسول الله ﷺ فأسلموا ، وجعل يستخبرهما عن أهل مكة .

وفي الصباح قال أبو سفيان : يا عباس ؛ كَلِّم الرسول في قومك ، هل عنده من عفو عنهم ؟ فانطلق العباس به حتى أدخله على النبي فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان ، فقال أبو سفيان : يا محمد ، قد استنصرتُ بإلهي ، واستنصرتُ بإهلك ، فوالله ما لقيتُك من مرة إلا ظهرت عليّ ، فلو كان إلهي محقا وإهلك باطلا ظهرتُ عليك ، فأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

ثم أمر الرسول بأبي سفيان فاستبقى حيث كان ومعه العباس ، ثم بعث رسول الله ﷺ الخيل بعضها على إثر بعض ، وقسمها شطرين ، فبعث الزبير في خيل عظيمة ،

(١) المصدر السابق نفس الصفحة .

فلما مروا بأبى سفيان قال للعباس : من هذا ؟ قال : الزبير ، وبعده مرّ خالد بالجيش من أسلم وغفار وقضاعة ، فقال أبو سفيان : هل هذا رسول الله يا عباس ؟ قال : لا ، ولكن هذا خالد بن الوليد ، وبعث رسول الله ﷺ سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار فقال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحلّ الحرمة ، ثم دخل رسول الله ﷺ في كتيبة الإيثار من المهاجرين والأنصار .

فلما رأى أبو سفيان وجوها كثيرة لا يعرفها قال : يا رسول الله اخترت هذه الوجوه على قومك ؟ قال : أنت فعلت ذلك وقومك ، إن هؤلاء صدقوني إذ كذبتهموني ، ونصروني إذ أخرجتهموني ، ومع النبي يومئذ الأقرع بن حابس ، وعباس بن مرداس السلمى ، وعيينة بن بدر ، فلما أبصرهم حول النبي ﷺ قال : من هؤلاء يا عباس ؟ قال : هذه كتيبة النبي ﷺ ومع هذه الموت الأحمر ، هؤلاء المهاجرون والأنصار . قال : امض يا عباس فلم أر كالיום جنودا قط ولا جماعة ، وسار الزبير بالناس حتى إذا وقف بالحجون ، واندفع خالد حتى دخل من أسفل مكة ، فلقيته بنو بكر فقاتلهم فهزمهم حتى دخلوا الدور ، وتقهقرت طائفة منهم على الجبل على الخندمة - جبل بمكة - وأتبعهم المسلمون بالسيوف .

ودخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أخريات الناس ، ونادى مناد : من أغلق داره وكف يده فإنه آمن ، وكان النبي ﷺ نازلا بذى طوى ، فقال : كيف قال حسان ؟ فقال رجل من أصحابه : قال :

عَدِمْتُ بَنِيَّ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تثير النقع من كَنَفِي كدَاءِ

فأمرهم الرسول أن أدخلوا الخيل من حيث قال حسان ، فأدخلت من ذى طوى من أسفل مكة ، واستحرّ القتل بينى بكر ، فأحل الله له مكة ساعة من نهار ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « ما أحلت الحرمة لأحد قبلى ولا بعدى ، ولا أحلت لى إلا ساعة من نهار » (١) .

(١) تاريخ الإسلام للداهي قسم المغازى ، ص : ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

إن مشاهد فتح مكة كثيرة وجلييلة ، أليس هو الفتح الأعظم الذى بشر به المولى
سبحانه محمداً فى ساعة ظُنَّ أنها استسلام وما كانت استسلاما ، ولكن كانت مقدمة
لليوم العظيم الذى كرم الله فيه رسوله أعظم تكريم ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ * لِيَغْفِرَ
لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا
* وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا * .

خطبة فتح مكة :

كان دخول رسول الله ﷺ الكعبة فى رمضان سنة ثمان فطاف سبعا على راحلته ،
ثم وقف قائما على باب الكعبة ، وألقى خطبة اليوم الخالد : يوم الفتح فقال : (١)
« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ صَدَقَ وَعْدُهُ ، وَنَصَرَ عَبْدُهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ
وَحْدَهُ .

ألا كُلُّ مَأْتِرَةٍ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدَّعى فهو تحت قدمي هاتين ؛ إلا سِدَانَةَ الْبَيْتِ ،
وَسَقَايَةَ الْحَاجِّ .

ألا وَقَتِيلُ الْخَطِإِ شَبَهَ الْعَمْدَ بِالسُّوْطِ وَالْعَصَا - فيه الدية مُغْلَظَةً ، منها أربعون
خِلْفَةً ، فى بطونها أولادها .

يا معشر قُرَيْشِ : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتَعْظُمَهَا بِالْآبَاءِ ؛ النَّاسُ
مِنْ آدَمَ ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تَرَابٍ ؛ ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى :

﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

يامعشر قريش - أو يا أهل مكة - : « ما تَرَوْنَ أُنَى فاعِلٌ بكم ؟ قالوا : خيرا ؛ أخ
كريم ، وابن أخ كريم . ثم قال : فاذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الْطَّلَقَاءُ » (*) .

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ، ص : ١٣٢ .

(*) المائة : الخصلة المحمودة تتوارث ويتحدث الناس عنها .

الخلفة - بفتح ثم كسر - : الحامل من النوق .

إنها خطبة كمال التوحيد ونهايه الشرك ، أعلن ذلك رسول الله من على باب الكعبة التى خلصت لدين الله ، وتحررت من الأصنام التى حطمها رسول الله ساعة دخوله ، وفى خطبة الفتح إعلان بأن الله صدق وعده بنصر المؤمنين وهزيمة الكافرين ، مع معان أخرى صدرت عن رسول الله فى هذا الموقف العظيم مثل تثبيت سدانة البيت وسقايه الحاج ، وتشريع حكم الدية فى قتل الخطأ شبه العمد ، وإعلان المساواة الكاملة بين الناس جميعا حيث لا يكون التفاضل بينهم إلا بتقوى الله ، ثم أخيرا العفو العام .

وقد أثر عن رسول الله ﷺ أنه استجاب للعباس حين طلب إليه تكريم أبى سفيان لمقامه بين قومه بقوله الشريف : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن »

وقد كانت الفعال فى فتح مكة لا تقل إفصاحا عن الأقوال فقد عمّ كرمه ﷺ كل أهل مكة ، باستثناء أشخاص بأعينهم يقل عددهم عن أصابع اليد الواحدة ، وفاضت سماحته بحيث شملت جميع الناس وبينهم من كان قد ذهب فى إيقاع الأذى به مذهباً لا حدود له ، وأوغل فى تعذيبه إيغالا يصعب معه التسامح ، ولكنها أخلاق محمد وشيأله التى تسمو على الخلائق ، وتتضاءل أمامها كل شمائل أهل الأرض ، وفى كلمات ثلاث يبدل خوفهم أمناً ، ويحوّل إسهامهم إلى حرية : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

خطب الرسول في الغزوات

خطبة يوم الأحزاب :

كان يوم الأحزاب من أشد أيام الكروب التي تعرض لها المسلمون في عصر النبوة ، فقد اتحدت قبائل المشركين وحاصرت المدينة المنورة بجيوشهم الكثيفة المتربصة شرا ، ولم تكن المحنة متمثلة في جيوش المشركين وحدهم ، وإنما كان العدو اليهودي الذي يساكن المسلمين مدينتهم ، يصنع كيدته ، ويبث سمومه ، وينسج تأمره ، وقد ألهم المسلمون أن يحفروا الخندق ليفصل بينهم وبين العدو ريثما ييء الله النصر للمؤمنين الذين بلغت قلوب بعضهم الخناجر ، هنا يقف رسول الله لكى يزرع الصبر في نفوس المؤمنين ، ويجدد الإيمان في قلوبهم ، فيمزج الحماس بالدعاء إلى الله بالنصر ، والضراعة إلى المولى بتمزيق صفوف العدو وتشيت شملهم .

يقول ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ ، إِنَّهُمْ كَحِزْبِ الشَّيَاطِينِ يُحَدِّثُونَهُمْ فَيَكْذِبُونَهُمْ ، وَيَمْنُونَهُمْ فَيَغْرَوْنَهُمْ ، وَيَعْدُونَهُمْ فَيُخْلِفُونَهُمْ ، وَاللَّهُ مَا حَدَّثْتُكُمْ فَكَذَّبْتُمْ ، وَلَا مَنِّيْتُكُمْ فَغَرَرْتُمْ ، وَلَا وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ . اللَّهُمَّ اضْرِبْ وجوههم ، وَأَكِلْ سِلَاحَهُمْ ، وَلَا تَبَارِكْ لَهُمْ فِي مَقَامِهِمْ . اللَّهُمَّ مَرِّقْهُمْ فِي الْأَرْضِ تَمْزِيقَ الرِّيحِ الْجَرَادِ . وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَئِنْ أَمْسَيْتُمْ قَلِيلًا لَتَكْثُرَنَّ ، وَلَئِنْ كُنْتُمْ أَذِلَّةً لَتَعِزَّنَّ ، وَلَئِنْ كُنْتُمْ وُضْعَاءَ لَتَشْرُقَنَّ حَتَّى تَكُونُوا نَجُومًا يُفْتَكِدَى بِوَاحِدِكُمْ ، يَقَال : قَالَ فَلَانٌ وَقَالَ فَلَانٌ » (١) .

لقد استجاب الله دعاء رسوله الكريم ؛ فلم يبارك للمشركين في مقامهم ، ومزقهم

في الأرض تمزيق الرياح الجراد ، وأما صحابة رسول الله - الجنود الذين وهبوا أرواحهم ودماءهم لله - فلقد كثروا بعد قلة ، وعزّوا بعد ذلة ، وشرفوا بعد ضعة ، تلك كانت دعوات حبيب الله إلى الله ، فكانت إجابة المولى - عز وجل - سريعة ناجزة .

في الطريق إلى تبوك :

إن غزوة تبوك من الغزوات المميزة لرسول الله ﷺ لأمر عدة ، منها : أنها أول مواجهة للمسلمين مع الروم ، ومنها أن المسافة التي قطعها الرسول وجيشه هي أطول مسافة قطعها رسول الله ﷺ في أية غزوة غزاها ، فالمسافة بين المدينة وتبوك تصل إلى حوالي سبعمائة كيلومتر بمقاييس زماننا على طريق ممهد ، ومنها أن رسول - صلى الله عليه وسلم - قطعها وجيشه في أشد فصول السنة حرارة ، ومنها أنها جرت في زمن العسرة ، ولذلك كان جيشها يسمى جيش العسرة .

قيل لعمر بن الخطاب - وهو أمير المؤمنين - : حدثنا عن شأن العسرة ؟ فقال : خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد ، فتنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع ، حتى أن كان الرجل ينحر بعيه فيعصر فرثه فيشربه ويجعل مابقى على كبده ، فقال أبو بكر : يا رسول الله : إن الله قد عودك في الدعاء خيرا ، فادع الله لنا قال : أحب ذلك ؟ قال : نعم ، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأطلت ثم سكبت ، فملأوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد لها جاوزت العسكر (١) .

ولقد تميّزت غزوة تبوك عن غيرها أيضا بأن رسول الله ﷺ قلما كان يخرج إلى غزوة إلا أظهر أنه يريد غيرها ، وأما غزوة تبوك فقد أعلن أنه يريد لها ، وأنه يريد الروم ، وذلك في قوله ﷺ : « أيها الناس ، إني أريد الروم » .

إن أحداثا كثيرة - والأمر كذلك - جرت في هذه الغزوة ، وارتبطت بها منذ أعلن رسول الله ﷺ التعبئة لها ، فقد جرت زمن العسرة حسبما أسلفنا القول ، وكان تمويلها وميرتها بيدوان أمرا عسيرا ، ولكن ما إن أمر ﷺ بالصدقة والنفقة حتى تسابق الصحابة

(١) الذهبي ٥٢٦ رواية نافع بن جبير عن ابن عباس .

إلى التبرع ، كل على قدر سعته ، وكان عثمان - رضى الله عنه ، شأنه في ذلك شأنه في مواقف البذل - الأسرع إلى الإسهام قائلا : يا رسول الله ، على ثلاثمائة بغير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله .

يقول الصحابي عبد الرحمن بن خباب : أنا شهدت رسول الله ﷺ وهو يقول على المنبر : « ما على عثمان ما عمل بعد اليوم » وتصدق يومئذ عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية ، فقال له النبي ﷺ : « هل تركت لأهلك شيئا ؟ قال : نعم ، أكثر مما أنفقت وأطيب . قال : كم ؟ قال : ما وعد الله ورسوله من الرزق والخير » .

وتصدق عمر بمائة أوقية ، وتصدق عاصم الأنصاري بتسعين وسقاً من التمر .

وبقدر ما كان المنافقون يثبطون هم المسلمين في الخروج مع رسول الله ، بقدر ما كان المسلمون يتسابقون إلى الصحبة ، فإذا لم يجدوا ما يحملون عليه انخرطوا في البكاء لحرمانهم من صحبة رسول الله في رحلة الجهاد لله ، وهم : أبو ليل عبد الرحمن بن كعب ، وعبد الله بن المغفل ، وعُلبَةُ بن زيد ، وأربعة آخرون ، وقد سُمُّوا بالبكائين .

فأما أبو ليل عبد الرحمن بن كعب ، وعبد الله بن المغفل فقد لقيهما أنصاري من الباذلين في سبيل الله - هو يامين بن عمرو - وهما بيكيان ، فقال : مايكيكما ؟ فقالا : جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا - أى : يعطينا ما نركبه في الطريق إلى تبوك - فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج ، فأعطاهما ناضحا - أى بعيرا - فارتحلاه ، وزودهما شيئا من لبن .

وأما علبَةُ بن زيد فبات ليلته يصلى ثم بكى واتجه إلى الله داعيا : اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به ، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملنى عليه ، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى بها في مال أو جسد أو عرض . ثم أصبح مع الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « أين المتصدق هذه الليلة ؟ » فلم يقم أحد ، ثم قال : « أين المتصدق ؟ فليقم » . فقام إليه علبَةُ فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ : « أبشر فوالذى نفس محمد بيده لقد كُتِبَتْ في الزكاة المُتَقَبَّلَةِ » .

هذه نماذج من نوعية متميزة من الرجال هم صحابة رسول الله ، سيكون لأن صحبتهم إياه في الجهاد تفوتهم ، فيعوضهم الله خيرا بإتمام الصحبة أو بقبول أعمالهم .

أبو ذرّ وأبو خيثمة :

غير أن نموذجين آخرين على جانب من التفاني في حب الله ورسوله يجمل ذكر خبرهما في هذا السياق ، هما أبوذر الغفاري ، وأبو خيثمة زهير بن معاوية بن خديج .

يروى ابن إسحاق مسلسلا الرواية إلى الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ لما سار إلى تبوك ، كان بعض الناس يتخلف في الطريق ، فيقول الصحابة : يارسول الله تخلف فلان ، فيقول : « دعوه ، إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » حتى قيل : يارسول الله : تخلف أبوذرّ وأبطأ به بعيره ، فقال : دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه . وأما أبوذرّ نفسه فكان يحث بعيره على المسير حتى يلحق برسول الله ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره ، ثم خرج يتبع رسول الله ﷺ ماشيا . ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازلهم - في تلك الرحلة الطويلة - ونظر ناظر من المسلمين فقال : يارسول الله : إن هذا الرجل يمشي على الطريق ، فقال رسول الله ﷺ : كن أباذرّ - على سبيل الدعوة والتمنى - فلما تأمله القوم قالوا : هو والله أبوذر ، فقال رسول الله ﷺ : « يرحم الله أباذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » هكذا لحق أبوذر بكتيبة رسول الله في الطريق إلى تبوك .

أما نبوءة رسول الله ﷺ في موت أبي ذر وحده وبعثه وحده فيقص خبرها ابن جرير الطبري رواية عن سلسلة رأسها محمد بن كعب القرظي قال : لما نفى عثمان أباذر ، نزل أبوذر الربذة (*) أصابه بها قدره ، ولم يكن معه أحد إلا امرأته وغلّامه ، فأوصاهما أن غَسَلَانِي وَكَفَّنَانِي ثم صَعَّانِي على قارعة الطريق ، فأول ركب يمرّ بكم فقولوا : هذا أبوذر صاحب رسول الله ، فأعينونا على دفنه ، فلما مات فعَلَا ذلك به ، ثم وضعاه على قارعة الطريق ، فأقبل عبد الله بن مسعود ورهط من أهل العراق عُمَاراً - أي في

(*) الربذة : قرية على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة .

طريقهم لأداء العمرة - فلم يرعهم إلا بجنابة على الطريق قد كادت الإبل تطؤها ، وقام إليهم الغلام فقال : هذا أبو ذر صاحب رسول الله ، فأعينونا على دفنه ، فبدأ عبد الله ابن مسعود يبكى ويقول : صدق رسول الله ، تمشى وحدك وتموت وحدك ، وتبعث وحدك . ثم نزل هو وأصحابه فواروه . ثم حدثهم ابن مسعود حديثه وما قال له رسول الله في مسيره إلى تبوك (١) .

وأما أبو خيثمة فقد عاد إلى أهله بعد مسير رسول الله أياما في يوم حار فوجد امرأتين له قد رشت كل منهما عريشها ، وَبَرَدَتْ له فيه ماء ، وهيات له فيه طعاما ، فلما دخل قام على باب العريش فقال : رسول الله في الضح - الشمس - والريح والحر وأبو خيثمة في ظل بارد وماء بارد وطعام مهيا وامرأة حسناء في مال مقيم ؟! ما هذا بالنصف ، ثم قال : لا ، والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ ، فهيتما لي زادا ، ففعلتا ، ثم قدم ناضحه - بعيره - فارتحله ، ثم خرج في طلب رسول الله حتى أدركه حين نزل بتبوك ، وقد كان قد أدرك أبا خيثمة في الطريق عمير بن وهب الجمحي يطلب اللحاق برسول الله ، فترافقا ، حتى إذا دَنَوَا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير : إن لي ذنبا ، فلا عليك أن تتخلف عني حتى أتى رسول الله ﷺ ففعل ، حتى إذا دنا من رسول الله قال الناس : يارسول الله هذا راكب على الطريق مقبل ، فقال رسول الله ﷺ : « كن أبا خيثمة » فقالوا : يارسول الله : هو والله أبو خيثمة ، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال رسول الله : « أولى لك يا أبا خيثمة » ثم أخبر رسول الله بالخبر ، فقال له رسول الله خيرا ودعا له بالخير .

وما دمننا بسبيل ذكر نماذج من صحابة رسول الله في غزوة تبوك ، فقد بات من الخير أن نذكر خبر الثلاثة المخلفين الذين تخلفوا عن الصحبة إلى تبوك بدون نفاق ولا شك ، وإنما هو خطأ وقعوا فيه ، وهم : كعب بن مالك ، ومُرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وقد رأى رسول الله أن يؤاخذهم على طريقة تشعرهم بعظم جريرتهم ، فلم يقبل لهم عذرا وقال : لا يكلمن أحدٌ أحدًا من هؤلاء الثلاثة ، فاعتزل المسلمون كلامهم حتى

(١) تاريخ الرسل والملوك ، القسم الأول / ٤ / ١٧٠٠ .

ضاقت بهم السبيل ، ولجأوا إلى الله تائبين ، فتقبل الله توبتهم ، وأنزل فيهم قوله - عز وجل - : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (*)

تحرك جيش رسول الله ﷺ من المدينة في يوم خميس من شهر رجب سنة تسع هجرية في ثلاثين ألفا من المجاهدين ، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري ، وخلف علي بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المنافقون ، فما كان من علي إلا أن أخذ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني تستثقلني وتخفف مني ، قال ﷺ : « كذبوا ، ولكن خلفتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك ، ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي » فرجع إلى المدينة .

لما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع ، وضرب المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول عسكره على حده في نحو ثلاثين ألفا أو تزيد قليلا ، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه ابن سلول فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب (١) .

غَدَّ جيش العسرة المسير إلى تبوك في تلك الظروف المناخية والطبيعية والإنسانية التي ألمنا بطرف منها ، ولما وصل إلى تبوك ميدان المعركة كان الروم قد جمعوا شتاتهم وانصرفوا ، فكان النصر في تبوك بغير سفك قطرة دم ، ولم يمكث بها الرسول أكثر من بضع عشرة ليلة ، وفي رواية جابر : عشرين ليلة ، وعاد إلى المدينة فدخلها في رمضان ، فتكون الغزوة - والأمر كذلك - قد استغرقت نحو شهرين : شهر شعبان كله ، والبقية كانت من رجب ورمضان .

(*) التوبة ، الآية : ١١٧ .

(١) الذهبى ، قسم المغازى ص : ٥٢٤ .

نص خطبة الرسول :

وهذا نصّ الخطبة كما ذكرها البيهقي والحاكم من حديث عقبة بن عامر ، وكما سجلها ابن قيم الجوزية :

« خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فاسترقد رسول الله ﷺ ليلة لما كان منها على ليلة ، فلم يستيقظ فيها حتى كانت الشمس قيد رمح ، قال : ألم أقل لك يا بلال اكلاً لنا الفجر ؟ فقال : يا رسول الله ذهب بى النوم الذى ذهب بك ، فانتقل رسول الله ﷺ من ذلك المنزل غير بعيد ، ثم صلى ، ثم ذهب بقية يومه وليلته فأصبح بتبوك ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العُرَى كلمة التقوى ، وخير المثل ملّة إبراهيم ، وخير السنن سنة محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عوازمها ، وشر الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا دُبراً ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هُجراً . ومن أعظم الخطايا اللسان الكذاب ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل ، وخير ما وفر فى القلوب اليقين ، والارتياح من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية ، والغلول من حر جهنم ، والشكر كفى من النار ، والشعر من إبليس ، والخمر جماع الإثم ، وشر المأكّل مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقى من شقى فى بطن أمه ، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع ، والأمر إلى الآخرة ، وملاك العمل خواتمه ، وشر الرؤيا رؤيا الكذب ، وكل ما هو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة ذمه ، ومن يتألى على الله يكذبه ، ومن يغفر يغفر له ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ، ومن يتبع السمع يسمع

الله به ، ومن يتصبر يضعف الله له ، ومن يعص الله يعذبه الله ، ثم استغفر ثلاثا «
(١).

إن الخطبة تمثل لونا آخر من بلاغة رسول الله ﷺ إن كثرة الأحداث المتعلقة بالغزوة والمرتبطة بها ، ما كان إيجابيا منها وما كان سلبيا اقتضت أن يقف رسول الله من الصحابة المرافقين المجاهدين موقف المعلم الذى يرسل الإرشادات والأحكام تترى وتتواكب وتتلاحق مثلما تترى جموع السحاب وتتلاحق قطرات الغيث ، فقد أترعت الخطبة بصيغ أفعل التفضيل ، وتزاحمت بالتشبيهات ، وامتألت بالحكم وازدانت بالجمل التى صارت أمثالا سائرة بليغة .

هذا ولم تخل غزوة تبوك من مغانم ، ففيها وفد يُحَنِّ بن روبة صاحب أيلة ، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأذرح (*) فأعطوه الجزية ، وبذلك تكون حدود الدولة الإسلامية فى الشمال على عهد الرسول أرض سورية الجنوبية .

(١) زاد المعاد ٩/٣ .

(*) جرباء : من أعمال البلقاء من أرض الشام . وأذرح : من أعمال الشراة فى أطراف الشام ، وبين أذرح والجرباء ميل واحد .



الفصل الرابع

حجة الوداع وخطبة الوداع

حجة الوداع وخطبة الوداع

في رحاب حجة الوداع :

إن خطبة الوداع مقترنة بحجة الوداع ، وهى المرة الوحيدة التى أدى فيها رسول الله ﷺ فريضة الحج ، ومن المعروف أن الفريضة الوحيدة الواجبة الأداء مرة واحدة فى حياة المسلم المستطيع هى فريضة الحج ، ومن هنا كان لحجة الوداع وخطبتها شأن كبير فى الإسلام بعامة ، وفى فقه العبادات بخاصة ، فأما من ناحية العموم فىأتى ذلك من منطلق الأحكام التى احتوتها خطبة رسول الله ﷺ يوم عرفة ، وأما من ناحية فقه العبادات فلأنها تشمل كل شعائر فريضة الحج طبقا لما أداه الرسول ﷺ أو أقره ووافق عليه .

بدأت رحلته ﷺ لأداء فريضة الحج فى الخامس والعشرين من ذى القعدة فى السنة العاشرة للهجرة ، وقد حرص على مصاحبته فيها جماهير غفيرة من المسلمين يصعب استقصاء عددهم ، وإن كان هناك من قدر عددهم بمائة وأربعة وعشرين ألفا . (١)

وقد يكون من الخير أن نروى خبر حجة الوداع من بدء القيام بها إلى نهايتها طبقا لما رواه الإمام جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن جابر ؛ فهى الوثيقة التى تثبت الكليات وكثيرا من الجزئيات (٢) .

وقد أطلق على هذه الحجة المباركة تارة حجة الوداع ، وتارة أخرى حجة الإسلام ،

(١) المغازى للدهمى ، ص : ٥٩١ .

(٢) وردت رواية عن الإمام جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن جابر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حج ثلاث حجج قبل أن يهاجر .

ورواية أخرى عن وكيع عن سفيان عن ابن جريج عن مجاهد أنه حج حجتين وهو بمكة قبل الهجرة .

ورواية ثالثة أنها واحدة بمكة وهذه الحجج - فيها ترجح لو صح خبرها - تختلف فى شعائرها عن حجة الإسلام .

وتارة ثالثة حجة البلاغ ، ويروى عن عبد الله بن عباس أنه كان يكره أن يقال حجة الوداع ، ويقول : حجة الإسلام ^(١) لأنها الفريضة التي تؤدي مرة واحدة .

ولقد اهتم مؤرخو السيرة بالتسميات التي أطلقت على هذه الحجة ، وعلة كل تسمية ، فمن أطلق عليها حجة الوداع ذكر أن سبب تسميتها بذلك أن الرسول ﷺ قد ودع الناس فيها وقال : « لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا » وعلم ﷺ أنه لا يتفق له بعد هذا وقفة أخرى خاصة أنه قد نزلت في أيام التشريق سورة النصر ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿

ومن سماها حجة البلاغ استند إلى قوله ﷺ بعد كل فقرة من الخطبة يوم عرفة جملة : « هل بلغت ؟ » ولأنه بلغ الناس فيها الشرع في الحج قولاً وفعلًا

ومن سماها حجة الإسلام قال ذلك لأنها التي حج فيها بأهل الإسلام ليس فيها مشرك ، ولأنه لم يحج من المدينة بعد فرض الحج غيرها .

وثبت فريق أطلق عليها حجة التمام والكمال ؛ لأن الله تعالى أنزل في عصر يوم عرفة والرسول ممتط صهوة ناقته قوله - تعالى - : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (٢)

ومهما كانت التسمية فإن تسميتها حجة الوداع هو القول الأشهر (٣) .

وأما بخصوص نزول آية الإكمال السالف ذكرها فإن الروايات تجمع على نزولها بعد عصر يوم الجمعة والنبي واقف بعرفات على ناقته العضباء - وفي رواية القصواء - فحين نزولها كاد عضد الناقة أن يدق من شدة ثقلها فبركت .

(١) حجة الوداع للكاند هلوى ص : ١٤٠ .

(٢) المائدة الآية : ٣ .

(٣) حجة الوداع للكاند هلوى ، ص : ١٤١ .

ويروى أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر - رضى الله تعالى عنه - فقال له النبي ﷺ : ما يبكيك يا عمر ؟ قال : بكائي أنا كنا في زيادة من ديننا ، فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص ، قال : صدقت ، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام ولا شيء من الفرائض والأحكام ، وعاش النبي بعد نزولها واحدا وثمانين يوما . (١)

وقد يكون من الخير - وقد أوردنا بعض أخبار حجة الوداع من الكتاب الذى يحمل اسمها - أن نروى خبرها طبقا لما رواه الإمام جعفر الصادق عن أبيه الإمام محمد الباقر عن جابر رضى الله عنه (٢) .

أذن رسول الله ﷺ في الناس بالحج ، فاجتمع في المدينة بشرٌ كثير . فخرج رسول الله ﷺ لخميس بقين من ذى القعدة ، أو لأربع ، فلما كان بذي الحليفة ولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبى بكر الصديق ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ : كيف أصنع ؟ فقال : اغتسلى واستغفرى بثوب . وصلى رسول الله ﷺ في المسجد ، وركب ناقته القُصواء حتى استوت به على التيداء ، فنظرت إلى مدبصرى ، بين يدي رسول الله ﷺ من راکب وماشٍ ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك . فأهّل رسول الله ﷺ بالتوحيد ، وأهّل الناس بهذا الذى يُهلّون به ، فلم يردّ عليهم شيئا منه . ولزم رسول الله ﷺ تليّته . ولسنا ننوى إلا الحج ، لسنّا نعرف العمرة ، حتى أتينا البيت معه استلم الركن فرمّل ثلاثاً ومشى أربعاً ، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] ، فجعل المقام بينه وبين البيت .

قال جعفر : فكان أبى يقول - لا أعلمه ذكره إلا عن رسول الله ﷺ : كان يقرأ في الركعتين ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١] و ﴿ قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ﴾ [الكافرون : ١] . ثم رجع إلى البيت فاستلم الركن ثم خرج من

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٢) تاريخ الإسلام للدهبى ، قسم المغازى ص : ٥٨٣ وما بعدها .

الباب إلى الصِّفَا ، حتى إذا دنا من الصفا قرأ ﴿ إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٥٨] ، أبداً بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا فَرَقَى عليه حتى إذا رأى البيت فكَبَّرَ وهلل وقال : لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو على كل شيء قدير . لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ثم دعا بين ذلك فقال مثل ذلك ثلاث مرات . ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصَبَّتْ قدماء رمل في بطن الوادي ، حتى إذا صَعِدَ مشى حتى أتى المروة ، فعَلَا عليها وفعل كما فعل على الصفا . فلما كان آخر الطواف على المروة قال : إني لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أَسُقِ الهَدْيَ وجعلتها عُمْرَةً . فمن كان منكم ليس معه هَدْيٌ فَلْيُحْلِلْ وَلْيُجْعَلْهَا عُمْرَةً . فحلَّ الناس كلهم وقصَّروا ، إلا النبي ﷺ ومن كان معه الهدى .

فقام سُرَاقَةُ بن مالك بن جُعْشَم فقال : يا رسول الله أَلْعَامِنَا هذا أم للأبد ؟ قال فَشَبَّكَ أصابعه وقال : دخلت العمرة مع الحج هكذا ؛ مَرَّتَيْنِ ، لا ؛ بَلْ لأَبَدَ الأَبَدِ .

وقدم على - رضى الله عنه - من اليمن يُبْدِنُ إلى النبي ﷺ فوجد فاطمة مَن حَلَّ وَلَبِسَتْ ثياباً صَبِيغاً واكْتَحَلَتْ ، فَأَنكَرَ عليها . فقالت : أبى أمرنى بهذا . فكان على يقول بالعراق : فذهبت إلى رسول الله ﷺ مُحَرَّشًا بِالَّذِي صَنَعْتُهُ ، مُسْتَفْتِيًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : صَدَقْتُ ، صَدَقْتُ . ماذا قلت حين فرضت الحج ؟ قال : قلت : اللهم إني أَهْلٌ بما أَهَلَّ به رسولك . قال : فإن معى الهدى فلا تَحْلِلْ . قال : فكان الهدى الذى جاء معه ، والهدى الذى أتى به النبي ﷺ من المدينة مائة .

ثم حلَّ الناس وقصَّروا ، إلا رسول الله ﷺ ومن معه هَدْيٌ .

فلما كان يوم التَّروِيَةِ وَجَّهُوا إلى مِنَى ، أَهَلُّوا بالحج ، وركب رسول الله ﷺ فَصَلَّى بِمَنَى الظَّهْرِ وَالْعَصَرَ وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ وَالصُّبْحَ . ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس وأمر بِقَبَّةٍ مِنْ شَعْرِ فُضِرَتْ لَهُ بِنَمْرَةٍ ، فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقفٌ عند الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية ، فأجازه رسول الله ﷺ حتى أتى عَرَفَةَ فوجد القبة قد ضُرِبَتْ لَهُ بِنَمْرَةٍ فَزَلَّ بِهَا ، حتى إذا زاغت الشمس أمر

بالقصواء فَرَحِلَتْ له ، فركب حتى أتى بطن الوادى ، فخطب الناس وكان ذلك قبل الظهر فقال : (*)

« إن دماءكم وأموالكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي ، ودماء الجاهلية موضوعة . وأول دم أضعه من دمانا دم ابن ربيعة بن الحارث ؛ كان مُسْتَرَضِعاً في بني سعدٍ فقتلته هذيل . وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربانا ؛ ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله . واتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، وإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبرِّح . ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وقد تركت فيكم ما لن تضلُّوا بعده إن اعتصمتم به ؛ كتاب الله تعالى . وأنتم مسئولون عني ، فما أنتم قائلون ؟ » قالوا : نشهد أن قد بلغت وأديت ونصحت . فقال ؛ بإصبعه السَّبَّابة يرفعها إلى السماء ويكبها إلى الناس : « اللَّهُم اشهدْ » ؛ ثلاث مرَّات . ثم أذن بلال ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئاً . ثم ركب حتى أتى المَوْقِفَ ، فجعل بطن ناقته إلى الصَّخَرَاتِ ، وجعل جبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حين غاب القرص وأردف أسامة بن زيد خلفه فدفع وقد شقق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مَورِكَ رَحْلِهِ ، ويقول بيده : « أيها الناس ، السَّكِينَةُ السَّكِينَةُ » ، كلما أتى جبلاً من الجبال أَرْتَحَى لها قليلاً حتى تَصْعَدَ . حتى أتى المَزْدَلِفَةَ ، فصل بها المغرب والعشاء بأذان وإقامتين ، ولم يصل بينهما شيئاً . ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة . ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فرقى عليه فحمد الله وكبره وهلله فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً ، ثم دفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس ، وكان رجلاً حسن الشعر وسيماً . فلما دفع رسول الله ﷺ مَرَّ الطُّعْنُ يَجْرِينَ ، فطفق الفضل ينظر إليهن ، فوضع رسول الله

(*) هذا جزء من الخطبة اقتطفه المؤلف ، وليس الخطبة كلها .

ﷺ يده على وجه الفضل ، فصرف الفضل وجهه من الشَّقِّ الآخر فحول رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل . حتى إذا أتى مُحَسَّرًا (*) حرك قليلاً ، ثم سَلَكَ الطريق الوُسْطَى التى تخرجك على الجَمْرَةِ الكبرى ، حتى أتى الجَمْرَةَ التى عند المسجد فرمى سَبْعَ حَصِيَّاتٍ ، يَكْبَرُ مع كل حصاة مثل حصى الحَذَفِ ، رَمَى من بطن الوادى . ثم انصرف إلى المُنْحَرِ ، فنحر ثلاثاً وستين بدنةً ، وأعطى عليّاً - رضى الله عنه - فنحر ما غَبَرَ وأشركه في هذيه . ثم أمر من كل بدنة ببَضْعَةٍ فجُعِلَتْ في قدرٍ وطبخت فأكلوا من لحمها وشربوا من مَرَقِهَا .

ثم أفاض رسول الله ﷺ إلى البيت ، فصلى بمكة الظهر ، فأتى على بنى عبد المطلب يَسْقُونَ من بئر زمزم ، فقال : أَنْزِعُوا بَنِيَّ عَبْدَ الْمُطَلِّبِ ، فَلَوْلَا أَنْ تَغْلِبَكُمْ النَّاسُ عَلَى سَقَاتِكُمْ لَنَزَعْتُ مَعَكُمْ . فناولوه دَلْوًا فشرب منه .
أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (*) ، دون قوله : يُحْيِي وَيُمِيت .

خطبة الوداع :

احتفلت الروايات وكتب السيرة والتاريخ الإسلامى بخطبة الوداع وما صاحبها من أخبار مرتبطة بها ، نذكر منها : السيرة لابن هشام ، وصحيح البخارى ، والسيرة النبوية للطبري ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وإعجاز القرآن للباقلانى ، وتاريخ الرسل والملوك للطبري ، والكامل في التاريخ لابن الأثير ، والمغازي للواقدي ، وقسم المغازي من تاريخ الإسلام للذهبي ، وغير ذلك من كتب التاريخ والأخبار .

وقد لاحظنا أن رواية الخطبة لكل من الجاحظ في البيان والتبيين وأحمد بن عبد ربه في العقد الفريد متطابقتان مما يدل على أن مصدرهما واحد ، أو أن الثانى أخذ عن الأول ، وكذلك لاحظنا أن رواية كل من ابن هشام في كتابه السيرة النبوية ، والطبري في كتابه الذى يحمل العنوان نفسه متطابقتان ، مما يدل أيضا على أن مصدرهما واحد أو أن

(*) محسر : واد قرب المزدلفة بين عرفات ومنى .

(*) صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب حجة النبی ﷺ .

اللاحق فيها وهو الطبري ٣١٠ هـ قد أخذ عن السابق وهو ابن هشام ٢١٣ هـ ولقد اعتمدنا النص الذي جاء به كل من ابن هشام والطبري : لأن الأول راويه تخصص في كتابة سيرة رسول الله ﷺ ولأن الثاني إمام راوية مفسر مؤرخ فقيه .

ولأن العالمين الجليلين سالفى الذكر لم يسجلا صيغة التحميد التي استهل بها رسول الله ﷺ خطبته بل اكتفيا بذكر جملة « فحمد الله وأثنى عليه » فقد أثبتنا نص التحميد والثناء من رواية الجاحظ وابن عبد ربه .

قال ﷺ :

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو خير »

وبقية الخطبة كما أثبتها ابن هشام والطبري هي ما يأتى : أيها الناس : اسمعوا قولى ؛ فإننى لأدري لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً ؛ أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم ، فيسألکم عن أعمالکم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعا فى بنى ليث ، فقتلته هذيل فهو أول ما أبدا به من دماء الجاهلية .

أما بعد أيها الناس : فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم ، أيها الناس : « إنما النسىء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يُهلّونهُ عاما ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ؛ فيحلّوا ما حرم الله » وإن الزمان قد استدار

كهيتته يوم خلق الله السموات والأرض « وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حُرُم » ، ثلاثة متوالية ، ورجب مضر ، الذى بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أما بعد أيها الناس ، فإن لكم على نساءكم حقا ، ولهنّ عليكم حقا ، لكم عليهنّ أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهنّ أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإنّ الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين فلهنّ رزقهنّ وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا ؛ فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإننى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمرا بينا ، كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمنّ أن كلّ مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحلّ لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمنّ أنفسكم ؛ اللهم هل بلغت ؟ (*) .

قال ابن إسحاق : فذكر لى أن الناس قالوا : اللهم نعم ؛ فقال رسول الله ﷺ : اللهم أشهد .

وللخطبة بقية أوردها ابن هشام عن ابن إسحاق (١) :

قال ابن إسحاق : حدثنى ليث بن أبى سليم عن شهر بن حوشب الأشعرى ، عن عمرو بن خارجة قال : بعثنى عتاب بن أسيد إلى رسول الله ﷺ فى حاجة ، ورسول الله ﷺ واقف بعرفة ، فبلغته ، ثم وقفت تحت ناقة رسول الله ﷺ وإن لغامها ليقع على رأسى ، فسمعته وهو يقول : « أيها الناس ، إن الله قد أدى إلى كلّ ذى حق حقه ،

(*) ورجب مضر : إنما قال ذلك لأن ربيعة كانت تحرم رمضان ، وتسميه رجباً ، فبيّن - عليه الصلاة والسلام - أنه رجب مضر لأوجب ربيعة ، وأنه الذى بين جمادى وشعبان .

غير مبرح : غير شديد .

عوان : جمع عانية ، وهى الأسيرة .

(١) السيرة ٢ / ٦٠٥

وإنه لا تجوز وصية لوارث ، والولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، ومن ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً» (*) .

والموقف في عرفة متسع وفسيح ولذلك كان هناك من يردد بصوت مرتفع ما يقوله رسول الله ﷺ

عن عباد بن عبد الله بن الزبير ، قال : كان الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله وهو على عرفة : ربعة بن أمية بن خلف ، قال : يقول له رسول الله : قل أيها الناس إن رسول الله يقول : هل تدرون أي شهر هذا ! فيقولون : الشهر الحرام ، فيقول : قل لهم : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا . ثم قال : قل : إن رسول الله يقول : أيها الناس ؛ فهل تدرون أي بلد هذا ؟ قال : فيصرخ به ، فيقولون : البلد الحرام ، قال : فيقول : قل : إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة بلدكم هذا . ثم قال : قل : أيها الناس ، هل تدرون أي يوم هذا ؟ فقال لهم ، فقالوا : يوم الحج الأكبر . فقال : قل : إن الله حرم عليكم أموالكم ودماءكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا (١) .

وكان الرسول ﷺ يشرح للمسلمين المواقف ويبين لهم المناسك فحين وقف بعرفة ، قال : هذا الموقف - للجبل الذي هو عليه - وكل عرفة موقف . وقال حين وقف على قرح صبيحة المزدلفة : هذا الموقف ، وكل المزدلفة موقف ، ثم لما نحر بالمنحر قال : هذا المنحر ، وكل منى منحر ؛ فقضى رسول الله ﷺ الحج وقد أراهم مناسكهم ، وعلمهم ما افترض عليهم في حجهم في المواقف ، ورمى الجمار والطواف بالبيت ، وما أحل لهم وما حرم عليهم ، فكانت حجة الوداع وحجة البلاغ ؛ وذلك أن رسول الله لم يحج بعدها (٢) .

(*) اللغام : الرغبة التي تخرج على فم البعير .

معنى الصرف والعدل : أصل العدل : أن يقتل الرجل بالرجل ، والصرف : أن ينصرف عن الدم إلى أخذ الدية .

(١) السيرة النبوية لابن جرير الطبري ، ص : ٣٥٩

(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها .

بين يَدَي خطبة الوداع :

كان رسول الله ﷺ يشعر أن خطبته هذه لن تتكرر مرة أخرى في هذا الموقع الذى هو عرفة ، ولم يلبث حسّه النبوى أن تحقق ؛ ففي عصر ذلك اليوم نزل عليه قول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعَمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ فكان نزولها بمثابة الإخبار الإلهى بنهاية الرسالة ، وبالتالي نهاية أجله ﷺ ومن ثم فقد استهل الرسول خطبته بعد أن حمد الله وأثنى عليه بقوله : « أيها الناس : اسمعوا قولى ، فإننى لا أدرى ، لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً » وكان الرسول قد قال فى مستهل اتجاهه لأداء الفريضة : « اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة » .

لقد كان استهلال الخطبة على هذا النحو من الإشارة إلى الشك فى تكرارها مرة أخرى بمثابة استجابة للآية الكريمة ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ .

كان لنزول هذه الآية صدهاء عند صحابة رسول الله الذين شعروا بجلال الموقف المترتب على نزولها ، وقد تعدى صدهاها المحيط الإسلامى فيما بعد إلى دوائر أهل الكتاب ، وذلك حين جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال : يا أمير المؤمنين ، آية فى كتابكم تقهأونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال : أى آية ؟ قال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعَمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (١) ، فقال : إننى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه ، والمكان الذى نزلت فيه ، نزلت على رسول الله ﷺ بعرفات فى يوم جمعة (٢) .

ولم يقف الأمر بجلال هذه الآية من كتاب الله عند اليهودى الذى أجرى حواراه مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، بل تعداه إلى يهودى آخر كان عند ابن عباس وهو يقرأ ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ الآية فقال اليهودى : لو أنزلت علينا - هذه الآية -

(١) سورة المائدة من ، الآية : ٣

(٢) صحيح البخارى (كتاب الإيمان) باب زيادة الإيمان ونقصانه ١ / ١٨

لاتخذنا يومها عيداً ، فقال ابن عباس : فإنها نزلت في يوم عيد ، يوم الجمعة ، يوم عرفة^(١).

لقد اشتملت الخطبة على كثير من القضايا التي تهّم المسلمين في كل زمان ومكان ، بل تهّم الناس جميعاً ، فقد كان الرسول يوجه نداءه إلى الناس لعلمه ﷺ أن ما يتناوله من قضايا إنما ينصرف إلى الناس - كل الناس - وليس إلى أولئك الذين وقفوا معه وحدهم بعرفة في ذلك الموسم ، وكان أول ما نبّه إليه حرمة الدماء ، وحرمة المال ، فدماء المسلمين محرم سفكها ، وأموال المسلمين حرام استباحتها ، ولقد اهتم الإسلام بحياة الناس ، مثلما أحاط الملكية والأموال بسياج من القداسة جعل مصادرتها أو سرقتها أو ما يسمى تأميمها أمراً بالغ الحرمة ، وجريمة تستحق أشد العقاب . ثم يردف الرسول ﷺ القول بطلب أداء الأمانة : « فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها » وهذا التوجيه النبوي مستمد من التوجيه القرآني في قوله - عز وجل - : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ فالأمانة فضلاً عن كونها قيمة إسلامية - بل دينية - كبرى ، فهي أيضاً قيمة إنسانية عظيمة ، فإن مادة « أمن » فيها سعادة الناس ، واستقرار البشر ، وإن أهل مكة في مجال حبهم الكبير لمحمد ﷺ قبل المبعث لم يجدوا من كمال الوصف الذي يصفونه به أفضل ولا أعظم من صفة الأمانة فلقبوه بالأمين .

ولما كان الربا شائعاً في المجتمع المكي بخاصة ، وفي المجتمع العربي بعامة ، بحيث كان اقتصاد العرب مرتبطاً به مشدوداً إليه ، فقد حرمه الله في آيات محكمات من كتابه العزيز في سورتين هما البقرة وآل عمران ، يقول - عز وجل - : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن

(١) تاريخ الإسلام - مجلد المغازي : ص : ٥٨ .

رَبِّهِ فَأَنْهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿١﴾

ويقول تعالى في نفس السورة مشددا النهى عن بقايا التعامل بالربا ، مؤذنا العصاة بحرب منه : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢﴾

إن الأمر الإلهى بالانتهاء عن التعامل بالربا من أشد أوامره - جل وعلا - حسماً وجلاء ، فقد آذن المتعاملين به بحرب منه ومن رسوله ، وفي ذلك نفى لصفة الإيثار عنهم ، ومن ثم وجب حربهم مثلما تجب محاربة الكفار سواء بسواء .

ويتكرر نفس المنهج الإلهى فى تحريم الربا وإنذار آكليهِ بعذاب النار التى أعدها الله للكافرين فى قوله - عز من قائل - : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٣﴾

الرسول ﷺ يحسم قضية الربا ويؤكد تحريمه استجابة للأوامر الربانية فى آيات الربا فيقول :

« وإن كل ربا موضوع - أى : لاغ ومهدر - ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا » .

وقد قسم الفقهاء الربا إلى نوعين : ربا الفضل ، وربا النسيئة ، فأما ربا الفضل

(١) البقرة ، الآيةان : ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٢) البقرة ، الآيةان : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٣) آل عمران ، الآيةان : ١٣٠ ، ١٣١ .

فيكون في البيع والشراء ، وأما ربا النسئة فيكون في الديون ، وكلا النوعين من الربا قد حرمه الله تحريماً قاطعاً واضحاً لا لبس فيه لا إبهام ، ومن ثم لا اجتهد في شأنه ؛ لأنه لا اجتهد مع نص ، والأمر هنا ليس مقروناً بنص واحد ، وإنما محسوم بنصوص عدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وكان العباس عم رسول الله ﷺ - شأنه في ذلك شأن كثير من أغنياء قريش - يتعامل بالربا ، فأدان رسول الله تعالى عمه بالربا . وهو صاحب المقام الأسمى لدى رسول الله ، وهو حاضن للدعوة قبل أن يعلن إسلامه ، والحاضر بيعة العقبة الأولى مع رسول الله لكي يطمئن على مقدرة الأنصار في حماية ابن أخيه ورسالته ، وبذلك تكون آفة التعامل بالربا قد أدينت وحرمت إلى أبد الأبد .

ويتناول الرسول ﷺ موضوع الدماء فيقول : « وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وإن أول دم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية » . ومثلما بدأ الرسول بتحريم ربا عمه العباس فإنه اختار دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، لقد أهملت أكثر الروايات اسم القتيل ، ولكن الجاحظ وابن عبدربه قد حددا شخصية القتيل ، فذكرا أنه عامر^(١) وذكر الكاندهلوي أن اسمه إياس^(٢) ولأن جريمة القتل قد ارتكبت في الجاهلية فقد أسقطها الإسلام ، فلا يحاسب مقترفها ولا يقتص منه ؛ لأن الإسلام يجب ما قبله ، ومن المعلوم أن إهدار دماء الجاهلية سابق على حجة الوداع ، ولكن الرسول ﷺ كرر ذلك في خطبة الوداع شأن تكراره تحريم الربا ليقطع أي مظنة إمكان الأخذ بدماء الجاهلية ، ضارباً المثل في ذلك بدم واحد من أبناء أعمامه .

ويروى كل من الجاحظ وابن عبدربه هذه الفقرة من خطبة الوداع ، ولم ترد عند الرواة الآخرين : « وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية ، والعمد قود ،

(١) البيان والتبيين ٢ / ٣١ .

(٢) حجة الوداع ، حاشية ص : ٩٧ .

وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بغير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية» (١).

بعد أن أهدر رسول الله ﷺ ربا الجاهلية ودماءها ، أهدر آثارها واستثنى من ذلك سدانة البيت ، وكانت لبني عبد الدار فأقرها فيهم ، ولا تزال كذلك حتى اليوم ، وسدانة البيت هي خدمة الكعبة ، كما استثنى ﷺ أيضا سقاية الحجيج ، وكانت لقريش فأقرها لهم .

وفي هذه الفقرة أصدر رسول الله ﷺ شكل القصاص في قتل العمد وقتل شبه العمد ، فجعل قصاص العمد قتل القاتل بالقتيل ، وهو القود ، وحدد دية القتل شبه العمد بمائة بغير لا غير ، ومن زاد عليها فقد خالف قواعد الإسلام واستمسك بعادات الجاهلية .

وفي غواية الشيطان المسلمين في أرض الحجاز وصرفهم عن عبادة الله يقول ﷺ : «أما بعد : أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم » .

المعنى المقصود بعبادة الشيطان هو طاعته في الانصراف عن عبادة الله ، والعودة إلى عبادة الأصنام ، وهذا المعنى مأخوذ من قوله - عز وجل - في سياق حديث سيدنا إبراهيم لأبيه : ﴿يَتَأْتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (٢) ومن ثم كانت عبادة الأصنام ، قد صارت مستحيلة في أرض الحرمين ، ولن تعود إليها أبدا ، مصداقا لقوله ﷺ : « إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبدا » ولقد كان هذا القول انسجاما مع قول الله - عز وجل - : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ (٣).

(١) البيان والتبيين ٢ / ٣١ والعقد الفريد ٤ / ٥٧ .

(٢) سورة مريم ، الآية : ٤٤ .

(٣) التوبة ، الآية : ٢٨ .

ولأن العرب كانت تتحايل على شهور السنة بالنسبة - وهو التأخير - وذلك بتأخير أحد الأشهر الحرم عن ميعاده ، أو يُحْلَوْنَ شهرا حراما ويحرمون شهرا من غير الأشهر الحرم ، وهى عادة جاهلية قديمة ، فقد حكم الرسول على هؤلاء المزيفين للأشهر - عن طريق النسبة - بالكفر ؛ لأنهم يحلون عامما ويحرمونه عامما . وفى ذلك يقول ﷺ : «أيها الناس : إن النسبة زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا يحلون عامما ويحرمونه عامما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله » .

والمعروف أن الأشهر الحرم أربعة ، هى : رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، فكانوا فى بعض السنين يحلون المحرم - مع أن اسم الشهر يؤكد تحريمه - ويحرمون صفر الذى يتلوهُ ؛ ولذلك كانوا يسمون المحرم وصفر بالصَّفَرَيْنِ ، وكان تحريمهم لهذا الشهر وإحلالهم لذلك بقصد مواطأة عدة الأشهر الحرم ، وهى أربعة .

وتغضى خطبة الوداع فى التعامل مع الزمان الذى يتحتم التزامه والابتعاد عن العبث به ، فقد حدد الخالق سبحانه الشهور وعددها منذ بدء الخليقة ، وفرض فيها أربعة حرمة ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ .

هكذا حدد القرآن الكريم عدد الشهور الحرم بأربعة ، ثم جاءت السنة الشريفة فتحدت من خلالها أسماء هذه الشهور ، وهى طبقا لما جاء فى خطبة الوداع : ثلاثة متوالية - ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم - ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان . ولقد حدد الرسول رجب بنسبته إلى مضر التى كانت تلتزم به بين جمادى الثانية وشعبان ، وذلك حتى لا يختلط مع رجب ربيعة ؛ لأن ربيعة كانت تحرم رمضان وتسميه رجا . فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة ، وأنه الذى بين جمادى وشعبان .

يقول الرسول ﷺ فى سياق الزمان : « وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم : ثلاثة متوالية ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » .

يقول أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي المتوفى ٣٨٨ هـ في شرح هذه الفقرة من خطبة رسول الله : « كان أهل الجاهلية يخالفون بين أشهر السنة بالنسبة الذي كانوا يعتادونه ويقطعون به نسقها ، فيقدمون ويؤخرون كتأخيرهم المحرم إلى صفر ، وقد ذكر الله - سبحانه - ذلك في كتابه فقال : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا ﴾ إنما كانوا يفعلون ذلك لأسباب تعرض لهم ، وذحول - أحقاد - ودماء تقع بينهم ، فربما استعجلوا الحرب ، فاستحلوا الشهر المحرم ، ثم حرموا من أجله شهر صفر بدلا منه ، وإذا استحلوا رجبا حرموا من أجله شعبان ، وعلى هذا القياس في سائر الشهور ، فيتحول حسابهم في شهور السنة ، و يتبدل إذا أتى على ذلك عدة من السنين حتى يتصرم ذلك الحساب ويستدير ويعود الأمر إلى أصل الحساب فيستقبل أول السنة من لدن المحرم ، فاتفق عام حج النبي ﷺ استدارة الزمان وعوده إلى أصل ما أنشئ عليه حساب أشهر السنة أولا ، فوقع الحج في شهر ذي الحجة » .

ويمضى أبو سليمان الخطابي قائلا : « وقد ذهب قوم من العلماء إلى أن النبي ﷺ إنما تأتى بالحج وأخره مع الإمكان إلى السنة التي حج فيها للذي كان وقع من النسبة فيها حتى وافوا السنة التي حج فيها استدارة الزمان وعود الأمر في ذلك إلى أصل الحساب ، فحج فيها حجة الوداع » (١) .

وهناك تعليل آخر قال به بعض الدارسين المحدثين حول قول الرسول : « وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » على هذا النحو :

كانت خطبة الوداع يوم الجمعة ٩ من ذي الحجة سنة ١٠ هـ ، أى : قبل عشرين يوما من غرة المحرم سنة ١١ هـ ، وهو اليوم الذي وافق بداية العام العبرى ، وهو تقويم قمرى الشهر شمسي السنة يؤرخ به العبرانيون لبدء الخليقة التي يحددون لبدايتها سنة ٣٧٦١ ق . م . فهناك من الباحثين من يربط بين الحديثين : خطبة الوداع

(١) أعلام الحديث في شرح صحيح البخارى ٣ / ١٧٨١ ط مركز إحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى .

وموافقتها زمنا لهداية العام العبرى ، ويرى أن هذا التاريخ يمثل استدارة الزمان كيوم خلق الله السموات والأرض ، وهو ما عبر عنه الرسول ﷺ في قوله : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » .

وأما الاثنا عشر شهرا فهي الشهور العربية وليس غيرها . وهى التى أقرها الإسلام وعناها القرآن ، وإن كان ما ذكر منها فى القرآن الكريم هو شهر رمضان وحده دون غيره ؛ لأنه الشهر الذى تقترن به الفريضة الثالثة وهى الصوم .

ولأن المجتمع البشرى بعامة والمجتمع الإسلامى بخاصة محوره الأسرة الصالحة ، ولا يتم صلاح الأسرة إلا بصلاح الزوجة وامتنالها للوصف الربانى الذى جعلها سكنا لزوجها مقترنا بها يربط بينهما من مودة ورحمة . فقد قرر ﷺ فى خطبة الوداع حقوق كل من الزوجة والزوج موصولة الأسباب بواجباتهم :

« أما بعد : أيها الناس ؛ فإن لكم على نساءكم حقا ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله » .

لقد بدأ رسول الله ﷺ بذكر حق الزوج ، ثم ثنى بذكر حق الزوجة ؛ لأن الرجال قوامون على النساء ؛ ولأن الله - سبحانه - بدأ خلق الإنسان بالرجل ثم المرأة - آدم ثم حواء - ويحمل رسول الله حق الأزواج على الزوجات بقوله : « ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه » . وقد ذهب الشراح فى ذلك مذاهب شتى ، حتى إن بعضهم فسر عبارة « ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه » بالزنا ، وهو تفسير خاطئ ، لما ينبئ على الزنا من حدّ وهو هنا الرجم ، وأما المعنى المقصود فهو ألا يأذن لأحد يكرهه الزوج فى دخول البيت والجلوس مطمئنا مرتاحا ، على فرش موطأ ، أيا كانت شخصية هذا الأحد ، رجلا كان أو امرأة ، قريبا أو غريبا ، وقد كانت عادة العرب فى جاهليتهم أن يجالس الرجال النساء فى غير ما إحساس برية أو شعور بالعيب .

وعلى الزوجة أيضا ألا تأتي بفاحشة مبينة ، والمعنى الذى يتبادر إلى الذهن هنا هو تفسير الفاحشة بالزنا ؛ لأن من معانى الفاحشة الزنا ، ولكن هذا التفسير مستبعد أيضا للسبب الذى ذكرنا فى « ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه » .

وعلى كل حال فقد ذهب المفسرون فى تعريف الفاحشة المبينة مذاهب شتى ، فقال بعضهم : إنها الزنا ، وقال آخرون : إنها سائر المعاصى بما فى ذلك الزنا ، وهناك فريق فسر الفاحشة المبينة فى ضوء ما تناوله به الرسول ﷺ فى خطبة الوداع وقرر أن المقصود بالفاحشة هنا هو بغض الزوج والنشوز ، أو هو الأذى وبذاءة اللسان على الأهل ، وسوء العشرة .

تلك هى حقوق الزوج ، فإذا لم تقم بها الزوجة « فإن الله قد أذن لكم - معشر الأزواج - أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح » لأن الزوجة التى تأتى من الأفعال ما قد سلف ذكره تكون قد أخلت بروح الوثام ، وهدمت ركن المودة ، وسلبت الزوج حق السكينة ، وهى قضايا تعرفها الزوجة ، ومن ثم تكون مستحقة للتأديب الذى أذن الله تعالى به من هجر فى المضاجع ، وضرب غير مبرح ، وتلك حقوق مقررة للزوج ، ليس حيال كل زوجة - فالزوجة الصالحة خليقة بالتكريم ، جديرة بالاحترام - ولكن حيال الزوجة المستحقة للتأديب مثلما يؤدب الناشئ من الصبية والفتيات .

فأما الزوجة المبرأة من هذه النقائص فلها جميع الحقوق التى نص عليها الشرع ، والتى تمثل لها الرسول بثلاث كلمات جامعات هى « رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .

وقد تضمنت هذه الفقرة من خطبة الوداع من التوصية بالنساء ما لم يتضمنه قانون سماوى سابق ، ولا تشريع دنيوى لاحق من الإبانة والوضوح وجليل السبب وكريم التعليل : « واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان - أى كالأسرى - لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله » .

وتشبيه الزوجات بالعوان ليس فيه ما يضير مشاعرهن ؛ لأن الزوجة أكثر تصرفاتها

مقيدة بموافقة الزوج ، الزوج المتصف بالعدالة وحسن المعاملة ، فقد روى عن الرسول ﷺ قوله : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » (١).

وتمضى كلمات رسول الله في خطبته تلك مسربة بالنور ، وضاعة السنا طاهرة الصوغ ، نقية اللفظ ، ربانية الأحكام في قوله : « إنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله » .

ذلك أن الله - سبحانه - قد استأمن الأزواج على نساءهم ، وهذا أمر واضح في وصية رسول الله بهن ، وأى أمانة أخرى بالعناية من أمانة الله ؟ ! وأما كلمات الله التى بها صارت الزوجات حلالا لأزواجهن فهى كلمة التوحيد ، وهى أسمى كلمة فى الكون ، فهى جسم الإيمان ومفتاح الجنة .

ويمضى موكب كلمات النور المضيئة من فم رسول الله : « فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإننى قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمراً بيناً ، كتاب الله وسنة نبيه » .

« أيها الناس : اسمعوا كلامى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت » .

إن الرسول - وقد غمره الإلهام بتوقف الرحلة ونهاية الطريق - ابنه جماعة المسلمين إلى أن هداهم وإيمانهم سيظلان النور الذى يهديهم ، والنبراس الذى ينير حياتهم ما كانوا معتصمين بكتاب الله وسنة رسوله ، فإن تخلوا عن أحدهما أو كليهما غمر الضلال حياتهم ، وغلب الذل على أمرهم ، وتحولوا من سادة الدنيا إلى سقط المتاع .

ثم يؤكد الرسول ﷺ على سامعيه فى الموقف أن يجمعوا بين سماع القول والعمل به ، وفحوى ذلك أن المسلم أخو المسلم ، وقد أكدت الرسالة منذ بزوغ نورها على هذا المفهوم قرآنيًا فى قوله - جل وعز - : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وسنيًا فى قوله ﷺ :

(١) رواه ابن ماجه فى باب النكاح ، وكذلك الدارمى .

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» وهذه الأخوة لكى تؤتى ثمارها « لا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه » هى إذن أخوة مبرأة من كل إثم أو اعتداء أو انحراف ، وإن الانصراف عن هذه الالتزامات يُعدُّ بمثابة إيقاع الظلم بالجماعة الإسلامية ، ولقد صدق رسول الله ﷺ قولاً وفعلاً وتوقعاً وتنبؤاً ، فما أن تساهل المسلمون فى أخوتهم حتى ضاعت أرضهم ، واغتصبت أوطانهم وأعراضهم ، وتمزقت كياناتهم ، واستذلت جموعهم ، فضاعت الأندلس ، واغتصبت فلسطين ، وتقاتل الأفغان بعد انتصار ، وأحرقت البوسنة والهرسك ، واغتصبت فيها أعراض المسلمين الحرائر ، واستذلت قلة من الهندوس ملايين المسلمين فى كشمير ، وطورد المسلمون فى أوطان يشكلون الأغلبية بين سكانها ، بل طورد المسلمون فى ديارهم بأيدي حكام منهم .

إن المسلمين تخلوا عن أخوتهم التى ألزمهم القرآن والسنة بالاستمسك بها ، فتخلى عنهم المجد ، واختفت عنهم العزة ، وتفرق شملهم بعد اجتماع ، وتبدد جمعهم بعد التثام .

لقد بلغهم رسول الله فى قوله الشريف بين الفقرة والأخرى مشهداً الله على التبليغ : اللهم هل بلغت ، فقال الناس : اللهم نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم فاشهد » .

وفى رواية الجاحظ وابن عبد ربه للخطبة أورداً فيها قضية الميراث والوصية فى المال وحدودها وأحكامها أخرى ، وذلك فى قوله الشريف : « أيها الناس ، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث ، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى لغير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

كانت خطبة الوداع أو خطبة البلاغ تأدية للشهادة وتبليغاً للأمانة ، وطرحاً للوصايا الأخيرة ، أخذ فيها الرسول على المسلمين العهد والميثاق ، ومحا فيها آثار الجاهلية وطمسها ، ووضعها تحت قدميه ، ووضع المسلمين على المحجة البيضاء .

خطبة الفراق :

كانت خطبة رسول الله ﷺ يوم عرفة خطبة الوداع ؛ ففيها - كما رأينا - شرع أحكاماً نهائية في موضوعات متصلة الأسباب بالعقيدة وبالنصح والإرشاد والتوجيه وإبطال عادات جاهلية كانت بعض ظلالها تطل على الساحة الإسلامية ، وغير ذلك من الأحكام التي سلف ذكرها . وبذلك كانت هذه الحجة - الوحيدة - بمثابة وداع في إصدار الأحكام وتشريع المبادئ التي قضى الله - سبحانه وتعالى - بإكمالها وتكفل بكمالها ، فنزلت الآية الكريمة ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ .

ويبقى بعد ذلك محمد الإنسان الذي يغادر الدنيا بعد أن أدى أسمى رسالة ، ويستقبل الآخرة ليلقى وجه ربه آمناً مطمئناً ، وقد سعى المرض إلى أوصاله وآلم جسمه الشريف ، فأراد أن يبريء ذمته - وهي بريئة مطهرة - من كل دين ، ويسدّ دينه إن كان ثمت ما هو مستحق عليه من مالٍ أو قودٍ (قصاص) .

عن الفضل بن عباس قال : جاءني رسول الله ﷺ فخرجت إليه فوجدته موعوكا قد عصب رأسه ، فقال : خذ بيدي يا فضل ، فأخذت بيده حتى جلس على المنبر ثم قال : ناد في الناس ، فاجتمعوا إليه ، فقال :

« أما بعد : أيها الناس ، فإنني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وإنه قد دنا مني خفوق بين أظهركم (خفق النجم يخفق خفوقاً : غاب ، وخفق الطائر : طار) فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه (من القود : وهو القصاص) ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ولا يخش الشحاء من قبلي ؛ فإنها ليست من شأني ، ألا وإن أحبكم إليّ من أخذ مني حقاً إن كان له ، أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس . وقد أرى أن هذا غير مُغْنٍ عني حتى أقوم فيكم مراراً »

ثم نزل فصلى الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر فعاد لمقالاته الأولى .

فادعى رجل عليه بثلاثة دراهم ، فأعطاه عوضها ، ثم قال :

« أيها الناس : من كان عنده شيء فليؤده ، ولا يقل فُضُوح الدنيا ، ألا وإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة » .

ثم صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم ثم قال : « إن عبداً خيّر الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده » فبكى أبو بكر وقال : فدينناك بأنفسنا وآبائنا .

إن محمداً ﷺ يعلم أنه لم يأكل حقاً ، ولم يشتم عرضاً ، ولم يظلم صاحب قضية ، ولكنه يضرب المثل الطيب للناس - كل الناس - حين تقترب الآخرة ، وتدق ساعة الفراق ، أن يتركوا صفحاتهم بيضاء ، فيردوا إلى كل صاحب حق حقه ، ولكل صاحب دين دينه ، ولكل صاحب قود قصاصه ، حتى يلقي الله طيب النفس ، أهلاً للرضى ، خليفاً بالمغفرة ، ولا يخشى في ذلك خجلاً ، أو يخاف فضيحة ؛ فخجل الآخرة لا ينفع ، وفضيحة الدنيا لا تساوى شيئاً إزاء فضيحة الآخرة .

كانت هذه المبادئ مؤذنة بالفراق ، معبدة الطريق إلى جنة الرضوان ، وهو ما عبّر عنه رسول الله ﷺ قائلاً في شفافية من اللفظ ، وروحانية من العبارة : « إن عبداً خيّر الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عنده » . ففهم الصحابة أن ساعة الفراق قد حانت ، وأن رحلة رسول الله إلى الآخرة قد دنت ، فأجهشوا بالبكاء . وقال صاحبه وصديقه أبو بكر باكية : « فدينناك بأنفسنا وآبائنا يا خير خلق الله » .



أدعية رسول الله ﷺ وروحانياته

الفصل الأول : الدعاء والتسبيح والابتهال .

الفصل الثاني : الأحاديث القدسية .



الفصل الأول

الدعاء والتسبيح والابتهال

الدعاء والتسبيح والابتهال

الله - سبحانه - هو خالق الكون ، بديع السموات والأرض ، المنعم اللطيف الخبير ، الرزاق الرحمن الرحيم ، يعيش الخلق جميعاً تحت رحمته ، لا تغفل عنايته عنهم طرفة عين ، ومن ثم كان دعاؤه غفرانا ، وتسبيحه رضوانا ، والابتهال إليه عرفانا .

العباد يدعون ويسبحون ويتهللون ويسألون ، وهو - سبحانه - أرحم مدعو ، وأكرم مستول ، وبقدر ما يكون الدعاء صادرا من قلب مؤمن ونفس مطمئنة ، بقدر ما تكون الاستجابة ، فهو - عز وجل - المشجع على الدعاء في قوله - تعالى - : ﴿ اَدْعُونِيْ اَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ وهو - سبحانه - غافر الذنب ، قابل التوب ، ، وفي هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ : « والذي نفسى بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله - تعالى - فيغفر لهم » (١) .

ودعاء الله عنوان العبودية الخالصة والإيمان الكامل ، وقد كان رسول الله ﷺ أقرب الناس عبودية ، وأكملهم إيمانا وأدناهم إلى ربه ، وأحبهم إليه ، وأعزهم مكانة لديه ، ثم هو ﷺ أفصح الفصحاء وأبين الأنبياء وسيد الأنبياء ، فكان دعاؤه أبلغ الدعاء ، واستغفاره أنقى الاستغفار ، وتسبيحه أسمى التسبيح ، وابتهالاته أعمق الابتهالات .

إن كنوز الدعاء التى أثرت عنه ﷺ من الشفافية بحيث لا يطاؤها دعاء ، ومن الصفاء بحيث لا يدانيها نقاء ، ومن القبول بحيث تقرب من يحفظها ويرويها ويرددها إلى الحضرة الربانية ، لينال الرضى ويحظى بالغفران .

لقد دعا رسول الله ربه فعلمنا أدب الدعاء ، واستغفر فدلنا على نهج الاستغفار ،

(١) صحيح مسلم ، كتاب التوبة .

واستعاذ بالله فرسم لنا صيغ التعوذ بالذات العلية تنزهت ذاته وتقدست أسماؤه .

والرسول ﷺ يختار لكل موقف ما يناسبه من دعاء ، ولكل مناسبة ما يليق لها من ابتهاج . في الليل والنهار ، وفي الصباح والإساء ، وعند النوم والاستيقاظ ، وساعة الخروج من البيت والعودة إليه ، وقبل الصلاة وأثناءها وفي أعقابها ، وعند السجود وساعة التشهد ، وحتى إذا استيقظ المسلم من نومه وسط الليل ، وهكذا يعيش المرء كل طرفة عين قريبا من ربه . ذاكرا لذاته ، مسبحا بحمده ، مرددا لصفاته ، مقبلا عليه ، مبتهلا إليه .

مطلق الدعاء :

إن الرسول يدعو الله بعلمه الغيب وقدرته على الخلق وفي دعائه - كما يقول ابن تيمية - أدب الطلب من الخالق الأعظم ، وهو دعاء دعا به عمار في الصلاة . يقول ﷺ :

« اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما كانت الحياة خيرا لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي ، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وكلمة الحق في الغضب والرضا ، والقصص في الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك ، من غير ضراء مضرّة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين » (١) .

وعن ابن مسعود يقول : كان دعاء رسول الله ﷺ :

« اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل برّ ، والفوز بالجنة والنجاة من النار » (٢) .

الرسول ﷺ في الحديث الأول يدعو الله دعوات تليق بكمال الله ، وتناسب سليقة خير خلق الله ، فيسأله الجنة بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهه الكريم ، وإذا كان هذا

(١) الحاكم في المستدرک : کتاب الدعاء ١ / ٥٢٥ .

(٢) كتاب النبوات ، ص : ٦٧ رواه النسائي .

الدعاء تميز بشيء من التفصيل فإن الدعاء في الحديث الثاني يتميز بالإيجاز الذي يشتمل على مدلولات المعانى التى جاءت مفصلة فى سابقه ، وكل من الحديثين الشريفين آية من آيات الإعجاز النبوى فى البلاغة والتبيين .

ومن أحاديث الدعاء التى تشتمل على صلاح الدين والدنيا والآخرة قوله ﷺ :

« اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ » .

ومع أن الرسول ﷺ معصوم من الخطأ والخطايا ، وأنه رسول الله وحبيبه ، فإنه كان دائم الدعاء بالمغفرة ؛ لأن الدعاء فى حد ذاته يُقرب إلى الله ، ولكى يعلم الأمة الإسلامية كيف يكون الدعاء بالمغفرة .

« عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ :

« اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جَدِّي وَهَزْلِي ، وَخَطِيئِي وَعَمْدِي ، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي أَنْتَ الْمَقْدِمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » متفق عليه .

إن الله - سبحانه - يحب من العبد أن يبتهل إليه ساعة الدعاء ، فيذكر إيهانه به ، وتوكله عليه ، والإذعان لأحكامه ، وهو ما كان يفعله رسول الله ﷺ بين يدي الدعاء .

« عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ أَمْنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أُنَبِّتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ فَأَغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ أَنْتَ الْمَقْدِمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ . رَأَى بَعْضُ الرُّوَاةِ : وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » متفق عليه

ومن دعاء الرسول ﷺ الذى يتسم بالشمول مع فرط الأدب فى الطلب ، وكمال

العبودية في السؤال ، ما رواه عبدالله بن عباس - رضى الله عنهما - قال : بعثنى أبى العباس إلى رسول الله ﷺ فبثت عنده ، فسمعتة يدعو :

« اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتكلم بها شعبي ، وتصلح بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وترزقي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وترد بها الفتنة عني ، وتعصمني بها من كل سوء ، اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ، ونزول الشهداء ، وعيش السعداء والنصر على الأعداء (*) .

ومعنى الفوز عند القضاء يعنى يوم الحساب .

الرسول يعلم آل بيته وأصحابه الدعاء :

كان عطف رسول الله ﷺ يفيض على كل الذين حوله سواء أكانوا من أهل بيته الشريف أم من صحابته ، أم من السائلين من عامة المسلمين ، وكان عطفه ﷺ عليهم يشمل كل ألوان الخير ، حتى الدعاء كان يعلمهم إياه ، حينما يعلمهم تطوعا منه وفضلا ، وحينما آخر يعلمهم بالأجوبة على أسئلتهم حين يسألونه .

فمن آل البيت كانت أم المؤمنين عائشة ، والحسن السبط وعبدالله بن عباس ، ومن الصحابة كان أبو بكر ، وجابر بن عبدالله ، وجابر بن حميد ، والطفيل بن عمرو الدوسي ، وغيرهم من هؤلاء وأولئك .

قال رسول الله ﷺ : « يا عائشة عليك بجمال الدعاء وجوامعه . قالت : يا رسول الله ، وما جمل الدعاء وجوامعه ؟ قال : « قولي : اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ، ما علمت منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ، ما علمت منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأسألك مما سألك به محمد ، وأعوذ بك مما تعوذ منه محمد ، وما قضيت لي من قضاء فاجعل عاقبته رشدا » الحديث ٦٣٩ من الأدب المفرد للبخارى .

(*) هذا الحديث روته بعض المصادر وفي متنه بعض الزيادات ، ولكننا اعتمدنا هذه الرواية لأنها رواية حافظ المغرب القاضي عياض طبقا لما أثبتها في كتابه « الشفا » ص : ٤٦ .

ومن آل البيت الذين علمهم رسول الله ﷺ الدعاء ، سبطه الحسن ، لقد سأله الحسن عن كلمات يقولها في صلاة الوتر ، فعلمه الدعاء الشريف الذى عرف بعد ذلك بالقنوت :

عن الحسن بن علي - رضى الله عنهما - قال : علمنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: « اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فإنك تقضى ولا يقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت » عن كتاب الأذكار للإمام النووى .

وفى هذا المقام يقول عبدالله بن عباس :

كان الرسول يعلمنا هذا الدعاء كما يعلمنا السورة من القرآن : « أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، وأعوذ بك من فتنة القبر » الحديث ٦٩٤ من الأدب المفرد للبخارى .

ويسأل الصديق أبو بكر رسول الله ﷺ أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته مثلما سأله الحسن السبط على هذا النحو :

عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ : علمنى دعاء أدعوه به في صلاتى . قال : « قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَأَغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » متفق عليه (وفى رواية) « وفى بيتى » وروى « ظلما كثيرا » وروى « كبيرا » - بالثاء المثلثة وبالباء الموحدة - فينبغى أن يجمع بينهما فيقال : كثيرا كبيرا .

والصحابى شَكل بن حميد - رضى الله عنه - يسأل الرسول أن يعلمه دعاء ، فيكون من شأنه ، ما كان من شأن أبى بكر :

عن شَكل بن حميد رضى الله عنه قال : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ : عَلِّمْنِي دُعَاءَ قَالَ : « قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي وَمِنْ شَرِّ مَا كَسَبَتْ يَدَايَ وَمِنْ شَرِّ مَا كَسَبَتْ رِجْلَايَ »

شَرَّ مَنِّي » رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ . رياض الصالحين ص ٤٧٩
ومن الأدعية التي كان رسول الله ﷺ يعلمها للصحابه ، يقول الصحابي جابر بن
عبدالله : إن الرسول كان يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن :

عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال : كان رسول ﷺ يعلمنا الاستخارة في
الأمور كلها كالسورة من القرآن . يقول : « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير
الفريضة ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من
فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم
إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى - أو قال فى عاجل
أمرى وآجله - فاقدره لى ويسره لى ، ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى
فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى - أو قال : عاجل أمرى وآجله - فاصرفه عنى ، واقدر لى
الخير حيث كان ، ثم رضى به ، قال : ويسمى حاجته » .

يقرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة : قل يا أيها الكافرون . وفى الثانية : قل هو الله
أحد . عن كتاب الأذكار للإمام النووى ص : ١١٠ .

وجاء النبى ﷺ رجلاً من عامة المسلمين يسأله دعاء يسأل به ربه طبقاً لرواية مسلم
على هذا النحو :

فى رواية عن طارق أنه سمع النبى ﷺ وأتاه رجل فقال : يا رسول الله كيف أقول
حين أسأل ربى ؟ قال : « قل اللهم اغفر لى وارحمنى وعافنى وارزقنى فإن هؤلاء تجمع
لك دنياك وآخرتك » رياض الصالحين ص : ٤٧٦ وكأنما خشى رسول الله ﷺ أن
يَسْتَقِلَّ السائل حجب الدعاء مع أنه يجمع المغفرة والرحمة والعافية والرزق ، وهو جُل ما
يطلبه سائل من خالقه ، فأراد - لطفاً منه وإيناساً - أن يطمئن السائل ، فقال له : « إن
هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك » وهى صيغة فى قمة الإيجاز فى الدعاء .

ويروى الصحابى الجليل جابر بن عبدالله هذا الحديث المعلم على النحو التالى :

عن جابر بن عبدالله أن النبى ﷺ رقى المنبر ، فلما رقى الدرجة الأولى قال : « آمين »
ثم رقى الثانية فقال : « آمين » ثم رقى الثالثة فقال : « آمين » . فقال : يا رسول الله ،

إنا سمعناك تقول آمين ثلاث مرات . قال : « لما رقيت الدرجة الأولى جاءني جبريل ﷺ فقال : شَقِيَ عَبْدُ أَدْرَكَ رمضان فانسلخ منه ولم يُغفر له ، فقلت : آمين . ثم قال : شَقِيَ عَبْدُ أَدْرَكَ والديه أو أحدهما فلم يدخلا الجنة ، فقلت : آمين . ثم قال : شَقِيَ عَبْدُ ذُكِرَتْ عنده ولم يصل عليك . فقلت آمين » . الحديث ٦٤٤ الأدب المفرد للبخارى .

ومن لطائف رسول الله ﷺ في تعليم الصحابة أدب الدعاء هذا الخبر :
 قدم الطفيل بن عمرو الدوسي على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إن دَوْسًا قد عَصَتْ وَأَبَتْ فادْعُ عليها ، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة ورفع يديه ، فظن الناس أنه يدعو عليهم ، فقال : « اللهم اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِم » الحديث ٦١١ الأدب المفرد للبخارى .

لقد أراد الطفيل شيئاً ، واتفقت إرادة الناس مع إرادة الطفيل ، لقد أرادوا جميعاً شيئاً بقبيلة دوس ، ولكن شمائل الرسول أبَت عليه ذلك ، فدعا لهم عوضاً عن أن يدعو عليهم ، فتقبل الله دعوته .

دعاء الرسول في الصلاة :

الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام ، وهي الفريضة الأولى من فرائض التكليف ، فهي سابقة على الزكاة والصوم والحج ، وهي عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين .

والصلاة لغة : هي الدعاء ، والصلاة تستفتح بفاتحة الكتاب ، وهي حمد وتسبيح وإبتهاال ودعاء ، كما أنها تختتم كذلك بالدعاء ، من أجل ذلك فإن رسول الله ﷺ قد خصها بأكبر قدر من أحاديث الدعاء إذا ما قورن بأحجام الدعاء التي خصصها ﷺ للفرائض الأخرى .

لقد رويت صيغ الدعاء عن رسول الله ﷺ في كل جزئية من جزئيات الصلاة حتى

عند سماع الأذان ، إن لكل صلاة دعاءها ، وللكوع دعاء . وللقيام منه دعاء ، وللسجود دعاء ، وللسجود التلاوة دعاء ، وللتشهد الأخير دعاء ، ولدبر كل صلاة دعاء ، وللانصراف من الصلاة دعاء ، وللقنوت دعاء .

إن أحاديث دعاء الصلاة - وقد بنى صياغتها رسول الله ﷺ ببلاغته وبيانه وشفافيته وقربه من الله ، وخشيته منه ، ومحبه له ، وابتهاله إليه ، وتمجيده لذاته ، وتقديسه لصفاته - تشكل ضربا فريدا من صيغ التحميد والتمجيد ، يتقرب العبد بها إلى الله حال صلاته ، بل إنه بها يزداد قربا ؛ لأن المرء أصلا قريب من الله في الصلاة ، مصداقا لقول الرسول ﷺ : « أكثر ما يكون المؤمن قربا من ربه في الصلاة » وفي رواية : « أقرب ما يكون العبد إلى ربه في الصلاة » إنه دعاء يجلو صدى القلب ، ويذيب هموم النفس ، ويعمق الإيمان ، ويجدد شباب الروح المؤمنة .

وفيما يلي طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ تتضمن الدعاء الذى يُدعى به في الصلوات .

عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح قال : « اللهم إني أسألك علما نافعاً ، وعملا متقبلاً ، ورزقاً طيباً » ابن ماجه : كتاب (إقامة الصلاة) باب ما يقال بعد التسليم ١ / ٢٩٨ رقم ٩٢٥ .

ولما كان « القنوت » موصول الأسباب بصلاة الصبح وصلاة الوتر ، فقد وردت هذه الصيغة عن رسول الله ﷺ وهى دعاء وابتهاال نعيد ذكرها :

عن الحسن بن على - رضى الله عنه - : عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوُتْرِ : « اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ » زاد النسائي والبيهقي - في روايتهما - « وَلَا يَعْزُّ مِنْ عَادِيَتِكَ » .

وإذا انصرف المسلم من صلاة المغرب ومن صلاة الصبح ، وردَّ هذا الحديث سبع مرات أجز من النار ، وهذا هو الحديث :

عن مسلم بن الحارث الصحابي - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه أسر إليه فقال : « إذا انصرفْتَ من صلاة المغرب فقل : اللهم أَجِرْنِي من النار سبع مرات ، فإنك إذا قلت ذلك ثم مُتَّ من ليلتك كُتِبَ لك جِوَارٌ منها ، وإذا صليت الصبح فقل كذلك ، فإنك إذا مُتَّ من يومك كُتِبَ لك جِوَارٌ منها » أخرجه أبو داود .

وللسجود في الصلاة أكثر من دعاء أُرث عن رسول الله ﷺ يقول - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم - :

« اللهم إني أعوذ برضاك من سَخَطِكَ ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

ويقول أيضا : « اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » الحديثان في صحيح مسلم (كتاب الصلاة) ما يقال في الركوع والسجود .

ومن الأدعية التي يحرص قارئ القرآن الكريم على الدعاء بها في سجود التلاوة الدعاء السابق وهو :

« اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » .

ويستحب أن يقول معه : « اللهم اجعلها لي عندك ذخرا ، وأعْظِمْ لي بها أجراً ، وضع عني بها وزراً ، وتقبلها مني كما تقبلتها من داود عليه السلام » .

سنن الترمذی : ما جاء في كثرة الركوع وفضله .

وبعد أن ينتهي رسول الله ﷺ من قراءة التشهد وقبل أن يسلم للخروج من الصلاة كان يتلو هذا الدعاء بالمغفرة من كل ذنب ومن أي ذنب :

عن علي - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : « اللهم اغفر لي ما قَدَّمْتُ وما أَخَّرْتُ ، وما أَسْرَرْتُ وما أَعْلَنْتُ ، وما أَسْرَفْتُ ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت » رواه مسلم

وبعد التشهد الأخير كان الرسول ﷺ يدعو الله متعوذاً من عذاب جهنم وعذاب القبر ، ومن فتن المحيا والممات والمسيح الدجال . كان ﷺ يقول :

« اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال »

صحيح البخارى : « كتاب الجنائز » باب التعوذ من عذاب القبر . وصحيح مسلم (كتاب المساجد) باب ما يستعاذ منه في الصلاة ١ / ٤١٢ رقم ١٢٨ .

ولرسول الله ﷺ عدد من أحاديث الدعاء كان يقوها بعد الصلوات ، فبعد صلاة الصبح وقبل أن يصدر عن المصلّي كان يهلل ويكبر بدعاء جيد يردده تكتب له به عشر حسنات ، وتمحى عنه عشر سيئات وترفع له عشر درجات .

عن أبى ذر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « من قال في دبر صلاة الصبح وهو ثان رجله قبل أن يتكلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير عشر مرات ، كتب له عشر حسنات ، ومحى عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، وكان يومه ذلك في حرز من كل مكروه ، وحُرِس من الشيطان ، ولم ينبغ لذنب أن يدركه في ذلك اليوم إلا الشرك بالله تعالى » أخرجه الترمذى

وعن سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ دبر الصلاة بهؤلاء الكلمات :

« اللهم إني أعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك أن أُرَدَّ إلى أرذل العُمُر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر »

وعن أنس : كان النبى ﷺ يقول إذا انصرف من الصلاة : « اللهم اجعل خير عمري آخره ، وخير عملى خواتمه ، واجعل خير أيامى يوم ألقاك » ابن السنّى رقم ١٢٠ .

وقد مرّ بنا قبل قليل أن أبا بكر الصديق طلب من رسول الله ﷺ أن يعلمه دعاء

يدعوه في صلاته ، وهو : عن أبى بكر الصديق أنه قال لرسول الله ﷺ : علمنى دعاء أدعوه به في صلاتى ، قال : « قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » البخارى والبيهقى .

دعاء التَعَوُّذ :

من كمال الإيمان أن يلجأ العبد إلى ربه يسأله الرضى والعون ، ويستعيذ به من كافة الشرور الصادرة عن انحراف بعض الخلق ، وأن يسأله السلامة فيما سوف يعرض له بعد أن يودع هذه الحياة ، ويبدأ الحياة الآخرة فى دار الحق واليقين .

وإذا ما تعوذنا بالله مما قد يلم بنا من شرور فنحن إنما نستجيب لتوجيهات الخالق - جل وعلا - فيما ورد فى الكتاب العزيز من صيغ التعوذ ، ثم نثرى عقيدتنا بها أثر عن رسول الله ﷺ فى هذا المجال .

إن المؤمن كلما أحسّ بمكرهه فى طريقه لأن يلم به ، أو أمر يخيفه سارع إلى التعوذ بخالقه ، قائلا : أعوذ بالله ، أو أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وهى الصيغة التى يستفتح بها قارئ القرآن التلاوة ، بل إن آخر سورتين فى القرآن الكريم يطلق عليهما المعوذتان ، وهما سورة الفلق وسورة الناس .

وكان رسول الله ﷺ كثير التعوذ بالله - سبحانه وتعالى - وكان أكثر ما يتعوذ بالله منه فتنة النار وعذابها ، وفتنة القبر وعذابه ، وشر الغنى ، وشر الفقر ، والبلاء والشقاء ، والهوى ، والحزن ، والعجز ، والبخل ، والدَّيْن ، والجوع ، والخيانة ، والأمراض والأسقام ، وغير ذلك مما يضر الإنسان فى حياته الدنيا ، أو يؤذيه فى حياته الآخرة .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « إذا تشهّد أحدكم فليستعذ بالله من أربع ، يقول : اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال » رواه مسلم (رياض الصالحين ص : ٤٦١) .

وكان رسول الله ﷺ يتعوذ عند النوم بهذه الدعوات :

« اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم ، وبكلماتك التامة من شرّ ما أنت آخذ بناصيته ، اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم ، اللهم لا يهزم جندك ولا يُخلف وعدك ، ولا ينفع ذا الجُدّ منك الجُد ، سبحانه وبحمده » سنن أبي داود ، باب ما يقول عند النوم : ٥ / ٣٠٠ رقم ٥٠٥٠ .

وعن عائشة - رضى الله عنها - أن النبي ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات : « اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار ، ومن شر الغنى والفقر » رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وكان النبي ﷺ يتعوذ من الإصابة بالأمراض والأسقام ، وكان يسمى بعضها في تعوذه بأسمائها ، مثل البرص والجنون والجذام ، مثلما كان يتعوذ من الجوع ويصفه بأنه بشس الضجيع ، ويتعوذ من الخيانة ويصفها بأنها بثست البطانة .

ففى تعوذه ﷺ كان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من البرص والجنون والجذام وسىء الأسقام » رواه أبو داود بإسناد صحيح .

(وعن) أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بشس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بثست البطانة » رواه أبو داود بإسناد صحيح .

وكثيرا ما كان رسول الله ﷺ يمزج بين التعوذ والدعاء ، كان يتعوذ بالله من العجز والكسل والبخل والهّم وعذاب القبر ، ثم يتبع ذلك متجها إلى ربه بدعاء يحبّ هذه الآفات التى يتعوذ منها ، مثل ما ورد فى حديث زيد بن أرقم :

عن زيد بن أرقم : كان رسول الله ﷺ يقول :

« اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهّم وعذاب القبر ، اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها ، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ، ومن دعوة لا تستجاب . »

صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) باب أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأهل النار النساء ٤ / ٢٠٩٧ رقم ٩٦ .

وقد ورد تعوذه ﷺ من الجبن والبخل والعجز والهرم وفتنة الدنيا وفتنة القبر في عدد من الأحاديث ، ذلك لأنها معائب ومصائب يُخشى وقوعها ، فكان ﷺ يتعوذ منها في دبر الصلوات ، حيث تكون أبواب السماء مفتوحة لولوج الدعوات .

عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ دبر الصلوات بهؤلاء الكلمات :
« اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من أن أرذل إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من فتنة القبر » رواه البخاري (رياض الصالحين ص : ٤٦٠) .

ويروى البخاري مرة أخرى هذا الحديث ومواد التعوذ فيه بتقديم وتأخير ، وكان الرسول ﷺ يتعوذ من الشيء الواحد بأكثر من صيغة .

كان رسول الله ﷺ يتعوذ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الكسل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من الهرم ، وأعوذ بك من البخل » الحديث ٦١٥ في الجزء الثاني من الأدب المفرد . والكسل هو : التغافل عما لا ينبغي التغافل عنه .

ويستعيز رسول الله ﷺ فيما يرويه أنس من هذه الهموم - فهي أصعب هموم الإنسان السوى وأشدّها - مع بعض الزيادات .

في الصحيحين عن أنس ؛ كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والهرم والبخل ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » وفي رواية : وضلع الدّين - أي : شدته وثقله - وغلبة الرجال » .

صحيح البخاري (كتاب الدعوات) باب التعوذ ٨ / ٩٧ ، ٩٨ .

صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) باب التعوذ من العجز ٤ / ٢٠٧٩ رقم ٥٠ .

ومن صيغ التعوذ بالله من المصائب التي يتعوذ المرء منها ما رواه أبو هريرة :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « تعوذوا بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء »

البخارى : (كتاب القدر ، باب من تعوذ بالله من درك الشقاء ٨ / ١٥٧) .

ومسلم : (كتاب الذكر) باب في التعوذ من سوء القضاء ٤ / ٢٠٨٠ رقم ٥٣ .

هذه نماذج من أحاديث الدعاء بالتعوذ بالله من مصائب تصيب المسلم ، أو نكبات يخشى وقوعها ، أثرت عن الصادق الشفيع ، نسأل الله أن ينفعنا ببركتها .

أدعية رسول الله ﷺ في الصباح والمساء والليل :

الرسول ﷺ مرتبط الأسباب بخالقه - جل وعلا - في جميع الأوقات ، في كل آونة من صباح ، وكل لحظة من ليل ، بل كل طرفة عين من ليل أو نهار . وهو سيد من يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ؛ ولذلك كان ﷺ كثير الدعاء في كل الأوقات بصيغ من القول مختلفة الأشكال متعددة المعاني .

كانت أدعية رسول الله ﷺ في مختلف الأوقات والأزمنة تصدر عنه تمجيداً مباشراً لرب العالمين ، وأحيانا أخرى كانت تصدر عنه في صورة توجيهات نبوية شريفة للمسلمين ، كأن يقول : من قال حين يصبح كذا وكذا فثوابه كذا وكيت ، أو من قال حين يمسي كذا وكذا ، وهو في ذلك يحض كل مسلم على أن يستحضر ذكر الله في قلبه ووجدانه كل لحظة من ليل أو ومضة من نهار ، لأن الله - سبحانه - إذا كان ذكره مستقرا في ضمير المرء فإنه يعيش معصوما من الزلل ، مبرأ عن اقتراف الموبقات .

وكثيرا ما كان الرسول ﷺ يسبح الله ويذكره بكلام الله جلّت قدرته :

عن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة : (باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم) ثلاث مرات لم يضره شيء » وفي رواية أبي داود : لم تصبه فجأة بلاء . رواه مسلم في صحيحه .

وتمت دعاء نبوى شريف آخر لحمته وسداه كلام الله ، وهو مثل سابقه دعاء
للصباح والمساء :

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قال
حين يصبح ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُمِيتُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أدرك ما فاتته في يومه
ذلك ، ومن قالهن حين يمسي أدرك ما فاتته في ليلته » . أخرجه أبو داود .

ومثلهما كان ﷺ يذكر الله ويدعوه بكلامه - عز وجل - فإنه كان يذكره ويدعوه
ويسبحه ويمجده بكلامه الفصيح وبيانه المضيء ، من خلال صيغ التوحيد الخالص ،
والعبودية الصادقة ، والشفافية المحمدية ، وكانت هذه التسيحات تصدر في صيغ
توجيه طيب أو أوامر حانية ؛ لأن هدفها صلاح العبد ومباركته وسلامته .

عن عبد الله بن أبي أوفى - رضى الله عنهما - قال : « كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال
: أصبحنا وأصبح الملك لله - عز وجل - الحمد لله ، والكبرياء والعظمة لله ، والخلق
والأمر ، والليل والنهار وما سكن فيهما الله تعالى ، اللهم اجعل أول هذا النهار صلاحا ،
وأوسطه نجاحا ، وآخره فلاحا يا أرحم الراحمين » أخرجه أبو داود .

وعن أبي مالك الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أصبح أحدكم فليقل :
أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين ، اللهم إني أسألك خير هذا اليوم : فتحه ونصره
ونوره وبركته وهداه ، وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده ، ثم إذا أمسى فليقل مثل
ذلك » . سنن أبي داود ٥ / ٣٢٢ رقم ٥٠٩٠ .

ويورد البخارى في الأدب المفرد صيغة أخرى من أدعية رسول الله في الصباح
والإمساء لا يخرج فيها ﷺ عن غاية واحدة : هى التمجيد والحمد والشكران ، مثال
قوله :

كان النبى ﷺ إذا أصبح قال : أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد كله لله ، لا

شريك له ، لا إله إلا الله ، وإليه النشور . وإذا أمسى قال : أمسينا وأمسى الملك لله ، الحمد لله لا شريك له ، لا إله إلا الله وإليه المصير » الحديث ٦٠٤ من الجزء الثانى .

ومثلما كان ﷺ يسبح المولى العظيم ويوحده ويشكره ويمجده إذا أصبح أو إذا أمسى ، فإنه كان أيضا يدعو - عز وجل - بأجل ما يدعو به العبد ربه ، وبأشمل ما يطلب السائل وهو موثق بالإجابة .

يقول ابن عمر : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الكلمات إذا أصبح وإذا أمسى : « اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة ، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى ، وآمن روعاتى ، اللهم احفظنى من بين يدي ومن خلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ، ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك من أن أغتال من تحتى » الحديث ١٢٠٠ من الجزء الثانى من الأدب المفرد .

- معنى (أغتال من تحت) يعنى : أدهى بالخسف من حيث لا أشعر .

وفى كثير من أدعية رسول الله ﷺ الصباحية والمسائية كان يتعوذ من شرور الليل والنهار ، ومن كثير من المخاوف التى يخشى المرء عاقبتها .

عن عبدالله مسعود - رضى الله عنه - قال : كان النبى ﷺ إذا أمسى قال : « أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، رب أسألك خير ما فى هذه الليلة ، وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما فى هذه الليلة ، وشر ما بعدها رب أعوذ بك من الكسل ، والهزم وسوء الكبر ، أعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر » وإذا أصبح قال ذلك أيضا : أصبحنا وأصبح الملك لله . . « أخرجه مسلم فى صحيحه .

وعندما كان يخرج الرسول ﷺ كان حينما يردد صيغة توكله على الله ، ثم يتبعها بالتعوذ بالله مما يقلق أو يخيف ، مثال ذلك ما روته أم المؤمنين أم سلمة واسمها هند بنت أبى أمية حذيفة المخزومية - رضى الله عنها - أن النبى ﷺ كان إذا خرج من بيته قال : بسم الله توكلت على الله اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو أجهل على . . حديث صحيح رواه أبو داود والترمذى

والنسائي وابن ماجه بأسانيد صحيحة . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .
ومرات أخرى كان يكتفى بصيغتي التوكل والحوقة ، مثال ذلك ما رواه أنس رضى
الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال - يعنى إذا خرج من بيته - : بسم الله
توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له : هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه
الشيطان » رواه أبو داود والترمذى والنسائي وغيرهم ، وقال الترمذى : حديث حسن ،
زاد أبو داود : فيقول - يعنى الشيطان لشيطان آخر - : كيف لك برجل قد هدى وكفى
ووقى ؟ !

أدعية الرسول ﷺ عند النوم :

كان قلب الرسول ﷺ دائم الخشوع ، موصول الخضوع لخالقه فى صباحه ومساءه
وعند نومه ، ويحب لأتباعه المؤمنين برسالته أن يكون الواحد منهم مرتبط القلب بذكر
الله ، وتلك طبيعة فى تكوين النفس المسلمة ، فهى دائمة الذكر كاملة الخضوع ، كثيرة
التفكر فى الله ، حامدة فضله ، شاكرة نعمته ، معظمة قدرته ، ومن ثم ظلت هذه
النفس منقادة لخالقها ، مقتدية برسوله الأعظم عبادة وحدا ، وخشوعا وذكرًا ، ودعاء
وابتهالا .

لقد أثر عن رسول الله ﷺ عدد كبير من أحاديث الدعاء عند النوم ، وتدور جميعها
حول المعانى السامية ، والمواقف الخاشعة ، والأمانى الإيمانية التى مرّ ذكرها .

فى الصحيحين عن البراء بن عازب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا
أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل : اللهم
أسلمت نفسى إليك ، وفوضت أمري إليك ، وأجأْتُ ظهري إليك ، آمَنْتُ
بكتابك الذى أنزلتَ ونبيك الذى أرسلتَ . فإن مِتَّ مِتَّ على الفطرة ، واجعلها آخر
ما تقول » .

ويرد الحديث برواية أخرى قليلة الاختلاف مع الرواية السابقة لنفس الصحابى
الجليل : البراء بن عازب ، خالية من الأمر بالوضوء قبل أن يذهب المسلم إلى
مضجعه :

عن البراء بن عازب :

كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه نام على شقه الأيمن ثم قال : « اللهم إني وجهت وجهي إليك ، وأسلمت نفسي إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رهبةً ورغبةً إليك ، لا منجأ ولا ملجأ منك إلا إليك ، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت ، ونبيتك الذي أرسلت » . قال « فمن قالهن في ليلة ثم مات ، مات على الفطرة » الأدب المفرد الحديث ١٢١١ . معنى (مات على الفطرة) أى : على هيئة متهيئة لقبول الإسلام ، مع خلو نيته عما يحثه على الكفر .

وقد روى مسلم في صحيحه الحديثين التاليين ، وكل منهما صيغة محمدية رفيعة القدر ، سامية الدرجة في تمجيد الخالق الأعظم قبل النوم ، والتقرب منه والابتهاال إليه ، وإن كان الحديث الثانى قد اشتمل على دعاءين في قضاء الدين والغوث من الفقر :

« اللهم ربّ السموات وربّ الأرض وربّ العرش العظيم وربّ كلّ شيء ، فالق الحبّ والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذٌ بناصيتها » مسلم .

وقوله ﷺ :

« اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر » مسلم .

وفى حديث رواه عبدالله بن عمر - رضى الله عنهما - أن لرسول الله صيغة أخرى فى الدعاء عند النوم أمر رجلا من المسلمين أن يتلوها قبل نومه :

عن ابن عمر - رضى الله عنه - أمّر رجل إذا أخذ مضجعه أن يقول بحديث رسول الله ﷺ : « اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاه ، لك مماتى ومحياتى ، إن أحيتها فاحفظها ، وإن أمّتها فاغفر لها ، اللهم إني أسألك العافية » صحيح مسلم (كتاب الذكر) باب ما يقول عند النوم ٤ / ٢٠٨٣ رقم ٦٠ .

ويهتم الرسول ﷺ بسلامة المؤمن قبل أن يأوى إلى فراشه ، وفي هذا الصدد كان الرسول ينصح من يأوى إلى فراشه بالقيام ببعض الحركات التى تضمن سلامته : من نفخ للفرش ، وفحص لمكان نومه ، وما إلى ذلك مما يبعث الشعور بالأمان قبل المنام ، وفي ذلك يروى أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليحلّ داخله إزاره ، فلينفض بها فراشه فإنه لا يدري ما خلف في فراشه ، وليضطجع على شقه الأيمن وليقل : باسمك وضعت جنبى - وفي رواية : باسمك اللهم - فإن احتبسْت نفسى فارحمها ، وإن أُرسلَتْها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين » وفي رواية : عبادك الصالحين . الحديث ١٢١٠ من الأدب المفرد ج ٢ .

ومن أحاديث الدعاء التى رويت عن رسول الله ﷺ وأوصى بتلاوتها عند كل صباح ومساء بغية المحافظة على النفس والأهل والمال ما رُوِيَ من أن رجلا جاء إلى أبى الدرداء - رضى الله عنه - فقال : يا أبا الدرداء ، قد احترق بيتك . قال : ما احترق ، لم يكن الله - عز وجل - ليفعل ذلك ، بكلمات سمعتن من رسول الله ﷺ وقد قتلتهن اليوم ، ثم قال : انهضوا بنا ، فانتھوا إلى داره وقد احترق ما حولها ولم يصبها شيء ، وهذه هى كلمات رسول الله ﷺ : « من قال حين يصبح وحين يمسي : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، أَعْلَمُ أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما . اللهم إني أعوذ بك من شرِّ نفسى ومن شرِّ كل دابة أنت آخذٌ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم » لم يصبه في نفسه ولا أهله ولا ماله شيء يكرهه » رواه ابن السنن عن أبى الدرداء في عمل اليوم والليلة .

ومما يدخل في هذا النهج من أدعية رسول الله ﷺ ما كان يقوله عند الشروع في السفر، فقد كان ﷺ إذا استوى على بعيره خارجاً للسفر ، كَبَّرَ ثلاثاً ثم قال : « سبحان الذى سَخَّرَ لنا هذا وما كنا له مُقَرَّنِينَ ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ، اللهم إِنَّا نَسْأَلُكَ في سفرنا البرَّ والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هَوِّنْ علينا سفرنا هذا ، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ . اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللهم إِنَّا نَعُوذُ بِكَ من وَعْثَاءِ السفر ، وَكَآبَةِ المنظر ، وسوءِ المُنْقَلَبِ في المال والأهل »

فإذا رجع ﷺ قالها وزاد : « آيئون تائبون ، ولربنا حامدون » رواه مسلم عن عبد الله ابن عمر - رضى الله عنهما - .

لنعد مرة أخرى إلى أدعية رسول الله ﷺ التى كان يدعو الله بها فى الصّباح والمساء وعند الاستيقاظ وساعة الذهاب إلى الفراش .

روى حذيفة بن اليمان وأبوذر الغفارى - رضى الله عنهما - قال :

كان رسول الله ﷺ إذا آوى إلى فراشه قال : باسمك اللهم أحيا وأموت . وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور « رياض الصالحين ص : ٤٦٧ .

وعن عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من النوم قال :

« لا إله إلا أنت سبحانك اللهم ، أستغفرك لذنبى ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علما ، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى ، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

ويشجع الرسول ﷺ المؤمنين على الحمد والتسبيح خاصة إذا انتبه المرء من نومه ، فيروى أبو هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل ينتبه من نومه فيقول : الحمد لله الذى خلق النوم واليقظة ، الحمد لله الذى بعثنى سالما سويا ، أشهد أن الله يحى الموتى وهو على كل شىء قدير ، إلا قال الله تعالى : صدق عبدى » .

ابن السنّى فى عمل اليوم والليلة : باب ما يقول إذا استيقظ من منامه ١ / ٥ رقم ٩ .
فهل هناك شىء أعظم من أن يسبح المرء خالقه ويحمده فيؤمن بالله - سبحانه - على تحميده قائلا : صدق عبدى !؟

إن الرسول ﷺ يأخذ بأيدى المؤمنين فيوجههم إلى الذكر الذى يقربهم من رب العزة ، فيعيشون فى نور الإيمان ، ويقضون تحت مغفرة الرحمن .

أدعية التعبد والتعجد والتسبيح والابتهاال :

المؤمنون من الخلق يعرفون قدر الخالق - سبحانه - ويعترفون بنعمه وآلائه عليهم ،

والنبيون أكثر معرفة بالخالق الأعظم ، وأقرب صلة به - عز وجل - وأعظم اعترافا بنعمه عليهم وعلى الخلق ، وأوفر عرفانا بآلائه - سبحانه وتعالى - ولذلك فهم جميعا - النبيون والمؤمنون - يتجهون بقلوبهم إلى الذات العلية حامدين شاكرين متعبدين ، متهجدين مسبحين مبتهلين ما استطاعوا ، وما وسعتهم القدرة ليلا أو نهارا .

ومحمد ﷺ هو سيد الخلق جميعا ، وإمام النبيين ، ورسول رب العالمين ، اجتباه ربه بالفضل ، وسمو القدر ، واصطفاه برفعة الذكر ، وخصه بالرسالة الخاتمة ، فكان لذلك خاتم النبيين وإمام المرسلين ، فمحمد ﷺ بهذه الصفات وتلك الميزات هو أقرب الخلق إلى رب العالمين . وأعلمهم بفضله . وأخلقهم بشكره ، وأشدّهم عرفانا بإنعامه ، وهو ﷺ أفصح الناس لسانا ، وأبلغهم بيانا ، وأوضحهم تبيانا ، ومن ثم فاضت صيغ التعبد والتهجد من قلبه العظيم شعاع نور على قلوب المؤمنين ، وتدفقت أحاديث الإبتهاال والتسبيح من بيانه العظيم قبس هداية يعم جمهرة المسلمين .

إن الرسول ﷺ يعلمنا - قاصدا - سبل الفناء في العبودية لله بصيغ القول المبارك ، والتوجيه المنير كيف نناجى مولانا بأدب القول ، وذلة الإبتهاال ، وكيف نخاطب خالقنا بخشوع التعبد وشفافية التهجد .

يعلمنا الرسول ﷺ فضل الطهر والتحميد والتسبيح في حديث أبي مالك الأشعري :

عن أبي مالك الأشعري - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنِ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » . صحيح مسلم (كتاب الطهارة) باب فضل الوضوء

وبأرق لسان وأنصح بيان يعلمنا رسول الله ﷺ فضل التسبيح والتحميد ، ومحبتها إلى قلوب المؤمنين ؛ لتربو حسناتهم وتثقل عند الحساب موازينهم :

عن أبي هريرة : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

صحيح البخارى (كتاب الدعوات) باب فضل التسبيح ٨ / ١٠٧ .

ويرسّخ رسول الله ﷺ أعماق الإيمان في القلوب ، ويثبت جذور الإسلام في النفوس ، ويؤكد الشهادة بنبوته في الأفئدة بتشجيع المسلمين على ترديد حديث ثوبان ما وسعهم التردد :

عن ثوبان - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال حين يمسي : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ، كان حقاً على الله تعالى أن يرضيه » أخرجه النسائي والترمذي

وفي رواية أبي داود وغيره : « وبمحمد رسولا » .

ولقد روى هذا الحديث كشط من حديث أطول عند سماع الأذان ، رواه سعد بن أبي وقاص ، أن النبي ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، رضيت بالله رباً ، وبمحمد رسولا ، وبالإسلام ديناً ، غفر له ما تقدم من ذنبه » أخرجه مسلم .

والرسول ﷺ يعمد - لطفاً منه وأدباً وحسن توجيه - المرة بعد المرة إلى تكريم أمهات المؤمنين بجعلهن مصدراً للتبليغ ، ووسيلة للهداية ، لا في أحكام الشرع وحده ، ولكن في أدب التعبّد ، ومنهاج التسبيح ، بالدعاء الموجز في عدد كلماته ، الوفير في جنى ثمراته .

عن جويرية أم المؤمنين - رضى الله عنها - أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فيه ، فقال : « ما زِلْتُ اليوم على الحالة التي فارقتك عليها ؟ قالت : نعم ، فقال النبي ﷺ : لقد قلتُ بعدك أربع كلمات - ثلاث مرات - لو وُزِنْتُ بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته »

صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) : باب التسبيح أول النهار وعند النوم .

وفي ساحة الرضا والمغفرة يردد رسول الله ﷺ صيغ التوحيد والعبودية والتمجيد والاعتراف بالذنوب ، وطلب الغفران ، التي يستعصى عمق صياغتها ، ونصاعة

كلماتها ، وصدق بيانها ، على أى من البشر إلا على محمد ﷺ وجلال ما صدر عنه ﷺ من صدق القول وشريف الدعاء ، يسميه سيد الاستغفار :

قال رسول الله ﷺ : « سيد الاستغفار : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أبوء لك بنعمتك ، وأبوء لك بذنبي ، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، أعوذ بك من شر ما صنعت » إذا قال حين يمسى فمات دخل الجنة - أو كان من أهل الجنة - وإذا قال حين يصبح فمات من يومه . . . مثله » الحديث ٦١٧ من الأدب المفرد ، ج ٢ .

ويورد البخارى « سيد الاستغفار » فى صحيحه مرويًا عن الصحابى شداد بن أوس - رضى الله عنه - باختلاف بسيط هو تقديم جملة « أعوذ بك من شر ما صنعت » وجعلها تالية للجملة « وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت » . صحيح البخارى (كتاب الدعوات) باب أفضل الاستغفار .

ومعنى (أبوء) فى موضعها من الحديث هو : أعترف وأقر . وأصل البوء : اللزوم ، وبوأه الله منزلاً ، أى : أسكنه .

وإن واحداً من أجل الأدعية وأنقى الابتهالات التى صاغتها بلاغة أفصح الفصحاء ﷺ قد صدرت عنه إلى الحسن السبط ، حين طلب إليه أن يعلمه كلمات يقولها فى الوتر ، فكان أن سكب الرسول ﷺ فى سمعه دعاء الهداية ، وما دامت هذه هى الصفة التى أسبغها رسول الله على هذا الدعاء ، فمعنى ذلك أنه لا يصدر إلا عن القانتين ، ولا يكون المسلم قانتا حتى يكون داعياً حامداً ومبتهاً ممجداً ، ولقد سبق ورود دعاء الهداية هذا والدعاء الذى يليه فى مناسبة سابقة .

عن الحسن بن على - رضى الله عنهما - قال : علّمنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن فى الوتر : « اللهم اهدنى فيمن هَدَيْتَ ، وعافنى فيمن عَافَيْتَ ، وتولّنى فيمن تولَّيْتَ ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فإنك تقضى ولا يقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت » .

أبو داود ، والنسائى ، والترمذى ، وابن ماجه .

ويستحب أن يقول عقيب هذا الدعاء : اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل محمد وسلم .

ومن صبيغ الابتهاال الفريدة ، وصور التذلل المنيبة ، وأساليب التمجيد المجيدة ، ما كان يقوله رسول الله ﷺ في سجود القرآن ، وهو ما يعرف بسجود التلاوة :

عن عائشة - رضى الله عنها - قال : كان رسول الله ﷺ يقول في سجود القرآن : «سجد وجهي للذي خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره بحوله وقوته ، فتبارك الله أحسن الخالقين» .

ولرسول الله ﷺ الدعاء الذي رواه عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - وهو ما عرف بدعاء التهجد ، إنه يناجى الخالق الأعظم بأدب كلام يناجى به العبد ربه ، وبأصدق استغفار يطلبه المستغفر من سيده ، وبأخلص ابتهاال يصدر عن مؤمن يبتهل به إلى الخالق الأعظم ، لقد جمع رسول الله ﷺ صيغة تهجده تلك كل أعماق العبودية والاستغفار ، وكل أبعاد المناجاة والابتهاال ، في سياق من فيوض الإيمان بكل ماتتطلبه عناصر الإيمان في جملته وتفصيله :

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يتهجد قال : « اللهم لك الحمد ، أنت قيّم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، لك ملك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت » وفي رواية « ولا حول ولا قوة إلا بالله » أخرجه البخارى ومسلم ، كما جاء فى الأدب المفرد ج ٢ الحديث ٦٩٧

معنى (بك خاصمت) يعنى : بما أعطيتنى من البرهان .

معنى (إليك حاكمت) يعنى : جعلتك الحاكم ، وفوضت الحكم إليك .

ولقد تعرض النبيون والرسول للكيد والأذى والعذاب في سبيل تبليغ كلمات الله ورسالاته ، من لدن إبراهيم أبى الأنبياء حتى محمد سيد الخلق وخاتم الرسل .
وتعرض رسول الله ﷺ للكثير من صنوف الأذى الذى كان يلقيه من قومه ، وقد اشتد الأذى والجحود عليه ﷺ في سلسلة من الحلقات المتلاحقة ، وبلغ ذلك ذروته بعد عام الحزن الذى فقد فيه ناصريه الكبارين : عمه أبا طالب وزوجه الجليلة أم المؤمنين خديجة الكبرى .

هنا قرر رسول الله ﷺ أن يرحل إلى الطائف ينشد العون والتصديق به من بنى ثقيف ، وتوجه إلى ثلاثة نفر إخوة ، هم : عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب ، أبناء عمرو بن عمير ، وكلمهم في عقيدة التوحيد ، فقابلوا الدعوة إلى الله بالسخرية والصد ، وزادوا على ذلك بأن أغروا به ﷺ سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويطاردونهم ، حتى لجأ إلى الحائط ، ثم عمد إلى ظل شجرة عنب وقد تجمعت المتاعب في جسمه الشريف وضاعت به الدنيا إلا من رحمة ربه الكريم ، فكانت مناجاته لخالقه هي أكبر مخرج له من الهم الذى حل به ، وأعظم سلوى من الأذى الذى وقع عليه ، فاتجه بكل نبضة في قلبه الشريف إلى ربه العظيم شاكيا مناجيا متذللا مبتهلا طالبا الرضى والعون في بكاء أو ما يشبه البكاء ، بأبلغ صيغة دعاء صدرت عن بشر في مثل هذا الموقف :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »

ما أن ينتهي الرسول الحبيب من دعائه وابتهاله حتى يرقّ لحاله عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وكانا يتابعان من بعيد ما وقع على رسول الله ﷺ من أذى ، فأرسلا إليه غلاما لهما اسمه (عداس) يحمل قطفاً من العنب وضعه في طبق وحمله إلى رسول الله ، وبعد حوار قصير جرى بينهما آمن عداس بنبوة محمد ، فكانت بمثابة ترضية سريعة من الخالق نزلت على قلبه بردا وسلاما .



الفصل الثاني

الأحاديث القدسيّة

الأحاديث القدسية

التعريف بها :

الأحاديث القدسية فى حقيقة جوهرها توجيهات إلهية ، وأحكام صمدانية ، وبُشْرِيَّاتُ ربانية ، وإنعامات رحمانية ، وإنذارات سماوية ، وفيوضات قدسية موحى بها من لدن الخالق - سبحانه وتعالى - إلى نبيه وخير خلقه محمد ﷺ بمعانيها وليس بالفاظها ، عبر عنها سيدنا رسول الله ﷺ ببيانه المفرد بين ألوان بيان البشر ، وبلاغته السامية التى لم يبلغ شأوها ناطق بالعربية قبله ولن يبلغها أحد بعده ؛ ولذلك فإن مقام أحاديث رسول الله ﷺ من حيث إعجازها البيانى ورفيقها البنيانى يحىء فى الترتيب بعد كلام المولى - سبحانه وتعالى .

ولقد وصف أخونا وصديقنا الدكتور عز الدين إبراهيم أسلوب الحديث القدسى بأنه علوى الطابع ، روحى الصبغة ، عميق الإثارة (١).

ومثلما شغلنا الأحاديث القدسية من حيث تعريفها ومضامينها وغاياتها ، فقد شغلت كثيرين غيرنا من شيوخنا رجال السلف الصالح وخدام حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحفاظه .

إن الشريف على بن محمد الجرجانى يعرف الحديث القدسى بقوله : « الحديث القدسى هو من حيث المعنى من عند الله تعالى ، ومن حيث اللفظ من رسول الله ﷺ فهو ما أخبر الله تعالى به نبيه بإلهام أو بالمنام ، فأخبر - عليه السلام - عن ذلك بعبارة نفسه ، فالقرآن مفضل عليه ؛ لأن لفظه منزل أيضا » (٢).

(١) مقدمة « الأربعون القدسية » ص : ٣٤

(٢) التعريفات ص : ٤٥ ط تونس ١٩٧١

ويتفق رجال الحديث على أن الحديث القدسي هو الذى الذى يكون لفظه من عند رسول الله ﷺ وأما المعنى فمن عند الله - تبارك وتعالى - يقول الملا على بن محمد القارى الحنفى : إنه ما « يرويه صدر الرواة ، وبدر الثقات - عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات - عن الله - تبارك وتعالى - تارة بواسطة جبريل - عليه السلام - وتارة بالوحي والإلهام وال المنام ، مفوضاً إليه التعبير بأى عبارة شاء من أنواع الكلام » ثم يستطرد الملا القارى فى مزيد من الإبانة قائلا : « وهى تغاير القرآن الحميد ، والفرقان المجيد ، بأن نزوله لا يكون إلا بواسطة الروح الأمين ، ويكون مقيدا باللفظ المنزل من اللوح المحفوظ على وجه التعيين ، ثم يكون نقله متواترا قطعيا فى كل طبقة وعصر وحين » (١).

إن نسبة هذه الأحاديث إلى القدس إنما هى لإضافة معناها إلى الله وحده ، ومن ثم سمي هذا النوع من الحديث بالقدسي ، والإلهي ، والرباني .

وعلى الرغم من أن الأحاديث القدسية منزلة من الخالق - جل وعلا - بواسطة جبريل أو الوحي أو الإلهام أو المنام من حيث معانيها وليس ألفاظها ، فإن بينها وبين القرآن فروقا كثيرة ، منها : أنه لا تصح الصلاة بها ، ومنها عدم حرمة لمسها وقراءتها للجانب والحائض والنفساء ، ومنها عدم تعلق الإعجاز بها ، ومنها عدم كفر جاحدها .

ولرواية الحديث القدسي صيغتان : الأولى هى : « قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيما يرويه عن ربه » . والثانية هى : « قال الله تعالى فيما رواه عنه رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم »

موضوعات الأحاديث القدسية :

للأحاديث القدسية خصوصيتها من حيث كونها موحى بها من رب العزة - سبحانه وتعالى - وهى فى ذلك تتباين عن الأحاديث النبوية الأخرى التى هى ترجمة لرسالة السماء بعد القرآن الكريم ، فإن الأحاديث النبوية غير القدسية على الرغم من كونها غير موحى بها إلا أنها منبعثة من لدن الرسول البشر الإنسان الذى أعده الله لحمل رسالته وتبليغها

(١) الأحاديث القدسية الأربعينية ، ص : ٢

في نطاق العصمة التي خصه بها دون سائر البشر ، واختاره واصطفاه ، ثم أدبه الأدب الرباني الذي أهَّله به لأن يكون رسولا ومعلما وهاديا وبشيرا ونذيرا ، ومن ثم وصفه المولى في محكم كتابه بقوله - جل جلاله - : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ثم عبّر الصادق المصدوق عن هذه المنّة الربانية العظمى بقوله ﷺ : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ، فالرسول ﷺ معصوم في كل لفظ تلفظ به ، رباني في كل منطق نطق به ، فما أسمى ماتلفظ به ، وما أرفع ما نطق به ، فكل ذلك جرى من منطق كونه رسولا إلى الناس كافة ، اختاره الله لهذه الرسالة وأعدّه لتبليغها ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ذلك توضيح رأينا لإثباته على الرغم من كونه مفهوما بداهة عند المشتغلين بعلوم حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

وحتى يستطيع المرء التعرف على الأحاديث القدسية حق المعرفة فإنّ عليه أن يستقصى مصادرها في كتب الحديث ، وأن يغمس نفسه في بركتها ، وأن يغمر ذاته في فيوضها ، متفرغا لذلك كل التفرغ ، فإن فعل ذلك محتسبا لله خاشعا لمولاه مسترشدا بنور رسول الله مستعينا بتوجيه علماء الحديث ورجاله ، إنه إن فعل ذلك ، فإن آفاقا من النور تتسع أمام بصيرته ، ثم لا تلبث أن تحتويه جسدا وروحا وعقلا وقلبا وبصرا وسمعا ، حينئذ يستطيع أن يترجم عن بعض موضوعات الأحاديث القدسية لكي يقدمها للقارئ المنتفع ، والطالب المستزيد .

ولعل موضوعات الأحاديث القدسية التي أمكن تسجيلها تشمل القضايا التالية :

- التوحيد وتنزيه الخالق عن الولد والشريك .
- التوحيد والتكبير والحمد والتمجيد والخشية والمغفرة .
- فظاعة الشرك ، وتقبيح الرياء ، والعمل لغير الله في نطاق البطولة والعلم والجود .
- فضل العبادات وثوابها كالصلاة والصيام والإنفاق .

- فضل ذكر الله وصيغ التسييح .
- التوبة ، ومضاعفة الحسنات ، وغفران السيئات ، ورحمة الله الواسعة ، وما أعد - سبحانه - للصالحين ما لم يشرك به .
- الجهاد والشهادة في سبيل الله .
- الصبر على المكروه من فقد للأبناء والأقربين ، والمرضى والعسر والاضطهاد .
- الظلم وتحريمه ، والرياء والسمعة .
- الأخوة والتحاب في الله ومكارم الأخلاق .
- أحاديث الشفاعة : شفاعته محمد ﷺ وورود الخوض .
- الحشر والنشور والموقف والحساب والصراف .
- وصف الجنة والنار ، وأهلها ، وما حفتا به .

تلك هي أكثر موضوعات الأحاديث القدسية ، وهي - كما هو واضح من أغراضها - ذات خصوصية متميزة ؛ لأن المولى - سبحانه - جعلها معبرا بين كتابه الكريم وبين حديث رسوله الصادق الأمين ، خاطب بها عباده ، وأجرى معانيها على لسان سيد الخلق الذي لا ينطق عن الهوى ، وخصوصيات هذه الأحاديث القدسية أنها على الأغلب مستهدفة صلة العبد بربه في نطاق أساسيات الإسلام وأهدافه الكبرى التي ذروتها التوحيد وتنزيهه - تعالى - عن أن يكون له ولد أو شريك ، مع التأكيد على حتمية البعث والنشور ، ثم تتوأكب موضوعات الأحاديث القدسية على النحو الذي أوردناه في السطور الماضية .

وها نحن نورد نماذج من هذه الأحاديث على سبيل التمثيل لا الحصر ، وارتباطها بالموضوعات سالفة الذكر .

الوحدانية والبعث :

عن الأعرج عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « قال الله تعالى : كذبني ابن آدم

ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقلوه : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته . وأما شتمه إياي فقلوه : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفواً أحد « (١) .

يقول شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى : تنزيه الخالق عن أن يولد أو يلد ؛ لأن الولد والوالد لا يكونان إلا من جسمين ، وهما من الأغيار ، والأغيار نقص يتنزه الله - تعالى - عنه ، وهذا الشرح للحديث يعد من أبلغ الشروح وضوحاً وإقناعاً .

والصمد : هو المصمود إليه ، أى : المقصود من كل الخلق ، وقيل : الصمد : الحى القيوم الذى لا زوال له ، وقيل : الصمد : نور يتلأأ .

التوحيد والتكبير والحمد والغفران :

التوحيد هنا هو توحيد العباد لخالقهم وتهليلهم ، والحمد فى نطاق العبادة الحققة ، فهو - سبحانه وتعالى - يقول : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ والعبد من صفاته الخطأ ، ولكن رحمته - سبحانه - تتسع للمغفرة والصفح إذا كان الاستغفار من طبيعة العبد ، بل إن رحمته - سبحانه - تغمر جليس المستغفرين إذا كان من الخطائين .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال :

« إن لله - تبارك وتعالى - ملائكة سيارة فُضُلاً ، يتنغون مجالس الذكر ، فإذا وجدوا مجلساً فيه ذِكْرٌ قعدوا معهم ، وحفَّ بعضهم بعضاً بأجنتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا ، فإذا انصرفوا عرجوا وصعدوا إلى السماء ، قال - أى : الرسول ﷺ : فيسألهم الله - عز وجل ، وهو أعلم بهم - : من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عباد لك فى الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك ، قال : وما يسألونى ؟ قالوا : يسألونك جنتك . قال : وهل رأوا جنتى ؟ قالوا : لا أى

(١) الحديث رقم ١٩ : مجموعة الأحاديث القدسية ، قام بتحقيقها جماعة من العلماء ، نشرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

رب ، قال : فكيف لو رأوا جنتي ؟ قالوا : ويستجيرونك ، قال : وممّ يستجيرونني ؟ قالوا : من نارك يارب ، قال : هل رأوا نارى ؟ قالوا : لا ، قال : فكيف لو رأوا نارى ؟ قالوا : ويستغفرونك ، قال : يقول : قد غفرت لهم ، وأعطيتهم ما سألوا ، وأجرتهم مما استجاروا ، قال - أى : الرسول - : يقولون : ربّ فيهم فلان ، عبدٌ خطّاء ، وإنما مرّ فجلس معهم ، قال : فيقول : وله غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم .
رواه البخارى ومسلم والترمذى

عمل الخير لغير الله ابتغاء المراءاة :

إن من أشد ما يكرهه الله - سبحانه وتعالى - من العبد اقتراف المعاصى ، والمعاصى متعددة الأشكال متنوعة الألوان ، وتأتى فى مقدمة هذه المعاصى وعلى رأسها ، عمل الخير ولكن ليس لوجه الله ، وإنما للفتاخر والمراءاة ، كأن يخوض العبد معارك الحرب ليس ابتغاء رفع راية الإسلام ، ولكن لكى يقال إنه شجاع جسور ، أو أن يتعلم العلم لا لينفع به الناس ، وإنما لكى يقال عنه إنه عالم ، أو أن ينفق المال ليس امتثالاً لفضيلة الإنفاق فى سبيل الله ، ولكن لكى يقال عنه جواد . هذه صفات يمجتها الله - سبحانه - من عبده أشد المقت ؛ ولذلك فإن الحديث القدسى يحذّر من التورط فيها أشد التحذير ، وينذر المنغمس فى أدرانها بأشد العقاب .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد ، فأُتِيَ به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلتُ فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي فى النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأُتِيَ به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم لكى يقال : عالم ، وقرأت القرآن لكى يقال : هو قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي فى النار . ورجل وسّع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأُتِيَ به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما

تركْتُ من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى في النار»^(١).

في فضل فريضة الصلاة والصيام :

الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين ، هكذا علّمنا صغاراً مكانة الصلاة وفضلها ، وهكذا أيضاً علّم أبناء المسلمين صغاراً فضل الصلاة ومكانتها ، والتركيز على فضل الصلاة من القضايا الظاهرة في كتاب الله وفي سنة رسول الله ، ولقد وهبها الله مكانة خاصة أيضاً في الأحاديث القدسية ؛ لأن الصلاة هي إظهار لعبودية المخلوق تجاه خالقه من حمد وتسبيح وتوحيد ودعاء وخضوع وسجود خمس مرات مفروضة غير التطوع قبل الفروض وبعدها في صلاة السنن ، فضلاً عن تطوع الضحى والتهجد وقيام رمضان ، وصلاة الكسوف والخسوف والاستسقاء والجنائز وغيرها ، ومن هنا كان فضل الصلاة ومكانتها وترتيبها المتقدم بين العبادات المفروضة ؛ ولذلك فإن بعض الأئمة قد أفتى بكفر تارك الصلاة ، مجرد الترك وليس الإنكار ، فمنكر الصلاة كافر كفراً صريحاً ؛ لأنه أنكر ركناً من أركان العقيدة ، ويتبدى خطر فريضة الصلاة في وفرة ثوابها ، وفي كونها أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة ، فإن كان من المحافظين عليها المواظبين على أدائها أفلح ونجا .

ومثلما منحت الإرادة الإلهية الصلاة من عناية ، فإن فريضة الصيام قد لقيت بدورها قدراً من العناية الربانية في الأحاديث القدسية ، ذلك أن كلا من الصلاة والصيام تمثلان صلة مباشرة بين العبد وربّه ، وربما كان للصيام خصوصية متميزة ؛ لأنه في حالة الصلاة قد يصلّى المرء مراءاة للتظاهر بالتقوى ، وأما في أداء فريضة الصيام فليس ثمت مكان للمراءاة ، فالصيام هو الصيام ، وهو امتناع - دون رقيب - عن المطعم والمشرب والشهوة والمأثم ، امتثالاً لأمر الله واحتساباً للمغفرة والثواب .

(١) الحديث السادس : مجموعة « الأربعون القدسية » جمعها الدكتور عز الدين إبراهيم ، والأستاذ دينيس ديفز ، والحديث رقم ٢٩٥ من مجموعة الأحاديث القدسية للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه في (الجهاد) باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار .

عن فريضة الصلاة يُروى هذان الحديثان القدسيان كمثال لفضلها ومكانتها وتقدمها على سائر العبادات ، هذا فضلا عن أحاديث أخرى كثيرة أوردتها كتب السنن .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صَلَحَتْ فقد أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ ، وإن فسدت فقد خاب وخسر ، فإن انتَقَصَ من فريضته شيءٌ قال الرب - عز وجل - : انظروا هل لعبدي من تطوع فَيَكْمُلْ بها ما انتَقَصَ من الفريضة ؟ ثم يكون سائر عمله على ذلك » (١) .

وعن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« يعجب ربك من راعي غنم في رأس شَظِيَّةِ الجبل يُؤَذِّنُ بالصلاة ويصلي ، فيقول الله - عز وجل - : انظروا إلى عبدي هذا ، يؤذن ويقيم الصلاة ، يخاف مني ، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة » (٢) .

ومن الأحاديث القدسية في فضل الصوم وثوابه العظيم يروى هذا الحديث :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال :

« يقول الله - عز وجل - : الصوم لي ، وأنا أجزي به ، يدع شهوته وأكله وشربه من أجلي ، والصوم جُنَّةٌ ، وللصائم فرحتان : فرحة حين يفطر ، وفرحة حين يلقى ربه ، وخالوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » (٣) .

حب الله لعباده ورحمته بهم ، وغفرانه لهم ما لم يشركوا به :

من أسماء الله الحسنى : الغفار ، ومن أسمائه الحسنى أيضا : الرحمن الرحيم ،

(١) أخرجه النسائي في باب (المحاسبة على الصلاة) ورواه أبو داود ، وابن ماجه ، وأحمد ، ورواه الترمذي الحديث رقم ٤١٣ ج ٢ / ٢٧١ تحقيق أحمد محمد شاكر .

(٢) رواه النسائي بسنده . وشَظِيَّةُ الجبل : هي الصخرة العظيمة ، أو فلقة منه .

(٣) رواه البخاري ومسلم ومالك والترمذي والنسائي وابن ماجه .

وهي أسماء تفرّد المولى - سبحانه - بها ، فلا تطلق إلا على ذاته العلية ، وهي في اللغة تعدّ من صيغ المبالغة ، ومن ثم كانت مغفرته لعباده ورحمته بهم غير محدودة بحدود ، أو مشروطة بشروط ، إلا أن يشرك به ، فإذا ما برىء العبد من الشرك بالله كان موقعه تحت مظلة رحمة الرحمن الرحيم ، ومغفرة الغفار ، إذا ندم العبد على آثامه وتاب إلى الله توبة صادقة مما اقترفه من ذنوب ، أو اجترح من سيئات ، قال الله ذلك في قرآنه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ

ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۖ ﴾ وقال أيضا : ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ

شَيْءٍ ۝ ﴾ والسنة النبوية الشريفة مترعة بأحاديث الرحمة والمغفرة ، وهما الأحدث القدسية تبشر المذنبين من المؤمنين الذين لم يشركوا بربهم أحدا بالعمو والمغفرة في أوسع أفاقهما ما لم يشركوا بربهم أحدا .

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك . ولا أبالي إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني - وفي رواية أتيتني - لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » (١) .

وفي ستر الله عباده في الدنيا وغفرانه سيئاتهم يوم الحساب - ماعدا الكفار - يروى ابن عمر هذا الحديث على النحو التالي :

بينما ابن عمر يطوف إذ عرض له رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن - أو قال : يا ابن عمر - هل سمعت النبي ﷺ في النجوى ؟ فقال : سمعت النبي ﷺ يقول : « يُدْنِي المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه ، تعرف ذنب كذا ؟ يقول :

(١) الأربعون النووية ، رواه الترمذی ، وقال : حديث حسن صحيح .

معاني الألفاظ : عنان السماء - بفتح العين - : هو السحاب ، وأحدثها : عنانة ، وقيل العنان : ما عن لك . قراب الأرض - بضم القاف ويصيح كسرهما - معناها : ما يقارب ملئها .

أعرف، يقول : رب أعرف - مرتين - فيقول : سترتها في الدنيا وأغفرها لك اليوم ، ثم تطوى صحيفة حسناته ، وأما الآخرون - أى : الكفار - فينادى على رءوس الأشهاد : ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۖ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

ولا تقف مشيئة الرحمن عند مغفرة الذنوب وحدها ، ولكن كرمه الواسع يشمل عبده المحسنين ، فيجزى الحسنة بعشر أمثالها ، ولا يجزى السيئة إلا بمثلها ، ويزيد فضله - سبحانه - فمن هم بحسنة ولم يفعلها كتبت له حسنة ، ومن هم بسيئة ولم يفعلها لم تكتب عليه ، وهو - سبحانه - بعد ذلك كله يبسط رحمته على عباده فيغفر لهم ولو جاءوا بقراب الأرض خطيئة ما لم يشركوا به شيئا :

عن أبي ذر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «يقول الله - تبارك وتعالى - : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد ، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة سيئة مثلها أو أغفر ، ومن تقرب منى شبرا تقرب إليه ذراعا ، ومن تقرب منى ذراعا تقرب منه باعا ، ومن أتانى يمشى أتيت هرولة ، ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة ثم لا يشرك بى شيئا لقيت به بمثلها مغفرة » (٢) .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله - عز وجل ، وقوله الحق - : إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها ، وإذا هم بسيئة فلا تكتبوها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، فإن تركها - وربما قال : ولم يعمل بها - فاكتبوها له حسنة ، ثم قرأ - أى : رسول الله - ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلٍهَا ﴾ (٣) .

(١) الحديث رقم ٣٥٣ من الأحاديث القدسية ، طباعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . أخرجه البخارى في كتاب التفسير من سورة هود ، وأخرجه مسلم في التوبة ، وأخرجه النسائى في التفسير والرقائق ، وأخرجه ابن ماجه في السنة .

(٢) الحديث رقم ٤٤ من « الأحاديث القدسية » إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وانظر أيضا الحديث رقم ٧٢ .

(٣) الحديث ٤٣ المصدر السابق . ويقول الترمذى : حديث حسن صحيح .

فضل الشهادة والجهاد في سبيل الله :

إن مرتبة الشهادة في سبيل الله رفيعة الدرجة ، سامية المكانة ، فمقام الشهداء يأتي بعد النبيين والصديقين ، وهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وذلك مصداق للكتاب العزيز في قول الله - تعالى - : ﴿

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ﴿١٠٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠١﴾ .

ثم تحيى الأحاديث القدسية فتزيد فضل الشهادة تفصيلا ، ومقام الجهاد في سبيل الله تفضيلا ، وهى - بحمد الله وفضله - كثيرة ، نسوق منها الحديث التالى على سبيل التمثيل :

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله عز وجل : [يا ابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب ، خير منزل . فيقول : سل وتمن ، فيقول : أسألك أن تردنى إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرات] ؛ لما يرى من فضل الشهادة » (٢) .

تحريم الظلم :

الظلم جريمة من أبشع الجرائم ؛ لأنها عمل شرير مدمر : مدمر للدول والشعوب والأفراد والنفوس ، وقد أذان القرآن الكريم الظلم والظالمين ، وما حل الظلم في دولة

(١) آل عمران ، الآيات ١٦٩ - ١٧١ .

(٢) الحديث ١٨٨ من مجموعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

إلا خربها ، وما وقع على إنسان إلا كان أجره على الله ، ولم يعرف التاريخ ظلما واحدا أفلح مسعاه أو نال ما تمناه ، بل العكس هو الصحيح ، وجميع الظالمين من حكام وأفراد كانت نهايتهم بشعة ، وذكرهم دنسة ، وقد صدق رسول الله ﷺ حين أدان الظلم بأبلغ وصف نطق به بشر حين قال : « الظلم ظلمات » .

إن الله سبحانه - في الحديث القدسي - يخاطب عباده محذراً إياهم من الظلم ، فيبين ضعفهم وقلة حيلتهم ، ويحيطهم علما بعظمة ملكه وجلال شأنه ، وهو - سبحانه - بكمال ذاته وتنزيه صفاته قد حرم الظلم على نفسه كما حرمه على عباده ، فكيف بهم يظلم بعضهم بعضا ، وهم الضعفاء المحتاجون إليه ، وقد هداهم من ضلال ، وأطعمهم من جوع ، وكساهم من عرى ، وغفر لهم خطايا الليل وذنوب النهار؟! .

عن سعيد بن عبد العزيز ، عن ربيعة بن يزيد ، عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر جُنْدُب بن جُنَادَة - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ فيما يروى عن الله - تبارك وتعالى - أنه قال :

« يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالُمُوا ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمَكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَثْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا رَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا

لَكُمْ ثُمَّ أُوفِيَكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ .

قال سعيد بن عبد العزيز : كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه .

وروى عن الإمام أحمد بن حنبل قوله : ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث (١) .

الأخوة بين المؤمنين والتحاب في الله :

الإسلام دين السلام والحب ، والمؤمنون تجمعهم الأخوة في الله ، وقد قال الله في محكم كتابه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ولذلك فلا شحناء بين الإخوة في الإيمان ، ولا خصومة بينهم ، وقد بشر المولى - سبحانه وتعالى - المتحابين بالجنة جزاء ، وبالغفران ثوابا ، ولا تفتح أبواب الجنة لمتشاحنين حتى يصطلحا .

عن قتبية بن سعيد ، عن مالك بن أنس فيما قرىء عليه ، عن سهل ، عن أبيه ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا ، إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء ، فيقال : أنظروا هذين حتى يصطلحا ، أنظروا هذين حتى يصطلحا ، أنظروا هذين حتى يصطلحا » (٢) .

عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله عز وجل : المتحابون في جلالي لهم منابر (*) من نور ، يغطهم النبيون والشهداء » (٣) .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب تحريم الظلم ، والحديث رقم ٢٦٦ من مجموعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) أخرجه مسلم في باب النهى عن الشحناء .

(٣) أخرجه الترمذى في باب (الحب في الله) وانظر الحديث ٢٦٤ مجموعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(*) لهم منابر من نور ، أى : يكون ذلك يوم القيامة في الحشر والخلق في غاية الكرب والازدحام والحر الشديد ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يَجْزِيهِمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ ﴾ .

يغطهم النبيون والشهداء ، يعنى : يتمنون مثل ما حصل لهم ، وهذه المزية لا تقتضى أفضليتهم على النبيين والشهداء ، فإن لهم مزايا ومنازل لا تتحقق لغيرهم .

هذا ، ولما كانت أخوة المؤمنين ظاهرة تفرد بها الإسلام وحدد لها معالم نبيلة من التحاب والتعاطف والتواصل والمودة والتعاون والصفاء ، إلى غير ذلك من العناصر الإنسانية الرفيعة ، فقد ورد في تأكيد هذه العناصر العديد من الأحاديث القدسية التي تمثلنا ببعضها ، والأحاديث النبوية التي سوف نورد أمثلة منها في غير هذا الفصل - إن شاء الله - ولقد ركزت الأحاديث الشريفة من نبوية وقدسسية على هذه القيم ، ونعنى بها قيم المحبة والمودة في نطاق الأخوة ، وفي الوقت نفسه استنكرت البغض والشحناء والتقاطع بين المؤمنين ، وقبحت مسالكها حتى يكون المجتمع الإسلامى متساندا كالجسد الواحد ، وحتى يتحقق فيه وصف الخالق الأعظم لهذه الأمة في قوله عز وجل : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

أهل الجنة :

الجنة هي وعد الله للمؤمنين به رباً واحدا لا شريك له ، وهي جزاؤه للمتقين الذين يعملون الصالحات ويمثلون لأوامره ، والذين ينأون بأنفسهم عن فعل الخطايا واقتراف الآثام وعمل الخبائث ، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وإذا كانت الجنة في حد ذاتها هي النعيم الأكبر الذى ينتظره المؤمنون ، فإن كرم الله غير المتناهى وفضله الذى لا تحده حدود يعم أهل الجنة فيزيدهم نعيما ، ويغمرهم فيزيدهم أمناً على أمنهم وسعادة على سعادتهم بخطابه - جل وعلا - لهم ، وإفاضته عليهم من رضوانه ، والأحاديث القدسية عديدة في هذا الموقف الجليل :

حدثنا معاذ بن أسد عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :

«إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، يقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : أنا أعطيتكم أفضل من ذلك ، قالوا : يارب وأى شيء أفضل من ذلك ؟

فيقول : أُحِلَّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا» (١).

وروى أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فاقروا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ » ويقول الله - سبحانه وتعالى - في محكم كتابه : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ والذين أحسنوا مصيرهم إلى الجنة ، وهى نعم الجزاء ونعم المستقر ، وهى المراد فى قوله - تعالى - : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ ﴾ فما هى الزيادة ؟ إن ذلك هو ما يفصح عنه الحديث القدسى الذى رواه صهيب عن النبى - صلى الله عليه وسلم - :

فى الصحيح عن صهيب عن النبى ﷺ (٣).

« يقول الله : يا أهل الجنة ، إن لكم عندى موعداً يريد أن أنجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم تنضّر وجوهنا وتثقل موازيننا وتدخلنا الجنة وتجرنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهى الزيادة » .
الزيادة هى الواردة فى قوله - تعالى - : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ .

(١) أخرجه البخارى فى (كتاب الرقاق) باب صفة الجنة والنار ، وفى (كتاب التوحيد) باب كلام الرب مع أهل الجنة

وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب (الجنة ونعيمها وأهلها)

(٢) الحديث رقم ٥٢ من مجموعة « الأحاديث القدسية » إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٣) النبوات ، ص ٦٧ .



الوصايا

- الفصل الأول : وصايا الرسول للصحابة القواد والموجهين .
- الفصل الثانى : بعض وصايا الرسول للنساء .
- الفصل الثالث : وصيتان لرجلين مغمورين .
- الفصل الرابع : الرسول يوصى بطلاب العلم .
- الفصل الخامس : وصية الرسول بالأنصار .
- الفصل السادس : وصية الرسول للخليفة والمسلمين ، وموقفهم من حكامهم .



الفصل الأول

وصايا الرسول للصحابة
من قواد وموجهين

وصايا رسول الله ﷺ

تمهيد :

الوصايا : ضرب من القول يتسم بالبلاغة في الصوغ والنصاعة في التعبير ، يتضمن نصائح غالية وتوجيهات سديدة تصدر عادة عن حكيم صاحب تجربة ، أو عاقل صاحب بصيرة ، ولقد حفلت كتب تراثنا بالكثير من الوصايا الحكيمة والتجارب النفيسة التي صدرت عن حكماء العرب ومفكرى المسلمين .

فإذا كانت هذه الوصايا صادرة عن سيد الخلق وخاتم الأنبياء وأفصح الفصحاء وأحكم الحكماء فإنها بغير شك تحتل الموقع الأسمى والمقام الأرفع بين جميع الوصايا التي صدرت عن البشر .

وإذا كانت وصايا البشر استهدفت الحكمة الدنيوية ، فإن وصايا محمد ﷺ قد تميزت عن قريناتها بأنها تستهدف سعادة الدنيا ونعيم الآخرة ، وذلك من خلال منهج الرسول الخاتم الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ؛ مصداقا لقوله ﷺ : « أدبنى ربي فأحسن تأديبي » ومن ثم فإنه يؤدب البشر أفرادا وجماعات من خلال وصاياه الحكيمة التى عزز مثلها ، واستعصى نظيرها .

إن وصايا رسول الله ﷺ تكون حينما استجابة لطلب صحابى أو واحد من جمهرة المسلمين طلب إليه أن يوجهه بوصية شريفة ، وحينما آخر تصدر لواحدة من أهل بيته أو لصحابية جلييلة ، وأحيانا تصدر لتنظيم مجتمع المسلمين ، مثل وصيته بالجار أو بطلاب العلم ، وأحيانا لتزكية قوم رآهم جديرين بالتحية والتكريم . وأحيانا أخرى تصدر وصاياه ﷺ للتنظيم السياسى ، أو لرشاد نظام الحكم ، وغير ذلك من الأغراض التى يراها ﷺ ضرورية لوضع المسلمين فى النهج القويم وعلى المحجة البيضاء .

هذا ، وإن وصاياه ﷺ لجند لمسلمين وهم خارجون للغزاة تمثل دستور الحرب في الإسلام ؛ لأن الحرب في الإسلام تأخذ شكل العلاج لحالات المرض ، ومن ثم فهي ليست غدرًا ولا غشًا ؛ لأنها خالية من الغدر ، بريئة من الغلول ، لا قتل فيها لصبي أو شيخ أو امرأة ، ولا حرق فيها لشجر أو نخل أو حصاد .

وصاياہ للصحابہ من قواد وموجهين

لقد أكرم الرسول ﷺ عددا غير قليل من صحابته الميامين بوصايا أصلحت من شأنهم ، وصارت نهجا التزمه المسلمون فيما بعد ، يستمدون منها أحكام دينهم ، ويسترشدون بهداها في سيرة دنياهم وآخرتهم .

إن معاذنا يقصّ وصية الرسول ﷺ له فيقول :

أوصاني رسول الله ﷺ بعشر كلمات ، قال :

« لا تشرك بالله شيئا وإن قتلت. وحرقت ، ولا تعقن والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك . ولا تترك صلاة مكتوبة متعمدا ؛ فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشربن خمر فإنه رأس كل فاحشة ، وإياك والمعصية فإن بالمعصية حل سخط الله - عز وجل - وإياك والفرار من الزحف ، وإن هلك الناس فاثبت ، وإذا أصاب الناس موتان وأنت فيهم فاثبت ، وأنفق على عيالك من طولك ، ولا ترفع عليهم عصاك ، وأخفهم في الله » مسند أحمد ٥ / ٢٣٨ .

لقد أوصى رسول الله ﷺ معاذنا وصية غالية اشتملت في واقع الأمر على عشر وصايا ، أطلق معاذنا لفظ كلمة على كل وصية .

فالوصية الأولى : ألا يشرك بالله شيئا ولو عذب بالقتل أو الحرق ، والوصية الثانية : ألا يعق والديه مهما كانت الأسباب والملابسات إلا أن يأمره بالإشراك بالله ، وقد قام الشرط الأول من الوصية بتنبيهه إلى ذلك ، والوصية الثالثة : المواظبة على أداء الصلوات المفروضة ؛ لأن عدم المواظبة عليها مما يباعد بين العبد وربّه ، ولقد أوصى الرسول بالمواظبة على الصلاة لأنها الفريضة الأولى ، ولأنها عماد الدين ، ولأن تاركها عامدا متعمدا جزاؤه جهنم .

والوصية الرابعة نهي من معاقرة أم الكبائر ، وقد أطلق عليها رسول الله ﷺ هذه التسمية الدقيقة : رأس كل فاحشة ، وتتواكب وصايا رسول الله ﷺ وتوجيهاته بين أمر يتبعه ، ونهي عما ينتهي عنه : نهي عن اقتراف المعاصي ، ونهي عن الفرار ساعة القتال في جيش المسلمين والثبات في مكانه إذا كثر الموت في الميدان ، وعدم الارتحال من بلدة هو فيها إذا انتشر الوباء ، ثم بعد ذلك ثلاث وصايا تتعلق بالأسرة والعيال ، وهي : الإنفاق عليهم ، وإشعارهم بالأمان ، وتنبيههم إلى مخافة الله ، مصداقا لقوله - تعالى - : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ واهتداء بقوله ﷺ : « رأس الحكمة مخافة الله » .

وقربت من وصية رسول الله ﷺ لمعاذ وصيته لأبي الدرداء ، وهو بدوره صحابي جليل ، وإذا كانت وصية الرسول لمعاذ اشتملت على عشر كلمات - أي : عشر مواضع - فإن وصيته ﷺ لأبي الدرداء اشتملت على تسع . قال أبو الدرداء - رضي الله عنه - : أوصاني رسول الله ﷺ بتسع :

« لا تشرك بالله شيئا وإن قطعت أو حرقت ، ولا تترك الصلاة المكتوبة متعمدا ، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشربن الخمر فإنها مفتاح كل شر ، وأطع والديك وإن أمراك أن تخرج من دنيك فاخرج لهما ، ولا تنازعن ولاية الأمر وإن رأيت أنك أنت ، ولا تفرّ من الزحف وإن هلك ، وأنفق من طولك على أهلك ، ولا ترفع عصاك على أهلك ، وأخفهم في الله عز وجل » الأدب المفرد .

والوصيتان تكمل إحداها الأخرى ، فهما تنظمان أمور الدين والدنيا ، وإن كانت وصيته ﷺ لأبي الدرداء تميزت عن سابقتها بحكم يتصل بصلة المسلمين بمن يلى أمرهم ، فأوصى أبا الدرداء وجمهرة المسلمين تبعا لذلك بالانصراف عن منازعة ولي الأمر حفاظا على وحدة كلمة الأمة واستقرار أمورها ، كما أن الرسول ﷺ في نهيه أبا الدرداء من شرب الخمر أعطاها هنا وصفا جديدا فساها « مفتاح كل شر » وكان سهاها هناك « رأس كل فاحشة » وكل من التسميتين تمثل أثر الخمر في تخريب المجتمع أبلغ تمثيل .

إن رسول الله ﷺ وقد كشفت عنه الحجب يعلم أن فتنا كثيرة سوف تحل بالمسلمين ، وقد سمعه على - كرم الله وجهه - ينبيء بذلك فسأله عن المخرج منها ، فأجابته ﷺ بأن

المخرج هو كتاب الله ، والاستمسك بأحكامه على النحو الذى قرره الرسول ﷺ وتلك رواية الوصية طبقا لرواية أمير المؤمنين على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - :

عن على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «سَتَكُونُ فِتْنَةٌ . قلت : فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : كِتَابُ اللَّهِ ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ ، هُوَ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ، وَلَا يَخْلُقُ عَنْ رَدِّ ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِظُهُ ، هُوَ الَّذِي لَمْ يَنْتَهُ الْجَنِّ حِينَ سَمِعْتُهُ حَتَّى قَالُوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ ، وَمَنْ خَاصَمَ بِهِ فَلَجَ ، وَمَنْ اعْتَصَمَ بِهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (١) .

كان رسول الله ﷺ يؤكد في كل مناسبة على الاستمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، وقد صنع ذلك في خطبة حجة الوداع في قوله ﷺ : « تركت فيكم ما إن استمسكتم به لن تضلوا أبدا : كتاب الله وسنتي » .

وصايا النبي للغزاة :

كان الرسول ﷺ كلما وجه سرية أو جيشا إلى غزوة من الغزوات زود الغزاة بوصاياهم التى هى في حقيقة أمرها توجيهات تعد بمثابة قواعد لأحكام الحرب في الإسلام ، وكانت هذه الوصايا تصدر منه ﷺ حينما لجمهرة الغزاة ، وحينما آخر لقائد الجيش أو رأس السرية ، فمن النوع الأول الموجه إلى جمهرة المقاتلين قوله ﷺ :

« اغزُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا تَغْدُرُوا وَلَا تَمِيلُوا ، وَلَا تَجْبُونُوا وَلَا تَغْلُوا ، وَإِذَا أَنْتَ لَقَيْتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِخْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ ، مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ : ادْعُهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ ؛ فَإِنْ فَعَلُوا كَانَ هُمْ مَّا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَعَلَيْهِمْ مَّا

(١) نشر الدرر للآبى ١ / ٢٥٨ من مسند الرضا .

عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ أَبَوْا فَلِى أَنْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ، فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ عَلَيْهِمْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ ، وَلَا تُنْزِلُوهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَذَرُونَ أَتُصِيبُونَ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا ، وَلَكِنْ أَنْزَلُوهُمْ فِي حُكْمِكُمْ ، وَلَا تَعْطُوهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ رَسُولِهِ ، وَلَكِنْ أَعْطُوهُمْ ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ آبَائِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تَخْفَوْهَا خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَخْفَوْهَا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ»^(١).

إنها وصايا جديدة على دستور الحروب ، إذ الحروب فى الماضى بل والحاضر قتل للأففس بغير تمييز . وحرقت للأخضر واليابس ، وتدمير للمنشآت بها فيها بيوت الله ، هذا فضلا عن الغدر واستباحة الحرمات ، وأما دستور الحرب فى الإسلام فإن بعضها هو ما جرى على لسانه الشريف فى تلك الوصية الشريفة ، وإن بعضا آخر من وصاياہ ﷺ فى دستور الحروب يتمثل فى بقية وصاياہ فى هذا السبيل .

فمن وصاياہ ﷺ إلى قواد السرايا ما كتبه لعبد الله بن جحش ، وكان قد أخرجه فى ثمانية من المهاجرين : « من محمد رسول الله ، عليكم بتقوى الله ، سيروا على بركة الله حتى تأتوا نخيلة ، فعليكم إقامة يؤمين ، فإن لقيتم كيدا فاصبروا ، وإن غنمتم فوفروا ، وإن قتلتم فأنحنوا ، وإن أعطيتهم عهدا فأوفوا ، ولا تقبلوا عهد المشركين »^(٢).

وتضم هذه الوصية على إيجازها الشديد سبعة أحكام من دستور الحرب فى الإسلام ، هى على ترتيب صدورها من صاحب الرسالة : تقوى الله ، وإقامة يؤمين للاستطلاع ، والصبر ، وتوفير الغنيمة ، والقتال باستبسال إذا لم يكن من القتال بد ، والوفاء بالعهد ، ورفض عهد المشركين .

ومن وصاياہ ﷺ لأمرأ الجيوش ما زود به عمرو بن العاص حين أخرجه إلى ذات السلاسل من بلاد قضاة فى ثلاثمائة رجل من أهل الشرف من المهاجرين والأنصار ، قائلا :

(١) سنن الدارمى ٣٢٢ ومسنن الإمام زيد ١٤٩ .

(٢) البداية والنهاية ٣ / ٥٠ .

« يا عمرو ، إني قد بعثت معك المهاجرين قبلك ، واستعملتكَ على مَنْ هُوَ خَيْرُ مَنْكَ . إِذَا أَدَّانَ مُؤَدَّتَكَ لِلصَّلَاةِ فَاسْبِقْهُمْ ، فَإِذَا جَهَرْتَ بِالْقِرَاءَةِ فَارْفَعْ صَوْتَكَ وَأَسْمِعْهُمْ تَكْبِيرَكَ ، وَلَا تُقْصِرْ فِي الصَّلَاةِ فَتُضَيِّعَ أَجْرَهُمْ ، وَلَا تُطَوِّلَ فَتَمْلَهُمْ ، واسمر بهم فَإِنَّهُ أَذْكَى لِحِرَاسَتِهِمْ ، وَلَا تُحَدِّثْهُمْ عَنْ مُلُوكِ الْأَعَاجِمِ فَيَتَعَلَّمُوا الْغَدَرَ ، وَرَغِبَتْهُمْ فِي الْوَفَاءِ فَإِنَّ ذَلِكَ الْمَلِكَ أَخَذَ بِغَيْرِ اللَّهِ ، وَعَمَلَ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَدَمَرَهُ اللَّهُ تَذْمِيرًا » .

ثم أمدّه بأبى عبيدة ، ومعه أبو بكر وعمر وغيرهما ، بهاتين وقال له - أى لأبى عبيدة - :

« لَا تَسْتَأْخِرَنَّ عَنِ اللَّهِ فَتُسَبِّقَ إِلَيْهِ ، قُلْ مَا تَفْعَلُ ، وَاعْمَلْ مَا تَأْمُرُ وَلَا تُشَقِّقِ الْكَلَامَ تَشْقِيقَ الْكُفَّانِ ، وَلَا تَبْحَثْ عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، وَلَا تَسْأَلْ عَنِ الْقَالَةِ . وَتَعَمَّدْ مَا لَمْ تَكُنْ الْبَيْتَةَ ، وَإِذَا وَجَبَ الْحَدُّ فَلَا تُقْصِرْ عَنْهُ ، وَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى صَاحِبِكَ فَإِنْ عَصَاكَ فَأَطِيعْهُ » .

كانت هذه الغزوة فى السنة الثامنة للهجرة لدعوة قضاة وبنى عذرة للإسلام ، وقد اشتملت الوصية الشريفة على وصيتين لا وصية واحدة ، الأولى لعمر بن العاص ، والثانية لأبى عبيدة بن الجراح الذى جعله رسول الله أميرا على جيش المدد الذى ضم الصحابيين الجليلين أبا بكر وعمر ، فأما الوصية الأولى فهى نصح لعمر فى فن قيادة الجند المسلمين ، فضلا عن توجيه خاص منصرف إلى شخص عمرو .

والوصية الثانية كانت للصحابى القائد أبى عبيدة ، وهى الأخرى توجيهات فائقة فى فن قيادة الرجال ، والرسول ﷺ يعلم قدر الرجلين ، ولكن أبا عبيدة مقدم عنده على عمرو ، ولكنه ﷺ توقع أن عمرو بن العاص ربما تمسك بقيادة الجيش - وهو ما حدث بالفعل - وقد ذكره الطبرى تفصيلا (*) ، ولذلك فإن رسول الله ﷺ ختم وصيته لأبى عبيدة بقوله الشريف : « وَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى صَاحِبِكَ ، فَإِنْ عَصَاكَ فَأَطِيعْهُ » .

(*) تاريخ الرسل والملوك ، قسم أول ٣ / ١٦٠٤ طليدن .

إن أبا بكر الصديق هو الصحابي الأول ، وهو في أكثر الصحابة علماً بأحاديث رسول الله ﷺ ووصاياه بشكل عام ، وفي الحروب وتوجيهات أمراء الجيوش بشكل خاص ، ومن ثم فإنه قد جمع هذه الوصايا النبوية في فن قيادة الجيوش وآداب الحرب وصاغها في رسالته التي بعث بها إلى القائد يزيد أبي سفيان ، وهو ما سوف نفصله في كتابنا عن مدرسة رسول الله في الفصاحة بعون الله .

وصيته لأبي ذر :

ومن الصحابة الذين حظوا بقدر كبير من وصايا رسول الله ﷺ وتوجيهاته واستقبلوا الكثير من أوامره ونواهيه الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري ، فقد كان صادق الحب لرسول الله ، شديد الاتصال به ، كثير الجلوس إليه ، وربما نال أبو ذر من وصايا الرسول ﷺ أكثر مما نال غيره من الصحابة ، لقد كان في أبي ذر شيء من الاندفاع ، ولذلك وصفه رسول الله ﷺ بالضعف حين طلب أن يكون والياً . وإن في وصايا النبي ﷺ لأبي ذر تفصيلاً أكثر مما في وصاياه لغيره ، وبخاصة ما كان يتصل بالناس ومقدار صلاته بهم ، وهذه واحدة من وصايا الرسول ﷺ لأبي ذر :

« أوصيك بتقوى الله ، فإنه زينة الأمر كله ، وعليك بتلاوة القرآن ، واذكر الله فإنه ذكرٌ لك في السماء ونور لك في الأرض ، وعليك بطول الصمت إلا من خير ، فإنه مطردة للشيطان عنك ، وعون لك على أمر دينك ، وإياك وكثرة الضحك فإنه يميئ القلب ، ويذهب بنور الوجه ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتي ، وأحبّ المساكين وجالسهم وانظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك ؛ فإنه أجدر ألا تزدرى نعمة الله عليك ، وصلّ قربتك وإن قطعوك ، وقل الحق وإن كان مرّاً ، ولا تخف في الله لومة لائم ، وليحجزك عن الناس ما تعلم في نفسك ، ولا تجزّ عليهم فيما تأتي ، وكفى بالمرء جبناً أن يكون فيه ثلاث خصال : أن يعرف من الناس ما لا يعرف من نفسه ، ويستحيى لهم مما هو فيه ، ويؤذى . يا أبا ذر لا عقل كالتيدير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسن كحسن الخلق » (١).

(١) كنز العمال ١٥ / ٩٠٩ .

إنها ثلاث عشرة وصية :

الأولى : تقوى الله ، نعم إنها الأساس يعد الإيمان ، طوبى للمتقين . ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ والمتقون هم ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ وهم ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وهم الذين بوأهم الله مقاعد صدق عنده : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدَّرٍ ﴾ .

الثانية : تلاوة القرآن ، وتلاوته ربيع القلوب ، والمرء موصول الأسباب بخالقه ما قرأ القرآن ، والرسول ﷺ يقول : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يقرأون القرآن ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » أخرجه أبو داود في سننه : غن أبى هريرة .

الثالثة : ذكر الله ، إن ذكره - جل وعلا - هو التهليل والتكبير والتسبيح والحمد والثناء ، وهو استحضار للخشية والتقوى ، واستشعار للعبودية والحب ، وترديد للخضوع والشكران .

الرابعة : الصمت ، إن عقبة بن عامر يسأل رسول الله ﷺ عن النجاة قائلا : ما النجاة ؟ فيجيبه ﷺ : « أمسك عليك لسانك » ومنه قوله ﷺ لمعاذ : « وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم ؟ ! » رواه الترمذى في الإيمان وصححه . ومن الأقوال الحكيمة في الصمت قول الإمام على - كرم الله وجهه - : ما ندمت على كلمة لم أقلها قط .

الخامسة : التحذير من كثرة الضحك ، والنهى الذى قصده الرسول ﷺ هو كثرة الضحك ، وليس مجرد الضحك ؛ لأن الضحك نفسه مطلوب ولكن متى دعا الموقف إلى ذلك ، وكان ﷺ هاشا باشا باسم القسمات يضحك أحيانا ، أما كثرة الضحك فإنها مردولة ؛ لأنها تमित القلب ، أى : تصيبه بالغفلة عن ذكر الله .

السادسة : الجهاد رهبانية أمتى ، هكذا وصف رسول الله الجهاد ، وهو أبلغ ما

يوصف به الجهاد في سبيل الله ، إن الجهاد حسب تعبير آخر لسيد المرسلين هو : ذروة سنام « الأمر » . في حديث معاذ يقول له رسول الله ﷺ : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » أخرجه الترمذى ، وصححه .

وبقية الحديث يقول فيه رسول الله ﷺ : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله » ؟ قال معاذ : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسانه ثم قال : « كف عليك هذا » قال معاذ : يا نبي الله أو نحن مؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم ؟ » أخرجه الترمذى ، وصححه .

السابعة : حب المساكين ومجالستهم ، تلك هى الوصية السابعة لأبى ذرّ ، والمساكين : هم ضعاف الناس غير ذوى الجاه أو القوة ، ومن منطلق الأخوة الإسلامية وترباط المجتمع الإسلامى تكون مجالسة المساكين والتحبب إليهم وإشعارهم بأنهم جزء من كيان الأمة أمراً واجباً ، وقد ورد فى بعض الروايات ما أثر عن الرسول من قوله : « اللهم أحيى مسكيناً وأميتى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين » .

أخرجه عبد بن حميد فى مسنده ، وابن ماجه فى سننه عن أبى سعيد الخدرى .

الثامنة : انظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك ، ويقرن الرسول ﷺ هذه الوصية بالتوضيح والإبانة والتعليل فيقول لأبى ذرّ - رضى الله عنه - : « فإنه أجدر ألا تزدرى نعمة الله عليك » لأن المرء إذا نظر إلى من هو أعلى منه غنى أو جاهاً أو صحة أو وسامة ربما صغر شأنه أمام نفسه ، ومن ثم يخشى عليه إذا لم يكن واقفاً على أرض صلبة من الإيمان أن يشعر بضآلته أمام الآخرين ، ولكنه إذا نظر إلى من هو تحته - يعنى من هو أقل مالا أو جاهاً أو صحة أو وسامة أو غير ذلك من المواهب والصفات - فإنه يحس بنعمة الله عليه ، ويستشعر الرضى فى نفسه ، ويحمد الله على ما هو فيه من حال .

التاسعة : صلة ذوى القربى ، وهذه الوصية تكليف قرآنى صريح ، وكان أول من أمره الله بصلة ذوى القربى هو رسول الله نفسه فى قوله - عز وجل - :

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّذِينَ أَحْسَنُوا لِدِينِي إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ
بِالْجُنُبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ النساء ، الآية : ٣٦ .

لقد جاء ترتيب صلة الرحم في الآية الكريمة في الرتبة الثالثة بعد عبادة الله وعدم
الشرك به ، وبعد الأمر ببرّ الوالدين ، فكان الأمر الثالث بعد هاتين هو صلة ذوى
القربى أو الإحسان إليهم طبقاً للتعبير القرآنى . ولم يقف الأمر بصلة ذوى القربى في
هذه الآية وفي العديد غيرها من سور القرآن الكريم ، وإنما تعددت التوجيهات في هذا
الشأن في حديث رسول الله ﷺ في شخصه الكريم ، فمن الأحاديث الواردة في هذا
الشأن ، والمأنوسة لدى المشتغلين بحديث رسول الله ﷺ قوله ﷺ : « أوصانى الله بذى
القربى وأن أبدأ بالعباس » .

إن صلة ذوى القربى وصية إلهية في الحديث الشريف ، والوصية الإلهية هى بمثابة
التكليف الذى لا فكاك من الالتزام به ، أما لماذا أوصى الله - سبحانه - نبيه أن يبدأ
بالعباس فهذا أمر يطول الحديث فيه ، ولكن مجمله أن العباس كان شديد الحب
والاهتمام برسول الله ﷺ ورسالة ربه إليه ، خاصة بعد وفاة عمه أبى طالب ، وتذهب
روايات كثيرة إلى أن العباس كان مؤمناً بالرسالة في وقت مبكر ، وإنما كان يخفى إيمانه
لكى يدافع عن ابن أخيه فى محافل المشركين من قريش وينقل إليه ما يفيد الدعوة وما
يفسد كيدهم .

فإذا ما عدنا إلى وصية رسول الله ﷺ لأبى ذر وجدناه ﷺ يؤكد على ضرورة صلة ذوى
الرحم حتى وإن قطعوه ، وهذا التوجيه النبوى الكريم يقضى على عنصر القطيعة بين
ذوى الأرحام الذين هم عرضة لكثير من الخلافات التى تقع بينهم لأسباب دنيوية ،
ومن ثم فلو أن كل مسلم عمل بهذه الوصية الشريفة لما كانت هناك شبهة قطيعة فى
مجتمعات ذوى الأرحام .

العاشرة : قول الحق وإن كان مرّاً ، إن قول الحق هو صدق الحديث ، والصدق

يبني المجتمعات الصالحة ، والكذب يهدمها ، وكان الرسول ﷺ يُعَرِّفُ قبل الرسالة بالصادق الأمين ، وهى منة من الله بها عليه حتى قبل أن يخصه بالرسالة الخاتمة .

وقول الحق ليس سهلا دائما ، فكثيرا ما يكون صعبا أمام سلطان جائر ، أو باطش ظالم ، بل تشتد مرارته إذا كان فيه ما يؤدى بالمساس بذوى القربى من أب أو أخ أو ابن أو عم أو ما شاكل ذلك ، ولكن المجتمع الصالح - ومجتمع المسلمين أكثرها صلاحا - لا يقوم إلا على الصدق ، ومن ذلك فإن الرسول ﷺ يقول فى الحديث الشريف الذى رواه عنه عبادة بن الصامت : « اضمنوا لى ستا أضمن لكم الجنة » وجعل أول المبادئ الست التى تدخل الجنة الصدق فى الحديث ، وأما تمام الحديث الشريف فهو : « اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا ائتمتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم »^(١) أما عكس ذلك من كذب فى الحديث ، ونقض للعهود ، وخيانة للأمانة فهى صفات المنافقين ، وقد نبه إليها الرسول ﷺ فى قوله الشريف : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان »^(٢) وقول الحق الذى هو صدق الحديث يهدى إلى الجنة طبقا لما روى عنه ﷺ من حديث ابن مسعود قال : « الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة »^(٣).

ويؤكد الرسول ﷺ على ضرورة قول الصدق وإن ظن أنه مؤد إلى الهلاك ، فما هلك صاحب قول صادق أبدا . يقول الصادق المصدوق ﷺ : « تحروا الصدق وإن رأيتم أن الهلكة فيه ، فإن فيه النجاة »^(٤) وقد ترجم المسلمون على ممر العصور هذا الحديث الشريف فى حكمة تجرى على ألسنة الخاصة والعامة فى قولهم : (الصدق منجاة) .

الحادية عشرة : لا تخف فى الله لومة لائم ، والمعنى المراد من هذه الوصية هو ألا يخشى أبو ذر - رضى الله عنه - وسائر المسلمين لوما فيما يتصل بأوامر الله وحدوده ،

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ، وابن حبان ، والحاكم فى المستدرک ، والبيهقى فى شعب الإيمان : عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى : عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) رواه أبو داود فى سننه : عن ابن مسعود رضى الله عنه .

(٤) رواه ابن أبى الدنيا فى الصمت : عن منصور بن المعتمر مرسلا .

ويتمثل ذلك أكثر ما يتمثل في تطبيق الأحكام على الجميع دون استثناء : على الشريف والوضيع ، وعلى القوى والضعيف ، وعلى الغنى والفقر ، وقد اتخذ الصديق أبو بكر هذه الوصية شعارا لحكمه حين اعتلى المنبر ساعة بوع بخلافة رسول الله ، فقال : ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه .

الثانية عشرة : وليحجزك عن الناس ما تعلم في نفسك ، والمراد أن يعنى المرء أولا بما في نفسه من عيوب ومآخذ ، ولا يلوم الآخرين على عيوب أخذها عليهم ، وهى كامنة فيه ، ومن ثم كانت بقية الوصية : ولا تجر عليهم فيا تأتي ، ولا شك أن التفات الأفراد إلى عيوبهم سوف يصرفهم عن متابعة ما في الآخرين من عيوب ، لأن المرء لو صدق إيمانه لن يرضى عن نفسه المنحرفة قبل أن يردها إلى الطريق السوى ، فإذا عمل كل مسلم بهذه الوصية النبوية الشريفة سارع إلى إصلاح شأنه ، وتهذيب نفسه ، وتبعا لذلك يكون المجتمع الإسلامى كله خاليا من العيوب .

الثالثة عشرة : تلافى خصال الجبن ، إن الرسول ﷺ ينبه إلى خصال مقبحة ينبغي للمرء الصالح أن ينزه نفسه منها ؛ لأنها إذا توفرت فيه جعلته جبانا ، والجبن - كما هو معروف عنه - من أخس الصفات .

يحدد رسول الله ﷺ هذه الصفات في ثلاث ، يقول الصادق الأمين : « وكفى بالمرء جبنا أن يكون فيه ثلاث خصال : أن يعرف من الناس مالا يعرف من نفسه ، ويستحى لهم مما هو فيه ، ويؤذى » . وهى صفات يمسك بعضها بخناق بعض على خستها ، إذا اجتمعت في امرئ صنفته في قائمة الجبناء ، أولها أن يتابع عيوب الآخرين في الوقت الذى هى كامنة فيه متمكنة منه ، وأولى به أن ينزه نفسه عنها ، وثانيها أن يظهر الاستحياء لهم من عيوبهم ولا يستحى هو نفسه من نفسه لتجمع هذه العيوب فيه ، وثالثها الأذى ، والمراد هو أن يوقع الأذى بالآخرين بسبب ما رآه من عيوبهم في حالة أن الأجدر به أن يكف عن ذلك ، وأن يعالج شؤنه ويصلح عيوبه . وكما أسلفنا القول ، لو أن كل مسلم فعل ذلك لصلح حال الناس جميعا .

ويختتم الرسول ﷺ وصيته - بل وصاياه - لأبى ذر بهذه الكلمات المضيئة : « يا أبا ذر ، لا عقل كالتيدير ، ولا ورع كالكف ، ولا حُسْنٌ كحسن الخلق » . والمعنى هنا من الوضوح بمكان ، فالتدير : هو وضع الأمور في نصابها ، ولا يصدر ذلك إلا عن عقل راسخ رزين ، والكف : هو الإقلاع عن عمل النقائص ، وممارسة المعائب ، واقتراف السيئات في حق الله وحق عباده .

إن أبا ذر صاحب أكبر عدد من وصايا رسول الله ﷺ بين الصحابة ، وإذا كانت الوصية التي عرضنا لها بشيء من الإبانة قد شملت أمور الدنيا وشئون الآخرة ، فإننا نعرض لوصية أخرى وجهها الرسول ﷺ اقتصرت على شئون العبادة .

قال أبو ذر - رضى الله عنه - : « أوصانى حَبِىُّ بثلاث لا أدعهن إن شاء الله أبداً ، أوصانى بصلاة الضحى ، وبالوتر قبل النوم ، وبصيام ثلاثة أيام كل شهر » . وهى من قبيل العبادات التطوعية ولكن ثواب كل منها يضيف إلى ميزان حسنات مؤديها ما يرجح كفته يوم ينصب الميزان إن شاء الله .

وصايا الرسول لأبى هريرة :

أبو هريرة هو صاحب رسول الله ﷺ وراوى أكبر عدد من الأحاديث الصحيحة ، وكان شديد القرب من رسول الله ﷺ فى سنواته الأخيرة ، ولذلك فإننا نتوقع أن يفوز أبو هريرة بعدد نفيس من وصايا صاحب الشريعة ﷺ .

قال أبو هريرة : « أوصانى خليلي بثلاث ، قال هشيم - الحافظ الثقة - : فلا أدعهن حتى أموت : بالوتر قبل النوم وصيام ثلاثة أيام كل شهر ، والغسل يوم الجمعة » مسند الإمام أحمد ٢ / ٢٢٩ .

وفى رواية أخرى ذكر أبو هريرة أن رسول الله ﷺ أوصاه قائلاً : « أوصيك يا أبا هريرة بخصال أربع ، لا تدعهن أبداً ما بقيت : عليك بالغسل يوم الجمعة ، والبكور إليها ، ولا تَلْغَ ، ولا تَلْهُ ، وأوصيك بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ؛ فإنه صيام الدهر ، وأوصيك بالوتر قبل النوم ، وأوصيك بركعتى الفجر ، لا تدعهما وإن صليت الليل كله ؛ فإن فيهما الرغائب » كنز العمال ١٢ / ٨٥٧ .

والملاحظ أن ثمت نصيحتين مشتركتين بين نصائح الرسول ﷺ لكل من أبى ذر وأبى هريرة ، وهما الوتر قبل النوم ، وصيام ثلاثة أيام كل شهر ، ومعنى ذلك أن ثواب صلاة الوتر وثواب صيام الأيام الثلاثة من كل شهر مقدمان على غيرهما من نوافل الصلاة ونوافل الصوم . ذلك أن صلاة الوتر عند بعض الأئمة هي دون الفرض وفوق السنة ، ومن ثم اعتبرها الإمام أبو حنيفة - رضى الله عنه - واجبا ، أما ركعتا الفجر اللتان أوصى بهما الرسول الصحابي أبا هريرة فإنهما على ثوابها الكبير يدخلان في باب السنن المؤكدة التي كان الرسول يحرص على أدائها ، ومن ثم كان تأكيد الرسول على أبى هريرة بأدائها وألا يدعهما وإن صلى الليل كله فإن فيها الرغائب ، ففي حديث لأبى هريرة قال رسول الله ﷺ : « لا تدعوا ركعتي الفجر ولو طار دكم الخيل » وهما ركعتان تصليان قبل الفجر على ما هو معروف للمحافظين على أداء الصلاة ، ولقد تكرر ذكر رسول الله لفضلهما والتوصية بأدائها في حديث لعبدالله بن عمر قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله ، دلني على عمل ينفعني الله به ، قال : « عليك بركعتي الفجر فإن فيها فضيلة » .

وأما الأيام الثلاثة التي أوصى رسول الله ﷺ كلا من أبى ذر وأبى هريرة بصومها ففي تحديد توقيتها بين أيام الشهر خلاف ، ففي رأى أنها الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر ، وقيل : هي اليوم الأول والحادي عشر والواحد والعشرون ، وهو رأى الإمام مالك ، وقيل : بل يجوز أن تكون أية ثلاثة أيام من أيام الشهر تيسيرا على الناس في العبادة التطوعية .

وإذا كان ثمت خلاف في توقيت هذه الأيام الثلاثة التي أوصى رسول الله ﷺ بصيامها كل شهر ، فإن هناك أيضا أياما محددة بمواقعها من الشهر سن رسول الله ﷺ صيامها ، وهي ست من شوال ، والاثنين والخميس ، ويوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، فأما الأيام الستة من شوال فقد ورد في شأنها قوله ﷺ : « من صام رمضان وأتبعه ستا من شوال كان كمن صام الدهر »^(١) ويجوز صيامها متصلة متتابعة أو منفصلة متفرقة ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والإمام مسلم في صحيحه ، وأبو داود ، والنسائي ، والترمذي ، وابن ماجه .

ولكن الإمام مالكا - رضى الله عنه - كان يكره صيامها متصلة حتى لا تصبح بمرور الزمن جزءا من رمضان وتلحق به .

وعن سنة صوم يومى الاثنين والخميس ففي هذين اليومين تعرض أعمال العباد على الله ، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ : « أحب أن تعرض أعمالى وأنا صائم » (١) .

وأما صوم عرفة فهو سنة عن رسول الله ﷺ إلا للذين يكونون في الموقف يؤدون فريضة الحج ، وقد روى عن الرسول ﷺ قوله : « صوم يوم عرفة أحسب على الله أن يكفر السنة التى قبله والسنة التى بعده » (٢) .

وعن صوم يوم العاشر من المحرم (عاشوراء) فقد كان اليهود يصومونه ، فسألهم الرسول ﷺ عن ذلك فقالوا : لأن الله نجى موسى من فرعون فصامه موسى شكرا لله ، فقال ﷺ : « نحن أحق بموسى منكم » (٣) فصامه وأمر الناس بصيامه .

(١) رواه أصحاب السنن : عن أسامة بن زيد .

(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذى : عن أبى قتادة .

(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائي : عن ابن عباس رضى الله عنهما .



الفصل الثاني

بعض وصايا الرسول للنساء

وصايا الرسول للنساء

مثلما حظى كثير من الصحابة بوصايا رسول الله ﷺ فإن عددا من الصحابييات قد حظين كذلك بوصاياه الشريفة ، ومن المعروف أن الصحابييات كن يسألن الرسول ﷺ في شئون دينهن ، وأنهن كن يبايعنه مثلما يبايعه الصحابة من الرجال ، وكان الرسول ﷺ يعرف للنساء الفضليات أقدارهن ، وقد كرمهن الله في كتابه العزيز ، وكذلك كرمهن الرسول في أحاديثه الشريفة ، لقد كان الرسول زوجا مثاليا ، وكان يقول : « خياركم خياركم لنسائهم » (١) . وكان يقول أيضا : « الدنيا كلها متاع . وخير متاعها المرأة الصالحة » (٢) .

وفي نطاق الأبوة كان الرسول الأب الحانى والوالد المشفق على أولاده ، وإن موقفه من حادثة ابنته زينب حين أجارت زوجها أبا العاصى بن الربيع في المدينة قبل أن يسلم معروفة مشهورة ، وقد ألمحنا إليها في فصل سابق .

والأمر المبهر في أبوته ﷺ قد تجلى بشكل أوضح مع ابنته فاطمة الزهراء ، ولعل مرد ذلك يرجع إلى أنها صغرى بناته ، وأنها ظلت لصيقة به حتى بعد زواجها ، وأنها أم السبطين الجليلين : الحسن والحسن سيدى شباب أهل الجنة ، وأنها أشبه الناس بالرسول ﷺ وكان ﷺ لشدة تعلقه بها يقول : « فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها ويرينى ما رابها » (٣) .

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه : عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم ، وأحمد ، والنسائى : عن ابن عمرو رضى الله عنه .

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه (مناقب فاطمة) : « فاطمة بضعة منى ، فمن أغضبها أغضبني » عن المسور بن مخرمة رضى الله عنه .

وصية الرسول لفاطمة :

إن أبلغ ما عبر به أب عن حبه لابنته هو ما عبر به رسول الله ﷺ عن حبه لفاطمة في الحديث السابق ذكره : « فاطمة بضعة مني . . الحديث » وقد بشرها بأنها واحدة من أربع هن أفضل نساء أهل الجنة في قوله ﷺ : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية » (١).

لم يكن غريبا والأمر كذلك أن تصدر عنه ﷺ وصية لفاطمة وبمبادرة منه ؛ لأن أكثر الوصايا التي صدرت عنه ﷺ كانت مطلبا تقدم به أصحابها ، ولذلك كان استهلال صيغة وصيته لفاطمة مختلفا عن غيره في قوله ﷺ لها : « ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به » ثم يمضي ﷺ معلنا وصيته للزهاء قائلا : « أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت : يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين » (٢).

إن رسول الله ﷺ يختار لها أن تناجي الخالق - جل ذكره - سائلة إياه باثنين من أحب أسمائه الحسنى إليه هما : الحي ، القيوم . فالحي : هو دائم الحياة وواهب الحياة ، والقيوم : هو القيم على خلقه من سموات وأرضين وبشر وحيوان وجماد ، لا يغفل عن القيام بأمرها طرفة عين ، ويتبدى جلال هذين الاسمين الجليلين من أسمائه الحسنى في إيراده - جل جلاله - إياهما في كتابه العزيز مقترنين أحدهما بالآخر في أكثر من آية وأكثر من سورة ، جاء ذكرهما في مقام حتمية خضوع العبد خضوعا مطلقا لذاته - عز وجل - في قوله - تعالى - : ﴿ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ كما جاء ذكرهما على نفس السمت في آية الكرسي ذات الشأن الأسمى في كتابه العزيز : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ .

(١) أخرجه أحمد ، والطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرک : عن ابن عباس - رضي الله عنهما - بلفظ : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فـ »
(٢) رواه النسائي في سننه ، والحاكم في مستدرکه : عن أنس رضي الله عنه .

إن دعاء هذه صيغته يتوجه به العبد إلى خالقه مستجاب إن شاء الله ، خاصة إذا كان صادرا من فاطمة الطاهرة الزهراء البتول العابدة ابنة محمد ﷺ وإحدى فضليات أربع نساء في الدنيا والآخرة .

وصية الرسول لأم أنس :

قالت أم أنس : يا رسول الله أوصني ، فقال ﷺ : « اهجرى المعاصي ؛ فإنها أفضل الجهاد ، وأكثرى من ذكر الله ؛ فإنك لا تأتين الله بشيء أحب إليه من كثرة ذكره »^(١).

لعلنا نلاحظ هنا أن أم أنس هي التي طلبت من رسول الله أن يوصيها ، بينما في حالة الزهراء البتول كانت المبادرة من رسول الله ؛ لأنه آنذاك الرسول الوالد ، وهو هنا ﷺ الرسول المبلغ ، ووصية رسول الله لأم أنس جاءت في صيغتين : نهى عن منكر : « اهجرى المعاصي » وأمر بمعروف : « أكثرى من ذكر الله » ولكن المعاني المتجمعة في الصيغتين تؤدي إلى صلاح الدنيا والآخرة .

« اهجرى المعاصي فإنها أفضل الجهاد » والمعاصي تصدر عن النفس الأمارة بالسوء وهجر المعاصي مجاهدة للنفس ، ومجاهدة النفس هي الجهاد الأكبر ، تصديقا لقول رسول الله حين عاد من إحدى المعارك فقال : « عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » .

وأما الصيغة الثانية فلا يستطيع امرؤ مهما أوتى من مراتب البلاغة وموهبة البيان أن يعللها بأبلغ مما عللها رسول الله : « وأكثرى من ذكر الله فإنك لا تأتين الله بشيء أحب إليه من كثرة ذكره » .

بقي أن ننوه إلى أن الرسول ﷺ لم يوص فاطمة بهجر المعاصي ، مع العلم بأن وصية الرسول لأم أنس لا تعني أنها تقترب المعاصي ، فالوصايا مثلما أنها موجهة إلى شخص بذاته فهي كذلك موجهة إلى جماعة المسلمين في كل زمان ، ولكن الرسول - وقد أدبها بأدبه ورباها تحت بصره - يعلم أنها تتوقى المعاصي . إنه ﷺ يقول : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » والذي أدبه الله مؤهل لأن يؤدب ابنته أدبا مستمدا من تأديب الله له .

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : عن أم أنس ، ولفظه : « اهجرى المعاصي ؛ فإنها أفضل الهجرة - سحافظي على الفرائض ؛ فإنها أفضل الجهاد ، وأكثرى من ذكر الله فإنك لا تأتين بشيء أحب إليه من ذكره » .



الفصل الثالث

وصيتان لواحد من العامة
ولآخر لم يكن أسلم

وصيتان لواحد من العامة ، ولآخر لم يكن أسلم

ليس كل من حظوا بوصايا النبي ﷺ من الرجال المعروفين أو الصحابة المرموقين ، ذلك أن باب الرسول ﷺ كان مفتوحا لكل قادم ، وكان صدره من الرحابة والاتساع بحيث يستمع لكل سائل ، ويجيب كل طالب ، فكان يفد عليه الرجل من الطريق غير معروف الاسم أو الهوية ويطلب إليه أن يوصيه وينصرف بعد ذلك ظافرا ببغيته ، مثلما جاء مجهول الاسم مغمور الهوية ، أو ينصرف وقد عرف اسمه فصار من الصحابة الذين يروون حديث رسول الله ، وربما لم يكن مسلما حين وفد سائلا فصار مسلما حين انصرف راضيا .

وصية العامي :

من وصايا الفريق الأول ، الذى يفد الرجل منهم على رسول الله وينصرف وهو على حالته غير معروف ، ما رواه أبو هريرة .

قال أبو هريرة - رضى الله عنه - : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أوصنى - وفى رواية - علمنى شيئا ولا تكثر على لعلى أعيه ، قال : « لا تغضب » وفى رواية الترمذى قال : يا رسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة ولا تكثر على ، قال : « لا تغضب » (١) .

الرسول ﷺ لم يسأل هذا المائل بين يديه عن اسمه أو عمله ، ولكنه يطلب نصيحة تصلح شأنه ، أو وصية يعمل بها فتقيه المعاصى وتفتح أمامه أبواب الرضوان ، ولما كان

(١) أخرجه البخارى ، وأحمد ، والترمذى : عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأخرجه أيضا أحمد والحاكم : عن جارية بن قدامة رضى الله عنه .

الرجل قد حدد إطار الوصية التي طلبها بأن تكون موجزة حتى يعيها ، فإن الرسول ﷺ أجابه إلى سؤاله على الصورة التي وردت في الحديث : « لا تغضب » .

نعم الوصية هي ، إنها وصية جالبة للخير ، مفضية إلى رضا الله ؛ لأن الغضب غول العقل ، وما أتى امرؤ فعلا وهو غضبان إلا جانبه التوفيق ، وما أصدر غاضب حكما إلا جانبه الصواب ، لأن الغضب مصحوب بالانغلاق ، وكيف يأتي تصرف صائب من عقل منغلق ؟ ! .

إن امتلاك المرء لنفسه وقت الغضب هو القوة الحقيقية ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » (١) . والله سبحانه يقول في محكم كتابه : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ آل عمران : ١٣٤

فإذا التزم السائل بوصية رسول الله ﷺ لفظا وروحا وتجنب الغضب لاجتناب ما ينتج عن الغضب من سيئات وأخطاء ، ولوجد طريقه ممهدا إلى الجنة بإذن الله .

وصيته للثاني :

ومن وصايا رسول الله ﷺ للفريق الثاني ، وصيته لأبي جبر بن سليم الذي وقف يرصد تعامل رسول الله ﷺ مع الناس دون أن يعرفه فاستولت شمائل الرسول على مجامع مشاعره ، فتقدم إلى رسول الله يسأله ويستوصيه ، فكان من شأنه أنه دخل على الرسول كافرا وانصرف مسلما ، وإنه حل في حضرة رسول الله مغمورا وخرج صحابيا جليلا يروى أحاديث النبي ويرعى سنته .

وها هي أخبار هذه الوصية وملابساتها طبقا لما رواها متلقيها أبو جبر :

عن أبي جبر جبر بن سليم - رضى الله عنه - قال : رأيت رجلا يصدر الناس عن رأيه ، لا يقول شيئا إلا صدروا عنه . قلت : من هذا ؟ قالوا : رسول الله - صلى الله

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والشيخان : عن أبي هريرة رضى الله عنه .

عليه وسلم - قلت : عليك السلام يارسول الله ، قال : « لا تقل : عليك السلام ؛ عليك السلام تحية الميت ، قل : السلام عليك » قال : قلت : أنت رسول الله ؟ قال : « أنا رسول الله الذى إذا أصابك ضرر فدعوته كشف عنك ، وإذا أصابك عام سنة فدعوته أنبتك لها ، وإذا كنت بأرض قفر أو فلاة فضلت راحلتك فدعوته ردها عليك » قال : قلت : اعهد إلى - وفى المسند : قلت أوصنى - قال : « لا تسبب أحدا » فما سببت بعده حرا ولا عبدا ولا بعيرا ولا شاة منذ أوصانى رسول الله ﷺ قال : « ولا تحقرن شيئا من المعروف ولو منبسط وجهك إلى أخيك وأنت تكلمه ، وأفرغ من دلوك فى إناء المستسقى ، وارفع إزارك إلى نصف الساق ، فإن أبيت فى الكعبين ، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة ، وإن الله لا يحب المخيلة ، وإن امرؤ شتمك وعبرك بما فيك ، فلا تعيره بما تعلم فيه ، فإنها وبأل ذلك عليه » (١) .

لقد انبهر أبو جرى بشخصية رسول الله ، وقد وقف أمامه وهو لا يعرف أنه رسول الله ، ولم يكن مسلما ، ولكن الرسول ﷺ ، وهو الذى حباه ربه بفصل الخطاب ، بدأ يصحح لأبى جري أسلوب حواره ، ثم بدأ يشرح له نعم الله عليه « الله الذى إذا أصابك ضرر فدعوته كشف عنك ، وإذا أصابك عام سنة فدعوته أنبتك لها ، وإذا كنت بأرض قفر أو فلاة فضلت راحلتك فدعوته ردها عليك » ما إن يسمع أبو جرى هذا النهج القويم من الكلم صادرا من رسول الله مغمورا بالصدق مكللا بالهبة حتى ينشرح صدره للإسلام فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ويسارع إلى طلب الوصية من رسول الله قائلا : أوصنى ، وفى رواية اعهد إلى ، والمعنى واحد فى كلتا الصيغتين . فتكون أولى بنود وصية رسول الله له : « لا تسبب أحدا » ثم تندفق بقية بنود الوصية على سمع أبى جرى بما يصلح أمره فى دخيلة نفسه وفى علاقته بالناس ، ومن ثم إلى رضاء ربه .

لقد كان أبو جرى نعم المهتدى المتقبل لوصية رسول الله ، العامل بتوجيهاتها مع أن طبيعة حوار الرسول معه توحى بأنه بدوى قادم من الصحراء ، ولكن الطمأنينة إذا

(١) الإمام أحمد فى مسنده ٤ / ٦٥ ، والترغيب والترهيب ٣ / ٤٦٨ .

حلت في نفس ، والإيمان إذا استقر في قلب لم يفرقا بين نفس بدوى أو قلب حضرى .
يقول أبو جرى بعد أن أوصاه النبي « لا تسبن أحدا » : فما سببت بعده حرا ولا عبدا ،
ولا بعيرا ولا شاة منذ أو صانى رسول الله ﷺ .

كان الرسول ﷺ يحرص في وصاياه إلى المؤمنين على أن يربهم على نسق من الأدب
الرفيع ، كان بعض وصيته لأبى جرى « لا تسبن أحدا » وكانت أيضا وصيته لجرموز
الجهنى حين قال : يارسول الله أوصنى ، قال : « أوصيك ألا تكون لعانا » .

إنه خلق محمد وإنه أدب النبوة الذى سجله القرآن الكريم في قوله - تعالى - : ﴿وَإِنَّكَ
لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وسجله الرسول في قوله الشريف : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »



الفصل الرابع

الرسول يوصى بطلاب العلم

وصاياہ ﷺ بطلاب العلم

الرسول یوصی بطلاب العلم :

إن أحادیث الرسول ﷺ فی طلب العلم كثيرة ، منها قوله : ﷺ « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (١) .

ومنها حديث أبی هريرة الذي أوله : « من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » وهو يشمل على فقرة خاصة بالعلم وطلابه في قوله ﷺ : « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ، ونزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده » (٢) .

ومن أقوال رسول الله ﷺ في إشاعة العلم ما رواه أبو هريرة - قوله ﷺ : « أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم » (٣) .

هكذا كان اهتمام رسول الله ﷺ بالعلم واحتفاله به والحث على طلبه ، ذلك أن كل خطوة إلى الأمام في طلب العلم تقرب صاحبها من الله ، وقد قال - عز وجل - في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فاطر : ٢٨

لذلك لم يكن غريبا أن يكون طلاب العلم موضع اهتمام الرسول ﷺ وأن يكونوا أهلا لأن يوصى بهم خيرا وأن يحض على الترحيب بهم وبذل العلم لهم .

(١) - أخرجه ابن عدى في الكامل ، والبيهقي في شعب الإيمان : عن أنس - رضى الله عنه .

والطبراني في المعجم الصغير ، والخطيب في تاريخ بغداد : عن الحسين بن علي - رضى الله عنهما .

والطبراني في الأوسط ، والبيهقي في الشعب : عن أبى سعيد - رضى الله عنه .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه : عن أبى هريرة - رضى الله عنه .

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه ١ / ٨٩ رقم ٢٤٣ .

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال :
 « سيأتيكم أقوام يطلبون العلم ، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم : مرحباً مرحباً بوصية
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقنؤهم »^(١) يعني علموهم .
 هكذا أوصى رسول الله ﷺ صحابته وسائر علماء الأمة أن يهتموا بطلاب العلم
 بالترحيب بهم ، وبذل العلم الذي يطلبون .
 وينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وتشاء المقادير أن يكون أبو سعيد الخدري -
 راوية حديث طلاب العلم - أحد علماء الأمة الذين يجلسون لبذل العلم لطلابه ،
 فكان إذا جاءه الطلاب بادرهم بالتحية ملتزماً كلمة الترحيب التي خص بها رسول الله
 طلاب العلم قائلاً : مرحباً بوصية رسول الله ﷺ .
 يقول هارون العبدى : كنا - يعنى هو ورفاقه من طلاب العلم - إذا جئنا أبا سعيد
 الخدري قال :
 مرحباً بوصية رسول الله ﷺ إن رسول الله ﷺ قال لنا : « إن الناس لكم تبع ، وإنهم
 سيأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين ، فإذا جاءوكم فاستَوْصُوا بهم خيراً »^(٢) .

(١) ابن ماجه في سننه ١ / ٩٠ ، ٩١ رقم ٢٤٧ .
 (٢) رواه ابن ماجه في سننه (المقدمة) ١ / ٩١ ، ٩٢ رقم ٢٤٩ .



الفصل الخامس

وصية الرسول بالأنصار

وصية الرسول بالأنصار

كانت وصيته ﷺ بالأنصار هي ختام ارتقائه منبره ﷺ وبعد ذلك لم يَرَقْ منبره الشريف ، ثم لحق بعدها بأيام بالرفيق الأعلى ، ومن ثم فقد أراد رسول الله أن تكون خاتمة مواقفه على المنبر تكريم الأنصار ، والتنبيه إلى فضلهم ، والتذكير بأقذارهم في وصيته بهم .

قال أنس بن مالك خادم رسول الله والملازم له : مرّ أبو بكر والعباس - رضى الله عنهما - بمجلس من مجالس الأنصار وهم ييكون ، فقال : ما ييكيكم ؟ قالوا : ذكرنا مجلس النبي ﷺ منّا ، فدخل - أى أبو بكر - على النبي ﷺ فأخبره بذلك . قال : فخرج ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد . قال : فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم ، فحمد الله ثم أثنى عليه ثم قال : « أوصيكم بالأنصار ؛ فإنهم كَرِشِي وَعَيْبَتِي ، وقد قضوا الذي عليهم ، وبقي الذي لهم ، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم » (١) .

إن الرسول ﷺ يعرف قدر الأنصار ، وحبهم له ، وتعلقهم به ، ومساندتهم لرسالته ، وفتح قلوبهم وديارهم له ولصحابته المهاجرين ، وخوضهم غمار الحرب في سبيل دعوة الإسلام والذود عن حياضها ، وبذل الدماء والأموال في سبيل الله ، ومن ثم كانوا جديرين بحدب رسول الله ؛ لأنهم أحباؤه ونصراؤه ، وعحمد ﷺ يمثل قمة الخلق الكريم ، فلقد خصه الله - سبحانه - من بين سائر خلقه بالتأديب فقال ﷺ في ذلك : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » (٢) وإن الله - سبحانه - يثبت ذلك في محكم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : عن أنس رضي الله عنه - في فضائل الأنصار ٤ / ٢١٠ .

(٢) رواه ابن السمعاني في (أدب الإماماء) : عن ابن مسعود رضي الله عنه .

كتابه فيكرم رسوله وسيد خلقه بقوله - تعالى - : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) ولذلك فإن شمائل محمد هي قمة الشمائل ، وفضائله هي رأس الفضائل ، وإن من قمم الشمائل فضيلة الوفاء ، وعلى هذا الأساس نهض الرسول ﷺ من علته ، وتغلب على مرضه حين أبلغ أن جماعة من الأنصار سيكون لمرضه وخشيتهم من فراقه ، سار إلى المنبر معتليا مراقبه للمرة الأخيرة في حياته الشريفة ليوصي بالأنصار بخير ما يوصى به وفق لأوفياء ، فسجل ﷺ مكانتهم منه فقال : إنهم كرشى وعييتى ، والكرش هو مستقر الطعام الذى يتحول إلى غذاء يقوى به الجسم ، وتتكامل الأعضاء ، فهم - والأمر كذلك - غذاء الدعوة ومددها منذ بيعة العقبة إلى أن كتب الله لدينه النصر والغلبة ، وأما العيبة فهي الخزانة التى يحتفظ المرء فيها بمتاعه ونفائسه .

ولقد كان مقام الأنصار من رسول الله كمكانة العيبة من الإنسان ، وهل هناك أنفس من الرسالة نفسها ؟ وهل هناك أنفس من إكرام صحابة رسول الله من المهاجرين الذين فتح الأنصار لهم بيوتهم وتنازلوا لهم عن أموالهم وآثروهم على أنفسهم ؟

لقد نال الأنصار شرف تكريم المولى لهم فى كتابه العزيز فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

الحشر : ١٩

لم يكن الله - سبحانه - ليكرم قوما بذكرهم فى كتابه الكريم ، وقرآنه العظيم ، إلا إذا كانوا أهلا لذلك .

لقد كان الأنصار فى مقدمة المحبين للرسول والرسالة ، وكانوا على رأس الباذلين للدفاع عقيدة السماء ، وفى قمة الطاعة والطوعية لتوجيهات رسول الله حتى حين ظنوا أن حيفاً وقع عليهم من لدنه ﷺ حين قسم غنائم حنين التى كانت من الكثرة بحيث كان ينال الشخص الواحد المائة من الإبل . لقد أعطى الرسول بطون قريش من

(١) سورة القلم ، الآية : ٤ .

بنى أمية وبنى مخزوم وبنى عبد الدار وبنى عدى وبنى عامر وبنى سهم وبنى جمع وغيرهم من قبائل سليم وغطفان ولم يعط الأنصار ، فَوَجَدُوا في أنفسهم وكثرت القالة بينهم ، حتى إن أحدهم قال : لقد لقي رسول الله ﷺ قومه ، أى : مال إلى جانبهم وتجاهلنا ، وتمضى الحادثة في طريقها قدما حين يدخل سعد بن عبادة سيد الأنصار على رسول الله ويقول : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وَجَدُوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفىء الذى أصبت ، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحى من الأنصار منها شيء ، فيقول رسول الله ﷺ - طبقاً لرواية ابن هشام في السيرة - : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟! يعنى مارأيك أنت في ذلك ؟ فيقول سعد : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي ، قال رسول الله : « فاجمع لى قومك في هذه الحظيرة » فلما اجتمعوا قال سعد : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يامعشر الأنصار ، ما مقالة بلغتنى عنكم ؟ وجددة وجدتموها على في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » قالوا : بلى ، الله ورسوله آمن وأفضل ، ثم قال : « ألا تحبوننى يامعشر الأنصار ؟ » قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل . قال : « أما والله لو شئتم لقلتم فَلَصَدَّقْتُمْ وَلَصُدَّقْتُمْ : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، وخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعابلاً فأسيناك ؟! أَوَجَدْتُمْ يامعشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة (*) من الدنيا تألفْتُ بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امراً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار »

فحين انتهى رسول الله ﷺ من قوله بكى القوم حتى اخضلت لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحطاً .

إن رسول الله ﷺ يرى بنور الله ، وينفذ إلى أعماق القلوب فيستبطن أسرارها ،

(*) اللعاعة : النبتة الخضراء .

ويغوص إلى دخائل النفوس فيستقرىء خباياها ، وإن الأنصار حين استمعوا إليه أحسّوا بأنه ﷺ يقرأ هذه المعانى التى ترجرت في قلوبهم على غير ثبات ، فقد منعهم إيمانهم بالله ورسوله أن يسلّموا بها ، ولكن الرسول ﷺ كاشفهم بما يحوك في صدورهم ، فتذكروا آنذاك أنه لم يكن يجمل بهم أن يعترضوا على صنيع صدر عن رسول الله ، ثم مالبت الرسول بعطفه عليهم وحبّه لهم أن أوضح لهم ماغضض أمره عليهم من أنه فعل ما فعل لتوسعة دائرة الإسلام في نطاق قوم أراد أن يؤلف قلوبهم ، أما الأنصار فإنهم من عمق الإيمان وثبات اليقين وغنى النفس وفضل القناعة بحيث لم يكونوا ليطمعوا في عطايا زائلة وفيء سوف يكون بين أيديهم منه الكثير .

ثم استطرد الرسول العظيم فأرضاهم الرضى الذى لم يكونوا يحملون به ، فلم يكن لديهم من صور التعبير عن هذا الرضى إلا البكاء بدموع اخضلت منها لحاهم ، وهو أنه لولا الهجرة لكان واحدا منهم ، يسلك شعبهم لو سلك الناس غيره ، ويدعو لهم ولأبنائهم ولأحفادهم .

من أجل ذلك خلع الرسول ﷺ على الأنصار الشرف الرفيع بأنهم كرّشه وعييته ، وأنهم قضوا الذى عليهم ، ولم يأخذوا بعدُ حقوقهم وينالوا حسن جزائهم ، ومن ثم كان جوهر وصية رسول الله بهم أن يُقَبَّلَ من محسنهم وأن يُتَجَاوَزَ عن مسيئهم ، وهو امتياز منحه رسول الله إياهم دون سواهم .



الفصل السادس

وصية الرسول إلى الخليفة من بعده
ووصيته ﷺ المسلمين حيال حكاهم

وصية الرسول إلى الخليفة من بعده ووصيته للمسلمين حيال حكامهم

كان الرسول ﷺ مطمئناً على جماعة المسلمين ما دام يعيش بينهم ، ولكنه يعي قول الله - جل وعز - : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ^(١) ومن ثمَّ قرر أن يترك وصية معلنة لمن يخلفه في ولاية أمر المسلمين من بعده . والخليفة هنا : هو كل من يلى أمر الأمة الإسلامية منذ أن ينتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، على أن نخرجنا هذا لا يمنع أن يكون المقصود هو الخليفة من بعده مباشرة .

عن أبي أمامة - رضى الله عنه - أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال :

« أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله ، وأوصيه بجماعة المسلمين ، أن يعظم كبيرهم ، ويرحم صغيرهم ، ويوقر عالمهم ، وألا يضربهم فيذهبهم ، ولا يوحشهم فيكفرهم ، وألا يغلق بابهم دونهم فيأكل قلوبهم ضعيفهم » ^(٢) .

إن وصية الرسول ﷺ للخليفة من بعده تضم العناصر السبعة الأساسية التي ينبغي أن يلتزم بها الحاكم مجتمعة ، وألا يتخلَّ بواحد منها ، فالخليفة أو الرئيس الذى لا يلتزم بتقوى الله يكون صدى حكمه مختلاً ، بل تكون إمارته فاسدة . وإن حاكماً - خليفة كان أو ملكاً أو رئيساً - لا يعظم الكبير ولا يرحم الصغير ولا يوقر العلماء يكون حاكماً فاسداً ، وإن حاكماً يضرب جماعة المسلمين ويوقع الرعب في قلوبهم ويغلق بابهم دونهم يكون مدمراً لدولته ، فالوحشة هى المجافاة ، وإغلاق أبواب الحاكم فى وجه الناس إهدار لمصالحهم ؛ فيكفرون به خليفة وراعيًا ، وتتسع دائرة القطيعة والكراهية بينهم

(١) سورة الرعد ، من الآية : ٣٨

(٢) البيهقى فى السنن الكبرى : عن أبى أمامة (من جامع الأحاديث للسيوطى رقم ٨٨١٨)

وبينه ، فتضعف مكانته كخليفة ، وتضطرب أمورهم كرعيا ، ويسود الظلم ، ويُفْتَقَدُ الأمن والأمان .

ولو أن حكام المسلمين التزموا بوصية رسول الله لهم طبقا لما ورد فيها لكان حال المسلمين اليوم غير ما هو عليه الآن من ذل وفقر وجهل وهوان .

ثمت وصية من الوصايا الأخيرة التي صدرت عن رسول الله ﷺ إنها وصية مودع ، بل وصايا مرتحل ، فمثلا أوصى الرسول ﷺ الخليفة من بعده ، فإنه هنا يوصي جماعة المسلمين بالخليفة وإن كان عبدا حبشيا ، ولكنه صَدَّرَ كَلَامًا من الوصيتين بالتزام العمود الفقري للإيمان ، وهو تقوى الله .

عن أبي نجیح العرباض بن سارية - رضى الله عنه - قال : صلى لنا رسول الله ﷺ الفجر ، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، قلنا - أو قالوا - : يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فأوصنا ، قال :

« أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن كان عبدا حبشيا ، فإنه من يعش منكم ير بعدى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وإن كل بدعة ضلالة » (١).

وصيته للمسلمين بحكامهم :

أما وقد جرى ذكر وصيتي الرسول ﷺ لكل من الخليفة والرعية ، فإنه يكون من المناسب أن نورد حكم طاعة الإمام وعصيانه ، ويتضح ذلك كل الوضوح في حديث عوف بن مالك الأشجعي وهو :

عن عوف بن مالك الأشجعي - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ،

(١) جامع العلوم والحكم ص ١٢٦ من رواية أبي داود والترمذى .

وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » قال : قلنا
يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك ؟ قال : « لا ما أقاموا الصلاة فيكم ، ألا من ولى
عليه وال فرآه يأتى شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية الله تعالى ولا ينزعنَّ
يداً من طاعة » (١).

إنه حكم قاطع الوضوح حول ما يدور هذه الأيام عن موقف بعض جماعات
المسلمين من بعض حكام المسلمين .

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : عن عوف بن مالك . (جامع الأحاديث رقم ١١٦٩٣) .



الأمثال النبوية السائرة

الفصل الأول : الأمثال ومن صنف فيها من العلماء

الفصل الثاني : من موضوعات الأمثال النبوية

الفصل الثالث : نماذج من الأمثال النبوية السائرة



الفصل الأول

الأمثال ومن صنف
فيها من العلماء

الأمثال ومن صنف فيها

الأمثال : ضرب من فنون القول البليغ ، عرف العرب الأقدمون به مثلما عرفوا بالشعر والخطابة ، وقد توفر عدد غير قليل من العلماء على جمع الأمثال ، ووضع كل منهم حصيلة ما جمع بين دفتي كتاب ، وإن أهم ما بين أيدي الدارسين من كتب الأمثال كتاب : « الأمثال » لأبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ

ولكن جهد أبي عبيد لا يغض من فضل علماء آخرين رواداً أساتذة توفروا على جمع « الأمثال » والتأليف فيها مثل المفضل الضبي المتوفى سنة ١٨٠ هـ ، وأبي فيد مؤرج السدوسي المتوفى سنة ١٩٨ هـ ، وأبي عكرمة الضبي المتوفى سنة ٢٥٠ هـ ، والمفضل ابن سلمة المتوفى ٢٩١ هـ ، وقد أطلق على كتابه « الفاخر » وأبي بكر بن دريد في كتابه « المجتنى » ، وحمزة بن حسن الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥١ هـ وقد أطلق على كتابه « الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة » وأبي الحسن بن خلاد الرامهرمزي المتوفى سنة ٣٦٠ هـ وأطلق على كتابه « أمثال النبي » وأبي هلال العسكري المتوفى ٣٩٥ هـ وقد أطلق على كتابه « جمهرة الأمثال » وعلى بن الفضل الطالقاني المتوفى سنة ٤٢١ هـ ، وأبي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ ويحمل كل من الكتاتين عنوان « الأمثال » وأبي الحسن الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ وعنوان كتابه « الأمثال والحكم » وأبي الحسن على بن أحمد الواحد المتوفى سنة ٤٦٨ هـ وعنوان كتابه « الوسيط في الأمثال » ، و أحمد بن محمد الميداني النيسابوري المتوفى سنة ٥١٨ هـ وكتابه يعد أشهر كتب الأمثال قاطبة وعنوانه « مجمع الأمثال » .

هذا وقد اهتم كثير من المؤلفين في فنون الأدب بالأمثال فأفردوا لها فصولاً خاصة نجمة حيناً ومفرقة حيناً آخر ، وأشهر من عنى بهذا النهج أحمد بن عبد ربه في كتابه « العقد الفريد » حيث أفرد باباً كبيراً من العقد وأطلق عليه « كتاب الجوهر » في الأمثال

وكذلك فعل أبو الحسن الماوردي في كتابه « أدب الدنيا والدين » فقد ألحق بكل باب من أبواب كتابه مجموعة من الأمثال التي تتسق مع موضوع الباب ، هذا فضلا عن كتابه « الأمثال والحكم » . هذه الكتب التي ذكرنا كلها مطبوعة ومحقة تحقيقا جيدا ، ولا يزال عدد آخر من كتب الأمثال لعلماء أجلاء مثل الأصمعي وابن الأنباري والبيهقي مخطوطة لم تطبع بعد .

وإن أكثر من ألف في الأمثال أشاد بفضلها في تعليم الأدب ، ونبه إلى مكانتها بين فنونه ، فأبو عبيد يقول عنها في مقدمة كتابه : « هي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام ، وبها كانت تعارض أحلامها ، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، ثم ذكر شيئا من منهجه في تأليفها (١) .

وحين يعرض أحمد بن عبد ربه للأمثال يكتب عنها فصلا متمعا يقول فيه : « ونحن قائلون - بعون الله وتوفيقه - في الأمثال التي هي وصى الكلام وجوهر اللفظ وحل المعاني ، والتي تخيرتها العرب ، وقدمتها العجم ، ونطق بها في كل زمان ، وعلى كل لسان ، فهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسر شيء مسيرها ، ولا عم عمومها ، حتى قيل : أسيّر من مثل ، قال الشاعر :

ما أنت إلا مثل سائر
يعرفه الجاهل والخابر (٢)

وعن الأمثال يقول أبو الحسن الماوردي (٣) : « لها من الكلام موقع الأسماع والتأثير في القلوب ، فلا يكاد المرسل يبلغ مبلغها ، ولا يؤثر تأثيرها ؛ لأن المعاني بها لائحة ، والشواهد بها واضحة ، والنفوس بها واثقة ، والقلوب بها واثقة ، والعقول لها موافقة » ويمضي الماوردي قائلا : « فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز ، وجعلها من دلائل رسله وأوضح بها الحجة على خلقه ؛ لأنها في العقول معقولة ، وفي القلوب مقبولة » .

(١) الأمثال ، ص : ٣٤

(٢) العقد الفريد ٣ / ٦٣

(٣) أدب الدنيا والدين ، ص : ٢٧٥

الأمثال النبوية السائرة والتأليف فيها :

أما وتلك هي قيمة الأمثال بلاغة صنع ، وإيجاز قول ، ونصاعة بيان ، وسهولة مأخذ ، ونسبو مكانة بين ضروب القول ، فقد بات من البداهة بمكان أن يكون لسيد الفصحاء ، وأبلغ البلغاء محمد ﷺ السهم الأوفر في مراتبها ، والقدر المعلى في نصاعتها ، ومن ثم فإن كل الذين ألفوا في الأمثال طرزوا كتبهم وشرفوا تصانيفهم بقافلة من الأمثال النبوية الشريفة .

إن أبا عبيد يذكر ذلك صراحة في خطبة كتابه فيقول : « وكان مما دعانا إلى تأليف هذا الكتاب وحثنا عليه ، ما روينا من الأحاديث الماثورة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قد ضربها وتمثل بها هو ومن بعده من السلف ، وقد ذكرنا ذلك ليكون حجة لمذهبننا » (١) .

وعلى نفس المنوال ينسج أحمد بن عبد ربه فيقول : « وقد ضرب الله - عز وجل - الأمثال في كتابه ، وضربها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كلامه » (٢) ثم يتمثل بعد ذلك بالكثير من الأمثال التي قالها رسول الله ﷺ .

هكذا تكون أمثال الحديث النبوي هي السبب المباشر الذي دعا أبا عبيد إلى تأليف كتابه « الأمثال » مثلما أنها سبب كذلك وإن يكن غير مباشر لأن يخصص لها أحمد بن عبد ربه قسما غير صغير في كتابه الكبير « العقد الفريد »

ولكن المتوفرين على حديث رسول الله رواية وحفظا سرعان ما أدركوا أن أمثال الحديث الشريف - جديرة بأن تستقل بكتب خاصة بها وحدها دون غيرها من أمثال العرب .

وإن أول كتاب صادفناه في التأليف المستقل بالأحاديث النبوية التي تجرى مجرى الأمثال السائرة هو « الأمثال السائرة عن النبي ﷺ وعن غيره » للحسين بن محمد الحراني

(١) الأمثال ، ص : ٣٤ .

(٢) العقد الفريد ٦٣ / ٣ .

المتوفى سنة ٣١٨ هـ وشهرته أبو عروبة ، كان محدثاً حافظاً مؤرخاً مفتياً لخران ، والكتاب قد ضاع ولم يبق منه غير ورقة واحدة كتبت سنة ٨٠٧ هـ^(١) وذكر له صاحب تذكرة الحفاظ كتاباً بعنوان « الأمثال والأوائل » .

ويدل عنوان الكتاب على أن أمثالا أخرى لغير رسول الله ﷺ قد ضمتها صفحاته ، ويذكر ابن خير الأشبيلي أن المادة الخاصة بأمثال النبي ﷺ قد رويت مسلسلّة الإسناد عن عبد الله بن عمرو بن العاص الذي قال : حفظت عن رسول الله ﷺ ألف مثل^(٢) .

ويلى كتاب « الأمثال السائرة » من حيث الترتيب الزمنى كتاب « أمثال الحديث » للقاضى أبى محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الشهرير بالرامهرمزي المتوفى سنة ٣٦٠ هـ .

وكان ابن خلاد يجمع بين علوم السنة وبين الأدب من شعر رقيق ونثر أنيق ، فهو يؤلف فى الأدب كتباً مثل « ربيع المتيم فى أخبار العشاق » أو كتاب « الفلك فى مختار الأخبار والأشعار » أو كتاب « مباسطة الوزراء » نراه يؤلف كتاب « المحدث الفاصل بين الراوى والواعى » فى علوم الحديث ، وكتاب « أمثال النبى صلى الله عليه وآله وسلم » وكتاب « التنزيل فى علم القرآن » و « كتاب الريحانتين الحسن والحسين »^(٣) . ومن طريف شعره قوله :

قل لابن خلاد إذا جئته مستنداً فى المسجد الجامع

هذا زمان ليس يحظى به « حدثنا الأعمش عن نافع »

وقد عاش ابن خلاد فى زمان الحكام الوزراء العلماء الأدباء الذين منهم أبو الفضل ابن العميد ، وأبو محمد المهلبى ، والأمير عضد الدولة بن بويه ، وكانوا يحترمونه ،

(١) معجم ما ألفت عن رسول الله ، لصالح الدين المنجد .

(٢) فهرسة ابن خير الأشبيلي ٢١٣ / ١ .

(٣) يراجع معجم الأدباء ١٤٠ / ٤ وتذكرة الحفاظ ٩٠٥ / ٣ .

ويبدأونه بالمكاتبات ، ويلقونه بالتكريم ، ويفسحون له في مجالسهم ، ويحسنون الاستماع إليه ، وكان علماء زمانه يطلقون عليه « محدث العجم » .

ويعاصر ابن خلاد ، الحافظ المحدث عبد الله بن محمد بن جعفر الأنصاري أبو محمد المتوفى سنة ٣٦٩ هـ صاحب كتاب (السنة) وكتاب (طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها) ، وكتاب (عظمة الله ومخلوقاته) وكتاب (التاريخ على السنين) (١) ثم الكتاب الذي نعى به هنا وهو كتاب (الأمثال) أو (أمثال الرسول) (٢) .

ويعيش في نفس العصر الذي عاش فيه ابن خلاد وعبد الله بن محمد بن جعفر ، عالم آخر شهير هو أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري المتوفى سنة ٣٨٢ هـ وهذا يعني أنه قد عاصر ابن خلاد وإن لم يلتقيا ، وهو غير الحسن العسكري الإمام الحادي عشر للشيعة الاثنا عشرية ، فأبو أحمد الحسن العسكري منسوب إلى بلدته التي ولد فيها ومات بها وهي « عسكر مُكْرَم » وهي مدينة بالأهواز ، وأما الحسن العسكري الإمام فينسب إلى « العسكر » وهي نفسها مدينة « سرّ من رأى » التي بناها المعتصم العباسي لعسكره بعيدا عن بغداد؛ حتى يتقى الناس شرورهم ، وكان يطلق عليها « العسكر » مثلما كانت تسمى « سرّ من رأى » ثم عرفت بعد ذلك وحتى عصرنا بـ « سامرا » .

ولأبي أحمد العسكري - الذي هو موضوع حديثنا - مؤلفات كثيرة ونفيسة مثل : (صناعة الشعر) و (التصحيف) و (الزواجر والمواعظ) و (راحة الأرواح) و (الحكم والأمثال المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) ويضيف ابن خیر إلى عنوان الكتاب عبارة « وشرح ألفاظه التي لم يسبق إليها »

والعجيب أن كثيرا ممن ترجموا لأبي أحمد العسكري - بل جلهم - حينما ذكروا مؤلفاته ذكروا بينها « كتاب الحكم والأمثال » مجردا من نسبة محتواه من حكم وأمثال إلى رسول الله ﷺ وإن المؤلف الوحيد الذي ذكر عنوان الكتاب كاملا ومنضبطا - حسب علمنا -

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ٣ / ٩٤٥ .

(٢) الأمثال العربية القديمة لرودلف زفايم ص : ٣٧ ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب .

هو ابن خير الأشبيل في فهرسته^(١) ونقل عنه الدكتور صلاح المنجد^(٢).

لقد خلف أبو أحمد العسكري عددا كبيرا من الكتب لم يصل منها إلينا مطبوعا غير كتابين هما « المصون » في الأدب ، و « التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم »

وكان العسكري من أعيان العلماء الحفاظ الأدباء الشعراء المؤلفين ، وكان الصاحب ابن عباد يحترمه ويكبره ، وقد جرت بينهما مكاتبة فريدة اتسمت بالظرف والأدب ، والأمر الجدير بالذكر أن عالمنا الكبير هو خال أبي هلال العسكري وأستاذه ، بل إنهما يشتركان في الاسم والصفة وإن اختلفا في الكنية .

لا تكاد تَمْضى عقود قليلة من السنين حتى يظهر في الأفق الإسلامي عالمان جليلان مرموقان هما أبو الحسن الماوردي (المتوفى سنة ٤٥٠ هـ) في بغداد ، وأبو عبد الله القضاعي (المتوفى سنة ٤٥٤ هـ) في الفسطاط .

كان الماوردي فقيها كبيرا ، وكان يلقب بأقضى القضاة ، ولقد أثرى المكتبة الإسلامية بتأليفه الكثيرة الجليلة التي منها (الآداب السلطانية) و (أدب الدنيا والدين) و (تفسير القرآن الكريم) و (الحاوي) في الفقه الشافعي نيف وعشرون جزءا ، و (أعلام النبوة) و (قانون الوزارة) و (سياسة الملك) و (تسهيل النظر) و (الأمثال والحكم) و (أمثال القرآن) وغيرها .

والذي يعنينا في هذا المقام من مؤلفات الماوردي كتابه الأخيران : (الأمثال والحكم) و (أمثال القرآن) .

إن كتاب الماوردي الموسوم بـ « الأمثال والحكم » لا يبدو من عنوانه أنه إسهام في التأليف في الأمثال النبوية ، ذلك أن منهج الكتاب اقتضى من المؤلف أن يخصه بهذا العنوان الذي يفسره قوله في مقدسته :

« أما بعد : فإن أول ما تأدب به المهمل الغافل ، واتعظ بن الفطن العاقل : كتاب

(١) الفهرسة ١ / ٢٤٥ .

(٢) معجم ما ألفت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ص ٢٩٥ .

الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، قد جمع الله فيه جوامع الحكم والأمثال ، وجعله تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ، فحق عباد الله أن يكونوا بكتابه مستمسكين ، وبأدبه آخذين ، وبحكمه وأمثاله معتبرين .

ويستطرد الماوردى فى مقدمة كتابه « الأمثال والحكم » قائلاً : حكى الأصمعى أن أعرابياً وصى ابنه عند موته فقال : يا بنى وصيتى إياك مع وصية الله منجية ، وإن الرضا بها القناعة ، وعود الخير أحمد ، وإنى أسترعى لك بعد وفاتى الذى أحسن إليك فى حياتى ، فأولى الأمور بعد كتاب الله سنة رسول الله ﷺ فقد قال - عليه السلام - : « أوتيت جوامع الكلم واختصرت إلى الحكمة اختصاراً » ثم بعد السنة أمثال الحكماء وأقوال الشعراء ، فقد قال رسول الله ﷺ : « إن من الشعر لحكمة » و « إن من البيان لسحراً » .

يقول الماوردى : وقد جمعت فى كتابى هذا من سنة رسول الله ﷺ أحاديث وجيزة الألفاظ واضحة المعانى (يقصد أمثال الحديث النبوى) ومن أمثال الحكماء وأقوال الشعراء ما كان عذب البديهة سائر الذكر .

لقد ضمّن الماوردى كتابه « الأمثال والحكم » ثلاثمائة حديث تحمل كلها أدب الرسول ﷺ وتعاليمه ، ويجرى جُلُّها مجرى الأمثال الحكيمة السائرة ، هذا فضلاً عن ثلاثمائة حكمة لبلغاء العرب ، وثلاثمائة بيت شعر تجرى مجرى الأمثال ، وبذلك يمكن أن يحسب هذا الكتاب واحداً من الكتب القلائل التى عنيت بالأمثال النبوية التى جرت على ألسنة المسلمين فى مجال التمثيل بالحكمة السائرة البليغة الخفيفة على السمع ، السريعة إلى القلب ، الطليقة على اللسان .

وإذا كان أبو الحسن الماوردى يمثل ثقلاً معتبراً فى العلوم الإسلامية فى بغداد ، فقد كان أبو عبد الله القضاعى يمثل بدوره ثقلاً شبه متوازن فى الفسطاط عاصمة مصر العلمية ، فقد كان فقيهاً مفسراً مؤرخاً إخبارياً قاضياً ، وهو مؤلف عدد غير قليل من الكتب النفيسة الشهيرة التى يجىء فى مقدمتها كتاب « الشهاب فى الآداب والأمثال

والمواعظ والحكم المروية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « وكان القضاعي يعرف « بالشهاب » مثلما يعرف الماوردي بالآداب السلطانية ، فكان يقال : القضاعي الفقيه الشافعي صاحب الشهاب ، وقد نال كتاب الشهاب حظوة وشهرة عند علماء المسلمين في المشرق والمغرب والأندلس ، وكان علماء الأندلس يفدون إلى الفسطاط ليسمعوا أبا عبد الله القضاعي يقرأ عليهم كتابه « الشهاب » في منزله بمصر ، ومنهم من حدد موقع المنزل فقال : وأنا أسمع في داره بسوق بربر بفسطاط مصر سنة ٤٥٠ هـ (١) .

لم يكن كتاب الشهاب - على شهرته - هو المؤلف النفيس الوحيد للقضاعي ، ذلك أن للرجل إسهامات جليلة في خدمة العلوم الإسلامية ، فمن كتبه المطبوعة بين أيدينا بالإضافة إلى « الشهاب » ، كتاب « دقائق الأخبار وحقائق الاعتبار » و « دستور معالم الحكم » من كلام الإمام علي بن أبي طالب ، و « ألف ومائتا كلمة من حديث رسول الله » .

ومن كتبه المخطوطة « مسند الشهاب » وهو شقيق لكتاب « الشهاب في الآداب والأمثال والمواعظ والحكم المروية عن رسول الله » غير أن « مسند الشهاب » موضوعه أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد نال بدوره شهرة واسعة ، وأقرأه مؤلفه عددا من المحدثين والرواة في مشرق الدولة الإسلامية ومغربها (٢) . وله أيضا من الكتب المخطوطة : « درة الواعظين وذخرة العابدين » و « عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف » و « الإنباء عن الأنبياء » و « نزهة الألباء في التاريخ » و « مناقب الشافعي ، ومعجم شيوخته » و « تاريخ مصر من مبدأ الخلق إلى زمانه » و « تواريخ الخلفاء » و « خطط مصر » .

ومن طريف ما قيل في تمجيد كتاب الشهاب قول فارس بن الحسين الهذلي (٣) .

إن الشهابَ كتابٌ يُستَضَاءُ به في العلم والحلم والآداب والحكم

(١) فهرسة ابن خير ١ / ٢٢١ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٢٢٣ .

(٣) الوافي بالوفيات ٣ / ١١٩ .

سقى القضاء غيثاً كلما لمعت هذى المصابيح في الأوراق والكلم

ولا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا في هذه العجالة أن نذكر العالم الجليل الحسن بن الفضل صاحب كتاب « الأمثال الكامنة في القرآن والسنة » وذلك طبقاً للعنوان الذي نقله محقق كتاب « الوسيط في الأمثال » للواحدى ، لأننا سوف نعود مرة أخرى لهذا الكتاب عند التعريف بكتب « أمثال القرآن » لأنه سيرد بعد ذلك ككتاب أمثال للقرآن وحده دون السنة .

وفي العصر الحديث صنف يوسف بن إسماعيل النبهاني كتاباً عنوانه « الأحاديث الأربعين في أمثال أفصح العالمين » .

والنبهاني من مواليد قرى حيفا بفلسطين سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٩ م تعلم في الأزهر الشريف ، وعمل محرراً في جريدة (الجوائب) في الآستانة ، ثم قاضياً في بيروت ، ثم مجاوراً للروضة الشريفة في المدينة المنورة ، وتوفي ١٣٥٠ هـ / ١٩٣٢ م وهو في مقدمة من توفروا على سنة رسول الله تأليفاً ، ومن توفروا على مدحه ﷺ شعراً وله في ذلك دواوين عديدة وقصائد نفيسة .

أما وقد ذكرنا أشهر كتب الأمثال النبوية السائرة . فإن إشارة سريعة « لأمثال القرآن الكريم » جديرة بالعناية ، خليقة بالاعتبار .

لقد سلفت الإشارة إلى ما أُلّف في أمثال القرآن والحديث مجتمعين ، مثل كتاب « الأمثال الكامنة في القرآن والسنة » للحسن بن الفضل ، غير أن ذكر الكتب التي خصصت لأمثال القرآن غير المختلطة بأغراض أخرى يبدو أمراً ضرورياً في مثل هذا المقام .

لعل أقدم كتاب أُلّف في أمثال القرآن هو كتاب الصوفي الشهير أبى القاسم الجنيد ابن محمد الجنيد المتوفى سنة ٢٩٧ هـ الملقب بالقواريرى الخزاز ، لأن أباه كان يصنع القوارير ، وأما هو فكان يعمل الخزّ شأن أكثر علماء المسلمين الذين كانوا يأكلون من عمل أيديهم .

ولا يستغربن امرؤ أن يؤلف الجنيد كتاباً في أمثال القرآن ، وقد اشتهر بالإيغال في التصوف ، وحتى تبطل هذه الغرابة فمن الحقائق التاريخية أن معتدلي المتصوفة كانوا من أكثر العلماء استمساكاً بالقرآن الكريم والسنة النبوية والفقه ، وقد كان الجنيد فقيها وتلمذ في شبابه على أبي ثور ، وكان يفتى في حضرة أستاذه في حلقاته ، والحديث في ذلك طويل ، وباختصار شديد كان الجنيد يقول : علمنا مضبوط بالكتاب والسنة ، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به . والجنيد هو ابن أخت السرى السقطي ، وللجنيد من الكتب غير أمثال القرآن « المقصد إلى الله تعالى » « معاني الهمم في الفتاوى الصوفية » و « السر في أنفاس الصوفية »^(١).

وبلى الجنيد زمناً في التأليف في أمثال القرآن إبراهيم بن محمد بن عرفة ، المشهور بلقب « نفطويه » المولود في واسط سنة ٢٤٤ هـ والمتوفى ببغداد سنة ٣٢٣ هـ ، ونفطويه عربي المحتد أزدى المنتمى ، وهو من أحفاد المهلب بن أبي صفرة ، وكان - على الرغم من علمه الوفير في اللغة وعلوم القرآن والتاريخ والعقائد - قذر الملبس ؛ بحيث تبدو ملابسه وكأنها اتسخت بالنفط فلقب بنفطويه على قياس غير دقيق بلفظ سيبويه ؛ لأنه كان في النحو من مدرسة سيبويه ، ولقد أحصى له كل من ابن النديم وياقوت الرومي عدداً من المؤلفات في موضوعات نفيسة مثل كتاب (أمثال القرآن) وكتاب (الأمثال) وكتاب (غريب القرآن) وكتاب (الوزراء) وكتاب (الملح) وكتاب (المصادر) وكتاب (القوافي) وغير ذلك^(٢).

وثمت متصوف آخر ألف كتاباً في « أمثال القرآن » هو محمد بن الحسين بن موسى السلمى الأزدى النيسابوري ، والمكنى بأبي عبد الرحمن المتوفى بنيسابور سنة ٤١٢ هـ وكانت ولادته سنة ٣٢٥ هـ^(٣) فهو أزدى مثل سابقه « نفطويه » وصوفي مثل الجنيد ، وقد تجاوزت مؤلفات أبي عبد الرحمن المائة عدداً ، والمشهور المطبوع منها كتاب (طبقات

(١) الفهرست لابن النديم ١ / ١٨٥ ، تاريخ بغداد ٧ / ٢٤١-٢٤٩ .

(٢) معجم الأدباء ١ / ٣٠٧-٣١٥ .

(٣) حاجي خليفة ١ / ١٥٠ .

الصوفية) و (رسالة الملامتية) و (آداب الصحبة) و (عيوب النفس ومداواتها) ،
(الأربعين في الحديث) .

ومن العلماء الذين صنفوا في أمثال القرآن أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن إسحاق القضاعى ، وهو غير أبى عبد الله القضاعى المصرى الذى سلف ذكره فى مصنفى كتب أمثال الحديث النبوى ، فأبو محمد أسبق زمناً من أبى عبد الله .

يقول ابن خير الأشبيلي : إن أبا محمد الحسن بن عبد الرحمن بن إسحاق القضاعى قد ألف « كتاب الأمثال الكامنة فى القرآن » ويوثق هذا الخبر قائلا : حدثنى به الشيخ أبو الحسن عباد بن سرحان المعافرى سماعاً عليه ، قال : قرأت على الشيخ الزاهد أبى بكر محمد بن طرخان ، قال : أنبأنا الشيخ أبو الحسن على بن غنائم بن عمر المالكى ، قال : حدثنا أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن إسحاق القضاعى لفظاً (١) .

ومن الذين ألفوا أيضاً فى « أمثال القرآن » الحسن بن الفضل الذى مر ذكره عند استعراض الكتب التى صنف فى أمثال الحديث ، ذلك أن الكتاب الذى ذكر آنذاك يحمل عنوان « الأمثال الكامنة فى القرآن والسنة » غير أن ابن خير يذكره بنفس العنوان ولكن مجرداً من كلمة السنة ، يعنى أن عنوان الكتاب كما ذكره ابن خير هو كتاب « الأمثال الكامنة فى القرآن » استخراج الحسن بن الفضل (٢) .

وتدل رواية ابن خير فى توثيق الكتاب على أن الحسن بن الفضل عاش - على أكثر تقدير - فى القرن الرابع الهجرى .

المصنفون فى أمثال القرآن :

ومن المصنفين لكتب أمثال القرآن أيضاً أبو الحسن الماوردى العالم الجليل السابق ذكره فى أمثال الحديث ، فلم يفته أن يعنى بأمثال القرآن الكريم عنايته بأمثال الحديث بكتابه « الأمثال والحكم » فألف كتابه « أمثال القرآن » وقد سلف القول أن الماوردى توفى فى منتصف القرن الخامس ، وعلى وجه التحديد سنة ٤٥٠ هـ ، ولقد وقع بعض

(١) فهرسة ابن خير ١ / ٩٣ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٩٣ .

الخلط عند بعض المؤلفين - وبخاصة المستشرقين - بين كتابي « الأمثال والحكم » و« أمثال القرآن » وظنوهما - خطأ - كتابا واحدا ، بينما هما كتابان منفصلان .

ويبدو لنا أن التأليف في أمثال القرآن والحديث قد بدأ في وقت متزامن نوعا ما ، وقد يكون التأليف في أمثال القرآن بدأ قبل التأليف في أمثال الحديث بعقود قليلة من السنين إذا ما صح أن أول كتاب في أمثال القرآن قد ألفه الجنيد ، وأن أول كتاب في أمثال الحديث قد ألفه الحسين بن محمد الحراني ؛ ذلك لأن الجنيد توفي ٢٩٧ هـ والحراني توفي سنة ٣١٨ هـ .

والمرجح أن أمثال القرآن قد شغلت دارسي العلوم القرآنية بشكل مكثف ، وهو ما يلمسه كل من غمس نفسه بشرف العمل في الدراسات القرآنية ، من ذلك أن أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم سمع أباه يقول للحسن بن الفضل الذي تكرر ذكره فيما سلف من سطور : إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن ، فهل تجد في كتاب الله : خير الأمور أوساؤها ؟ قال : نعم ، في أربعة مواضع ^(١) ، قوله تعالى : ﴿ لَا فَاْرِضْ وَلَا يَكْرَهُوا بَيِّنَ ذَلِكَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ .

ثم عاد مضارب بن إبراهيم يسأل الحسن بن الفضل : هل تجد في كتاب الله : من جهل شيئا عاداه ؟ قال : نعم ، في موضعين ، قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا لِيُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَا تَهُم تَأْوِيلَهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَنَسَبُوا لَهَا إِفْكًا قَدِيمًا ﴾ قال مضارب إبراهيم : فهل تجد في كتاب الله : ليس الخبر كالعيان ؟ قال : نعم ، في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَال بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُ ﴾

(١) فهرسة ابن خبير ص ١٩٤ والإتقان ٢ / ١٣٢ .

يقول الماوردي في هذا السياق كلاما ينبه الغافل ويسر العاقل فيما يتصل بأمثال القرآن ، فمن ذلك قوله : من أعظم علم القرآن علم أمثاله ، والناس في غفلة عنه . وإن الذين اهتموا بالتأليف في الآداب لم يفهم أن يضمّنوا مؤلفاتهم نماذج مما ورد في كتب الأمثال السائرة الواردة في آيات الكتاب العزيز ، من ذلك على سبيل المثال ماصنعه جعفر بن محمد شمس الخلافة المتوفى بمصر سنة ٦٢٢ هـ في كتابه « الآداب النافعة بالألفاظ المختارة الجامعة » فقد عقد بابا في ألفاظ أو جمل من القرآن الكريم جارية. مجرى المثل منها : (١)

- * ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ .
- * ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ .
- * ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ .
- * ﴿ أَلَمْ نَحْصِصْ الْحَقَّ ﴾ .
- * ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ﴾ .
- * ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ .
- * ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ .
- * ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ .
- * ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ .
- * ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ ﴾ .
- * ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ .
- * ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ .

(١) الإتيان ٢ / ١٣٣ .

* هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ *
 * كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً *
 * تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى *
 * وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ *
 * كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ *
 * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ *
 * وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ *
 * لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا *
 * لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ *
 * ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ *
 * ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ *
 * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ *
 * وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ *
 * فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ *



الفصل الثاني

من موضوعات الأمثال النبوية

من موضوعات الأمثال النبوية السائرة

موضوعات الأمثال النبوية السائرة :

شملت الأمثال النبوية كل شئون المسلمين في نطاق حكمة التجربة السديدة ، ومكارم الأخلاق . وبنية المجتمع ، وشئون الفرد والجماعة ، من علم وعمل ، ومروءة وكرم وحرص ، وحرب وسلام ، وصداقة وعداوة ، ومحبة وكراهية ، وعبادة وعصيان ، وشجاعة وجبن ، وبلاغة وعي ، والكلام والصمت ، والصدق والكذب ، والأمانة والخيانة ، ومشورة واستبداد ، وزواج وطلاق ، وغير ذلك من أمور الناس ، وقضايا الدنيا وشئون الآخرة .

ولا يقف الأمر في القضية أو الموضوع عند حديث واحد ، وإنما كانت القضية الواحدة تعالج من لدن رسول الله ﷺ بعدد من الأحاديث التي تجرى مجرى الأمثال السائرة .

أمثال في العلم والعلماء :

فإذا ما ذكرنا موضوعا كالعلم والعلماء على سبيل المثال ، فإننا نقع على عدد غير قليل من الأمثال النبوية في هذا المجال ، مثل قوله ﷺ :

- « فضل العلم خير من فضل العبادة »
- « قيدوا العلم بالكتاب »
- « ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا في طلب العلم »
- « من غدا في طلب العلم صلت عليه الملائكة »
- « طلب العلم فريضة على كل مسلم »

- « العالم والمتعلم شريكان في الخير »
- « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلاً »
- « من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه »
- « العلماء ورثة الأنبياء »
- « خير أمتي علماءها ، وخير علمائها فقهاؤها » وفي رواية : « خيار أمتي »
- « للأنبياء على العلماء فضل درجتين ، وللعلماء على الشهداء فضل درجة »
- « لكل شيء فترة ، فمن كانت فترته على العلم فقد نجا »
- « كونوا علماء صالحين ، فإن لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء ، واسمعوا علماء يدلّكم على الهدى ويردّكم عن الردى »
- « من وقّر عالماً فقد وقّر ربه »
- « العلم خزان ومفتاحها السؤال »
- « حسن السؤال نصف العلم »
- « قليل العلم خير من كثير العبادة »
- « لا تمنعوا العلم أهله فتظلموا ، ولا تضعوه في غير أهله فتأثموا »
- « أجر المعلم كأجر الصائم القائم »
- « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع »
- « من تعلم علماً لغير الله وأراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار »
- « من كتم علماً يحسنه أجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »
- « واضع العلم في غير موضعه كمقلّد الخنازير اللؤلؤ »
- « إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء ، يُبتدى بها في ظلمات البر والبحر »

تلك أكثر من عشرين حديثاً من الأمثال قالها رسول الله ﷺ في موضوع واحد هو العلم والعلماء ، ولا شك في أن ثمت أحاديث أخرى رويت في هذا المقام وربما جرى بعضها أيضاً مجرى الأمثال ، وهى في جملتها نبراس لكل بليغ ، وقبس من نور لكل حكيم ، ونعم الزاد والمعين لكل طالب علم .

أمثال في المشورة :

وإذا استعرضنا أحاديث رسول الله ﷺ التى تناولت الشورى والمشورة وجدناها متممة لمبدأ الشورى الذى جاء في آيتين من آيات القرآن الكريم ، وقد صاغتها بلاغة رسول الله ﷺ بحيث تسرى إلى قلب كل مسلم قبل أن تجرى على لسانه مثلاً سائراً يقول رسول الله ﷺ :

● « ما خاب من استخار ولا ندم من استشار »

● « لن يهلك امرؤ بعد مشورة »

● « المستشار مؤتمن »

● « المستشير مُعان »

● « المستشار بالخيار ، إن شاء قال ، وإن شاء أمسك »

● « رحم الله عبداً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم »

● « المشاورة حصن من الندامة ، وأمن من الملامة »

أمثال في المرأة والنساء :

النساء نصف المجتمع ، ومن صنائع الإسلام الاهتمام بالمرأة وإعطاؤها ما تستحق من مكانة وتكريم ؛ لأنها الأم والأخت والابنة والزوجة والعمة والخالة ، وهى عمدة كل بيت ، ومربية كل جيل ، ومن ثم فقد احتلت مساحة كبيرة فى السنة النبوية توجيهها وتكريماً وتشريعاً وتوصيفاً وغير ذلك مما يتعلق بشؤونها ، ولقد جرى الكثير من أقوال رسول الله فيها مجرى المثل السائر ، وتلك نماذج من هذه الأمثال :

- « فاطمة سيدة نساء العالمين ، ماخلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم »
- « خير نساء ركن الإبل صوالح قريش ، أحناء على ولد في صغره ، وأرعاه على بعل في ذات يده ».
- « إذا تزوجت المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد من عوز » (تساعد زوجها وتعفه وتعينه)
- « تنكح المرأة لما لها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »
- « تزوجوا الزرق فإن فيهن يمنا »
- « تزوجوا الشواب فإنهن أعرأ أخلاقا »
- (من الغرة يعنى أبعد عن الشر والمكر)
- « الأيم أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن ، وإذنها صماتها » (يعنى سكوتها)
- « خير النساء الولود الولود »
- « أحسن النساء بركة ، أحسنهن وجها ، وأرخصهن مهرا »
- « إياكم وخضراء الدمن ، قيل : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في منبت السوء »
- « خياركم خيركم لأهله »
- « لا تغالوا بالنساء فإنهن سقيا الله »
- « أنا وسفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة »
- (يعنى : سوداء الخدين : لأنها تركت الزينة وقامت على تربية أولادها بعد وفاة زوجها)
- « ليس للنساء سروات الطريق » (سروات الطريق : أعاليها والبارز فيها)
- « رفقا بالقوارير » (قاله الرسول لأنجشة وهو يسوق الإبل بسرعة وعليها النساء) وسيأتى تفصيلا

- « إن الجنة لا يدخلها عجوز »
- (يعنى : تعود العجوز شابة متى استحقت دخول الجنة)
- « دخلت امرأة النار في هرة »
- « مالكم ولابن سمية ، يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار » (سمية أول شهيدة في الإسلام ، وابنها هو عمار بن ياسر)
- « ارحموا عزيزاً ذلّ ، وارحموا غنياً افتقر » .
- (قاله الرسول حين توسلت إليه سفانة ابنة حاتم الطائي أن يطلق إسمها)



الفصل الثالث

نماذج من الأمثال النبوية السائرة
اخترناها من بعض كتب الأمثال

نماذج من كتب أمثال الحديث

لقد اخترنا نماذج من ثلاثة كتب هي الأمثال لأبي عبيد ، وأمثال النبي للرامهرمزي ومن « جمهرة الأمثال » لأبي هلال العسكري .

(١)

نماذج من أمثال الحديث من كتاب الأمثال لأبي عبيد :

● من صدق الله نجاً .

وفي حديث آخر مرفوع « وهل يكُبُّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم » (١) .

● ومنها قوله ﷺ حين ذكر الغُلُوَّ في العبادة :

« إِنَّ الْمُنْبِتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى » يقول : إن هذا إذا كَلَّفَ نفسه فوق طاقتها من العبادة بقى حسيراً ، كالذئ أفرط في إغذاذ السَّيْرِ حتى عَطِبَتْ راحلته ، ولم يَقْضِ سفره (٢) .

● « إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدَّمَنِ » قيل : وما خضرَاءُ الدَّمَنِ ؟ قال : « المرأةُ الحسناءُ في مَنبَتِ السُّوءِ » (٣) .

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان (حديث ٢٦١٦) وأحمد في مسنده ٢٣١ / ٥ ، ٢٣٧ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد في مسنده ١٩٩ / ٣ وصدره « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك ، فإن المنبت . . . » والمنبت : الذي أتعب دابته حتى عطبت فبقى منقطعاً به . قاله ﷺ لرجل اجتهد في العبادة حتى هجمت عيناه ، أى : غارتا .

(٣) جمع الجوامع للسيوطي ١ / ٣٦٣ ، والدمن : جمع دمنة ، وهي الموضع الذي تجتمع فيه الغنم ، فتتلبد أبواها وأبعارها ، وقد ضربه النبي ﷺ مثلاً لحبث المنبت ، كما ضرب جودة النبات مثلاً لحسن المرأة .

ومنها قوله ﷺ حين ذكر كثرة الربا في آخر الزمان :

« مَنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابُهُ مِنْ غُبَارِهِ » فقد عُلِمَ أنه ليس ثَمَّ غبار ، إنما هذا مَثَلٌ لما ينال الناس منه (١).

● « الْحَرْبُ خَدَعَةٌ » .

قال علي : قال أبو محمد سَلَمَة : من قال : « الحرب خَدَعَةٌ » فمعناه أنه من خُدِعَ فيها خَدَعَةٌ فزَلَّتْ قدمه وعَطِبَ فليس له إقالة ، ومن قال : « خَدَعَةٌ » أَى : إنها تُخَدَعُ أهلها ، ومن قال : الحرب خَدَعَةٌ [بضم الخاء وتسكين الدال] فهي تُخَدَعُ ، فإذا خَدَعَ أحدُ الفريقين صاحبه فكأنما خَدَعَتْ هي . قال أبو عبد الله الزُّبَيْرُ بن بَكَّارٍ القاضي : هي عندنا « خَدَعَةٌ » قال الزبير : حَدَّثَنِي سفيان بن عُيَيْنَةَ عن عمرو بن دينار قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : قال رسول الله ﷺ : « الحربُ خَدَعَةٌ » قال علي : فقلت للزبير : أتراها حَكِيمَةٌ ؟ فقال : نَعَمْ « (٢) » .

وقال في فرس ركه :

● « وَجَدْتُهُ بَخْرًا » (٣) .

● « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » (٤) .

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب التجارات (حديث ٢٢٧٨) .

(٢) أخرجه البخاري في (كتاب الجهاد) باب « الحرب خدعة » (فتح الباري ٦ / ١١٨) وأحمد في مسنده ١ / ٨١ .

(٣) أخرجه البخاري في (كتاب الجهاد) باب « الشجاعة في الحرب والجبن » (فتح الباري ٦ / ٢٧) وأحمد في مسنده ٣ / ٦٣ ، ١٤٧ .

(٤) (البخاري في (كتاب الطب) « إن من البيان لسحرا » (فتح الباري ١٠ / ١٩٤ ، ١٩٥) أحمد في مسنده ١ / ٢٦٩ ، ٢٧٣ وأصله أن رسول الله ﷺ سأل عمرو بن الأَهمم عن الزبير بن بدر فقال :

هو مانع لحوزته ، مطاع في أدنيه ، فقال الزبيران : أما إنه قد علم أكثر مما قال . ولكن حسدني شرفي ، فقال عمرو : أما إذ قال ما قال فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر ، زمر المروءة ، لثيم الخال ، حديث الغنى ، فلما أن رأى أنه قد خالف قوله الآخر قوله الأول ، ورأى الإنكار في عيني رسول الله قال : يا رسول الله ، رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الأخرى ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : « إن من البيان لسحرا » .

● « مَنْ حَفَنَّا أَوْ رَفَنَّا فَلْيَقْتَصِدْ » (١). يقول : مَنْ مَدَحْنَا فَلَا يَغْلُوَنَّ فِي ذَلِكَ ، وَلَكِنْ لِيَتَكَلَّمْ بِالْحَقِّ مِنْهُ . قال أبو عبيد : ومنه حديث مرفوع « أَنْ رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : أَنْتَ أَفْضَلُ قُرَيْشٍ قَوْلًا ، وَأَعْظَمُهَا طَوْلًا ، فقال النبي - عليه السَّلام - : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ ، وَلَا يَسْتَجْرِبَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ » .

● أَقْبِلُوا ذَوَى الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ (٢) .

● الْعِدَّةُ عَطِيَّةٌ (٣) .

● قال ﷺ لأصحابه : « أَى شَيْءٍ خَيْرٌ لِلنِّسَاءِ ؟ » فلم يَذُرُوا مَا يَقُولُونَ ، فَرَجَعَ عَلَى رِضَى اللَّهِ عَنْهُ إِلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَخْبَرَهَا بِمَقَالَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : « أَنْ لَا يَرَاهُنَّ الرِّجَالُ وَلَا يَرَيْنَهُمْ » فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « إِنَّهَا بَضْعَةٌ مِنِّي » (٤) .

● حُبُّكَ الشَّيْءَ يُغِمِّي وَيُصِمُّ .

وهذا المثل يُروى عن أبي الدَّرْدَاءِ . ومنه حديث ابن عباس « مَا ذَكَرَ اللَّهُ الْهَوَى فِي مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ إِلَّا دَمَهُ » وقول الشَّعْبِيِّ : إِنَّمَا سُمِّيَ هَوًى لِأَنَّهُ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ . وقال بعض الحكماء : إِذَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ أَمْرَانِ فَلَمْ تَذَرِ أَيُّهُمَا أَدْنَى إِلَى الصَّوَابِ وَالسَّدَادِ فَانْظُرْ أَتَقْلَهُمَا عَلَيْكَ فَاتَّبِعْهُ ، وَدَعْ الَّذِي تَهْوَى ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي لَعَلَّ الْهَوَى هُوَ الَّذِي زَيَّنَهُ فِي قَلْبِكَ ، وَحَسَّنَهُ عِنْدَكَ (٥) .

● « مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ » (٦) .

(١) معنى « حَفَنَّا أَوْ رَفَنَّا » تعطف علينا وأعطانا ، فلان يحف بفلان : إذا طاف به وألطفه ، فهو به خَفٍ وَخَفِيٌّ ، ويقال : رففت الرجل أرفه ، إذا أسديت إليه يدًا ، ومن أمثالهم : « هُوَ يَحْفُ لَهُ وَيَرِفُ » أى : يقوم له ويقعده ، وينصح ويشفق .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الحدود) حديث ٤٣٧٥ ، وأحمد في مسنده ٦ / ١٨١ ، ورواه المبدائي ٢ / ١٢٣ .

(٣) وهو من حديث شريف طويل ، أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١١ / ٩٥ ، وأخرجه كذلك أبو نعيم في الحلية ٨ / ٢٥٩ .

(٤) أخرجه البزار مختصراً ، انظر مجمع الزوائد ٩ / ٢٠٢ .

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب (حديث ٥١٣٠) .

(٦) أخرجه البخاري في (كتاب الاستقراض) باب « مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ » (فتح الباري ٥ / ٤٥٩) .

- « الْجَارَ قَبْلَ الدَّارِ ، وَالرَّفِيقَ قَبْلَ الطَّرِيقِ » (١) .
- « اضْطَنَاعُ الْمَعْرُوفِ يَقِي مَصَارِعَ الشُّوءِ » (٢) . وفي حديث آخر: « أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمُ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ » وفي حديث ثالث: « السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ » .
- « إِنَّمَا الْمَرْءُ بِخَلِيلِهِ ، فَلْيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَنْ يُجَالِ » (٣) .
- « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » (٤) .
- وهذا الْحَرْفُ يُرَوَّى فِي حَدِيثِ مَرْفُوعٍ ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ « قِيلَ » يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا يَنْصُرُهُ مَظْلُومًا فَكَيْفَ يَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ : يَكْفُهُ عَنِ الظُّلْمِ » .
- « الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، قِيلَ : لِمَنْ؟ قَالَ : لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ » (٥) .
- « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ » (٦) . وَيُرَوَّى عَنْ لَقْمَانَ الْحَكِيمِ أَنَّهُ سُئِلَ : أَيُّ عَمَلِكَ أَوْثَقُ فِي نَفْسِكَ؟ فَقَالَ : تَرْكِي مَا لَا يَعْنِينِي .
- « النَّاتِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ » (٧) . وَمِثْلُهُ : « أَتُبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا » . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : « النَّذَمُ تَوْبَةٌ » .

(٢)

نماذج من كتب أمثال النبي للرامهرمزي (ابن خلاد)

عن عبد الله بن قيس :

-
- (١) الحديث ذكره الهيثمي في مجمع (٨ / ١٦٤) والسيوطي في الجامع الكبير (١ / ٤٠٢) .
 - (٢) الحديث في جمع الجوامع ١ / ٣٣٤ ، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج .
 - (٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب (حديث ٤٨٣٣) بلفظ : « الرجل على دين خليله ، فليَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مِنْ يُجَالِ » وأحمد في مسنده ٣٠٣ ، ٣٣٤ .
 - (٤) أخرجه البخاري في (كتاب المظالم) باب « أَعْنِ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » (فتح الباري ٦ / ٢٣) وأحمد في مسنده ٣ / ٩٩ ، ٢٠١ ، ٣٢٤ .
 - (٥) الحديث أخرجه البخاري في (كتاب الإيمان) باب « قول النبي : الدين النصيحة » (فتح الباري ١ / ١١٣) .
 - (٦) أخرجه الترمذي في (كتاب الزهد) حديث ٢٣١٧ وابن ماجه في (كتاب الفتن) ١٢ ، وأحمد في مسنده ١ / ٢٠١ .
 - (٧) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد (حديث ٤٢٥٠) .

● قال رسول الله ﷺ: « إن الجنة تحت ظلال السيوف » (١).

المعنى أن حامل سيفه في سبيل الله مطيعاً لله به يصل إلى الجنة .

● عن أبي هريرة : قال رسول الله ﷺ : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله هي الجنة » (٢).

يعنى : من خاف النار جد في العمل ، ومن جد في العمل وصل إلى الجنة ، فجعل خائف النار بمنزلة المسافر الذى يخاف فوت المنزل فيرحل مدجاً ، والإدلاج : هو السير من أول الليل ، وجعلت غالية لشرفها ، ولأنها لا تنال بالهوينى والتقصير ، وإنما تنال بمجاهدة النفس ومغالبة الهوى وترك الشهوات .

« إن هذه الكناية من أوجز الكنايات وأدقها على معنى لا يتعلق بشيء من لفظه » .

خضراء الدمن :

عن أبي سعيد الخدرى ، عن النبي ﷺ قال : « إياكم وخضراء الدمن . قيل : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في منبت السوء » (٣).

المعنى « أن الريح تجمع الدمن وهى البعر فى المكان من الأرض ثم يجرى المطر فينبت فى ذلك المكان نباتاً ناعماً غضاً فيروق الإبل فتأكله فتمرض . والمعنى : لا تنكحوا المرأة لجملها وهى خبيثة الأصل .

● عن مرداس الأسلمى : قال رسول الله ﷺ : « يذهب الصالحون أسلافاً الأول فالأول ، حتى لا يبقى إلا حثالة التمر والشعير ، لا يبالى الله بهم » .
الحثالة من كل شيء : رذالته .

● عن أبي هريرة : قال رسول الله ﷺ : « إذا تقارب الزمان انتقى الموت خيار أمتى كما ينتقى أحدكم خيار الرطب من الطبق » .

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرک ، ولفظه : « الجنة تحت ظلال السيوف » جامع الأحاديث ، رقم ١١١٢٣ .

(٢) الترمذى ، والحاكم (جامع الأحاديث رقم ٢٠٥٩١) .

(٣) الدار قطنى فى الأفراد ، والدبلى ، والبراهمرمى فى الأمثال (جامع الأحاديث رقم ٩٤٨٤) .

في السماء ، يُهْتَدَى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أَوْشَكَ أَنْ يَضِلَّ الهُدَى .

● عن أبي أمامة عن النبي ﷺ أن لقمان قال لابنه : « يا بُنَيَّ عليك بمجالسة العلماء ، واستماع الحكماء ، فإنَّ الله - عزَّ وجلَّ - يُخَيِّ القلوب بنور الحكمة كما يُخَيِّ الأرض بوابل المطر » .

حديث السفينة موجود في ص ١٠٣ . (كتاب أمثال الحديث) .

● عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : « مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ الْعِطَّارِ إِنْ لَمْ يُصْبَنْكَ مِنْ عِطْرِهِ أَصْبَتْ مِنْ رِيحِهِ ، وَمَثَلُ الْجَلِيسِ السَّوِّ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْكَبِيرِ إِنْ لَمْ يُصْبَنْكَ مِنْ شَرَّارِهِ أَصَابَكَ مِنْ رِيحِهِ » .

● قال أسامة بن زيد : سمعت رسول الله ﷺ وذكر الجنة فقال : « أَلَا تُشَمِّرُهَا ؟ هِيَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ رِيحَانَةٌ تَهْتَرُ ، وَنُورٌ يَتَلَأَلُ ، وَنَهْرٌ يَطْرِدُ ، وَزَوْجَةٌ لَا تَمُوتُ ، فِي حُبُورٍ وَنَعِيمٍ وَمُقَامٍ أَبَدًا » .

أبو سعيد قال : سمعت أبا هريرة - رضى الله عنه - يقول : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ الصَّرَاطُ بَيْنَ أَظْهَرِ جَهَنَّمَ ، دَحْضُ مَزَلَّةٍ ، وَالْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِ يَقُولُونَ : رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ ، وَالنَّاسُ عَلَيْهِ كَالْبَرْقِ ، وَكَطَرَفَةِ الْعَيْنِ ، وَكَأَجْوَادِ الْخَيْلِ وَالرَّكَابِ وَشَدًّا عَلَى الْأَقْدَامِ ، فَنَاجٍ مَسْلَمٌ ، وَمَخْدُوشٌ مَرْسَلٌ ، وَمَطْرُوحٌ فِيهَا ، وَلَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ » .

● جاء الحسن والحسين - عليهما السلام - يستبقان إلى رسول الله ﷺ فضمهما إليه وقال : « الْوَلَدُ حَبِيبَةٌ مَبْخَلَةٌ » .

المعنى أن حب الولد يمنع من بذل المال للإبقاء عليهم ، وعن لقاء العدو إشفاقاً من الضيعة لهم .

قال الرسول ﷺ يوم بدر : « أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ مَكَّةُ أَفْلَادَ كَبِدِهَا » .

يريد : أشرافها وأعز أبنائها ، وهذا القول من أبلغ الاستعارات وأعمقها معنى ، وأدقها تصويرا ، فهو كلام سيد البلغاء الأئمة .

● عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « أَكْثَرُوا مِنْ قَوْلِ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، فَإِنَّهُمْ مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ ، وَهُمْ يَخْطُطُونَ الْخَطَايَا كَمَا تَخْطُطُ الشَّجَرَةُ وَرَقُهَا ، وَهُمْ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ » .
وجعل ابن خلاد هذا الحديث في باب التشبيه .

● « الْغَنَمُ بَرَكَهٌ ، وَالْإِبِلُ عِزٌّ لِأَهْلِهَا ، وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

نهى رسول الله ﷺ عن جزأذئاب الخيل وأعرافها ونواصيها . وقال : « أَمَّا أَعْرَافُهَا فَإِنَّهَا أَدْفَاؤُهَا ، وَأَمَّا أَذْنَابُهَا فَإِنَّهَا مَذَابِهَا ، وَأَمَّا نَوَاصِيهَا فَإِنَّ الْخَيْرَ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا » .

(٣)

نماذج من الأمثال النبوية السائرة

مختارة من « جمهرة الأمثال »

لأبي هلال العسكري :

● « إِذَا أَنَاكُمْ كَرِيمٌ قَوْمٌ فَأَكْرَمُوهُ » .

● الْحَسْبُ الْمَالُ ، وَالكَرْمُ التَّقْوَى » .

● « إِذَا تَزَوَّجْتَ الْمَرْأَةَ لِدِينِهَا وَجَمَالِهَا كَانَ فِيهَا سِدَادٌ مِنْ عَوَظٍ » أَيْ : إِذَا تَزَوَّجْتَهَا لِيَسْتَعْفَ بِهَا أَعَانَهُ اللَّهُ وَكَانَ فِيهَا سِدَادٌ مِنْ عَوَظِ الْمَالِ وَعِفَّةِ السُّلُوكِ .

● « الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اتَّخَلَفَ وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » أَخَذَ الْمَعْنَى أَبُو نَوَاسٍ فَقَالَ :

إِنَّ الْقُلُوبَ لِجُنَادٍ مُجَنَّدَةٍ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ بِالْأَهْوَاءِ تَاتَلَفُ
فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا فَهُوَ مُعْتَرِفٌ وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا فَهُوَ مُخْتَلَفٌ

● « استعيذوا بالله من الرُّغْبِ »

والرُّغْب : هو كثرة الأكل ، وكانت العرب تمدح بقلة الأكل ، وفي ذلك يقول
أعشى باهلة :

تَكْفِيهِ حُرَّةٌ فَلَيْدٌ إِنْ أَلَمَّ بِهَا مِنْ الشُّوَاءِ وَيُرْوَى شُرْبُهُ الْعَمَرُ
والعَمَر : هو القدح الصغير .

وفي هذا الموضوع يقول الرسول أيضا : « إن الرُّغْب من الشُّوم » .

● « استعينوا على كل صناعة بأهلها » .

وفي ذلك يقول الشاعر :

با باري القوس برياً لست تُحْكِمُهُ

لا تظلم القوس أعط القوس باريها

● « أَفْرَحَ رَوْعُكَ » .

أى : زال ما كنت تخاف منه ، والروع : الفزع .

والمثل جزء من حديث قاله الرسول ﷺ لعروة بن مضرّس ، فقد قال عروة : انتهيت
إلى النبي ﷺ وهو بجمع قبل أن يصلّى الغداة ، فقلت يا نبي الله : قد طويت الجبلين ،
ولقيت شدة ، فقال ﷺ : « أَفْرَحَ رَوْعُكَ » ، من أدرك إفاضتنا هذه فقد أدرك « يعنى
الحج . وأصل المثل من الناحية اللغوية : خروج الفرح من البيضة ، وانكشاف الغم
عنه . وأما قول الرسول ﷺ لعروة بن مضرّس فمعناه : زال ما كنت ترتاع له وتخاف ،
وهو فوات الحج .

● « ألا إن هذا الدِّينَ متين ، فأوْغِلْ فيه برفق ، فإنَّ المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً
أبقى » وفي رواية « إن هذا الدين . . . »

والحديث يشكّل مثلين بليغين ، فصدره يشكّل مثلاً مستقلاً وعجزه يشكّل مثلاً
آخر مشهوراً .

والرسول ﷺ ينهى في هذا الحديث عن الإفراط ؛ لأن الإفراط مذموم في كل شيء ، فمن أفرط في المدح نُسب إلى الملق ، ومن أفرط في الشجاعة كان متهوراً ، ومن أفرط في البذل كان سفيهاً ، ومن أفرط في القصد كان بخيلاً ، وهكذا . .

والإيغال : شدة السير ، وهو في الحديث بمعنى الوغول ، وهو الدخول . ومثل هذا الحديث قوله ﷺ : « مَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ غَلِبَهُ » .

● « مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ » .

والحديث الشريف هنا يشكل مثلاً لمن يسرف في الكلام شأن من يسرف في السير ، ومن يسرف في شعائر الدين في القول الشريف : « أَلَا إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتْنٌ . . الحديث » .

والمثل هنا جزء من الحديث الشريف : « مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ ، وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ كَثُرَ كَذِبُهُ ، وَمَنْ كَثُرَ كَذِبُهُ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ ، وَمَنْ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ فَالنَّارُ أَوَّلَى بِهِ » .

● « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » .

كان هذا القول الشريف تعليقاً من الرسول ﷺ على فصاحة عمرو بن الأهتم حين تحاور مع الزبرقان في حضرة النبي ﷺ .

فقد قال رسول الله ﷺ لعمرو بن الأهتم : أخبرنا عن الزبرقان . فقال : إنه مطاع في أدنيه (وفي رواية : أدانيه . وفي رواية : أنديته) شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره .

فقال الزبرقان : يا رسول الله ، إنه ليعلم مني أكثر من ذلك ، ولكن حسدني .

فقال عمرو : والله يا رسول الله إنه لَزَمِرُ المروءة (*) ضَيْقُ العَطَنِ ، حديث الغنى ، أحق الوالد ، لثيم الخال ، وما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الأخرى ، رضيت فقلت بأحسن ما علمت ، وسخطت فقلت بأسوأ ما علمت . فقال النبي ﷺ : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » .

(*) زمر المروءة يعني قليلها . . والعطن : مناخ الإبل حول الماء ، وهو كناية عن البخل .

ولقد ذهب بعض الشراح إلى أن قول الرسول ﷺ يعتبر ذما للبيان ؛ لأنه شبهه بالسحر ، لأن السحر تمويه ، والصواب أنه مدحه لأنه عجب منه كما يعجب من السحر ، وإن البليغ يبلغ ببيانه ما يبلغ الساحر ببراعة حيلته ولطافة تصرفه ، وما كان للرسول أن يذم البيان وهو أبين الأبيناء في البشرية ، هذا ، وإن الحديث قد روى بصورة تمجد البيان والشعر في قوله ﷺ : « إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكماً »(*) وإن من العلم جهلاً (**).

● « إنما الناس كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ ، وإنما يتفاضلون بالعافية » ومعنى العافية : الرحمة ، ولا فضل لأحد على أحد في أحكام الدين .

● « البلاءُ مُوَكَّلٌ بالمنطق » .

وللرسول حديث آخر : « البلاءُ مُوَكَّلٌ بالقول » .

● « التائبُ من الذنبِ كمن لا ذنبَ له ، والمستغفرُ من الذنبِ وهو مقيمٌ عليه كالمستهزىء بربه » .

● « الحربُ خُدعةٌ » بضم الخاء أو فتحها في (خدعة) .

وقد قال بعض الحكماء : نفاذ الرأي في الحرب أنفع من الطعن والضرب .

● « حَوْلَهَا نَدْنَدُنْ » .

قال أعرابي لرسول الله ﷺ : « لا أعرف ما دندنتك ودندنة معاذ ؟ أنا أريد الجنة » فقال له الرسول : « حولها ندندن » يعنى إياها نطلب بهذه الدندنة .

● « رُزُ غِبًّا تَرُدُّ حُبًّا » .

وقد أخذ المعنى بعض الشعراء فقال :

(*) الحكم والحكمة بمعنى واحد .

(**) يعنى : تكلف العالم القول فيما يجهله .

وقد قال النبي وكان برًّا

إذا زُرْتَ الحبيبَ فزُرْهُ غيبًا

والغيبُ : أن تزور يوما وتَدَعِ الزيارة يوما . وغِبُّ الشئَ وَمَعْبُتُهُ : عاقبته ، وغِبُّ المطر : أول أوقات انقطاعه . ويقول أبو عبيد : المراد الإبطاء في الزيارة ولم يرد يوما ويوما ، ومن ثم تكون الزيارة على غير مواظبة . (المثل رقم ١٣٠٦) .

● « العبدُ حُرٌّ إذا قَنَعَ ، والحُرُّ عبدٌ إذا طَمِعَ » .

● « لا حليمٌ إلا ذو أناة ، ولا عليمٌ إلا ذو عشرة ، ولا حكيمٌ إلا ذو تجربة » .

● « لا يجنى عليك ولا تجنى عليه » .

يعنى أن الرجل إذا قتل رجلا خطأ لم يؤخذ بالدية ولا ابنه ولا بنو أعمامه .

● « لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا » . من قولهم : أعذَرَ الرجل : إذا كثرت ذنوبه ، وقيل : حتى يُعْذِرُوا من يعذبهم ، أى : يقيموا له عذرا .

● « لَيْتَ الْوَاحِدِ ظُلُمٌ » .

الليّ والليان : المطل . من لواه يلويه ليًّا وليانًا . الواحد : الغنى ، والوجدُ : الغنى .

● « مَا وَقَى الرَّجُلُ بِهِ عِرْضَهُ كُتِبَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ »

وبقية الحديث : « وما أنفق المؤمن نفقةً فعلى الله خَلْفُهَا ، إلا ما كان من نَفَقَةٍ فِي بُنْيَانٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى » .

قيل لابن المنكدر : ما معنى (وقى الرجل به عرضه) ؟ قال : أنه يعطى الشاعر ذا اللسان .

● « نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَوَرِ بَعْدَ الْكَوْرِ » .

يعنى النقصان بعد الزيادة أو الانتقاض بعد الاستواء . الحور - بسكون الواو - : من

حار الشيء : إذا نَقَصَ ، وإذا رجع . والكؤُر - بسكون الواو أيضا - : من كار
العمامة : إذا سواها على رأسه فمارت .

أما الحُور - بضم الحاء - : فهو الهلاك .

● « هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ » .

أى : يحبنا أهله ونحبهم ، وهم الأنصار ، والجبل : هو جبل أحد ؛ لأنه أكبر
معلم في المدينة قبل هجرته ﷺ إليها .

● « هَذَا سَيِّدُ أَهْلِ الْوَبَرِ » .

وجه الرسول هذه التحية لقيس بن عاصم .

● « اِسْتَدَى أَرْزَمَةٌ تَنْفَرِجِي » .

والأزمة : الضيق والشدة . وفي ذلك يقول الشاعر :

لَا تَيَاسَنَّ مِنْ انْفِرَاجٍ شَدِيدَةٍ

قَدْ تَنْجَلِي الْغَمَرَاتُ وَهِيَ شَدَائِدُ

● « اعقلها وتوكل » .

يضرب للأخذ بالثقة والاحتياط في الأمور ، قال رجل للرسول ﷺ : ألا أرسل ناقتي
وأَتوكل ؟ قال : « لا ، بل اعقلها وتوكل » وهو في الأمثال لأبى عبيد - المثل رقم ٦٤٤ .

● « كُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا » .

هذا مثل قديم ، تمثل به رسول الله ﷺ فقد أُخْرِ أبو سفيان في الإذن له بالدخول إلى
رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كدت تأذن لحجارة الجُلُهمَتَيْنِ قبلي ، فقال رسول
الله ﷺ : « إنك وذلك يا أبا سفيان كما قال القائل : كل الصيد في جوف الفرا » .

وأما قصة المثل وأصله أن قوما خرجوا للصيد ، فصاد أحدهم ظبيا ، وآخر أرنباً ،
وآخر فرأ وهو الحمار الوحشى فقال لأصحابه : « كل الصيد في جوف الفرا » أى : جميع

ما صدقوه يسير في جنب ما صدته . فتمثل رسول الله به ترضية لأبي سفيان الذي كان تصور أنه أهمل شأنه في الدخول على الرسول فتأخر الإذن له بالمثل . وكلمة (الْجُلْهُمَتَيْنِ) لم تسمع قبل ذلك ، واللفظ المألوف هو (جَلْهُةُ الوادى) يعنى وسطه .

● « لا يُلْسَعُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ » .

قاله الرسول لرجل اسمه أبو عزة - وكان شاعرا مجيدا ومُلقًا ذا عيال - أسر يوم بدر كافرا ، فقال : يا رسول الله إني ذو عيال وحاجة فامنن عليّ ، فقال له الرسول : على ألا تعين عليّ - يعنى بشعره - فعاهده ، فأطلقه ، ومدح الرسول بشعر جميل قائلا :

أَلَا أُبْلِغَا عَنْكَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا فَإِنَّكَ حَقٌّ وَالْمَلِكُ حَمِيدٌ
وَأَنْتَ أَمْرٌ تَدْعُو إِلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ شَهِيدٌ
وَأَنْتَ أَمْرٌ بُوِّئْتَ فِينَا مَبَاءَةٌ لَهَا دَرَجَاتٌ سَهْلَةٌ وَصَعُودٌ
وَأَنْتَ مَنْ حَارَبْتَهُ لَمْ حَارِبْ شَقِيٌّ وَمَنْ سَأَلْتَهُ لَسَعِيدٌ
وَلَكِنْ إِذَا ذُكِّرْتُ بِدِرٍّ وَأَهْلَهَا تَأَوَّبَ مِنِّي حَسْرَةً وَتَعُودُ

فلما كان يوم أحد دعاه صفوان بن أمية بن خلف إلى الخروج على المسلمين فتمنع أول الأمر ، ثم لم يلبث أن استجاب لدعوة زعيم الكفار وسار في بنى كنانة فحرضهم قائلا :

أَيَا بَنِي عَبْدِ مَنْصَفِ الرَّزَاءِ أَنْتُمْ حِمَاةٌ وَأَبُوكُمْ حَامٍ
لَا تَعِدُونِي نَصْرَكُمْ بَعْدَ الْعَامِ لَا تُسْلِمُونِي لَا يَحِلُّ إِسْلَامُ

فأسر يوم أحد فقال : يا رسول الله مَنْ عَلِيٌّ ، فقال النبي ﷺ : « لا يُلْسَعُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ ، لَا تَمْسُحُ عَارِضِيكَ بِمَكَّةَ وَتَقُولُ : خَدَعْتُ مُحَمَّدًا مَرَّتَيْنِ » .

● « لا ينتطح فيها عزان » .

كانت عصماء بنت مروان من بنى أمية بن زيد تحرض على المسلمين وتؤذيهم وتقول الشعر ، فجعل عمير بن عدى عليه نذرا لله لئن عاد رسول الله من « بدر » سالما

ليقتلنها ، فعدا في جوف الليل فقتلها ثم لحق بالنبى فصلى معه الصبح ، وكان النبى ﷺ يتفحص أصحابه إذا قام يدخل منزله . فقال لعمير : أقتلت عصماء ؟ قال : نعم . ثم قال : يا نبى الله هل على في قتلها شيء ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا ينتطح فيها عنزان » فأول ما سمعت هذه العبارة سمعت من رسول الله .

● « مَنْ نُوقِشَ فِي الْحِسَابِ عُذِّبَ »

النقش : الاستقصاء ، ومعنى الحديث : من استقصى عليه في الحساب عذب .



أسلوب القرآن وأسلوب النبی

الفصل الأول : التسليم الفطري بأن القرآن كلام الله .

الفصل الثاني : القرآن معجزة محمد ﷺ .

الفصل الثالث : نماذج تلقائية من آيات الكتاب العزيز وأخرى من

حديث رسول الله .

الفصل الرابع : تناول القرآني والتناول النبوي في قضية بذاتها .



الفصل الأول

التسليم الفطري
بأن القرآن كلام الله

التسليم الفطري بأن القرآن كلام الله

تمهيد :

كل ذى فطرة سليمة وفكر مستقيم وسليقة سوية وخبرة بالأساليب البلاغية وضروب الفصاحة والبيان لا يستطيع إلا أن يسلم بأن القرآن ليس من كلام محمد ﷺ لأنه أبلغ من كلام البشر ، ومحمد ﷺ مع كونه نبيا رسولا فهو من البشر ، ومن ثم فإنه لا يتأتى له أن يأتى بهذا الكلام . ومادام محمد لن يستطيع أن يأتى بهذا الكلام فإن مقتضى ذلك عند ذوى البصيرة النيرة ، والرأى الصائب والحكم المحايد أن يكون هذا الكلام - القرآن الكريم - منزلا على محمد من عند رب محمد : الله خالق كل شئ .

إن الله - سبحانه وتعالى - وقد أنزل القرآن على محمد ، واقتضى علمه - عز وجل - أن المكابرين من قريش - أول من سمعوا القرآن لأتهم عشيرة الرسول الأقربون - سوف ينكرون أنه كلام الله الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقد نزل من الآيات ما يؤيد أنه كلامه - عز وجل - وذلك بضروب متعددة من التحدى : أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله . يقول - عز وجل - :

﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١).

ويقول - عز وجل - :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ ۖ أَوْ سَاهِيَةٌ أَهْلًا ۖ وَبِئْسَ مَا تَحْكُمُ ۚ ﴾

(١) الإسراء . الآية : ٨٨ .

أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ كِتَابٌ مَعَهُ، مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ *
 أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ، مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطْعَمُهُ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَنزَلَ بِعِلْمٍ
 اللَّهُ وَأَنَّ لِلَّهِ الْإِلَهَ الْأَوْفُفَّهُ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾

ويقول - عز وجل - تأكيداً على تنزيه القرآن الكريم من شبهة الباطل ، وأنه تنزيل
 من لدنه - عز وجل - :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكُنْبٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ
 بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٢).

وفى ثبات مصداقية القرآن وعظمة قدره وجليل خطره يقول الله - عز وجل - :
 ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ لِلَّهِ
 الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ (٣).

الله - سبحانه - يعلم المكابرين والمستكبرين والضالين والمضلين والمشركين
 والمنكرين ، وحتى لا يكون لهم حجة على الله فقد أنزل الآيات التي لا عذر لهم بعد
 سماعها في أن القرآن كلامه ، وأن الفرقان كتابه .

التسليم الفطري بأن القرآن كلام الله :

لقد كان عتاة قريش وصناديدها يضيّقون ذرعاً بدعوة رسول الله إياهم إلى ترك
 الشرك ، وعبادة الله الواحد الأحد ، وتمنوا لو استطاعوا أن يقنعوا محمداً بالعدول عن
 دعوة الإسلام وتركه إياهم يعبدون الأوثان ، وبذلوا في ذلك مختلف الجهود والوعود ،
 ولكن ما أن ينفرد رسول الله بواحد منهم ويتلو عليه آية من القرآن الكريم حتى ترتعد
 فرائصه لسماعه ، أو تطيب نفسه ارتياحاً إليه .

(١) هود ، الآيات : ١٢ - ١٤ .

(٢) فصلت ، الآيات : ٤١ ، ٤٢ .

(٣) الرعد ، الآية : ٣١ .

عتبة بن ربيعة ساعة سماعه القرآن :

من الذين ارتعدت فرائصهم لسماع القرآن وسلموا بأنه ليس من كلام محمد ، عتبة ابن ربيعة حينما ناب عن أعيان قريش في التحدث إلى رسول الله في شأن العودة عن دعوته إلى الله ، وتفصيل ذلك : أن قريشاً اجتمعوا في الحطيم ، فخطبهم عتبة بن ربيعة ، فقال : إن هذا ابن عبد المطلب قد نغص علينا عيشنا ، وفرق جماعتنا وبدد شملنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، وكان في القوم الوليد بن المغيرة وأبو جهل ابن هشام ، وشيبة بن ربيعة ، والنضر بن الحرث ، ومنبه ونيبه ابنا الحجاج ، وأممية وأبى ابنا خلف . في جماعة من صنديد قريش ، فقال له : قل ما شئت فإننا نطيعك ، قال : سأقوم فأكلمه ، فإن هو رجع عن كلامه وعمّا يدعو إليه وإلا رأينا فيه رأينا ، فقالوا له : شأنك يا أبا عبد شمس .

فقام فتقدم إلى النبي ﷺ وهو جالس وحده فقال : أنعم صباحاً^(١) يا محمد .

قال : يا أبا عبد شمس إن الله قد أبدلنا بهذا السلام تحية أهل الجنة .

قال : يا ابن أخي ، إنى جئتك من عند صنديد^(٢) قريش ، لأعرض عليك أمورهم ، إن أنت قبلتها فلك الحظ فيها ، ولنا فيها الفسحة ، ثم قال : يا ابن عبد المطلب إنك دعوت العرب إلى أمر ما يعرفونه ، فاقبل منى ما أقوله لك ، قال : قل ، قال : إن كان ما تدعو إليه تطلب به مُلكاً فإننا نملكك علينا من غير تعب ونتوجك ، فارجع عن ذلك ، فسكت ، ثم قال له : وإن كان ما تدعو إليه أمراً تريد به امرأة حسناء فنحن نزوجك .

فقال : لا قوة إلا بالله . ثم قال له : وإن كان ما تتكلم به تريد مالاً أعطيناك من الأموال حتى تكون أغنى رجل في قريش ، فإن ذلك أهون علينا من تشتت كلمتنا وتفريق جماعتنا ، وإن كان ما تدعو إليه جنوناً داويناك كما تداوى قيس بنى ثعلبة مجنونهم .

(١) أنعم صباحاً : تحية كانت كثيرة الاستعمال في الجاهلية .

(٢) صنديد : جمع صنديد وهو السيد الشجاع .

فسكت النبي ﷺ فقال : يا محمد ما تقول ؟ وبم أرجع إلى قريش ؟
 فقال النبي ﷺ : ﴿ حَمَّ * نَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ
 آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا الْقَوْمُ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ
 لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (١)، حتى بلغ إلى قوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ
 صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (٢).

قال عتبة : فلما تكلم بهذا الكلام فكأن الكعبة مالت حتى خفت أن تمس رأسى من
 إعجازها . وقام فزعاً يجر رداءه . فرجع إلى قريش وهو ينتفض انتفاض العصفور ،
 وقام النبي ﷺ يصلى ، فقالت قريش : لقد ذهب من عندنا شيطاناً ، ورجعت فزعاً
 مرعوباً ، فما وراءك ؟ !

قال : ويحكم دعونى ، إنه كلمنى بكلام لا أدرى منه شيئاً ، ولقد رعدت على
 الرعدة حتى خفت على نفسى ، وقلت : الصاعقة (*) قد أخذتنى ، فقدموا عنى
 ذلك (٣).

الوليد بن المغيرة يقول إن القرآن ليس كلام بشر :

ومن فصحاء قريش الذين كابروا ورفضوا الإيمان بالرسالة المحمدية واتخذوا منها
 ومن الرسول مواقف عدائية متشددة الوليد بن المغيرة المخزومى ، وكان سيد عشيرته ،
 وأفصح قومه ، وأخطبهم ، جاء الوليد إلى أصحاب رسول الله ﷺ وهو على كفره .
 فقال : اقرأوا على شيئاً من القرآن ، فقرأوا عليه . فقال : ليس هذا من كلام البشر ،
 وليس بشعر ، فمضى إليه أبو لهب قال : أفسدت قريشاً بهذا القول فارجع عنه ، فقال
 أقول : إنه سحر (٤).

(١) سورة فصلت ، الآيات : ١ : ٤ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ١٣ .

(*) الصاعقة : صوت الرعد الشديد الذى يصعق منه الإنسان ، أى يغشى عليه ، وهى اسم العذاب .

(٣) الخبر فى أعلام النبوة للهاوردى ص ١٠٥ - ١٠٧ .

(٤) أعلام النبوة ، ص ٨٠ .

لقد أوشك الوليد أن يسلم ؛ لأنه سلم بأن القرآن ليس من كلام البشر ، كما أنه ليس بسحر ، فلم يبق أمامه إلا أن يعلن إسلامه لولا أن أبا لهب هدهد وحمل عليه ، فعاد عن قوله ورجع فيه .

ولقد رويت هذه القصة بشكل أكثر تفصيلا ، فقد جاء الوليد بن المغيرة إلى الرسول ﷺ وقال له : اتل عليّ يا محمد ما أنزل إليك ، فأسرع الرسول ﷺ إلى ذلك طمعا في الانقياد ، فقرأ ﴿ حَمْدٌ * نَزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كَذَّبَ فَصَلَّتْ ءَايَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا نُنَافِئُ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي ءَاذَانِنَا وَقُرْءَانٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَٰنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِّنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِينَ * ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿

ومضى رسول الله ﷺ في التلاوة حتى وصل إلى قوله - عز وجل - .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾
 * فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿١﴾.

وما أن انتهى رسول الله ﷺ من التلاوة حتى قال الوليد بن المغيرة وكان من أفصح العرب : إن أعلاه لمورق وإنه أسفله لمعذق ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة (٢) وليس هذا من كلام البشر .

هذان مثالان لاثنتين من عتاة قريش ومشركيها هما عتبة بن ربيعة - وقد لقي مصرعه في غزوة بدر - والوليد بن المغيرة يسلمان بأن القرآن ليس من كلام محمد ، وأنه أعظم من أن يكون كلامه ، إنيهما لم يؤمنا بالقرآن كتاباً من عند الله استعلاء واستكباراً وتعتناً وتعصباً.

الطفيل بن عمرو الدوسي يستمع إلى القرآن فيؤمن على الفور :

وأما من جاء إلى رسول الله بغير قصد سبق ، أو نية سلفت فإنه لا يكاد يسمع بعض الآيات المنزلة حتى يوقن بأن ما سمعه هو كلام الله وليس بكلام بشر ، ومن ثم يسارع إلى الإسلام وإعلان الشهادتين ، إن هذا هو ما حدث مع الطفيل بن عمرو الدوسي الذي يحدث بنفسه أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها ، فمشى إليه رجال من قريش ، وكان الطفيل رجلاً شريفاً . . . شاعراً لبيباً ، فقالوا له : يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعْضَل بنا وفرَّق جماعتنا وشتَّت أمرنا . وإنيما قوله كالسحر يفرِّق بين المرء وأبيه وبين الرجل وأخيه وبين الرجل وزوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمع منه .

(١) سورة فصلت حتى الآية ٣٨ .

(٢) كتاب (الطراز) للإمام يحيى بن حمزة العلوي اليمني ٢١٨ / ٣ .

قال : فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه وحتى حشوت فى أذنى حين غدوت إلى المسجد كُرُشفاً فرقاً من أن يبلغنى شىء من قوله .

فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة ، فقمْتُ قريباً منه ، فأبى الله تعالى إلا أن يُسمعنى بعضُ قوله ، فسمعتُ كلاماً حسناً ، فقلت فى نفسى : إني لرجل لبيبٌ شاعرٌ ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذى يأتى به حسناً قبلتُ وإن كان قبيحاً تركتُ ؟ فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ فتبعته فقلت : إن قومك قد قالوا كذا وكذا ، وإني شاعر فاسمع ما أقول .

فقال النبى ﷺ : هات . فأنشدته . فقال رسول الله ﷺ : وأنا أقول فاسمع ثم قرأ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ إلى آخرها ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ إلى آخرها ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ إلى آخرها ، وعرض على الإسلام ، ووالله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعذل منه فأسلمتُ وقلت : يا نبى الله إني امرؤ مُطاع فى قومي ، وإني راجع إليهم فدايعهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عوناً عليهم ، فقال : اللهم اجعل له آية .

فخرجت إلى قومي فى ليلة مطيرة ظلماء حتى إذا كنت بشية تُطلعنى على الحاضر وقع نور بين عيني مثل المصباح . فقلت : اللهم فى غير وجهى إني أخشى أن يظنوا أنها مُثلة وقعت فى وجهى ، فتحول فوق فى رأس سوطى كالقنديل المعلق ، وأنا أهبط عليهم من الثنية حتى جثتهم ، فلما نزلت أتانى أبى فقلت : إليك عنى يا أبت فلست منى ولست منك . فقال : لم يا بنى ؟ فقلت : قد أسلمتُ وتابعت دين محمد . قال : أى بُنى فدينى دينك ^(١) فقلت : فاغتسل وطهر ثيابك ، ففعل ثم جاء ، فعرضتُ عليه الإسلام فأسلم . ثم أتتنى صاحبتى فقلت : إليك عنى فلست منك ولست منى . قالت : ولم بأبى أنت وأمى ؟ قلت : فرق بينى وبينك الإسلام وتابعت دين محمد ، قالت : فدينى دينك . فقلت : اذهبى فطهري ففعلت ، فعرضتُ عليها

(١) يعنى : إني أعتنق الدين الذى ارتضيته لنفسك .

الإسلام فأسلمت ، ولم تُسلم أُمى . ثم دعوت « دَوْسَا » فأبطأوا علىَّ ، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت : يا نبي الله إنه قد غلبني على دَوْس الزنا ، فادع الله عليهم ، فقال : « اللهم اهْدِ دَوْسًا وَاثت بهم . ارجع إلى قومك وارْقُ بهم » .

فرجعت فلم أزل بأرض قومي أدعوهم حتى هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، ومضى « بَذْر » و « أَحَدٌ » و « الخندق » فقدِمْتُ على رسول الله ﷺ بمن أسلم ورسول الله ﷺ بخير ، حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتا من « دَوْس » ، ثم لحقنا رسول الله ﷺ بخير فأشهم لنا مع المسلمين .
وقال الطُّفَيْل لما أسلم :
ألا بلغ لديك بنى لؤى

ألا بلغ لديك بنى لؤى	على الشَّان والغضب المُرْدَى
بأن الله ربَّ الناس فَرُدَّ	تعالى جَدُّه عن كل نِدَّ
وأن محمداً عَبْد رسول	دليل هُدَى ومُوضِح كل رُشد
رأيت له دلائل أنبأتنى	بأن سَبِيلَه يهْدِي لِقَصْدٍ (١)

أعرابي يسجد عند سماعه جملة قرآنية :

إن حادثاً آخر جليل الشأن قد حدث عندما سمع أعرابي جملة من القرآن الكريم عن طريق المصادفة بدون أن يعلم أنها كلام الله ، فقد حكى أبو عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ ﴿ فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ (٢) فخرَّ ساجدا وقال : سجدت لفصاحة هذا الكلام (٣).

إن فطرة هذا الأعرابي السليمة جعلته يتقبل هذا الكلام بالإجلال ، فقد وقر في

(١) سبل الهدى والرشاد ٢ / ٥٤٨ ، ٥٤٩ .

(٢) سورة الحجر ، الآية : ٩٤ وتماها ﴿ فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرَضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

(٣) أعلام النبوة ص : ٧٩ .

خاطره حين سماعه أنه ليس بقول بشر ، ولا بد أن يكون كلاما ذا شأن خطير ومصدر جليل ، فلم يملك نفسه وأطلقها على سجيتها ، فكان أن سارع إلى السجود احتفالا بتفرد هذا الكلام بالفصاحة والجلال .

والمسألة عندنا تتجاوز الفطرة البلاغية العربية إلى الفطنة الإنسانية والنظرة الحيادية ، فقد سمعت الأستاذ ألان جونس Prof : Alan gones الأستاذ بجامعة أكسفورد الإنجليزية قبل سنوات يقول لى : « إننى صرت على يقين بعد أن عرضت القرآن الكريم على الكمبيوتر أنه ليس من كلام محمد » ، وحين سمعت منه ذلك قلت فى نفسى : لقد قطع الرجل - وهو قس مسيحى - نصف الطريق ، وآمل أن يقطع نصفه الآخر .

والأمر ليس منتهيا عند الأستاذ جونس وحده ، ذلك أنه مسبوق فى هذا الشأن بالأستاذ المستشرق المرموق « آربرى » Arburry الذى كان يعتقد ويعلن أن القرآن ليس من كلام محمد ، وقيل : إنه كان يُسرُّ الإسلام عقيدة يؤمن بها .



الفصل الثاني

القرآن معجزة محمد ﷺ

القرآن معجزة محمد ﷺ

إن معجزة محمد الكبرى هي القرآن الذي أنزله الله عليه ، بمعنى أنه كلام الله وليس كلام محمد ، إنه معجزته الأولى ، يقول الإمام أبو الحسن الماوردي فيما تضمنه القرآن من أنواع إعجازه :

القرآن أول معجز دعا به محمد ﷺ إلى نبوته ، فصعد فيه برسالته ، وخص بإعجازه من جميع رسله ، وإن كان كلاماً ملفوظاً وقولاً محفوظاً لثلاثة أسباب ، صار بها من أخص إعجازه وأظهر آياته :

أحدها : أن معجز كل رسول موافق للأغلب من أحوال عصره ، والشائع المنتشر في ناس دهره ؛ لأن موسى - عليه السلام - حين بعث في عصر السحرة خص من فلق البحر ييساً ، وقلب العصا حية ما بهر كل ساحر ، وأذل كل كافر ، وبعث عيسى - عليه السلام - في عصر الطب ، فخص من إبراء الزمنى^(١) وإحياء الموتى بما أدهش كل طبيب ، وأذهل كل لبيب .

ولما بعث محمد ﷺ في عصر الفصاحة والبلاغة خص بالقرآن في إيجازه وإعجازه بما عجز عنه الفصحاء ، وأذن له البلغاء ، وتبلد فيه الشعراء ؛ ليكون العجز عنه أقهر ، والتقصير فيه أظهر . فصارت معجزاتهم - وإن اختلفت - متشاكلة المعاني ، متفقة العلل .

والثاني : أن المعجز في كل قوم بحسب أفهامهم ، وعلى قدر عقولهم وأذهانهم ، وكان في بنى إسرائيل من قوم موسى وعيسى بلادة وغباوة ؛ لأنه لم ينقل عنهم ما يُدَوَّنُ

(١) الزمنى - على وزن المرضى - : هم أصحاب العاهات .

من كلام مستحسن ، أو استفاد من معنى مبتكر . وقالوا لنبههم حين مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، فظنوا أن الإعجاز بها يصلون إليه ببداية حواسهم .

والعرب أصبح الناس أفهاماً ، وأحدهم أذهاناً ؛ قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها ، ومن المعاني أغربها ، ومن الآداب أحسنها ، فحُصِّوا من معجز القرآن بما تجول فيه أفهامهم ، وتصل إليه أذهانهم ، فيدركوه بالفطنة دون البديهة ، وبالروية دون البادرة ؛ لتكون كل أمة مخصوصة بما يشاكل طبعها ، ويوافق فهمها .

والثالث : أن معجز القرآن أبقي على الأعصار ، وأُنشر في الأقطار من معجز يختص بحاضره ، ويندرس بانقراض عصره ، وما دام إعجازه فهو أحج وبالاختصاص أحق (١) .

وجوه الإعجاز كما يراها الماوردي :

إن أبا الحسن الماوردي يذكر عشرين وجهاً لوجوه إعجاز القرآن الكريم ، حيث يستحيل أن يحىء هذا الإعجاز بوجوه العشرين على لسان مخلوق ، ولو كان هذا المخلوق هو محمداً أحب خلق الله إلى الله .

إن الوجوه العشرين التي أثبتها الماوردي لإعجاز القرآن تبدأ بعنصر الفصاحة والبيان ، وتنتهى بما أسماه المعتزلة « الصرفة » ونحن نتفق مع الإمام الكبير في الوجوه التسعة عشر ، ولا نوافق على الصرفة ؛ لأن الكلام المنزل من لدن الخالق الأعظم يستحيل على المخلوقين أن يأتوا بمثله مطلقاً .

فأما الوجه الأول وهو الفصاحة : فإن ذلك معتبر بثلاثة شروط ، هي على الترتيب : بلاغة ألفاظه ، واستيفاء معانيه ، وحسن نظمه .

والوجه الثانى : من إعجازه هو إيجازه واستيفاء معانيه فى قليل الكلام ، كقوله - تعالى :- ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَكْسِمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ

(١) أعلام النبوة : ٧٦ ، ٧٧ .

وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدَ اللَّقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾.

والوجه الثالث هو علوه عن منظوم الكلام ومشوره ، فإن نظم أسلوبه. ووصف اعتداله يخرج عن منظوم الكلام ومشوره ، ولا يدخل في شعر ولا رجز ، ولا سجعة ولا خطبة ، حتى تجاوز محصور أقسامه ، وباين سائر أنواعه ، بأسلوب لا يشاكل ، ونظم لا يماثل ، فصار وإن كان من حروف الكلام خارجا عن أقسام الكلام ، فقد قال أنيس الغفاري - وهو أخو أبي ذر الغفاري ، وكان من الموصوفين بالتقدم في البلاغة والفصاحة - : عرضت القرآن على السجع والشعر ، والنظم والنثر ، فلم يوافق شيئا من طرق كلام العرب ، وقد سبقت الإشارة إلى قول الوليد بن المغيرة المخزومي حين قرئ عليه شيء من القرآن : ليس هذا من كلام البشر ، وليس بشعر .

والوجه الرابع في إعجاز القرآن هو كثرة معانيه التي لا يجمعها كلام البشر ، ومثال ذلك : ما يجمعه قليل الكلام من كثير المعاني كقوله - تعالى - : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ إِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۚ إِنَّا رَأَيْنَاهُ إِلَيْنَا ۖ وَجَعَلْنَاهُ مِن الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢) فجمع في آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين .

والوجه الخامس من إعجاز القرآن ما جمعه من علوم لا يحيط بها بشر ، ولا تجتمع في مخلوق ، فلم يكن إلا من عند الله المحيط بكل شيء علما ، حتى علمه من لم يكن به عالما .

إن الإمام الماوردي قال هذا الكلام منذ عشرة قرون ، ولقد أثبت العلم الحديث وتقدم المخترعات في عصرنا مزيدا من معجزات القرآن الكريم في مجال العلوم الكونية والفلكية والطبية والفيزيائية .

والوجه السادس من إعجازه : تضمنه الحجج والبراهين على التوحيد ، والرجعة ،

(١) سورة هود ، الآية : ٤٤ .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٧ .

وعلى الدهرية والثنوية حتى قطع بحججه كل محتج ، وخصم بجدله كل خصم ألد .
والوجه السابع تضمنه أخبار الماضين من القرون الخالية وقصص الأمم السالفة ،
وتحدى به أهل الكتاب من قصة أهل الكهف ، وشأن موسى والخضر ، وحديث ذى
القرنين ، فكان على ما ذكره أنبياءهم وتضمنته كتبهم .

والوجه الثامن من إعجازه : ما تضمنه من علم الغيب بأخبار تكون فكانت ، كقوله
للإهود : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ
فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا
فَعَدْتُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ (٢) فقطع بأنهم
لا يفعلون فلم يفعلوا ، أو قوله تعالى : ﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ (٣) وكان
ذلك حقا في يوم بدر ، وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ
إِلَى مَعَادٍ ﴾ (٤) فأعاده الله تعالى إلى مكة عام الفتح ، وغير ذلك آيات كثيرة .

إن الإمام أبا الحسن الماوردي وهو يذكر وجوه الإعجاز طبقا لترتيبه إياها يجعل الوجه
التاسع من وجوه الإعجاز في إخبار القرآن الكريم بضائر القلوب .

والوجه العاشر : هو أن جزل القرآن لا يتوَعَّر ولا يُسْتَرْدَل ، أى : لا يتوَعَّر جزله ولا
يُسْتَرْدَل سهله ، ويكونان إذا اجتمعا مطبوعين غير متنافرين ، ولا نجد ذلك في غيره
من كلام البشر .

والوجه الحادى عشر : اختصاص تلاوته ببواعث ليست لغيره ، وهى خمسة
بواعث ، أحدها : هشاشة مخرجه ، والثانى : بهجة رونقه ، والثالث : سلاسة نظمه ،
والرابع : حسن قبوله ، والخامس : أن قارئه لا يكَلِّ وسامعه لا يمل .

(١) سورة البقرة ، الآيتان : ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٤ .

(٣) سورة القمر ، الآية : ٤٥ .

(٤) سورة القصص ، الآية : ٨٥ .

والوجه الثاني عشر : أن القرآن منزل بألفاظه ومعانيه ، لا كسائر الكتب الدينية ، فإن التوراة ألقى الله - تعالى - معانيها إلى موسى - عليه السلام - فذكرها بلفظه وعبر عنها بكلامه ، وأما الإنجيل فهو ما أخبر به عيسى - عليه السلام - عن ربه وعن نفسه ، فجمعه تلامذته بألفاظهم وجعلوه كتاباً متلوّاً ، وأما الزبور فأدعية وتحميد وتساييح تنسب إلى داود عن لفظه .

ولئن كانت معاني هذه الكتب مضافة إلى الله تعالى فليست بصيغة لفظه ، أما القرآن فنزل جامعاً لألفاظه ومعانيه وترتيبه ، فصار مبيناً لجميع كتبه ، وما هذا إلا بمعونة إلهية حفظ الله تعالى بها إعجازه ، وأمد بها رسوله ، كما قال - تعالى - :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١).

والوجه الثالث عشر من وجوه إعجازه : اقتران معانيه المتغايرة ، واقتران نظائرها في السور المختلفة فيخرج في السورة من وعد إلى وعيد ، ومن ترغيب إلى تهريب ومن ماض إلى مستقبل ، ومن قصص إلى مثل ، ومن حكم إلى جدل ، فلا ينبو ولا يتنافر .

والوجه الرابع عشر من إعجازه أن اختلاف آياته في الطول والقصر لا يخرج عن أسلوبه ، ولا يزول عن اعتداله ، فصار ذلك من إعجازه .

ويمضي الإمام الماوردي فيرى في الوجه الخامس عشر أن مكثراً تلاوته لا يزداد بالقراءة فصاحة . ولعل الماوردي لم يوفق في إبانة ما ذهب إلى تصوره في هذا الوجه الذي اعتبره واحداً من وجوه الإعجاز .

والوجه السادس عشر من إعجاز القرآن : تيسيره على جميع الألسنة ، حتى حفظه الأعجمي الأبكم ، ودار به لسان القبطي الألكن ، ولا يحفظ غيره من الكتب كحفظه ، ولا تجرى به ألسنة الأعجام كجريها به ، وما ذلك إلا بخصائص إلهية فضّله بها على سائر كتبه .

وإن هذا الوجه شديد الوضوح في زماننا ، فقد شاهدنا الصبية الأتراك الذين لا

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩ .

يعرفون الحرف العربى - بعد أن صادر مصطفى كمال الحرف العربى - يحفظون القرآن كاملا ، وكذلك الحال عند الأطفال واليا فعين الهنود والباكستانيين والإندونيسيين والماليزيين والصوماليين وغيرهم من أبناء البلدان المسلمة غير العربية .

والوجه السابع عشر من إعجازه : هو أن القرآن أعلى مراتب الكلام ، ذلك أن الكلام ينقسم إلى ثلاثة مراتب : منشور يدخل فى قدرة الخلق ، وشعر هو أعلى منه يقدر عليه فريق ويعجز عنه فريق ، وقرآن هو أعلى من جميعها ، وأفضل من سائرهما ، تجاوز رتبة النوعين ، فخرج عن قدرة الفريقين .

وآخر وجوه الإعجاز - وهى من وجهة نظرنا أكثر مما ذكره الماوردى - هو عجز الأمم عن معارضته ، وقد تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فلم تخرجهم أنفة التحدى ، وصبروا على نغص العجز مع شدة حميتهم وقوة أنفتهم ، وقد سفه أحلامهم ، وسبب أصنامهم ، ولو وجدوا إلى المعارضة سبيلا لعارضوه ، ولما عدلوا عنه إلى بذل نفوسهم فى قتاله ، وسفك دمائهم فى محاربته .

على أنه من قبيل الضحك والسخرية أن بعض العرب الضالين أحسنوا الظن بأنفسهم - وأساءوا الظن بالناس - فسولت لهم أنفسهم أن يعارضوا القرآن ، فجاءت معارضتهم مسخاً مضحكا يدعو إلى السخرية والاستخفاف . من ذلك ما حكاه ابن قتيبة عن مسيلمة الكذاب أنه قال فى معارضة القرآن الكريم : يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقى كم تنقين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشراب تمنعين ، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يعتدون (*) .

فلما سمع هذا أبو بكر - رضى الله عنه - قال : إن هذا الكلام لم يخرج من إله .

وحكى عنه أيضا أنه قال : ألم تر كيف فعل ربك بالهلبلى ، أخرج من بطنها نسمة تسعى ، من بين شراسيف^(١) وحشى .

(*) لمزيد من هذا السخف يراجع الباقلانى . ص : ١٥٦ - ١٥٨ .

(١) الشراسيف : جمع شرسوف ، وهو طرف الضلع المشرف على البطن .

وحكى عن آخر قوله : الفيل ما الفيل ، له ذنب وثيل ^(١) ، ومشفر ^(٢) طويل ، فإن ذلك من خلق ربنا لقليل .

وحكى الحكم عن عكرمة أن النضر بن الحارث - وكان من فصحاء قريش - عارض القرآن فقال : والزارعات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، فاللاقيات لقماً .

وقال آخر : قد أفلح مَنْ هَيَّئَ ^(٣) في صلاته ، وأطعم المسكين من مَخْلَاتِهِ ، وأخرج الواجب من زكاته .

وقال آخر في معارضة سورة النجم : والنجم إذا سما ، والبحر إذا طما ، ما زاغ منذركم وما طغى ، وما كذب بها وغوى ، فيما نطق به وروى . فأنزل الله تعالاً ، في ذلك : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾^{*} إنه لا يختلف اثنان - ولو كانا غير مسلمين - في أن هذه المعارضات إنما هي ضرب من هذر القول ونمط من سخييف الكلام ، ومن ثم فإن أحداً لم يحفل بها ، وإذا ذكرت فإنها تذكر على سبيل السخرية والمفاكهة ، وليس على سبيل الجد ونافع القول .

الباقلانى وإعجاز القرآن والفرق بينه وبين كلام الرسول :

إن المتحدث عن الباقلانى ومذهبه في إعجاز القرآن يجدر به أن يشير إلى منهج سابق عليه بفترة زمنية قصيرة هو منهج أبى سليمان الخطابى البستى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ (توفى الباقلانى سنة ٤٠٣ هـ) ذلك أن الخطابى في كتابه (إعجاز القرآن) سلك مسالك تختلف من مسالك سابقة أبى الحسن الرمانى المعتزلى المتوفى ٣٨٤ هـ وعن نهج لاحقه أبى الحسن الماوردى ؛ لأن كلا من الرمانى والماوردى ذهب إلى أن « الصرفة » واحدة من أسباب إعجاز القرآن ، على الرغم من أن الرمانى معتزلى ، والماوردى شافعى من أهل السنة .

(١) وثيل : ليف .

(٢) مشفر : شفة .

(٣) هينم : تلا بصوت منخفض .

لقد أنكر الخطابي « الصرفة » مستشهدا بقول الله تعالى : ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ ^(١) وهو في ذلك متفق مع معاصره الباقلاني في إنكار الصرفة واستبعادها . ويمكن ذكر وجوه إعجاز القرآن الكريم عند الخطابي في عجلة سريعة ندلف بعدها إلى الباقلاني .

إعجاز القرآن عند الخطابي :

ذكر الخطابي أن دقيق النظر ، وشاهد العبر ؛ قد دلاه على ما يبين به القرآن سائر الكلام ؛ وأن العلة في ذلك : « أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية . فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز المطلق الرسل . وهذه أقسام الكلام الفاضل . فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثاني أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه . فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة . وهما على الانفراد في نوعتهما كالمضادين ؛ لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة في الكلام يعالجان نوعاً من الوعورة . فكان اجتماع الأمرين في نظمه - مع بُبُو كل واحد منهما عن الآخر - فضيلة خصّ بها القرآن » .

ثم قال : « وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله ؛ لأمر :

منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية ، وبأوضاعها التي هي ظروف المعاني ، والحوامل لها . ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون اثتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوها ، إلى أن

(١) الإسراء ، الآية : ٨٨ .

يأتوا بكلام مثله . وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى قائم به ، ورباط لهما ناظم . وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ؛ ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه . وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها . وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام ؛ فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه ، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير ، الذي أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً .

فتفهّم الآن ، واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التأليف ، مضمناً أصح المعاني : من توحيد له - عزت قدرته - وتنزيه له في صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته : من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساوئها . واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه ، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه ؛ مودعاً أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثالات الله بمن عصى وعاند منهم ؛ منبئاً عن الكوائن المستقبلية في الأعصار الباقية من الزمان ؛ جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ؛ ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وإنباءً عن وجوب ما أمر به ونهى عنه . ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين أشنتاتها حتى تنتظم وتنسق - أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرتهم : فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله ، أو مناقضته في شكله » .

وأني لهم ذلك وأمر معاناة المعاني التي تحملها الألفاظ ، شديد بالغ الشدة ؛ لأنها نتائج العقول ، وولائد الأفهام ، وبنات الأفكار .

وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحدق فيها أكثر ؛ لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني ، وبه يتصل أخذ الكلام ، ويلتزم بعضه ببعض ؛ فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان » .

ثم ذكر أقوال المعاندين للقرآن ، لما عجزوا عن معارضته ؛ وقال : « إن عمود هذه البلاغة التي تجتمع لها هذه الصفات ، هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأنخص الأشكل به ، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إمّا تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة . ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ؛ كالعلم والمعرفة والحمد والشكر . . والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء اللغة بخلاف ذلك ؛ لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبيتها في بعض معانيها ، وإن كانا قد يشتركان في بعضها » . ثم مضى يبين الفروق بين معاني الكلمات التي ذكرها ، وأتبعها بطائفة الاعتراضات التي وجهت إلى القرآن ، أو التي يمكن أن توجه إليه ؛ كتأليف معظم كلامه من ألفاظ مبتذلة في مخاطبات العرب ، مستعملة في محاوراتهم ؛ وقلة حظه من الغريب المشكل ، بالإضافة إلى واضحته الكثير ؛ وقلة عدد الفقر والغرر من ألفاظه ، بالقياس إلى مبادئ ومراسيله . والقول بأن كثيراً من العبارات الواقعة في القرآن ، لم تقع في أفصح وجوه البيان وأحسنها ، وأنه قد عرض فيه سوء التأليف من نسق الكلام على ما ينبو عنه ولا يليق به ، وإدخاله بين الكلامين ما ليس من جنسهما ، مع ما فيه من الحذف والاختصار ، ومضاعفة التكرار ؛ وغير ذلك مما يشكل معه الكلام ، ويستغلق معناه ، ويخرج به عن الفصاحة العالية والبلاغة السامية .

ثم كَرَّرَ على تلك الاعتراضات فنقضها ، وفصل القول في تأويل الآيات الكثيرة التي أوردها . وبين أسرار بلاغتها تبيناً ترتاح إليه القلوب ، وتطمئن له العقول . ثم قال : « وفي إعجاز القرآن وجه آخر ، ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم . وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منشوراً ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه . تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق ،

وتغشاها من الخوف والفرق ما تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب . يحول بين النفس وبين مضممراتها وعقائدها الراسخة فيها . فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها ، أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالته ويدخلوا في دينه ؛ وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيماناً .

عود إلى الباقلانى :

فإذا ما عاد الحديث بنا إلى الباقلانى ووجوه إعجاز القرآن التى أدارها ، فإن المؤلف يعتمد البلاغة والفصاحة وإتقانها والتخصص فيها الوسيلة الناجعة للتوصل إلى الإيمان بإعجاز القرآن ، فيقول :

إنه لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية ، من العجم والترك وغيرهم ، أن يعرفوا إعجاز القرآن إلا بأن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك ، فإذا عرفوا هذا - بأن علموا أنهم قد تُحْدُوا إلى أن يأتوا بمثله ، وقرعوا على ترك الإتيان بمثله ، ولم يأتوا به - تبينوا أنهم عاجزون عنه . وإذا عجز أهل ذلك اللسان ، فهم عنه أعجز .

وكذلك نقول : إن من كان من أهل اللسان العربى - إلا أنه ليس يبلغ فى الفصاحة الحد الذى ينتهى إلى معرفة أساليب الكلام ، ووجوه تصرف اللغة ، وما يعدونه فصيحاً بليغاً بارعاً من غيره - فهو كالأعجمى : فى أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن ، إلا بمثل ما بينا أن يعرف به الفارسى الذى بدأنا بذكره ، وهو ومن ليس من أهل اللسان سواء .

فأما من كان تنهى فى معرفة اللسان العربى ، ووقف على طرقها ومذاهبها فهو يعرف القدر الذى ينتهى إليه وسع المتكلم من الفصاحة ، ويعرف ما يخرج عن الوسع ، ويتجاوز حدود القدرة فليس يخفى عليه إعجاز القرآن ، كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر ، وكما يميز بين الشعر الجيد والردى ، والفصيح والبديع ، والنادر والبارع والغريب .

وهذا كما يميز أهل كل صناعة صنعتهم ، فيعرف الصَّيرْفِيُّ من النقد ما يخفى على غيره ، ويعرف البَزَّازُ من قيمة الثوب وجودته وردائه ما يخفى على غيره ، وإن كان يَبْقَى مع معرفة هذا الشأن أمرٌ آخر وربما اختلفوا فيه :

لأنَّ من أهل الصنعة من يختار الكلام المتين ، والقول الرَّصِين .

ومنهم من يختار الكلام الذى يَرُوق مأوّه ، وتَرُوع بهجته ورؤاؤه ، ويسلس مأخذه ، ويسلم وجهه ومنفذه ، ويكون قريب المتناول غير عويص اللفظ ولا غامض المعنى^(١).

وعلى رسله يمضى الباقلانى مكملًا نظريته فى أن نظم القرآن هو الوجه الأكثر وضوحًا فى الإعجاز فيقول :

فأما شأؤُ نظم القرآن ، فليس له مثال يُحتذى عليه ولا إمام يُقتدى به ، ولا يصح وقوع مثله اتفاقًا ، كما يتفق للشاعر البيت النادر ، والكلمة الشارِدة ، والمعنى الفذ الغريب ، والشىء القليل العجيب ، وكما يلحق من كلامه بالوحشيات ، ويضاف من قوله إلى الأوَّيدِ ، لأن ما جرى هذا المجرى ووقع هذا الموقع ، فإنما يتفق للشاعر فى لمع من شعره ، وللكاتب فى قليل من رسائله ، وللخطيب فى يسير من خطبه . ولو كان كل شعره نادرًا ، ومثلاً سائرًا ، ومعنى بديعًا ، ولفظًا رشيَقًا ، وكلّ كلامه مملوءًا من رَزْنَقه ومائه ، ومحلىً بهجته وحسن رؤائه ، ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامين ، والمتردد بين الطرفين ، ولا البارد المستقل ، والغثُ المستنكر ، لم يَبين الإعجازُ فى الكلام ، ولم يظهر التفاوت العجيب بين النظام والنظام .

وهذه جملة تحتاج إلى تفصيل ، ومُبهمٌ قد يحتاج فى بعضه إلى تفسير .

ولكن قد يمكن أن يقال فى البديع الذى حكيناه وأضفناه إليهم : إن ذلك باب من أبواب البراعة ، وجنسٌ من أجناس البلاغة ، وإنه لا ينفك القرآن عن فنٍّ من فنون بلاغاتهم ، ولا وجه من وجوه فصاحتهم ، وإذا أوردَ هذا المورد ، ووُضِعَ هذا الموضع كان جديرًا .

(١) إعجاز القرآن ، ص : ١١٣ ، ١١٤ .

وإنما لم نطلق القول إطلاقاً ؛ لأننا لا نجعل الإعجاز متعلقاً بهذه الوجوه الخاصّة ، ووفقاً عليها ، ومضافاً إليها ، وإن صح أن تكون هذه الوجوه مؤثرة في الجملة ، آخذة بحظها في الحسن والبهجة ، متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المُستَبشع ، والتعمل المُستَشَنع (١) .

إن الباقلاني يتوسع في ضرب الأمثلة من القرآن الكريم ، مثل بديع نظمه وعجيب تأليفه وتناهيه في البلاغة ، وكون كلام العرب غير مشتمل على فصاحة القرآن وغرابته ولطيف معانيه ، وعدم التفاوت والتباين في عجيب نظم القرآن وبديع تأليفه ، وكون نظم القرآن خارجاً عن عادة كلام الثقليين ، واشتمال القرآن على جميع أنواع الخطاب عند العرب مع تجاوزه حدود المعتاد بينهم ، وتضمّن القرآن ما يمتنع على البشر من المعاني في أصل وضع الأحكام والقواعد ، والاحتجاج في العقائد ، والرد على المعاند ، وسهولة سبل القرآن ، وخروجه عن الوحشى المستكره ، والغريب المستنكر ، وبُعده عن التصنع والتكلف ، وقربه إلى الفهم .

وقد عمد الباقلاني إلى ضرب الأمثلة من الكتاب العزيز ، ومن كلام العرب شعراً ونثراً لشرح وجوه إعجاز القرآن ، عرض الباقلاني كل ذلك في إطالة وتفصيل ، مع الرد على المعارضين ومناقشتهم في توسع وعمق .

يخلص الباقلاني بعد ذلك إلى القول مخاطباً قارئ كلامه : (٢)

وإنما أطلت عليك ، ووضعت جميعه بين يديك ، لتعلم أن أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن وجليله . وغامضه وجليله . وقريبه وبعيده ، ومُعْجَزه ومستقيمّه ، فكيف يخفى عليهم الجنس الذي هو بين الناس مُتداول . وهو قريب مُتناول ، من أمر يخرج عن أجناس كلامهم . ويبعد عما هو في عرفهم . ويفوت مواقع قُدْرهم ؟ . وإذا اشتبه ذلك فإنما يشتهه على ناقص في الصنعة ، أو قاصر عن معرفة طرق

(١) المصدر السابق ، ص ١١٢ .

(٢) إعجاز القرآن ص : ١٢٤ .

الكلام الذى يتصرفون فيه ويُديرونه بينهم ولا يتجاوزونه ؛ فلكلامهم سُبلٌ مضبوطة ، وطرقٌ معروفة محصورة .

وهذا كما يشتبه على من يدعى الشعر - من أهل زماننا - والعلم بهذا الشأن ، فيدعى أنه أشعر من البُخترى . ويتوهم أنه أدق مسلکًا من أبى نُؤاس ، وأحسن طريقًا من مُسلم ! وأنت تعلم أنهما متباعدان . وتتحقق أنهما لا يجتمعان ولعل أحدهما إنما يلحظ غبار صاحبه ، ويطالع ضياءَ نجمه ، ويُراعى خُفوق جناحه وهو راكدٌ فى موضعه ، ولا يَضُرُّ البحترى ظنُّه ، ولا يُلحِقُه بشأوه وهمُّه .

فإن اشتبه على متأدب أو مُتَشاعر أو ناشئ أو مُرمد ، فصاححة القرآن ، وموقع بلاغته ، وعجيب براعته ، فما عليك منه ؛ إنما يخبر عن نقصه ، ويدل على عجزه ، ويُبين عن جهله ، ويُصرح بسخافة فهمه . وركاكة عقله .

وإنما قدمنا ما قدمناه فى هذا الفصل ، لتعرف أن ما ادَّعيناه من معرفة البليغ بعلو شأن القرآن وعجيب نظمه وبديع تأليفه ، أمر لا يجوز غيره ، ولا يحتمل سواه ، ولا يشتبه على ذى بصيرة . ولا يَحِيلُ عند أخى معرفة ، كما يعرف الفصل بين طبائع الشعراء من أهل الجاهلية ، وبين المخضرمين ، وبين المحدثين ، ويميز بين من يجرى على شاكلة طبعه وغريزة نفسه ، أو بين من يشتغل بالتكلف والتصنع ، وبين من يصير التكلف له كالمطبوع . وبين من كان مطبوعه كالمتعلم المصنوع .

هيهات هيهات !! هذا أمر - وإن دَقَّ - فله قوم يقتلونهُ علما ، وأهل يحيطون به فهما ، ويعرفونه إليك إن شئت ، ويصورونه لديك إن أردت ، ويجلونهُ على خواطرك إن أحببت . ويعرفونه لفطنتك إن حاولت ، وقد قال القائل :

لِلْحَرْبِ وَالضَّرْبِ أَقْوَامٌ هَا خَلَقُوا وَلِلدَّوَاوِينِ كُتَابٌ وَحُسَابٌ

ولكل عمل رجال ، ولكل صنعة ناس ، وفى كل فرقة الجاهل والعالم والمتوسط ، ولكن قد قل من يميز فى هذا الفن بخاصة . وذهب من يُحصِّل فى هذا الشأن ، إلا قليلاً !

فإن كنت ممن هو بالصفة التي وصفناها من التناهي في معرفة الفصاحات ،
والتحقق بمجاري البلاغات ، فإنما يكفيك التأمل ، ويغنيك التصور .

وإن كنت في الصنعة مُرمداً ، وفي المعرفة بها متوسطاً ، فلا بد لك من التقليد ، ولا
غنى بك عن التسليم ، إن الناقص في هذه الصنعة كالخارج عنها ، والشاى فيها
كالبائن منها .

فإن أراد أن يقرب عليه أمراً ، ونفسح له طريقاً ، ونفتح له باباً - ليعرف به إعجاز
القرآن - فإنما نضع بين يديه الأمثلة ، ونعرض عليه الأساليب ، ونُصور له صور كل قبيل
من النظم والنثر . ونُحضره من كل فن من القول شيئاً يتأمله حق تأمله ، ويراعيه حق
رعايته فيستدل استدلال العالم ، ويستدرك استدراك الناقد ، ويقع له الفرق بين الكلام
الصادر عن الرُّبوبيّة ، الطّالِع عن الإلهية ، الجامع بين الحُكم والحِكم ، والإخبار عن
الغيوب والغائبات ؛ والمتضمن لمصالح الدنيا والدين ، والمستوعِب لجليّة اليقين ؛
والمعاني المخترعة في تأسيس أصل الشريعة وفروعها بالألفاظ الشريفة ؛ على تَفَنُّها
وتصَرُّفها . ونَعْمِدُ إلى شيء من الشعر المُجمَع عليه ، فَنَبِيْنُ وجه النقص فيه ، ونَذل
على انحطاط رتبته ، ووقوع أبواب الخلل فيه ، حتى إذا تأمل ذلك ، وتأمل ما نذكره
من تفصيل إعجاز القرآن وفصاحته ، وعجيب براعته انكشف له واتضح ، وثبت ما
وصفناه لديه ووضح ، وليعرف حدود « البلاغة » ، ومواقع البيان « والبراعة » . ووجه
التقدم في « الفصاحة » .

وبعد أن يعرض الباقلاني تعريف البلاغة عند عدد من الشعوب ذات الماضي
الحضارى مثل الفرس واليونان والرومان والهنود من نقل عن الجاحظ في البيان والتبيين -
ينتهى إلى هذا القول الذى أوجز فيه الفرق بين نظم القرآن وكلام الرسول : (١)

« والذى يصور عندك ما ضمناً تصويره ، ويحصل لديك معرفته إذا كنت في صنعة
الأدب متوسطاً ، وفي علم العربية متبيهاً أن تنظر أولاً في نظم القرآن ، ثم في شيء من
كلام النبى ﷺ فتعرف الفصل بين النظمين ، والفرق بين الكلامين .

(١) المصدر السابق ص : ١٢٧ ، ١٢٨ .

فإن تبين لك الفصل ، ووقعت على جليلة الأمر وحقيقة الفرق ، فقد أدركت الغرض ، وصادفت المقصد .

وإن لم تفهم الفرق ، ولم تقع على الفصل فلا بد لك من التقليد ، وعلمت أنك من جملة العامة ، وأن سبيلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان .

ثم يعرض الباقلاني بعد ذلك على القارئ سبع خطب للرسول ﷺ في مناسبات مختلفة ، وكتابين له ﷺ أولهما إلى كسرى ، وثانيهما إلى النجاشي ، كما يعرض نسخة لعهد الصلح مع قريش عام الحديبية كمنادج للفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب النبي .

الفرق بين أسلوب القرآن وكلام النبي :

ويختتم الباقلاني حكمه بعد ذلك في الفرق بين أسلوب القرآن الكريم وكلام النبي ﷺ قائلا : « ولا أطول عليك ، وأقتصر على ما ألقيته إليك ، فإن كان لك في الصنعة حظ ، أو كان لك في هذا المعنى حس ، أو كنت تضرب في الأدب بسهم ، أو في العربية بقسط ، وإن قل ذلك السهم ، أو نقص ذلك النصيب ، فما أحسب أنه يشبه عليك الفرق بين براءة القرآن ، وبين ما سلف ذكره من كلام الرسول ﷺ في خطبه ورسائله ؛ وما عساك تسمعه من كلامه ؛ ويتساقط إليك من ألفاظه ؛ وأقدر أنك ترى بين الكلامين بونا بعيدا ، وأمدا مديدا ، وميذانا واسعا ، ومكانا شاسعا .



فإن قلت : لعله أن يكون تعمّل للقرآن ، وتَصَنعَ لِنَظْمِهِ ، وشبه عليك الشيطان ذلك من خُبْنِهِ فَتَنَّبَتْ في نفسك ، وارجع إلى عقلك ، واجمع لبك ، وتيقن أن الخطب يحشد لها في المواقف العظام ، والمخاف الكبار ، والمواسم الضخام ؛ ولا يتجاوز فيها ، ولا يستهان بها . والرسائل إلى الملوك مما يجمع لها الكاتب جراميزه (١) ، ويسمر لها عن جد واجتهاد ؛ فكيف يقع بها الإخلال ؟ وكيف تعرض للتفريط ؟ فستعلم لا محالة أن نظم القرآن من الأمر الإلهي ؛ وأن كلام النبي ﷺ من الأمر النبوي .

(١) يقال : جمع فلان لفلان جراميزه : إذا استعد له وعزم على قصده ، وجراميز الرجل : جسده وأعضاؤه .

فإذا أردت زيادةً في التَّبَيُّنِ وَتَقَدُّمًا في التَّعَرُّفِ ، وإِشْرَافًا على الجَلِيلَةِ ، وَفَوْزًا بِمُحَكَّمِ
القَضِيَةِ ، فَتَأَمَّلْ - هَذَاكَ اللهُ - خُطْبَ الصَّحَابَةِ وَالبُلْغَاءِ ، لَتَعْلَمَ أَنَّ نَسْجَهَا وَنَسْجَ
خُطْبِ النَّبِيِّ ﷺ وَاحِدٌ ، وَسَبْكُهَا سَبْكٌ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ ؛ وَإِنَّمَا يَقَعُ بَيْنَ كَلَامِهِ وَكَلَامِ غَيْرِهِ
مَا يَقَعُ مِنَ التَّفَاوُتِ بَيْنَ كَلَامِ الْفَصِيحِينَ ، وَبَيْنَ شَعْرِ الشَّاعِرِينَ ، وَذَلِكَ أَمْرٌ لَهُ مَقْدَارٌ
مَعْرُوفٌ ، وَحَدٌّ - يَنْتَهَى إِلَيْهِ - مُضْبُوطٌ .

فإذا عرفتَ أَنَّ جَمِيعَ كَلَامِ الْآدَمِيِّ مِنْهَاجٌ ، وَجَمَلَتُهُ طَرِيقٌ ، وَتَبَيَّنَتْ مَا يُمَكِّنُ فِيهِ مِنَ
التَّفَاوُتِ ، نَظَرْتَ إِلَى نَظْمِ الْقُرْآنِ أُخْرَى ، وَتَأَمَّلْتَهُ مَرَّةً ثَانِيَةً ، تُرَاعَى بُعْدَ مَوْقِعِهِ ، وَعَالَى
مَحَلِّهِ وَمَوْضِعِهِ ؛ وَحَكَمْتَ بِوَاجِبِ مِنَ الْيَقِينِ ، وَتَلَجَّ (١) الصَّدْرُ بِأَصْلِ الدِّينِ (٢) .

(١) تَلَجَّحَتْ نَفْسِي بِالشَّيْءِ ثَلَجًا : اَشْتَفَتْ بِهِ وَاطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ ، وَتَلَجَّ قَلْبُهُ : تَبَيَّنَ .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني، ص : ١٣٦ ، ١٣٧ .



الفصل الثالث

نماذج تلقائية من آيات الكتاب العزيز
وأخرى من حديث رسول الله

نماذج من آيات الكتاب العزيز وأخرى من حديث رسول الله

يقول الخطابي في كتابه « إعجاز القرآن » بعد أن ذكر وجوها عدة للإعجاز : « وفي إعجاز القرآن وجه آخر ، وذلك صنيعة بالقلوب ، وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق ، وتغشاها من الخوف والفرق ، ما تقشعرّ منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم عدوّ للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمتهم ويدخلوا في دينه » .

ويقول الباقلاني من جملة كلام أسلفنا ذكره مخاطباً من يرقب إعجاز القرآن مانصه : « والذي يصور عندك ما ضمناً تصويره ، ويحصل لديك معرفته - إذا كنت في صنعة الأدب متوسطا وفي علم العربية متبيناً - أن تنظر أولاً في نظم القرآن ، ثم في شيء من كلام النبي ﷺ فتعرف الفصل بين النظمين ، والفرق بين الكلامين » .

إن فحوى كلام كل من الإمامين الجليلين : الخطابي والباقلاني أن معرفة الفرق بين كلام الله وكلام النبي يكمن في تباين أسلوبهما ، وتفاضل نظمهما ، وكل من التباين والتفاضل تدركه الفطرة السليمة ، والفتنة القويمة ، والعلم بأساليب العربية ، وهذا المنهج المعيارى هو ما نميل إليه ونأخذ به ، ولذلك فقد وقع بصرنا على عدد من آيات الكتاب العزيز بشكل عشوائي من غير انتقاء وبدون اختيار ، والشيء ذاته جرى على

حديث رسول الله ﷺ وبعض أقواله بدون انتقاء أو اختيار ، فنرصد الآيات والأقوال النبوية ، وسوف تكون النفس - أى نفس عاقلة محايدة - مرتاحة إلى أن كلام الله فوق كلام البشر جميعا ، وأن كلام النبي ﷺ على فصاحته وجماله وجلاله - هو دون كلام الله وفوق كلام البشر .

الآيات القرآنية :

قال - عز وجل - : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .
وقال - عز وجل - : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (٢) .

وقال - عز وجل - : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ * لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ ﴾ * قُلْ مَنْ

(١) سورة فصلت ، الآية : ٣٩ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآيات : ١٢ - ١٤ .

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفَعًا
وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ
جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ * أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا
رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَدٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخُسَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ
يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ
أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَفِيهَا لَهُمْ آفَنٌ يَعْلَمُونَ
أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ الرِّبِّ الْحَقَّ كَمَا هُوَ أَعْمَىٰ إِنْ مَآيِدَكَ رَأَوْا إِلَّا لَبَّى * الَّذِينَ يُؤْفُونَ
بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ
أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ
وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ
عُقْبَى الدَّارِ ﴿١﴾

وقال - عز وجل - : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَخَشَرَتْهُمْ فَلَمْ

نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَغَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ
مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّئُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا
أَخَصَّهَا وَأَوْجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿١﴾

وقال - عز وجل - : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ
لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا
دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَدَّ مَتَّ صَوْمِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ
فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ
* الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ * وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ
مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
نَكِيرٌ * فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى
عُرُوشِهَا وَيَبْنَغُ مَعَطَّلَةٌ وَفِصْرٌ مُشِيدٌ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ
لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ
تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ
وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ

(١) الكهف ، الآيات : ٤٧ - ٤٩ .

أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ * قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا
 أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
 كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١﴾
 وقال - عز وجل - : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا
 أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرِيبٌ سُودٌ *
 وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ
 مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً
 لَّنْ تَبُورَ * لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ
 شَكُورٌ * وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
 يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا
 مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ
 إِذِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
 يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا
 دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٢﴾
 وقال - عز وجل - : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَالتَّهَارِ

(١) سورة الحج ، الآيات : ٣٩ - ٥١ .

(٢) فاطر ، الآيات ٢٧ - ٣٥ .

وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَمَافِنَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَكْتَلِفُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ .

وقال - عز وجل - : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا يَكْتَلِفُ لَأُولَى الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَذْخَلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿٢﴾ .

وقال - عز وجل - : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْكَوْفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ

(١) البقرة ، الآية : ١٦٤ .

(٢) آل عمران ، الآيات : ١٩٠ - ١٩٥ .

يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
 * فِي يُؤْتِ أذنَ اللَّهِ أَن تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ
 وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ
 الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ
 مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يُزِقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١﴾
 وقال - عز وجل - : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ
 إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى
 أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا * وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي
 مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا * وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ
 الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ رَهُوقًا * وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ
 لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ
 وَنَسَى بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرْكَانِ يَتُوسَّسُ * قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ
 بِمَن هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٢﴾

هذه آيات من القرآن الكريم تنسرب من مسالك السمع إلى مغالق القلوب فتفتحها
 وتقول للنفس السوية : إننى كلام الله المعجز الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا
 من خلفه .

الرسول يصف كلام الله :

إن الرسول ﷺ يصف كلام الله فيقول : « فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل

(١) سورة النور ، الآيات : ٣٥ - ٤٤ .

(٢) سورة الإسراء ، الآيات ٧٨ - ٨٤ .

الله على خلقه « (١) .

وإن كلام الله هو المخرج من كل فتنة ، عن علي - رضى الله عنه - قال : قيل :
يا رسول الله إن أمتك ستفتتن من بعدك ، فسأل أو سئل : ما المخرج من ذلك ؟ فقال
« بكتاب الله العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من
حكيم حميد ، من ابتغى العلم فى غيره أضله الله ، ومن ولى هذا من جبار فحكم بغيره
قصمه الله ، وهو الذكر الحكيم ، والنور المين ، والصرط المستقيم ، فيه خبر من
قبلكم ، وتبيان من بعدكم ، وهو فصل ليس بالهزل ، وهو الذى لما سمعته الجن قالوا
﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ (٢) . لا يَخْلُقُ عَلَى طَوْل
الرَّدِّ ، ولا تنقضى عبره ، ولا تنفى عجائبه « (٣) .

نماذج من كلام رسول الله :

إن كلام رسول الله ﷺ لا يشاكل فى إيجازه ، ولا يحاكي فى فصاحته ، ولا يماثل فى
إطنابه ، ولا يبارى فى بلاغته ، وكل كلام يجرى على لسانه الشريف يبرز بلاغة البلغاء ،
ويقصر دونه فصاحة الأبياء .

فمن كلامه الذى لا يشاكل فى إيجازه قوله ﷺ : « الناس بزمامهم أشبه » وقوله : « مَا
هَلَكَ امْرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَهُ » وقوله : « لَوْ تَكَاشَفْتُمْ مَا تَدَافَنْتُمْ » وقوله : « السعيد من وُعِظَ
بغيره » . وقوله : « حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُغْمِي وَيُصِمُّ » وقوله : « العقل ألوف مألوف »
وقوله : « العِدَّةُ عطية » وقوله : « اللهم إني أعودُ بك من طَمَعٍ يَهْدِي إِلَى طَبَعٍ » وقوله :
« أفضل الصدقة جهْدُ المَقْلِّ » وقوله : « اليَدُ العُلْيَا خيرٌ من اليَدِ السُّفْلَى » وقوله : « تَرَكُ
الشَّرَّ صَدَقَةٌ » وقوله : « الحَيْرُ كثيرٌ وقليلٌ فَأَعْلَهُ » وقوله : « الناس كمعادن الذهب »
وقوله : « نَزَلَتِ المعونةُ على قَدَرِ المؤونة » وقوله : « إذا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا جعلَ له واعظًا

(١) رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب ، والدارمى فى سننه ٢ / ٤٤١ دمشق . وابن حجر فى فتح البارى ٩ / ٥٨ .

(٢) سورة الجن ، من الآيتين : ١ ، ٢ .

(٣) الباقلانى ، ص : ١٨٥ عن القاضى ابن قتيبة فى عيون الأخبار ٢ / ٣١٣ .

من نَفْسِهِ « وقوله : « أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ وَلَا تَحْنُ مِنْ خَانَكَ » وقوله : « الْمُؤْمِنُ غَرٌّ^(١) كَرِيمٌ ، وَالْفَاجِرُ خَبٌّ^(٢) لَثِيمٌ » وقوله : « الدُّنْيَا سَجْنُ الْمُؤْمِنِ وَبِلَاوُهُ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ وَرِخَاوُهُ » .

إن هذه الأقوال الشريفة لسمو فصاحتها ووفرة حلاوتها جرت مجرى الأمثال السائرة ورددها العلماء ، وحفظها الحكماء ، وتخلق بها الكبراء .

كلام الرسول الذي لا يشاكل فصاحة :

ومن كلامه الذي لا يشاكل في فصاحته قوله ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالْمُشَاوِرَةَ فَإِنَّهَا تَمِيتُ الْغُرَّةَ وَتُحْيِي الْفُرَّةَ » وقوله : « لَا تَزَالُ أُمْتِي بِخَيْرٍ مَا لَمْ تَرَ الْأَمَانَةَ مَغْنَمًا وَالصَّدَقَةَ مَغْرَمًا » وقوله : « رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ خَيْرًا فَنَعِمَ أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ » وقوله : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَنَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَعَيْنٍ لَا تَدْمَعُ » وقوله : « هَلْ يَطْمَعُ أَحَدُكُمْ إِلَّا غِنًى مُطْغِيًا أَوْ فَقْرًا مُنْسِيًا ، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا^(٣) أَوْ الدَّجَالَ فَهُوَ شَرٌّ غَائِبٌ يَنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةُ فَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمَرٌّ » وقوله : « ثَلَاثُ مَنْجِيَّاتٍ وَثَلَاثُ مَهْلِكَاتٍ ، فَأَمَّا الْمَنْجِيَّاتُ فَخَشْيَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَالِاقْتِصَادُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ ، وَالْحَكْمُ بِالْعَدْلِ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ ، وَأَمَّا الْمَهْلِكَاتُ فَشَحُّ مَطَاعٍ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » وقوله : « وَتَقَبَّلُوا لِي بَسْتُ أَتَقَبَّلُ لَكُمْ بِالْجَنَّةِ ، قَالُوا : وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبُ ، وَإِذَا وَعَدَ فَلَا يُخْلِفُ ، وَإِذَا ائْتَمَنَ فَلَا يَخْنُ ، غَضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ » وقوله في بعض خطبه : « أَلَا إِنَّ الْأَيَّامَ تُطْوَى ، وَالْأَعْمَارَ تَفْنَى ، وَالْأَبْدَانُ فِي الثَّرَى تَبْئَلُ ، وَإِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَتَرَكَضَانِ تَرَكَضَ الْبَرِيدِ ، يُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ ، وَيُخْلِقَانِ كُلَّ جَدِيدٍ ، وَفِي ذَلِكَ - عِبَادَ اللَّهِ - مَا أَهَى عَنِ الشَّهَوَاتِ ، وَرَغَّبَ فِي الْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ » .

وقوله في بعض خطبه وقد خاف من أصحابه فترة :

(١) الغر : الحسن الطوية فيه براءة .

(٢) خب : الخداع .

(٣) مفنداً : غرماً مفقداً للعقل .

« أيها الناس : كأن الموت فيها على غيرنا كتب ، وكأنَّ الحقَّ فيها على غيرنا وَجَبَ ، وكأنَّ الذي يُشَيِّعُ من الأموات سفرٌ عما قليل إلينا راجعون ، نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَانَهُمْ ، ونَأْكُلُ ثَرَاثَهُمْ كأنَّا نخلدون بعدهم ، قد نسينا كلَّ واعظة ، وأَمِنَّا كُلَّ جائحة (١) ، طُوبَى (٢) لمن شغلته آخرته عن دنياه ، طُوبَى لمن شغله عيُّه عن عيوب الناس . »

وقوله لأصحابه : « خيركم من لم يترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه . »

يقول أبو الحسن الماوردي : إن كلامه ﷺ جامع لشروط البلاغة ، ومعرب عن نهج الفصاحة ، ولو مُزجَ بغيره لتبين بأسلوبه ، ولظهر فيه - أى في المزج - آثارُ التنافر ، فلم يلتبس حقُّه من باطله ، وكَبَانَ صِدْقُهُ من كذبه .

ويمضى الماوردي قائلاً : هذا ، ولم يكن - أى : الرسول ﷺ متعاطياً للبلاغة ، ولا مخالطاً لأهلها من خطباء أو شعراء أو فصحاء ، وإنما هو من غرائز فِطْرَتِهِ ، وبداية جِبِلَّتِهِ ، وما ذاك إلا لغاية تُرَادُّ ، وحادثة تُشَادُّ . فإن قيل : إذا كان كلامه مخالفاً لكلام غيره في البلاغة والفصاحة حتى لم يكن فيه مساجلا ، أَيْكون له معجزا ، ولا يكون مع عدم التحدى معجزا (٣) .

وقصارى القول في هذا الفصل أن الفرق كبير ، والبون شاسع بين كلام الله - عز وجل - وبين كلام رسوله ﷺ مثلاً أن الفرق كبير والتمييز شديد الوضوح بين كلام رسول الله ﷺ وبين كلام غيره من فصحاء البشر ، ونعنى بهم هنا فصحاء العرب وبلغاءهم سواء أكان ذلك في عصره ﷺ أو قبله أو بعده .

(١) جائحة : يعنى مهلكة .

(٢) الطوبى : تعنى الغبطة والسعادة والخير .

(٣) أعلام النبوة ص : ٢٦٨ .



الفصل الرابع

التناول القرآني
والتناول النبوي لقضية بذاتها

التناول القرآنى والتناول النبوى لقضية بذاتها

إن كلاً من الكتاب العزيز والسنة الشريفة يشكلان المصدر الإلهى للتشريع الإسلامى ، ذلك أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ؛ ولذلك قال الإمام أحمد بن حنبل : السنة مبينة للكتاب ، يدخل فى هذا المعنى أن كثيراً من الأحكام تأتى فى الكتاب العزيز مجملة ثم تضطلع السنة النبوية بتفصيلها ، كما هو الأمر فى الصلاة ، فالقرآن الكريم يشتمل على الأمر بإقامة الصلاة ، ولكن السنة النبوية الشريفة تضطلع بتفصيلاتها من نية وتكبيرات وقراءة وركوع وسجود وتشهد وغير ذلك ، والرسول ﷺ يقول : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » وكذلك الشأن فى بقية التكاليف والأحكام .

وهكذا يكون النص القرآنى والحديث النبوى كثيراً ما يشتركان فى تناول الموضوع الواحد ، وهنا يبدو الفرق واضحاً بين الأسلوب القرآنى الإلهى المعجز ، والأسلوب النبوى البشرى الذى هو فوق أساليب البشر ودون أسلوب العزيز الحميد .

ولمزيد من البيان والإيضاح بين أسلوب القرآن وأسلوب النبى سوف نعرض لبعض الموضوعات التى تناولها القرآن الكريم تكليفاً أو توجيهاً أو تقريراً ، وتناولها كذلك الحديث النبوى الشريف ، وقد سبق القول أن السنة مبينة للكتاب ومكملة لأحكامه .

رحمة الله :

الله - سبحانه - هو أرحم الراحمين ، وهو - جلت قدرته - يضمن كتابه العزيز تأكيداً لرحمته فى العديد من السور والكثير من الآيات .

قال - تعالى - : ﴿ قُلْ يَعْبادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ

رَحْمَةً إِلَهِيَّةً إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾.

إنها تجليات إلهية سامية ، تدخل إلى النفس السكينة ، وتغمر القلوب بالطمأنينة ، وتبعد عنها أسباب اليأس ودوافع القنوط ، مما يهون مواجهة الموت ويحبب لقاء الله ؛ والأسلوب الرباني في الآية يفرض التسليم بالكمال ، - والتفرد بالجلال ، لهذا الكلام الذي تحدى الإنس والجن جميعاً أن يأتوا بسورة من مثله .

مثال آخر من آيات الرحمة استهلكت على لسان سيدنا موسى ، وانتهت بتفضل إلهي بالرحمة الواسعة للمؤمنين المتقين .

يقول الرحمن الرحيم - سبحانه وتعالى - : ﴿ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا أَيْمَانُكَ تَصِلُ بِهَا مِنْ شَاءٍ وَتَهْدِي مَنْ شَاءَ أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ . وَكَتُبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْ بِهَا الَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢).

لننظر بعد ذلك التناول المحمدي لرحمة الله ، وكيف أن الرسول ﷺ أكدها للناس وحببها إليهم وثبتها في قلوبهم ، ولكن بأسلوبه البشري السامي في نطاق البشرية ، الرفيع في نطاق الإنسانية .

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : قُدِّمَ على رسول الله ﷺ بسبي ، فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبياً في السبي أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته ، فقال رسول الله ﷺ : « أَتُرَوْنَ هذه المرأة طارحةً ولدها في النار ؟ قلنا : لا والله ، فقال : الله

(١) الزمر ، الآية : ٥٣ .

(٢) الأعراف : ١٥٥ ، ١٥٦ .

أرحم بعباده من هذه بولدها» (١).

ثمت أحاديث نبوية شريفة تناول فيها رسول الله ﷺ رحمة الله ، بشرى للمؤمنين ، وتثبيتاً لقلوبهم ، وإدخالاً لمزيد من الإيمان في قلوبهم برحمة الله الذى وسعت رحمته كل شىء ، بنفس الأسلوب المحمدى الإنسانى الرفيع الذى يفوق فصاحة الفصحاء ، ويرجح بيان الأبيناء ، ويدفع بلاغة الإنس والجن ، ولكنه يبقى دون كلام الله بالبنون الشاسع الذى يتوضح عند الاستقراء ، ويثبت عند الاقتضاء .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى » ، وفى رواية : «سبقت غضبى» (٢). متفق عليه

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » (٣). وللحديث روايات أخرى .

وعن سلمان الفارسى قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم » (٤). رواه مسلم

وعن أبى موسى - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » (٥). رواه مسلم

الجهاد فى سبيل الله :

العقيدة الإسلامية قامت بالدعوة إلى الله على بصيرة ، قام بها رسول الله - صلى الله

(١) متفق عليه ، أورده النووى فى رياض الصالحين ، باب الرجاء .

(٢) هذه الأحاديث رواها الحافظ النووى مخرجاً إياها فى رياض الصالحين ، صفحات : ١٨٥ ، ١٨٦ ، (٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥)

(٣) طباعة عبد الرحمن محمد . ١٨٧ ، ١٩١

عليه وسلم - والرعيّل الأول من صحابته من المهاجرين والأنصار ، وأما تثبيت الدعوة ودعم بنيانها ، وتوطيد أركانها ، وتوسيع مداها ، والإبقاء على كيائها ، والحفاظ على المؤمنين بها حتى تستمر عبادة الله في الأرض ، فكان ذلك جميعا بأداء فريضة الجهاد في سبيل الله .

لذلك تعددت آيات الجهاد في الكتاب العزيز ، وتباينت أساليبها ترغيبا وترهيبا ، ووعداً ووعيداً ، وتتابع آيات تفضيل المجاهدين على القاعدين في احتفال قرآني جليل .

يقول الله تعالى في الجهاد في سبيله : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُم عَلَى تَحْرِقِ نُجُحِكُمْ مِّنْ عَذَابِ الْيَمِّ * تَوْمَنُونَ بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُحْجِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللّٰهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّٰهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللّٰهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللّٰهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّٰهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللّٰهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِآبِ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَرِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ

(١) سورة الصف ، الآيات : ١٠ - ١٣ .

(٢) النساء ، الآيتان : ٩٥ ، ٩٦ .

حَقَّافِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ
 اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١﴾
 وقال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
 شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ
 لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

هذه بعض آيات الجهاد في سبيل الله من كلام الله - سبحانه وتعالى - في الأسلوب
 الرباني ، وكذلك احتفل رسول الله ﷺ بالدعوة إلى الجهاد في سبيل الله ، وقد كان
 هو القائد الذي يقود المعارك ضد المشركين ، يتقدم الجيش ، وينظم الصفوف ،
 ويدعو إلى الثبات أمام العدو ، فلم يعرف هو وصحبه التقهقر أو الفرار ؛ لأن
 التكليف الإلهي يدعوه إلى ذلك ، ويمده بأنواع شتى من المدد الرباني ، الذي يكون في
 أشكال مختلفة مثلما حدث في بدر وكما جرى في الخندق .

« إن الأحاديث في فضل الجهاد أكثر من أن تحصر فمن ذلك (عن) أبي هريرة -
 رضى الله عنه - قال : سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « إِيْمَانٌ بِاللَّهِ
 وَرَسُولِهِ . قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : حُجٌّ
 مَبْرُورٌ » متفق عليه .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه - قال : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى
 اللَّهِ تَعَالَى ؟ قَالَ : « الصَّلَاةُ عَلَى وَفَّيْهَا » قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « بِرُّ الْوَالِدَيْنِ » . قُلْتُ :
 ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » متفق عليه .

(١) التوبة : ١١١ .

(٢) البقرة : ٢١٦ .

وعن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَى الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ » متفق عليه .

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا ، وَمَوْضِعُ سَوْطٍ أَحَدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا ، وَرَوْحَةُ يَرْوَحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ الْغَدَاةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا » متفق عليه .

وعن سلمان رضى الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ ، وَإِنْ مَاتَ فِيهِ أُجْرِي عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنْ الْفَتَنَ » رواه مسلم .

وعن فضالة بن عبيد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كُلُّ مَيِّتٍ يُحْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُنَمَّى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيُؤْمَنُ فَتَنَةُ الْقَبْرِ » رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ ، لَا يَخْرُجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِي وَإِيمَانٌ بِي وَتَصَدِيقٌ بِرَسُولِي ، فَهُوَ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ أُزَجِعَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كَلِمٍ ، لَوْ أَنَّهُ لَكُنُ دَمٍ ، وَرِيحُهُ رِيحُ مِسْكِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا ، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً ، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنْ أَغْزُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ ، ثُمَّ أَغْزُوَ فَأُقْتَلَ ثُمَّ أَغْزُوَ فَأُقْتَلَ » رواه مسلم وروى البخارى بعضه .

وعن أنس - رضى الله عنه - أن النبی قال : « مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدُ ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَاتٍ لِمَا يَرَى مِنَ الْكِرَامَةِ » وفي رواية « لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ » متفق عليه .

إن أحاديث الرسول ﷺ في الجهاد كثيرة ، وهى متنوعة الأساليب من وعد ووعيد ،

وترغيب وترهيب ، والترغيب فيها هو الأكثر والأوفر ، لفضل الجهاد عند الله ، وفضل المجاهد على سائر المؤمنين .

وإن أحاديث الجهاد على سمو غاياتها ، وبلاغة كلامها ، وبعيد مقاصدها وتميزها على كلام البشر هي دون كلام الله ، فالفرق بينهما شاسع ، والبون بعيد .

اليتامى والمساكين :

لليتامى والمساكين سهم وافر من العناية في القرآن الكريم ، وإنه باستعراض آيات اليتامى والمساكين نجد أن المولى - سبحانه وتعالى - قد أوحى إلى رسوله بالآيات الخاصة بهم في مقام التكليف والتشريع ، ثم في مقام التحذير والتشدد .

ففى مقام التكليف والتشريع تأكيداً لحق اليتيم والمساكين فى الغنائم ، يقول الله -

ويذكر الله - سبحانه وتعالى - رسوله بميثاق بنى إسرائيل فى عبادة الله الواحد الأحد والإحسان بالوالدين وذوى القربى واليتامى والمساكين ، فى قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالِ الْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (١).

وقوله - تعالى - : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ أَمْنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفَتْحِ الْجَمْعَانِ ﴾ (٢).

وفى تقرير الحفاظ على مال اليتيم يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ

(١) الأنفال ، الآية : ٤١ .

(٢) البقرة ، الآية : ٨٣ .

إِلَّا بِأَلْقَى هِيَ أَحْسَنُ ﴿١﴾.

تلك كانت آيات التقرير الإلهي لحق اليتامى والمساكين في مغنم جيوش المسلمين ، وفي الميثاق الذي أخذه المولى - سبحانه - على بني إسرائيل ، وفي التأكيد على الحفاظ على مال اليتيم حتى يبلغ أشده .

وفي تقرير القرآن الكريم للعصاة وتوبيخه لهم يجعل حيثيات توبيخهم في الإساءة إلى اليتيم وتجويع المسكين ، وذلك في قوله - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ * كَلَّا بَلْ لَّا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ أَلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (٢).

كان ذلك طرفاً من الإعجاز الرباني في السبك القرآني حول تمكين حق اليتيم في حسن المعاملة والحفاظ على ماله ، وثبتت حق المسكين في أن يطعم ويكرم ولا يجوع ولا يهان .

وإذا كانت السنة مبينة للكتاب كما سبقت الإشارة في صدر هذا الفصل ، فإن رسول الله ﷺ يسير في مضمار كتاب الله ، ويقتفى معانيه في الموضوع نفسه ، ولكن بأسلوب متغاير وتناول متفاوت ، إنه تغاير ما بين كلام الله وكلام البشر، وتفاوت ما بين أسلوب القرآن وأسلوب محمد ﷺ .

غير أن النبي ﷺ وقد استوعب التشريعات الإلهية في القرآن الكريم لحقوق اليتامى

(١) الأنعام : ١٥٢ .

(٢) سورة الفجر ، الآيات من ١٥ - ٢٠ .

والمساكين فقد عمد ﷺ إلى أن تكون أحاديثه في هذا الشأن بهدف الترغيب والتشجيع ،
فوضح لأُمَّته مكانة كافل اليتيم وثواب مطعم المسكين .

قال ﷺ : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » وقال بأصبعه السبابة والوسطى .
وفي رواية : « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين » وأشار بأصبعيه السبابة
والوسطى . (١) حديث حسن صحيح

وكافل اليتيم هو القيم بأمره ومصالحه ، وقد يكون جداً أو عمّاً أو أخاً أو غير
ذلك .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « كافل
اليتيم له أو لغيره أنا وهو في الجنة كهاتين » وأشار الراوى وهو مالك بن أنس بالسبابة
والوسطى (٢) .

وعن نفس الموقف يروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « خيرُ بيتٍ في المسلمين
بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشرُّ بيتٍ في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » (٣) .

وعن المرأة الأيم التي ترملت لكي تربي ولدها قال عوف بن مالك : قال رسول الله
ﷺ : « أنا وامرأة سفهاء الخدين ، امرأة آمت من زوجها ، فصبرت على ولدها كهاتين
في الجنة » (٤) .

وفي شأن من يعول يتيماً يروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « الساعي على الأرملة
والمساكين كالمجاهد في سبيل الله الذي لا يفتر ، وكالصائم الذي لا يفطر » (٥) .

(١) الحديث ٦٠٠٥ من شرح النووي لمسلم .

(٢) رياض الصالحين ، باب ملاطفة اليتيم والبنات . قوله - صلى الله عليه وسلم - : « اليتيم له أو لغيره » معناه : قريبه
أو الأجنبي عنه .

(٣) ابن ماجه (كتاب الأدب) باب حق اليتيم ، رقم ٣٦٧٩ .

(٤) أبو داود (كتاب الأدب) باب في فضل من عال يتيماً .

(٥) البخارى (كتاب النفقات) باب في فضل النفقة على الأهل . ومسلم كتاب الزهد .

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من عال جاريتين^(١) حتى تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين » وضم أصابعه .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : جاءنى مسكينة تحمل ابنتين لها ، فأطعمتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل واحدة منهما ثمرة ، ورفعت إلى فيها ثمرة لتأكلها ، فاستطعمتهما ابتها ، فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبني شأنها ، فذكرت الذى صنعت لرسول الله ﷺ فقال : « إن الله قد أوجب لها بهما الجنة ، أو أعتقها بهما من النار !! »

هذه نماذج للفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب النبى فى موضوع اليتيم والمسكين ، ولعلنا نلاحظ قدسية أسلوب القرآن الكريم الذى هو كلام الله ، وشفافية كلام الرسول المتسم بأعلى درجات الفصاحة البشرية .

مكانة الأنصار ومحبتهم بين كلام الله وكلام الرسول :

جاء فى فضلهم وحُبهم والوصية بهم والتجاوز عن سيئهم والنهى عن بُغْضهم :
قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾^(٢) وقال الله - عز وجل - : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً لِّمِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٣) وقال تَقَدَّسَ اسْمُهُ : ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾^(٤) .

(١) جاريتين : يعنى بنتين .

(٢) سورة الأنفال ، آية : ٧٤ .

(٣) سورة الحشر ، آية : ٩ .

(٤) سورة الأنعام ، آية ٨٩ .

وعن عَيَّلَان بن جرير قال : قلت لأنس : أَرَأَيْتَ اسم الأنصار كنتم تُسمَّونَ به أم سَمَّاكم الله ؟ قال : بل سَمَّانا الله عَزَّ وَجَلَّ «^(١)» ، رواه البخارى والنسائى .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - يرفعه : « إِنْ الله أَمَدَّنِي بِأَشَدِّ النَّاسِ أَلْسِنًا وَأَذْرَعًا ، بِابْنَيْ قَيْلَةَ : الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجِ » رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن أبى واقد الليثى قال : كنت جالسا عند رسول الله ﷺ فَأَتَاهُ آتٌ فَالْتَقَمَ أُذُنَهُ فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ وَسَارَ الدَّمُ فِي أَسَارِيرِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « هَذَا رَسُولُ عَامِرِ بْنِ الطَّفِيلِ يَتَهَدَّدُنِي فَكَفَانِيهِ اللهُ بِالْبَيْتَيْنِ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بِابْنَيْ قَيْلَةَ » ، يعنى الأنصار ، رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط .

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : رأى رسول الله ﷺ النساء والصبيان مُقْبِلِينَ مِنْ عُرْسٍ فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مُثْمِلًا ^(٢) ، فقال : « اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ » ، [قالها ثلاث مرات] . رواه البخارى ^(٣) .

وعنه أيضا قال : جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ ومعها صَبِيٌّ لَهَا فَكَلَّمَهَا [رسول الله ﷺ] فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ » ، مَرَّتَيْنِ ، رواه الشيخان والنسائى .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه يرفعه قال : قال النبى ﷺ : « الْأَنْصَارُ لَا يُجِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يَبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ » ^(٤) ، رواه الستة خلا أبو داود .

وعن أنس - رضى الله عنه - يرفعه : « آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ » رواه الشيخان والنسائى .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه باب مناقب الأنصار ج ٥ ص ١٠٨ .

(٢) فى النووى على مسلم ج ١٦ ص ٦٧٠ : « ممثلا » بضم الميم الأولى وإسكان الثانية ويفتح الثاء المثلثة وكسرها ، كذا روى بالوجهين وهما مشهوران . جمهور الرواة بالفتح وفى البخارى بالكسر ، ومعناه : قائما منتصباً ، وعند بعضهم مقبلاً . وللبخارى فى كتاب النكاح : « عمتنا » بقاء مشاة فوق ونون . من المنة ، أى : متفضلاً عليهم .

(٣) صحيح البخارى ج ٥ ص ١١١ .

(٤) صحيح البخارى ج ٥ ص ١١٠ .

وعن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ مرَّ ببعض سكك المدينة فإذا بجوار
يَضْرِبْنَ بِدُفَيْنٍ وَيَتَغَنَّيْنَ وَيَقُلْنَ :

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ يَا حَبَدَا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ

فقال رسول الله ﷺ : « اللهم تعلم أنى لأحِبُّكُنَّ » ، حديث صحيح رواه ابن
ماجه .

وعن سعد بن عُبَادَةَ يرفعه : « إن هذا الحَيَّ من الأنصارِ مُحَنَّةٌ : حُبُّهُمْ إِيْمَانٌ
وَبُغْضُهُمْ نِفَاقٌ » رواه الإمام أحمد .

وعن أبى سعيد الخُدْرِيّ يرفعه : « حُبُّ الأنصارِ إِيْمَانٌ وَبُغْضُهُمْ نِفَاقٌ » ، رواه الإمام
أحمد .

وعنه : « لا يَبْغِضُ الأنصارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » ، رواه الإمام أحمد .

وعنه أيضاً يرفعه : « مَنْ أَحَبَّنِي أَحَبَّ الْأَنْصَارَ ، وَمَنْ أَبْغَضَنِي فَقَدْ أَبْغَضَ الْأَنْصَارَ
لَا يُحِبُّهُمْ مَنَافِقٌ وَلَا يَبْغِضُهُمْ مُؤْمِنٌ ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ
النَّاسُ دِثَارٌ وَالْأَنْصَارُ شِعَارٌ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتِ
شُعْبُ الْأَنْصَارِ » رواه الإمام أحمد (١) .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

قال تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٣) .

(١) سبل الهدى والرشاد ٣ / ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) آل عمران ، الآية : ١٠٤ .

(٣) آل عمران ، الآية : ١١٠ .

وقال جل من قائل : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (١).

تلك كانت كلمات الله - سبحانه وتعالى - في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
ولكل آية كلمات تستهّل بها ، فاستهلال الآية الأولى أمر من الله - سبحانه - أن يكون
بين المسلمين أمة يدعون إلى الخير .

واستهلال الآية الثانية تقرير من الله الخالق الأعظم أن أمة الإسلام هي خير أمة
أخرجت للناس ، والاستهلال في الآية الثالثة ، تقرير من الله - سبحانه - أن المؤمنين
والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، وأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

ذلك هو جلال الإيجاز وقمة الإعجاز بأقصر الكلمات في أعظم الموضوعات .

وفي هدى القرآن وتوجيهه يبيّء التقرير المحمدى لأوامر الله - سبحانه -
وللتوجهات الربانية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو شعار جليل من
شعارات الإسلام .

عن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ
رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ
الْإِيمَانِ » رواه مسلم .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي
أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِنَّهَا
تُخْلَفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ
فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، لَيْسَ
وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ » رواه مسلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي

(١) التوبة ، الآية : ٧١ .

الطُّرُقَاتِ « فَقَالُوا يَارَسُولَ اللَّهِ : مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدَّ ، نَتَحَدَّثُ فِيهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ » قَالُوا وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَارَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : غَضُّ الْبَصَرِ ، وَكَفُّ الْأَذَى ، وَرَدُّ السَّلَامِ ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ » متفق عليه .

وعن حذيفة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ : « أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدَلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ » رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ : وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ .

إنه من الواضح بمكان أن الرسول ﷺ قد استلهم من الآيات القرآنية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آداباً لكى يربى المسلمين عليها ، مثل حق الطريق الذى هو غض البصر ، وكف الأذى ، وزد السلام ، ومثل الإنذار بعقاب الله فيما لو تخلى المسلمون عن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين هما من شعارات الإسلام ولزوميات توجيهاته .

وبعد : فإن الأمثلة كثيرة في الفرق بين كلام الله وكلام النبي مثلما هو الحال في آيات الربا وأحاديث الرسول ، ومثل موضوع الظلم ، ومثل طلب العلم ، ومثل كنز المال ، وغير ذلك .

وإن التفرقة بين كلام الله وكلام الرسول سجيّة في خاطر المؤمن العالم لاتساع الفرق بين النمط الإلهي في التعبير والإحساس بالعجز الفوري عن مجاراته ، والإحساس في الوقت نفسه عند قراءة كلام النبي ﷺ أو سماعه بسيمات البشرية تلازمه ، وعبق النبوة يفوح منه ، ولكنه على بشريته معجز إذا قورن بغيره من كلام البشر ، وقد أقر صحابته ﷺ أنه أفصح الناس جميعاً ، وقد تمثل ذلك في قول أبي بكر له : يَارَسُولَ اللَّهِ ، مَا رَأَيْنَا الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ مِنْكَ .

إن خير ما نختم به هذا الباب هو ما ختمنا به الفصل الأول من أن معرفة الفرق بين

أسلوب القرآن وغيره من أساليب البشر أمر يسلم به الدارسون المتخصصون من العرب
ومن غير العرب مثل المستشرق (ألان جونز) الذي شغله هذا الموضوع فترة طويلة من
الزمان استعان خلالها بالحاسوب (الكمبيوتر) وانتهى - طبقا لما ذكر لي - إلى أن القرآن
ليس من كلام محمد ﷺ كما يسلم به العرب الفصحاء تسليم السليقة ، وهنا نعيد الخبر
الذي حكاه أبو عبيدة بن معمر من أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ ﴿ فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ
وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فخرّ ساجدا وقال : سجدت لفصاحة هذا الكلام .



الرسول والشعر

الفصل الأول : الرسول وموقفه من الشعر .

الفصل الثاني : شعراء الصحابة يمدحون الرسول .

الفصل الثالث : استسقاء الرسول .

الفصل الرابع : الرسول وخبر قس بن ساعدة .

الفصل الخامس : كعب بن زهير يعلن إسلامه وتوبته ويمدح الرسول .

الفصل السادس : الصحابييات الشاعرات .

الفصل السابع : الشعر في عام الوفود .

الفصل الثامن : شعر الغزوات والسرايا .

الفصل التاسع : المراثي في شهداء الغزوات .



الفصل الأول

الرسول وموقفه من الشعر

- * الرسول يسمع الشعر الجميل ويرفض القبيح
- * الرسول يمتدح الشعر الجاد .
- * الرسول يردد الشعر مع الصحابة ولا يقرضه.

الرسول وموقفه من الشعر

موقف الرسول من الشعر :-

تباينت مفاهيم كثير من رجال السيرة واختلفت شروح العلماء حول قضية الرسول ﷺ والشعر ، فالله - سبحانه وتعالى - يقول في محكم كتابه : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ ^(١) والمفهوم من الآية الكريمة هو أن الله - سبحانه وتعالى - لم يهب له أسباب قول الشعر ولم يهبه ملكة الشعر ؛ لأن الشعر - كما هو معروف - ملكة يهبها الله للإنسان ، تماماً مثل الصورة الجميلة ، ومثل الصوت الجميل ، إذ مهما يبذل أطباء التجميل مع الوجه القبيح فإنه يستحيل عليهم أن يجعلوا صورة إنسان دميم مماثلة لصورة إنسان خلقه الله جميلاً ، والمقياس نفسه يطبق على الصوت القبيح الذي يستحيل أن يتحول إلى صوت جميل مادام الخالق الأعظم لم يهبه ملكة الصوت الجميل ، فالله - سبحانه - ينفي عن الرسول صفة كونه شاعراً .

والقضية الثانية في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أى : أنه لا يحمل به أن يكون شاعراً ؛ فالشعر في كثير من حالاته يعد صفة تنال من كمال صفات صاحبه ، وهو ما عبر عنه الإمام الشافعى - رضى الله عنه - بعد ما يناهز قرنين من البعثة النبوية حين قال :

ولولا الشُّعْرُ بالعلماء يُزْرَى

لكنْتُ اليومَ أشعرَ من لبيد

ومن ثم فإنه لا ينبغى لسيد الخلق الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه أن يكون شاعراً .

(١) سورة يس ، الآية : ٦٩ .

تثار بعد ذلك شبهة ثلب الشعراء

في قوله - تعالى - : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ

يَهيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿ (١) ﴾ فالمقصود بالشعراء الذين ورد ذكرهم في الآية هم شعراء الكفار والذين يتبعونهم هم أهل الغي لا أهل الهدى ، وهؤلاء الأتباع هم رواة ذلك الشعر بما فيه من سفه القول وخوض في الأعراض وهجاء للشرفاء ، فهم - أى الشعراء - هائمون في قول الضلال ، جائرون على الحق ، متنكبون طريق الرشاد وقصد السبيل .

ثم يبيىء بعد ذلك الاستثناء الإلهي في قوله - عز وجل - : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ هذا الاستثناء قصد به شعراء رسول الله ﷺ كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله ابن رواحة وكل من كان بالصفة التي وصفه الله بها .

جاء في تفسير الطبرى أن رجلا قال لزيد بن حارثة : يا أبا أسامة ، أرايت قول الله - جل ثناؤه - : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ

يَهيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ فقال زيد : إنما هذا الشعراء المشركين وليس شعراء المؤمنين ، ألا ترى أنه يقول : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فقال الرجل : فرجت عنى يا أبا أسامة فرج الله عنك (٢) .

ويذكر الطبرى كذلك رواية عن سالم البراد مولى تميم الدارى قال : لما نزلت ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون . فقالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أننا شعراء ، فتلا النبى ﷺ : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

(١) سورة الشعراء ، الآيات : ٢٢٤ - ٢٢٦ .

(٢) الطبرى الجزء ١٩ فى تفسيره الآيات ٢٢٤ - ٢٢٧ من سورة الشعراء .

وَأَنْصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا أَوْ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٤﴾ .

خلاصة الرأي هنا أن الشعر ليس فنا قبيحا ، وإنما الانحراف به عن جادة الإيمان والخلق الحسن ، وتوظيفه للأمور القبيحة ولما لا يجمل من القول هو الغواية بعينه ، وهو السوء بعينه ، وأما الشعر الذى يجاهد به قائله فى سبيل الله ، أو ذلك الذى يحمل الحكمة والرأى الجميل ، ويبشر بمكارم الأخلاق فهو قول يعجب الله ويعجب رسوله وكل ذى رأى سديد .

وأما ما أورده البخارى من قوله ﷺ : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قبيحا خيرا له من أن يمتلىء شعرا » (١) فإن المقصود بهذا الشعر هو الشعر الما جن المنحرف الطاعن فى أعراض الناس ، والمشجع على الفاحشة ، يؤيد ذلك ما روته أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - عن النبى ﷺ قال : « إن أعظم الناس جرما إنسان شاعر يهجو القبيلة من أسرها ورجل تنفى عن أبيه » (٢) .

ويزيد رسول الله ﷺ صورة الشعر وضوحاً ، فتقول عائشة - رضى الله عنها - : سئل رسول الله ﷺ عن الشعر فقال : « هو كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح » (٣) .

ويروى البخارى الحديث بطريقة أخرى عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « الشعر بمنزلة الكلام . حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام » (٤) .

الرسول يمتدح الشعر الجاد :

وإذا كان رسول الله ﷺ قد أوضح رأيه فى الشعر من حيث كونه كلاما فيه الحسن وفيه القبيح ، والحسن منه مقبول ممتدح ، والقبيح منه مردول مستقبح ، فإنه ﷺ يمتدح الشعر الجيد والكلام البليغ بما يطريه ويشرفه . عن ابن عباس - رضى الله عنه - أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فتكلم بكلام بين ، فقال النبى ﷺ : « إن من البيان لسحرا ،

(١) الأدب المفرد ج ٢ الحديث رقم ٨٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، الحديث رقم ٨٧٤ .

(٣) الحديث أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد (كتاب الأدب) باب الشعر ٨ / ١٢٢ .

(٤) الأدب المفرد ج ٢ الحديث رقم ٨٦٥ .

وإن من الشعر لحكمة» (١) ثم يخص رسول الله ﷺ الشعر بهذا الوصف في قوله رواية عن أبي بن كعب : « إن من الشعر لحكمة » (٢).

وكان إعجاب الرسول ﷺ بالبيان الناصع والشعر الجيد يتكرر حيثما قيل في حضرته كلام بليغ ، أو أنشد في ساحته شعر جيد ، لقد روى البيهقي في دلائل النبوة عن ذابل ابن الطفيل بن عمرو الدوسي - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ قعد في مسجده منصرفه من الأباطح ، فقدم عليه خفاف بن نضلة بن عمرو بن بهدلة الثقفي فأنشد رسول الله ﷺ . . .

كَمْ قَدْ تَحَطَّمْتُ الْقُلُوصُ بِي الدُّجَى	فِي مَهْمِهِ قَفَرٍ مِنَ الْقَلَوَاتِ
فَلْ مِنْ التَّوْرِيسِ لَيْسَ بَقَاعِهِ	نَبْتُ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالْأَزْمَاتِ
إِنِّي أَتَانِي فِي الْمَنَامِ مُسَاعِدٌ	مِنْ جَنِّ وَجَرَّةٍ كَانَ لِي وَمَوَاتِ
يَدْعُو إِلَيْكَ لِيَالِيًا وَلِيَالِيًا	ثُمَّ اخْزَأْ وَقَالَ لَسْتُ بِآتِ
فَرَكِبْتُ نَاجِيَةً أَضَرَّ بَنِيهَا	جَمَزُ نَجَبٍ بِهِ عَلَى الْأَكْمَاتِ
حَتَّى وَرَدْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ جَاهِدًا	كَيْمَا أُرَاكَ مُفَرِّجَ الْكُرْبَاتِ

قال : فاستحسنه رسول الله ﷺ وقال : « إن من البيان كالسَّجَرِ وإن من الشعر كالحِجَمِ » (٣).

(١) المصدر السابق ، الحديث رقم ٨٧٢ .

(٢) المصدر نفسه ، الحديث رقم ٨٥٨ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٥٠٠ .

المعاني :

الْقُلُوصُ : من النُّوقِ الشَّابَّةِ وهى بمنزلة الجارية من النساء .

الدُّجَى : - بدال مهملة مضمومة فجيم - من دَجَا اللَّيْلُ : إِذَا تَحَتَّ ظُلُمَتُهُ ، والدَّيَاجِى : اللَّيَالِى الْمُظْلِمَةُ ، والدُّجْنَةُ : الظُّلْمَةُ .

المَهْمَةُ - بميمين مفتوحتين بينهما هاء ساكنة - : الْمَقَاظَةُ وَالْبَرِّيَّةُ .

الْقَلَوَاتِ : جمع فلاة : وهى أرض لا ماء فيها .

الْفِيلُ - بفاء مكسورة فلام - : القوم المنهزمون ، من الْفَيْلِ : الْكَسْر ، وهو مصدر سُئِيَ به يقع على الواحد والاثنين والثلاثة .

وكان الرسول ﷺ في بعض الأحيان يستنشد أحد مجالسيه - خاصة إذا كان شاعرا - أن يسمعه شيئا من جيد الشعر ، فيرضى بذلك ويطرب ، إن عمرو بن الشريد يروى عن الشريد قال : استنشدني رسول الله ﷺ شعر أمية بن أبي الصلت ، فأنشدته ، فأخذ النبي ﷺ يقول : « هيه ، هيه » حتى أنشدته مائة قافية ، فقال : « إن كاد ليسلم » (١).

لقد كان أمية أبي الصلت يرفض عبادة الأصنام ويؤمن بالله ، ويتنسب إلى فئة الخنفاء من الشعراء ، ولكنه أبى أن يسلم لأنه شهد البعثة النبوية .

وقريب من ذلك ما رواه مسلم الخزاعي ثم المصطلقى قال : شهدت رسول الله وقد أنشده منشد قول سويد بن عامر المصطلقى :

لا تأمننَّ وإن أمسيتَ فى حَرَمٍ	إنَّ المنايا بكفَى كل إنسان
واسلك طريقك تمشى غير مختشع	حتى تبين ما يَمْنَى لك المانى
فكل ذى صاحب يوما يفارقه	وكل زاد وإن أبقيته فان
والخير والشر مقرونان فى قرْنٍ	بكل ذلك يأتيك الجديدان

من التَّوْرِس : من وَرَس الثَّوبَ بالوَرَس : صبَّغه به .

بِقَاعه ، القَاع : المُسْتَوَى من الأرض .

الإسْنَات : من اسْتَنَّا ، أى : أَجْدَبُوا .

الأَزْمَات : جمع أَزَمَة ، وهى الشِدَّة .

وَجَرَة - بواو مفتوحة فجيم ساكنة فراء مفتوحة فتاء تأنيث - : وهى فلاة بين قران وذات عرق .

المُؤَاتِي : الموافق المطاوع .

اخْرَأَل - بهمزة وصل مكسورة فحاء مهملة ساكنة فهمزة مفتوحة فلام مشددة - : انفرد ، والاحزئلال : الانفراد .

النَّاجِيَة : الناقاة السريعة التى تنجو بصاحبها .

أَضْرَبْتُهَا ، الضُّى بفتح النون وتشديد المثناة التحتيّة : الشَّخْم ، وبكسر النون : السَّمَن .

الجَمَز - بجيم فميم مفتوحين فزاي - : ضَرَب من السَّيْرِ سريع فوق العَتَق .

نَجَبَ - بمثناة فوقية فجيم موحدة - : تقطع .

الأَكْمَات : جمع أَكْمَة ، وهى الرابية .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب الشعر) الحديث رقم (١) ، والأدب المفرد ٢ / ٨٦٩ ، والشاغل النبوية ص : ١٢٨ .

فقال رسول الله ﷺ : « لو أدركته لأسلم » وفي رواية أخرى « لو أدرك هذا الإسلام لأسلم » فبكى مسلم ، فقال له ابنه . يا أبه ، ما يبكيك من مشرك مات في الجاهلية ؟ فقال : يا بني لا تفعل ، فما رأيت مشركة تلففت من مشرك خيرا من سويد (١).

ويروى أحمد بن عبد ربه أن النبي ﷺ سمع عائشة وهي تنشد شعر زهير بن خباب :

ارفع ضعيفك لا يُخْزِبَكَ ضعفه يوما فتدركه عواقبُ ما جنى
يجزيك أو يثنى عليك فإن مَنْ أثنى عليك بما فعلتَ كمن جزى
فقال النبي ﷺ : « صدق يا عائشة ، لا يشكر الله من لا يشكر الناس » (٢).

ويروى أبو حاتم عن الأصمعي قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : أنشدك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، فأنشده :

تركت القيان وعزف القيان وأدمنت تصلية وابتهاالا
وكرّى المشقر فى حومة وشنى على المشركين القتالا
فيارب لا أغبنن صفقتى فقد بعث مالى وأهلى بدالا
فقال النبي ﷺ : « ربح البيع ، ربح البيع » .

وقدم النابغة الجعدي على رسول الله ﷺ فأنشده شعره الذى يقول فيه :

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاوْنَا وَإِنَّا لَنَرَجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

فقال له النبي ﷺ : « إلى أين يا أبا ليلى ؟ » فقال : إلى الجنة يا رسول الله بك . فقال النبي ﷺ : « إلى الجنة إن شاء الله » فلما انتهى إلى قوله :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكْدَرَا

(١) المجازات النبوية ١ / ٢٦٨ . ومعنى : ما يمنى لك المانى : معنى ما يقدر لك القادر . القرن : الحبل . الجديدان : هما الليل والنهار .

(٢) العقد الفريد ٥ / ٢٧٥ .

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرًا
قال النبي ﷺ : « لا يفضض الله فاك » فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنغص له ثنية .
أى : لم تتحرك . وفي رواية أخرى : فكان إذا سقطت له سن نبت مكانها أخرى .
على أن الثابت أن الرسول ﷺ على ذروة فصاحته لم يقل شعرا ، فقد نفى الله عنه
تلك الصفة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ طبقا لما أوضحنا في مستهل هذا الفصل .

وإذا أنشد بيتا مشهورا من الشعر أنشده بألفاظه ومعانيه على غير وزنه العروضي ،
اللهم إلا مرة واحدة أنشد فيها صدر بيت لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ثم سكت عن إكمال البيت على ما فيه من توحيد لله سبحانه ، وتمجيد لذاته العلية ،
والإخبار بأن نعيم الدنيا إلى زوال ، ولن يبقى إلا وجه الله ذو الجلال والإكرام ، وهو :

وكل نعيم لا محالة زائل

ولطرفة بن العبد بيت مشهور موسوم بالبلاغة ، مطرز بالمعنى الحكيم ، وهو قوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فأنشده الرسول ﷺ على غير الوزن الشعري ، على هذا النحو :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً

ويأتيك من لم تزود بالأخبار

وللعباس بن مرداس بيت مشهور هو :

أتجعل نهبي نهب العبيد — مد بين عيئة والأقعر ؟

فأنشده الرسول ﷺ :

أَتَجْعَلُ نَهْيِي نَهْبَ الْعَبِيءِ — — — دِينَ الْأَقْرَعِ وَعَيْنَةَ

فقال الناس - محاولين رواية المصراع كما أنشأه الشاعر - : بين عيينة والأقرع ، فأعادها الرسول ﷺ « بين الأقرع وعيينة » ليكسر الوزن ويخرج البيت من دائرة الشعر ، لأنه قد صرف نفسه بأمر إلهي عن قول الشعر ، ثم رأى ﷺ حرجا حتى في روايته .

وإذا كان بعض العلماء - كما قد أسلفنا - يرون أنه لا يجمل بهم قول الشعر ، فإن الأنبياء أولى بذلك وأحق ، ولا يزال بيت الإمام الشافعي يرن في أسماع الزمان :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى

لكنت اليوم أشعر من لبيد

وكان لبيد واحدا من ألمع الشعراء في الجاهلية ، وأوفرهم بلاغة ، وأملكهم لئاصية الحكمة ، فلما جاء الإسلام ، وبزغ نور الرسالة السماوية ، سارع إلى الدخول في دعوة الحق ، وأقلع عن الشعر إقلاعا كاملا ، وقد ورد في بعض الخبر أنه لم يقل في إسلامه غير ذلك البيت الذي تمثل به الرسول ﷺ مجردا من وزنه على النحو الذي سلف ذكره ، والبيت في حالتيه - أعنى في حالة الوزن أو حالة نثره - تمجيد لله - سبحانه وتعالى - وتذكير للخلق بأن البقاء له وحده وما عداه فزائل بائد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكل نعيم لا محالة زائل

الحقيقة أن الشعر - كما قال الإمام الشافعي - لا يجمل بالعلماء قوله ، أو بالأحرى الأخذ بأسبابه ، والارتباط به ، والعيش في جيشانه ؛ لأن طبيعة الشعر إذا تفرغ المرء له صرفه عن التفرغ للعلم ، وذلك على الرغم من أن في الشعر حكمة وجمالا .

وقد كان لرسول الله ﷺ شعراء ينافحون عنه ويذودون عن الدعوة ، ويبشرون بالرسالة حسبما سوف نسوق من القول ، ولكن أحدا من هؤلاء الذين تفرغوا لقول الشعر في خدمة الدعوة لم يعرف بين الصحابة بعلم متميز أو بفقہ كثير ، ولا عليه في

ذلك ، فقد كان في تفرغه للذود عن حمى الرسالة ، والرد على أعدائها ، وقمع حجة الخصوم ، والدفاع عن الرسول ﷺ ما يجعل منه صحابيا عاملا ، ومجاهدا باسلا .

إن الأمر المهم أن الرسول ﷺ لم يقل الشعر ، ولم يكن خصما له ، وليس بمستبعد أنه كان يحفظ بعضه ، ولكنه لا يردده ، فإذا ما رده فإنه يجرده من وزنه ، ومن المعروف أنه ﷺ قد روى الخطبة المشهورة البليغة لقس بن ساعدة الإيادي ، فلما وصل إلى الجزء المنظوم شعرا منها التفت إلى الصحابة وقال : أيكم يروى شعره ؟ فأنشدوه الأبيات .

هكذا كان رسول الله ﷺ يتفادى رواية الشعر أو ترديده إلا في حالات قليلة ، وفي مواقف بعينها ، فقد روى أنه تمثل أو أنشأ رجزا ، وفي تلك المرات المعدودة لم يكن التمثل يجري بأكثر من بيت واحد ، وقد ذهبت بعض التعليقات في هذه الحال إلى أن الرجز أقرب إلى النثر منه إلى الشعر ، وإن تميز بشيء فهو كونه ضرباً من الوزن ، ثم أخذ الشعراء في إنشائه بعد ذلك وأجروه مجرى القصيد (١) .

لقد تمثل الرسول ﷺ ببيت رجز لأمية بن أبي الصلت ، وهو قوله :

إن تغفر اللهم تغفر جماً وأى عبد لك لا ألما

كما أنه ﷺ - على رواية البراء بن عازب - شوهده على بغلة بيضاء يوم حنين وعمه العباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذين بلجام بغلته وهو يقول : (٢)

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وينبغي هنا ألا يذهب الظن إلى أن النبي ﷺ كان يقصد إلى الشعر قصدا ، ولا إلى الفخر زهواً ، فهذان أمران يبرأ الرسول ﷺ منهما ، وإنما أراد أن يقرر حقيقتين خالصتين تثبتا لموقف المسلمين ، وتدعنيا لمعنوياتهم في معركة تعد من أكثر المعامع التي خاضها الرسول شراسة وحرارة ، إنه النبي الصادق في بعثته ، الأمين في رسالته ، ثم هو بعد

(١) راجع إعجاز القرآن للرافعي : الفصل الخاص بالبلاغة النبوية ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .

(٢) العقد الفريد ٥ / ٢٨٢ والشاغل المحمدية للترمذي ، ص ١٢٦ ، والبغلة التي كان يركبها الرسول هي دلدل ، وكانت بيضاء أهداها المقوقس له ، وقد ماتت في زمن معاوية .

ذلك كريم النسب جليل المنتمى ، وإذا كان المقصد الشعري غير وارد في هذا البيت ، فإنه يفوق السحر بيانا ، ويتجاوز الشعر بيانا .

ومن هذا الطراز من فن القول ما كان الرسول ﷺ يقول يوم بناء مسجده بالمدينة ، فقد كان ينقل اللّبن مع من يبنون المسجد ، ويقول مشجعا لهم مجسما لهم الثواب الذى ينتظرهم من رب العالمين :

هذا الحِمَالُ لا حِمَال خيبر هذا أْبْرُ - ربنا - وأطهر

والحِمَال - بكسر الحاء - هو التمر ، والتمر هنا هو تمر الجنة ، وليس تمر خيبر المشهورة بالجيد منه ، وإذا كان ثمت وزن في البيت فإن ذلك لا يعنى أن الرسول ﷺ يقصد إلى قول الشعر ، وإنما هو قول مرسل أشبه ما يكون بالشعر .

وثمرت قول آخر للرسول ﷺ جرى على لسانه يوم الخندق حين رأى المهاجرين والأنصار يحفرون في غداة باردة ، وبهم من النَّصَبِ والجوع ما بهم :

اللهم إن العيش عيش الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين :

نحن الذين بايعوا محمدا . على الجهاد ما بقينا أبدا

وفي رواية أخرى للبخارى عن أنس رضى الله عنه - الروايتان كلاهما للبخارى - كانت الأنصار يوم الخندق تقول : (١)

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما حيننا أبدا

فأجابهم الرسول قائلا :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأكرم الأنصار والمهاجرة

لقد تصور بعض رجال السيرة أن هذا الذى قاله رسول الله ﷺ شعر، مثل ابن

(١) الرواية الأولى ٣ / ٢٢ . والرواية الثانية ٢ / ١١١ وينظر كذلك صحيح مسلم (كتاب المساجد وموضع الصلاة) باب ابتداء مسجد النبى ٢ / ٦٥ .

شهاب الزهرى فى قوله : ولم يبلغنا فى الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل بيت شعر غير هذا (١).

والحقيقة أن هذا الذى قاله الرسول ليس بشعر إلا إذا حدث تغيير فى الرواية الأولى باستبدال لفظ (لَاهُمْ) - يعنى اللهم - بلفظ (اللهم) ، ومع ذلك فإن قول الشعر فى أى حالة لم يكن مقصدا من مقاصد الرسول . ولابن عبد ربه رأى سديد فى هذا الضرب من القول ، إذ يقرر أن هذا الكلام هو من المنشور الذى يوافق المنظوم وإن لم يتعمد به قائله المنظوم ، ومثل هذا من كلام الناس كثير مما يأخذه الوزن ولا يراد به الشعر ، ولا يسمى قول النبى ﷺ - وإن كان موزونا - شعرا ، لأنه لا يراد به الشعر . ومثله فى آى الكتاب كثير ، فمن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ اللَّجْومِ ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ وَحِفْافٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ﴾ ومثله : ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ظُلُمَاتٍ إِلَى نَارٍ ﴾ .

الرسول يردد الشعر مع الصحابة ولا يقرضه :

كان صحابة رسول الله ﷺ موسومين بالبلاغة والفصاحة وتذوق حلو الكلام ، وقد لا يعرف كثير من الناس أن عددا من الصحابة كانوا شعراء ، ولسنا نقصد حسان بن ثابت أو عبد الله بن رواحة أو كعب بن مالك ، فهؤلاء من الشهرة بمكان ، وكانوا ببلاغتهم واستبسالهم فى الذود عن الرسول والدفاع عن العقيدة ما جعلهم فى مقدمة شعراء الدعوة ، ولكننا نقصد آخرين من الصحابة الشعراء من أمثال أبى بكر ، وعلى ، والعباس عم رسول الله ، وأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهو ابن عم رسول الله ، وطالب بن أبى طالب أخى على ، وهو أيضا ابن عم رسول الله ، وعبد الله بن

(١) مجلد المغازى من تاريخ الإسلام للذهبي ص : ١٩ ويراجع صحيح البخارى (كتاب الفضائل) باب هجرة النبى إلى المدينة .

(٢) العقد الفريد (كتاب الزمردة) ج ٥ ص : ٢٨٣ .

الحارث السهمي ، وأبى زيد الأنصاري ، وعمرو بن العاص ، وخبيب بن عدى ،
وأبى الحكم بن سعيد بن يربوع ، وناجية بن جندب حامل لواء رسول الله في الحديبية ،
وأبى أنيس موهب بن رياح ، وعامر بن الأكوع ، والعباس بن مرداس وغيرهم كثيرين
مما لا يتسع المقام هنا لذكرهم .

بل قد كان من بين الصحابييات عدد كبير من الشاعرات ، تأتى في مقدمتهن
بطبيعة الحال تماضر بنت الشريد المعروفة بالخنساء ، ومنهن صفية بنت عبد المطلب
عمة رسول الله ﷺ وقتيلة بنت النضر ، وهند بنت أثاثة ، ونعم بنت سعيد امرأة
الصحابى شماس بن عثمان ، وغيرهن .

كان الشعراء يرتجزون وهم في صحبة الرسول ﷺ في المهمات الكبيرة كبناء المسجد ،
أو حفر الخندق ، أو الارتحال في سفر أو غزوة ، كما كانوا يرددون الجيد من الشعر على
سمعه الشريف ، فيطرب لذلك حيناً ويردد معهم حيناً آخر ، بل أحياناً كان يردد بيت
شعر في مناسبة طارئة ، مثال ذلك ترديده ﷺ هذا البيت :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إَصْبَعٌ دَمِيَتْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَتْ

عن جندب بن سفيان البجلي أن حجراً أصاب إصبع رسول الله فدميت ، وكان
ذلك في معركة أحد ، وقيل : بل قبل الهجرة - والرأى الأول أصوب - فأنشد الرسول هذا
البيت . والبيت من أرجوزة لعبد الله بن رواحة من جملة أبيات ردها في غزوة مؤتة ،
وهي الغزوة التي استشهد فيها سنة ٨ هـ :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إَصْبَعٌ دَمِيَتْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَتْ

يَا نَفْسُ إِلَّا تَقْتُلِي تَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيَتْ

وَمَا تَمْنَيْتِ فَقَدْ أُعْطِيَتْ إِنْ تَفْعَلِي بِفَعْلِهَا هُدِيَتْ

وَإِنْ تَأْخَرْتِ فَقَدْ شَقِيَتْ (١)

(١) الشماطل المحمدية للترمذى بشرح البيهقورى ، ص ١٢٥ وتاريخ الإسلام للذهبي ، قسم المغازى ص : ٤٠٥ .

ولقد سلف القول أن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - قد سئلت : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟ فقالت : كان يتمثل بشعر ابن رواحة ، ويتمثل بقوله :

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويقول الشريف الرضى : إنه جاء في السيرة النبوية أن المسلمين كانوا يرتجزون عند حفر الخندق بجعيل بن سراقه الضمري ويقولون : (١)

سَمَاهُ مِنْ بَعْدِ جُعَيْلٍ عَمْرًا وَكَانَ لِلْبَائِسِ يَوْمًا ظَهْرًا

فكان النبي ﷺ يقول معهم : « عمرا » و « ظهرا » أى : يردد قافية المصراع من البيت ، وهى سنة متبعة حتى اليوم فى مجالس الشعر فى دول الخليج .

كان جعيل بن سراقه يعمل مع الصحابة فى الخندق ويقول مثل قولهم ويضحك إليهم ، فإن اسم « جعيل » من الأسماء القبيحة ؛ لأنه تصغير جُعِلٍ ، وهو نوع من الخنافس ، وكان الرسول ﷺ يفضل الأسماء الجميلة على الأسماء القبيحة ، فغير اسم « جعيل » إلى « عمرو » فجعل الصحابة يداعبون جعيلًا بصنيع رسول الله ﷺ به .

وإذا كان الرسول ﷺ قد ردد القافية مع الصحابة وهم يرتجزون ويداعبون جعيل بن سراقه ، فإنه ﷺ كان يرتجز يوم الخندق بشعر عبدالله بن رواحة .

عن البراء - رضى الله عنه - قال : « رأيت النبي ﷺ يوم الخندق وهو ينقل التراب حتى وارى التراب شعر صدره ، وفى رواية : حتى وارى التراب بياض بطنه ، وهو يرتجز برجز عبدالله بن رواحة :

اللهمَّ لولا أنت ما اهتَدَيْنَا ولا تَصَدَّقْنَا ولا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَبَيَّتَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَأَقَيْنَا
إِنَّ الْأَعْدَاءَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَيْنَا

(١) المجازات النبوية ، ص : ٦٤ .

يرفع بها صوته « (١) .

ويورد الذهبي خبراً ينسب فيه الأبيات لعامر بن الأكوع ، وراوى الخبر هو سلمة بن الأكوع حيث يقول : (٢)

خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر ، فسرنا ليلاً ، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع : ألا تسمعنا من هنيهاتك ؟ يعنى كلماتك أو أراجيزك ، وكان عامر رجلاً شاعراً ، فنزل يحدو بالقوم ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداءً لك ما اقتضينا وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينه علينا إنا إذا صبح بنا أتينا

وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ : « من هذا السائق ؟ » قالوا : عامر ، قال : « يرحمه الله » . قال رجل من القوم : وجبت يا رسول الله ، لولا أمتعتنا به ، فأتينا خيبر فحاصرناهم قال : فلما تصافت القوم كان سيف عامر فيه قصر ، فتناول به ساق يهودى ليضربه ، فرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركة عامر فمات منه ، فلما قفلوا قال سلمة وهو آخذ بيدي : لما رآنى رسول الله ﷺ ساكتاً قال : مالك ؟ قلت : فذاك أبى وأمى ، زعموا أن عامراً حبط عمله ، قال : « من قاله ؟ » قلت : فلان وفلان وأسيّد بن حُضَيْرٍ ، فقال : « كذب من قاله ، وله أجران - جمع بين إصبعيه - إنه جاهد ، قلّ عربى مشى بها مثله » .

والغريب فى الأمر أن الذهبي نفسه يورد الخبر على النحو الذى تمثلنا به قبل قليل منسوباً إلى عبد الله بن رواحة ، وكلّ من عبد الله بن رواحة وعامر بن الأكوع شاعر (٣) ،

(١) صحيح البخارى ٥ / ١٤٠ باب غزوة الخندق . وصحيح مسلم ٣ / ١٤٣٧ رقم ١٢٣ غير أنه ذكر الخبر فى غزوة خيبر ، والصواب هو غزوة الخندق . والأبيات فى ديوان عبد الله بن رواحة ص : ١٠٦ .

(٢) تاريخ الإسلام قسم المغازى ، ص : ٣٣٧ ومرة أخرى ص : ٣٤١ ، ٣٤٢ . وزاد المعاد ٢ / ١٤٨ .

(٣) تاريخ الإسلام ، ص : ٢٤٥ .

وهو خلط ما كان ينبغي أن يتورط فيه مؤرخ كبير مثل الذهبي ، على أن ثمت تعليلا يمكن أن يكون مقبولا ، هو أن عامرا الأكوع كان معجبا بأبيات عبدالله بن رواحة التي ارتجز الرسول بها في غزوة الخندق - وهي سابقة على غزوة خيبر - فجعل إعجابه بها دافعا له إلى أن يتغنى بها بين يدي الرسول حاديا في الليل في الطريق إلى خيبر.

هذا استطراد اقتضته الضرورة ، إذ ليس مرادنا تحقيق نسبة الشعر إلى قائله وإن كنا قد فعلنا ، ولكن مرادنا هو أن الرسول ﷺ قد ارتجز بقطعة من شعر عبدالله بن رواحة ، وإن الأبيات بها فيها من مناجاة للخالق واعتراف بأفضاله ونعمه ، ودعاء بتثبيت الأقدام عند ملاقات العدو ، جديرة بأن ينالها شرف ترديد رسول الله لها .

وإن شعر عبدالله بن رواحة ذو قبول عند رسول الله ﷺ لأنه شعر لله وفي سبيل الله ، وفيه سمو المعنى ، وفحولة الصوغ ، ورجولة الأداء .

يورد ابن قيم الجوزية شعرا آخر أنشده عبدالله بن رواحة بين يدي رسول الله وهو يطوف بالبيت في عمرة القضاء ، على هذا النحو: (١).

خرج رسول الله ﷺ معتمرا في ذي القعدة سنة سبع - بعد أن رجع من فتح خيبر - وهو الشهر الذي صده فيه المشركون عن المسجد الحرام قبل عام ، حتى إذا بلغ يأجج - موضع على ثمانية أميال من مكة - وضع الأداة كلها - الحجف والمجان والنبل والرماح - ودخلوا بسلاح الراكب : السيوف ، فلما قدم رسول الله - أي مكة - أمر أصحابه فقال :

« اكشفوا عن المناكب ، واسعوا في الطواف » ليرى المشركون جلدتهم وقوتهم ، وكان يكأيدهم بكل ما استطاع ، فوقف أهل مكة : الرجال والنساء والصبيان ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يطوفون بالبيت ، وعبدالله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ يرتجز متوشحا بالسيف :

خَلُّوا بَيْنِي الْكَفَّارَ عَنْ سَبِيلِهِ قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ
فِي صَحْفٍ تُتْلَى عَلَى رَسُولِهِ يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ

(١) زاد المعاد ٢ / ١٦٨ .

إِنِّي رَأَيْتُ الْحَقَّ فِي قَبُولِهِ الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ
ويكمل الترمذى الخبر رواية عن أنس أن عمر بن الخطاب قال للشاعر :

يا ابن رواحة : بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر ؟؟ فقال ﷺ :
« خَلَّ عَنْهُ يَا عَمْرُ ، فَلَهَى فِيهِمْ أَسْرَعُ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ » (١).

وكان كفار مكة قد خلوا الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ إلى البيت ، وخرجوا من
مكة يومئذ إلى رءوس الجبال .

كان عبدالله بن رواحة شديد الحب لرسول الله شأنه في ذلك شأن بقية الصحابة ،
ولكنه كان هو وحسان ينفردان بالشعر الذي كان يؤدي عمل كتيبة كاملة في الجهاد في
سبيل الله ، ثم إن عبدالله بن رواحة كان يتميز عن حسان بفروسيته وإقدامه على خوض
المعارك ، وقد جعله رسول الله ﷺ أميرا على جيش غزوة مؤتة فيما لو استشهد من أمرهما
رسول الله قبله . لقد عاد الرسول ﷺ من عمرة القضاء في ذى الحجة سنة سبع ، فلما
كان جمادى سنة ثمان بعث بجيش إلى مؤتة - في الأردن حاليا - وأمر على الناس زيد بن
حارثة وقال : « إِنْ أَصِيبَ - أَيْ : اسْتَشْهَدَ أَوْ جَرَحَ - فَجَعْفَرُ - أَيْ : جَعْفَرُ ابْنِ عَمِّهِ
أَبِي طَالِبٍ - فَإِنْ أَصِيبَ جَعْفَرُ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، فَإِنْ أَصِيبَ فَلْيَرْتَضِ الْمُسْلِمُونَ
رَجُلًا » فلما تهيأوا للخروج بكى ابن رواحة ، فقليل له : ما يبكيك ؟ فقال : أما والله
ما بى حب الدنيا ولا صباة إليها ، ولكنى سمعت الله يقول : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ
إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فلست أدري كيف لى بالصدر بعد الورد . فقال المودعون : صحبكم الله
وردكم إلينا صالحين ودفع عنكم . فأنشد ابن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرةً وضربة ذات فرغ تقذف الزبدًا
أو طعنة من يدى حرّانٍ مجهزةً بحرية تُنفذُ الأحشاء والكبدًا

(١) الشبائل المحمدية ص : ١٢٧ . ومعنى نضربكم على تأويله - وفي رواية تنزيله - أَيْ : نضربكم إن نقضتم العهد
ومنعتهم النبى من دخول مكة . ومعنى يزيل الهام عن مقيله : أَيْ يزيل الرأس عن محله .

حتى يقولوا إذا مروا على جدثي يا أرشد الله من غازٍ وقد رشداً

ثم وقف بين يدي رسول الله وقال مودعا :

فثبتت الله ما آتاك من حسنٍ تثبتت موسى ونصراً كالذي نصروا

إنني تفرست فيك الخير نافلةً والله يعلم أني ثابتٌ بصير

أنت الرسول فمن يحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدر

ثم خرج القوم حتى وصلوا إلى (معان) فبلغهم أن هرقل قد نزل قريبا منهم في مائة ألف من الروم ومائة ألف من المستعربة ، وكان قوام جيش المسلمين ثلاثة آلاف . فقالوا : نبعث إلى رسول الله ﷺ نخبره ، فشجع الناس عبدالله بن رواحة قائلا : يا قوم والله إن التي تكروهن للتي خرجتم لها تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا كثرة وإنما تقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فإن يظهرنا الله به فربما فعل ، وإن تكن الأخرى فهي الشهادة ، وليست بشر المنزلتين . فقال الناس : والله لقد صدق فانشمر الناس وهم ثلاثة آلاف حتى لقوا جموع الروم بقرية يقال لها (مشارف) ثم انحاز المسلمون إلى مؤتة .

يقول أبو هريرة - وكان في الكتيبة - : شهدت مؤتة فلما رأينا المشركين ، رأينا ما لا قبل لأحد به من العدة والسلاح والكراع والديباج والذهب ، فبرق بصرى ، فقال لي ثابت بن أقرم : مالك يا أبا هريرة !! كأنك ترى جموعا كثيرة !! قلت : نعم ، قال : لم تشهد معنا بدرًا ، إنا لم نصبر بالكثرة .

ودارت رحى الحرب واستشهد زيد ، فحمل جعفر الراية وقاد المعركة فاستشهد ، ثم تقدم عبدالله بن رواحة فأخذ الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه ، وجعل يتردد بعض التردد ثم قال :

أقسمت يا نفس لتنزِلَنِي
لتنزِلَنِي أو لتُكرِهَنِي
إن أجلب الناس وشدوا الرِّزْنَ
مالي أراك تكريهين الجنَّة

قد طَالَ مَا كُنْتُ مُطْمِئِنَّةً هَلْ أَنْتِ إِلَّا نَظْفَةٌ فِي سَنَّةٍ (*)

ثم أنشد أيضا مخاطبا نفسه مشجعا إياها :

يَا نَفْسُ إِلَّا تُغْتَلَى مَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَيْتِ
وَمَا تَمْنَيْتِ لَقَدْ أُعْطِيتِ إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدَيْتِ (*)

ثم أخذ سيفه فقاتل فاستشهد .

قال عبدالله بن عمر - وكان في الكتيبة - : ففتشناه - أي : ابن رواحة - فوجدنا فيها
أقبل من جسده بضعا وسبعين بين طعنة ورمية ، وقيل بضعا وتسعين (١).

والذي نذهب إليه في نهاية هذا الفصل أن الرسول ﷺ لم يكن يقول القصيد - وهو
أحد فروع الشعر السبعة - أو يردده ، وإنما كان قليلا ما ينشد الرجز ويردده ، فقد ورد
في الصحيحين عن البراء بن عازب أن رجلا قال له : أفررتم يوم حنين عن رسول الله
ﷺ ؟ فقال البراء : لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، لقد رأيته وهو على بغلته البيضاء وإن
أبا سفيان بن الحارث أخذ بلجامها ، والنبي ﷺ يقول :

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ (٢).

وفي الصحيحين أيضا عن البراء أنه قال : « رأيت النبي ﷺ ينقل معنا التراب يوم
الأحزاب وقد دارى التراب بياض بطنه وهو يقول :

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلْ لَنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتْ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قَيْنَا

(*) أجلب القوم : يعنى صاحبوا ، من الجلبة . الرنة : من مادة الرنين ، وهو صوت ترجيع كالكباء ، النظفة : الماء
القليل الصافي . الشنة : السقاء البالى . إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا : يعنى فعل صاحبيه زيد وجعفر استبسالا واستشهادا .

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ٣٧٩ والذهبي ٤٠٢ - ٤٠٥ .

(٢) صحيح البخارى (كتاب الجهاد) باب من رأى العدو فنادى بأعلى صوته ٤ / ٨١ و (كتاب المغازى) باب غزوة ذى
قرد ٥ / ١٦٥ . وصحيح مسلم (كتاب الجهاد) باب غزوة ذى قرد ٣ / ١٤٣٢ رقم ١٣١ .

إِنَّ الْأَلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَيْنَا (١)

وهي أرجوزة أوردناها فيها سلف من صفحات .

وروى أنس - رضى الله عنه - قال : جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق وينقلون التراب على متونهم أى : على ظهورهم - ويقولون :

نحن الذين بآئعوا محمداً عَلَى الإسلام مَا بَقِينَا أَبَدًا
وفي رواية : عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا .

والنبي ﷺ بحبيهم :

اللهم لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَةِ

فَبَارِكْ فِي الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ (٢) .

الرسول يستنشد الشعراء الصحابة :

مثلاً كان الرسول ﷺ يردد الشعر مع الصحابة - رضوان الله عليهم - في المناسبات التي تستدعي أن يجاملهم أو ينشطهم في العمل أو يستحثهم على الجهاد أو غير ذلك من الأغراض ، فإنه ﷺ كثيراً ما كان يستنشد شعراء الصحابة متى ما دعت المناسبة إلى ذلك .

يقول مؤيداً هذا الموقف عبدالله بن مسعود الذي يروى أنه قد بلغ النبي أن قوما نالوا أبا بكر بالسننهم ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ، ليس أحد منكم آمنٌ عليّ في ذات يده ونفسه من أبي بكر ، كلكم قال لى : كذبت ، وقال لى أبو بكر : صدقت ، فلو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر » ثم التفت إلى حسان فقال : « هات ما قلت فيّ وفي أبي بكر » فقال حسان : قلت يا رسول الله :

(١) صحيح البخارى (كتاب المغازى) باب غزوة الخندق ٥ / ١٤٠ . وصحيح مسلم (كتاب الجهاد) باب غزوة خيبر

٣ / ١٤٣٧ رقم ١٢٣ .

(٢) صحيح البخارى (كتاب المغازى) باب غزوة الخندق ٥ / ١٣٨ .

إذا تذكّرتَ شجواً من أخى ثقةٍ

فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلاً

التالى الثانى المحمود شيمته

وأول الناس طراً صدق الرُسل

والثانى اثنين فى الغار المنيف وقد

طاف العدو به إذ صعد الجبال

وكان حبّ رسول الله قد علموا

من البرية لم يعدل به رجلاً

خير البرية أنقاها وأزأفها

بعد النبى ، وأوفاهما بما حملاً

فقال ﷺ : « صدقت يا حسان ، دعوا لى صاحبى » قالها ثلاثاً (١).

ومن ذلك أيضا ما بلغ رسول الله ﷺ من أن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب هجا رسول الله ﷺ وشجعتة على ذلك قريش وهى قبيلة رسول الله ، والذى هجا رسول الله هو ابن عمه الحارث . فكيف السبيل إلى الثأر ؟ ! يقصّ الشعبى الخبر فيقول :

أتى حسان بن ثابت النبى ﷺ فقال : يا رسول الله : إن أبا سفيان بن الحارث هجاك ، وأسعده على ذلك نوفل بن الحارث وكفار قريش ، أفتأذن لى أن أهجوهم يا رسول الله ؟ فقال النبى ﷺ : فكيف تصنع بى ؟ - يعنى إنهم من قومى ، وهجاؤك إياهم هجاء لى - فقال حسان : أسلّك منهم كما تسلّ الشعرة من العجين . قال : أهجوهم وروح القدس معك ، واستعن بأبى بكر فإنه علامة قريش بأنساب العرب ، فقال حسان يهجو نوفل بن الحارث :

وإنّ ولّاة المجد من آل هاشم
بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

(١) جهرة أشعار العرب للقرشى ، ص : ٣١ .

وما وَلَدَتْ أبنَاءَ زُهْرَةَ مِنْهُمْ صَمِيماً وَلَمْ يَلْحَقْ عَجَائِزَكَ الْمَجْدُ
فَأَنْتَ لثِيْمٌ نَيْطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نَيْطٌ خَلْفَ الرَّاكِبِ الْقَدْحُ الْفَرْدُ
قال : فلما أَسْلَمَ أَبُو سَفِيَّانِ بْنِ الْحَارِثِ قال له النَّبِيُّ ﷺ : أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ ، وَلَا
سَبِيلَ إِلَى حَسَانٍ ^(١).

وكان حسان مقدما عند رسول الله في الاستنشاد ، فقد كان الرسول ﷺ يقول له :
« شَنَّ الْغَطَارِيفَ عَلَى بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ ، فَوَاللَّهِ لَشِعْرُكَ أَشَدَّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقْعِ السَّهَامِ فِي
غُلَسِ الظَّلَامِ ، وَتَحْفَظُ بَيْتِي فِيهِمْ . قال : والذي بعثك بالحق نبيا لأسلنك منهم سَلَّ
الشَّعْرَةَ مِنَ الْعَجِينِ . ثم أخرج لسانه فضرب به أُرْبُةَ أَنْفِهِ ، وقال : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ
لِيَخِيلُ لِي أَنِّي لَوْ وَضَعْتَهُ عَلَى حَجَرٍ لَفَلَقَهُ ، أَوْ عَلَى شَعْرٍ لَحَلَقَهُ . فقال النَّبِيُّ ﷺ : أَيْدِ
اللَّهِ حَسَانًا فِي هَجْوِهِ بِرُوحِ الْقُدُسِ ^(٢).

ويروى ابن عبد ربه هذا الخبر عن هجاء أبي سفيان بن حرب رسول الله ﷺ : يزيد
بن عمرو بن تميم الخُزَاعِي عن أبيه عن جدّه : أن رجلا أتى النَّبِيَّ ﷺ فقال : يا رسول
الله ، إن أبا سفيان يهجوك . فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ إِنَّهُ هَجَانِي وَإِنِّي لَا أَقُولُ
الشَّعْرَ ، فَاهْجِهْ عَنِّي » فقام إليه عبد الله بن رواحة فقال : يا رسول الله ، إِيذَنِي فِيهِ .
قال : « أَنْتَ الْقَائِلُ : فَثَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ ؟ »

قال : نعم . قال : وَإِيَّاكَ فَثَبَّتَ اللَّهُ . ثم قام إليه كعب بن مالك فقال :
يا رسول الله ، إِيذَنِي فِيهِ . قال : أَنْتَ الْقَائِلُ : « هَمَمْتُ ؟ » قال : نعم . قال :
لست له ، ثم قام حسان بن ثابت فقال : يا رسول الله ، إِيذَنِي فِيهِ ، وَأَخْرِجْ لِسَانَهُ
فَضْرِبْ بِهِ أُرْبُةَ أَنْفِهِ ، وقال : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ لِيَخِيلُ لِي أَنِّي لَوْ وَضَعْتَهُ عَلَى حَجَرٍ
لَفَلَقَهُ ، أَوْ عَلَى شَعْرٍ لَحَلَقَهُ . فقال : « أَنْتَ لَهُ ، اذْهَبْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ يُخْبِرُكَ بِمَثَالِبِ
الْقَوْمِ ثُمَّ اهْجِهِمْ وَجَبْرِيلَ مَعَكَ » فقال يرد على أبي سفيان :

(١) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٢) العقد ٥ / ٢٧٧ .

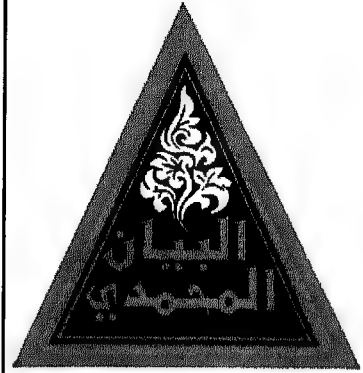
أَلَا أبلغُ أبا سُفيانَ عَنِّي	مُغلَلةً فقدَ بَرَحَ الخفاء
هَجوتَ مُحَمَّدًا وأُجبتُ عنه	وعندَ الله في ذاكَ الجزاءُ
أَتَهجوه وَلستَ له بِنِدٍّ	فَشَرُّكُما لِخَيْرِكُما الفِداءُ
أَمَنَ يَهجو رِسالَ اللهِ منكم	وَيُطْرِبُه وَيَمدِّحُه سَواءُ
لنا في كُلِّ يومٍ من مَعِدٍّ	سِبابٌ أو قِتالٌ أو هِجاءُ
لسانِي صارمٌ لا عيبَ فيه	وَبَحْرِي لا تَكْذَرُهُ لا تُكْرَهُ اللّاءُ
فإن أباي ووالدَه وعِرْضِي	لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ منكم وَقاءُ (١)

وعن هشام بن عروة عن أبيه (يعني الزبير) عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ أو قال : ينافح عن رسول الله ﷺ ويقول رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يؤيد حسان بروح القدس ما ينافح أو يفاخر عن رسول الله ﷺ » .

ويؤخذ من الحديث - تبعاً لتفسير البيجوري - حلّ إنشاد الشعر في المسجد ، بل يندب إذا اشتمل على مدح الإسلام وأهله ، وهجاء الكفر وأهله (٢) .

(١) العقد ٥ / ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٢) الشهاغل المحمدية ، ص : ١٢٩ .



الفصل الثاني

شعراء الصحابة يمدحون الرسول

شعراء الصحابة يمدحون الرسول

كان رسول الله ﷺ جامعا لأسباب الفضل كله قولاً وعملاً وسلوكاً ، يملأ حبه قلوب الناس جميعاً قبل الرسالة وبعدها ، حتى إن كبار أعدائه لم يستطيعوا أن ينالوه بكلمة سوء وهم يسعون لإيقاع الأذى به ، وقد رأينا كيف أن قيصر استدعى أبا سفيان ابن حرب وألقى على أسماعه عدداً من الأسئلة حول أمانة محمد ﷺ وصدقه ، فأجاب عنها جميعاً بما لا ينال من فضل رسول الله ، ولا ينتقص من شأئله .

هذا ، وحبُّ رسول الله - قبل ذلك وبعده - فريضة على كل مسلم ، فكان منطقياً - والأمر كذلك - أن تفيض قرائح الشعراء أنهاراً من القصائد في مدحه ، وهم لا يمدحونه كما يمدحون الملوك ، ولكنهم ينزهون شخصه الشريف عن هذا النمط من القول ، ويصوغون مدائحهم بما يتناسب مع خلقه ، ويضمنون قصائدهم بما يتسق مع شأئله .

إن من أجمل الصيغ التي مدح بها الرسول ﷺ تلك التي التقطها حسان بن ثابت كبير مداحي رسول الله ، وهي اقتران اسم رسول الله في الشهادتين ، وفي التشهد باسم ربنا - جل وعز - وذلك في قوله (١):

أَغَرُّ عَلَيْهِ لِلنَّبْوةِ خَاتَمٌ	من الله مشهود يلوح ويُشْهَدُ
وَضَمَّ الْإِلَهِ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ	إذا قال في الحَمْسِ المؤذُنُ : أَشْهَدُ

(١) ديوان حسان ص : ٥١ .

وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِجِلَّةُ فذو العرش محمودٌ وهذا محمدُ
نَبِيُّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَفَتْرَةٍ من الرسلِ ، والأوثانُ في الأرض تُعْبَدُ
فَأَمْسَى سَرَا جَا مُسْتَنِيرًا وَهَادِيًا يلوح كما لاح الصَّيْلُ المَهْنَدُ
وَأُنْذَرْنَا نَارًا وَبَشَرَ جَنَّةً وعلمنا الإسلام ، فالله نَحْمَدُ

ويقرن حسان مديح رسول الله ﷺ بأبيات عميقة باستقرار الإيمان ، يسبح فيها الله ،
ويمجد ذاته العلية ، ويحمد نعماءه وهده قائلا :

وَأَنْتَ إِلَهَ الْخَلْقِ رَبِّي وَخَالِقِي بذلك ما عُمِّرْتُ في الناس أَشْهَدُ
تَعَالَيْتَ رَبُّ النَّاسِ عَنْ قَوْلِ مَنْ دَعَا سِوَاكَ إِلَهًا ، أَنْتَ أَعْلَى وَأَجْدُ
لَكَ الْخَلْقُ وَالنِّعْمَاءُ وَالْأَمْرُ كُلُّهُ فَإِيَّاكَ نَسْتَهْدِي وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ

وَال بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ جُلُهم شعراء : أعمامه أبو طالب والعباس وحمة ، وعماته صفية
وبرّة وعاتكة وأميمة وأروى كلهن شاعرات ، وأبناء أعمامه عليّ وأبو سفيان بن الحارث
وغيرهم ينسب إليهم شعر غير قليل .

وكان العباس شديد التعلق برسول الله حتى قبل أن يعلن إسلامه ، فقد حضر مع
رسول الله بيعة العقبة ، وله مع الأنصار حوار جليل . وحين عاد الرسول من تبوك قال
له العباس : يا رسول الله ائذن لي أمتدحك ، فقال ﷺ في تودد وارتياح : « قل ، لا
يفضض الله فاك » فأنشد العباس (١) :

مِنْ قَبْلِهَا طَبَّتْ فِي الظَّلَالِ وَفِي مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخَصِّفُ الْوَرَقُ
ثُمَّ هَبَطَتِ الْبِلَادَ لَا بَشَرٌ أَنْتَ وَلَا مَضْغَةٌ وَلَا عَلَقُ
بَلْ نَفْطَةٌ تَرْكَبُ السَّفِينَ وَقَدْ أَلْجَمَ نَسْرًا وَأَهْلَهُ الْفَرْقُ
تَنْقَلُ مِنْ صُلْبٍ إِلَى رَحِمٍ إِذَا مَضَى عَالَمٌ بِكَدَا طَبَقُ

(١) زاد المعاد ٣ / ١٣

حتى استوى بيتك المهيم من خندف غلبا تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الأر ض وضاعت بنورك الأنق
فنحن من ذلك النور في الضيا ء وسبل الرشاد نخترق

فإذا عدنا إلى حسان - وسوف نعود إليه كثيرا فيما يستقبل من حديث - وجدناه الشاعر الأول مدحا لرسول الله وذوداً عن حياض الرسالة ، ودفاعا عن الرسول ، وهجاء لخصومه وأعدائه ولو كانوا من أهل بيت عبد المطلب ، ثم هو بعد ذلك المسجل لمواقع النصر ، المعلن عن أفراح المؤمنين ، الباكي على شهدائهم وقتلاهم ، إلى غير ذلك مما سوف نعرض له في مكانه في الصفحات القادمة .

على أن حساناً لا ينسى أنه من الأنصار ، والأنصار هم الذين آووا رسول الله ونصروه ، وهو صنيع يحفظه لهم رسول الله ﷺ فكان حسان يرى في ذلك لونا من ألوان الفخار . يقول حسان مسجلا ذلك ذاكرة ما حدث في بدر (١):

قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ آوُوا نَبِيَّهُمْ وَصَدَّقُوهُ وَأَهْلُ الْأَرْضِ كُفَّارُ
إِلَّا خَصَائِصَ أَقْوَامٍ هُمْ سَلَفُ لِلصَّالِحِينَ مَعَ الْأَنْصَارِ أَنْصَارُ
مُسْتَبْشِرِينَ بِقَسَمِ اللَّهِ قَوْلُهُمْ لَمَّا أَنَا هُمْ كَرِيمُ الْأَصْلِ مُخْتَارُ (*)
أَهْلًا وَسَهْلًا فَنِي أَمْنٍ وَفِي سَعَةٍ نِعْمَ النَّبِيُّ وَنِعْمَ الْقَسَمُ وَالْجَارُ
فَأَنْزَلُوهُ بَدَارَ لَا يُخَافُ بِهَا مَنْ كَانَ جَارَهُمْ دَارًا هِيَ الدَّارُ
وَقَاسَمُوهُ بِهَا الْأَمْوَالِ إِذْ قَدَمُوا مَهَاجِرِينَ وَقَسَمُ الْجَاهِدِ النَّارُ

(١) السيرة ١ / ٦٦٤ .

(*) القسم : الحظ والنصيب .

سراة القوم : خيارهم . وغاروا : قصدوا الغور ، وهو ما انخفض من الأرض ، يريد تشتتوا . الضمير في البيتين قبل الأخير يعود على الشيطان الذي غرر بهم .

سِرْنَا وَسَارُوا إِلَى بَدْرِ لَحْنِهِمْ
لَوْ يَعْلَمُونَ يَقِينُ الْعِلْمُ مَا سَارُوا
دَلَّاهُمْ بِغُرُورٍ ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ
إِنَّ الْخَبِيثَ لَمَنْ وَالَاهُ غُرَّارٌ
وَقَالَ إِنِّي لَكُمْ جَارٌ فَأَوْرَدَهُمْ
شَرَّ الْمَوَارِدِ فِيهِ الْخَزْيُ وَالْعَارُ
ثُمَّ التَّقِينَا فَوَلَّوْا عَنْ سَرَاتِهِمْ
مَنْ مُنْجِدِينَ وَمِنْهُمْ فِرْقَةٌ غَارُوا

وشبيه بموقف حسان في قصيدته سألقة الذكر ، موقف العباس بن مرداس السلمي ، وهو ابن الشاعرة الصحابية الخنساء ، وله إخوة ثلاثة ، وكلهم أشقاء ، وهم سراقه وحزن وعمرو ، وكلهم شعراء ، ولكن العباس أشعرهم .

وكان لمرداس والد العباس صنم اسمه « ضماد » وأوصى العباس أن يعبده ، ولكنه حين علم برسالة محمد ﷺ أحرقه ولحق بالنبي وقال في ذلك (١):

لِعَمْرِي إِنِّي يَوْمَ أَجْعَلُ جَاهِدًا
وَتَرْكِي رَسُولَ اللَّهِ وَالْأَوْسُ حَوْلَهُ
كَتَارِكِ سَهْلِ الْأَرْضِ ، وَالْحَزْنَ يَبْتَغِي
فَأَمَنْتُ بِاللَّهِ الَّذِي أَنَا عَبْدُهُ
وَوَجْهَتُ وَجْهِي نَحْوَ مَكَّةَ قَاصِدًا
نَبِيٌّ أَنَا بَعْدَ عَيْسَى بِنَاطِقِ
أَمِينَا عَلَى الْفَرَقَانِ أَوَّلُ شَافِعِ
« ضِمَادًا » لَرَبِّ الْعَالَمِينَ مُشَارِكًا
أُولَئِكَ أَنْصَارُ لَهُ مَا أَوْلَاثُكَ
لَيْسَلُكَ فِي غَيْبِ الْأُمُورِ الْمَسَالِكَا
وَخَالَفْتُ مِنْ أَمْسَى يَرِيدُ الْمَالِكَا
وَتَابَعْتُ بَيْنَ الْأَخْشَبَيْنِ الْمُبَارِكَا
مَنْ الْحَقُّ فِيهِ الْفَصْلُ مِنْهُ كَذَلِكَ
وَأَخْرَجْتُ مَبْعُوثٌ يَجِيبُ الْمَلَاثِكَا

والعباس بن مرداس من فرسان الصحابة ، وله قصيدة غريبة مدح بها رسول الله ، ومن خلالها مدح الضحاك بن سفيان قائد بني سليم يوم حنين وفيها سمة من الفخر بقومه مثلما فعل حسان يقول فيها :

(١) الأغاني ١٣ / ٦٥ ، ٦٦ .

يا خاتم النبأ إنك مُرسل
إن الإله بنى عليك محبة
ثم الذين وفوا بما عاهدتهم
رجلاً به ذرب السلاح كأنه
يغشى ذوى النسب القريب وإنما
أنبيك أنى قد رأيت مكره
طوراً يُعانق باليدين وتارة
يغشى به هام الكماة ولو ترى
وبنو سلكم مُعِنُّون أمامه
يَمْشُونَ تحت لِوائِهِ وكأَنَّهُمْ
ما يَرْتَجُونَ من القريب قرابة
هذى مشاهدنا التى كانت لنا

بالحق ، كل هدى السبيل هداكا
فى خلقه ومحمداً سماًكا
جُنْدٌ بَعَثَ عَلَيْهِم الضَّحَّاكَا (١)
لَمَّا تَكَنَّفَ الْعَدُوُّ يَرَاكَا (٢)
يَبْغَى رِضاً الرَّحْمَنُ ثُمَّ رِضَاكَا
تَحْتَ الْعِجَاجَةِ يَذْمُغُ الْإِشْرَاكَا (٣)
يَفْرَى الْجَاهِجَمَ صَارِماً بَتَّاكَا (٤)
منه الذى عاينتُ كان شِفاكَا (٥)
صَرَبَا وَطَعْنَا فى الْعَدُوِّ دِرَاكَا (٦)
أُسْدُ الْعَرِينِ أُرْدَنَ تَمَّ عِرَاكَا (٧)
إِلَّا لَطَاعَةَ رَبِّهِمْ وَهَوَاكَا
مَعْرُوفَةً وَوَلِيَّتَنَا مَوْلَاكَا

وقصائد العباس بن مرداس ذات وقع خاص فى المسماع ، لأنه فى مديحه لرسول الله ﷺ يمزج المديح بمظاهر الفروسية والفداء والإقبال على خوض المعامع فى سبيل الله ،

(١) هو الضحاك بن سفيان الكلابي أحد فرسان غزوة هوازن .

(٢) ذرب السلاح : حذته ومضاؤه ، ومنه يقال : فلان ذرب اللسان ، إذا كان حاد اللسان .

(٣) العجاجة : الغبار المنتشر . ويدمغ : يقهر ويذل ؛ وهو من الضرب على الدماغ .

(٤) يفرى : يقطع . ويروى « يفرى » بالقاف ؛ أى : يقدم الجهاجم قرى لسيفه . وبتاك : قاطع .

(٥) الهام : الرءوس . والكماة : جمع كمي ، وهو الشجاع المستتر فى سلاحه .

(٦) معنقون : مسرعون . يقال : أعنق يعنق : إذا أسرع . ودراك : متتابع .

(٧) العرين : موضع الأسد . والعراك : المدافعة فى الحرب .

وإن بداوته الظاهرة في بنية قصائده تضيف على شعره مزيدا من المهابة ، وقدرا كبيرا من حسن القبول ، وهو هنا يمدح رسول الله في مجال فخاره بنصر الله يوم حنين ويقول : (١)

يا أيها الرجل الذي تهوى به	وجنأ جُمَرَةُ المَنَاسِمِ عَرْمُسُ
إِذَا أَتَيْتَ عَلَى النَّبِيِّ فَقُلْ لَهُ	حَقًّا عَلَيْكَ إِذَا اطمَنَّ المجلسُ
ياخيرَ من رَكِبَ المطىِّ ومن مَشَى	فوقَ الترابِ إِذَا تُعِدُّ الأَنفُسُ
إِنَّا وَفَيْنَا بالذى عَاهَدْتَنَا	والخيلُ تُقَدِّعُ بالكُمَاةِ وتُضَرِّسُ
إِذْ سَالَ من أَفْنَاءِ بَهْمَةٍ كلُّهَا	جَمْعٌ تَظَلُّ بِهِ المَخَارِمُ تَرَجُسُ
حَتَّى صَبَحْنَا أَهْلَ مَكَّةَ فِيلَقَا	شَهَاءَ يَقْدُمُهَا الهِمَامُ الأَشْوُسُ
من كُلِّ أَغْلَبٍ من سُلَيْمٍ فوقه	بيضاء محكمة الدخالِ وَقَوْنُسُ
يُرْوَى القَنَاةُ إِذَا تَجَاسَرَ فى الوَعَى	وتَخَالُّهُ أَسَدًا إِذَا مَا يَغْبَسُ
وعلى حَتَيْنٍ قد وَفَى من جَمْعِنَا	أَلْفٌ أَمَدَّ بِهِ الرِّسُولُ عِرْنَدُسُ
كَانُوا أَمَامَ الْمُؤْمِنِينَ دَرِيئَةً	والشمسُ يَوْمئِذٍ عَلَيْهِمُ أَشْمُسُ
نَمْضَى وَيَحْرُسُنَا الإِلَهُ بِحَفْظِهِ	والله ليس بضائعٍ مَن يَحْرُسُ (*)

(١) السيرة ٢ / ٤٦٧ ، ٤٦٨ .

(*) المعانى

تهوى به : تسرع . والوجناء : الناقة الضخمة ، أو هى الغليظة الوجنات البارزتها ، وذلك يدل على غثور عينيها ، وهم يصفون الإبل بغثور العينين عند طول السفر . والمجمرة : المجتمعة المنضمة ، وذلك أقوى لها . والمناسم : جمع منسم ، وهو مقدم طرف خف البعير . وعرمس : شديدة ؛ وأصل العرمس : الصخرة الصلدة ، وتشبه بها الناقة الجلدة القوية .

تقدع : تكف . بهمة : حى من سليم . المخارم : الطرق فى الجبال . ترجس : تهمز . الهمام : السيد . الأشوس : الذى ينظر نظر المنكبر . الأغلب : الشديد الغليظ . محكمة الدخال : يعنى الدرع القوى النسيج . القونس : أعلى بيضة الحديد . العضب : السيف القاطع . اللدن : يقصد به الرمح اللين ، مدعس : طعان . عرندس : شديد . دريئة : مدافعة . أَشْمُسُ : جمع شمس ، يريد لمعان الشمس فى كل درع وسيف وبيضة وسانن ، وكأنها شمس .

وقدم وفد همدان من اليمن على رسول الله ﷺ ولقوا رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك ،
ووقف شعراؤهم بين يديه يرتجزون ، ونشط خطباؤهم يخطبون ، وعلى رأسهم « مالك
ابن نمط » فأعلنوا إسلامهم ، وبايعوا رسول الله ﷺ فزودهم الرسول بكتاب إلى
قومهم ، وقد ولى « مالكا » أمرهم ، فقال مالك في ذلك مادحا رسول الله ﷺ : (١)
ذكرتُ رسولَ الله في فحمة الدجى

ونحنُ بأعلى رَحْرَحَانٍ وَصَلَدٍ
وَهُنَّ بنا خوص طلائع تغتلى
برُكبانها فى لَحِبٍ متمددٍ
على كلِّ قتلاء الذراعين جَسْرَةٍ
تمرُّ بنا مرَّ الهِجَفِ الحَفِيدِ
حلقتُ ربَّ الراقصاتِ إلى منى
صَوَادِرَ بالركبانِ مِنْ هَضْبٍ قَرَدٍ
بأن رسولَ الله فينا مُصَدَّقُ
رسولُ أتى من عند ذى العرشِ مُهْتَدٍ
فما حملت من ناقةٍ فوق رَحْلِهَا
أَشَدَّ على أعدائه مِنْ مُحَمَّدٍ
وَأَعْطَى إِذَا مَا طَالِبُ العُرْفِ جَاءَهُ
وَأَمْضَى بحدُّ المشرفى المَهْنَدِ (*)

وتأكيدا لتقبل رسول الله ﷺ الاستماع إلى الشعر يُنشد بين يديه ، فيستجيب قلبه

(١) عيون الأثر ٢ / ٢٤٦ .

(*) المعانى :

رحرحان وصلدد : موضعان . الخوص : واحدتها خوصاء ، وهى الغائرة العيون . تغتلى : تشتد فى سيرها . اللاحب :
الطريق الواضح . الجسرة : القوية على السير . الهجف : الذكر الضخم من النعام . الحفيد : الهجف .
الراقصات : الإبل . الرقص : ضرب من السير . القردد : ما ارتفع من الأرض .

الكبير لمعانيه السامية ، وتتاثر نفسه الشريفة برجع صداه ، ما ذكره سعيد بن المسيب - وهو سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة في المدينة - حين قيل له : إن قبيصة بن ذؤيب^(١) يزعم أن الخليفة^(٢) لا يناشد الأشعار ، قال : ولم لا يناشد الخليفة الأشعار وقد نوشد رسول الله ﷺ يوم قدم عليه عمرو بن سالم الخزاعي مستنصرا . وكانت قريش وبنو بكر قد اعتدوا على خزاعة ، وأصابوا منهم ما أصابوا ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة ، وكانت خزاعة في عقد رسول الله وعهده ، وكان هذا العدوان مما أسهم في الإعداد لفتح مكة .

وقف عمرو بن سالم بين يدي رسول الله وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس وأنشد :

ياربِّ إني ناشدُ محمداً	حلفَ أئينا وأبيه الأتلا
قد كنتمُ ولداً وكنا والداً	ثُمّت أسلمنا فلم نَنزِعْ يداً ^(٣)
فانصُرْ هداك الله نصراً أعتداً	واذعُ عباد الله يأتوا مَدداً ^(٤)
فيهم رسول الله قد تجرّداً	إن سيمَ خَسفاً وَجْههُ تَرَبّداً ^(٥)
فى فيلقٍ كالبحر يجرى مُزبداً	إن قريشاً أخلفوك المؤعداً
ونقضوا ميثاقك المؤكداً	وجعلوا لى فى كدائِ رَصداً
وزعموا أن لست أدعو أحداً	وهم أذلُّ وأقلُّ عَـدداً
هم يئسونا بالوتيرِ هَجداً	وقتلونا رُغمًا وسُجَّداً ^(٦)

(١) كان قبيصة من الفقهاء الوجوه ، ثم كان على خاتم عبد الملك بن مروان .

(٢) الخليفة هو عبد الملك .

(٣) أراد أن عبد مناف أمهم من خزاعة ، وكذلك قصى أمه فاطمة بنت سعد الخزاعية الولد - بضم الواو - يعنى الولد .

(٤) الأعتد : الحاضر . والمدد : العون .

(٥) تجرد ، أى : شمر وتبهاً للحرب ، سيم ، أى : طلب منه وكلف ، الخسف : الدل . تربد : تغير إلى السواد .

(٦) الوتير : اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة . الهجّد : يعنى النيام ، ويعنى أيضا المستيقظين ، لأنه من الأضداد .

في رواية سعيد بن المسيب أن الرسول ﷺ لما استمع إلى هذا الشعر دمعت عيناه ، ونظر إلى سحابة قد بعثها الله فقال : « والذي بعثني بالحق نبياً إن هذه السحابة لتستهلّ بنصر بنى كعب » وخرج بمن معه لنصرهم .

وفي رواية ابن إسحاق (١) وابن سيد الناس (٢) أن رسول الله ﷺ قال : نُصرت يا عمرو ابن سالم ، ثم عرض لرسول الله عَنَّا من السماء - أى : سحاب - فقال : إن هذه السحابة لتستهلّ بنصر بنى كعب . وفي رواية ابن عبد البر - في الاستيعاب - قال رسول الله ﷺ : « لا نصرني الله إن لم أنصر بنى كعب » .

فلما كان يوم الفتح الأكبر - فتح مكة - جاء أنس بن زعيم الدبلى إلى رسول الله ﷺ يعتذر عما فعلته بنو بكر بخزاعة ، ومما قال فيهم عمرو بن سالم الخزاعى ، وكان منطقياً أن يمزج ابن زعيم بين الاعتذار والمدح في قالب واحد فقال (٣) :

أَأَنْتَ الَّذِي تُهْدِي مَعَدُّ بِأَمْرِهِ	بَلِ اللَّهُ يَهْدِيهِمْ وَقَالَ لَكَ أَشْهَدُ
وَمَا حَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا	أَبْرٌ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ
أَحَثَّ عَلَى خَيْرٍ وَأَسْبَغَ نَائِلًا	إِذَا رَاحَ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ الْمُهَنَّدِ
وَأَكْسَى لِبُرْدِ الْخَالِ (٤)	وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِقِ الْمُتَجَرَّدِ
تَعْلَمُ (٥) رَسُولُ اللَّهِ أَنَّكَ مُذْرِكِي	وَأَنَّ وَعِيدًا مِنْكَ كَالْأَخَذِ بِالْيَدِ
تَعْلَمُ رَسُولُ اللَّهِ أَنَّكَ قَادِرٌ	عَلَى كُلِّ صَرَمٍ (٦) مُتَّهِمِينَ وَمُنْجِدٍ

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

(٢) عيون الأثر ٢ / ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٣) السيرة ٢ / ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، وفي سبل الهدى والرشاد ٦ / ٤١١ ، ٤١٢ نسبت الأبيات إلى أسيد أناس .

(٤) الخال : ضرب من برود اليمن ، وهو من رفيع الثياب . والسابق (هنا) : الفرس . والمتجرد : الذى يتجرد من الخيل فيسبقها .

(٥) تعلم : اعلم . والوعيد : التهديد .

(٦) صرم : بيوت مجتمعة . ومتهمين : ساكنين في التهام ، وهى المنخفض من الأرض . والمنجد : من يسكن النجد ، وهو المرتفع .

تَعْلَمُ بِأَنَّ الرِّكْبَ رُكْبُ عَوْنِمْرِ هُمُ الْكَاذِبُونَ الْمُخْلَفُونَ كُلُّ مُؤَعِدٍ
وَبَيَّوْا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّى هَجَوْتُهُ فَلَا حَمَلَتْ سَوَطِي إِلَى إِذْنٍ يَسْدِي
سَوَى أَنَّى قَدْ قُلْتُ وَيَلْ أَمْ فِتْنَةٍ أَصِيبُوا بِنَحْسٍ لَا بَطْلَقٍ وَأَسْعُدِ (١)
أَصَابَهُمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ لِدِمَائِهِمْ كِفَاءً فَعَزَّتْ عَبْرَتِي وَتَجَلَّدِي
إِنَّ الْقَارِيءَ الْمَتَذَوِّقَ لِلشَّعْرِ يَقِفُ وَقْفَةً إِعْجَابٍ أَمَامَ قَوْلِ أَنَسٍ :

وما حملت من ناقة فوق رحلها

أَبْرَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ

أَحَثَّ عَلَى خَيْرٍ وَأَسْبَغَ نَائِلًا

إِذَا رَاحَ كَالسَيْفِ الصَّقِيلِ الْمَهْنَدِ

إنه نفس المعنى الذى صاغه فيما بعد - فى عام الوفود - مالك بن نمط رئيس وفد
همدان بنفس الكلمات حين قال :

فما حملت من ناقة فوق رحلها

أَشَدَّ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ مُحَمَّدٍ

وَأَعْطَى إِذَا مَا طَالِبُ الْعُرْفِ جَاءَهُ

وَأَمْضَى بِحَدِّ الْمَشْرِقِ الْمَهْنَدِ

وهنا يسأل المرء نفسه : هل أخذ مالك المعنى من أنس بن زعيم فى مدحه رسول الله
يوم فتح مكة ؟ أم أنه السليقة العربية البدوية لاصطياد المعنى البكر المستمد من طبيعة
البيئة المشتركة ؟

(١) الطلق : الأيام السعيدة .

لعل الرأي الأخير هو الذى نميل إليه ، فقد يقع - فى الشعر - الحافر على الحافر كما يقول أبو الطيب . وقد قال دعبل الخزاعى عن بيت أنس : إنه أصدق بيت قالته العرب .

ومن الشعر الذى مدح به رسول الله ﷺ فاستحسنه وأثنى على قائله ما رواه ذابيل بن الطفيل بن عمرو الدوسى عن مقدم خُفَّاف بن نضلة بن عمرو بن بهدلة الثقفى على رسول الله ﷺ وهو قاعد فى مسجده منصرفه من الأباطح ، فأنشده : (١)

كَمْ قَدْ تَحَطَّمَتِ الْقُلُوصُ بِى الدُّجَى فِى مَهْمِهِ قَفَرٍ مِنَ الْفَلَواتِ
فَلْ مِنَ التَّوْرِيسِ لَيْسَ بِقَاعِهِ نَبْتُ مِنَ الْإِسْنَاتِ وَالْأَزْمَاتِ
إِنِّى أَتَانِى فِى الْمَنَامِ مُسَاعِدٌ مِنْ جِنِّ وَجَرَةٍ كَانَ لِي وَمُؤَاتٍ
يَدْعُو إِلَيْكَ لَيَالِيَا وَلَيَالِيَا ثُمَّ اخْزَأَلْ وَقَالَ لَسْتُ بِآتٍ
فَرَكِبْتُ نَاجِيَةً أَضَرَّ بَنِيهَا جَهْرُ تَجَبُّ بِهِ عَلَى الْأَكْمَاتِ
حَتَّى وَرَدْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ جَاهِدًا كَيْمًا أَرَاكَ مُفَرِّجَ الْكُرْبَاتِ

فلما انتهى خفاف من إنشاده استحسنه رسول الله ﷺ وقال : « إن من البيان كالمسحر ، وإن من الشعر كالحكم » (٢)(*) .

(١) أورد ابن حجر فى الإصابة ترجمة مقتضبة لذابيل بن الطفيل برقم ٢٤٢٨ بالمجلد الأول ، كما أورد خبر وفادة خفاف ابن نضلة على رسول الله ﷺ وإنشاده قصيدته ، وإطراء رسول الله ﷺ إياها فى الترجمة رقم ٢٢٧٤ من نفس المجلد . والخبر بجملته أخرجه أبو سعد النيسابورى فى شرف المصطفى ، والبيهقى فى دلائل النبوة .
(٢) الأبيات فى سبل الهدى والرشاد ٦ / ٥٠٠ ونهاية الأرب للنويرى ١٨ / ١٤٦ ، وأبيات منها فى ترجمة خفاف السابق الإشارة إليها فى الإصابة .

(*) معانى المفردات :

تَحَطَّمَت : يعنى تكسرت ، القُلُوص : الناقة الشابة . الدُّجَى : ظلمة الليل ، المَهْمَةُ : المفازة والبرية . الْفَلَوات : جمع فلاة ، وهى الأرض لا ماء فيها ، الْفَلْ - بقاء مكسورة - : القوم المنهزمون ، من الْفَلْ : وهو الكسر . التَّوْرِيس : من وَرَس الثوب بالورس ، أى : صبغه . الْإِسْنَات : الجذوب . وَجَرَةٍ : اسم لفلاة بين قرآن وذات عرق بها =

ومجمل القول : إن مدائح الشعراء في رسول ﷺ من الوفرة والدفء والجمال والعمق بحيث لا تستقصى ، وقد قيلت في مناسبات متعددة ، وهي أكثر ما تكون في الغزوات والوفود ، وهي في مجملتها نماذج صادقة لموقف رسول الله ﷺ من الشعر ، تمثل مبلغ عنايته بالاستماع إليه ، ومقدار إعجابه بما كان رفيع المعاني شريف القصد منه ، وقد بدا ذلك واضحاً في مواقف كثيرة ، منها هذا الموقف ، ومواقفه من سليم في هوازن ، وموقفه حين استمع إلى عمرو بن سالم ، وموقفه من شعر قتيلة بنت النضر وغير ذلك كثير .

=الوحش ولا ماء فيها . المواتى : الموافق ، احزأل : يعنى انفرد . والاحزئلال : الانفراد ، الناجية : الناقة السريعة التى تنجو بصاحبها ، النى : الشحم واللحم ، الجمز ، ضرب من السير السريع ، تجب : تقطع . وروى نخب - بالخاء - من الخبب : وهو نوع من المشى السريع .



الفصل الثالث

استسقاء النبي ﷺ

- الشعراء يناشدون الرسول الاستسقاء .
- «الرسول يستسقى به وهو غلام .

استسقاء النبي ﷺ

المطر حياة الناس والحيوان والنبات ، إذا كثر سعد الناس ، وارتوت الأنعام ، واخضر الشجر ، واعشوشبت الأرض ، وعاش الناس في نعيم وعيش رغيد ، وإذا انحبس المطر أجذبت الأرض ، وجف الضرع ، وصوح النبات . وقل الخير .

ولكن الناس إذا ما اتجهوا إلى الله بقلوب مؤمنة ، ونفوس ضارعة ، وأرواح خاشعة ، وسألوه - سبحانه - وصلوا صلاة الاستسقاء - وهي شعيرة إسلامية - تفضل الله عليهم بسوق السحاب ، وهطول الأمطار التي تبدل جديهم خصبا ، وفقرهم غنى ، وبؤسهم سعادة .

وكانت عبارات رسول الله ﷺ وهو يتضرع إلى الله في طلب السقيا واستمطار السحاب نموذجا فريدا لألوان المناجاة الربانية ، ومثالا نورانيا للضرعات الإلهية ، بلاغة قول ، وفصاحة لفظ ، ونصاعة بيان ، وعمق خشوع ، وصرف خضوع . إنها مناجاة سيد الخلق لسيده إله الكون الإله الرزاق الجواد الذي له ما في السموات والأرض ، سبحانه اللطيف الخبير .

قال أنس بن مالك : قَحَلَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَاهُ الْمُسْلِمُونَ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ : قَحَطَ الْمَطَرُ ، وَيَسَّ الشَّجَرُ ، وَهَلَكَتِ الْمَوَاشِي ، وَأُسْنَتِ النَّاسُ ، فَاسْتَسْقَى لَنَا رَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ .

فقال : إذا كان يوم كذا وكذا فاخرجوا واخرجوا معكم بصدقات .

فلما كان ذلك اليوم خرج رسول الله ﷺ والناس معه ، يمشى ويمشون ، عليهم السكينة والوقار ، حتى أتوا المصلى ، فتقدم النبي - عليه السلام - فصلّى بهم ركعتين ، يجهر فيهما بالقراءة ، فلما قضى صلاته استقبل القوم بوجهه ، وقلّب رداءه ، ثم جثا

على رُكْبَتَيْهِ ، ورفع يديه ، وكبر تكبيرة قبل أن يَسْتَسْقِيَ ، ثم قال : « اللهم اسْقِنَا وأغثنا ، اللهم اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا ، وَحَيًّا رَبيعًا ، وَجَدًّا طَبَقًا غَدَقًا مُغْدِقًا مُونِقًا عَامًّا ، هَنِيئًا مَرِيئًا مَرِيعًا ، مُرْتَعًا مُرْبِعًا وَابِلًا ، سَابِلًا مُسْبِلًا مُجَلَّلًا دَائِمًا دِرْرًا ، نافعًا غَيْرَ ضَارٍّ ، عاجِلًا غَيْرَ رَاثٍ . اللهم غَيْثًا تُحْيِي به البلاد ، وتُغِيثُ به العباد ، وتجعله بَلَاغًا لِلْحَاضِرِ منا وَالْبَادِ .

اللهم أَنْزِلْ في أَرْضِنَا زَيْتِنَهَا ، وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا في أَرْضِنَا سُكْنَهَا .

اللهم أَنْزِلْ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ، فَأَخِي بِهِ بِلَدَةٍ مَيْتًا ، واسْقِهِ مِمَّا خَلَقْتَ لَنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسَى كَثِيرًا .

قال فما بَرَحْنَا حتى أَقْبَلَ قَزَعٌ مِنَ السَّحَابِ ، فَالتَّامَ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ ، ثم مَطَرَتْ عَلَيْهِمْ سَبْعَةُ أَيَّامٍ وَلِيَالِيَهُنَّ لَا يُقْلَعُ عَنِ الْمَدِينَةِ .

فَأَتَاهُ الْمُسْلِمُونَ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ غَرَقَتِ الْأَرْضُ ، وَتَهَدَّمَتِ الْبُيُوتُ ، وَأَنْقَطَعَتِ السُّبُلُ ، فَادْعُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَصْرِفَهَا عَنَّا . فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمُنْبَرِ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، تَعْجَبًا لِسُرْعَةِ مَلَالَةِ ابْنِ آدَمَ ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ : « اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا ، اللَّهُمَّ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ ، وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ وَظُهُورِ الْأَكَامِ » .

فَتَصَدَّعَتْ عَنِ الْمَدِينَةِ حَتَّى كَانَتْ فِي مِثْلِ التُّرْسِ عَلَيْهَا كَالْفُسْطَاطِ ، ثُمَّ طَرَّ مَرَاغِيهَا وَلَا يُمَطَّرُ فِيهَا قَطْرَةٌ . (١) (*)

(١) منال الطالب ١ / ٩٨ ، ٩٩ ، والحديث أخرجه الزمخشري في الفائق ١ / ٣٤١ .

(*) معاني المفردات :

القحط : احتباس المطر . أسنت الناس ، فهم مستنون : إذا دخلوا في السنة ، وهي الجذب . الحيا : المطر . الجدا (مقصورا) : المطر العام . الطبق : الذي يطبق الأرض ، أى : يعمّ وجهها ، الغدق - كالغسل - : الكثير القطر ، المربع : المخصب الناجع في الماشية . المربع - بالباء - : الدائم المقيم ، الوابل : المطر الشديد ، السابل : السحاب الماطر . الدرر - بكسر ثم نصب - : جمع الدرة : وهي المطر . الرائب : البطيء ، السكن - بضم ثم سكون - : القوت الذي يسكن به في البلاد ، القزع : جمع قزعة - بفتح القاف والزاي - هي القطع المتفرقة من السحاب ، الظراب - بكسر الظاء - : جمع ظرب - بفتح ثم كسر - : هو الجليل الصغير . الأكام : الروابي .

الرسول يناشده الشعراء الاستسقاء :

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن أعرابيا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، قد أتيناك وما لنا بغير يئط ، ولا صبي يصطبج ، وأنشد :

أَتَيْنَاكَ وَالْعَذْرَاءُ يَدْمَى لِبَانُهَا وَقَدْ شُغِلَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَنِ الطُّفْلِ
وَأَلْقَى بِكَفِّهِ الْفَتَى اسْتِكَانَةً مِنَ الْجُوعِ ضَعْفًا مَا يُمِرُّ وَمَا يُجْلِي
وَلَا شَيْءَ تَمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ عِنْدَنَا سِوَى الْحَنْظَلِ الْعَامِيِّ وَالْعِلْهِزِ الْفَسْلِ
وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا إِلَيْكَ فِرَارُنَا وَأَيْنَ فِرَارُ النَّاسِ إِلَّا إِلَى الرَّسْلِ (١)

فقام رسول الله ﷺ يَجُرُّ رِداءَهُ حَتَّى صَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ، فَقَالَ : « اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا مَرِيحًا غَدَقًا طَبَقًا ، عاجلاً غيرَ راثٍ ، نافعاً غيرَ ضارٍّ ، تملأ به الضَّرْعُ ، وتُنبت به الزَّرْعُ ، وتُحْيى به الْأَرْضُ بعد موتها وكذلك تُخْرِجُونَ » .

قال : فما رد رسول الله ﷺ يديه إلى نحره حتى التقت السماء بأزواقها ، وجاء أهل البطانة يَضْجُونَ : يا رسول الله ، الْغَرَقُ الْغَرَقُ . فرفع يده إلى السماء ، وقال : « اللَّهُمَّ خَوَالِنَا وَلَا عَلَيْنَا » فَانْجَابَ السَّحَابُ عَنِ الْمَدِينَةِ حَتَّى أَحْدَقَ بِهَا كَالْإَكْلِيلِ . فضحك رسول الله ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، ثُمَّ قَالَ : اللَّهُ أَبُو طَالِب ! لو كان حيًّا قَرَّتْ عَيْنَاهُ ، مَنْ الَّذِي يُنْشِدُنَا قَوْلَهُ ؟ فقام على بن أبي طالب ، فقال : يا رسول الله ، كأنك أردت قوله :

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ
يَلُودُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَهُمْ عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَقَوَاضِلِ
كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ يُنْزَى عَمَّادُ وَلَمَّا تُقَاتِلْ دُونَهُ وَتُنَاضِلِ
وَتُسَلِّمَهُ حَتَّى تُصْرِعَ حَوْلَهُ وَتَنْذَهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَالِلِ

(١) هذه الأبيات تنسب إلى لبید يخاطب بها رسول الله ﷺ حين وفد عليه في جماعة من قومه مع اختلاف في الرواية .

فقال رسول الله : أَجَلٌ ، فقام رجلٌ من كِنانة ، فقال :

لَكَ الْحَمْدُ وَالْحَمْدُ مِمَّنْ شَكَرُ سَقِينَا بِوَجْهِ النَّبِيِّ الْمَطَرُ
دَعَا اللَّهَ خَالِقَهُ دَعْوَةً إِلَيْهِ وَأَشْخَصَ مِنْهُ الْبَصَرُ
فَلَمْ يَكُ إِلَّا كَالْقَا الرَّدَاءِ وَأَسْرَعَ حَتَّى رَأَيْنَا الدَّرَرَ
دُفَاقَ الْعَزَائِلِ جَمَّ الْبُعَاقِ أَغَاثَ بِهِ اللَّهُ عَلِيًّا مُضَرَّ
وَكَانَ كَمَا قَالَهُ عَمَّهُ أَبُو طَالِبٍ أَيْضُ ذُو غُرَّرَ
بِهِ اللَّهُ يَسْقِي صَوْبَ الْغَمَامِ وَهَذَا الْعِيَانُ كَذَاكَ الْخَبَرُ
فَمَنْ يَشْكُرُ اللَّهَ يَلْقُ الْمَزِيدَ وَمَنْ يَكْفُرُ اللَّهَ يَلْقُ الْغِيَرُ

فقال رسول الله ﷺ : « إن يك شاعرٌ أحسنَ فقد أحسنت » (١).

نلاحظ هنا أن الرسول ﷺ قد أبدى ارتياحه لأبيات عمه أبي طالب في الاستسقاء - وكان أبو طالب وأكثر بنيه شعراء مجيدين - كما أن الرسول ﷺ قد أطرى الشاعر الكنانى وحيّاه بإحدى عباراته الناصعة البيان إعجابا بشعره ، وذلك في قوله الشريف : « إن يك شاعرٌ أحسنَ فقد أحسنت » .

(١) منال الطالب ١ / ٩٩ وما بعدها ، والخصائص الكبرى للسيوطى ٢ / ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

المعاني :

الأطيط : حنين الناقة وصباحها ، يريد أن الجذب قد ذهب بالإبل كلها ، الاصطباح : شرب الصبوح ، وهو ما يشرب من اللبن وغيره في الغداة . اللبان : الصدر . الاستكانة : الذل والخضوع . ما يمر وما يحلى ، أى : ما يتكلم بمر من الكلام ولا حلو ، وذلك بسبب الجوع والضعف ، العلهز - بكسر العين والهاء - : شيء كانوا يدخرونه لعام الجذب يأكلونه ، الأرواق : الأثقال ، أى : ألقت السماء بهاها الكثير المثلث للسحاب . أهل البطانة : هم الذين كانوا ينزلون حوالى المدينة . الإكليل : العصاة التى تعمل على الرأس كالتاج ، أى : صار السحاب حول المدينة كالإكليل حول الرأس . قرت عيناه ، أى : بردت دمعته ؛ لأن دمع السرور بارد ، ودمع الحزن حار ، الثيال - مثلثة الثاء - : المطعم - بضم الميم ثم سكون فكسر - يستسقى الغمام بوجهه ، أى : بجاهه وحرمة . نصرع - بتشديد الراء المكسورة - أى : نقتل ونرمى على الأرض . الحلائل : الزوجات . الدّرر - بكسر الدال - جمع درة : المطر . العزائل : مقلوب العزالي جمع عزلاء ، وهى : فم المزايدة من أسفلها الذى يخرج منه الماء ، البعاق - بالضم - المطر العظيم الانصباب . البصوب : نزول المطر . الغير - بكسر الغين - : الحوادث وتغير الحال .

الرسول يُستسقى به وهو غلام :

تروى هذا الخبر رقيقة (مصغرة) بنت أبى صيفى بن هاشم بن عبد المطلب بن هاشم ، وهى والددة مخزومة بن نوفل . وكانت لدة لعبد المطلب ، وأدركت البعثة النبوية وأسلمت ، وكان لها صحبة لرسول الله ﷺ وهى التى حدثت رسول الله ﷺ بشأن تأمر قريش عليه فى ليلة اجتماعهم يريدون قتله ، فتحول عن فراشه وبات فيه على بن أبى طالب (١).

قالت : تتابعث على قُرَيْشٍ سِنُو جَذْب ، أَفَحَلَّتْ الْأَرْضُ وَالضَّرْعَ ، وَأَرْقَتِ الْعَظْمَ فِينَا أَنَا رَاقِدَةٌ - اللَّهُمَّ - أَوْ مُهَوِّمَةٌ ، وَمَعَى صِبْوَتِي ، إِذْ أَنَا بِهَاتِفٍ صَيِّتٍ يَصْرُخُ بِصَوْتٍ صَحِيلٍ ، أَفْشَعَرَ لَهُ جِلْدِي ، يَقُولُ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْمَبْعُوثَ مِنْكُمْ قَدْ أَظْلَمَكُمْ أَيَّامُهُ ، وَهَذَا إِيَّانُ نُجُومِهِ ، فَحَيَّ هَلَا بِالْحَيَا وَالْخُصْبِ ، أَلَا فَانظُرُوا فِيكُمْ رَجُلًا وَسِيطًا جُسَامًا طَوَالًا ، أَبْيَضَ بَضًّا ، أَسَمَّ الْعَرَنِينَ ، أَوْطَفَ الْأَهْدَابِ ، سَهْلَ الْخَلْدَيْنِ ، لَهُ فَخْرٌ يَكْظِمُ عَلَيْهِ ، وَسُنَّةٌ تَهْدِي إِلَيْهِ ، أَلَا فَلْيَخْلُصْ هُوَ وَلَدُهُ ، وَلْيَذِلْفَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ رَجُلٌ ، أَلَا فَلْيَسْتَنْوُا مِنَ الْمَاءِ ، وَلْيَمْسُوا مِنَ الطَّيِّبِ ، وَلْيَسْتَرْمُوا الرُّكْنَ ، وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ سَبْعًا ، ثُمَّ لِيَرْتَقُوا أَبَا قُبَيْسٍ ، أَلَا وَفِيهِمُ الطَّيِّبُ الطَّاهِرُ لِدَاتِهِ ، أَلَا فَلْيَسْتَسْقِ الرِّجُلُ ، وَلْيُؤْمِنِ الْقَوْمُ ، أَلَا فَعِثُّمُ إِذَا مَا شِئْتُمْ وَعِشُّمُ .

قالت : فأصبحث - علم الله - مَدْعُورَةٌ ، قَدْ قَفَّ جِلْدِي ، وَوَلَّهَ عَقْلِي ، فَاقْتَصَصْتُ رُؤْيَايَ ، وَنَمَتْ فِي شَعَابِ مَكَّةَ ، فَوَالْحُرْمَةِ وَالْحَرَمِ إِنْ بَقِيَ بِهَا أَبْطَحِي إِلَّا قَالَ : هَذَا شَيْبَةُ الْحَمْدِ ، وَتَنَامَتْ عِنْدَهُ رَجَالَاتُ قُرَيْشٍ ، وَانْقَضَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ رَجُلٌ ، فَسَنُّوا ، وَمَسُّوا ، وَاسْتَلَمُوا وَاطُوفُوا ، ثُمَّ ارْتَقُوا أَبَا قُبَيْسٍ ، وَطَفِقَ الْقَوْمُ يَدْفُونَ حَوْلَهُ ، مَا إِنْ يُدْرِكُ سَعْيُهُمْ مَهْلَهُ ، حَتَّى قَرُّوا بِذُرْوَةِ الْجَبَلِ ، وَاسْتَكْفُوا جَنَابِيهِ .

فقام عبد المطلب ، فاعتضد ابنه محمداً ، فرفعه على عاتقه ، وهو يومئذ غلام قد أيفع أو كُرب ، ثم رفع يديه ، فقال : اللَّهُمَّ سَادَّ الْخَلَّةَ وَكَاشَفَ الْكُرْبَةَ ، أَنْتَ عَالِمٌ غَيْرُ

(١) الإصابة ٤ / ٣٠٣ الترجمة رقم ٤٢٥ .

مُعَلَّم ، ومسئول غير مُبَحَّل ، وهذه عِيدَاؤُكَ وإِمْأُوكَ بِعِذَرَاتِ حَرَمِكَ ، يَشْكُونُ إِلَيْكَ سَنَتَهُمْ ، أَذْهَبَتْ الْخُفَّ وَالظَّلْفَ ، فَاسْمَعَنَّ اللَّهُمَّ ، وَأَمْطِرَنَّ عَلَيْنَا غَيْثًا مُزْبِعًا مُغْدِقًا . فَوَرَبُّ الْكَعْبَةِ مَارِئُومَا حَتَّى تَفْجَرْتَ السَّمَاءَ بِإِثْنِهَا ، وَكَظَّ الْوَادِي بِشَجِيحِهِ ، فَسَمِعْتُ شَيْخَانَ قُرَيْشٍ وَجِلَّتْهَا : عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُدْعَانَ ، وَحَرْبَ بْنَ أُمَيَّةَ ، وَهَشَامَ بْنَ الْمُغِيرَةَ ، يَقُولُ لِعَبْدِ الْمُطَّلَبِ : هَنِيئًا لَكَ أَبَا الْبَطْحَاءِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ رُقَيْقَةُ :

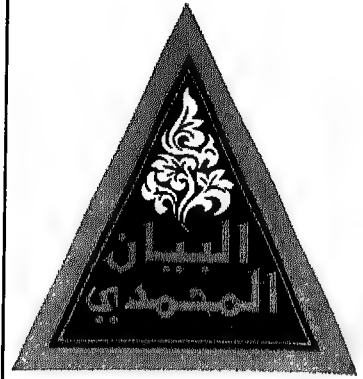
بَشِيبَةِ الْحَمْدِ أَسْقَى اللَّهُ بَلَدَنَا وَقَدْ فَقَدْنَا الْحَيَا وَاجْلُوذَ الْمَطَرِ
فَجَادَ بِالْمَاءِ جَوْنِيُّ لَهُ سَبَلٌ سَحًّا فَعَاشَتْ بِهِ الْأَنْعَامُ وَالشَّجَرُ
مَنَا مِنْ اللَّهِ بِالْمِيْمُونِ طَائِرُهُ وَخَيْرَ مَنْ بُشِّرْتُ يَوْمًا بِهِ مُضَرُّ
مُبَارَكُ الْوَجْهِ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِهِ مَا فِي الْأَنَامِ لَهُ عِذْلٌ وَلَا خَطَرُ^(١)

هكذا كان الشعر في ركاب رسول الله ﷺ وحوله وبين يديه منذ أن كان يافعا يستسقى به المطر مع جده المحب له والأثير لديه ، ثم رافقه استسقاء في سنوات الرسالة ، استنشادا ومدحيا ودفاعا عنه وهجاء لأعدائه ووصفا لمعاركه وتسجيلا لمواقعه ورتاء لشهداء دعوة الإسلام على النحو المبين في حنايا هذا الفصل . وكان شعرا جادا

(١) الفائق ٣ / ١٥٩ - ١٦٢ ودلائل النبوة ١ / ٣٦١ - ٣٦٥ ، وأسد الغابة ٧ / ١١١ - ١١٣ .
المعاني :

الرقود : النوم المستحكم . التهويم : النوم الخفيف ، الصبوة - بالكسر - : الأولاد الصغار . الصحل - بفتح ثم كسر : الذى فى صوته بحة . إبان نجومه : يعنى وقت ظهوره . أشم العرين : مرتفع الأنف . أوظف الأهداب ، من الوظف ، وهو طولها . الكظم : الكتم والإمساك على الشيء . ألا فليخلص هو وولده : يعنى فليتميزوا وينفردوا من الناس . الشن : صب الماء على الرأس واليدين متفرقا ، ومنه شن الغارة : إذا أخذتهم من نواحيهم . قفَّ الجلد : إذا تقبض وأرتعد . الوله : الحيرة والدهش ، الأبطحى : المنسوب إلى أبطح مكة ، وهو ظاهرها . يَدُقُون - بالفاء المشددة - من الدقيق ، وهو : المَرَّ السريع ، استكفوا به - بالفاء المشددة - : أحذقوا به وصاروا حوله . أيفع الغلام أو كَرَبَ ، أى : إذا شَبَّ وترعرع وشارف الاحتلام . الحَلَّة - بالفتح - : الحاجة . العبيد : العذرات ، جمع عذرة ، وهى فناء البيت . ماراموا : مابرحوا وما زالوا ، التحجيج : الماء المصبوب المتدفق . اجْلُوذَ المطر أى : ذهب وقل ، وأصله من اجلوذ فى السير ، أى : أسرع . السَّيْل - بالتحريك - : المسيل . الميمون طائره ، أى : المبارك المقبل السعيد ، وهو من التيمن بالطير السانح ، وضده التشاؤم بالطير البارح . العِذْل : المثل والنظير .

نبيلاً بناء غير مترخص ولا متخاذل ، وكان الرسول يمتدحه ويطرى منشديه بعبارات
حمدية لا يصدر مثلها إلا عنه - صلى الله وسلم وبارك عليه - ولا يزال إطرأؤه لشاعر
كنانة يرن في أسماعنا في رفق وإجلال ، وذلك في قوله الشريف : « إن يك شاعر أحسن
فقد أحسنت » .



الفصل الرابع

الرسول وخبر قسّ بن ساعدة

الرسول وخبر قس بن ساعدة الإيادي

نحن نسوق هذا الخبر في مقام احتفال رسول الله ﷺ بالشعر الجيد الذي تؤدي روايته نفعا ، ويخلف إنشاده موعظة ، فقد عرفنا من خلال ما هو مسطور في هذا الباب أن عناية رسول الله ﷺ كانت منصرفة إلى الشعر البليغ الذي يخدم غاية نبيلة ويخلف أثرا جميلا .

وقبل أن نمضي قدما في حديث قس وخبره لا يفوتنا أن نشير إلى أن بعض الحفاظ قد صنفوا هذا الخبر بين الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة ، ومن ثم كان علينا قبل أن نضمّن هذا الخبر الكتاب الذي بين أيدينا ، إعمال بعض الجهد لكي نتأكد من صحة الخبر ، وعمّا إذا كان الحديث صحيحا أو موضوعا .

لقد حفلت كتب التراث بذكر خبر قس ، وهذه الكتب من الطبقة العليا مثل البيان والتبيين للجاحظ ، والعقد الفريد لابن عبدربه ، والمعمرين لأبي حاتم . والأغانى لأبي الفرج ، ودلائل النبوة لأبي نعيم ، والأوائل لأبي هلال العسكري ، والمنازل والديار لأسامة بن منقذ ، وتصحيح الفصيح لابن درستويه ، وشرح مقامات الحريري للشريشي ، وخزانة الأدب للبغدادى ، وغير ذلك .

هؤلاء المؤلفون العظام جعلونا نثريث في قبول الطعن الذي وجهه بعض الحفاظ الذين لهم مقامهم من الإجلال مثل شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى في « الإصابة » والحافظ الهيثمى في « مجمع الزوائد » والجلال السيوطى في « اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة » .

على أن هناك محدثين لهم قدرهم ومكانتهم في خدمة حديث رسول الله ﷺ قد أيدوا

صحة الخبر مثل الحافظ ابن كثير في « السيرة النبوية » والبيهقي في « دلائل النبوة » وابن سيد الناس في « عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير »

ولقد لفت نظرنا بشكل خاص رواية الحافظ الفتح بن سيد الناس من حيث صحة الإسناد وثقة الرواة الذين ضمتهم السلسلة عن طريقين : الطريق الأول بداية من الشيخة أمة الحق شامية ابنة الإمام الحافظ أبي علي الحسن بن محمد البكري ، وانتهاء بمجالد عن الشعبي عن عبدالله بن عباس (١).

والطريق الثاني بداية من شيخه أبي الفتح يوسف بن يعقوب الشيباني وانتهاء بعبد الله بن عباس (٢).

أما وقد اطمأن القلب إلى صحة الخبر ، فإننا نجد أنفسنا بين روايتين لا تختلفان إلا من حيث بعض التقديم وبعض التأخير ، هما رواية الحافظ مجد الدين أبي السعادات ابن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ورواية الحافظ الفتح بن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ ، وإن كلا من الرجلين حافظ محدث ثقة ، ولكننا آثرنا إيراد رواية ابن الأثير لأنه أسبق زمنا ، ولأنه صاحب مشاركة في التأليف الأدبي ، فضلا عن كتبه في علوم الحديث ، فمن ذلك كتاب البديع ، وصناعة الكتاب ، والمختار في مناقب الأخيار ، وديوان رسائل ، ومنال الطالب في شرح طوال الغرائب (٣)، وهو الكتاب الذي بين أيدينا ، والذي بذل فيه محققه عناء كبيرا وجهدا مشكورا . يقول الخبر :

لَمَّا قَدِمَ وَفَدُ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ لَهُمْ : أَفِيكُمْ مَن يَعْرِفُ قُسَّ بْنَ سَاعِدَةَ الْإِيَادِيَّ ؟ قَالُوا : كُلُّنَا نَعْرِفُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : فَمَا فَعَلَ ؟ قَالُوا : هَلَكَ . قَالَ : لَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَاظٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ، وَاقِفٌ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ وَهُوَ يُنَادِي وَيَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اجْتَمِعُوا وَاسْتَمِعُوا . وَإِذَا سَمِعْتُمْ فَعُؤَا ، وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَانْتَفِعُوا ، وَإِذَا انْتَفَعْتُمْ فَقُولُوا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاصْدُقُوا ، مَن عَاشَ مَاتَ ، وَمَن مَاتَ فَاتَ ، وَكُلُّ مَا

(١) عيون الأثر ١ / ٦٨ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٦٩ .

(٣) تحقيق الدكتور محمود محمد الطناحي ، مركز إحياء التراث بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

هو آتٍ آتٍ ، مَطَرٌ وَنَبَاتٌ ، وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ ، وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ ، وَجَمِيعٌ وَأَشْتَاتٌ ،
وآيَاتٌ بعد آياتٍ ، إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبْرًا ، وَإِنَّ فِي الْأَرْضِ لَعِبْرًا ، يَحَارُّ فِيهَا الْبَصَرُ ، مِهَادٌ
مَوْضُوعٌ ، وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ ، وَنُجُومٌ تَمُورُ ، وَبِحَارٌ لَا تَغُورُ ، وَمَنَابِيا دَوَانٍ ، وَدَهْرٌ خَوَانٌ ،
كَحَذْوِ النَّسْطَاسِ ، وَوزنِ الْقُسْطَاسِ . أَقْسَمُ قَسْ قَسْمًا حَقًّا ، لَا كَاذِبًا فِيهِ وَلَا آثِمًا : إِنَّ
لِلَّهِ دِينًا هُوَ أَرْضَى لَهُ مِنَ الدِّينِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ .

ثم قال : مَالِي أَرَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا يَرْجِعُونَ ! أَرْضُوا فَأَقَامُوا ، أَمْ تُرْكُوا فَنَامُوا ؟
ثم التفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، فقال : أَيُّكُمْ يَرَوِي لَنَا شِعْرَهُ ؟ فقال أبو
بكر: أَنَا شَاهِدٌ لَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ حَيْثُ يَقُولُ :

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِّلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا يَمْضِي الْأَكَابِرُ وَالْأَصَاغِرُ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي وَلَا يَنْقَى مِنَ الْبَاقِينَ غَابِرُ (*)
أَيَقْنْتُ أَنِّي لَأَعْمَا لَّةَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

قال : فقام إلى رسول الله ﷺ شيخ من عبد القيس ، طويل القامة عظيم الهامة ،
ضَخْمُ الدَّسِيعَةِ ، جَهْوَرِي الصَّوْتِ ، فقال : فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَأَنَا فَقَدْ
رَأَيْتُ مِنْ قُسِّ بْنِ سَاعِدَةَ عَجَبًا .

فقال له رسول الله : وما الذي رأيت منه يا أخا عبد القيس ؟

فقال : خَرَجْتُ فِي جَاهِلِيَّتِي ، أَرِغُ بَعِيرًا شَرَكْتُ مَنِّي ، أَفْقُو أَثَرَهُ فِي تَنَائِفِ حِقَافٍ ،
ذَاتِ ضَغَائِيسٍ ، وَعَرَصَاتِ جَنْجَاثٍ ، بَيْنَ صُدُورِ جِرْعَانٍ ، وَغَمِيرِ حَوَذَانٍ ، وَمَهْمَةٍ
ظُلْمَانٍ ، وَرَضِيعِ أَيْهَمَانٍ ، فَبَيْنَا أَنَا فِي تِلْكَ الْفَلَوَاتِ أَجُوبُ بِسَبْسَبِهَا - وَفِي رِوَايَةٍ :

(*) البيت في عيون الأثر هكذا :

لا يرجع الماضي إلّا ولا من الباقين غابر

سَبَسَبَهَا - وَأَرْمُوْهُ فَدَفَدَهَا . إِذَا أَنَا بِهِضِيَّةٍ فِي تَسَوَاتِهَا أَرَاكَ كَبَاثٍ ، مَخْضُوضِلَةً بِأَغْصَانِهَا
كَأَنَّ بَرِيرَهَا حَبٌّ فُلْفُلٌ ، مِنْ بَوَاسِقِ أَقْحَوَانٍ ، وَإِذَا أَنَا بِعَيْنِ خَرَّارَةٍ ، وَرَوْضَةٍ مُدْهَامَةٍ ،
وَشَجَرَةٍ عَادِيَّةٍ ، وَإِذَا قُسٌّ بَنٌ سَاعِدَةٌ جَالِسٌ فِي أَصْلِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ، وَبِيَدِهِ قَضِيبٌ ،
فَدَنَوْتُ مِنْهُ ، فَقُلْتُ : انْعَمَ صَبَاحًا ، فَقَالَ : وَأَنْتِ فَتَنِعِمَ صَبَاحُكَ . .

قال : وَإِذَا قَبْرَانِ بَيْنَهُمَا مَسْجِدٌ ، فَقُلْتُ : مَا هَذَانِ الْقَبْرَانِ ؟ فَقَالَ : هَذَانِ قَبْرَا
أَخَوَيْنِ كَانَا لِي ، يَعْبُدَانِ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَأَنَا مُقِيمٌ بَيْنَ قَبْرَيْهِمَا . أَعْبُدُ
اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى الْخَقِّ بَهُمَا ، ثُمَّ أَقْبِلْ عَلَى الْقَبْرَيْنِ يَبْكِي ، وَيَقُولُ :

خَلِيلِيْ هُبَّا طَالَ مَا قَدْ رَقَدْتُمَا أَجِدْكُمْ مَا تَقْضِيَانِ كَرَامَا (*)
أَرَى النُّومَ بَيْنَ الْعَظْمِ وَالْجُلْدِ مِنْكُمْ كَأَنَّ الَّذِي يَسْقِي الْعُقَارَ سَقَاكُمْ
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنِّي بِسَمْعَانِ مُفْرَدٍ وَمَالِي فِيهِ مِنْ حَبِيبٍ سَوَاكُمْ
مُقِيمٌ عَلَى قَبْرَيْكُمَا لَسْتُ بَارِحًا أَذُوبُ اللَّيَالِي أَوْ يَجِيبُ صَدَاكُمْ
وَأَبْكِيكُمْ طَوْلَ الْحَيَاةِ وَمَا الَّذِي يَرُدُّ عَلَى ذِي لُوعَةٍ إِنْ بَكَاكُمْ
كَأَنَّكُمْ وَالْمَوْتُ أَقْرَبُ غَايَةٍ بِرُوحِي فِي قَبْرَيْكُمْ قَدْ أَتَاكُمْ
فَلَوْ جُعِلَتْ نَفْسٌ لِنَفْسٍ فِدَاءُهَا لَجُدْتُ بِنَفْسِي أَنْ تَكُونَ فِدَاكُمْ

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَرْحَمُ اللَّهُ قُسًّا ، أَمَا إِنَّهُ سَيُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَوَحْدَهُ » .

يقول ابن الأثير : وفي رواية أخرى : قدم الجارود بن عبد الله في وفد عبد القيس ،
على رسول الله ﷺ ، وكان سيِّدًا في قومه ، مُطَاعًا في عشيرته ، في كُلِّ كَيْمِيٍّ صِنْدِيدٍ ،
قَدْ دَوَّمُوا الْعِمَامَةَ ، وَتَرَدُّوا بِالصَّاصِمِ ، يُجَرُّونَ أَسْيَافَهُمْ ، وَيَسْحَبُونَ أَذْيَالَهُمْ ، كَأَنَّهُمْ

(*) خالَج بعض الدراسين شك في نسبة هذه الأبيات لقس ، ونسبوها إلى عيسى بن قدامة الأسدي ، وبمراجعتنا
للمصدر الذي ذكر في هذا الشأن وجدنا أن عيسى بن قدامة كان ينشدها على قبرين لصديقين له ، كان ينشد
الأبيات وهو يشرب خمرًا ، ولم يذكر المصدر أنه صاحب الشعر وقائله ، وإننا ذكر أنه كان يترنم به ، كذلك أورد
ياقوت قصيدة قريبة في صوغها إلى قصيدة قس ونسبها إلى نصر بن غالب يرثي صديقين له ، وليس في ذلك بأس ،
فربما تأثر نصر بقصيدة قس فرسم على منوالها (يراجع الأغاني ١٤ / ٤٢ ، ٤٣ طبعة بولاق ومعجم البلدان مادة
رواند) .

أَسْدُ غِيل ، يَقْدُمُهَا ذُو لُبَّةٍ مِهُولٍ ، فلما دخلوا المسجد ، دَلَفَ الجَارُودُ ، وحسّر
لِثَامَهُ ، وأحسنَ سلامَهُ ، ثم قال :

يا نَبِيَّ الهُدَى أَتَتْكَ رِجَالٌ قَطَعَتْ مَهْمَهَا وَأَلَا فَاَلَا
وَطَوَتْ نَحْوَكَ الصَّاحِبَ طُرّاً لَا تَخَالُ الْكَلَالَ فِيكَ كَلَالَا
كُلَّ يِهَاءٍ يَقْصُرُ الطَّرْفُ عَنْهَا أَرْقَلْتُنَا قِلَاصُنَا إِرْقَالَا
وَطَوَّهَا الْجِيَادُ تَجْمَعُ فِيهَا بِكُمَا كَانُجُمُ تَنَلَلَا
تَبْتَغِي دَفْعَ بَاسٍ يَوْمِ عُبُوسٍ أَوْجَلَّ الْقَلْبَ ذِكْرُهُ ثُمَّ هَالَا

فَقَرَّبَهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وأدناه ، وقال : « يا جَارُودُ ، لقد تأخَّرَ بك وبقومك الموعدُ ،
وطال بكم الأمدُ » .

فقال : والله لقد أخطأ من أخطأك قصده ، وعَدِمَ رُشْدَهُ ، وتلك - وإيم الله - أكبرُ
خَبِيَّةٍ وأعظم حَوِيَّةٍ ، والرائدُ لا يَكْذِبُ أَهْلَهُ ، ولا يَغْشُ نَفْسَهُ ، لقد جئتُ بالحقِّ ،
ونطقتُ بالصدق ، ولقد وجدتُ وصفَكَ في الإنجيل ، ولقد بَشَّرَ بك ابنُ البُتُولِ ، ولا
أثرَ بعد عَيْنٍ ، ولا شكَّ بعد يقين ، مُدَّ يَدُكَ فَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّكَ رَسُولُ
اللَّهِ .

فَامِنْ الجَارُودُ ، وَآمَنَ مِنْ قَوْمِهِ كُلِّ سَيِّدٍ .

ثم قال : يا جَارُودُ ، هل في جماعةٍ عبيدِ القيسِ مَنْ يَعْرِفُ لَنَا قُصّاً ؟

فقال : كُلُّنَا يَعْرِفُهُ ، وَأَنَا مِنْ بَيْنِ قَوْمِي كُنْتُ أَقْفُو أَثَرَهُ ، وَأَطْلُبُ خَبَرَهُ ، كان قُصٌّ
سَبْطاً مِنْ أَسْبَاطِ الْعَرَبِ ، صَحِيحَ النَّسَبِ ، فَصِيحاً ذَا حُطْبٍ ، عُمَرُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ،
أَوْ سِتْمِائَةٍ ، يَتَقَفَّرُ الْفِقَارَ ، لَا تُكِنُّهُ دَارٌ ، وَلَا يُقَرُّهُ قَرَارٌ . يَتَحَسَّى فِي تَقْفَرِهِ بَيْضَ النِّعَامِ ،
وَيَأْنَسُ بِالْوَحْشِ وَالْهَوَامِّ . وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَأَلَّاهُ مِنَ الْعَرَبِ ، وَأَعْبَدُ مَنْ تَعَبَّدَ فِي الْحِقَبِ .
ثم أطلال في وصفه نَثْراً وَنَظْماً .

فقال النَبِيُّ ﷺ : « عَلَى رِسْلِكَ يَا جَارُودُ ، فَلَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَازٍ عَلَى جِلِّ لَه

أَوْزَقَ ، وهو يتكلم بكلام مُونِقٍ ، ماأظنُّ أني أحفظه ، فهل فيكم يا معشر المهاجرين والأنصار من يحفظُ لنا منه شيئاً ؟ » .

فوثبَ أبو بكر ، وقال : أنا أحفظه ، وكنت حاضراً ذلك اليوم حينَ خطبَ ، أيها الناسُ اسمعوا وعُوا . وذكر نحو ما تقدّم . وفيه بعد قوله : « وإنَّ في الأرضَ لَعِبْراً » : ليلٌ داجٍ وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ ، وأرضٌ ذاتُ رِجاجٍ ، وبحارٌ ذاتُ أمواجٍ . وذكر الحديث إلى آخر الأبيات الرائية .

ثم قال : وقام رجلٌ من الأنصار ، كأنه قطعة جَبَلٍ ، ذو هامة عظيمة وقامة جسيمة ، قد دوّمَ عمامته ، وأرخى ذوائبه ، مُنِيفٌ أثوفاً أشدقُ أجشُ الصوت ، فقال : لقد رأيتُ من قسٍّ عَجَباً ، وشهدتُ منه مُرْعَباً ، خرجتُ في الجاهلية أطلبُ بعيراً لى شَرَدَ مني في تنائفٍ حقائفٍ ، ذات دَعَادَعٍ وزَعازِعٍ ، ليس بها للركب مَقِيلٌ ، ولا لغير الحِنِّ سبيلٌ ، فإذا أنا بموئلٍ مهوِلٍ ، في طَوْدٍ عظيمٍ ، ليس به إلا البُومُ ، إذ ركبني الليلُ ، فَوَجَّهته مذعوراً ، لا آمنُ فيه حَتَفِي ، ولا أركنُ فيه إلى غير سيفي ، فبتُّ بلبيلٍ طويلٍ ، كأنه بلبيلٌ مَوْصُولٌ ، أَرْقُبُ الكوكبَ ، وأرْمُقُ الغَيْهَبَ ، حتى إذا اللَّيْلُ عَسَعَسَ ، وكاد الصبحُ أن يتنَفَّسَ ، ولاح الصَّبَاحُ ، واتَّسع الإيضاحُ ، فتركْتُ المَوْزَ ، وأخذتُ في الجبلِ ، فإذا أنا بالفَيْقِ يُشَفِّسِقُ النُّوقَ ، فملكْتُ خِطامه ، وعلوتُ سنامه ، فمرَّحَ طاعةً ، وهزَّزته ساعةً ، حتى إذا لَغَبَ ، ودلَّ منه ما صَعُبَ ، بَرَكْتُ في رَوْضَةٍ خَضِرَةٍ ، نَضِرَةٍ عَطِرَةٍ ، ذاتِ حَوْذَانٍ وقُزْيَانٍ ، وعُنُقُزَانٍ وَعَيْشِرَانٍ ، وحلَى وأقاح وجُثْجَاتٍ ، وبرَارِيٍّ وشَقَاتِقٍ وبَهَارٍ ، كأنها بات الجوّ بها مطيراً ، وباكرها المزنُ بُكُوراً ، فَحَلَّاهَا شَجَرٌ ، وقرَارَها نَهْرٌ ، فجعل يَرْتَعُ آباً ، وأصيدُ ضَبّاً ، حتى إذا أكلتُ وأكلَ ، وتَهَلَّتُ وتَهَلَّ ، وعَلَلْتُ وعَلَّ ، حلَلْتُ عِقَاله ، وعَلَوْتُ جِلَاله ، وأوسعتُ مَجَاله ، فَأَعْتَنَمَ الحِمْلَةَ ، ومَرَّ كالنَّبْلةِ ، يَسْبِقُ الرِّيحَ ، ويقطَعُ عَرَضَ الفَسِيحِ ، حتى أشرفَ بى على وادٍ ، وشجرةٍ من شَجَرِ عَادٍ ، مُورِقَةٍ مُورِنَقَةٍ ، قد تَهَدَّلَتْ أغصانُها ، كأنها بَرِيرُها حَبُّ فُلُقُلٍ ، فدنوْتُ ، فإذا أنا بقُسٍّ بن ساعدةٍ في ظلِّ شجرةٍ ، بيده قَضِيبٌ من أراك ، وهو يقول :

بَانَايَ المَوْتِ والمَلْحُودِ فِي جَدَثٍ عَلَيْهِمْ مِنْ بَقَايَا بَرِّهِمْ خِرْقٌ
دَعَهُمْ فَإِنَّ لَهُمْ يَوْمًا يُصَاحُّ بِهِمْ فَهُمْ إِذَا أَنْيَهُوا مِنْ نَوْمِهِمْ فَرِقُوا
حَتَّى يَعُودُوا لِحَالٍ غَيْرِ حَالِهِمْ خَلَقًا جَدِيدًا كَمَا مِنْ قَبْلِهِ خُلِقُوا
مِنْهُمْ عُرَاةٌ وَمِنْهُمْ فِي ثِيَابِهِمْ مِنْهَا الْجَدِيدُ وَمِنْهَا الْمُنْهَجُ الْخَلْقُ

ثم ذكر حديث القبرين والشعر ، كما سبق ، فقال النبي ﷺ : « رحم الله قسًا ، أرجو أن يبعثه الله أمةً وحده » .

أخبار قس بن ساعدة وما روى عنه من خطب ومن شعر لم تقتصر روايته على رواية الأخبار والأشعار ، وإنما جرى توثيقها على يد الحفاظ ورواة حديث رسول الله ﷺ على النحو الذى أوردنا فى صدر هذا الحديث عن قس ، وإن أخبار قس تمثل واحدة من البيانات التى توضح عناية رسول الله ﷺ بالشعر الراقى الرقيق ، الذى يعالج موضوعات الحكمة وقضايا الأخلاق ، وحقائق الإيمان بالله خالقًا للكون ومرسلًا للأنبياء ، باعثًا الخلق يوم الحساب والنشور (*) .

(*) معانى المفردات :

الأشتات : المتفرقون ، مار الشيء : إذا تحرك ، النسطاس : ريش السهم ، الدسيعة : مجتمع الكتفين ، وقيل : العنق ، أريغ : أطلب ، التناثف : جمع تنوفة ، وهى الفلاة البعيدة ، الحفاف : جمع حقف ، وهو الكتيب المجتمع المائل من الرمل . الضغبائيس جمع ضغبوس ، وهو نبت يؤكل - الجشجات : نبت أصفر طيب الرائحة . الجرعان - بكسر الجيم - جمع جرعة - بفتح الجيم والراء - الرملة التى لا تنبت شيئًا ولا تمسك ماء . الغمير : هو الغمور المستور - الحوزان : بقلة ذات نور أصفر . الظلمان : جمع ظليم ، وهو ذكر النعام . الأيقان : الجرجير البرى . الفدغد : المكان الصلب المستوى . الكبث : ثمر الأراك قبل نضجه . والبرير : ثمر الأراك إذا نضج . المخضوضلة : الرطبة الندية . المدهامة : الشديدة الخضرة حتى تميل إلى السواد . أجذكما ؟ أى : أبجد منكما لا تقضيان نومكما ؟ الحوية - بالفتح والضم - : الإثم ، لا أثر بعد عين ، أى : لا يطلب أثر الشيء بعد أن ترى عينه وذاته . الكن - بكسر - أى : السترة . يتحشى فى تقفوه بيض النعام : يعنى أنه كان فى سياحته لا يجد طعامًا ، فإذا وجد بيض النعام تحسّاه نياً . التأله : التعبّد . الأنوف - بفتح الهمزة - : هو كبير الأنف ، وكنى به عن الشرف والمجد ، الدعادع : الأرض الجرداء من النبات ، جمع ددع . الزعازع : الشدائد ، جمع زعزع . المقليل : موضع القائلة ، وهى شدة الحر . ركة الليل : إذا أدركه . عسعن الليل : إذا ولى وأدبر إلا أقله ، وعسعن الليل : إذا أقبل ، وهو من الأضداد ، المور - بسكون الواو - : الطريق . ومار الشيء : ذهب . اللغوب : الإعياء - القرين : جمع قرى - بوزن صبي - هو مجرى الماء فى الروض - العنقزان - بضم العين والقف وبفتحها أيضا - : أصل القصب الغض ، العبيران : نبت طيب الرائحة ، الحلّ - بفتح وكسر - الكلا اليابس . الربيع بفتح ثم سكون : الرعى والتربّد فى الرعى ، التهلّ : الشرب والرى ، والعّل : الشرب بعد الشرب . المنهج - بضم الميم - : البالى ، يقال : نهج الثوب : إذا بلى .

ومن ناحية أخرى فإن التكريم الذى ناله قس بن ساعدة من لدن رسول الله ﷺ لم ينله بشر آخر من أعلام التاريخ من البشر ؛ لأن رسول الله ﷺ روى بعض كلامه المنشور، وكان يعرف شعره المنظوم ، غير أنه ﷺ اكتفى بذكر النثر ، وطلب إلى الصحابة ترديد الشعر ، استمع إليه بعناية واهتمام ورضى وسرور .

لقد فعل رسول الله ذلك مع ذكرى قس لأنه سمعه تجرى كلمات التوحيد على لسانه ، ويتكرر ذكر البعث والنشور فى كلامه ، فى وقت لم يكن من الحنفاء - وهم قلة - من كان على شاكلة قس فى إيمانه المعلن ، وتوحيده الصريح .



الفصل الخامس

كعب بن زهير

يعلن إسلامه وتوبته ، ويمدح رسول الله
بقصيدته الشهيرة

كعب بن زهير يمدح الرسول ويعلن إسلامه

بيت زهير :

زهير بن أبى سلمى هو أحد الشعراء الثلاثة الفحول المتقدمين على سائر شعراء الجاهلية باتفاق ، وإنما الخلاف على تقديم أحدهم على الآخر ، وهم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابعة الذبياني ، وقد أنجب زهير ولدين شاعرين مرموقين ، هما : بجير ، وكعب اللذان هما صلب هذا الفصل .

وقبل أن نمضى قدما فى خبر بجير وكعب وصلة كل منهما برسول الله ﷺ يجمل بنا الإشارة إلى ما انفردت به أسرة زهير من هيمنة على المحيط الشعري العربى فى الجاهلية والإسلام ، ويترجم هذا الرأى ابن الأعرابى فى قوله : لزهير فى الشعر ما لم يكن لغيره ، كان أبوه شاعرا ، وخاله شاعرا ، وأخته سلمى شاعرة ، وأخته الخنساء شاعرة ، وإبنه كعب وبجير شاعرين ، وابن ابنه عقبة الملقب بالمضرب بن كعب شاعرا^(١) وللمضرب ابن اسمه العوام كان شاعرا^(٢) .

هكذا تضم الأسرة خمسة شعراء فى نسق واحد هم : العوام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبى سلمى^(٣) ومن ثم فقد قيل : إن الشعر لم يتصل فى ولد أحد من الفحول ما اتصل فى ولد زهير .

وقد كان زهير يتأله ويتعفف فى شعره ، وإن بعض أبياته تدل على إيمانه بالبعث ، وذلك فى قوله :

(١) خزائن الأدب للبغدادى ٢ / ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

(٢) خزائن الأدب للبغدادى ٩ / ١٥٣ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص : ١٤٣ .

يُؤَخَّرُ فَيُودَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ

ليوم الحساب أو يُعَجَّلُ فَيُنْقَمَ

حتى ليظن أن زهيراً لو أدرك مبعث رسول الله لما تأخر في الاستجابة لداعى الإيمان ، ولكنه مات قبل المبعث بسنة واحدة .

كعب يوبخ أخاه على إسلامه :

أما كعب وبجير ابنا زهير فقد أسلما ، أسلم بجير مبكراً ، وكان مقرباً من الرسول ﷺ وحضر فتح مكة في صحبة رسول الله ، وأما كعب فقد تأخر إسلامه ، بل إنه لم يرض عن إسلام أخيه ، وبعث إليه بأبيات يوبخه فيها على إسلامه ، ويعرض بالرسالة والرسول ﷺ قال فيها :

أَلَا أُبْلِغَا عَنَى بُجَيْرٍ رِسَالَةً فَهَلْ لَكَ فِيهَا قَلْتُ وَيُحْكُ هَلْ لَكَ ؟ (١)

فَبَيَّنْ لَنَا إِنْ كُنْتَ لَسْتَ بِفَاعِلٍ عَلَى أَى شَيْءٍ غَيْرَ ذَلِكَ ذَلِكَ ؟ (٢)

عَلَى خُلُقِي لَمْ أَلْفِ يَوْمًا أَبَا لَهُ عَلَيْهِ وَمَا تُلْفِي عَلَيْهِ أَبَا لَكَ

فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَلَسْتُ بِأَسَفٍ وَلَا قَائِلٍ إِمَّا عَثَرْتُ : لَعَّا لَكَ (٣)

سَقَاكَ بِهَا الْمَأْمُونُ كَأَسَا رَوِيَّةً فَأَنْهَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّكَ (٤)

وقد أورد ابن هشام رواية أخرى للأبيات باختلاف قليل ، ولكنها لا تبعد عن المعنى الذى قصد كعب إليه (٥).

(١) أبليغا : خطاب لاثنتين ، والمراد الواحد ، أو خطاب لواحد مؤكد بنون توكيد خفيفة ، قلبت ألفا في الوصل على نية الوقف .

(٢) فبين لنا : أى اذكر لنا مرادك من بقائك على دينك .

(٣) لعالك : كلمة تقال للعائر ، وهى دعاء له بالإقالة من عثرته .

(٤) روية (فعيلة بمعنى مفعلة ، بضم الميم وكسر العين) أى : مروية . والنهل : الشرب الأول ، والعلل : الشرب الثانى . والمأمون : يعنى النبى ﷺ كانت قريش تسميه به وبالأمين قبل النبوة .

(٥) تراجع السيرة ٢ / ٥٠٢ .

وكان بجير من عمق الإيمان . بحيث كره أن يكتم الآيات عن رسول الله ﷺ فأنشده إياها ، فلما سمع رسول الله قول كعب : « سقاك بها المأمون » قال : « صدق وإنه لكذوب . أنا المأمون » ولما سمع « على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه » - وهى من الرواية الثانية للآيات - قال : « أجل ، لم يلف عليه أباه ولا أمه » وقد قال رسول الله ﷺ ذلك تعبيرا عن غضبه واستيائه .

بجير يحضُّ كعباً على الإسلام :

هنالك تحركت مشاعر الأخوة في قلب بجير وقد خاف على أخيه من الكفر والقصاص ، فلما قدم رسول الله ﷺ منصرفه من الطائف كتب بجير إلى أخيه كعب يخبره بسوء العاقبة التى نالت كل من هجا رسول الله أو آذاه ، وأن من بقى من شعراء قريش كابن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب قد هربوا كل مهرب ، وقال بجير لأخيه : فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا ، وإن لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض ، أى : إلى محل ينجيك منه ، وألحق بجير هذه الآيات برسالته :

مَنْ مَبْلَغُ كَعْبًا فَهَلْ لَكَ فِي التِّي

تَلَوْمُ عَلَيْهَا بَاطِلًا وَهِيَ أَحْزَمُ

إِلَى اللَّهِ - لَا الْعَزَى وَلَا اللَّاتِ - وَحَدَهُ

فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النِّجَاءُ وَتَسْلَمُ

لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُفْلِتٍ

مِنَ النَّاسِ إِلَّا طَاهَرُ الْقَلْبِ مُسْلِمٌ

فَكِدِينُ زُهَيْرٍ وَهُوَ لَا شَيْءَ دِينُهُ

وَدِينُ أَبِي سُلَيْمَى عَلَى مُحَرَّمٍ

يروى ابن هشام وابن سيد الناس خبر كعب بعد ذلك قائلين : (١)

(١) السيرة ٢ / ٥٠٢ وعيون الأثر ٢ / ٢٠٩ .

فلما بلغ كعباً الكتاب ، ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه ، وأرجف به من كان في حاضره - أى : في الحى الذى يقيم فيه - من عدوه ، فقالوا : هو مقتول ، فلما لم يجد من شىء بُدأ قال قصيدته التى يمدح فيها رسول الله ﷺ ويذكر خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه ، ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح ، فصلى مع رسول الله ﷺ ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ فقال : هذا رسول الله ﷺ فقم إليه واستأمنه ، فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه ، فوضع يده فى يده ، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه ، فقال : يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم . قال : أنا يا رسول الله كعب بن زهير .

كعب يسلم وينشد قصيدته :

وهنا وثب عليه رجل من الأنصار قائلاً : يا رسول الله دعنى وعدو الله أضرب عنقه ، قال رسول الله ﷺ : دعه عنك فإنه قد جاء تائباً نازعاً ، فغضب كعب على هذا الحى من الأنصار لما صنع به صاحبهم ، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير ، فقال فى قصيدته (*) التى قال حين قدم على رسول الله ﷺ :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول (١)
وما سعاد غداة البين إذ رخلوا إلا أعن غضيض الطرف مكحول (٢)
هيفاء مقبله عجزاء مذيرة لا يشتكى قصر منها ولا طول (٣)

(*) القصيدة جاءت كاملة فى ابن هشام صفحة ٥٠٤ - ٥١٣ .

- (١) بانت : معنى فارقت . متبول : معنى أسقمه الحب ، لم يفد : أى لم يخلص من الأسر . مكبول : معنى مقيد .
(٢) الأغن (هنا) : الظبى الصغير الذى فى صوته غنة ، وهى صوت يخرج من الخياشيم ، وغضيض الطرف : فاتره .
ومكحول : من الكحل وهو سواد يعلو جفون العين من غير اكتحال . شبه محبوبته وقت الفراق بالظبى الموصوف بغنة الصوت ، وغض الطرف ، والكحل ، وهى من صفات الجبال .
(٣) هيفاء : صفة مشبهة من الهيف (بالتحريك) وهو ضمور ودقة الخافرة ، ومقبلة : حال . وعجزاء : صفة أيضا ، أى : كبيرة العجز ، وهو الردف . ولا يشتكى قصر : أى لا يشتكى الرأى عند رؤيتها قصرا فيها . يريد أن =

- تَجَلَّوْ عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولٌ (١)
- شَجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءِ مَحْنِيَةٍ صَافٍ بِأَبْطَحِ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولٌ (٢)
- تَنْفَى الرِّيحُ الْقَدَى عَنْهُ وَأَفْرَطُهُ مِنْ صَوْبِ غَادِيَةِ بِيضٍ يَعَالِيلُ (٣)
- فِيَالَهَا خُلَّةٌ لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ بَوْعُهَا أَوْ لَو أَنَّ النُّصْحَ مَقْبُولٌ (٤)
- لَكِنَّا خُلَّةٌ قَدْ سَيَّطَ مِنْ دَمِهَا فَجَعٌ وَلَوْعٌ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلٌ (٥)
- فَمَا تَدُوْمُ (٦) عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا كَمَا تَلَوْنُ فِي أَثْوَابِهَا الْغُولُ (٧)

= هذه المحبوبة يحسن منظرها في كل حال ، فإذا أقبلت فهي هيفاء ، وإذا أدبرت فهي عجزاء ، وهي متوسطة بين الطول والقصر .

(١) تجلّو : تصقل وتكشف ، والعوارض : جمع عارض أو عارضة ، وهي الأسنان كلها ، أو الضواحك خاصة ، أو هي من الأنياب . والظلم (بفتح الظاء وسكون اللام) : ماء الأسنان وبريقها ، أو هو رقتها وبياضها . والمنهل (بزنة اسم المفعول) : المسقى ، من أمهله ، إذا سقاه النهل (بفتح الحين) وهو الشرب الأول . وبالراح : متعلق بمنهل . والراح : الخمر . ومعلول : من العلل (بالفتح) . وهو الشرب الثاني . يريد أن سعاد إذا ابتسمت كشفت عن أسنان ذات بياض ورقة ، وكأن ثغرها لطيف رائحته قد سقى الراح مرة بعد مرة .

(٢) شجّت : مزجت حتى انكسرت سورتها ، وهو مجاز . لأن الأصل في الشج الكسر . وذو شبم : ماء شديد البرد . والمحنية (بفتح فسكون فكسر) : منعطف الوادى ، ويخصه لأن ماءه أصفى وأبرد . والأبطح : المسيل الواسع الذى فيه دقاق الحصى ، وماء الأباطح عندهم معروف بصفائه . وأضحى : أخذ في وقت الضحى قبل أن يشتد حر الشمس . والمشمول : الذى ضربته ريح شبال حتى برد ، وهي أشد تبريدا للماء من غيرها .

(٣) القدى : ما يقع في الماء من تبن أو عود أو غيره ، مما يشوبه ويكدره . وأفرطه : سبق إليه وملاه . والصوب : المطر . والغادية : السحابة تمطر غدوة ، ويروى « سارية » وهي السحابة تأتي ليلا . واليعاليل : الحباب الذى يعلو وجه الماء . وقيل المراد بالبيض اليعاليل : الجبال الشديدة البياض ينحدر عليها ماء المطر ، ثم يسيل إلى الأباطح . يريد أن الرياح تزيل القدى عن ذلك الماء الذى مزج به الراح ، حتى لم يبق فيه ما يكدر ، وأن ذلك الأبطح ملأته الفقاقيع البيض ، التى نشأت من مطر السحابة الغادية .

(٤) الخلة (بالضم) : الصديقة . يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد وغيره ، يريد أنها صديقة كريمة ، ولو أنها صدقت في الوعد ، وقبلت النصح ، لكانت على أتم الخلال ، وأكمل الأحوال .

(٥) سيط : أى خلط بلحمها ودمها هذه الصفات المذكورة في البيت . ويروى : شيط (بالشين المعجمة) وهو بمعناه والفسج : الإصابة بالمكروه كالهجر ونحوه . والولع والولعان : الكذب . والإخلاف : خلف الوعد . يريد أن محبوبته متصفة بهذه الأخلاق ، حتى صارت كأنها مختلطة بدمها .

(٦) في رواية : تقوم .

(٧) الغول : ساحرة الجن ، في زعمهم . يزعمون أن الغول ترى في الغلاة بالوان شتى ، فتأخذ جانباً عن

وما (١) تَمَسَّكَ (٢) بالعهد الذى زعمت
 فلا يغرِّتُكَ ما مَنَّتْ وما وَعَدَتْ
 إنَّ الأمانى والأحلام تَضْلِيلُ (٣)
 كانت مواعيدُ عُرْقوب لها مثلاً
 وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ (٤)
 وأرجو وأملُ أن تَذنو مودَّتُها
 وما إخال لَدَيْنَا مِنْكَ تَنْوِيلُ (٥)
 أَمَسَتْ سَعَادُ بِأَرْض لا يُبْلَغُها
 إلا العِناقُ النَجِيباتِ المراسيلُ (٦)
 ولن يُبْلَغُها إلا عُذّاً فِرَّةً
 لها على الأينِ إِرْقَالٌ وَتَبْغِيلُ (٧)
 من كلِّ نَضَاحَةِ الذُّفْرِى إذا عَرِقَتْ
 عُرْضَتُها طامِسُ الأعلامِ مَجْهُولُ (٨)

= الطريق ، فيتبعها من يراها ، فيضل عن الطريق فيهلك . يريد أن هذه المحبوبة لا تدوم على حال تكون عليها . بل تتغير من حال إلى حال ، فتتلون بألوان شتى وترى في صور مختلفة ، كما تتلون الغول في ألوان كثيرة .
 (١) فى رواية : ولا .

(٢) تمسك ، يروى بفتح التاء ، على أنه مضارع حذف إحدى تاءيه ؛ أو بضم التاء وفتح الميم وكسر السين المشددة . «ولا تَمَسَّكَ» . يشبه تمسكها بالعهد بإمسك الغرابيل للواء ، مبالغة فى التقص والنكث وعدم الوفاء بالعهد ، لأن الماء بمجرد وضعه فى الغربال يسقط منه .

(٣) ما منت : ما منتك إياه ، وملتك على تمنيه ، أو ما كذبت عليك فيه . يقول : لا تغتر بها حملتك على تمنيه منها ، أو بها كذبت عليك فيه من الوصل ، وما وعدتك به من ترك الهجر ، فإن الأمانى التى يتمناها الإنسان ، والأحلام التى يراها فى منامه سبب فى الضلال ، وضياح الزمان .

(٤) كانت : صارت . وعرقوب (بضم العين وإسكان. الرء وضم القاف) : رجل اشتهر عند العرب بإخلاف الوعد ، ف ضرب به المثل فى الخلف . والأباطيل : جمع باطل ، على غير قياس .

(٥) التنوِيل : العطاء ، والمراد به (هنا) : الوصل . يريد أنى مع اتصافها بالجفاء وإخلاف الوعد ، وعدم الوفاء بالعهد ، لا أقطع الرجاء من مودتها ، ولا أياس من وصلها ، بل أرجو وأمل أن تقرب مودتها .

(٦) العِناق : الكرام ؛ الواحد : عتيق . والنجيبات : جمع نجيبة ، وهى القوية الخفيفة . ويروى « النجيات » أى السريعات ، والمراسيل : جمع مراسل (بالكسر) وهى السريعة . يريد أن محبوبته صارت بأرض بعيدة لا يوصله إليها إلا الإبل الكرام الأصول ، القوية السريعة .

(٧) العذافة : الناقة الصلبة العظيمة . والأين : الإعياء والتعب . والإرقال ، والتبغيل : ضربان من السير السريع . يقول : لا يبلغ تلك الأرض إلا ناقة صلبة عظيمة قوية على السير .

(٨) النضاحة : الكثيرة رشح العرق . والذفرى : النقرة التى خلف أذن الناقة ، وهو أول ما يعرق منها . وعرضتها : همتها . وطامس الأعلام : الدارس المتغير من العلامات التى تكون فى الطريق ليهتدى بها . يريد أن هذه الناقة =

- ترمى الغُيوبَ بعَيْنَي مُفرد هَقي إِذَا تَوَقَّـدَتِ الحَزَنُ والمِيل (١)
 صَخَمٌ مُقَلَّدُهَا فَعَمٌ مُقَيَّدُهَا فِي خَلْقِهَا عَن بَنَاتِ الفَحْلِ تَفْضِيل (٢)
 عَلْبَاءُ وَجَنَاءُ عُلُكُومٌ مُذَكَّرَةٌ فِي دَفِّهَا سَعَةً قُدَّامُهَا مِيل (٣)
 وَجَلَدُهَا مِن أَطُومٍ مَا يُؤَيِّسُهُ طَلَحَ بَضَاحِيَّةَ الْمُتَنِينَ مَهْزُولٌ (٤)
 حَرَفٌ أَخُوهَا أَبُوهَا مِن مُهَجَّنَةٍ وَعَمُّهَا خَالُهَا قَوْدَاءُ شَمْلِيل (٥)

= كثيرة العرق ، وذلك لا يكون إلا مع اشتداد في السير ، وجهد نفسها فيه ، وأنها عارفة الطريق الدارس الأعلام ،
 المجهول المسالك ، لكثرة أسفارها وسلوكها المفاوز .
 ويروى الشطر الثاني من هذا البيت :

« ولاحها طامس . . . » .
 ولاحها : غيَّرها . ولعلها الأدق .

(١) الغيوب : آثار الطريق التي غابت معالمها عن العيون . والمفرد : الثور الوحشي الذي تفرّد في مكان ، وشبه عينيها بعينه لأنه ألف البراري وخبرها ، ولكونه من أحد الوحوش نظرا . واللهق (يفتح الهاء وكسرها) الأبيض . والحزان (بضم الحاء وكسر وتشديد الزاى) : الأمكنة الغليظة الصلبة تكثر فيها الحصباء ، وهى جمع حزيز . والميل (بالكسر) : جمع (ميلاء) بالفتح ، وهى العقدة الضبخمة من الرمل .

(٢) المقلد : موضع القلادة في العنق . وفعم : ممتلئ . ويروى : « عبل » وهو يمعناه . والمقيد : موضع القيد ، يريد قوائمها . وبنات الفحل : الإناث من الإبل المنسوبة للفحل المعد للضراب . يصف الناقة بضخامة العنق ، وذلك مؤذن بضخامة جميع هامتها ، وبعظم القوائم ، وذلك دليل على قوتها في السير ، وطاقتها على ثقل الحمل .
 وبتفضيلها على غيرها في عظم الخلقة ، وحسن التكوين .

(٣) غلباء : غليظة العنق . ووجناء : عظيمة الوجنتين ، أو هى من الوجين ، وهو ما صلب من الأرض . وعلكوم : شديدة . ومذكورة : عظيمة الخلقة تشبه الذكران من الأباغر . وفى دَفِّها سعة : أى هى واسعة الجنين ، وهو كناية عن عظم الخلقة ، وقدامها ميل : كناية عن طول عنقها ، أو سعة خطوها .

(٤) الأطوم - بفتح الهمزة - سلحفاة بحرية غليظة الجلد ، وقيل : هى الزرافة . ويؤيسه : يذله ولا يؤثر فيه . والطلح (بالكسر) القراد دويبة معروفة يلزق بالدابة . والضاحية من كل شئ : ناحيته البارزة للشمس . والمتنان : ما يكتنف صلبها عن يمين وشمال من عصب ولحم . وإنما خص ضاحية المتنين ، لأن القراد فى الشمس تقوى همته ، وتكثر حركته . ويشند امتصاصه للدم . ومهزول : صفة لطلح ، أى قراد مهزول من الجوع . يريد أن جلد هذه الناقة فى غاية النعومة والملاسة ، فلا يؤثر فيه القراد المهزول من الجوع فيما برز للشمس من ناحيتى صلبها عن يمين وشمال .

(٥) الحرف (فى الأصل) : القطعة الخارجة من الجبل ، شبه الناقة بها فى القوة والصلابة . والحرف (أيضا) : الناقة الضامرة . وأخوها أبوها . . . الخ : يريد أنها مداخلة النسب فى الكرم ، لم يدخل فى نسبها غير أقاربها . والمهجنة : الكريمة الأبوين من الإبل ، والقوداء : الطويلة الظهر والعنق . وهى من صفات الإبل التى تمدح بها . والشمليل : الخفيفة السريعة .

- يَمْشِي الْقَرَادُ عَلَيْهَا ثُمَّ يُزْلِقُهُ مِنْهَا لَبَانٌ وَأَقْرَابٌ زَهَالِيلُ (١)
عَيْرَانَةٌ قُذِفَتْ بِالنَّحْضِ عَنْ عُرْضٍ مِرْفَقُهَا عَنْ بَنَاتِ الزَّوْرِ مَفْتُوْلٌ (٢)
كَأَنَّهَا فَاتٌ عَيْنِيهَا وَمَذْبَحُهَا مِنْ خَطْمِهَا وَمَعَ اللَّحْيَيْنِ بِرْطِيلُ (٣)
تَمْرٌ مِثْلَ عَسِيبِ النَّخْلِ ذَا خُصْلٍ فِي غَارِزٍ لَمْ تَخَوَّنُهُ الْأَحَالِيلُ (٤)
قَنَوَاءٌ فِي حُرَّتَيْهَا لِلْبَصِيرِ بِهَا عَتَقٌ مُبِينٌ وَفِي الْخَلْدَيْنِ تَسْهِيلُ (٥)
تُخْدِي عَلَى يَسَرَاتٍ وَهِيَ لَاحِقَةٌ ذَوَابِلُ مَسْهُنِ الْأَرْضِ تَحْلِيلُ (٦)

(١) يزلقه : من الإزلاق ، أى يسقطه . ومنها : أى عنها . واللبان (بالفتح) : الصدر ؛ وقيل وسطه . والأقرب (بالفتح) : الخواصر ، والمراد بالجمع هنا المثنى . والزهاليل : اللبس ، جمع زهلول . يريد أن هذه الناقة لملاستها لا يثبت القراد عليها .

(٢) العيرانة : الناقة المشبهة عبر الوحش في سرعته ونشاطه وصلابته ، وهذا مما يستحسن في أوصاف الإبل والنحض : اللحم . وعن : بمعنى من . وعرض (بضمين أو بضم ، فسكون) : جانب ، والمراد هنا العموم . يريد أنها رميت باللحم من كل جانب من جوانبها . والمرافق : يريد المرفقين . والزور : الصدر ، وقيل : وسطه . وبنات الزور : ما يتصل به مما حوله من الأضلاع وغيرها ، يريد أن مرفق تلك الناقة مصروف عما حوالى الصدر من الأضلاع وغيرها فتكون مصونة عن الضغط ، لبعد مرفقها عن أضلاعها ، فلا يضغط بها لخفتها ونشاطها .

(٣) الخطم : الأنف وما حوله . واللحيان : العظمان اللذان تثبت عليهما الأسنان السفلى من الإنسان وغيره . . والبرطيل (بالكسر) : حجر مستطيل . يريد أن وجهها من خطمها ومن اللحيين يشبه الحجر المستطيل ، والمراد المسافة من وجهها إلى عينيها .

(٤) عسيب النخل : جريده الذى لم يثبت عليه الخوص ، فإن ثبت عليه سعى سعفا . وذا خصل : يريد ذيل له لفائف من الشعر . وفي غارز : أى على ضرع . ولم تخونه : لم تنقصه . والأحاليل : مخارج اللبن ، جمع إحليل (بالكسر) . يريد أن هذه الناقة تمر ذنبا مثل جريدة النخل في الغلظ والطول ، كثير الشعر ، على ضرع لم تنقصه مخارج اللبن ، لكونها لا تحلب ، فيكون ذلك أقوى لها على السير .

(٥) القنواء : المحدودة الأنف . ويروى : « وجناء » . وقد عد الشاعر هذا من صفات المدح مع أن المنقول عن العرب أن القنا عيب في الإبل والخيل . والخرتان : الأذنان . والعتق (بالكسر) : الكرم . والمبين : الظاهر . وتسهيل : سهولة ولين : لاختونة ولا حزنونة . يريد أن هذه الناقة محدودة الأنف ، يظهر للبارف بالإبل الكرام كرم ظاهر في أذنيها ، لحسنها وطولها ؛ ونجابة في خديها : سهولة وليونة .

(٦) تخدى : تسرع . ويروى « تخدى » بمعجمتين ، أى تسترخى ، وهذا أبلغ في المدح ، لأنها مع استرخائها في السير تلحق النوق السوابق ، فكيف لو أسرعت . وفي (أ) : « تهوى » وهى بمعنى الأولى . واليسرات : القوائم الخفاف . ولاحقة : أى والحال أنها لاحقة بالنوق السابقة عليها ، أو بالديار البعيدة عنها . وفي رواية « وهى لاهية » أى : غافلة عن السير ، فهى تسرع فيه من غير اكتراث ومبالاة ، كأن ذلك سجية لها . وقد قسر ابن هشام =

سُمِرِ الْعُجَايَاتِ يَتَرَكْنَ الْحَصَى زَيْمًا لَمْ يَتَّقِهِنَّ زُؤُوسَ الْأَكْمِ تَنْعِيْلُ (١)
 كَانَ أَوْبَ ذِرَاعَيْهَا وَقَدْ عَرِقَتْ وَقَدْ تَلَفَّعَ بِالْقُورِ الْعَسَاقِيلُ (٢)
 يَوْمًا يَظِلُّ بِهِ الْحِرْبَاءُ مُصْطَخِدًا كَانَ صَاحِبَهُ بِالشَّمْسِ تَمْلُولُ (٣)
 وَقَالَ لِلْقَوْمِ حَادِيَهُمْ وَقَدْ جَفَلَتْ وَزُقُ الْجَنَادِبِ يَرْكُضْنَ الْحَصَا قِيلُوا (٤)
 شَدَّ النَّهَارِ ذِرَاعًا عَيْطِلٍ نَصَفَ قَامَتْ فَجَاوَبَهَا نُكْدٌ مَثَاكِيلُ (٥)

= «اللاحقة» بالضمارة، فيكون مرجع الضمير (هى) لليسرات . والدوايل : جمع ذابل ، وهو الرمح الصلب اليابس ، شبه قوائمها بها فى الصلابة والشدة . ومسهن : أى مس تلك اليسرات للأرض أو وقعهن عليها . وتحليل : أى قليل لم يبالغ فيه ، يريد أن هذه الناقة سريعة فى السير بقوائمها ، سريعة الرفع عن الأرض ، كأنها لاتمسها إلا لتحلة القسم ، فهى فى غاية الإسراع فى سيرها .

(١) العجايات : الأعصاب المتصلة بالحافر ؛ وقيل : اللحمة المتصلة بالعصب المنحدر من ركة البعير إلى الفرسن ، يشبه عصبها أو لحم قوائمها بالرمح السمر لقوته وصلابته . وزيبا : متفرقا . والأكم : هى الأرضى المرتفعة . والتنعيل : شد النعل على ظفر الدابة ليقىها الحجارة . يريد أن أعصاب قوائم هذه الناقة شديدة كالرمح السمر، ولشدة وطئها الأرض تجعل الحصى متفرقا ، ولصلابة خفافها لاحتاج إلى تعميل يقىها الحجارة التى تكون فى رءوس الأكْم ، فلا تحفى ولا ترق قدمها .

(٢) الأوب (بالفتح) : سرعة القلب والرجوع . وعرقت : أى وقت عرقها لا لتعب ولا لإعياء لما تقدم من وصفها بالقوة والصلابة ، بل لشدة الحر . وتلفع : اشتمل والتحف . والقور (بضم القاف) : جمع قارة ، وهى الجبل الصغير ، والعساquil : السراب . يصف سرعة ذراعى ناقته فى وقت الهاجرة وانتشار السراب فوق صفار الجبال . وسيأتى ذكر المشبه به فى البيت الثالث بعد هذا ، وهو خبر كأن ، وهذا البيت متأخر عن البيتين التابعين له فى (أ) .

(٣) الحرباء (بالكسر) : ضرب من العطاء ، يستقبل الشمس حيثما دارت ، ويتلون بألوان الأمكنة التى يحل فيها ، ومصطخدا : محترقا بحر الشمس ، ويروى : « مصطخيا » ، أى منتصبا قائما ، كما يروى « مرتبنا » أى : مرتفعا . وضاحيه : ما برز للشمس منه . ومملول : موضوع فى الملة ، وهى الرماد الحار . يريد أن الجبال الصغار تلفعت بالسراب فى يوم يصير فيه الحرباء محترقا بالشمس ، كأن البارز للشمس فى أوب ذلك اليوم من ذلك الحيوان خبز معمول بالملة .

(٤) الحادى : السائق للإبل . وللورق : جمع أورق أو ورقاء ، وهو الأخضر الذى يضرب إلى السواد . وقيل : الورقة : لون يشبه لون الرماد . والجنادب : جمع جندب (بضم الدال وتفتح) ضرب من الجراد . وقيل : الجراد الصغير ، وإنما يكون هذا الصنف فى القفار الموحشة القوية الحرارة ، البعيدة من الماء . ويركضن الحصى : يحركنه بأرجلهن لقصد النزول ، بسبب الإعياء عن الطيران ، من شدة الحر . وقيلوا : أمر من قال يقبل قبلولة ، وهى الاستراحة فى وقت شدة الحر . والمراد أن هذا اليوم أشد حرا حتى إن الحادى الذى من شأنه أن ينشط الإبل قال للقوم : قيلوا واستريحوا .

(٥) شد النهار : وقت ارتفاعه . وهو مبالغة فى شدة الحر . والعيطل : الطويلة . والنصف : المتوسطة فى السن وذلك حين استكمال قوتها ، وبلوغ أشدها ، فتكون أسرع فى الحركة ، وأمكن فى القوة ، والنكد : جمع نكداء ، وهى التى لا يعيش لها ولد . والمثاكيل : جمع مثكال بالكسر ، وهى الكثيرة الشكل . فى هذا البيت والبيت السابق الذى =

- نَوَاحِي رِخْوَةِ الضَّبْعِينَ لَيْسَ لَهَا لَمَّا نَعَى بِكَرْهَا النَّاعُونَ مَعْقُولٌ (١)
- تَفَرَّى اللَّبَانَ بِكَفِّئِهَا وَمِذْرَعُهَا مُشَقَّقٌ عَنْ تَرَاقِيهَا رَعَابِيلُ (٢)
- تَسْعَى الْغَوَاةَ جَنَابِيهَا وَقَوْلُهُمْ إِنَّكَ يَا بَنَ أَبَى سُلَمَى لَمَقْتُولٌ (٣)
- وَقَالَ كُلَّ صَدِيقٍ كُنْتُ أَمْلُهُ لَا أُهَيِّنُكَ إِنِّي عَنْكَ مُشْفُوعٌ (٤)
- فَقُلْتُ : خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمْ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولٌ (٥)

=أوله : «كأن» يشبه سرعة حركة يدي هذه الناقة بسرعة حركة يدي المرأة الطويلة المتوسطة في السن : في اللطم على وجهها لشدة حزنها على ولدها ، يجاوبها نسوة لا يعيش أولادهن ، فيشتد فعلها ، ويقوى ترجيع يديها عند النياحة ، لرؤية حزن غيرها ، وشدة لطمهن .

ورواية الشطر الأول من هذا البيت في بعض الروايات هكذا :

أَوْبٌ يَدَى فَاقِدٍ شَمُطَاءٌ مُعْوَلَةٌ

والفاقد : التي فقدت ولدها . والشمطاء : التي خالطها الشيب . والمعولة : الرافعة صوتها بالبكاء .

(١) النواحي : الكثيرة النوح على ميتها . وريخوة الضبعين : مسترخية العضدين . والبكر بالكسر : أول الأولاد ومعقول (هنا) معناه العقل . يريد أن هذه المرأة كثيرة النوح على ميتها ، مسترخية العضدين ، فيداها سريعتان في الحركة ، ولما أخبرها الناعون بموت أول أولادها لم يبق لها عقل ، فهي لَا تُحِسُّ بِالْإِعْيَاءِ والتعب ، شأن هذه الناقة التي لا تحس بالإعياء ولا تعب في سيرها .

(٢) تفرى : تقطع . واللبان : الصدر . والمدرع : القميص . ورعابيل : قطع متفرقة ، وهو جمع رعبول . يريد أن هذه المرأة تقطع مدرعها بأناملها لدهاب عقلها ، فقميصها مشقوق عن عظام صدرها قطعا كثيرة . يشبه الناقة بهذه المرأة في أن كلا منهما مسلوب الإدراك ، فلا يحس بما يلاقى من مشقة وشدة .

(٣) الغواة : المفسدون ، جمع غاو . جنابها : بحوالها ، تثنية جناب (بفتح الجيم) . ومقتول : أى متوعد بالقتل ، لأن النبي ﷺ كان قد أهدر دمه ، وهذا البيت في بعض الروايات هكذا :

تَمْشَى الْغَوَاةَ بِجَنَابِيهَا وَقَوْلُهُمْ الخ

(٤) آمله : أوئل خبره وأترجى إعانتة في الملمات . وأهينك : أشغلنك . (لا) فيها : نافية ، والتوكيد قليل مع النفي . والمعنى : لا أشغلنك عما أنت فيه من الخوف والفزع ، بأن أسهله عليك وأسليك ، فاعمل لنفسك ، فإنى لا أغنى عنك شيئا ، وقد يكون الكلام مثبتا ، واللام فيه للقسم ، أى : والله لأجعلنك مشغولا عنى ، فلا تطلب منى نصرة أو معونة . ويروى هذا البيت :

« وقال كل خليل الخ »

(٥) خلوا سبيلي : اتركوه . وقوله : لا أبأ لكم : ذم لهم ، لكونهم لم يغنوا عنه شيئا ، أو مدح لهم على سبيل التهكم والاستهزاء .

- كل ابن أنثى وإن طالت طالته
يؤما على آله حذباء محمول (١)
- نبئت أن رسول الله أوعدني
والعفو عند رسول الله مأمول (٢)
- مهلا هداك الذي أعطاك نافلة
القرآن فيها مواعيظ وتفصيل (٣)
- لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم
أذنب ولو كثرت في الأقاويل (٤)
- لقد أقوم مقاما لو يقوم به
أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل (٥)
- لظل يرعد إلا أن يكون له
من الرسول بإذن الله تنويل (٦)
- حتى وضعت يميني ما أنازع
في كف ذي نيمات قبله القيل (٧)

(١) الآلة الحذباء : النعش الذي يحمل عليه الميت . يقول : كل إنسان صائر إلى الموت طالت سلامته أو قصرت ، فلا يشمت بي أحد إذ هلك .

(٢) نبئت : أخبرت . ويروى : « أنبت » . وأوعدني : تهددني بالقتل . ومأمول : مرجو ومطموع فيه .

(٣) هداك : زادك هدى ، أو هداك الله للصفح والعفو عني ، فيكون على هذا البيت داعيا لنفسه . والنافلة : الزيادة ، وسمى القرآن نافلة لأنه عطية زائدة على النبوة .

(٤) هذا البيت من تمة الاستعطاف والتلطف في القول ، فلا ، وإن كانت ناهية بسحب وضعها ، لكن المراد منها التضرع والتذلل . والمعنى : لا تستيح دمي بسبب أقوال الوشاة الساعين بيني وبينك بالإفساد والكذب والبهتان .

(٥) لقد أقوم : معناه : والله لقد أقوم مقاما ، فهو جواب قسم محذوف . ويروى : « إني أقوم مقاما » والأولى أبلغ للقسمة . والمقام (هنا) : مجلس النبي . والمراد بالقيام فيه حضوره ، والمعنى على المضى ، أى : لقد حضرت مجلسا .

(٦) يرعد : تأخذه الرعدة ، ويصبح بناؤه للمفعول . والتنويل : التأمين . والمعنى : نصار الفيل يضطرب ويتحرك من الفزع ، وإنا خصه بذلك لأنه أراد التعظيم والتهويل ، والفيل أعظم الدواب جثة وشأنا . إلا أن يكون له من الرسول بإذن الله تأمين يسكن به روعه ، وثبت به نفسه . ورواية هذا البيت في بعض المصادر :

لظل ترعد من وجد بوادره إن لم يكن من رسول الله تنويل

والوجد : شدة الحزن . والبوادر : اللحم الذي بين العنق والكتف .

وفي بعض المصادر زيد هذا البيت :

ما زلت أفتطع البيداء مدبرا جُنح الظلام وثوب الليل مسبوق

(٧) حتى وضعت : أى فوضعت . وخص اليمين لأن الأشياء الشريفة تفعل باليمين . ولا أنازع : أى حال كوني طائعا له ، راضيا بحكمه في ، غير منازع له ولا مخالف . والنقات (بفتح فكسر) جمع نقة والمراد بصاحب النقات : النبي ﷺ لأنه كان ينتقم من الكفار ، فكان شديد السطوة والإخلاص فيهم . وقيله : قوله . والمراد أن قوله معتد به لكونه نافدا ماضيا . يشير بالبيت إلى حاله مع النبي ﷺ حين قدم عليه وهو في المسجد ، ووضع يده في يده يستأمنه

- فَلَهُوَ أَخَوْفٌ عِنْدِي إِذْ أَكَلَّمَهُ
مَنْ ضَبِغَ بَضْرَاءَ الْأَرْضِ مُحْدَرُهُ
يَغْدُو فَيُلْحِمُ ضَرْغَامِينَ عَيْشُهُمَا
إِذَا يُسَاوِرُ قِرْنَا لَا يَحِلُّ لَهُ
مِنْهُ تَظَلُّ سِبَاعِ الْجَوِّ نَافِرَةً
وَلَا يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخْوَثَقَةً
إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ
- وَقِيلَ إِنَّكَ مَنَسُوبٌ وَمَسْئُولٌ (١)
فِي بَطْنِ عَثْرٍ غَيْلٌ دُونَهُ غَيْلٌ (٢)
لَحْمٌ مِنَ النَّاسِ مَعْفُورٌ خَرَادِيلُ (٣)
أَنْ يَتْرُكَ الْقِرْنَ إِلَّا وَهُوَ مَقْلُوعٌ (٤)
وَلَا تَمَشَّى بِوَادِيهِ الْأَرَاجِيلُ (٥)
مُضْرَجُ الْبَزِّ وَالْدُرَّسَانِ مَأْكُولٌ (٦)
مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوعٌ (٧)

- (١) أخوف : أشد إخافة وإرهابا . ومنسوب : أى إلى أمور صدرت منك ، كقولك لأخيك بجبر : « سقاك بها المأمون » . . . الخ . ومسئول : أى عن سببها ، أو مسئول عن نسبك ، فكأنه يقول : من قبيلتك التى تحمرك منى ؟ ومن قومك الذين يعصمونك منى ؟ فقد تراءوا منك ، وتخلوا عنك . ويروى : « لذلك أهيب » و « فذاك أهيب » و « لكان أهيب » و « فلهو أخوف » . ويروى : « أرب » مكان « أهيب » .
- (٢) ضيغم : أسد . وضراء الأرض : الأرض التى فيها شجر . والمخدر : غابة الأسد . وعثر (بفتح العين وتشديد المثلثة) : اسم مكان مشهور بكثرة السباع . والغيل : الشجر الكثير الملتف . وغيل دونه غيل ، أى : أجمة تقربها أجمة أخرى ، فتكون أسدها أشد توحشا ، وأقوى ضراوة .
- يريد أن رسول الله ﷺ أهيب من أسود عثر فى آجامها . وفى رواية « من خادر » . والخادر : الأسد الداخلى فى خدره ، وهو حينئذ يكون أشد قوة وبأسا .
- (٣) يغدو : يخرج فى أول النهار يتطلب صيدا لشبليه . وفى رواية : « يغدو » بالذال : أى يطعم . ويلحم : يطعمهما اللحم . والضرغام : الأسد . ويريد بالضرغامين شبليه . ومعفور : ملقى فى العفر ، وهو التراب ، ووصفه بذلك لكثرة وعدم اكتراثه به لشبعه . وخراديل : قطع صغار . يصف هذا الأسد بكثرة الاقتراس ، وعظم الاصطياد .
- (٤) يساور : يواطىء . والقرن (بكسر القاف) : المقاوم فى الشجاعة . وفى ذكر القرن إشارة إلى أن هذا الأسد لا يساور ضعيفا ولا جبانا ، وإنما يساور مقاومه فى الشجاعة ، ومساويه فى القوة . والمفلول : المكسور المهزوم .
- (٥) الجو : اسم موضع ، أو هو ما اتسع من الأودية ، أو ما بين السماء والأرض . ونافرة : بعيدة ، ويروى : « ضامرة » والضامز : الذى يمسك جرتة بفيه ولا يجر . ويروى « ضامرة » أى : جياعا لعدم قدرتها على الاصطياد . والأراجيل : الجماعات من الرجال ، وهو جمع أرجال ، وأرجال : جمع رجل ، ورجل : اسم جمع لراجل ، يصف هذا الأسد بالقوة ، حتى خافته السباع والناس .
- (٦) أخو ثقة : الشجاع الواثق بشجاعته . ومضرج : مخضب بالدماء . ويروى : (مطرج) ، أى : مطروح . والبز : السلاح . والدُرَّسان (بضم الدال) : أخلاق الثياب ، الواحد دريس . ومأكل : أى طعام لذلك الأسد . يريد أنه لا يمر بوادى هذا الأسد شجاع إلا أكله وطرح ثيابه التى مزقها ، فلا يولع إلا بالشجعان ، ولا يلتفت لغيرهم .
- (٧) يستضاء به : يهتدى به إلى الحق . ويروى : « لسيف » فى مكان « لنور » وقد كانت عادة العرب إذا أرادوا =

- فى عُصْبَةٍ مِّن قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ . بَبْطَن مَّكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُؤُلُوا (١)
- زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشِفَ . عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِثْلٌ مَّعَازِيلُ (٢)
- شُمُّ الْعِرَانِينَ أَبْطَالَ لَبُؤُسُهُمْ . مِّن نَّسِجٍ دَاوُدَ فِى الْهَيْجَا سَرَابِيلُ (٣)
- بِيضٌ سَوَابِغٌ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقٌ . كَأَنَّهَا حَلَقَ الْقَفْعَاءِ مَجْدُولُ (٤)
- لَيْسُوا مَفَارِيحَ إِنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمْ . قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِيْعًا إِذَا نِيلُوا (٥)
- يَمْشُونَ مَشَى الْجَهْلِ الزُّهْرِ يَعَصِمُهُمْ . ضَرْبٌ إِذَا عَرَّدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ (٦)

= استدعاء من حولهم من القوم أن يشهروا السيف الصقيل ، فيبرق ، فيظهر لمعانه من بعد فيأتون إليه ، مهتدين بنوره ، مؤتمنين بهديه . شبه الرسول بذلك . والمهند : السيف المطبوع في الهند ، وسيوف الهند قديما أحسن السيوف . ومن سيوف الله : أى من سيوف عظمها الله بنيل الظفر والانتقام . والمسلول : المخرج من غمده .

(٦٣) العصابة : الجماعة . ويروى : « فى فتية » جمع فتى ، وهو السخي الكريم . وزولوا : فعل أمر من زال التامة ، أى : تحولوا وانتقلوا من مكة إلى المدينة .

(٦٤) الأنكاس : جمع نكس (بالكسر) وهو الرجل الضعيف . والكشف (بضم فسكون وحرك للشعر) : جمع أكشف ، وهو الذى لا ترس معه ، أو هم الشجعان الذين لا ينكشفون فى الحرب ، أى لا ينهزمون . والميل : جمع أميل ، وهو الذى لا سيف له ، أو هو الذى لا يحسن الركوب فيميل عن السرج . والمعازيل : الذين لاسلاح معهم ، واحدهم معزال (بكسر الميم) .

(٦٥) شُم : جمع أشم ، وهو الذى فى قصبة أنفه علو ، مع استواء أعلاه . والعرايين : جمع عزين ، وهو الأنف . وصفهم بهذا الوصف إما على الحقيقة لأن ارتفاع الأنف من الصفات المحمودة فى خلق الإنسان ، وإما على المجاز ، يريد ارتفاع أقدارهم ، وعلو شأنهم . واللبوس : ما يلبس من السلاح . ونسج داود : أى منسوجه ، وهو الدروع . والهيجاء (بالقصر هنا) : الحرب . والسرابيل : جمع سربال ، وهو القميص أو الدرع . ووصفها بأنها من نسج داود دليل على مناعتها .

(٦٦) بيض : مجلوة صافية مصقولة ؛ لأن الحديد إذا استعمل لم يركبه الصدأ . والسوابغ : الطوال السوابل ، ويلزم من طول الدروع قوة لابسها ، إذ حملها مع طولها يدل على القوة والشدة . وشكت : أدخل بعضها فى بعض ، ويروى : « سكت » بمعنى ضيقت . والقفعاء : ضرب من الحسك ، وهو نبات له شوك ينبسط على وجه الأرض ، تشبه به خلق الدروع . ومجدول : محكم الصنعة .

(٦٧) مفاريح : كثير الفرح . ونالوا : أصابوا . ومجازيع : كثير الجزع . ويروى : « لا يفرون . . . الخ » .

(٦٨) الزهر : البيض . يصفهم بامتداد القامة ، وعظم الخلق ، والرفق فى المشى ، وبياض البشرة ، وذلك دليل على الوقار والسؤدد . ويعصمهم : يمنعهم . وعرد : فر وأعرض عن قرنه وهرب عنه . والتنابيل : جمع تنبال ، وهو القصير .

لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ وَمَا لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلٌ (١)
نحن لسنا في الحقيقة أمام قصيدة شعر ، ولكننا أمام صرح عظيم من صروح البيان
المضىء ، تجلّى لنا في شكل قصيدة مشعشة بالبلاغة ، مسربة بالفصاحة ، متوجة
بمقدرة شعرية فذة ، ومملكة فنية نادرة ، يتحدر الشعر من خلالها تحدر الماء النмир
الروى من شلالات أعطافها الرى والرواء ، والقوة والعطاء ، حتى إن النبی ﷺ وهو
أفصح الفصحاء وأبين الأبيناء - حين وصل كعب في إنشاده إلى قوله :
إن الرسول لنور يستضاء به

مهند من سيوف الله مسلول

نظر إلى من حوله من قريش كأنه يومى إليهم أن يسمعوا . ثم كساه بعد ذلك بردته
إعجابا بقصيدته ، وتعبيرا عن قبوله تربته ، وهى البردة التى اشتراها بعد ذلك معاوية
بعشرين ألف درهم ، وكان الخلفاء يلبسونها فى العيدين (٢).

إن الرسول ﷺ كان يكرم مادحيه ، وإن كان مدحه ﷺ فى حد ذاته تكريما لقائله ،
ولكن تكريمه كعباً على هذا النحو بخلع برده عليه يوضح اكتشاف رسول الله عبقرية
شعرية جديدة انضمت إلى كتيبة شعراء رسول الله بدءاً بحسان ومروراً بكعب بن مالك
وعبدالله بن رواحة والعباس بن عبد المطلب وأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب
وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم . هذه الشاعرية الفذة التى اكتشفها رسول الله ﷺ
فى كعب بن زهير وزكاها ، قد وضعها النقاد فيما بعد موضع الاعتبار والانتباه ، فقد قيل
لخلف الأحمر : زهير أشعر أم ابنه كعب ؟ فكانت إجابته على هذا النحو من ترجيح
كعب على أبيه : لولا أبيات لزهير أكبرها الناس لقلت : إن كعباً أشعر منه ، ثم ذكر
الآبيات التى عناها ، وهى : (٣)

(١) وقوع الطعن فى نحورهم : دليل على أنهم لا يهزمون حتى يقع الطعن فى ظهورهم . وحياض الموت : موارد الخلف ،
يريد بها ساحات القتال . وتهليل : تأخر . ويروى « فما لهم عن حياض الموت » بالصاد المهملة ، جمع حوص ،
بمعنى مضايقه وشداذه .

(٢) الشعر والشعراء : ١٥٦ .

(٣) المصدر السابق : ١٣٩ .

لَمَنِ الدِّيارُ بِقُنَّةِ الحَجَرِ أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ وَمِنْ دَهْرٍ
وَلَأَنْتَ أَشْجَعُ مِنْ أَسَامَةِ إِذْ دُعِيَ النَّزْلُ وَلِجَّ فِي الدُّعْرِ
وَلَأَنْتَ تَقْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْدَ ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي
لَوْ كُنْتَ مِنْ شَيْءٍ سِوَى بَشَرٍ كُنْتَ الْمَنَوَّرَ لَيْلَةَ الْبَذْرِ (*)

وهذا عكرمة بن جرير يقول : سألت أبا : من أشعر الناس ؟ قال : أجاهلية أم إسلامية ؟ قلت : جاهلية ، قال : زهير .

ولكن الخطيئة الشاعر الفذ راوية زهير يعرف قدر كعب ، فيطلب من كعب أن يقول شعرا يذكر اسمه فيه معه ، أى : مع كعب لعلمه بمكانة كعب بين الشعراء وخلود شعره فيما يرويه الأدباء ويقول له : قد علمتم روايتي لكم أهل البيت - يعنى بيت زهير - وانقطاعي إليكم ، فلو قلت شعرا تذكر فيه نفسك ثم تذكرني بعدك ؛ فإن الناس أروى لأشعاركم ، فقال كعب : (١)

فَمَنْ لِلْقَوافي شَأْنُهَا مَنْ يَحْكُمُهَا
إِذَا مَا مَضَى كَعْبٌ وَفَوَّزَ جَرُولُ
كَفَيْتَكَ لَا تَلْقَى مِنَ النَّاسِ وَاحِداً
تَنَخَّلُ مِنْهَا مِثْلَ مَا يَتَنَخَّلُ
يُتَقَفُّهَا حَتَّى تَلِينَ كَعْبُوبُهَا
فَيَقْصِرُ عَنْهَا مَنْ يُسِيءُ وَيَعْمَلُ

ولقد عارض هذه الأبيات كثير من الشعراء ، إما بالتزام البحر والقافية ، وإما بالتزام المعنى ، منهم مزرد أخو الشماخ ، والكميت ، وعدى بن الرقاع ، وإبراهيم بن هرمة ،

(*) المعانى :

القنة : هى الجبل الذى ليس بمتشر ، أقوين : يعنى خلون .

(١) الشعر والشعراء ، ص : ١٥٦ .

فَوَّزَ : بمعنى مضى ومات ، وجرول هو الخطيئة ، واسمه جرول بن أوس .

وكلهم من الشعراء العظام ، ولعل أقرب معانى الشعراء إليها هو قول الكميت يصف قوافيه فى قوله :

مهذبةٌ لا كَقَوْلِ الهَذَا ءِمْمَنْ يُسَىءُ وَمَنْ يَعْمَلُ
وَمَا ضَرَّهَا أَنَّ كَعْبًا ثَوَى وَفَوَّزَ مِنْ بَعْدِهِ جَرَّوُلُ

إن لامية كعب بن زهير من القصائد التى نالت شهرة واسعة بين ما حوته دواوين العرب من أشعار ، وذلك لأسباب كثيرة ، أهمها سببان رئيسيان ، السبب الأول : أنها قيلت فى مدح رسول الله ﷺ فنالت بذلك شرف الخلود ، والسبب الثانى : هو عبقرية كعب وشاعريته الفذة التى احتفل بها النقاد والشعراء وفضلوها حتى على شاعرية أبيه على النحو الذى ذكرناه قبل قليل .

ولذلك يحمل بنا ألا نقف عند شرح مفرداتها فى الهوامش الماضية ، وإنما هى محتاجة إلى شىء من التوقف حيال بعض مبانيها وغير قليل من معانيها .

بين يدي القصيدة :

القصيدة تقع فى ما يناهز ستين بيتا ، أو هى على التحديد طبقا لأدق الروايات ثمانية وخمسون بيتا ، يلفت النظر فيها أن مدخلها فى النسيب يحوز خمسة وثلاثين بيتا ، أى : أكثر من نصف أبيات القصيدة ، وهو أمر يعيبه النقاد المتأخرون ، ولكن كعبا لم يكن يعنيه هذا الشىء ، وكل الذى كان يعنيه هو تميز بضاعته وجودة شعره إلى الحد الأسمى ، لأن الغزل بسعاد لم يتعد أربعة عشر بيتا ، وأما بقية مدخل النسيب فهو فى وصف ناقته التى تحمله إلى الحبيبة .

فأما سعاد موضوع الغزل فقد قيل : إنها زوجته ، فهو - والحال كذلك - لم يشبب بأنثى محرمة عليه ، وقيل : بل هى مجرد اسم يرمز للمحبوبة التقليدية التى جرى الشعراء قديما على التغزل بها فى استفتاح قصائدهم مما لا يشكل مؤاخذه أخلاقية من منطلق التشهير بامرأة غريبة عنه ، ومن ثم لم يعترض الرسول ﷺ على إنشاد القصيدة فى المسجد .

أما لب أبيات الغزل فهو البيت التى تمثله جميع الشعراء من بعده وحفظته ذاكرة كل أديب من زمنه إلى زمننا ، وهو قوله :

هيفاء مقبلةً عَجَزَاءَ مدبرةً

لا يشتكى قَصْرُ منها ولا طولُ

ولقد ركز كعب على جمال بطلته نسيبه ، فخلع عليها سمات الحسن المعروفة ومعاييرها المألوفة فى فحولة من القول ، غير أنه لم يلبث أن نعتها بأنها لا تقى بعهد ، ولا تصدق فى وعد ، فمواعيدها مثل مواعيد عرقوب .

وأما الموضوع الحقيقى لمقدمة النسيب فكان - على ما أشرنا قبل قليل - وصف ناqqته ، لقد أطال فى نعتها وأبدع فى وصفها إلى حدّ التغزل بها ، لأنه أضفى عليها من صفات الجمال ما يمكن أن يضفيه محب على حبيبته ، ثم زاد على ذلك فخلع عليها جميع الصفات الكريمة التى يمكن أن يخلعها شاعر على ناqqة ، وإن وصف كعب لناqqته هو أوفى وصف لناqqة فى شعر شاعر .

ومن السمات الفنية المعجبة التى تميزت بها لامية كعب هو ذلك الخلوص الرشيق من النسيب إلى مدح رسول الله ﷺ إنه خلوص لبق ، سهل الجنب ، موسوم بالعمق ، موسىّ بالحكمة .

يقول كعب فى هذا الموقف :

وقال كل صديق كنت آمله لا أهينك إنى عنك مشغول

فقلت : خلّوا سبيلى لا أبا لكم فكل ما قدر الرحمن مفعول

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول

نبئت أن رسول الله أوعدننى والعفو عند رسول الله مأمول

أما أبيات الاعتذار فقد بلغت من السمو والإتقان وعمق المعنى وحسن السبك قريبا مما بلغت أبيات النابغة الذبياني الذى عرف بأنه خير من اعتذر ، أو بعبارة النقاد : هو خير الشعراء إذا رهب .

لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوَشَاةِ وَلَمْ أَذْنُبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلِ
لَقَدْ أَقُومُ مَقَاماً لَوْ يَقُومُ بِهِ يَرَى وَيَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفِيلُ
لَظَلَّ يَرْعُدُ مِنْ وَجْدِ بَوَادِرِهِ إِنَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي مَا أَنَا زَعَهَا فِي كَفِّ ذِي نَقِمَاتٍ قِيلُهُ الْقِيلُ
إِنْ كُلِّ صَيْغِ الْمَدِيحِ فِي الْقَصِيدَةِ لَمَا يَعِدُ فِي الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا ، وَلَكِنْ كَعْبًا حَلَقَ فِي سَمَاءٍ
لَمْ يَخْلُقْ فِيهَا شَاعِرٌ غَيْرَهُ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ مَا دَحَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

إِنْ الرُّسُولَ لِنُورٍ يَسْتَضَاءُ بِهِ
مَهْنَدٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ مَسْلُورٍ

فِي عَصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ

بِطْنِ مَكَّةَ لَمَا أَسْلَمُوا زُلُورُوا

وَيَخْلُقُ كَعْبٌ فِي كَبَدِ سَمَاءٍ فَنَ الشَّعْرَ وَهُوَ يَمْدَحُ صَحَابَةَ رَسُولِ اللَّهِ ، وَقَدْ قَصَرَ مَدِيحُهُ
- قَصَرَ نَظْرَ مِنْهُ - عَلَى الصَّحَابَةِ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَهْمَلَ الْأَنْصَارَ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ :

شَمَّ الْعِرَانِينَ أَبْطَالَ لِبُوسِهِمْ مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سِرَابِيلِ
بَيْضِ سَوَابِغٍ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقُ كَأَنَّهَا حَلَقُ الْقَفْعَاءِ مَجْدُولِ
لَيْسُوا مَفَارِيحَ إِنْ نَالَتْ رِمَاحَهُمْ قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِيْعًا إِذَا نِيلُوا
يَمْشُونَ مَشَى الْجَمَالِ الزَّهْرِ يَعَصْمُهُمْ ضَرْبَ إِذَا عَرَّدَ السُّودَ التَّنَابِيلِ

وَهُنَا تَكُونُ كِبَوَةُ الشَّاعِرِ الَّذِي غَلَبَهُ الْمَوْقِفُ فَعَرَضَ بِالْأَنْصَارِ وَوَصَفَهُمْ بِالْقِيَامَةِ
وَالْفِرَارِ ، وَهُوَ هُنَا لَمْ يَكُنْ مُنْصَفًا ؛ لِأَنَّ الْأَنْصَارَ هُمْ حِمَاةُ الدَّعْوَةِ وَرُكْنُهَا الرُّكَيْنِ ، غَيْرَ أَنَّ
كَعْبًا لَمْ يَنْسَ ذَلِكَ الْأَنْصَارِيَّ الَّذِي هَمَّ بِقَتْلِهِ غَضَبًا مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُ سَبَقَ أَنْ عَرَضَ بِالرُّسُولِ
ﷺ فِي آيَاتِهِ الَّتِي كَانَ بَعَثَ بِهَا إِلَى أَخِيهِ بِجَيْرٍ حِينَ عَلِمَ بِإِسْلَامِهِ ، فَعَامَلَ كَعْبَ
الْأَنْصَارِ كُلَّهُمْ بِتَصَرُّفٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ .

كعب يمدح الأنصار :

وما أن عرّض بالأنصار حتى كانت القصيدة قد تم إنشادها إلا البيت الأخير الذي أتم به مدح المهاجرين ، وهنا قال له رسول الله ﷺ : « لولا ذكرت الأنصار بخير ؟! - . يعني هلا ذكرتهم بخير - فهم لذلك أهل » . وكذلك فعل الصحابة من قريش ، فقد أنكروا عليه وقالوا : لم تمدحنا إذ هجوتهم .

ولكن كعبا حين تشرب عقيدة الإسلام وروحها التي جعلت من المسلمين - والأنصار في مقدمتهم - إخوة له في الإسلام ، سارع إلى مدحهم وتمجيد بلائهم مع رسول الله ﷺ وموضعهم من اليمن في قصيدة يقول فيها :

مَنْ سَرَّهُ كَرْمُ الْحَيَاةِ فَلَا يَزَلْ	فِي مَقْنَبٍ مِنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ (١)
وَرِثُوا الْمَكَارِمَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ	إِنَّ الْخِيَارَ هُمْ بَنُو الْأَخْيَارِ
الْمُكْرِهِينَ السَّمْهَرَى بِأَذْرَعِ	كَسَوَالِفِ الْهِنْدَى غَيْرِ قِصَارِ (٢)
وَالنَّاطِرِينَ بِأَعْيُنٍ مُخْمَرَةٍ	كَالْجَمْرِ غَيْرِ كَلِيلَةِ الْأَبْصَارِ
وَالْبَائِعِينَ نُفُوسَهُمْ لِنَبِيِّهِمْ	لِلْمَوْتِ يَوْمَ تَعَانَتْ وَكَرَّارِ
وَالْقَائِدِينَ (٣) النَّاسَ عَنْ أَدْيَانِهِمْ	بِالْمَشْرِفَى وَبِالْقَنَا الْخَطَّارِ (٤)
يَتَطَهَّرُونَ بِرَوْثِهِ تُسْكَاهُمْ	بِدِمَاءِ مَنْ عَلِقُوا مِنَ الْكُفَّارِ
دَرَبُوا كَمَا دَرَبَتْ بِبَطْنِ خَفِيَّةِ	غُلْبُ الرِّقَابِ مِنَ الْأَسْوَدِ ضَوَارِي (٥)
وَإِذَا حَلَلْتَ لِيَمْنَعُوكَ إِلَيْهِمْ	أَصْبَحْتَ عِنْدَ مَعَاقِلِ الْأَعْفَارِ (٦)

(١) المقلب : الجماعة من الخيل . يريد به القوم على ظهور جيادهم .
 (٢) السمهرى : الرمح . وسوالف الهندى : يريد حواشى السيوف ، وقد يراد به الرماح أيضا لأنها قد تنسب إلى الهند .
 (٣) وروى البيت « والذائدين » بمعنى المانعين والدافعين .
 (٤) المشرفى : السيف . والقنا : الرماح ، جمع قنات . والخطار : المهتر .
 (٥) دربوا : تعودوا . وخفية : اسم مأسدة . وغلب الرقاب : غلاظ الأعناق . وضوارى متعودات الصيد والافتراس .
 (٦) المعاقل : جمع معقل ، وهو الموضع الممتنع . والأعفار : جمع عفر ، وهو ولد الوعل ، ويضرب المثل بامتناع أولاد الوعل فى قتل الجبال .

ضَرَبُوا عَلَيَّ يَوْمَ بَدْرِ ضَرْبَةً دَانَتْ لَوْقَعِهَا جَمِيعَ نَزَارِ (١)
لو يَعْلَمُ الْأَقْوَامُ عِلْمِي كُلَّهُ فِيهِمْ لَصَدَّقَنِي الَّذِينَ أُمَارِي (٢)
قَوْمٌ إِذَا خَوَّتِ النُّجُومُ فَإِنَّهُمْ لِلطَّارِقِينَ النَّازِلِينَ مَقَارِي (٣)
فِي الْغُرِّ مِنْ غَسَّانٍ مِنْ جُرْثُومَةٍ أُعِيَتْ حَكَافُهَا عَلَى الْمِنَقَارِ (٤)

وإذا كانت قصيدة كعب في مدح رسول الله ﷺ تمثل نمطا أسمى من أنماط الشعر العربي ، فإن لكعب شعرا جميلا بل كل شعره جميل له نكهة متميزة وطعم تفرد به دون غيره من الشعراء ، فمن ذلك قوله : (٥)

لو كنتُ أعجبُ من شيءٍ لأعجبني
سَعَى الْفَتَى وَهُوَ مَحْبُودٌ لَهُ الْقَدَرُ
يَسْعَى الْفَتَى لِأُمُورٍ لَيْسَ يُذَكِّرُهَا
وَالنَّفْسُ وَاحِدَةٌ وَالْهَمُّ مُنْتَشِرٌ
وَالْمَرْءُ مَا عَاشَ مَمْدُودٌ لَهُ أَمَلٌ
لَا تَنْتَهِي الْعَيْنُ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْأَثَرُ
وَمَا يَسْتَجَادُ لَهُ أَيْضًا قَوْلُهُ : (٦)
إِنْ كُنْتُ لَا تَرْهَبُ ذِمِّي لِمَا

تَعْرِفُ مِنْ صَفْحِي عَنِ الْجَاهِلِ

(١) علياً : يريد على بن مسعود بن مازن الغساني ، وإليه تنسب بنو كنانة ، لأنه كفل ولد أخيه عبد مناة بن كنانة بعد وفاته ، فنسبوا إليه .

(٢) أمارى : أجادل .

(٣) خوت النجوم : أى سقطت ولم تمطر في نوبها . والطارقون : الذين يأتون بالليل . والمقارى : جمع مقرة ، وهى الجفنة التى يصنع فيها الطعام للأضياف . يريد أنهم إذا انحبس المطر ، واشتد الزمان ، وعمّ القحط ، يكونون أصحاب قصاع لقرى الأضياف الذين يطرقونهم ، وينزلون بهم .

(٤) هذا البيت ساقط من بعض الروايات .

(٥) الشعر والشعراء : ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٦) خزانة الأدب للبغدادى : ٩ / ١٥٤ .

فَاخْشَ سُكُوتِي إِذْ أَنَا مُنْصِتٌ

فِيكَ لِمَسْمُوعِ خَنَا الْقَائِلِ

وَالسَامِعِ الذَّمَّ شَرِيكَ لَهُ

وَمُطْعِمِ الْمَأْكُولِ كَالْأَكْلِ

مُقَالَةُ السُّوءِ إِلَى أَهْلِهَا

أَسْرَعُ مِمَّنْ مُنْحَدِرِ سَائِلِ

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ

ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ

ولكن تبقى قصيدة كعب في مدح رسول الله ﷺ هي عروس قصائده ، بل عروس
المدائح كلها .



الفصل السادس

الصحابييات الشاعرات

- الخنساء
- صفية بنت عبد المطلب
- نعم امرأة شماس بن عثمان
- قتيلة بنت النضر
- الشيماء بنت الحارث
- هند بنت أثالة بن عباد

الرسول والصحابيات الشاعرات

لقد صار من الواضح بمكان أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الشعر الجيد . فكان يستنشد الشعراء الصحابة مثل حسان ، وعبدالله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وكعب بن زهير .

ومثلما كان الرسول يستمع إلى الشعراء الصحابة ويطرب لشعرهم ويطرى عطاء ملكائهم فقد كان يفعل الصنيع نفسه مع الشاعرات الصحابيات من أمثال الخنساء ، وقتيلة بنت النضر ، والشيباء أخته من الرضاع .

الخنساء:

ولقد كانت أشعر الصحابيات الخنساء بنت عمرو بن الشريد التي خلد شعرها مع الزمان ، والتي كان رسول الله ﷺ يطرب لشعرها لبلاغته وجودته ، وعمق معانيه واتساع آفاقه .

والخنساء ليس اسمها ، وإنما هو لقب لها ، وقد كانت تنادى أيضا بلفظ : خُنَّاس ، وأما اسمها فهو « تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد » ويتهى نسبها لمضر .

وكانت الخنساء في أول أمرها تهوى الشعر ، فتقول البيتين والثلاثة ، حتى قتل أخوها الفارسان صخر ومعاوية ، وكانت تحبهما حبًا أكثر مما هو مألوف في شأن حب الأخت إخوتها ، وكانت أكثر حبا لصخر لجوده وفروسيته وشدة عطفه عليها ، ولكونه محبوبا في العشيرة .

وقد أجمع أهل العلم بالشعر - فيما يذكر العباس - أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها

أشعر منها ، ولقد وفدت على رسول الله ﷺ من بنى سليم فأسلمت معهم ، وذكروا -
أى : أهل العلم بالشعر - أن رسول الله ﷺ كان يستنشد بها ويعجبه شعرها ، وكانت
تنشده وهو يقول : هيه يا خناس ، ويومئء بيده ﷺ (١) .

كانت الخنساء أشعر النساء فى الجاهلية ، وكذلك كانت فى الإسلام ، وقد عاشت
حتى خلافة عمر - رضى الله عنه - وكانت حضرت حرب القادسية ودفعت أبناءها
الأربعة العباس بن مرداس وإخوته إلى أتون المعركة ، وقد ملأهم حماسا بخطبة
مشهورة ، فاستشهدوا جميعا ، ولما بلغها خبر استشهداهم فى المعركة قالت : الحمد لله
الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .

يقول ابن قتيبة : كان النابغة الذبياني تضرب له قبة حمراء من آدم بسوق عكاظ
وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، فأنشده الأعشى أبو بصير ، ثم أنشده حسان
ابن ثابت ، ثم الشعراء ، ثم جاءت الخنساء السلمية فأنشدته ، فقال لها النابغة : والله
لولا أن أبا بصير أنشدنى لقلت : إنك أشعر الجن والإنس ، فقال حسان : والله لأنا
أشعر منك ومن أبيك ومن جدك ، فقبض النابغة على يده ثم قال : يا بن أخى إنك لا
تحسن أن تقول مثل قولى :

فإنك كالليل الذى هو مدركى

وإن خلئت أن المتأى عنك واسع

ثم قال للخنساء : أنشديه ، فأنشدته ، فقال : والله ما رأيت ذات مثانة - أى امرأة
- أشعر منك ، فقالت له : والله ولا ذا خصيين (٢) .

وتذكر بعض كتب التراجم أنها لم تلد إلا شاعرا (٣) ويقول البغدادي : إنها كانت
صاحبة مكانة خاصة عند رسول الله ﷺ وكان ﷺ يقول : إنها أشعر الناس .

كانت المناسبة التى لقبها فيها الرسول بأنها أشعر الناس أن عدى بن حاتم الطائى لما

(١) معاهد التنصيص ١ / ٣٤٨ وما بعدها .

(٢) الشعر والشعراء ٣٤٤ .

(٣) خزنة الأدب للبغدادي ١ / ٤٣٤ وما بعدها .

قدم على الرسول وحادثه قال : يا رسول الله : إن فينا أشعر الناس ، وأسخى الناس ، وأفرس الناس .

قال : سمّهم . قال : أما أشعر الناس فامرؤ القيس بن حُجر ، وأما أسخى الناس فحاتم بن سعد - يعنى أباه - وأما أفرس الناس فعمرو بن معد يكرب . فقال رسول الله ﷺ : « ليس كما قلت يا عدى ، أما أشعر الناس فالخنساء بنت عمرو ، وأما أسخى الناس فمحمد - يعنى نفسه - وأما أفرس الناس فعلى بن أبى طالب » .

وفى تقديمها على الشعراء قيل لجريز : من أشعر الناس ؟ قال : أنا لولا الخنساء ، قيل : يَمْ فَصَلْتَك ؟ قال : بقولها :

إن الزمان وما يَفْنَى له عجبٌ

أبقى لنا ذنباً واستؤصل الرأس

إن الجديدين فى طول اختلافهما

لا يَفْسُدَانِ ولكن يَفْسُدُ الناسُ (١)

كانت الخنساء تمدح أخاها كثيراً ، فقبل لها : قد فضّلت على أبيك . وفى رواية : ما مدحت أخاك حتى هجنت أباك .

فقال هذه الأبيات :

جَارَى أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا

يَتَعَاوَرَانِ مَلَاءَةَ الْحَضَرِ

حتى إذا نزت القلوب وقد

لُزَّتْ هُنَاكَ الْعَذْرُ بِالْعَذْرِ (*)

وعلا هتاف الناس : أيهما ؟

قال المجيب هناك : لا أدري

برزت صفيحة وجه والده

ومضى على غلوائه يجرى

(١) المصدر السابق ، الصفحات نفسها .

(*) الحضر - يسكن الضاد وقبلها حاء مفتوحة - : العدو والجرى . لزت : يعنى لصقت . والعذر - بضم العين - : جمع عذار ، يعنى عذارى فرسيهما لصق ببعضها ببعض وقت التسابق .

أولى فأولى أن يساويه لولا جلال السن والكُبر
وهما كأنهما وقد برزا صقران قد حطا على وكر

يقول الشريف المرتضى في مقام الإعجاب بهذه الأبيات : ولعمري إنها قد بلغت في مدح أخيها - من غير إزراء على أبيها - النهاية ؛ لأنها جعلت تَقْدُّم أبيه له عن قدرة منه على المساواة ومن غير تقصير منه ، وإنما أفرج له عن السبق معرفة بحقه ، وتسليها لكبره وسنه .

ويستطرد الشريف قائلا : ويشبه أن يكون الكمية أخذ من الخنساء قوله في تحلّد ابن يزيد بن المهلب : (١)

ما إن أرى كأبيك أدرك شأوه
أَحَدٌ ومثلك طالبا لم يُلْحَقِ
تتجاذبان ، له فضيلة سنّه
وتلوت بعد مصليا لم تُسْبَقِ
إن تنزعا وله فضيلة سبقه
فبمثل شأو أبيك لم يُتعلّق
ولثمت لحقت به على ما قد مضى
من بُعد غايته فأحج وأخلّق (*)

ويمضي الشريف المرتضى مشيرا إلى الشعراء الذي رسموا على منوال شعر الخنساء في أخيها وأبيها فيذكر قصيدة رائية للمؤمل بن أميل الكوفي المحاربي يمدح المهدي في حياة أبيه المنصور ، وأخرى لعباد بن شبل ، وثالثة للعتابي ، ورابعة لأبي نواس في الفضل بن الربيع ، وأخرى لأبي تمام في أبي سعيد الثغري .

(١) أمالي المرتضى ١ / ٩٩ .

(*) يريد القول : إن سبقك أبوك فلا غرو فإنه لم يسبق قط ، وإن سبقته فأنت جدير بالسبق .

ويردّ الشريف بيت عدى بن الرقاع في قوله يصف حمارا وأنانا يتشاجران : إلى
الخنساء ، وذلك في قوله :

يتعاوران من الغبار ملاءة بيضاء محدثة هما نسجها (١)

فإذا عدنا مرة ثانية إلى أبيات الخنساء في أخيها وأبيها وقعنا على هذا الخبر الطريف
الذي ذكره الفضل بن الربيع حاجب الرشيد ، قال : أجرى الرشيد الخيل ذات يوم
فجاء فرسه سابقا ، وفرس المأمون مصليا - أي : تاليا للجواد السابق - فاستفزه الفرح ،
وتداخلت المأمون كآبة ، وبصر الرشيد بالأصمعي فقال له : ما عندك في هذين
الفرسين يا أصمعي ؟ فقال : ما قالت الخنساء يا أمير المؤمنين ، وأنشدته الأبيات :
«جاري أباه فأقبلا وهما» . فلما انتهى إلى آخرها قال له : لا يفضض الله فاك ، فأنت
بإصابتك التمثيل ووضعه موضعه مواز للخنساء في شعرها الذي أجادته وما قصّرت عن
غاية الإحسان ، لله هي !! (٢).

كانت الخنساء من بلاغة القول ونفاسة الشعر وعمق المعنى بحيث كرمها رسول الله
ﷺ وهو أبلغ الناس وأفصحهم وأكثرهم بصراً بالقول السديد . فمن قصيدة لها ترى
صخرا أخاها : (٣).

وما الغيث في جعد الثرى دمث الربى

تبعق منه العارضُ المتهلل (*)

بأجزل سَيِّباً من يديك ونعمة

تَجُود بها بل سَيِّبُ كَفِّكَ أَجْزَلُ

وَجَارُكَ مَحْفُوظٌ مَنِيعٌ بِنَجْوَةٍ

من الضيم لا يُرْزَأ ولا يتدلل

(١) أمالي الشريف المرتضى ١ / ١٠٠ - ١٠٤ .

(٢) حماسة ابن الشجري ١ / ٣٧١ - ٣٨٠ .

(٣) حماسة ابن الشجري ١ / ٣٢٥ .

(*) ثرى جعد ، ثرى متراكم غليظ . الدّمث - بفتح الدال - يعنى السهولة واللين . تبعق المزن : يعنى اهتمر بالمطر .

فما بلغت كفو امرئ متناول

بها المجد إلا حيث ما نلت أطول

ولا بلغ المهودون في القول مدحة

ولو أكثروا إلا الذي فيك أفضل

إن الخنساء في شعرها قد رجحت أشهر أصحاب المراثي الجيدة المعاصرين لها ،
والذين جاءوا بعدها ، وعلى رأسهم أبو ذؤيب الهذلي ، وجريير شاعر العصر الأموي .

وفي مريثة أخرى في صخر أخيها تقول :

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يكرن مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسي

يذكرني طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل غروب شمس

وقد أعجب النقاد من قديم بالبيت الأخير ، فهي تقول : أذكره في أول النهار
بالغارة ، وفي آخره بالضيغان . ويذكر المبرد أن مصعب بن الزبير تمثل يوم قتل بيت
شبيه بالبيت الثاني فقال :

وإن ألى بالطف من آل هاشم

تأسوا فسنوا للكرام التأسي (١)

لقد استنشد رسول الله ﷺ الصحابية الشاعرة الخنساء بنت عمرو بن الشريد
وفضلها على سائر الشعراء ؛ لأنه ﷺ هو القاتل : « إن من البيان لسحرا وإن من
الشعر لحكمة » .

صفية بنت عبد المطلب :

هي عمه الرسول ﷺ وشقيقة عمه حمزة وأم الصحابي الزبير بن العوام ، وكانت من
الصحابيات السابقات إلى الإسلام ، وكانت شجاعة فصيحة شاعرة .

(١) الكامل للمبرد ١ / ١٤ .

فأما شجاعته فقد تجلت في قتلها الجاسوس اليهودي يوم أحد ، ومجمل الخبر طبقا لرواية ابن سعد : أن النبي ﷺ كان إذا خرج من المدينة لقتال عدوه رفع أزواجه ونساءه في أطم حسان بن ثابت ؛ لأنه كان من أحصن أطام المدينة . وتختلف حسان عن الخروج يوم أحد ، فجاء يهودي فلصق بالأطم يستمع ويتجسس ، فقالت صفية لحسان : انزل إلى هذا اليهودي فاقتله ، ويبدو أن حسانا هاب الموقف أو كان مريضا فأخذت عمودا ونزلت فختلته حتى فتحت الباب قليلا قليلا ثم حملت عليه فضرته بالعمود فقتلته (١).

ومثلما كان يوم أحد مجللا بالحنن عند فرسان المعركة ، فقد كان كذلك أيضا عند صفية ، فهي إذ انتصرت في صباح ذلك اليوم بقتلها اليهودي الذي تجرأ على نساء رسول الله وحاول التجسس عليهن فقد فقدت شقيقها حمزة الفارس البطل الشهيد . لقد اتجهت صفية إلى ميدان المعركة وقد انهزم الناس وبيدها رمح تضرب به وجوههم وتقول : انهزمت عن رسول الله !؟ فلما رآها رسول الله ﷺ قال لابنها : يا زبير ، المرأة ، وكان شقيقها حمزة قد بقر بطنه ، فكره رسول الله أن تراه ، فقال الزبير : يا أمه ، إليك إليك ، فقالت : تنح لا أم لك . فنظرت إلى حمزة ، ولم تلبث دموعها أن فاضت ، ثم أنشأت هذه الأبيات في رثائه (٢).

أسائلة أصحاب أخذ مخافة	بنات أبي من أعجم وخير
فقال الخير : إن حمزة قد ثوى	وزير رسول الله خير وزير
دعاه إله الحق ذو العرش دعوة	إلى جنة يحيا بها وسرور
فذلك ما كنا نرجى ونرجى	لحمزة يوم الحشر خير مصير
فوالله لا أنساك ما هبت الصبا	بكاء وحزنا محضرى ومسيرى

(١) الطبقات الكبرى : ٤١ / ٨ .

(٢) السيرة لابن هشام : ١٦٧ / ٢ .

على أسد الله الذى كان مدرها

يذود عن الإسلام كل كفور

فياليت شلوى عند ذاك وأعظمى

لدى أضبع ترتادنى ونسور

أقول وقد أعلى النعمى عشيرتى :

جزى الله خيرا من أخ ونصير(*)

ولصفية شعر آخر فى رثاء أبيها عبد المطلب ، وكانت إذ ذاك شابة أضناها موت
أبيها الرجل العظيم ، فقالت : (١)

أرقت لصوت نائحة بليل	على رجل بقارة الصعيد
ففاضت عند ذلكم دموعى	على خدى كمنحدر الفريد
على رجل كريم غير وغل	له الفضل المبين على العبيد
على الفياض شيبة ذى المعالى	أبيك الخير وارث كل جود
صدوق فى المواطن غير نكس	ولا شخت المقام ولا سنيـد
طويل الباع أروع شيطمى	مطاع فى عشيرته حميد
رفيع البيت أبلج ذى فضول	وغيث الناس فى الزمن الحُرود
عظيم الحلم من نفر كرام	خضارمة مَلاوِثة أسود
فلو خلد امرؤ لقديم مجد	- ولكن لا سبيل إلى الخلود -

(*) معانى المفردات :

الأعجم : الذى لا يفصح . مسرى ، أى : غيابه ، المدره : الذى يدفع عن القوم . الشلو : البقية ، النعمى :
النوح والبكاء بصوت ، أو الذى يأتى بخبر الميت .
(١) السيرة لابن هشام ١ / ١٦٩ ، ١٧٠ .

لكان مغلداً أخرى الليالى

لفضل المجد والحسب التليد (***)

نعم امرأة شماس بن عثمان :

ولمناسبة قصيدة صفية بنت عبد المطلب في رثاء أخيها حمزة حين استشهد يوم أحد، يسوقنا ذلك إلى ذكر صحابية أخرى شاعرة بكت زوجها لاستشهاده في اليوم نفسه، إنها نعم امرأة شماس بن عثمان .

وكان شماس حرياً بأن يبكى عليه لولا أنه قضى شهيداً في سبيل الله .

يقول ابن هشام : واسم شماس : عثمان، وإنما سمي شماساً لأن شماساً من أبناء النصارى قدم مكة في الجاهلية، وكان جميلاً حتى إن الناس عجبوا من جماله، فقال عتبة بن ربيعة - وكان خال شماس - : أنا أتاكم بشماس أحسن منه، فجاء بابن أخته عثمان بن عثمان فسمى شماساً (١).

ويكمل أستاذنا المرحوم مصطفى السقا خبر شماس فيقول : إن اسمه عامر، وشماس لقب غلب عليه، وأمه صفية بنت ربيعة بن عبد شمس، شهد بدراً وقتل يوم أحد شهيداً، وكان يوم قتل ابن أربع وثلاثين سنة، وكان رسول الله ﷺ يقول : « ما وجدت لشماس شبيهاً إلا الجنة » يعنى مما يقاتل يومئذ عن رسول الله، وكان رسول الله ﷺ لا يرمى ببصره يمينا ولا شمالاً إلا رأى شماساً في ذلك الوجه يذب بسيفه، حتى غشى رسول الله ﷺ فترس بنفسه دونه حتى أصيب إصابة قاتلة، فحمل إلى المدينة وبه رمق، فأدخل على عائشة - رضی الله عنها - فقالت أم سلمة - أم المؤمنين - : ابن عمي يدخل على غيري ؟ فقال رسول الله ﷺ : « احمलो إلى أم سلمة » فحمل إليها فمات عندها بعد أن مكث يوماً وليلة (٢).

(**) الفريد : الدر . الوغل : الضعيف الساقط . النكس : الذى لا خير فيه . الشخت : الضامر . السنيد : الضعيف الذى لا يستقل بنفسه . الشيطمى : الفتى الجسيم . الخضارمة : جمع خضرم، وهو الجواد المعطاء . الملاوثة : جمع ملوثة، وهو ذو القوة .

(١) السيرة ١ / ٣٢٦، ٣٢٧ .

(٢) المصدر نفسه هامش صفحة ٣٦٦، ٣٦٧ .

هذا الفارس الشاب الجميل الذى أسلم صغيرا وهاجر إلى الحبشة ، الذى استشهد محاربا فى سبيل الله ، ومدافعا عن رسول الله لم تستطع زوجته الصحابية الشاعرة إلا أن تبكيه مسجلة بكاءها فى أبيات من أرق ما يقال فى رثاء الفرسان المؤمنين الشهداء ، فأنشدت فى ذلك أبياتا منها : (١)

يا عينُ جودى بفيضٍ غيرِ إِبْسَاسِ

- على كريمٍ من الفتيانِ أبَّاسِ

صَغْبِ البديهةِ ميمونٍ نَقَبْتُهُ

حَمَّالِ ألْوِيَةِ رَكَّابِ أفراسِ

أقول لما أتى الناعى له - جزعا - :

أودى الجواد وأودى المطعم الكاسى

وقلت لما خلت منه مجالسه :

لا يبعد الله عنا قرب شماس (*)

ولما كان هذا هو حال نُعم من الحزن والأسى فإن أخاها أبا الحكم بن سعيد بن يربوع أجابها معزِّيا إياها ومواسيا فقال : (٢)

أقنى حياءك فى ستر وفى كرم

فإنما كان شماسٌ من الناس

لا تقتلى النفس إذ حانت منيته

فى طاعة الله يوم الروع والباس

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ١٦٨ .

(*) معانى المفردات :

الإبساس : أن تمسح بطن الناقة لتدر اللبن ؛ والمقصود هنا أن الدعم يفيض بغير تكلف . الإبَّاس : هو القوى الشديد البأس ، البديهة : أول الرأى والأمر . ميمون النقيبة : يعنى مسعود الفعّال . الألوية : جمع لواء ، وهو العلم ؛ المطعم الكاسى : يعنى الجواد الذى يطعم الناس ويكسوهم .

(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها ، ولكن محقق الكتاب ذكر البيتين الأول والثالث بشيء من الاختلاف ونسبهما لحسان ابن ثابت . السيرة هامش ١ / ٣٦٧ .

قد كان حمزة ليث الله فاصطبرى

فذاق يومئذ من كأس شماس

قَتِيلَةُ بِنْتِ النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ :

كانت قتيلة ابنةً للنضر بن الحارث المخزومي القرشى ، وكان أحد المحاربين
القرشيين ضد المسلمين في وقعة بدر ، وقد وقع أسيرا ، وأمر الرسول ﷺ بقتله ، فقالت
قتيلة ترثيه وتوجه خطاب توجعها إلى الرسول ﷺ : (١)

يا راكباً إن الأثيل مظنة	من صُبح خامسة وأنت مُوفئ
أبلغ بها ميثاً بأن تحية	ما إن تزال بها النجائب تخفق
منى عليك وعبرة مسفوحة	جادت بواكِفها وأخرى تخنق
هل يسمعنى النضر إن ناديتُه	أم كيف يسمع ميثٌ لا ينطق
أحمد يا خيرَ ضنءٍ كريمه	في قومها والفحل فحلٌ مُعرق
ما كان ضرك لو مننت وربما	منّ الفتى وهو المغيظ المُحق
أو كنت قابل فدية فلتنفقن	بأعز ما يغلوبه ما يُنفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة	وأحقهم إن كان عتق يُعتق
ظَلَّت سيوفُ بنى أبيه تنوشُه	لله أرحامٌ هناك تُمَرِّق
صبراً يُقاد إلى المنية مُتعباً	رسف المُقَيَّد وهو عانٍ مُوثق (*)

فيقال : إن رسول الله ﷺ لما بلغه هذا الشعر قال : لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت
عليه .

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ٤٢ ، ٤٣ والعقد الفريد ٥ / ٢٧٩ والإصابة ٤ / ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(*) المفردات :

الأثيل : موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء ، مظنة : أى موقع الظن ، النجائب : الإبل الكرام ، تخفق :
يعنى تسرع ، الواكف : السائل ، الضنء : الأصل .

وفى الإصابة رواية عن الزبير بن بكار : أن رسول الله ﷺ رق لها حتى دمعت عيناه ، وقال لأبى بكر : يا أبا بكر لو سمعت شعرها لم أقتل أباه .

إن قتيلة بنت النضر ليست مجرد مثال للشاعرات الصحابيات وحسب ، ولكن تعليق رسول الله ﷺ يترجم عن الطبيعة الرحيمة فى تكوين رسول الله ﷺ ورقة مشاعره ، مع أن قريشا كلها بها فيها النضر لو ظفرت برسول الله ما توانت فى قتله .

الشيءاء بنت الحارث :

هى أخت النبى ﷺ من الرضاع ، واسمها حذافة ، ولكنها تلقب بالشيءاء والشيءاء ، فغلبت صفتها على اسمها ، وقد كانت الشيءاء تحتضن رسول الله مع أمها وهو طفل رضيع ، وإخوته ﷺ من الرضاعة غير الشيءاء : عبدالله ، وأنيسة ، وحذيفة

وفى يوم حنين انهزمت هوازن التى منها بنوسعد بن بكر ، ووقع منهم أسرى كثيرون وسبايا كثيرات . وكان من بين السبايا الشيءاء ، فقالت لبعض جيش المسلمين : أنا أخت صاحبكم ، فلما قدموا بها إلى رسول الله قالت : يا محمد أنا أختك من الرضاع ، قال : وما علامة ذلك ؟ قالت عضّة عضضتها فى ظهرى وأنا متوركتك ، فعرف رسول الله ﷺ العلامة ، فبسط لها رداءه وأجلسها عليه ودمعت عيناه وقال لها : إن أحببت فأقيمى عندى محبة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتعك فأرجعى إلى قومك ، فقالت : بل تمتعنى وتردنى إلى قومى ، فمتعها وردّها إلى قومها ، فأسلمت وأعطاه رسول الله نعماء وثناء وثلاثة أعبد وجارية (١).

إن بنى سعد بن بكر الذين روى فيهم رسول الله ﷺ رضيعا وغلما معروفون بالفصاحة ، والرسول ﷺ يقرر ذلك فى قوله الشريف : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش وربيت فى بنى سعد بن بكر » ولذلك فقد كانت أخته الشيءاء ترتجل الشعر والرجز فى صغرها وفى كبرها .

(١) طبقات ابن سعد : قسم النساء ، الإصابة ٤ / ٣٤٤ ، والاستيعاب بهامش الإصابة نفس الصفحة .

وكذلك كان رجال القبيلة فصحاء شعراء حتى إن رئيس القوم أبا جرول الجشمي يقول : أَسَرَّنَا النَبِيَّ ﷺ يوم حنين ، فبينما هو يميز الرجال من النساء إذ وثبت فوقفت بين يديه وأنشدته :

امنن علينا رسول الله في حرم فإنك الممرء نرجوه وننتظر
امنن على نسوة قد كنت تَرَضُّعُهَا يا أرجح الناس حلماً حين يُجْتَبَرُ
إنا لنشكر للنعمى إذا كُفِرَتْ وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

يقول أبو جرول : فذكرته حين نشأ في هوازن وأرضعوه ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لله ولكم ، فقالت الأنصار : وما كان فهو لله ورسوله ، فردت الأنصار ما كان في أيديها من الذراري والأموال (١).

فإذا ما عاد الحديث بنا إلى الشياء وجدناها قد شغلت بأخيها محمد ﷺ حبا ، وشغفت به عطفاً ، فمن شعرها فيه قولها مرتجلة : (٢)

محمدٌ خير البشر ممن مضى ومن غبر
من حج منهم أو اعتمر أحسن من وجه القمر
من كل أنثى وذكر من كل مشبوب أغر
جنبني الله الغير فيه وأوضح لي الأثر

ومن رجزها الجميل قولها في الرضيع محمد وهي ترقصه ، أى : تغنى له طفلاً :

هذا أخ لي لم تلده أُمِّي وليس من نسل أبى وعمِّي
فديته من مخولٍ مُعَمِّ فأنمِه اللهم فيما تُنمِّي

ومن نفيس شعر الشياء في محمد الصغير وهي ترقصه ﷺ هذا الدعاء الطيب الرقيق :

(١) العقد الفريد ٥ / ٢٧٩ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ١ / ٤٤٦ .

يا ربنا أبقي أخى محمداً حتى أراه يافعا وأمردا
واكبث أعاديته معا والحسدأ وأعطه عزاً يدوم أبداً

ومن الطريف أن أبا عروة الأزدي كان إذا أنشد هذا الشعر للشيء يقول : ما أحسن ما أجاب الله دعاءها (١).

هند بنت أثالة بن عباد بن المطلب :

إن هنداً مطلبية قرشية ، أسلمت بمكة في فجر الدعوة ، وقد خاضت معارك الإسلام بشعرها ، ونافجت عن رسول الله ، وهجت كفار قريش ، وجرى بينها وبين هند بنت عتبة زوج أبي سفيان مناقضات شعرية (٢) ، فكانت في ذلك شريكة لحسان ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، مع فارق القدرة القولية بينها وبينهم ، كما أنها قالت مراثي في بعض شهداء بدر وبخاصة الصحابي الجليل عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف شهيد بدر وحامل أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين .

في وقعة أحد وقفت هند بنت عتبة على صخرة مشرفة تفتخر بقتل حمزة وغيره ممن أصيب من المسلمين في المعركة ، وهي تقول بأعلى صوتها (٣) :

نحن جزيناكم بيوم بدرٍ والحربُ بعد الحرب ذات سُفرٍ
ما كان عن عتبة لي من صبرٍ ولا أخى وعمه وبكرى
شفيئتُ نفسى وقضيئتُ نذرى شفيتُ « وحشي » غليلَ صدرى
فشكرُ « وحشي » على عمري حتى تَرمَ أعظمى في قبرى (*) .

(١) الإصابة ٤ / ٣٤٤ الترجمة رقم ٦٢٣ .

(٢) الإصابة ٤ / ٤٢٢ الترجمة رقم ١٠٨٦ .

(٣) السيرة لابن هشام ٢ / ٩١ ، ٩٢ .

(*) معانى المفردات :

السعر - بضم تين - : الالتهاب ، الغليل : العطش أو حرارة الجوف . ترم : أى تبلى وتفتت .

فأجابتها هند بنت أثاثة فقالت :

خزيت في بدرٍ وبعد بدر	يا بنت وقاعٍ عظيمِ الكُفرِ
صباحك الله غداة الفجر	ملها شميمين الطوال الزهر
بكل قطّاع حسامٍ يفرى	حمزة ليثى وعلى صقرى
إذ رام شيبٌ وأبوك غدرى	فخضبا منه ضواحي النحر

ونذرك السوء فشرُّ نذر (**).

ولما قطعت رجل عبيد الله بن الحارث أحد أبطال بدر وشهادتها سارع الشعراء إلى برثائه بجميل القول وبليغ الرثاء ، وكان عبيد الله قد قتل عتبة والد هند زوج أبى سفيان، وفي الوقت نفسه كان عتبة قد أصاب رجل عبيدة فقطعها ، وكان قطعها سببا في موته شهيدا ، قال كعب بن مالك يرثى عبيدة الشهيد :

أيا عين جودى ولا تبخلى	بدمعك حقاً ولا تنزرى
على سيد هدنا هلكه	كريم المشاهد والعنصر
جرىء المقدم شاكى السلاح	كريم النشا طيب المكسر
عبيدة أمسى ولا نرتجيه	لعرف عرانا ولا منكسر
وقد كان يحمى غداة القتلى	ل حامية الجيش بالميت (***)

وأما الصحابية هند بنت أثاثة فقد قالت ترثى عبيدة بن الحارث بهذه الأبيات (١):

(**) الوقاع : الكثير الوقوع في الدنيا . ملها شميمين ، أى من الهاشميين ، الزهر : أى البيض ، يفرى : يعنى يقطع ، شيب : أرادت شيبة ، ضواحي النحر : ما ظهر من الصدر .

(***) معانى المفردات :

لا تنزرى : أى لا تقلل الدمع . شاكى السلاح : أى حاد السلاح . النشا : هو ما يتحدث به عن الرجل من خير أو شر . طيب المكسر : أى أصيل غير مهجن . الميت : يعنى السيف . من البتر .

(١) ابن هشام ٢ / ٤١ ، ٤٢ .

لقد ضُمَّنَ الصفراءُ مجداً وسوددا
عبدةً فابكيه لأضيافِ غُرْبَةٍ
وبكّيه للأقوامِ فى كل شتوةٍ
وبكّيه للأيتامِ والريحُ زفرةً
فإن تصبح النيرانُ قد مات ضوءها
لطارق ليلٍ أو الملتَمِسِ القِرى
وحلماً أصيلاً وافرَ اللَّبِّ والعقلِ
وأرملةٍ تهوى لأشعثَ كالجلدِ
إذا احمرَّ آفاقُ السماء من المحلِ
وتشبيبٍ قدّر طالما أزبَدَتْ تغلي
فقد كان يُدكيهنَّ بالحطبِ الجزلِ
ومستنبح أضحى لديه على رِسلٍ (*).

لقد كان الشعر واحداً من أسلحة الدعوة الإسلامية يبشر بها ويزود عنها ، ولم يكن
لواء الشعر معقوداً على الصحابة الرجال وحدهم ، ولكن الصحابييات الشاعرات قد
شاركن فى المعركة ، وقد كان رسول الله ﷺ يبارك هؤلاء وأولئك من الصحابة الشعراء
والصحابيات الشاعرات على حدّ سواء .

(*) الصفراء : موضع بين مكة والمدينة ، الأشعث : المتغير ، الجلد : أصل الشجرة وغيرها ، أى أنه ثابت قوى .
المحل : القحط . الزحف من الرياح : الشديدة السريعة ، التشبيب : إيقاد النار تحت القدر . أزبدت : يعنى
رمت بالزبد . الجزل : الغليظ ، المستنبح : الرجل الذى يضل بالليل فينبع مثل الكلب لتجاوبه كلاب الحى .
الرسل بكسر الراء : اللبن .



الفصل السابع

الشعر في عام الوفود

- القبائل والأفراد
- وفد بني تميم
- وفود الجارود بن المعلى وسلمة بن عياض

الشعر في عام الوفود

تمهيد :

كان العام التاسع الهجرى هو عام الوفود ، فبعد انتصارات المسلمين بفتح مكة وغزو هوازن والطائف وزحف المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وإذعان الجزيرة العربية لدعوة الإسلام ، تهيأت وفود القبائل للتوجه إلى المدينة المنورة لإعلان إسلامها ومبايعة محمد ﷺ وكان رسول الله ﷺ قد استقر في المدينة وأمر أبا بكر على الحجيج في ذلك العام ، فجعل رسول الله ﷺ يستقبل وفود القبائل التي كانت تقدم فصحاء رجالها من خطباء وشعراء لإلقاء خطبهم أو إنشاد قصائدهم بين يد الرسول ، وغالبا ما كان يجري حوار بينهم وبين رسول الله ، فكان ﷺ يتلطف معهم في حوارهم الذي كان يفيض بآداب الكلام ، ويتحلى بآداب النبوة طبقا لما سبق تناوله في صدر هذا الكتاب عند حديثنا عن فصاحته ﷺ .

على أن كثيرا من الوافدين من قبائل وأفراد كانوا يؤثرون تقديم شعرائهم إلى الرسول لبيعة رسول الله وإلقاء قصائد المديح بين يديه ، أو لإظهار ما عندهم من بضاعة الفصاحة متمثلة فيما ينشد شعراؤهم من شعر .

فمن وفود القبائل الذين صاحبته شعراؤهم : وفد همدان وشاعرهم وملكهم مالك ابن نمط ، ووفد جهينة وشاعرهم عمرو بن مرة الجهني ، ووفد حضرموت وشاعرهم كليب بن أسد بن كليب ، ووفد بنى عذرة وشاعرهم زمل بن عمرو العذري ، ووفد مزينة وشاعرهم خزاعي بن عبدئهم ، ووفد بنى كلب وشاعرهم عبد عمرو بن جبلة بن وائل بن الجلاح الكلبى ، ووفد بنى قشير وشاعرهم قرة بن هبيرة بن سلمة الخير بن قشير ، ووفد بنى تميم وشاعرهم الزبرقان بن بدر .

ومن الأفراد الوافدين الذين أنسوا في أنفسهم فصاحة القول شعرا : أعشى بنى مازن وخُفَّافُ بن نَضْلَةَ بن عمرو بن بَهْدَلَةَ الثقفى ، وذُبَابُ بن الحارث من بنى أنس الله بن سعد العشيرة ، وفَرْوَةُ بن مُسَيْكٍ المرادى ، والجارود العبدى وبصحبه سَلَمَةُ بن عياض الأسدى (١) .

وإذا كان المجال يضيق عن الحديث عن تلك الوفود من جماعات وأفراد فإنه لا يضيق بأنموذجين لهذه الوفود اتسما بالغرابة وشيء من الشغب ، فأما وفد القبيلة فهو وفد بنى تميم ، وأما وفد الأفراد فهو وفود الجارود العبدى وحليفه سلمة بن عياض الأسدى على رسول الله ﷺ .

وفد بنى تميم :

كان قدوم وفد بنى تميم على رسول الله ﷺ يتسم بالصخب والشغب ، وخشونة البداوة التى لا تليق مع مقام النبوة .

لقد كان الوفد مكونا من رجال بطون تميم ، وعلى رأسهم عَطَّارِد بن حاجب بن زُرَّارة ، وفيهم الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، وهذان كان قد سبق إسلامهما . وشهدا مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحنينا والطائف ، والزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم المنقرى ، وقيس بن عاصم المنقرى ، وقيس بن الحارث ، ونعيم بن يزيد .

لقد تبدت خشونة الوفد وقصور أدبه ونقص لياقته فى أنهم حين دخلوا مسجد رسول الله نادوا رسول الله من وراء حجراته : أن اخرج إلينا يا محمد ، وكرروا ذلك ثلاث مرات فتأذى رسول الله ﷺ من صياحهم ، فخرج إليهم ، وفى رواية الإمام أحمد عن الأقرع بن حابس ، وابن المنذر عن البراء بن عازب أن الأقرع أتى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد اخرج إلينا . فلم يجبه ، فقال : يا محمد إن حمدى لزين وإن ذمى لشين ، فقال الرسول ﷺ : « ذاك الله عز وجل » فقالوا : يا محمد ، جئناك نفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فقال ﷺ فى سلوك أدب النبوة : قد أذنت لخطيبكم ، فليقل ، فقام عَطَّارِد ابن حاجب فقال :

(١) يُراجع الباب الواحد والعشرون وما بعده من الجزء السادس من سبل الهدى والرشاد .

الحمد لله الذى له علينا الفضل والمنّ ، وهو أهلّه ، الذى جعلنا مملوكا ، ووهب لنا أموالا عظاما ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزّ أهل المشرق وأكثره عددا ، وأيسره عُدّة ، فَمَنْ مثَلنا فى الناس ، ألسنا برءوس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن فآخرنا فليجِدْ مِثْل ما عدّنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نعرف بذلك .

أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا . ثم جلس .
فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشّمس ، أخى بنى الحارث بن الخزرج : قم ، فأجب الرجل فى خطبته . فقام ثابت ، فقال :

الحمد لله الذى السموات والأرض خلّقه ، قضى فيهن أمره ، ووسّع كرسيه علمه ، ولم يك شىء قط إلا من فضله . ثم كان من قدرته أن جعلنا مملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمه نسبا ، وأصدقه حديثا ، وأفضله حسبا ، فأنزل عليه كتابه وأتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به ، فأمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرم الناس حسبا ، وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس فعالا ، ثم كان أوّل الخلق إجابة ، واستجاب لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبدا ، وكان قتله علينا يسيرا . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم .

ولما أن انتهى ثابت بن قيس من خطبته البليغة اتجه الزبيرقان بن بدر إلى رجل منهم قائلا : يا فلان ، قم فقل أبياتا تذكر فيها فضلك وفضل قومك ^(١) ، وفى رواية أن الزبيرقان هو نفسه نهض قائما وأنشد : ^(٢)

نحنُ الكرامُ فلا حَيَّ يُعادِلُنّا مِنّا المملوكُ وفينا تُنصَبُ البيعُ ^(٣)

(١) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٤٤٠ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٥٦٢ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ، قسم المغازى : ٥٦١ .

(٣) البيع : مواضع الصلوات والعبادات ، واحدها بيعة (بكسر الباء) .

وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ كُلَّهُمْ عند النَّهَابِ وَفَضْلُ الْعَزِّ يُتَّبَعُ
 وَنَحْنُ يَطْعِمُ عِنْدَ الْقَحْطِ مُطْعِمَنَا مِنَ الشَّوَاءِ إِذَا لَمْ يُؤَسَّ الْقَرْعُ (١)
 بِمَا نَرَى النَّاسَ تَأْتِينَا سُرَاتِهِمْ مِنْ كُلِّ أَرْضٍ هُوِيًّا ثُمَّ تَصْطَنِعُ (٢)
 فَتَنْخَرُ الْكُومَ عُبْطًا فِي أُرُومَتِنَا لِلنَّارِلِينَ إِذَا مَا أُنْزِلُوا شَبَعُوا (٣)
 فَلَا تَرَانَا إِلَى حَيِّ نُفَاخِرُهُمْ إِلَّا اسْتَفَادُوا فَكَانُوا الرَّأْسَ يُقْطَعُ
 فَمَنْ يُفَاخِرْنَا فِي ذَا نَعْرِفْهُ فَيَرْجِعُ الْقَوْمُ وَالْأَخْبَارُ تُسْتَمَعُ
 إِنَّا أَتَيْنَا وَلَا يَأْبَى لَنَا أَحَدٌ إِنَّا كَذَلِكَ عِنْدَ الْفَخْرِ نَرْتَفِعُ

وكان حسان غائبا ، فبعث إليه رسول الله ﷺ قال حسان : جاءني رسوله ، فأخبرني
 أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم ، فخرجت إلى رسول الله ﷺ وأنا أقول :

مَنْعَنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ حَلَّ وَسَطْنَا عَلَى أَنْفِ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍّ وَرَاغِمٍ
 مَنْعَنَا لَمَّا حَلَّ بَيْنَ يُيُوتِنَا بِأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَظَالِمٍ
 بَيِّتَ حَرِيدٍ عِزُّهُ وَتَرَاوَهُ بِجَايَةِ الْجَوْلَانِ وَسَطَ الْأَعَاجِمِ (٤)
 هَلْ الْمَجْدُ إِلَّا السَّوْدَدُ الْعَوْدُ وَالنَّدَى وَجَاهُ الْمُلُوكِ وَاحْتِمَالُ الْعِظَائِمِ (٥)

قال حسان: فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقام شاعر القوم ، فقال رسول
 الله ﷺ: قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال . فقام حسان ، فقال :

(١) القزع (بالتحريك) : السحاب الرقيق . يريد إذا لم تمطرهم السماء ، فأجذبت أرضهم .

(٢) هويا : سراعا .

(٣) الكوم : جمع كومة ، وهى العظيمة السنام من النوق . وعبطا : أى عن غير علة . وفى أرومتنا : أى هذا الكرم
 متأصل فينا .

(٤) البيت الحريد : الفريد الذى لا يختلط بغيره لعزته . وجابية الجولان : بلد بالشام . يريد أن النبى نزل وسط حى من
 الأنصار ذوى منعة ، وأنهم ذوو جاه . ولهم صلة بالغساسنة ملوك الشام .

(٥) السوودد العود : المجد القديم الذى يتكرر على الزمان . وهذه الأبيات من قصيدة لحسان عدة أبياتها أربعة عشر .

- (١) إن الذوائب من فخر وإخوتهم
 يزضى بهم كل من كانت سريره
 قوم إذا حاربوا ضرؤا عدوهم
 سجية تلك منهم غير محدثة
 إن كان في الناس سباقون بعدهم
 لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم
 إن ساقوا الناس يوما فاز سبقتهم
 أعة ذكرت في الوحى عفتهم
 لا يخلون على جار بفضلهم
 إذا نصبنا لحى لم ندب لهم
 نسمو إذا الحرب نالتنا خالبها
 لا يفخرون إذا نالوا عدوهم
 كأنهم فى الوحى والموت مكتنع
 قد يئسوا سنة للناس تبس (١)
 تقوى الإله وكل الخير يضطنع (٢)
 أو حاولوا النفع فى أشياهم نفعوا
 إن الخلائق فاعلم شرها البدع (٣)
 فكل سبق لأدى سبقهم تبس
 عند الدفاع ولا يؤهون ما رقعوا (٤)
 أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا (٥)
 لا يطبعون ولا يردبهم طمع (٦)
 ولا يمسهم من مطمع طبع (٧)
 كما يدب إلى الوحشية الدرغ (٨)
 إذا الرعائف من أظفارها خشعوا (٩)
 وإن أضيوا فلا خور ولا هلع (١٠)
 أسد بحلية فى أرساغها فدع (١١)

- (١) الذوائب : السادة . وأصله من ذوائب المرأة ، وهى غداثرها التى تعلو الرأس .
 (٢) رواية الشطر الثانى فى الديوان : « تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا » وسيرويه ابن هشام بهذه الرواية بعد قليل .
 (٣) السجية : الطبيعة .
 (٤) ما أوهت : ما هدمت .
 (٥) متعوا : زادوا ، يقال : متع النهار ، إذا ارتفعت شمس .
 (٦) لا يطبعون : لا يتدنسون .
 (٧) الطبع : الدنس .
 (٨) نصبنا : أظهرنا العداوة ولم نسرهما . والدرع : ولد البقرة الوحشية .
 (٩) نسمو : نهض . والزعائف : أطراف الناس وأتباعهم . وخشعوا : تذللوا .
 (١٠) الخور : الضعفاء ، والهلع (ككتب) : الجازعون ، الواحد : هلع .
 (١١) مكتنع : دان . وحلية : مأسدة باليمن . والأرساغ : جمع رسف ، وهو موضع القيد من الرجل . فدع : اعوجاج إلى ناحية

خُذْ مِنْهُمْ مَا أَتَى عَفْوًا إِذَا غَضِبُوا وَلَا يَكُنْ هَمُّكَ الْأَمْرَ الَّذِي مَنَعُوا (١)
 فَإِنَّ فِي حَرْبِهِمْ فَأَتْرَكَ عَدَاوَتِهِمْ شَرًّا يُخَاضُ عَلَيْهِ السَّمُّ وَالسَّلْعُ (٢)
 أَكْرَمَ بِقَوْمِ رَسُولُ اللَّهِ شِعْتَهُمْ إِذَا تَفَاوَتَتِ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ
 أَهْدَى لَهُمْ مَدْحَتِي قَلْبٌ يُؤَاوِرُهُ فِيمَا أُحِبَّ لِسَانٌ حَائِكٌ صَنَعَ (٣)
 فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الْأَخْيَاءِ كُلِّهِمْ إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ الْقَوْلِ أَوْ شَمَعُوا (٤)
 وتضيف الرواية أن الزبرقان بن بدر لما قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم قام فقال :

أَتَيْنَاكَ كَيْمَا يَعْلَمُ النَّاسُ فَضْلَنَا إِذَا احْتَفَلُوا (٥) عِنْدَ احْتِضَارِ الْمَوَاسِمِ (٦)
 بَأَنَّا قُرُوعُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كِدَارٌ (٧)
 وَأَنَا نَذُودُ الْمُعْلِمِينَ إِذَا انْتَخَوْا وَنَضْرِبُ رَأْسَ الْأَصِيدِ الْمُتَفَاقِمِ (٨)
 وَأَنَا لَنَا الْمِزْبَاعُ فِي كُلِّ غَارَةٍ نُغَيِّرُ بَنَجْدٍ أَوْ بَأَرْضِ الْأَعَاجِمِ (٩)

-
- (١) عفوا : من غير مشقة .
 (٢) السَّلْع : نبات مسموم .
 (٣) صنع : يحسن القول ويبيده .
 (٤) شمعوا : هزلوا . وأصل الشمع : الطرب واللهو ، ومنه جارية شموع : إذا كانت كثيرة الطرب .
 (٥) وفي رواية : اختلفوا .
 (٦) المواسم : جمع موسم ، وهو الموضع الذي يجتمع فيه الناس مرة في السنة ، كاجتماعهم في الحج ، واجتماعهم بعكاظ وذى المجاز وأشباهها .
 (٧) دارم : من بني تميم .
 (٨) الْمُعْلَمُونَ : الذين يعلمون أنفسهم في الحرب بعلامة يعرفون بها ، ويروى : « العالمين » . وانتخوا : من النخوة ، وهو التكبر والإعجاب . والأصيد : المتكبر الذي لا يلوى عنقه يمينا ولا شمالا . والمتفاقم : المتعاضم ، من تفاقم الأمر : إذا عظم واشتد .
 (٩) المرباع (بكسر الميم) : أخذ الربع من الغنيمة ، يريد أنهم رؤساء . والنجد : ما ارتفع من الأرض ، ويريد بنجد : بلاد العرب .

فقام حسان بن ثابت فأجابه ، فقال :

هَلِ الْمَجْدُ إِلَّا السُّودُّ الْعَوْدُ وَالنَّدَى	وجاءُ الملوكِ واحتمالِ العِظائمِ
نَصَرْنَا وَأَوَيْنَا النَّبِيَّ عَمَّداً	على أنفِ راضٍ من مَعَدٍّ وراغمِ
بَحَى حَرِيدٍ أَضْلُهُ وَتَرَاوَهُ	بجايةِ الجَوْلانِ وَسَطِ الأعاجِمِ
نَصَرْنَاهُ لِمَا حَلَّ وَسَطِ ديارِنَا	بأسيافِنَا مِنْ كُلِّ باغٍ وظالمِ
جَعَلْنَا بَيْنَنَا دُونَهُ وَبَنَاتِنَا	وطينالَهُ نَفْساً بِقَىءِ المغامِ
وَنَحْنُ صَرَبْنَا النَّاسَ حَتَّى تَتَابَعُوا	على دينِهِ بِالْمُرْهَفَاتِ الصَّوَارِمِ (١)
وَنَحْنُ وَلَدْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عَظِيمِهَا	ولَدْنَا نَبِيَّ الْخَيْرِ مِنْ آلِ هاشِمِ (٢)
بَنَى دَارِمٍ لَا تَفْخَرُوا إِنْ فَخَرَكُم	يَعُودُ وَبَالاً عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ (٣)
هَبَلْتُمْ عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وَأَنْتُمْ	لَنَا حَوْلٌ مَا بَيْنَ ظَهْرٍ وَخَادِمِ ؟ (٤)
فَإِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ لِحَقِّنِ دِمَائِكُمْ	وأموالكم أَنْ تُقَسِّمُوا فِي الْمَقَاسِمِ
فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ نَدّاً وَأَسْلِمُوا	وَلَا تَلْبَسُوا زِيّاً كَزِيِّ الْأَعاجِمِ (٥)

لقد كانت معركة بلاغية حامية بين الزبرقان شاعر بنى تميم الذين وفدوا على رسول الله وفيهم صلف وخشونة ، وبين حسان شاعر رسول الله ، المسلح بعقيدة السماء ، المعان بتشجيع سيد الأنبياء ، فكانت نتيجة هذا الحوار الشعرى الساخن ، ذلك الحكم الذى أصدره أحد رؤوس تميم وهو الأقرع بن حابس فى قوله :

(١) المرهفات الصوارم : السيوف القاطعة .

(٢) يشير بهذا البيت إلى أن أم عبد المطلب جد النبى ﷺ كانت جارية من الأنصار .

(٣) الوبال : الثقل .

(٤) هبلتم : فقدتم وتكلمتم . والظئر : التى ترضع ولد غيرها ، وقد تأخذ على ذلك أجراً ؛ وأصله الناقة تعطف على ولد غيرها .

(٥) الند : المثل والشبه .

« وأبى إن هذا الرجل - يعنى رسول الله - لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى - وفي رواية : أحلى - من أصواتنا » .

وانتهى هذا اللقاء وأسفر عن نتيجتين عظيمتين ، الأولى : أن فى بنى تميم نزل من القرآن الكريم قوله - عز وجل - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ تقرّيعاً لهم على خشونة سلوكهم وعدم تأديهم مع رسول الله ﷺ وحسن توجيههم ولعامة المسلمين . والثانية أنهم أسلموا جميعاً ، وأحسن رسول الله ﷺ جوابهم .

وفود الجارود بن المعلّى وسلمة بن عياض :

هذان الوافدان يمثلان أنموذجاً لفود من جاءوا منفردين للقاء رسول الله ﷺ وفيهم فصاحة القول وامتلاك ناصية الشعر ، ووجه الغرابة فى هذين الوافدين أنها حين اعترضا الوفود على رسول لم يكونا مسلمين ، فأولهما وهو الجارود كان نصرانياً (١) ، وثانيهما وهو سلمة كان وثنياً (٢) ولكنها كانا حليفين ، فقررا - على قدر ما صور لهما خيالهما - أن يعقدا ما يتصورانه اختباراً لصدق محمد ﷺ فى نبوته .

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى (٣) : قدم الجارود العبدى على رسول الله ﷺ ومعه سلمة بن عياض الأسدى ، وكان حليفاً له فى الجاهلية ، وذلك أن الجارود قال لسلمة ابن عياض الأسدى : إن خارجاً خرج بتهامة يزعم أنه نبي ، فهل لك أن نخرج إليه ؟ فإن رأينا خيراً دخلنا فيه ، فإنه إن كان نبياً فللسابق إليه فضيلة ، وأنا أرجو أن يكون النبي الذى بشر به عيسى بن مريم . وكان الجارود نصرانياً قد قرأ الكتب .

ثم قال لسلمة : « ليضمّر كل واحد منا ثلاث مسائل يسأله عنها ، لا يُخبر بها صاحبه ، فلعمري لئن أخبر بها إنه لنبيّ يؤخى إليه » . ففعلا . فلما قدما على رسول

(١) له ترجمة فى الإصابة برقم ١٠٤٢ بالمجلد الأول .

(٢) له ترجمة فى الإصابة برقم ٣٣٩١ بالمجلد الثانى .

(٣) كان أبو عبيدة من أعلام الأدب واللغة والنحو والتاريخ والرواية وأخبار العرب وأيامهم وقد عرف بالعصبية ضد العرب ، وله تصانيف يناهز عددها مائتين ، وعمر طويلاً ، وتوفى سنة ٢٠٨ هـ .

الله ﷺ قال له الجارود : بِمَ بَعَثَكَ رَبُّكَ يَا مُحَمَّد ؟ قال : « بشهادة أن لا إله إلا الله وأنى عبدُ الله ورسوله ، والبراءة من كل نِدٍّ أو وَثَنٍ يُعْبَد من دون الله تعالى ، وإقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة بحقها ، وصوم شهر رمضان ، وحج البيت ﴿ مِّنْ عَمَلٍ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (١) .

قال الجارود : إن كنت يا محمد نبياً فأخبرنا عما أضمرنا عليه . فخفق (٢) رسول الله ﷺ كأنها سنّة ثم رفع رأسه وتحدّر العرق عنه فقال : « أمّا أنت يا جارود فإنك أضمرت على أن تسألني عن دماء الجاهلية ، وعن حلف الجاهلية ، وعن المنيحة (٣) ، ألا وإن دم الجاهلية موضوع وحلفها مشدود . ولم يردّها الإسلام إلا شدة ، ولا حلف في الإسلام ، ألا وإنّ الفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة ، فإنها تغدو برّفاً ، وتروح بمثله .

وأما أنت يا سلمة فإنك أضمرت عليّ أن تسألني عن عبادة الأصنام . ، وعن يوم السَّبَّاسِب (٤) وعن عَقْل الهجين (٥) ، فأما عبادة الأصنام فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا نَكْفُرُ بِكُم مَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا

وَرِدُونَ ﴾ (٦) و أما يوم السباسب فقد أعقب الله تعالى منه ليلة خيراً من ألف شهر ، فاطلبوها في العشر الأواخر من شهر رمضان ، فإنها ليلة بُلُجَّةٌ سَمُحَةٌ لا رِيحَ فيها ، تَطْلُعُ الشمس في صبيحتها لاشعاعاً لها ، وأما عَقْل الهجين فإن المؤمنين إخوة تتكافأ دِماؤهم يُجِيرُ أَقْصَاهُمْ على أدناهم ، أَكْرَمُهُمْ عند الله أَتْقَاهُمْ » .

فقال : نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبد الله ورسوله .

(١) الآية ٤٦ من سورة فصلت .

(٢) خفق : أى نعى .

(٣) المنيحة : هى المنحة . وقد تقع المنحة على الهبة مطلقاً .

(٤) يوم السباسب : عيد للنصارى ، ويسمونه الشعانين .

(٥) تسمى الدية عقلاً .

(٦) الآية ٩٨ من سورة الأنبياء .

وعند ابن إسحاق (١) عَمَّنْ لَا يَتَّبِعُهُمُ الْحَسَنُ أَنَّ الْجَارُودَ لَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَلَّمَهُ فَعَرَضَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْإِسْلَامَ وَدَعَاهُ إِلَيْهِ ، وَرَغَّبَهُ فِيهِ . فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنِّي كُنْتُ عَلَى دِينٍ ، وَإِنِّي تَارِكُ دِينِي لِدِينِكَ ، أَفَتَضْمَنُ لِي دِينِي ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « نَعَمْ أَنَا ضَامِنٌ أَنَّ قَدْ هَدَاكَ اللَّهُ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ » . فَأَسْلَمَ وَأَسْلَمَ أَصْحَابُهُ . ثُمَّ سَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحُمْلَانَ فَقَالَ : « وَاللَّهِ مَا عِنْدِي مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ » فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بِلَادِنَا ضَوَالٌّ (٢) مِنْ ضَوَالِّ النَّاسِ أَفَنَتَبَلَّغُ عَلَيْهَا إِلَى بِلَادِنَا ؟ قَالَ : « لَا ، إِيَّاكَ وَإِيَّاهَا فَإِنَّمَا تِلْكَ حَرَقُ النَّارِ » (٣) .

فَقَالَ : « يَا رَسُولَ اللَّهِ اذْخُلْنَا أَنْ يَجْمَعَ اللَّهُ قَوْمَنَا » . فَقَالَ : « اللَّهُمَّ اجْمَعْ لَهُمْ أَلْفَةً قَوْمَهُمْ وَبَارِكْ لَهُمْ فِي بَرِّهِمْ وَبَحْرِهِمْ » . فَقَالَ الْجَارُودُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَى الْمَالِ أَتُخِذُ بِبِلَادِي ؟ قَالَ : « وَمَا بِلَادُكَ ؟ » قَالَ : مَاوَاهَا وَعَاءٌ وَنَبْتُهَا شِفَاءٌ ، وَرِيحُهَا صَبَا ، وَنَخْلُهَا عَوَادٍ . قَالَ : عَلَيْكَ بِالْإِبِلِ إِنَّمَا حَمُولَةٌ ، وَالْحَمْلُ يَكُونُ عَدْدًا . وَالنَّاقَةُ ذَوْدًا .

وقال الجارود :

شَهِدْتُ بِأَنَّ اللَّهَ حَقٌّ وَسَاحَتْ
فَأَبْلَغُ رَسُولِ اللَّهِ عَنِ رِسَالَةٍ
وَأَنْتَ أَمِينُ اللَّهِ فِي كُلِّ خَلْقِهِ
فَإِنْ لَمْ تَكُنْ دَارِي بِتَرْبِ فِيكُمْ
أَصَالِحُ مَنْ صَالَحْتَ مِنْ ذِي عَدَاوَةٍ
بَنَاتُ فُؤَادِي بِالشَّهَادَةِ وَالنَّهْضِ
بِأَنِّي حَنِيفٌ حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الْأَرْضِ
عَلَى الْوَحْيِ مِنْ بَيْنِ الْقُضِيضَةِ وَالْقَضِ
فَإِنِّي لَكُمْ عِنْدَ الْإِقَامَةِ وَالْحَفْظِ
وَأُبْغِضُ مَنْ أُمْسَى عَلَى بُغْضِكُمْ بُغْضِي

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ٥٧٥ .

(٢) ضَوَالٌّ - بفتح الضاد المعجمة وتخفيف الواو وتشديد اللام - : جَمْعُ ضَالَّةٍ ، وَهِيَ الضَّائِعَةُ مِنْ كُلِّ مَا يُفْتَنَى مِنَ الْحَيَوَانِ وَغَيْرِهِ ، يُقَالُ : ضَلَّ الشَّيْءُ : إِذَا ضَاعَ ، وَضَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ : إِذَا حَارَ ، وَهِيَ فِي الْأَصْلِ فَاعِلَةٌ ، ثُمَّ اتَّسَعَ فِيهَا فَصَارَتْ مِنَ الصِّفَاتِ الْغَالِيَةِ ، يَتَّقِعُ عَلَى الذِّكْرِ وَالْأُنْثَى ، وَالْأُنْثَى ، وَالْجَمْعُ ، وَالْمُرَادُ بِهَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ الضَّالَّةُ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ بِمَا يَحْمِلُ نَفْسِيهِمْ عَلَى الْإِبْعَادِ فِي طَلَبِ الْمَرْغَى وَالْمَاءِ بِخِلَافِ الْغَنَمِ .

(٣) حَرَقُ النَّارِ - بفتح الحاء - بفتح الجاء - وبالْقَافِ - : هَبْطُهَا ، وَقَدْ يُسَكَّنُ ، وَالْمَعْنَى أَنَّ ضَالَّةَ الْمُؤْمِنِ إِذَا أَخَذَهَا إِنْسَانٌ لِيَتَمَلَّكَهَا أَذَّتهُ إِلَى الْإِبِلِ .

وَأَدْنَىٰ الذِّى وَالْيَنبُتُ وَأَجْبُهُ وَإِنْ كَانَ فِي فِيهِ الْعَلَاقِمُ مِنْ بُغْضٍ
أَذْبُ بِسَيْفِي عَنْكُمْ وَأَحْبُكُمْ إِذَا مَا عَدُوُّكُمْ فِي الرَّفَاقِ وَفِي النَّقْصِ
وَأَجْعَلْ نَفْسِي دُونَ كُلِّ مُلَمَّةٍ لَكُمْ جُنَّةٌ مِنْ دُونِ عِرْضِكُمْ عِزِّى

وقال سلمة بن عياض الأسدي رضى الله عنه :

رَأَيْتَكَ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا نَشَرْتُ كِتَابًا جَاءَ بِالْحَقِّ مُعْلَمًا
شَرَعْتَ لَنَا فِيهِ الْهُدَى بَعْدَ جُورِنَا عَنِ الْحَقِّ لَمَّا أَصْبَحَ الْأَمْرُ مُظْلِمًا
فَنَوَّزْتَ بِالْقُرَّانِ ظُلُمَاتِ جِنْدِسٍ وَأَطْفَأْتَ نَارَ الْكُفْرِ لَمَّا تَضَرَّمَا
تَعَالَى عُلُوُّ اللَّهِ فَوْقَ سَمَائِهِ وَكَانَ مَكَانُ اللَّهِ أَعْلَى وَأَكْرَمَا

ولما عاد الجارود إلى قومه دعاهم إلى الإسلام فاستجابوا لدعوته ، ثم إنه بعد ذلك
صحب أعيان قومه ووفدوا على رسول الله ﷺ وأنشد بين يديه متاعب الرحلة إليه قاطعين
الصحارى مجتازين الفدافد بابلهم القوية وجيادهم الأصيلة ابتغاء الثواب والفوز يوم
الحساب :

يَا نَبِيَّ الْهُدَى أَتَتَكَ رِجَالٌ قَطَعْتَ فَذِيداً^(١) وَالْأَقَالَ^(٢)
وَطَوَّتْ نَحْوَكَ الصَّحَاصِحَ^(٣) طُرّاً لَا تَخَالُ الْكَلَالَ فِيهِ كَلَالاً
كُلُّ دَهْنَاءٍ^(٤) يَقْصُرُ الطَّرْفُ عَنْهَا أَرْقَلَتْهَا فِلَاصُنَا^(٥) إِرْقَالاً^(٦)

(١) الْقَذْفَدُ - بفاءين مفتوحتين بعد كل فاء دال مهملة الأولى ساكنة - : وهى القَلَاةُ لا شىء فيها ، وقيل : هى الأرض
الغليظة ذات الحصى ، وقيل : المكان المرتفع ، وقيل الفدند : الأرض المستوية .
(٢) الْأَلْ : السراب ، وقال فى الصحاح : والأل الشخص ، والأل الذى تراه فى أول النهار وآخره كأنه يرفع الشخص ،
وليس هو السراب .

(٣) الصَّحَاصِح ، والصَّحْصَحان : ما استوى من الأرض .

(٤) الدهناء : موضع ببلاذ بنى قميم .

(٥) القلاص : الفتى من الإبل .

(٦) الإرقال : ضرب من العدو فوق الحلب ، وأرقل المفازة : يعنى قطعها .

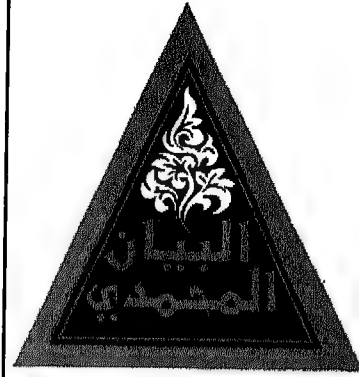
وَطَوَّنَهَا الْحَيَادُ تَجْمَعُ (١) فِيهَا بِكُمَاةٍ كَأَنْبُجٍ تَتَلَا

تَبْتَغِي دَفْعَ بُوسٍ يَوْمَ عُبُوسٍ أَوْجَلِ الْقَلْبَ ذِكْرُهُ ثُمَّ هَالَا (٢)

وجملة القول أن شعر الوفود وفير في كتب السيرة ، وقد قدمنا في صدر هذا الفصل عددا كبيرا من أسماء الوفود الجماعية والمفردة التي سعت إلى ساحة الحضرة المحمدية ، يشدو شعراؤها بقصائد الإيثار ، ويبايعون الرسول ﷺ على الإسلام والفداء ، في غلالات شفافه من عذب القول وعميق الحب وحلاوة الإنشاد .

(١) تجمّع : أى تسمع .

(٢) الهول : الخوف والأمر الشديد . وهاله : أفرعه .



الفصل الثامن

شعر الغزوات والسرايا

شعر الغزوات والسريا

إن غزوات الرسول ﷺ وسراياه من الكثرة بمكان ، وكان شعراء الرسول ينشدون نفيس الشعر وجيد القصيد مع الغزوات وبعدها ، حتى إن الشعر الذى قيل فى هذه المعارك يشكل ثروة أدبية إسلامية تحتاج إلى دراسة وتمثل وتمحيص ، وتمنح شباب أدباء المسلمين فيضا من التجارب وينبوعا من الحكم وزادًا من التراث .

ومن أهم غزوات الرسول التى رافقها الشعر واحتفل بها الشعراء : بدر ، وأحد ، وبنى قينقاع ، وبنى النضير ، وغزوة الرجيع ، وغزوة الخندق ، والمريسيع أو بنى المصطلق ، وخيبر ، وذات الرقاع ، ومؤتة ، وفتح مكة ، والطائف ، وتبوك .

وأما السرايا فهى من الكثرة بحيث لا يتيسر حصرها فى هذا المجال الضيق ، وكل الذين قادوا الغزوات والسرايا إذا لم يكن الرسول ﷺ مشاركا ، هم من أبطال الصحابة وفرسان المؤمنين ، وإن عددا كبيرا منهم من أصحاب المواهب فى فن القول شعرا كان أو خطابة .

الشعر فى غزوة بدر :

غزوة بدر هى واحدة من أهم غزوات رسول الله ﷺ بل هى أهمها جميعا ؛ لأنها تمثل أول انتصار للمسلمين على المشركين ، ومن هنا كان احتفال الشعر به كبيرا ، وكان حصاده فيها وفيرا ، وكانت المعانى الإسلامية والقيم الأخلاقية والمواقف الإيمانية متعددة الأشكال مختلفة الأساليب متباينة المناهج ، وهى فى مجملها وتفصيلاتها طرز جديدة من فن الشعر ، وقيم مستحدثة فى مسيرة فن القريض .

كان الانتصار فى غزوة بدر كاسحا وعظيما ، كان انتصار القلة المؤمنة على الكثرة

المشركة فقد كان عدد المشركين أضعاف عدد المؤمنين ، وإن جيش المشركين ضم أساطين الكفر وفرسان الظلام ، ولذلك فإن لغة الشعر وبنيت كانتا منسجمتين مع جلال الموقف وضخامة الانتصار .

كان حسان بن ثابت فارس الحلبة بين شعراء بدر بغير منازع ، ومن ثم فقد كان شعره يكتسى زهواً وينضح فخاراً ، وهو يتشفى في هزيمة قريش قائلاً (١):

لقد علمت قريش يوم بدر	غداة الأسر والقتل الشديد
بأننا حين تشتجر العوالي	حماة الحرب يوم أبى الوليد (٢)
قتلنا ابنى ربيعة يوم سارا	إلينا في مضاعفة الحديد (٣)
وفر بها حكيم يوم جالت	بنو النجار تخطير كالأسود (٤)
وولت عند ذاك جُموع فُهر	وأسلمها الحويرث من بعيد
لقد لاقيتم دُلاً وقَتلاً	جهيزاً نافذا تحت الوريد (٥)
وكل القوم قد ولّوا جميعاً	ولم يلووا على الحسب التليد (٦)

وكما سبق أن ذكرنا كان حسان وافر العطاء كثير الإنشاد في غزوة بدر وعنهما ، وكانت قريحته فياضة معطاءة ، وكانت معانيه متأبية رفيعة ، ونفحات الإيمان كانت توشى أبياته من أولها إلى آخرها ممزوجة بمشاعر العزة وأحاسيس الفخار .

ولعل هذه المقطوعة من شعر النصر والإيمان تعدّ مثلاً لهذا النسق من القول الذى

(١) ابن هشام ١٩/٢ .

(٢) تشتجر : تختلط وتشتبك . والعوالى : أعلى الرماح .

(٣) يريد « بمضاعفة الحديد » : الدروع التى ضوعف نسجها .

(٤) فر ، قال أبو ذر : من رواه بالقاف ، فهو من باب التقريب ، وهو فوق المشى ، ودون الجرى . ومن رواه بالفاء ، فهو من الفرار ، وهو معلوم . وتخطر : تتهز وتجرد فى المشى إلى لقاء أعدائها .

(٥) جهيزاً : سريعاً ، يقال : أجهز على الجريح ، وذلك إذا أسرع قتله . والوريد : عرق فى صفحة العنق .

(٦) التليد : القديم .

التزم به حسان في شعر الغزوات . يقول شاعر الرسول الأول في هذا اللون (١):

فما نخشى بحول الله قوما	وإن كثروا وأجمعت الزحوف
إذا ما ألبوا جَمْعاً عَلَيْنَا	كفانا حدّهم ربّ رؤوف (٢)
سموّنا يومَ بَدْرٍ بالعِوَالِي	سراعاً ما تُضْعِفُ عَلَيْنَا الحُتُوف (٣)
فلَم تَرِ عُصْبَةً فِي النَّاسِ أَنْكَى	لَمَن عَادُوا إِذَا لَقِيتَ كَشُوف (٤)
ولكنّا توكلّنا وقلّنا	مآثرنا ومَقْلنا السُّيُوف (٥)
لَقِينَاهُمْ بِهَالِمًا سَمُونَا	ونحنُ عِصَابَةٌ وَهُمْ أُلُوف

ويعمد حسان إلى الإغراب في المعاني والتنويع في قوافيه في خضم قصائد النصر ، وكأنه طائر محلق في سماء البيان ، أو كأنه ربان ماهر متمكن ينشر أشرعته على صفحات أمواج محيط هادر فينشر هذه الأبيات (٦).

دَعُوا فَلَجَاتِ السَّامِ قَدْ حَالَ دُونَهَا	جلادٌ كأفواهِ المخاضِ الأوارِك (٧)
بأيدي رجال هاجروا نحو ربّهم	وأنصاره حقاً وأيدي الملائك
إذا سَلَكَتِ للغُورِ مِنْ بَطْنٍ عَالِجٍ	فَقُولَا لَهَا لَيْسَ الطَّرِيقُ هُنَالِكَ (٨)

(١) السيرة ٢/ ٢٣ .

(٢) ألبوا : جمعوا .

(٣) ما تضعفنا ، أي ما تذلتنا ولا تنقص من شجاعتنا . والحُتُوف : جمع حُتَف ، وهو الموت .

(٤) لقيت : حملت . والكشوف (بفتح الكاف) : الناقة التي يضربها الفحل في الوقت الذي لا تشتهي فيه الغراب ، فاستعارها (هنا) للحرب . ولقيت الحرب : إذا هاجت بعد سكون .

(٥) المآثر : جمع مآثرة ، وهي ما يتحدث به عن الإنسان من خير أو فعل حسن . والمعقل : الممتنع الذي يلجأ إليه .

(٦) السيرة ٢/ ٢١٣ .

(٧) الفلجات : جمع فلج ، وهو الماء الجاري ؛ سمي فلجاً لأنه قدخ في الأرض ، وقرى بين جانبيه . والمخاض : الحوامل من الإبل . وارك : التي ترعى الأراك ، وهو شجر .

(٨) الغور : المنخفض من الأرض . وعالج : مكان فيه رمل كثير .

أَقَمْنَا عَلَى الرَّسِّ النَّزُوعَ ثَمَانِيَا بِأَرْعَنَ جَرَّارٍ عَرِيضِ الْمَبَارِكِ (١)
بِكُلِّ كُمَيْتٍ جَوَّزَهُ نَصْفَ خَلْقِهِ وَقُبَّ طَوَالٍ مُشْرِفَاتِ الْحَوَارِكِ (٢)
تَرَى الْعَرْفَجَ الْعَامِيَ تَذْرَى أَصُولَهُ مَنَاسِمُ أَخْفَافِ الْمَطَى الرَّوَاتِكِ (٣)
فَإِنْ نَلَقَ فِي تَطَوُّافِنَا وَالتَّمَاسِنَا فُرَاتَ بْنَ حَيَّانٍ يَكُنْ رَهْنَ هَالِكِ
وَإِنْ نَلَقَ قَيْسَ بْنَ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بَعْدَهُ يُرَدُّ فِي سَوَادٍ لَوْنُهُ لَوْنُ حَالِكِ

ويسهم في توثيق المعركة شعرا وبيانا شاعر آخر من شعراء رسول الله ﷺ مركزا على أبي سفيان الذي كان ذا رأى في المعركة يتمثل في تلافي لقاء المسلمين بالفرار وبإثناء زعماء قريش عن خوضها ، ويشير الشاعر إلى مصرع زعماء قريش وبخاصة عتبة وابنه وأبى جهل .

إن الشاعر في هذه القصيدة وهو عبد الله بن رواحة - وقيل : بل هو كعب بن مالك - شديد التمسك بحبال رسول الله ﷺ فداء ولاء ، فيقول (٤) :

وَعَدْنَا أَبَا سُفْيَانَ بَدْرًا فَلَمْ نَجِدْ لِمَعَادِهِ صِدْقًا وَمَا كَانَ وَافِيَا
فَأَقْسَمَ لَوْ وَافَقْتَنَا فَلَقَيْتَنَا لَأَبَتْ ذَمِيمًا وَافْتَقَدْتَ الْمَوَالِيَا
تَرَكْنَا بِهِ أَوْصَالَ عُتْبَةَ وَابْنِهِ وَعَمْرًا أَبَا جَهْلٍ تَرَكْنَاهُ ثَاوِيَا (٥)
عَصَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ أَفَّ لَدِينِكُمْ وَأَمْرَكُمْ السَّيِّءَ الَّذِي كَانَ غَاوِيَا (٦)

(١) الرس : البحر . والنزوع : التي يخرج ماؤها بالأيدي . والأرعن : الجيش الكثير الذي له أتباع وفضول .
(٢) الكميت : الفرس . وجوزه : وسطه ، ويريد بطنه . وقب : جمع أقب ، وهو الضامر . والحوارك : جمع حارك ، وهو أعلى الكتفين من الفرس .
(٣) العرفج : نبات . والعامي : الذي أتى عليه العام . وتذرى أصوله : تعقلها . تطرحها . ومناسم : جمع منسم ، وهو طرف خف البعير . والرواتك : المسرعة .

(٤) السيرة ٢/ ٢١٠ ، ٢١١ .

(٥) ثاويا : يعنى مقيما .

(٦) السيء (بالتخفيف) : هو السيء (بالتشديد) .

فإني وإن عَنَّفْتُمُونِي لِقَائِلٌ فِدَى لِرَسُولِ اللَّهِ أَهْلِي وَمَالِيَا (١)
أَطْعَنَاهُ لَمْ نَعْدِلْهُ فِينَا بَغَيْرِهِ شَهَابًا لَنَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ هَادِيَا (٢)

ويحتشد الصحابي كعب بن مالك أحد شعراء رسول الله المبرزين لوصف المعركة بتفصيلاتها ، وهو النهج الذي سار عليه المتنبي بعد ذلك بأربعة قرون ، ويحرص كعب على أن يوشى قصيدته بأبيات يعطرها بذكر رسول الله ﷺ ومن حوله الأنصار يحيطون به ويفتدونه ، والكل شاكي السلاح ، تتحرك جموعهم تحت لوائه على نحو بديع ، ويضمّن كعب قصيدته قدرا من الفخر ببعض بنى قومه الأوس وجمع من بنى النجار - وهم أحوال رسول الله - ومجسما هزيمة قريش ومصارع أعيانها الكبار من أمثال عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة وأبى جهل وغيرهم من رؤوس المشركين ، فكانت القصيدة مزاجا من الوصف والتسجيل والفخر بالنصر وتأصيل للقيم الإسلامية وترسيخ للمعاني الإيمانية :

يقول كعب بن مالك : (٣)

عَجِبْتُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَاللَّهِ قَادِرٌ عَلَى مَا أَرَادَ ، لَيْسَ لِلَّهِ قَاهِرٌ
قَضَى يَوْمَ بَدْرٍ أَنْ نَلَاقِيَ مَعِشِرًا بَغَوًا ، وَسَبِيلَ الْبَغْيِ بِالنَّاسِ جَائِرٌ
وَقَدْ حَشَدُوا وَاسْتَنْفَرُوا مِنْ يَلِيهِمْ مِنَ النَّاسِ حَتَّى جَمَعَهُمْ مَتَكَائِرٌ
وَسَارَتْ إِلَيْنَا لَا تُحَاوِلُ غَيْرَنَا بِأَجْمَعِهَا كَعْبٌ جَمِيعًا وَعَامِرٌ
وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ وَالْأَوْسُ حَوْلُهُ لَهُ مَعْقِلٌ مِنْهُمْ عَزِيزٌ وَنَاصِرٌ
وَجَمْعُ بَنِي النَّجَارِ تَحْتَ لَوَائِهِ يُمَكِّنُونَ فِي الْمَادِي وَالنَّقْعِ نَائِرٌ
فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ وَكُلٌّ مَجَاهِدٌ لِأَصْحَابِهِ مُسْتَبْسِلٌ النَّفْسِ صَابِرٌ

(١) عَنَّفْتُمُونِي : يعنى لمتمونى .

(٢) لَمْ نَعْدِلْهُ : يعنى لَمْ نَرْمَعْهُ غَيْرُهُ .

(٣) السيرة ١٤ / ٢ ، ١٥ .

شَهِدْنَا بِأَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ بِالْحَقِّ ظَاهِرٌ (*)
 ويستطرد كعب فيصف التحام الجيشين ومصارع صناديد قريش وفرسانها قائلا :
 وَقَدْ عُرِّيتَ بِيَضٍّ جَفَافٌ كَأَنَّهَا مَقَابِيسُ يُزْهِيهَا لِعَيْنَيْكَ شَاهِرٌ
 بِهِنَّ أَبَدْنَا جَمْعَهُمْ فَتَبَدَّدُوا وَكَانَ يُلَاقِي الْحَيْنَ مَنْ هُوَ فَاجِرٌ
 فَكَبَّ أَبُو جَهْلٍ صَرِيحًا لَوَجْهِهِ وَعُتْبَةُ قَدْ غَادَرَتْهُ وَهُوَ عَائِرٌ
 وَشَيْبَةُ وَالتَّيْمِيُّ غَادَرْنَ فِي الْوَغَى وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا بَذَى الْعَرْشِ كَافِرٌ
 فَأَمْسَوْا وَقُودَ النَّارِ فِي مُسْتَقَرِّهَا وَكُلُّ كَفُورٍ فِي جَهَنَّمَ صَائِرٌ (*)

على أن أكثر الشعراء قولاً في قتلى قريش هو حسان بن ثابت ، صحيح أن قصائده في هذا السبيل لم تخل من إظهار الشماتة بهم والتشنيع عليهم والنيل منهم ، ولكنها كانت في جوهرها تأديبا لهم وثارا منهم وقصاصا مما أوقعوا برسول الله من أذى وهو بين ظهرائهم ، وما نهبوه من أموال المسلمين ، واستيلاء على ممتلكاتهم وديارهم ، وكان قتلى المشركين في بدر هم صفوة رجال قريش وحكماؤها وزهرة شبابها ، فمنهم على سبيل المثال : عتبة بن ربيعة ، وابنه الوليد ، وأخوه شيبة ، وهم الذين تأرت لهم هند بنت عتبة زوج أبي سفيان باكتراء العبد الأسود « وحشى عبد بنى نوفل » ليقتل أسد الحرب حمزة بن عبد المطلب ، ومنهم حنظلة بن أبي سفيان بن حرب ، وأبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة ، وأمّية بن خلف ، ومنهم النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، وغيرهم .

لقد كانت هزيمة قريش ثقيلة ، وكان قتلاهم من ذوى القدر والمكانة عندهم ، فكان أمرا طبيعيا أن يكثر الشعراء المسلمون القول في خسائر قريش في بدر ، فيقول حسان (١) :

(*) المعاني : الماذى : الدروع البيض اللينة . النقع : الغبار . يزهيهما : يعنى يستخفها ويحركها . أبدا : من الفعل أباد ، أى : أهلك ، الباتر : الساقط .
 (١) ابن هشام ٢/ ٢١ .

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَتَى أَهْلَ مَكَّةَ إِبَارَتُنَا الْكُفَّارَ فِي سَاعَةِ الْعُسْرِ (١)
 قَتَلْنَا سِرَاةَ الْقَوْمِ عِنْدَ مَجَالِنَا فَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَّا بِقَاصِمَةِ الظَّهْرِ (٢)
 قَتَلْنَا أَبَا جَهْلٍ وَعُتْبَةَ قَبْلَهُ وَشَيْئَةَ يَكْبُوَ لِلْيَدَيْنِ وَلِلنَّخْرِ (٣)
 قَتَلْنَا سُؤَيْدًا ثُمَّ عُتْبَةَ بَعْدَهُ وَطُعْمَةَ أَيْضًا عِنْدَ ثَائِرَةِ الْقَتْرِ (٤)
 فَكَمْ قَدْ قَتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ مُرْزَلٍ لَهُ حَسَبٌ فِي قَوْمِهِ نَابِ الدَّكْرِ
 تَرَكْنَاهُمْ لِلْعَاوِيَاتِ يَنْبُئُهُمْ وَيَضْلَوْنَ نَارًا بَعْدُ حَامِيَةَ الْقَعْرِ (٥)

وفي مقطوعة أخرى يذكر حسان واقعة بدر وما جرى فيها من قتلى في بطون قريش ، ويخص هنا بنى أسد التي رزئت بمقتل غير قليل من رجالها وصناديدها ، وهم : زمعة ابن الأسود بن المطلب بن أسد ، وابنه الحارث بن زمعة ، وأبو البختری واسمه العاصي ابن هشام بن الحارث بن أسد ، ونوفل بن خويلد بن أسد ، وهو الذي قرن أبا بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله في حبل حين أسلما .

هؤلاء الجبابرة من بنى أسد قد خصهم حسان بأن أفرد لهم مكانا خاصا في شعره عن بدر ، حيث يقول :

خَابَتْ (٦) بَنُو أَسَدٍ وَأَبَّ غَزِيَّتُهُمْ يَوْمَ الْقَلِيبِ بِسَوْءٍ وَفُضِّحَ (٧)

(١) إِبَارَتُنَا ، أى إهلاكنا ؛ تقول : أَبْرَأَ الْقَوْمُ : أى أَهْلَكْنَا هُمْ .
 (٢) سِرَاةُ الْقَوْمِ : سادتهم وخيارهم . ويريد « بقاصمة الظهر » : الداهية التى تقصم الظهر ، أى : تكسرهما فتبينها .
 يقال : قَصَمَ الشَّيْءُ : إِذَا كَسَرَهُ فَأَبَانَهُ ، فَإِذَا لَمْ يَبْنِهِ قِيلَ : فَصَمَهُ (بالفاء) .
 (٣) يَكْبُو : يسقط .
 (٤) يريد « بثائرة القتر » : ما ثار من الغبار وارتفع . والقتر : الغبار .
 (٥) العاوييات : الذئاب والسباع . وينبئهم ، أى : يأتونهم مرة بعد مرة . وَيُرْوَى : يَنْشُبُهُمْ ، أى : يتناولونهم .
 (٦) « خابت » ، من رَوَاهُ بِالْخَاءِ الْمَعْجَمَةِ ، فهو من الخيبة ، ومن رَوَاهُ (حانت) بِالْخَاءِ الْمَهْمَلَةِ ، فهو من الخين ، وهو الهلاك .
 (٧) الغزى : جماعة القوم الذين يغزون .

مِنْهُمْ أَبُو الْعَاصِي تَجَدَّلَ مُقْعَصًا عَنْ ظَهْر صَادِقَةِ النَّجَاءِ سَبُوحٍ (١)
 حِينَئِذٍ لَهُ مِنْ مَانِعٍ بِسَلاحِهِ لَمَّا تَوَيَّ بِمَقَامِهِ الْمَذْبُوحِ
 وَالْمَرْءُ زَمْعَةٌ قَدْ تَرَكْنَ وَتَحَرُّهُ يَذْمَى بِعَانِدٍ مُعْبِطٍ مَسْفُوحٍ (٢)
 مُتَوَسِّدًا حُرَّ الْجَبِينِ مُعَفَّرًا قَدْ عُرِّ مَارِنٌ أَنْفِهِ بِقُبُوحٍ (٣)
 وَنَجَا ابْنُ قَيْسٍ فِي بَقِيَّةِ رَهْطِهِ بِشَفَا الرِّمَاقِ مُؤَلِّيًا بِجُرُوحٍ (٤)

وفي الذروة من شعر حسان بن ثابت في انتصار المسلمين في بدر ومصارع أعلام المشركين فيها قصيدته البائية ، مفصلا كرات الأوس وبنى النجار على المشركين ، وكأنهم أسد غاب يكتسحون ضحاياهم ، ذاكرا مخاطبة رسول الله لهم وقد جندلت جثثهم في القليب وهو يقول : يا أهل القليب ، بئس عشيرة النبي كنتم لنبينا ، كذبتمونى وصدقتى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، ثم قال : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟

يقول حسان مترجماً عن هذا الموقف في رائعته البائية :

عرفت ديار زينب بالكئيب كخط الوحى فى الورق القشيب
 تَدَاوَلَهَا الرِّيحُ وَكُلُّ جَوْنٍ من الوسمى مْئْهُمْ سَكُوبٍ (٥)
 فَأَمْسَى رَسْمُهَا خَلْقًا وَأَمْسَتْ يَبَابَا بَعْدَ سَاكِئِهَا الْحَبِيبِ (٦)
 فَدَغَّ عَنْكَ التَّدَكُّرُ كُلُّ يَوْمٍ وَرَدَّ حَرَارَةَ الصَّدْرِ الْكُئِيبِ

(١) تجدل : صرع على الأرض . واسم الأرض : الجدالة . ومقصدا : أى مقتولا قتلنا سريعا . ويريد « بصادقة النجاء »
 فرسا سريعة . والنجاء : السرعة . والسبوح : التى تسبح فى جريها كأنها تعوم .
 (٢) العائد : الذى يجرى ولا ينقطع ، والمعبط : الدم الطرى . والمسفوح : السائل المنصب .
 (٣) معفرا ، أى : لاصقا بالعفر ، وهو التراب . وعمر : لطخ . ومارن الأنف : مالان منه .
 (٤) شفا كل شىء : حده وطرفه . والرماق : بقية الحياة .
 (٥) الوسمى : مطر الخريف .
 (٦) يبابا : قفرا .

وخبر بالذى لا عيب فيه
 بما صنع المليك غداة بدر
 غداة كأن جمعهم حراء
 فلاقيهم منا بجمع
 أمام محمد قد وأزره
 بأيديهم صوارم مرفعات
 بنو الأوس الغطارف وأزرتها
 فغادرتنا أبا جهل صريعا
 وشيبة قد تركنا في رجال
 يناديهم رسول الله لما
 ألم تجدوا كلامي كان حقا
 فما نطقوا ، ولو نطقوا لقالوا :
 بصدق غير إخبار الكذب
 لنا في المشركين من النصيب
 بدت أركانه جُنح الغروب (١)
 كأسد الغاب مژدان وشيب
 على الأعداء في لفتح الحروب (٢)
 وكل مجرب خاطي الكعوب (٣)
 بنو النجار في الدين الصليب (٤)
 وعيبة قد تركنا بالجبوب (٥)
 ذوى حسب إذا نسبوا حسب
 قدفناهم كباب في القليب (٦)
 وأمر الله يأخذ بالقلوب ؟
 صدقت وكنت ذا رأى مُصيب !

في هذا الموقف الرهيب الذى صرع فيه أعداء الله وخصوم وحدانيته ، يشفق
 رسول الله على واحد من صحابته قد لقي أبوه المشرك مصرعه أمامه ، فقد كان في جيش
 المشركين بعض أبناء عمومة الرسول ، وكان منهم عبد الرحمن بن أبي بكر ، وكان منهم
 عتبة بن ربيعة وولده ، بينما كان ولده أبو حذيفة في جيش رسول الله .

(١) حراء بمكة . وجنح الغروب : حين تميل الشمس للغروب .

(٢) وأزره : أعانوه . ولفح الحروب : نازها وحرها . ويروى : « لفتح » ومعناه التزيد والنمو ، يقال : لفتحت الحرب ،
إذا تزايدت .

(٣) الصوارم المرفعات : السيوف القاطعة . والخاطي : المكتنز . والكعوب : عقد القناة .

(٤) الغطارف : السادة ، واحدهم : غطريف : وحذفت الياء من الغطاريف لإقامة وزن الشعر . والصليب : الشديد .

(٥) الجبوب : وجه الأرض . وقيل : هو المدر : الواحدة : جبوبة .

(٦) كباب : جماعات .

قال ابن إسحاق : ولما أمر رسول الله ﷺ أن يُلقوا في القليب ، أخذ عُتْبَةُ بن ربيعة ، فسحب إلى القليب ، فنظر رسول الله ﷺ - فيما بلغني - في وجه أبي حُذَيْفَةَ بن عُتْبَةَ ، فإذا هو كَتِيبٌ قد تغير لونه ، فقال : يا أبا حُذَيْفَةَ ، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ أو كما قال ﷺ فقال : لا ، والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مضره ، ولكنني كنت أعرف من أبي رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرته ما مات عليه من الكفر ، بعد الذي كنت أرجو له ، أحزنني ذلك ، فدعاه رسول الله ﷺ بخير ، وقال له خيرا^(١).

الشعر في غزوة الخندق :

سميت غزوة الخندق لأن المسلمين تحت قيادة رسول الله ﷺ قد حفروا خندقا يحول عمقه واتساعه دون تقدم المشركين من قبائل العرب ومن ألَّيهم على الحرب من يهود ، وسميت كذلك بغزوة الأحزاب لأن بنى النضير بعد خيانتهم وإجلائهم إلى خيبر أرادوا أن يكيدوا لرسول الله ﷺ فألبوا قريشا على قتاله ، وعاهدوهم على ذلك ، فخرجت قريش وبنو سليم وبنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة ، فكانت هذه الحملة المتعددة القبائل بالإضافة إلى يهود تشكل جيشا ينوف عدده على عشرة آلاف يَحْدِدُهُمْ وَعُدْدُهُمْ ، وكان عدد المقاتلين المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف ، يندس من حولهم المنافقون ، ويكيد لهم من ورائهم اليهود .

كان زمان الغزوة شهر ذى القعدة سنة خمس طبقا لرواية الواقدي^(٢) ، وشهر شوال طبقا لرواية ابن إسحاق^(٣).

ومن المفارقات التي تدعو إلى التأمل في هذه الغزوة ذلك التحالف الغريب بين عبدة الأصنام والأوثان من قريش وحلفائها وبين اليهود الذين هم أهل كتاب ، حتى إن

(١) السيرة ١ / ٦٤١ .

(٢) المغازي ٢ / ٤٤٠ .

(٣) قسم المغازي من تاريخ الإسلام للذهبي ، ص : ٢٣٣ .

قريشا نفسها لم تسلم بصدق هذا الحلف حين قال زعماءها : يا معشر يهود ، إنكم أهل كتاب وعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ فكانت إجابة يهود : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق ، وهو قول كان موضع شك المشركين ، وقد نزل فيهم قول الله - عز وجل - مثبتا هذا الموقف : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ (١)

وفي هذه الغزوة بذل المؤمنون جهدا كبيرا في حفر الخندق ، ولما رأى رسول الله ﷺ ما بهم من الجوع والنصب دعا لهم الدعاء المشهور الذي ظن بعض الباحثين أنه شعر ، وما هو بشعر ، وذلك في قوله الشريف :

« اللهم إن العيش عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة » وفيها تمثل الرسول بأبيات عبد الله بن رواحة - وفي رواية أنها لعامر بن الأكوع - :

واللهم لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأئلي قد بغوا علينا	وإن أرادوا فتنة أبينا

إن هذه الأبيات مع كونها نموذجا للإيمان والاستبسال فهي أيضا دعاء وابتهاال مما يصور ضراوة المعركة وخرج موقف جيش المسلمين أمام كثافة جيش الأحزاب واستفزاز فرسانهم للمجاهدين المؤمنين ، ومحاولة اجتياز الخندق في أحد أطرافه الضعيفة ، وهو ما صوره القرآن الكريم أصدق تصوير ووصفه أدق وصف في قوله - عز وجل - :

﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ

(١) النساء ، الآية : ٥١ .

الْقُلُوبِ الْحَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾.

على أن التحاما قتاليا بين الجيشين لم يكتب له أن يتم ، وكان أبرز قتال هو ذلك النزال الذي دعا إليه عمرو بن ودّ من صناديد فرسان قريش ، وكان عمرو بن ودّ فيما تروى الأخبار قد قاتل يوم بدر حتى أثختته الجراح فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج مُعَلِّمًا لِيَرَى مكانه ، واتجه نحو فرسان المسلمين وقال : من يبارزني ؟ فبرز له عليّ - رضي الله عنه - وقال له : يا عمرو ، إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتهما منه ، قال له : أجل ، فقال عليّ : إني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام ، قال : لا حاجة لي بذلك ، قال عليّ : فإني أدعوك إلى النزال ، قال : لم يا ابن أخي ، فوالله ما أحب أن أقتلك ، قال عليّ - رضي الله عنه - : لكني والله أحب أن أقتلك ، ثم كانت المبارزة المشهور خبرها ، فقتله عليّ ، وبدأت علامات الهزيمة تكسو وجوه فرسان قريش ، فألقى عكرمة يومئذ رمحه وتقهقر ، فقال عليّ في ذلك مصورا نزاله مع عمرو بن ودّ :

نَصَرَ الْحَجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ

وَنَصَرْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ بِضِرَابٍ

نَازَلَتْهُ فَتَرَكْتُهُ مَتَّجِدًا

كالجذع بين دكاكٍ وروابي (*)

لا تحسبنَّ الله خاذلٍ دينه

ونبيّه يا معشر الأحزاب

(١) الأحزاب ، الآيةان : ١٠ ، ١١ .

(*) الدكاك : جمع دكاك ، وهو ما تكبس واستوى من الرمل . الكراع والخف : يعنى الخيل والإبل .

وقد أرسل الله الرياح العاصفة على مضارب الأحزاب وكانت العلاقة بينهم قد تفككت عراها ، وروح القتال خبت نارها ، وكان الصحابي نعيم بن مسعود قد قام بتوجيه من رسول الله ﷺ بنزع الثقة بين الأحزاب واليهود ، فقال أبو سفيان لقومه : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف . وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تظمن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل ، ثم قام إلى جملة وأطلق عقاله .

وإذا كانت معركة القتال لم تشتعل نارها ، فإن معركة الشعر قد اشتد أوارها ، خاصة وأن المسلمين لما انصرفوا من الخندق لم يعودوا إلى بيوتهم وإنما اتجهت جموعهم بأمر من رسول الله إلى بنى قريظة ؛ لأنهم كانوا قد ظاهروا قريشا وأعانوهم على حرب رسول الله .

يقول عبد الله بن عمر : نادى فينا رسول الله ﷺ يوم انصرف من الأحزاب : «ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بنى قريظة» ولبس رسول الله ﷺ لأمته ، ففزع الناس للحرب ، وبعث عليا على المقدمة ودفع إليه اللواء ، وحاصروهم رسول الله ﷺ خمسا وعشرين ليلة فيما يذكر ابن إسحاق^(١) وانتهى الأمر بقبولهم ما يحكم به سعد بن معاذ عليهم ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ يستدعيه فأتى به محمولا على حمار وهو مضنى من جرحه الذي أصيب به في الخندق ، فقال الرسول : أشر إلى في هؤلاء ، فقال : لو وليت أمرهم قتلت مقاتلتهم وسببت ذراريهم وقسمت أموالهم ، فقال رسول الله ﷺ : «والذي نفسى بيده ، لقد أشرت فيهم بالذى أمرنى الله به» .

هكذا خرج المسلمون من الخندق سالمين بنصر الله ، ثم كانت خيانة بنى قريظة سببا في إجلائهم والتخلص منهم ، ثم بدأت معركة الشعر التي كان طرفها من جانب كفار المشركين : ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهري ، وعبد الله بن الزبيري ،

(١) مغازى الذهبى ، ص : ٢٥٧ .

ومسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة ، وهيرة بن أبى وهب الذى كان أكثر شعره فى رثاء عمرو بن عبد ود ، وكان طرفها من جانب المسلمين كعب بن مالك ، وحسان ابن ثابت ، وكان كعب هو فارس الحلبة فى الخندق ، وحسان فارس الحلبة فى غزوة بنى قريظة ، وقد نال كعب بن مالك ثناء رسول الله ﷺ فيما قاله فى غزوة الخندق .

يقول ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهرى فى غزوة الخندق مفتخرا بالأحزاب التى جيشت جيوشها لقتال المسلمين ، مقتنيا نهج عمرو بن كلثوم فى معلقته المشهورة وزنا وقافية ومعنى فى قصيدة نجتزىء منها (١):

وَمُشْفِقَةٌ تَظُنُّ بِنَا الظَّنُونَا	وَقَدْ قُذِنَا عَرْنَدَسَةً طَحُونَا (٢)
كَأَنَّ زُهَاءَهَا أَحَدٌ إِذَا مَا	بَدَتْ أَرْكَانَهُ لِلنَّاطِرِينَا
تَرَى الْأَبْدَانَ فِيهَا مُسَبَّغَاتٍ	عَلَى الْأَبْطَالِ وَالْيَلْبِ الْحَصِينَا
وَجُرْدًا كَالْقِدَاحِ مُسَوَّمَاتٍ	نَوْمُهَا الْغَوَاةَ الْخَاطِئِينَا
كَأَنَّهُمْ إِذَا صَالُوا وَصَلْنَا	بِبَابِ الْخَنْدَقِينَ مُصَافِحُونَا
أَنَاسٌ لَا تَرَى فِيهِمْ رَشِيدًا	وَقَدْ قَالُوا أَلَسْنَا رَاشِدِينَا
فَأَخْجَرْنَا هُمْ شَهْرًا كَرِيئًا	وَكُنَّا فَوْقَهُمْ كَالْقَاهِرِينَا
نُزَاوِحُهُمْ وَنَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ	عَلَيْهِمْ فِى السَّلَاحِ مُدَجَّجِينَا

هكذا يقدم الشاعر ألوانا من الفخر مألوفة المعانى مكررة على الأسجاع ، ولولا ذكر الخندق ما عرف قارىء غرض القصيدة ، ولمزيد من تبيان الغرض يقول الشاعر :

(١) ابن هشام ٢ / ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) معانى الكلمات : العرنيسة : الشديدة القوة ، يريد الكتيبة . الطحون : التى تطحن كل ما مرت به . زهاءها : تقديرها . الأبدان هنا بمعنى الدروع . اليلب : الترس أو الدرق . الجرد : الخيل العتاق . القداح : السهام . أخجرتناهم : حصرتناهم . شهرا كريئا : يعنى كاملا .

فَلَوْلَا خَنْدَقُ كَانُوا لَدَيْهِ لَدَمَّرْنَا عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ

وَلَكِنْ حَالُ دُونِهِمْ وَكَانُوا بِهِ مِنْ خَوْفِنَا مُتَعَوِّذِينَ

ينهض للرد على الشاعر بنفس البحر والقافية وكأنها نقائض متحاورة كعب بن مالك أحد شعراء رسول الله فيقول في الفخر بالمسلمين قولاً يرجح قول ضرار ويزيد عليه معاني إيانية جديدة على الشعر العربي مثل الصبر على المحن ، والإيمان بالله ، والتوكل عليه ، ونصرة رسول الله قائلا :

ولو شَهِدْتُ رَأَتْنا صابرينا	وسائلةٍ تسألُ ما لقينا
على ما نابنا متوكلينا	صبرنا لا نرى لله عِذْلاً
به نعلو البرية أجمعينا	وكان لنا النبيُّ وزيرٌ صِدْقٍ
وكانوا بالعداوة مُرْصِدِينا	نقاتلُ معشراً ظَلَمُوا وَعَبُّوا
بضربٍ يُعْجِلُ المتسرعينا	نعاجلهم إذا نهضوا إلينا
كغُذْرانِ المَلَأَ مُتَسَرِّبِينا	تَرَأْنَا في فضافضٍ سابغاتٍ
بها نشفي مِرَاحَ الشاغبينا	وفى أَيْماننا بِيضٍ خفافٌ
شوابكهن يحمين العرينا	بباب الخندقين كأن أُسْداً
نكون عبادَ صديقٍ مخلصينا	لِنَنْصُرَ أَحْمداً واللّه حتى
وأحزابٌ أَتَوْا متَحزِّبينا	ويعلمَ أهلُ مكة حين ساروا
وأن الله مولى المؤمنين	بأن الله ليس له شريكٌ

وقال عبد الله بن الزبيري قصيدة بائية طويلة في وصف جيش المشركين وقواده لم تخل من رسم صور محكمة لجيوشهم ، يقول فيها : (١)

(١) ابن هشام ٢/ ٢٥٧ .

فيها الجيادُ شَوَازِبُ مَجْنُونَةٌ قُبُّ البطونِ لَوَاحِبُ الأَقْرَابِ
من كُلِّ سُلْهَةٍ وَأَجْرَدَ سَلْهَبِ كَالسَّيِّدِ غَالِبِ غَفْلَةِ الرِّقَابِ
جَيْشُ عَيْنِيَّةٍ قَاصِدٌ بِلَوَائِهِ فِيهِ وَصَخْرٌ قَائِدُ الأَحْزَابِ
قَرَمَانٍ كَالْبَدْرَيْنِ أَصْبَحَ فِيهِمَا غَيْثُ الْفَقِيرِ وَمَعْقِلُ الْهَرَّابِ (*)

ويردّ حسان بن ثابت واصفا خيبة جيش الأحزاب وتفرق جمعهم بهبوب عاصفة مزقت صفوفهم ، محتلبا معانى إيمانية ، ومؤكدا على المساعدات الإلهية على هذا النحو (١):

فَدَعِ الدِّيارَ وَذَكَرْ كُلَّ خَرِيدَةٍ بِيضَاءِ آنَسَةِ الْحَدِيثِ كَعَابِ
وَأَشْكُ الْهَمُومَ إِلَى الْإِلَهِ وَمَا تَرَى مِنْ مَعْشَرٍ ظَلَمُوا الرِّسُولَ غَضَابِ
سَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ إِلَيْهِ وَالْأَبْوَا أَهْلَ الْقُرَى وَبَوَادِي الْأَعْرَابِ
جَيْشُ عَيْنِيَّةٍ وَابْنُ حَرْبٍ فِيهِمْ مَتَخَطِّمُونَ بِحُلْبَةِ الْأَحْزَابِ
حَتَّى إِذَا وَرَدُوا الْمَدِينَةَ وَارْتَجَحُوا قَتَلَ الرِّسُولِ وَمَغْنَمَ الْأَسْلَابِ
وَعَدُوا عَلَيْنَا قَادِرِينَ بِأَيْدِيهِمْ رُدُّوا بِغِيظِهِمْ عَلَى الْأَعْقَابِ
بِهَبُوبٍ مُعْصِفَةٍ تَفَرِّقُ جَمْعَهُمْ وَجُنُودَ رَبِّكَ سَيِّدِ الْأَرْبَابِ
فَكَفَى الْإِلَهِ الْمُؤْمِنِينَ قِتَالَهُمْ وَأَثَابَهُمْ فِي الْأَجْرِ خَيْرَ ثَوَابِ (*)

ومثلما فعل حسان في الرد على ابن الزبيرى ، انطلق كعب بن مالك ورسم على

(*) المعانى : الشوازب : الضامرة . المجنونة : المقودة . قب البطون : يعنى ضامرة البطون . السلهة : الطويلة .

السَّيِّد : اللذئب . قرمان : يعنى سيدان عظيمان ، هما عيينة بن حصن قائد فزارة ، وصخر هو أبو سفيان . معقل

الهرباب : ملجؤها .

(١) السيرة ٢/ ٢٥٨ .

(*) المعانى : الخريدة : المرأة الناعمة . والكعاب : التى نهد ثديها فى أول ما ينهد . ألبوا : جمعوا . متخطمون :

تختلطون . الأيد : يعنى القوة . المعصفة : هى الريح الشديدة .

منوال حسان ، وأنشأ قصيدة من جيد الشعر معنى وصوغا ووصفا وإيقاعا ، ذكر فيها الخيل والفرسان والصوارم من رماح وسانان التي كانت سلاح كتيبة المسلمين في الخندق ، تلك الكتيبة التي (١) :

أَعَيْتُ أَبَا كَرِبٍ وَأَعَيْتُ ثُبَعًا وَأَبْتُ بَسَالَتُهَا عَلَى الْأَعْرَابِ
ومواعظٍ مِنْ رَبَّنَا نُهْدَى بِهَا بِلِسَانٍ أَزْهَرَ طَيِّبِ الْأَثْوَابِ
عُرِضَتْ عَلَيْنَا فَاشْتَهَيْنَا ذِكْرَهَا مِنْ بَعْدِ مَا عُرِضَتْ عَلَى الْأَحْزَابِ
حِكْمًا يَرَاهَا الْمَجْرُمُونَ بِزَعْمِهِمْ حَرْجًا وَيَفْهَمُهَا ذُوو الْأَلْبَابِ
جَاءَتْ سَخِينَةُ كَى تُغَالِبَ رَبَّهَا فَلْيُغْلِبَنَّ مُغَالِبُ الْغَالِبِ (٢)

يقول ابن هشام : حدثني من أثق به قال : حدثني عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، قال : لما قال كعب بن مالك :

جاءت سَخِينَةُ كَى تُغَالِبَ رَبَّهَا فليغلبن مغالب الغلاب

قال رسول الله ﷺ : « لقد شكر الله يا كعب على قولك هذا » (٣) .

وهذا القول الذي قاله رسول الله ﷺ لا يعنى فقط امتنان الرسول وفرحه بالشعر الجيد ، ولكن الله - سبحانه - أيضا يشكر للشاعر المؤمن جهده ؛ إذ وظف الشعر في خدمة دين الله ورسوله .

لقد قال كعب بن مالك شعرا كثيرا في غزوة الخندق ، وهو أكثر شعراء المسلمين إنشادا في شأن هذه الموقعة ، وأكثر شعره فيه من المستوى الرفيع ذى المسحة الإسلامية

(١) السيرة ٢/ ٢٥٩ .

(٢) معاني أبيات كعب البائية :

أبو كرب وثُبُع : ملكان من ملوك اليمن . الأزهر : الأبيض . حرجا : يعنى حراما . الألباب : يعنى العقول . سَخِينَةُ : هو لقب قريش في الجاهلية .

(٣) ابن هشام ٢/ ٢٦١ .

الخالصة ، والسمة الإيبانية السابغة ، مع إبداع في وصف الجيش فرسانا وسلاحا وكرا
وفرا ، مما يجعلنا نتوقع أن عين أبي الطيب المتنبي لم تكن بعيدة عن قراءة هذا الشعر وهو
يعدّ قصائده لوصف معامع سيف الدولة الحمداني ، فإن روح كعب بن مالك تسرى
في ثناياها .

ولعل من الخير أن نختم حديث الشعر في غزوة الخندق بذكر هذه القصيدة النفيسة
لكعب بن مالك (١) :

مَنْ سَرَّهُ صَرْبٌ يُمَعِّمُ بَعْضُهُ	بَعْضًا كَمَعْمَعَةِ الْأُبَاءِ الْمُحَرِّقِ (٢)
فَلَيَأْتِ مَأْسَدَةٌ تُسَنَّ سِيوفُهَا (٣)	بَيْنَ الْمَدَادِ (٤) وَبَيْنَ جَزَعِ (٥) الْخَنْدَقِ
دَرَبُوا بِضَرْبِ الْمُعْلِمِينَ وَأَسْلَمُوا	مُهْجَاتِ أَنْفُسِهِمْ لِرَبِّ الْمَشْرِقِ (٦)
فِي عَصْبَةٍ نَصَرَ الْإِلَهُ نَبِيُّهُ	بِهِمْ وَكَانَ بَعْبُهُ ذَا مَرْفَقِ (٧)
فِي كُلِّ سَابِغَةٍ تَخُطُّ فُضُولُهَا	كَالْنَهْيِ هَبَّتْ رِيحُهُ الْمُتَرَقِّقِ (٨)
يَبْضَاءُ مُحْكَمَةٌ كَأَنَّ قَتِيرَهَا	حَدَقَ الْجَنَادُ ذَاتَ شَكٍّ مُوْتَقِ (٩)
جَدَلَاءُ يَحْفَظُهَا نِجَادٌ مُهَنَّدٌ	صَافِي الْحَدِيدَةِ صَارِمٌ ذِي رُوْتِقِ (١٠)

(١) ابن هشام ٢٦١-٢٦٣ .

(٢) المعمة : صوت التهاب النار وصريفها . والأباء : القصب ، ويقال : الأغصان الملتفة .

(٣) المأسدة : موضع الأسود ، ويعنى بها هنا موضع الحرب .

(٤) المداد : موضع بالمدينة حيث حفر الخندق ، وقيل : هو بين سلع وخندق المدينة .

(٥) الجزع : الجانب .

(٦) المعلمون : الذين يعلمون أنفسهم في الحرب بعلامة يعرفون بها . والمهجات : الأنفس ؛ الواحدة : مهجة . ولرب

المشرق : يريد لرب المشرق والمغرب ، فحذفه للعلم به .

(٧) العصبية : الجماعة .

(٨) السابغة : الدروع الكاملة . وتخط فضولها : ينجر على الأرض ما فضل منها . والنهى : الغدير من الماء . والمترقق :
الذي تصفقه الريح فيجىء ويذهب .

(٩) القتير : مسامير الدروع . والجنادب : ذكور الجراد . والشك : إحكام السرد .

(١٠) الجدلاء : الدرع المحكمة النسج . ويحفظها : يرفعها ويشمرها . والنجاد : حائل السيف . وصارم : قاطع .
والروتيق : اللمعان .

تَلَكُم مَعَ التَّقْوَى تَكُون لِبَاسَنَا
نَصَل السُّيُوفَ إِذَا قَصُرْنَ بِخَطُونَا
فَتَرَى الْجَاهِجِمِ ضَاحِيَا هَامَاتُهَا
تَلْقَى الْعَدُوَّ بِفَخْمَةٍ (٢) مَلْمُومَةٍ
وَنُعِيدُ لِلْأَعْدَاءِ كُلِّ مُقْلَصٍ
تَرْدِي بِفُرْسَانٍ كَأَنَّ كِهَاتِهِمْ
صُدُقُ يُعَاطُونَ الْكُهَاءَ حَتُّوْفِهِمْ
أَمَرَ الْإِلَهَ بِرَبْطِهَا لِعَدَوِهِ
لِتَكُونَ غِيْظًا لِلْعَدُوِّ وَحِيْطًا
وَيُعِينُنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ بِقُوَّةٍ
وَنُطِيعَ أَمْرَ نَبِينَا وَنُجِيبَهُ
وَمَتَى يُنَادِ إِلَى الشَّدَائِدِ نَأْتِيهَا
مَنْ يَتَّبِعْ قَوْلَ النَّبِيِّ فَإِنَّهُ

يَوْمَ الْهِيَاجِ وَكُلَّ سَاعَةٍ مَصْدَقٍ
قَدْ مَأْ وَنُلْحَقَهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقْ
بَلَاءَ الْأَكْفَ كَأَنَّهَا لَمْ تُخْلَقْ (١)
تَنْفَى الْجُمُوعَ كَفَضْدِ رَأْسِ الْمَشْرِقِ (٣)
وَرَدِّ وَتَحْجُولِ الْقَوَائِمِ أُلْبَقِ (٤)
عِنْدَ الْهِيَاجِ أَسْوَدَ طَلٍّ مُلْتَقِ (٥)
تَحْتَ الْعِمَاةِ بِالْوَشِيْجِ الْمُرْهَقِ (٦)
فِي الْحَرْبِ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مُؤَفَّقِ
لِلدَّارِ إِنْ دَلَفَتْ خِيُولُ النَّزَقِ (٧)
مِنْهُ وَصِدْقُ الصَّبْرِ سَاعَةٌ نَكْتَقِي
وَإِذَا دَعَا لِكَرْيَةِ لَمْ تُسَبِّقِ
وَمَتَى نَرِ الْحَوْمَاتِ فِيهَا نُعْنَقِ (٧٤)
فِينَا مُطَاعُ الْأَمْرِ حَقٌّ مُصَدَّقِ

-
- (١) الجهاجم : الرؤوس . وضاحيا : بارزا للشمس . وبلاء : اسم فعل بمعنى اترك ودع ، ويصح نصب « الأكف » به ، أو جره على أنه مصدر مضاف له .
(٢) يريد « بالفخمة » : الكتيبة .
(٣) الملمومة : المجتمعة ، والمشرق : جبل بين الصريف والعصيم من أرض ضبة .
(٤) المقلص . الفرس الخفيف .
(٥) تردى : تسرع . والكياة : الشجعان . والطل : الضعيف من المطر . والملتق : ما يكون من الطل من زلق وطين ، والأسد أجوع ماتكون وأجراً في ذلك الحين .
(٦) يريد بالعمامة : سحابة الغبار وظلمته . والوشيج : الرماح . والمزق : المذهب للنفوس .
(٧) حيط : جمع حائط ، وهو اسم فاعل من حاط يحوط . ودلفت : قربت . والنزق : الغاضبون السيئو الخلق ؛ الواحد : نازق .
(٨) الحومات : مواطن القتال ؛ الواحدة : حومة . ونعنتق : نسرع .

فَبِذَاكَ يَنْصُرُنَا وَيُظْهِرُ عِزَّنَا
وَيُصَيِّتُنَا مِنْ نَيْلِ ذَاكَ بِمِرْفَقِ
إِنَّ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ مُحَمَّدًا
كَفَرُوا وَضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ الْمُتَّقِي

الشعر في غزوة مؤتة وفي فتح مكة :

كانت السنة الثامنة من الهجرة النبوية الشريفة متميزة عن بعض ما سبقها من سنوات السيرة النبوية بحدثين كبيرين كان لهما أثر في البنية الأساسية لمسيرة الدعوة الإسلامية ، أولهما غزوة مؤتة ، وترجع أهميتها إلى أنها أول لقاء مباشر بين جيش المسلمين وجيش الروم ، كما أنها كانت تسمى غزوة جيش الأمراء ، وسبب هذه التسمية يعود إلى أن رسول الله ﷺ قد أمر بتولية ثلاثة من كبار الصحابة الإمارة على الجيش ، أولهم زيد بن حارثة ، وهو من أحب صحابة رسول الله ﷺ إلى ذاته الشريفة ، فقد كان الرسول ﷺ قد تنبأه قبل أن يحرم التنبؤ في الإسلام ، وكان يسمى زيد بن محمد كما أنه الوحيد بين الصحابة الذي ورد اسمه - تحديداً - في القرآن الكريم (١) ، وإن تأمير رسول الله ﷺ لزيد على جيش مؤتة لدو دلالة خاصة على أهمية هذه الغزوة وخطورة شأنها .

فإن استشهد زيد انتقلت إمارة الجيش إلى جعفر بن أبي طالب ، وهو أشهر من أن يعرف ؛ لأنه ابن عم رسول الله ، ومن أوائل المسارعين إلى الدخول في الإسلام من آل البيت . فإن استشهد جعفر انتقلت الإمارة إلى عبد الله بن رواحة أحد الصحابة الأكثر قربا إلى رسول الله ﷺ وواحد من كبار شعراء الدعوة الذين نافحوا عنها وأخلصوا لها ، وأكثروا الإنشاد بين يدي رسول الله ﷺ ثم هو بعد ذلك من الأنصار ، وفي تقليده إمارة الجيش بعد استشهاد جعفر تكريم للأنصار ، الذين مافتىء رسول الله ﷺ يحرص على تكريمهم في كل مناسبة تسنح وكل فرصة تلوح .

والحدث الثاني فتح مكة فهو الآية الكبرى ، والانتصار العظيم ، والحدث الحاسم ، الذي بدت إرهاباته قبل ذلك بعامين في الحديبية ، وفيها نزل قول الله

(١) في سورة الأحزاب ، الآية : ٣٧ وفيها قول الله تعالى : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها . . . ﴾ الآية .

- سبحانه - مبشرا بالفتح واعدًا به : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَنُصْرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (١).

بفتح مكة تميزت السنة الثامنة من هجرة رسول الله ﷺ مثلما تميزت السنة الأولى ، فإذا كانت السنة الأولى تمثل اتخاذ دار حصينة للدعوة ، واستقرارا مكانيا لرسول الله ﷺ ونقطة انطلاق لحمتها المهاجرون وسداها الأنصار ، فإن فتح مكة يمثل مرحلة تكميلية في مسيرة الدعوة وازدياد استقرارها ، فقد عاد بيت الله إلى عبّاد الله وموحيه ، وبفتح مكة دخلت قريش في دين الله راضية أو مذعنة ، وبفتح مكة تحطمت جميع الأصنام وأبيدت عامة الأوثان ، وأصبح بيت الله مطهرا من كل شرك ، بريئا من كل دنس ، يذكر فيه اسم الله بالعشي والإبكار .

ليس غريبا - والأمر كذلك - أن يكون للشعر مجال رحب وميدان فسيح في كل من الحدثين الجليلين : غزوة مؤتة ، وفتح مكة .

الشعر في مؤتة :

ليس بمستغرب أن يكون الشعر في غزوة مؤتة مقصورا على عبد الله بن رواحة في مرحلة الإعداد والزحف وخوض الغمار ؛ لأنه أحد قوادها الذين شرفهم رسول الله ﷺ بإمرة جيشها ، وأما بعد الغزوة وعودة الجيش واستشهاد الثلاثة الكبار فقد كان للشعر نشاط حزين في بكائهم والإشادة ببسالتهم والترحم على كل الشهداء الذين أبلوا البلاء الحسن في أتونها .

ومثلما كان حمزة صاحب النصيب الأوفى من رثاء شعراء المسلمين في أحد فقد كان جعفر بن أبي طالب صاحب المراثي الأوفر عددا بين شهداء مؤتة .

(١) الآيات الثلاث الأولى من سورة الفتح .

أما الغزوة نفسها وشعر عبد الله بن رواحة فيها فقد بدأ من لحظة التوديع .

يقول ابن هشام (١):

تجهّز الناس ثم تهبّوا للخروج ، وهم ثلاثة آلاف ، فلما حضر خروجهم ودّع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم . فلما ودّع عبد الله بن رواحة من ودّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى ؛ فقالوا : ما يُكيك يا بن رواحة ؟ فقال : أما والله ما بى حب الدنيا ولا صباية بكم ، ولكنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ آيةً من كتاب الله - عز وجل - يذكر فيها النار ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ (٢) ، فلست أدري كيف لى بالصّدر بعد الورود ؛ فقال المسلمون : صَحِبَكُمْ الله ودفع عنكم ، وردّكم إلينا صالحين ؛ فقال عبد الله بن رواحة :

لكنّنى أسألُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وضربةً ذاتِ فَرْغٍ تقذفُ الزَّبدَا (٣)

أو طَعْنَةً بِيَدَيِ حَرَّانٍ مُجْهِزَةٍ بحرّةٍ تُنفِذُ الأحشاءَ والكَبِدَا (٤)

حتى يُقالَ إذا مرُّوا على جدّنى (٥) أرشده الله من غارٍ وقد رشّدا (٦)

وحين شرع الجيش في الخروج لم يطق عبد الله بن رواحة الانصراف قبل أن يتوجه لوداع رسول الله ﷺ وملء ناظره من وجهه الشريف ، وإلقاء التحية شعرا في حضرته مثلما تعود على ذلك في سابق عهده معه ، وأنشد قائلا :

فثبتَّ الله ما آتاك من حَسَنِ تثبيتَ موسى ونَصْرًا كالذى نُصروا (٧)

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ٣٧٣ .

(٢) سورة مريم ، الآية : ٧١ .

(٣) ذات فرغ : ذات سعة . والزبد هنا : رغبة الدم .

(٤) مجهزة : سريعة القتل . وتنفيذ الأحشاء : تحترقها .

(٥) الجدد والجندف : القبر .

(٦) في رواية : « يأرشد الله » .

(٧) كذا في م ، ر ، وفي أ « نصرا » .

إني تفرستُ فيكَ الخيرَ نافلةً الله يعلمُ أني ثابتُ البَصَرِ (١)
 أنتَ الرَّسُولُ فَمَنْ يُحَرِّمِ نَوَافِلَهُ والوَجْهَ مِنْهُ فَقَدْ أَزْرَى بِهِ الْقَدْرُ (٢)
 ولقد رويت هذه الأبيات بترتيب آخر على هذا النحو (٣):

أنتَ الرَّسُولُ فَمَنْ يُحَرِّمِ نَوَافِلَهُ والوَجْهَ مِنْهُ فَقَدْ أَزْرَى بِهِ الْقَدْرُ
 فبَيَّتَ اللهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ في المرسلين ونصرا كالذي نُصِرُوا
 إني تفرستُ فيكَ الخيرَ نافلةً فِرَاسَةً خَالَفْتُ فِيكَ الَّذِي نَظَرُوا (٤)

انطلق جيش المسلمين متجها إلى الشمال انطلاق الذين يسعون متسابقين لنيل النصر أو اللحاق بجنة الرضوان ، تظللهم نفحات الرحمن ، حتى إذا نزلوا بأرض معان - شرق الأردن الحالية - بلغهم أن هرقل قد نزل غير بعيد عنهم في « مآب » من بلقاء الشام في مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من قبائل لخم وجذام وبهراء والقيين وبلّى تحت قيادة رجل يقال له مالك بن زافلة .

كان من الأمور الجديرة بالنظر أن يفكر المسلمون في موقفهم ، إنهم ثلاثة آلاف فقط ، وإن يكن الواحد منهم بمائة رجل من الأعداء ، ولكن الجيش الذي ينتظرون لقاءه عدته مائتا ألف رجل ، فقالوا : نكتب إلى رسول الله بالخبر ونتلقى توجيهاته ، فإما أن يمددنا بالرجال وإما أن يأمرنا بغير ذلك فنذعن لأوامره .

هنا ينبرى عبد الله بن رواحة مشجعاً جيش المسلمين قائلاً : يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما تقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنها هي إحدى الحُسنيين إما

(١) في هذا البيت إقواء .

(٢) نافلة : هبة من الله وعطية . والنوافل : العطايا والمواهب . وأزرى به القدر ، أى : قصر به .

(٣) المصدر السابق ٢ / ٣٧٤ .

(٤) يعنى بذلك المشركين .

ظهور وإما شهادة . قال : فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة . فمضى الناس فقال عبد الله بن رواحة في محبسهم ذلك :

جَلَبْنَا الْخَيْلَ مِنْ أَجْبَاٍ وَفَرَعٍ	تَغَرُّ مِنَ الْحَشِيشِ لَهَا الْعُكُومُ (١)
حَذَوْنَاهَا مِنَ الصَّوَّانِ سَبْتَا	أَزَلَّ كَأَنَّ صَفْحَتَهُ أَدِيمُ (٢)
أَقَامَتْ لَيْلَتَيْنِ عَلَى مَعَانٍ	فَأَغْقَبَ بَعْدَ فَرْتَبَا جُمُومُ (٣)
فَرُحْنَا وَالْجِيَادَ مُسَوِّمَاتٍ	تَتَنَفَّسُ فِي مَنَاخِرِهَا السَّمُومُ (٤)
فَلَا وَأَبَى مَأَبٍ لِنَأْتِيَتُهَا	وإن كانت بها عَرَبٌ وَرُومُ (٥)
فَعَبَّانَا أَعْتَتَهَا فَجَاءَتْ	عَوَابِسَ وَالْغُبَارُ لَهَا بَرِيمُ (٦)
بَذَى لَجَبٍ كَأَنَّ الْبَيْضَ فِيهِ	إِذَا بَرَزَتْ قَوَانِسُهَا النُّجُومُ (٧)
فِرَاضِيَةِ الْمَعِيشَةِ طَلَقَتْهَا	أُسْتَتَّهَا فَتَنَكَّحُ أَوْ تَتِيمُ (٨)

(١) أجبا : أحد جبل طيء ، والآخر سلمى . وفرع (بالفتح) : اسم موضع من وراء الفرك . وقال ياقوت : « الفرع : أطول جبل بأجبا وأوسطه » . . وتغر (بالغين المعجمة) : تطعم شيئا بعد شيء . يقال : غر الفريخ غرا وغرارا : زقه . والعكوم : جمع عكم (بالفتح) وهو الجنب . ويروى : جلبنا الخيل من أجام قرح - بضم القاف - وهو سوق وادى القرى .

(٢) حذوناها : جعلنا لها حذاء ، وهو النعل : والصوان : حجارة ملس ، واحدتها صوانة . والسبت : النعال التي تصنع من الجلود المدبوغة . وأزل ، أى : أملس صفحته ظاهرة . والأديم : الجلد . . وقال السهيلي : « أى : حذوناها نعالا من حديد ، جعله سبتا لها مجازا . وصوان : من الصون ، يصون خوفاها ، أو أخفافها ، إن أراد الإبل ، فقد كانوا يحذونها السريح ، وهو جلد يصون أخفافها . وربما يكون أراد بالصوان : يبيس الأرض ، أى لانسبت لها إلا ذلك .

(٣) معان (بفتح الميم) : موضع بالشام . والفترة : الضعف والسكون . والجُموم : اجتماع القوة والنشاط بعد الراحة .
(٤) مسومات : مرسلات . والسُموم : الريح الحارة .
(٥) مأب : اسم مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء .
(٦) البريم في الأصل : خيطان مختلطان أحمر وأبيض ، تشدهما المرأة على وسطها أو عضدها ، وكل ما فيه لونان مختلطان فهو بریم أيضا . يريد ما علاها من الغبار ، فخالط لونه لونها . والدمع المختلط بالإثمد ، وهذا أقرب لمعنى البيت : أى أن دموج الخيل اختلطت بالتراب فصارت كالبريم .
(٧) ذى لجب : أى جيش . واللجب : اختلاط الأصوات وكثرتها ، والبيض : ما يوضع على الرأس من الحديد . والقوانس : جمع قونس ، وهو أعلى البيضة .
(٨) تقيم : تبقى دون زوج ، يقال : أمت المرأة إذا لم تتزوج .

بهذه المعاني الرفيعة التي تضمنها هذا الشعر البليغ خاض المسلمون - على قلة عددهم - غمار حرب ضروس أمام عدو يفوقهم أكثر من ست وستين مرة ، فكانت اللجنة ثوابا لشهادتهم ، وحياة الصابرين جزاء لمن كتبت لهم النجاة .

وإذا كان عبد الله بن رواحة لم يستطع أن يسجل حلاوة الشهادة شعرا لأنه لا سبيل إلى ذلك بعد أن ودع الحياة ، فإنه كان يحلم بنيلها ويتمناها ، وقد عبر عن ذلك في شعر جميل رواه زيد بن أرقم^(١).

قال زيد : كنت يتيما لعبد الله بن رواحة في حجره ، فخرج بي في سفره ذلك وقد أردفني على حقيبة رحله ، فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته ينشد أبياتا في طلب الشهادة ، فلما انتهى من إنشاده بكيت ، فخفقتني بالدرة وقال : ما عليك بالكع أن يرزقني الله شهادة وترجع بين شعبي الرحل وحدك .

أما أبيات عبد الله بن رواحة في طلب الشهادة فهي قوله مناجيا ناقتة :

إذا أَدَيْتَنِي وَحَلَّتْ رَحْلِي	مسيرة أربع بعد الحساء (٢)
فشأنك أنعم وخلاك ذم	ولا أزعج إلى أهلي ورائي (٣)
وجاء المسلمون وغادروني	بأرض الشام مُشْتَهَى الثَّوَاءِ (٤)
وردك كل ذي نسب قريب	إلى الرحمن مُنْقَطِعَ الإخَاءِ
هنالك لا أبالي طَلَعَ بَعْلِي	ولا نُخْلِ أسافلها رِوَاءِ (٥)

كان ذلك هو إسهام الشعر في غزوة مؤتة ، جادت به قريحة صحابي شاعر فارس

(١) السيرة ٣٧٦/٢ ، ٣٧٧ .

(٢) الحساء : جمع حسي وهو ماء يغور في الرمل حتى يجد صخرا ، فإذا بُحِثَ عنه وجد .

(٣) فشانك أنعم : يريد أنه لا يكلفها سفرا بعد ذلك ، وإنما تنعم مطلقة ؛ لعزمه على الموت في سبيل الله . ولا أزعج : قال أبو ذر : « هو مجزوم على الدعاء ، دعا على نفسه أن يستشهد ولا يرجع إلى أهله » .

(٤) الثَّوَاءِ . الإقامة في المكان ، وفعله : ثوى يثوى (من باب ضرب) .

(٥) البعل : الذي يشرب بعروقه من الأرض . ورواء (بكسر الهمزة) : صفة النخل .

قائد ، تمنى الشهادة فناها ، ودق أبواب الجنة فهللت لمقدمه ورحبت باجتيازه عتباتها ولعل أبياته الهمزية هذه هي أرق شعر وأعمقه وأنبله وأفصحه قيل في هذه الغاية السامية .

الشعر في فتح مكة :

أسلفنا القول في مستهل هذا الفصل أن بدايات النصر كانت مقرونة بهجرة رسول الله ﷺ ووصوله سالما إلى المدينة المنورة ، وأن ذروة النصر قد تمت بفتح مكة ودخوله ﷺ إليها مظفرا ، ترفرف رايات الإسلام من حوله ، وتتألق بنوده في سمائها ، ومن حوله ﷺ الألوية المظفرة ، يتقدم كل لواء أميره وقائده ، ومن ثم فليس من المبالغة أن يوصف هذا الحدث الكبير بأنه أفرح الإسلام ، وانتصارات الإيمان ، وتثبيت أعلام عقيدة الله على أركان بيته بعد تحريره من الشرك وتطهيره من الأصنام .

هنا جادت قرائح الشعراء الصحابة بما لم تجد بمثيل له من قبل ، بلاغة قول ، وفصاحة شعر ، وجزالة صوغ ، ونصاعة بيان ، وحرارة وجدان .

إن بجير بن زهير بن أبى سلمى ، وقد مضى خبر سبقه إلى الإسلام وإيمانه بالرسالة وتوجيه أخيه كعب إلى الهدى ومدح رسول الله بواحدة من أشهر ما مدح به الرسول من قصيد ، يهتز طربا بنصر الإسلام وفتح مكة وعودة الرسول إليها مظفرا ، فتجود قريحته بهذه الأبيات الجزلة البناء :

نَفَى أَهْلَ الْحَبْلَقِ كُلُّ فَجٍّ مُزَيْنَةُ غُدُوَّةٍ وَبَنُو خِفَافٍ (١)
ضَرَبْنَاهُمْ بِمَكَّةَ يَوْمَ فَتَحِ النَّبِيِّ الْخَيْرِ بِالْيَيْضِ الْخِفَافِ
صَبَحْنَاهُمْ بِسَبْعٍ مِنْ سُلَيْمٍ وَأَلْفٍ مِنْ بَنِي عَثْمَانَ وَافٍ (٢)

(١) الحبْلَقُ : أرض يسكنها قبائل من مزينة وقيس . والحبْلَقُ : الغنم الصغار ، ولعل الشاعر أراد بقوله : « أهل الحبْلَقِ » يعنى أصحاب الغنم . وبنو خفاف : بطن من سليم .
(٢) بسبع : أى بسبعائة . وبنو عثمان : هم مزينة .

نَظَا أَكْتَفَاهُمْ ضَرْبًا وَطَعْنَا (١) ورشقا بالمریثة اللطاف (٢)
 تَرَى بَيْنَ الصُّفُوفِ لَهَا حَفِيفًا كما انصاع الفواق من الرصاف (٣)
 فَرَحْنَا وَالْجِيَادُ تَجُولُ فِيهِمْ بأرماع مَقْوَمَةِ الثَّقَاف
 فَأَبْنَا غَانِمِينَ بِمَا اشْتَهَيْنَا وَأَبَوَا نَادِمِينَ عَلَى الْخِلَاف
 وَأَعْطَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَّْا مَوَاتِنَنَا عَلَى حُسْنِ التَّصَافِي
 وَقَدْ سَمِعُوا مَقَالَاتِنَا فَهَمُّوا غَدَاةَ الرَّوْعِ مِنَّْا بِانْصِرَافِ (٤)

ولا يتخلف عن موكب الشعر في فتح مكة الفارس الصحابي الشاعر عباس بن مرداس ، وهو ابن الصحابية الشاعرة الفذة الحنساء . لقد أسهم العباس بن مرداس بشعره وسيفه في كثير من الغزوات قبل الفتح وبعده ، ومن الطبيعي أن يتشكل شعر العباس بأجواء الفتح ، وأن يختلط سدى شعره ولحمته بصهيل الخيل وغبار سنايكها واشتباك القنا وبريق السيوف . يقول عباس بن مرداس في فتح مكة (٥):

مِنَّا بِمَكَّةَ يَوْمَ فَتَحَ مُحَمَّدٌ أَلْفٌ تَسِيلُ بِهِ الْبَطَاحُ مُسَوِّمٌ (٦)
 نَصَرُوا الرَّسُولَ وَشَاهَدُوا أَيَّامَهُ وَشَعَارُهُمْ يَوْمَ اللَّقَاءِ مُقَدَّمٌ (٧)
 فِي مَنَزِلٍ ثَبَّتَ بِهِ أَقْدَامُهُمْ ضَنْكَ كَأَنَّ الْهَامَ فِيهِ الْخُنْتَمُ (٨)
 جَرَّتْ سَنَابِكُهَا بِنَجْدٍ قَبْلَهَا حَتَّى اسْتَقَادَ لَهَا الْحِجَارُ الْأَدْهَمُ

(١) كذا في م ، ر . وفي أ : « أكتافهم » بالنون . والأكتاف : الجوانب .
 (٢) نظا : أراد نظاً ، فخفض الهمزة . والرشق : الرمي السريع ، والمریثة : يعنى السهام ذوات الريش .
 (٣) الحفيف : الصوت . وانصاع : انشق . والفواق هنا : الفوق ، وهو طرف السهم الذى يلى الوتر . والرصاف : جمع رصفة ، وهى عصبة تلوى على فوق السهم .
 (٤) السيرة لابن هشام ٢ / ٤٢٥ ، ٤٢٦ .
 (٥) السيرة ٢ / ٤٢٦ .
 (٦) البطاح : جمع بطحاء ، وهى الأرض السهلة المتسعة . ومسوم : أى مرسل ، أو هو المعلم بعلامة .
 (٧) شعارهم : علامتهم في الحرب .
 (٨) ضنك : ضيق . والهام : الرموس : والخنتم . الخنظل .

اللَّهُ مَكْنَنُهُ لَهُ وَأَذَلُّهُ حُكْمُ السُّيُوفِ لَنَا وَجَدَّ مِرْزَحَمُ (١)
عَوْدُ الرِّيَاسَةِ شَامِخٌ عِزِّيْنُهُ مُتَطَلِّعٌ تُغَرِّ المَكَارِمِ خِضْرُمُ (٢)

وفى مقام الاعتذار والاستسلام يقف أنس بن زُئيم الدَّيْلِي بين يدي رسول الله يعتذر
عما كان قاله فيهم عمرو بن سالم الخزاعى ، وهى الأرجوزة الدالية القافية التى أنشدها
عمرو بن سالم بين يدي رسول الله فكانت سببا من أسباب المسارعة إلى فتح مكة ،
ومطلعها :

ياربِّ إني ناشدُ محمدا حلف أبينا وأبيه الأثَلَدَا

وفيهما يذكر نقض قريش وأحلافهم عهدهم لرسول الله ويقول :

هم يَبْتُونَا بالوتير هُجْدَا وقتلونا رُكْعَا وَسُجْدَا

إن قصيدة أنس بن زُئيم من أرق ما قيل فى الاعتذار لرسول الله ﷺ ومن أجمل ما قيل
فى مدحه ﷺ قال أنس : (٣)

أأنت الذى تُهْدَى مَعْدُ بِأمرِهِ بَلِ اللهُ يَهْدِيهِمْ وَقَالَ لَكَ أَشْهَدِ
وما حَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا أَبْرَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدِ
أَحَتْ عَلَى خَيْرٍ وَأَسْبَغَ نَائِلًا إِذَا رَاحَ كَالسَيْفِ الصَّقِيلِ الْمُهَنْدِ
وَأُكْسَى لِبُرْدِ الْحَالِ قَبْلَ ابْتِدَالِهِ وَأُعْطَى لِرَأْسِ السَّابِقِ الْمُتَجَرَّدِ (٤)
تَعْلَمُ رَسُولَ الله أَنَّكَ مُذْرَكِي وَأَنَّ وَعِيدًا مِنْكَ كَالْأَخَذِ بِالْيَدِ (٥)

(١) مزحَم : كثير المزاحمة ، يريد أن جدَّهم غالب .

(٢) العود (هنا) : الرجل المسن ، العرنيين : طرف الأنف . الخضرم : هو الجواد الكثير العطاء .

(٣) السيرة ٢ / ٤٢٤ .

(٤) الحال : ضرب من برد اليمن ، وهو من رفيع الثياب . والسابق (هنا) : الفرس . والمتجرد : الذى يتجرد من الخيل
فيسبقها .

(٥) تعلَّم : أعلم . والوعيد : التهديد .

تَعَلَّم رَسُولُ اللَّهِ أَنَّكَ قَادِرٌ
تَعَلَّم بَأْنَ الرَّكَبِ رَكْبُ عَوْنِمِ
عَلَى كُلِّ صِرْمٍ مُتَّهِمِينَ وَمُنْجِدٍ (١)
هُمُ الْكَاذِبُونَ الْمُخْلَفُونَ كُلُّ مُوَعِدٍ
وَنَبَّأَ رَسُولُ اللَّهِ أَنِّي هَجَوْتُهُ
فَلَا حَمَلَتْ سَوَطِي إِلَى إِذْنِ يَدِي

إلى أن يقول :

فَإِنِّي لَا دِينَآ فَتَقْتُ وَلَا دِمَا
هَرَقْتُ تَبَيَّنَ - عَالِمُ الْحَقِّ - فَاقْصِدِ

إن الصحابي بديل بن عبد مناف بن أم أصرم لا يكاد يسمع شعر أنس بن زعيم حتى يسارع إلى الرد عليه فيما يشبه النقائص ، ولكن في غير إسفاف ، فقد كان القوم جميعا مستظلين بوقار الفتح مذعنين لقداسة هذا اليوم العظيم . قال بديل مجيباً :

بَكَى أَنَسُ رَزْنًا فَأَعْوَلَهُ الْبُكَاءُ
بَكَيْتَ أَبَا عَنِيسٍ لِقُرْبِ دِمَائِهَا
فَالَا عَدِيًّا إِذْ تُطْلُ وَتُبْعَدُ (٢)
فَتُعْذِرُ إِذْ لَا يُوقِدُ الْحَرْبَ مُوقِدُ
أَصَابَهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَامِ فِتْيَةٌ
كِرَامٌ فَسَلْ ، مِنْهُمْ نُفَيْلٌ وَمَعْبُدُ (٣)
هَنَالِكَ إِنْ تُسْفَحُ (٤) دَمُوعُكَ لَا تُلْمُ عَلَيْهِمْ وَإِنْ لَمْ تَدْمَعْ الْعَيْنُ فَامْكُدُوا (٥)

وفي مجال فتح مكة وهزيمة المشركين وشعرائهم ، هنا يتطلع المرء إلى ما يمكن أن يصنعه شاعر الشرك والمشركين عبد الله بن الزُّبَيْرِ ، لقد عمد إلى الفرار مثلما صنع غيره من عتاة المشركين ، فشدَّ الرحال إلى نجران وقد ظن أنه بمنجاة من سوء المصير ومن سيف القصاص العادل .

(١) صرم : بيوت مجتمعة . ومتَّهِمِينَ : ساكنين في التهام ، وهي المنخفض من الأرض . والمنجد : من يسكن النجد ، وهو المرتفع .

(٢) العويل : رفع الصوت بالبكاء . وتطل : يبطل دمها ولا يؤخذ بثأرها .

(٣) يوم الخندام : أراد يوم الخندمة ، فجمعها مع ماحولها ، وهي جبل بمكة .

(٤) تسفح : تسيل .

(٥) في أ : فأكمِدْ (بكسر الدال) على أنه أمر للواحد ، وبهذه الرواية يكون في البيت إقواء .

لقد كان ابن الزبيرى شديد العداوة لرسول الله وللمسلمين ؛ يحاربهم بالسيف ويهجوهم باللسان ، ويؤلب عليهم القبائل ، ويأتمر بأمر عتاة كفار قريش ، لقد وهم ابن الزبيرى حين ظن أن نجران صارت له دار أمن وسلام ، ولكن سيف حسان بن ثابت المتمثل فى عبقريته طارده هناك ، وأرسل إلى نجران أبياتا قال فيها :

لَا تَعْدَمَنْ رَجُلًا أَحَلَّكَ بُغْضُهُ

نجران فى عيشٍ أَحَدٌ لَتَيْمٍ

بَلَيْتٌ قَنَاتُكَ فى الحُرُوبِ فَأُلْفِيَتْ

خَوَارَةٌ خَوْفَاءَ ذَاتِ وُصُومٍ

غَضَبُ الإِلَهِ عَلَى الزَّبْرِىِّ وَإِنِّهِ

وَعَذَابُ سُوءٍ فى الحَيَاةِ مُقِيمٍ

فلما وصل شعر حسان إلى مسامع ابن الزبيرى لم يجد خيرا من أن يتوجه إلى رسول الله وهو جالس فى أصحابه ، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال : « هذا ابن الزبيرى ومعه وجه فيه نور الإسلام » فلما وقف على رسول الله ﷺ قال : السلام عليك يا رسول الله ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله ، الحمد لله الذى هدانى للإسلام ، لقد عاديتك ، وأجلبت عليك وركبت الفرس والبعير ، ومشيت على قدمي فى عداوتك ، ثم هربت منك إلى نجران وأنا لا أريد أن أقر بالإسلام أبدا ، ثم أرادنى الله منه بخير ، وألقاه فى قلبى ، وحببه إلى ، وذكرت ما كنت فيه من الضلالة واتباع ما لا ينبغى من حجر يُذبح له ويُعبَد ، لا يدرى من عبده ، ولا من لا يعبده .

هنا تبدو ملامح النبوة وأخلاقيها على وجه رسول الله ، فلا تصدر منه كلمة لوم أو إشارة تفرع ، وإنما يقول فى سباحة ووقار : « الحمد لله الذى هداك للإسلام ، إن الإسلام يجب ما كان قبله » .

هنا يقف ابن الزبيرى بين يدى الرسول منشدا معتذرا قائلا :

يا رسولَ الملِكِ إنَّ لسانى رَأَيْتُ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بِـوُورُ
إِذْ أَبَارَى الشَّيْطَانَ فِي سُنَنِ الْغَيِّ وَمِنْ مَالِ مَيْلَهُ مَثْنُـبُورُ
أَمَنْ اللَّحْمُ وَالْعِظَامُ لِرَبِّى ثُمَّ قَلْبَى الشَّهِيدُ أَنْتَ النَّذِيرُ
إِنْنِى عَنْكَ زَاجِرٌ ثُمَّ حَيًّا مِنْ لُؤْيٍ وَكُلْهِمْ مَغْرُورُ (١)

ويدخل عبد الله بن الزبيرى من باب الإيمان الواسع والساحة الأوسع ، ويتنظم
قافلة المؤمنين .

ومن أخلاق النبوة التى كانت جبلة رسول الله وسماحته وهو فى أوج الانتصار ما
حدث مع فضالة بن عمير بن الملوح الليثى الذى أراد قتل رسول الله ﷺ وهو يطوف
بالكعبة ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : أفضالة ؟ ! قال : نعم : قال : « ماذا كنت
تحدث به نفسك ؟ » قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال :
« استغفر الله » ثم وضع يده الشريفة على صدره فسكن . وكان فضالة يقول : والله ما
رفع يده عن صدرى حتى ما خلق شيء أحب إلىّ منه ، ورجع فضالة إلى أهله ، قال :
فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث ، فقلت : لا .
وانبعث فضالة يقول :

قالتْ هَلَمْ إِلَى الْحَدِيثِ فَقُلْتُ لَا
يَأْبَى عَلَى اللَّهِ وَالْإِسْلَامُ
لَوْ مَا رَأَيْتَ مُحَمَّدًا وَقَبِيلَهُ
بِالْفَتْحِ يَوْمَ تُكْسَرُ الْأَصْنَامُ
لَرَأَيْتَ دِينَ اللَّهِ أَضْحَى بَيْنَنَا
وَالشَّرْكَ يَغْشَى وَجْهَهُ الْإِظْلَامُ (٢)

(١) سبل الهدى والرشاد ٥ / ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

(٢) المصدر السابق ٥ / ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

وتتجلى سماحة رسول الله في ذلك اليوم ، يوم الفتح الذى يوحى إلى النفس أنه كان يوما جهوما ؛ وأن رسول الله كان في ذلك اليوم مقطب الوجه عبوسا ، ولكن الواقع كان على العكس من ذلك . فقد مرت كتيبة رسول « الخضر » وكان أعطى رايته سعد بن عبادة الذى كان يتقدم الكتيبة ، فلما مرّ سعد براية رسول الله ، وكان أبو سفيان يرقب سير المواكب ، نادى أبا سفيان فقال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا .

فلما مرّ رسول الله ﷺ بأبى سفيان ، قال : يا رسول الله ، أمرت بقتل قومك ؟ ! ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة ؟ قال : « ما قال ؟ » قال أبو سفيان : قال كذا وكذا ، وإنى أنشدك الله فى قومك ، فأنت أبرّ الناس ، وأرحم الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « كذب سعد يا أبا سفيان ، اليوم يوم الرحمة ، اليوم يوم يعظم الله فيه الكعبة ، اليوم يوم تكسى فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا » .

فى مضمار هذه الأحداث ينشئ ضرار بن الخطاب الفهرى - وكان من شعراء المشركين - شعرا يستعطف به رسول الله على أهل مكة وقد سمع قول سعد ، ولكى يكون وقع الشعر أبلغ فى انعطاف رسول الله ﷺ على قريش فقد أرسل به امرأة أنشدته على مسامع الرسول معترضة إياه فى موكبه .

قالت المرأة منشدة شعر ضرار :

يا نبيّ الهدى إليك لَجَا	حى قريش ولات جين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأثر	ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القو	م ونودوا بالصّيلم الصلماء
إن سَعْدًا يُريدُ قاصِمةَ الظّه	ر بأهل الحَجُون والبَطَحَاء
خَزْرَجِيّ لَوْ يَسْتَطِيعُ مِنَ الغي	ظ رمانا بالنسر والعواء (١)

(١) وفى رواية : « خزرجى لا يستطيع من البغض رمانا بالنسر والعواء »

وَعِزُّ الصَّدْرِ لَا يَهُمُّ بِشَيْءٍ غَيْرَ سَفْكِ الدِّمَا وَسَبْيِ النِّسَاءِ
قَدْ تَلَطَّى عَلَى الْبَطَاحِ وَجَاءَتْ عَنْهُ هِنْدٌ بِالسَّوَةِ السَّوَاءِ
إِذْ يُنَادِي بِذُلٍّ حَتَّى قُرَيْشٍ (١) وَابْنُ حَرْبٍ يَدَا مِنَ الشُّهْدَاءِ
فَلَيْتَ أَفْحَبَمَ اللِّوَاءَ وَنَادَى يَا حِمَاةَ الْأَدْبَارِ أَهْلَ اللِّوَاءِ
ثُمَّ نَابَتْ إِلَيْهِ مِنْ بُوْهِمِ الْخَزْ رَجٌ وَالْأَوْسُ أَنْجُمُ الْمُهِنْجَاءِ
لَتَكُونَنَّ بِالْبَطَاحِ قُرَيْشٌ فِقْعَةُ الْقَاعِ فِي أَكْفِ الْإِمَاءِ
فَأَنْهَيْتَهُ فَإِنَّهُ أَسَدُ الْأَسَدِ دَلَدَى الْغَابِ وَالْغِ فِي الدِّمَاءِ (٢)
إِنَّهُ مُطَرِّقٌ يُرِيدُ لَنَا الْأَمَ رَسَكُوتًا كَالْحَيَّةِ الصَّمَاءِ

فلما سمع رسول الله ﷺ هذا الشعر أرسل إلى سعد فزع اللواء من يده وجعله إلى ابنه قيس بن سعد ، ورأى رسول الله ﷺ أن اللواء لم يخرج من يد سعد حتى صار إلى ابنه (٣).

ولعل « همزية » حسان الشهيرة كانت العروس العصماء بين القصائد الحسان التي جادت بها قرائح شعراء الرسول في فتح مكة . لقد أطلق حسان لنفسه العنان ، وترك شاعريته على سجيتها فحنت لماضيها في افتتاح القصائد بالوقوف على الأطلال ، واستهلاكها بالنسيب وذكر طيف الحبيب ، والتفنن في وصف الخمر ، وهو نمط من القول كان يألفه الشاعر في الجاهلية ، ولكن لا بأس في ذلك مادام الأمر لم يتجاوز حدود التخيل وإطار التمثيل .

إن حسان بن ثابت ينشئ أبياتا يستغرق فيها نهاذج الماضي عدتها تسعة على هذا النحو (٤):

(١) وفي رواية : إذ ينادى يا ذل حى قريش .

(٢) وفي رواية :

فأنهينه فإنه الأسد الأسد ———— ورد واليث والغ في الدماء

(٣) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٣٣٦ .

(٤) ديوان حسان ص : ١١ وما بعدها ، والسيرة ٢/ ٤٢٢ وما بعدها .

عفت ذات الأصابع فالجواء
ديار من بنى الحسحاس قفر
وكانت لا يزال بها أنيس
فدغ هذا ، ولكن من لطيف
لشعنا التي قد تيمنته
كأن خبيثة من بيت رأس
إذا ما الأشربات دكرن يوما
نوليها الملامة إن ألـمنا
ونشرها فتركتنا ملوكا

إلى عذراء منزلها خلاء
تُعفيها الروامس والسماء (١)
خلال مروجها ناعم وشاء (٢)
يؤرقني إذا ذهب العشاء (٣)
فليس لقلبي منها شفاء (٤)
يكون مزاجها عسل وماء (٥)
فهن لطيب الراح الفداء (٦)
إذا ما كان مغث أو لحاء (٧)
وأسدا ما يتهنئنا اللقاء (٨)

بعد ذلك يخطو حسان إلى صلب الغرض من قصيدته فيصور أجواء الفتح وحركة
الفرسان ونشاط الخيل مهينا جوا إسلاميا في نطاق من العون الرباني بذكر جبريل -

-
- (١) بنو الحسحاس : حى من بنى أسد . وأصل الحسحاس : الرجل الجواد ، ولعله مراد هنا . والروامس : الرياح
التي ترمس الآثار ، أى : تغطيها ، والسماء : المطر . (عن السهيلي) .
- (٢) النعم : المال الراعى ، وهو جمع لا واحد له من لفظه ، وأكثر مايقع على الإبل ، والشاة من الغنم ، يقع على الذكر
والأنثى ، والجمع شاء وشباه .
- (٣) الطيف : خيال المحبوبة يلم فى النوم . ويؤرقنى : يسهرنى . يريد أن الطيف إذا زال عنه وجد له لوعة تؤرقه .
- (٤) شعنا : اسم امرأة ، قيل هى بنت سلام بن مشكم اليهودى ، كما فى السهيلي ، وقيل : هى امرأة من خزاعة ، كما فى
نوادير ابن الأعرابي ، وقيل غير ذلك .
- (٥) الخبيثة : الخمر المخبوءة المصونة المضمون بها . وبيت رأس : موضع بالأردن مشهور بالخمر الجيدة . وبعد هذا
البيت فى الديوان المطبوع بأوربا :
- على أنيابها أو طعم غص من التفاح هصره اجتناء
وعلق عليه السهيلي فقال : البيت موضوع ، لايشبه شعر حسان ولا لفظه .
- (٦) الأشربات : جمع الأشربة : جمع شراب . يريد أن الأشربة غير راح بيت رأس لاتدانيها فى اللذة .
- (٧) نوليها الملامة : نصرف اللوم إليها . إن ألـمنا : إن فعلنا مانستحق عليه اللوم . يقال : ألـم الرجل فهو ملـم . والمغث
: الضرب باليد ، واللحاء : السباب .
- (٨) يتهنئنا : يزجرنا ويردنا .

عليه السلام - ورسالة محمد ﷺ وهو لا ينسى في هذا السياق أن يفخر بقومه الأنصار ،
ويقول :

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا	تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ ^(١)
يُنَازِعُنَ الْأَعْنَةَ مُصْغِيَات	عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسْلُ الْظَّمَاءُ ^(٢)
تَظَلُّ جَيَادَنَا مُمِطَّطَرَات	يُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النَّسَاءُ ^(٣)
فَإِمَّا تُعْرِضُونَا عَنَّا اعْتَمَرْنَا	وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغَطَاءُ ^(٤)
وَالَا فَاصِرُوا لِجِلَادِ يَوْمٍ	يُعِينُ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ ^(٥)
وَجَبْرِيْلُ رَسُولُ اللَّهِ فِيْنَا	وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ ^(٦)
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا	يَقُولُ الْحَقَّ إِنْ نَفَعَ الْبَلَاءُ ^(٧)
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا ^(٨) صَدَّقُوهُ	فَقَلْتُمْ لَا نَقُومُ وَلَا نَشَاءُ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ سَيَّرْتُ جُنْدًا	هُمُ الْأَنْصَارُ عُرَضَتْهَا اللَّقَاءُ ^(٩)
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ	سَيَابِ أَوْ قِتَالٍ أَوْ هَجَاءٍ

- (١) النقع : الغبار . وكداء (بوزن سحاب) : ثنية بأعلى مكة .
(٢) الأعنة : جمع عنان ، وهو اللجام . والمصغيات : الموائل المنحرفات للظعن . والأسل : الرماح . والظماء : العطاش . ويروى : (يبارين الأسنة) بدل : (ينازعن الأعنة) . و (مصعدات) بدل مصغيات .
(٣) المتمطرات : قيل معناه المصوبات بالمطر . ويقال : المتمطرات : التي يسبق بعضها بعضا . ويلطمهن : تضرب النساء وجوههن لتردهن . والخمر : جمع خمر ، وهو ما تغطي به المرأة رأسها ووجهها ، أى أن النساء كن يضربن وجوه الخيل بخمرهن يوم الفتح . قال السهيلي : وقال ابن دريد في الجمهرة : كان الخليل رحمه الله يروى بيت حسان : (يطمهن بالخمر) وينكر : (يطمهن) ويجعله بمعنى ينفض النساء بخمرهن ما عليهن من غبار أو نحو ذلك .
(٤) اعتمرنا : أدينا مناسك العمرة ، وهى زيارة بيت الله الحرام .
(٥) الجياد : القتال بالسيوف . ويروى : (يعز الله) بدل (يعين الله) .
(٦) كفاء : مثل .
(٧) البلاء : الاختبار .
(٨) رواية الديوان : (وقومى) .
(٩) عرضتها اللقاء : عاداتها أن تتعرض للقاء ، فهى قوية عليه .

فَنُحَكِّمُ بِالْقَوَافِي مِنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدَّمَاءُ (١)

ولما كان أبو سفيان - واسمه المغيرة - بن الحارث بن عبد المطلب - وهو ابن عم النبي - قد هجا رسول الله وعارض الرسالة ، فإن حسانا يتصدى له ويهجو دون أن ينصرف هجاؤه إلى آل البيت ، فقد كان رسول الله يشفق من أن ينال هجاء حسان أحدا من بيت عبد المطلب ، ولكن حسانا كان يجيبه قائلا : والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين ، وقد فعل حسان ذلك في حرص بالغ وذلك في قوله :

أَلَا أَبْلُغُ أَبَا سُفْيَانَ (٢) عَنِّي	مُغْلَغَلَةً (٣) فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ
بَأَنْ سُيُوفُنَا تَرَكَّتْكَ عَبْدًا	وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتْهَا الْإِمَاءُ (٤)
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا وَأَجَبْتُ عَنْهُ	وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكَفٍ	فَشَرُّكُمْ لِحَيْرِكُمْ الْفِدَاءُ
هَجَوْتَ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا	أَمِينَ اللَّهِ شِمْتُهُ الْوَفَاءُ (٥)
أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ	وَيَمْدَحْهُ وَيَنْصُرْهُ سَوَاءُ ؟
فَإِنْ أَبِي وَوَالِدُهُ وَعِرْضِي	لِعَرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ
لِسَانِي صَارِمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ	وَبَحْرِي لَا تُكْذِرُهُ الدَّلَاءُ

قال ابن هشام : قالها حسان يوم الفتح . ويروى : « لسانى صارم لا عتب فيه »

(١) نحكمه : نمناه ونكفه ، ومنه سمي القاضي حاكما ؛ لأنه يمنع الناس من الظلم .

(٢) أبو سفيان : هو المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي ، وكان هجا النبي قبل أن يسلم .

(٣) مغلغلة : رسالة ترسل من بلد إلى بلد . ورواية هذا البيت في الديوان :

أَلَا أَبْلُغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي فَأَنْتَ مَجْجُوفٌ نَخْبُ هَوَاءُ

« المجوف : الخالي الجوف ، يريد به الجبان ، وكذلك النخب والهواء .

بد أن سيوف الأنصار جعلت أبا سفيان كالعبد الدليل يوم فتح مكة ، وأن سادة بني عبد الدار صاروا كالإمهاء في مكة والهوان .

(٥) شيمته : ما يفتخر به ، وشيمته : يعني طبيعته .

وبلغني عن الزهري أنه قال : لما رأى رسول الله ﷺ النساء يَلْطَمْنَ الخيلَ بالخُمُرِ تبسم إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

الحق أن فتح مكة مثلما كان عيداً للإيمان كان عيداً للشعر أيضاً ؛ تنفس فيه الشعراء المسلمون الصعداء فتأنقوا في القول ، وتألقوا في الفخر ، ولا ضير عليهم في ذلك ؛ لأن سلاح الشعر لم يكن أقل شأنًا من وقع السيف ورشق الرماح .



الفصل التاسع

مراثى شعراء الرسول
شهداء الغزوات

مراثى شعراء الرسول شهداء الغزوات

شهداء أحد :

كانت تجربة المسلمين في أحد شديدة المرارة حادة المذاق ، ذلك لأنهم قبل عام واحد كان النصر حليفهم على أعداء الله وأعدائهم في بدر ، أما في أحد فقد اختلف الحال ؛ لأنهم لم يلتزموا تخطيط رسول الله ﷺ في المعركة حين أمر رسول الله فيلق الرماة ألا يغادروا مكانهم مهما كانت الأسباب ، ولكنهم حين حمى وطيس المعركة وظهر لهم أن الغلبة للمسلمين تركوا أمكنتهم ليغنموا ما خلفه قتلى المشركين في ميدان القتال ، مما جعل كفة المعركة تتحول لصالح كفار قريش .

ولكن الهزيمة التي لحقت بجيش المسلمين في أحد لا ينبغي أن تحجب مواقف وأحداثا لم تتكرر في غير غزوات رسول الله ﷺ فقد كان أشد المقاتلين المسلمين قوة واستبسالا أبا دجانة سهاك بن خرشة ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبي طالب .

أما أبو دجانة فقد حارب بسيف رسول الله ﷺ في خبر أورده كل كتب السيرة ، فعن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال : « من يأخذ منى السيف بحقه ؟ » فقام أبو دجانة وقال : وما حقه ؟ قال : « أن تضرب به في العدو حتى ينحني » قال : فأنا آخذه يا رسول الله ، فأعطاه إياه ، وكان رجلاً شجاعاً يُحْتال عند الحرب : وكان إذا قاتل أعلم بعصاة له حمراء فاعتصب بها ، ثم جعل يتبختر بين الصفين ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه يتبختر : « إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن » .

وفي رواية أن أبا دجانة لما قال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « ألا تقتل به مسلماً

ولا تفرّ به عن كافر»^(١) فقاتل به أبو دجانة حتى أمعن في الناس ، يعنى أمعن في قتل المشركين . وحين اقترب المشركون من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ترّس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله ، يقع النبل في ظهره وهو منحرف على رسول الله حتى كثرت فيه النبل ، وكذلك فعل مصعب بن عمير إذ ظل يقاتل دون رسول الله ﷺ حتى قتل ، قتله ابن قميثة الليثي ، وهو يظنه رسول الله ﷺ فرجع إلى قريش فقال : قتلت محمدا .

وأما حمزة عم رسول الله ﷺ فإن بلاءه في ساحة القتال واستبساله في لقاء المشركين واجتياحه رقاب الفرسان لما حدا بأعدائه وبخاصة هند بنت عتبة ، زوج أبي سفيان ابن حرب أن تتأمر على اغتياله في ساحة المعركة باستئجار العبد الحبشي المسمى «وحشى» الذي ندم على فعلته بعد إسلامه في فتح مكة ، ووطن نفسه على تكفير ذنبه في قتل حمزة ، فتقدم في حرب الردة وقتل مسيلمة الكذاب .

كان حمزة - فيما يروى سعد بن أبي وقاص - يقاتل يوم أحد بين يدي رسول الله ﷺ بسيفين ويقول : أنا أسد الله .

ومن بطولات الصحابة يوم أحد - رواية عن أنس - أنه لما انهزم الناس عن رسول الله وقف أبو طلحة يترس على رسول الله بحجفة معه ، وكان رجلا راميا ، شديد التمكن في استعمال قوسه وسهامه ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة ، وكان الرجل يمر بالجبعة فيها النبل فيشرها لأبى طلحة ، وحين كان يشرف رسول الله فينظر إلى الصناديد يتحاربون كان أبو طلحة يقول له : يا نبي الله بأبى أنت وأمى ، لا تشرف ، يصيبك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرك .

إن يوم أحد كان - برغم الهزيمة - يوما مشهودا لبطولات صحابة رسول الله من فاز بالحياة منهم أو من فاز بالشهادة ، وهى بطولات فريدة وخارقة ، وحتى نساء المسلمين كن صاحبات مواقف شجاعة في معمة القتال ، يقول أنس : لقد رأيت عائشة بنت أبى بكر (أم المؤمنين) وأم سُلَيْم بنت مِلْحَانَ - وهى أمه ، أى : أم أنس - وهما

(١) مغازى الذهبى ١٣٧ .

مشمرتان أرى خدام سوقهما - أى : الخلاخيل - تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه في أفواه القوم^(١).

إن مواقف البطولة والإيثار في غزوة أحد لما يعتز به وجه الإسلام ، منها موقف عبد الله بن جحش ، وموقف سعد بن الربيع وهو يجود بنفسه ، وأنس بن النضر عم أنس ابن مالك ، وعمر بن الجموح ، ووالد أبي سعيد الخدري .

لقد جاد عدد من كبار الصحابة من مهاجرين وأنصار بأرواحهم في أشد المعارك التي خاضها المسلمون شراسة ، وكانوا جميعا من الصفوة ، فحزن الناس على شهدائهم ويكوههم ، وحزن رسول الله ﷺ على صحابته الشهداء وقال : « زملوهم بدمائهم ، فإنه ليس أحد يُكَلِّمُ في الله إلا وهو يأتي يوم القيامة وجرحه يدمى ، لونه لون الدم وريحه ريح المسك » .

وكان حزن رسول الله ﷺ أشد ما يكون على حمزة ؛ فهو عمه ، وتربى في العمر ، وأخوه في الرضاع ، وكان رسول الله ﷺ وحمزة وأبو سلمة بن عبد الأسد ، إخوة من الرضاعة ، أَرْضَعْتَهُمْ مَوْلَاً لَأَبِي هُبَّاسٍ ثَوِيَّةً ، فلما وقف الرسول ﷺ على حمزة قال : « لن أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفت موقفا قط أغيظ إلى من هذا » . ثم قال : « جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع : حمزة بن عبد المطلب أسد الله ، وأسد رسوله »^(٢).

كان حزن الرسول على حمزة هو حزن محمد الإنسان على عمه وأخيه من الرضاعة وصاحبه والمدافع عنه في أحلك الأوقات أيام كان المشركون يلحقون به الأذى قبل الهجرة ولذلك فإنه ﷺ وقد مر بدار من دور الأنصار من بنى عبد الأشهل وظفر ، فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم ذرفت عيناه ﷺ فبكى ، ثم قال : « لكن حمزة لا بواكى له » فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير إلى دار بنى عبد الأشهل أمرا نساءهم أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله ، فلما سمع رسول الله بكاءهن على حمزة خرج

(١) المغازي للذهبي ص : ١٤٢ .

(٢) السيرة لابن هشام ٩٦ / ٢ .

عليهن وهنّ على باب مسجده يكيّن عليه ، فقال : « ارجعن يرحمك الله ، فقد آسيتنّ بأنفسكن » (١).

من هنا كان رثاء الشعراء لقتلى المسلمين بصفة عامة ولحمزة - رضى الله عنه - بصفة خاصة تخفيفا لمشاعر الحزن في قلب رسول الله ، واستجابة للخسارة الكبرى التى حلت بالمسلمين بفقد حمزة صاحب المواقف والشجائل ، الفارس المغوار في سبيل الله ، المدافع عن رسول الله ، الذائد عن حمى الرسالة الخاتمة .

على أن من الأمور الجديرة بالذكر قبل أن نعرض المراثى التى قالها شعراء الرسول في شهداء أحد أن نشير إلى أن الانتصار الموقوت الذى ظفر به الجانب المشرك من قريش قد جعل شعراءهم يتفاخرون بهذا النصر وينشئون القصائد التى يشنون من خلالها حملة على المسلمين ، وقد وقر في خواطرهم أن ذلك يفت في عضد المسلمين ويوهن من عزائمهم ، ولكن شعراء الرسول كانوا لهم بالمرصاد ، فلا يكاد شاعر مشرك ينشئ قصيدة وينشرها حتى ينفر له شاعر مسلم يناقضه بقصيدة أخرى تكذب أقواله وتسفه أحلامه وتهدم أوهامه .

لقد كانت معركة نقائص شعريّة لم تخل من خطورة ، وكان القصيد فيها متين السبك بعيد المرامي عند كل فريق ، ولعل معارك النقائص التى شهدتها عصر بنى أمية واشترك فيها جرير والفرزدق والأخطل والراعى وغيرهم كانت شديدة التأثير بنقائص شعراء الرسول وشعراء المشركين من حيث الشكل والإطار أكثر من تأثرها بنقائص الجاهليين .

كان جانب المشركين يمثله من الشعراء عبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب الفهري ، وهبيرة بن أبى وهب المخزومي وعمرو بن العباس ، وكان لواء الدفاع الإسلامى منعقدا على حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، وكانت المبادرة تنبع من جانب شعراء المشركين إلا في حالة أو حالتين ، فلا يلبث شعراء الرسول أن ينشطوا للرد عليهم في كفاءة وحسم (٢).

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ٩٩ .

(٢) وردت ناذج كثيرة من هذه النقائص في السيرة لان هشام ٢ / ١٢٩ وما بعدها .

على أن وصف الحرب في أحد قد استولى على قريجة كعب بن مالك ، فقد كان مقتنعا
بقدره المسلمين على امتلاك ناصية النصر برغم قلة عددهم وكثرة عدد جيش المشركين
وعدهم ؛ لأن ثمت فرقا كبيرا بين عزم المحارب المؤمن وعزم المحارب المشرك ، ومن
الطبيعي أن يعطر الشاعر الصحابي أردان قصيدته بذكر رسول الله ﷺ والإشادة ببعض
مناقبه ، وهذا بعض ما قصد إليه كعب بن مالك في قصيدته (١) :

سائلُ قُرَيْشَا غَدَاةَ السَّفْعِ مِنْ أُحُدٍ	ماذا لَقِينَا وما لاقُوا مِنْ الهَرَبِ (٢)
كُنَّا الْأَسْوَدَ وَكَانُوا النُّمْرَ إِذْ زَحَفُوا	مَا إِنْ تُرَاقِبُ مِنْ آلٍ وَلَا نَسَبِ (٣)
فَكَمْ تَرَكْنَا بِهَا مِنْ سَيِّدٍ بَطْلٍ	حَامِي الذُّمَارِ كَرِيمِ الْجَدِّ وَالْحَسَبِ (٤)
فِينَا الرَّسُولُ شِهَابٌ ثُمَّ يَتَّبِعُهُ	نُورٌ مُضِيءٌ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الشُّهْبِ
الْحَقُّ مَنْطِقُهُ وَالْعَدْلُ سِيرَتُهُ	فَمَنْ يُجِبُهُ إِلَيْهِ يَنْجُ مِنْ تَبِّ (٥)
نَجِدُ الْمُقَدَّمَ ، ماضِي الهَمِّ ، مُعْتَزِمِ	حِينَ الْقُلُوبِ عَلَى رَجْفٍ مِنَ الرُّعْبِ (٦)
يَمْضِي وَيَذْمُرُنَا عَنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ	كَأَنَّهُ الْبَدْرُ لَمْ يُطِيعْ عَلَى الْكَذِبِ (٧)
بَدَا لَنَا فَاتَّبَعْنَاهُ بُصَدِّقَهُ	وَكَذَّبُوهُ فَكُنَّا أَسْعَدَ الْعَرَبِ
جَالُوا وَجُلْنَا فَمَا فَاءُوا وَمَا رَجَعُوا	وَنَحْنُ نَتَّقِفُهُمْ لَمْ نَأَلْ فِي الطَّلَبِ (٨)
لَيْسَا سِوَاءَ وَشَتَّى بَيْنَ أَمْرِهِمَا	حَزْبُ الْإِلَهِ وَأَهْلِ الشُّرْكِ وَالنُّصَبِ (٩)

(١) السيرة ١٦١ / ٢ .

(٢) السفع : جانب الجبل مما يلي أصله .

(٣) النمر : جمع نمر ، وهو معروف .

(٤) حامى الذمار : أى يحمى ما تحجب حمايته .

(٥) التَّب : الخسران .

(٦) الرجف : التحرك . والرعْب : الفزع .

(٧) لم يطيع : لم يخلق .

(٨) جالوا : تحركوا . وفاءوا : رجعوا . وتتقفهم : نتبهم . ولم نأل : لم نقصر .

(٩) النصب : حجارة كانوا يذبحون لها ويعظمونها .

ومن الأحداث الجديرة بالذكر والانتباه أن نصر المشركين على المسلمين لا يصح أن يسمى نصرا ؛ لأن خسائريهم في قاداتهم وحملاتهم كانت من الجسامة بمكان ، ذلك أن لواءهم كان معقودا على بنى عبد الدار ، وقد كان ذلك أيضا في بدر حيث زلزلوا زلزالا ، ولذلك فإن أبا سفيان بن حرب قائد جيش المشركين في أحد كان قليل الثقة في حملة لواء جيشه ، وكان على رغم كثافة جيشه يخشى الهزيمة ؛ لأنه قد استقر في أعماقه أن بنى عبد الدار ليسوا أكفاء لحمل اللواء ، ومن ثم أراد أن يستثير نخوتهم ويحرضهم على القتال قبل التحام الجيشين ، فقال لهم : يا بنى عبد الدار ، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه ، فهموا به وتواعدوه وهددوه ، وقالوا في غضب واستعلاء : نحن نسلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع ؟

ولكن حملة اللواء هؤلاء من بنى عبد الدار كانوا يمثلون نقطة الضعف في جيش المشركين ، فقد قتل المسلمون منهم أحد عشر رجلا كان كل واحد منهم يحمل اللواء بعد مصرع زميله طبقا لرواية ابن هشام ، وإن حسان قد حسبهم تسعة .

كان مصرع حملة اللواء على يد جنود المسلمين وقاداتهم نقطة ضعف واستهزاء لجيش قريش ، حتى إن أكثر من شاعر من شعراء الرسول جعل حملة اللواء مادة للسخرية بالمشركين والنيل منهم والفخر عليهم والاستهزاء بهم ، لقد فعل ذلك حسان وفعله أيضا كعب بن مالك .

فأما أسماء أصحاب اللواء من بنى عبد الدار الذين لقوا مصارعهم في ميدان أحد فمنهم : طلحة بن أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار ، قتله على ابن أبي طالب ، وأبو سعيد بن أبي طلحة ، قتله سعد بن أبي وقاص ، وقيل : بل قتله على بن أبي طالب . وعثمان بن أبي طلحة ، قتله حمزة بن عبد المطلب ، ومسافع بن طلحة والجلاس بن طلحة ، قتلها عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، وكلاب بن طلحة والحارث بن طلحة ، قتلها قزمان حليف بنى ظفر ، وقيل : إن

الذى قتل كلابا هو عبد الرحمن بن عوف ، وأرطاة بن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، قتله حمزة بن عبد المطلب ، وأبوزيد بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار (شقيق مصعب بن عمير) قتله قزمان ، والقاسط بن شريح بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، قتله قزمان ، وصؤاب غلام أبى زيد بن عمير، قتله قزمان ، ويقال : قتله على بن أبى طالب ، وقيل : بل سعد بن أبى وقاص^(١).

هكذا يكون جيش المشركين قد نكب في أحد عشر صناديدا من قواده ، عشرة منهم كانوا حملة اللواء ، الأمر الذى جعل حسان بن ثابت ينال منهم ويحمل عليهم ويهجوهم ويسخر من رجالهم في قصيدة مشهورة مطلعها :

منع النوم بالعشاء المموم

وخيال إذا تغور النجوم

وهى واحدة من أجود قصائده خطط لها تخطيطا منهجيا هندسيا بارعا ، فقد جعل الأبيات الستة الأولى في النسيب على عادة الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، وجعل الأبيات الستة التالية في الفخر بخاله مسلمة بن مخلد بن الصامت والاعتزاز بنفسه وبأبيه ثابت بن المنذر في مواقف نبيلة أشاد بها ، ثم خصص أبياتا خمسة لهجاء ابن الزبيرى شاعر المشركين ، وبقية القصيدة تضم أبياتا نفيسة المحتوى كريمة الصوغ بالغة التأثير في النيل من حملة اللواء الذين لقوا مصرعهم ، ومن قرئش التى كان أكثر جيش أحد يتكون منهم .

يقول حسان يذكر أصحاب اللواء يوم أحد : (٢)

مَنَعَ النَّوْمَ بِالْعِشَاءِ الْمُمُومُ	وخيال إذا تغور النجوم
مِنْ حَبِيبٍ أَضَافَ قَلْبَكَ مِنْهُ	سَقَمَ فَهُوَ دَاخِلٌ مَكْتُومُ (٣)

(١) ابن هشام ٢ / ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) دايون حسان ص : ٢٢٦ ، ٢٢٧ وسيرة ابن هشام ٢ / ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣) أضاف : نزل وزار .

- يا لَقَوْمِي هَلْ يَقْتُلُ الْمَرْءَ مِثْلِي وَاهِنُ الْبَطْشِ وَالْعِظَامِ سَوْومٌ (١)
- لَوْ يَدِبُ الْحَوَلَى مِنْ وَلَدِ الذَّرِّ عَلَيْهَا لَأَنْدَبْتُهَا الْكُلُومُ (٢)
- شَأْنُهَا الْعِطْرُ وَالْفِرَاشُ وَيَعْلُو هَا جُلَيْنَ لَوْلُو مَنْظُومٌ (٣)
- لَمْ تَقْتُهَا شَمْسُ النَّهَارِ بِشَيْءٍ غَيْرَ أَنَّ الشَّبَابَ لَيْسَ يَكْدُومُ
- إِنْ خَالِي خَطِيبُ جَابِيَةِ الْجَوِّ لَانَ عِنْدَ النُّعْمَانِ حِينَ يَقُومُ (٤)
- وَأَنَا الصَّقَرُ عِنْدَ بَابِ ابْنِ سَلْمَى يَوْمَ نُعْمَانٍ فِي الْكُبُولِ سَقِيمِ
- وَأَبِيَّ وَوَاقِدِ أَطْلِقَالِي يَوْمَ رَاحَا وَكَبَلَهُمْ مَخْطُومٌ (٥)
- وَرَهْنَتْ يَدَيَّ عَنْهُمْ جَمِيعَا كُلُّ كَفٍّ جُزْءٌ لَهَا مَقْسُومُ
- وَسَطَتْ نِسْبَتِي الدَّوَابَّ مِنْهُمْ كُلُّ دَارٍ فِيهَا أَبٌ لِي عَظِيمٌ (٦)
- وَأَبِي فِي سُمِيحَةِ الْقَاتِلِ الْفَا صِلْ يَوْمَ التَّقَتِّ عَلَيْهِ الْخُصُومُ (٧)
- تِلْكَ أَفْعَالُنَا ، وَفِعْلُ الزَّبَعْرَى خَامِلٌ فِي صَدِيقِهِ مَذْمُومُ
- رَبِّ حِلْمٍ أَضَاعَهُ عَدَمُ الْمَا لِي وَجْهٌ غَطَّى عَلَيْهِ النَّعِيمُ (٨)
- لَا تُسَبِّحُنِي فَلَسْتُ بِسَبِيٍّ إِنَّ سَبِيَّ مِنَ الرِّجَالِ الْكَرِيمِ (٩)
- مَا أَبَالِي أَنْبَ بِالْحَزَنِ تَيْسُ أَمْ لِحَانِي بظَهْرٍ غَيْبٍ لَيْثِمِ (١٠)

(١) الواهن : الضعيف ، والسئوم : الملول .
 (٢) الحولى : الصغير ، وأندبتها : أثرت فيها ، من الندب ، وهو أثر الجرح . والكُلوم : الجراحات .
 (٣) اللجَيْن : الفضة .
 (٤) خالِي : يريد به مسلمة بن مخلد بن الصامت . والجابية : الحوض الصغير . والجولان : موضع بالشام .
 (٥) مخطوم : مكسور .
 (٦) وسطت : توسطت ، والدواب : الأعالى .
 (٧) سميحة : بئر بالمدينة ، كان عندها احتكام الأوس والخزرج في حروبهم إلى ثابت بن المنذر والد حسان بن ثابت .
 (٨) ويروى . غطا « بتخفيف الطاء » أى : علا وارتفع .
 (٩) السب : هو الذى يقاوم الرجل فى السب ، ويكون شرفه مثل شرفه .
 (١٠) نب : صاح . ولحانى : ذكرنى عائبا .

- وَلِيَ الْبَاسَ مِنْكُمْ إِذْ رَحَلْتُمْ أَسْرَةً مِنْ بَنِي قُصَيٍّ صَمِيمٍ (١)
تِسْعَةً تَحْمِلُ اللَّوَاءَ وَطَارَتْ فِي رِعَاعٍ مِنَ الْقَنَا نَحْزُومٍ (٢)
وَأَقَامُوا حَتَّى أُبَيِّحُوا جَمِيعًا فِي مَقَامٍ وَكُلُّهُمْ مَذْمُومٍ
بَدَمَ عَانِكَ وَكَانَ حِفَازًا أَنْ يُقِيمُوا إِنْ الْكَرِيمُ كَرِيمٍ (٣)
وَأَقَامُوا حَتَّى أُزِيرُوا شَعُوبًا وَالْقَنَا فِي نُحُورِهِمْ مَحْطُومٌ (٤)
وَقَرِيشَ تَفَرَّ مِنَّا لَوَاذًا أَنْ يُقِيمُوا وَخَفَّ مِنْهَا الْحُلُومُ (٥)
لَمْ تُطِقْ حَمَلَهُ الْعَوَاتِقُ مِنْهُمْ إِنَّمَا يَحْمِلُ اللَّوَاءَ النُّجُومُ (٦)

كان حسان شديد الاعتزاز بهذه القصيدة ، فقد كتبها ليلا ، أى : ليلة المعركة ، فدعا قومه فقال لهم : خشيت أن يدركنى أجلى قبل أن أصبح ، فلا ترووها عنى .

على أن حمزة بن عبد المطلب قد استأثر بأكثر المراثى نظرا لمكانته عند رسول الله ولوقعه في صفوف فرسان الصحابة ، وبلائه العظيم في معارك الإسلام ، ولشدة حزن رسول الله ﷺ على موته ، ولأنه قد مثل بجثته ، وأخرجت كبده ، ولاكتها بأسنانها هند بنت عتبة على النحو الذى صورته الأخبار .

كانت مراثى كعب بن مالك وبكائياته في حمزة من أجود مراثى به الصحابى العظيم وعلى نهج الجاهليين من الشعراء يستهل كعب قصيدته بشيء من الشكوى والنسيب ثم يدلف إلى الغرض الذى أنشأ قصيدته من أجله وهو الرثاء ، فيذكر محاسن الفقيد ومناقبه قائلا : (*)

(١) الصميم : الخالص النسب .

(٢) الرعاع : الضعفاء .

(٣) العانك : الأحمر .

(٤) شعوب : اسم للمنية .

(٥) لواذا : مستترين . والحلوم : العقول .

(٦) العواتق : جمع عاتق ، وهو ما بين الكتف والعنق . والنجوم : المشاهير من الناس .

(★) السيرة ٢/ ١٥٧ .

- طَرَقْتُ هُمُومُكَ فَالِرْقَادَ مَسَّهَدُ
وَدَعْتُ فَوَادِكَ لِلْهُوى ضَمْرِيَّةُ
فَدَعَ التَّمَادَى فِي الْغَوَايَةِ سَادِرَا
وَلَقَدْ أَنَى لَكَ أَنْ تَنَاهَى طَائِعَا
وَلَقَدْ هُدِدْتُ لَفَقْدَ حَمْرَةٍ هَدَّةُ
وَلَوْ أَنَّهُ فُجِعَتْ حِرَاءُ بِمِثْلِهِ
قَرَمْتُ تَمَكَّنَ فِي دُؤَابَةِ هَاشِمٍ
وَالْعَاقِرُ الْكُومُ الْجِلَادُ إِذَا غَدَتْ
وَالتَّارِكُ الْقِرْنُ الْكَمِيُّ مُجَدَّلَا
وَتَرَاهُ يَرْفُلُ فِي الْحَدِيدِ كَأَنَّهُ
عَمُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَصَفِيَّهُ
وَأَتَى الْمَنِيَّةَ مُعَلِّمًا فِي أُسْرَةٍ
- وَجَزَعْتَ أَنْ سُلَخَ الشَّبَابُ الْأَغْيَدُ (١)
فَهَوَاكَ غَوْرِيَّ وَصَحْوُكَ مُنْجِدُ (٢)
قَدْ كُنْتُ فِي طَلَبِ الْغَوَايَةِ تُفْنِدُ (٣)
أَوْ تَسْتَفِيقُ إِذَا مَهَاكَ الْمُرْشِدُ (٤)
ظَلَّتْ بَنَاتُ الْجَوْفِ مِنْهَا تَرَعَدُ (٥)
لِرَأْيْتُ رَاسِي صَخْرَهَا يَتَبَدَّدُ (٦)
حَيْثُ النُّبُوَّةُ وَالنَّدَى وَالسُّودُ (٧)
رِيحٌ يَكَادُ الْمَاءُ مِنْهَا يَجْمَدُ (٨)
يَوْمَ الْكَرِيمَةِ وَالْقَنَا يَتَقَصَّدُ (٩)
ذُو لَيْدَةٍ شَتْنُ الْبَرَاثِنِ أَرْبَدُ (١٠)
وَرَدَ الْحِمَامَ فَطَابَ ذَاكَ الْمَوْرِدُ
نَصَرُوا النَّبِيَّ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَشْهَدُ (١١)

- (١) مسهد : قليل النوم . وأراد : فالرقاد رقاد مسهد ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . وسلخ : أزيل (بالبناء للمجهول فيها) . والأغيد : الناعم .
(٢) ضمريّة : نسبة إلى ضمرة ، وهى قبيلة . وغورى : نسبة إلى الغور ، وهو المنخفض من الأرض ، وفى ر : «وصحبك» بدل «وصحوك» .
(٣) تفند : تلام وتكذب .
(٤) أنى : حان .
(٥) بنات الجوف : يعنى قلبه وما اتصل به من كبده وأمعائه ، وسأها بنات الجوف ؛ لأن الجوف يشتمل عليها .
(٦) حراء : جبل ، وأنه هنا حملا على البقعة . والرأسى : الثابت .
(٧) القرم : السيد الشريف . ودؤابة هاشم : أعاليها .
(٨) الكوم : جمع كوما ، وهى العظيمة السنام من الإبل . والجلاد : القوية .
(٩) الكمى : الشجاع . ومجدلا : مطروحا على الجدالة ، وهى الأرض . ويتقصد : ينكسر .
(١٠) ذوليدة : يعنى أسدا . واللبدية : الشعر الذى على كتفى الأسد . وشتن : غليظ . والبرائن للسباع بمنزلة الأصابع للناس . والأربد : الأغبر يخالطه سواد .
(١١) معلما : مشهرا نفسه بعلامة يعرف بها فى الحرب . والأسرة : الرهط .

ولقد إخالُ بذاك هنداً بُشرت
مما صبحنا بالعقنقل قَوْمَهَا
ويبئرُ بذِرٍ إذ يردُّ وجوههم
حتى رأيتُ لدى النبي سَراهم
فأقامَ بالعطن المعطن منهم
وابنُ المغيرة قد صَرَبنا صَرَبَةً
وأُمَيَّةَ الجُمَحِيِّ قَوْمَ مَيْلِهِ
فأتاكَ قُلُ المَشْرِكِينَ كأنهم
شَتَانٌ مَن هو في جَهَنَّمَ ثاويًا
لتميت داخلَ غَصَّةٍ لا تَبْرُدُ (١)
يوما تَغَيَّبَ فيه عنها الأسدُ (٢)
جَبْرِيلُ تحتَ لوائنا ومُحمَّدُ
قَسَمَيْنِ : يَقْتُلُ مَنْ نِشَاءُ وَيَطْرُدُ (٣)
سَبْعُونَ : غُنْبَةٌ مِنْهُمْ وَالْأَسُودُ (٤)
فوقَ الْوَرِيدِ لها رِشاشٌ مُزِيدُ (٥)
عَضْبٌ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ مُهْنَدُ
وَالْحَيْلُ تَتَفَنِّهِمْ نَعَامٌ شُرْدُ (٦)
أَبْدًا وَمَنْ هُوَ فِي الْجَنَانِ مُخَلَّدُ

وبالرغم مما قاله كعب بن مالك من شعر كثير في بكاء حمزة ، فإن ذلك لم يشبع عاطفته الدافقة في حزنها الجارف على مصرع البطل الكبير ، وإنما يستنشد الآخرين من رجال ونساء ويستبكيهم ، لقد فعل ذلك مع صفية بنت عبد المطلب أخت حمزة لأمه وأبيه ، وهذه الصيغة الاستبكاكية لم تخرج عن كونها مراثية حزينة في أسلوب لم ينتهجه غيره فقال :

صَفِيَّةٌ قُومِي وَلَا تَفْجَرِي وَبَكَى النِّسَاءُ عَلَى حَمْرَةٍ
وَلَا تَسَامِي أَنْ تُطِيلِي الْبُكَاءَ عَلَى أَسَدِ اللَّهِ فِي الْهَرَّةِ (٧)

(١) إخال : أظن (وكسر الهمزة لغة تميم) . والغصة : ما يعترض في الحلق فيشرق .

(٢) العقنقل : الكتيب من الرمل .

(٣) سراهم : خيارهم .

(٤) العطن : مبرك الإبل حول الماء . والمعطن : الذي قد عود أن يتخذ عطنا .

(٥) الوريد : عرق في صفحة العنق . والرشاش المزبد : الدم تعلوه رغبة .

(٦) الفل : القوم المنهزمون . وتتفننهم : تطردهم وتتبع آثارهم .

(٧) الهزة : الاهتزاز والاختلاط في الحرب .

فَقَدْ كَانَ عِرًّا لِإِيْتَامِنَا وَلَيْثُ الْمَلَّاحِمِ فِي الْبِرَّةِ (١)
يُرِيدُ بِذَلِكَ رِضًا أَحْمَدٍ وَرِضْوَانَ ذِي الْعَرْشِ وَالْعِزَّةِ

ويعمد عبد الله بن رواحة إلى نهج مغاير لنهج صاحبه ؛ لأن مريثته في مستهلها قد غلب عليها البكاء ، وكساها الحزن ، واكتنفها الأسى ، مع صيغ من الترحم المشمول بروح التسليم والإيمان ، ثم مالبت الشاعر أن ذكر مافعله أبطال المسلمين بصناديد المشركين يوم بدر من قتل ومطاردة معددا أسماء بعضهم ، مذكرا بمصارعهم قائلا: (٢).

بَكَتْ عَيْنِي وَحَقَّ لَهَا بُكَاهَا وَمَا يُغْنِي الْبُكَاءُ وَلَا الْعَوِيلُ
عَلَى أَسَدِ الْإِلَهِ غَدَاةً قَالُوا أَحْمَرُهُ ذَاكُمُ الرَّجُلُ الْقَتِيلُ ؟
أُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ جَمِيعًا هُنَاكَ وَقَدْ أُصِيبَ بِهِ الرَّسُولُ
أَبَا يَعْلَى لَكَ الْأَرْكَانُ هُدَّتْ وَأَنْتَ الْمَاجِدُ الْبَرُّ الْوُصُولُ (٣)
عَلَيْكَ سَلَامُ رَبِّكَ فِي جَنَانٍ تُخَالِطُهَا نَعِيمٌ لَا يَزُولُ
أَلَا يَا هَاشِمَ الْأَنْخِيَارِ صَبْرًا فَكُلُّ فَعَالِكُمْ حَسَنٌ جَمِيلُ
رَسُولُ اللَّهِ مُضْطَرِّ كَرِيمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ يَنْطُوقُ إِذْ يَقُولُ
أَلَا مَنْ مُبْلَغٌ عَنَى لُؤْيَاً فَبَعْدَ الْيَوْمِ دَائِلَةٌ تَدُولُ (٤)
وَقَبْلَ الْيَوْمِ مَاعَرَفُوا وَذَاقُوا وَقَائِعِنَا بِهَا يُشْفَى الْغَلِيلُ (٥)
نَسَيْتُمْ ضَرْبَنَا بِقَلْبٍ بِدْرِ غَدَاةً أَتَاكُمُ الْمَوْتُ الْعَجِيلُ

(١) الملاحم : جمع ملحمة ، وهى الحرب التى يكثر القتل فيها . البرة : السلاح .

(٢) ابن هشام ٢ / ١٦١ ، ١٦٢ .

(٣) - أبو يعلى : كنية حمزة رضى الله عنه . والماجد : الشريف .

(٤) الدائلة : الحرب .

(٥) الغليل : حرارة العطش والحزن .

غداة نوى أبو جهل صريعا عليه الطيرُ حائمةٌ تجولُ
وعُتْبَةُ وإبْنُهُ خِرًا جميعاً وشَيْبَةُ عَصَّةُ السيفِ الثقيلُ
وَمَتَرَكْنَا أُمِيَّةً مُجْلَعَةً وفي حَيْرُومِهِ لَدُنْ نَبِيلٍ^(١)
وهام بنى ربيعةً سائلوها ففي أسيافِنَا منها فُلُولُ
ألا ياهنْدُ فابكى لا تملئى فأنت الوالهُ العَبْرَى الهَبُولُ^(٢)
ألا ياهنْدُ لا تُبْدِي شِاتَاً بحمزةٍ إنَّ عِرْكَكُمْ ذَلِيلُ

وهند التى عنها الشاعر هى هند بنت عتبة زوج أبى سفيان بن حرب التى لاكت كبد حمزة بعد أن استأجرت من رماه بحربة من بعد فأصابته فى مقتل ، وكان أبوها عتبة ابن ربيعة قد لقي مصرعه فى غزوة بدر ، وكان من صناديد قريش وساداتها وصاحب جود وحكمة فى الجاهلية ، ومن لقي مصرعه فى بدر أيضا عمها شيبه بن ربيعة وأخوها الوليد بن عتبة .

تلك نماذج قليلة من فيض الشعر المتدفق الذى قيل فى أحد ، وفى رثاء شهداء المسلمين فى ساحة المعركة .

رثاء شهداء مؤتة :

لم يشتد حزن رسول الله على شهداء الغزوات إلا فى غزوتين ، الأولى كانت فى أحد ، والثانية كانت مؤتة ، وبين الغزوتين زمن ليس بالقصير، فقد كانت أحد فى السنة الثالثة للهجرة ، وكانت مؤتة فى السنة الثامنة .

وفى أحد قتل حمزة ومصعب بن عمير ، وهما ألع شخصيتين إسلاميتين بين قتلى أحد ، وإن كان آخرون قد لقوا مصرعهم مثل شماس بن عثمان ، وعمار بن زياد بن السكن ، وأوس بن ثابت أخو حسان بن ثابت .

(١) مُجْلَعَةً : ممتدا على الأرض ، والحيزوم : أسفل الصدر .

(٢) الواله : الفاقد ، العبرى : الكثيرة الدموع . الهبول : الفاقد .

وأما في مؤتة فثمت ثلاثة من الصحابة المقربين إلى رسول الله ﷺ وقد أُمّر ثلاثتهم بنفسه على جيش الغزاة ، لقد جعل اللواء لزيد بن حارثة ، فإن أصيب انتقل إلى جعفر ابن أبي طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة .

لقد أبلى الجيش بلاء حسنا مع أن عدده لم يكن يتجاوز ثلاثة آلاف محارب يواجههم مائتا ألف مقاتل في جيش الروم ، واستشهد الأمراء الثلاثة بعد استبسالهم في القتال استبسالاً غير مسبوق في مثل حالتهم .

إن المرات التي بكى فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أموات قليلة العدد، منها بكاءؤه على شهداء مؤتة ؛ لأن لكل واحد منهم مكانة خاصة في قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - .

فأما زيد بن حارثة فهو حامل اللواء الأول ، وهو حب رسول الله ، وكان الرسول قد تنبه في أول الدعوة فكان يقال له زيد بن محمد ، ثم زالت تلك البنوة بتحريم الإسلام لها . وزيد هو أول من أسلم من الموالى . يقول الزهرى : ما علمنا أحدا أسلم قبله (١) .

ولمكانة زيد عند رسول الله ، فإنه - صلى الله عليه وسلم - آخى بينه وبين عمه حمزة أسد الله .

يقول أسامة بن زيد : قال رسول الله ﷺ لأبى : « يا زيد أنت مولاي ومنى وإلى وأحب القوم إلى » (٢) .

وروى حماد بن زيد عن خالد بن سلمة المخزومي قال : أصيب زيد - يعنى في مؤتة - فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - منزله ، فجهشت بنت زيد في وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبكى حتى انتحب ، فقال سعد بن عباد : يا رسول الله ، ما هذا ؟ فقال : « شوق الحبيب إلى حبيبه » (٣) .

(١) مغازى الذهبى ، ص : ٤١٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٤١٣ .

(٣) المصدر نفسه ص : ٤١٤ .

هذا ما كان من أمر مكانة زيد عند رسول الله ، وأما جعفر بن أبى طالب فهو ابن عم رسول الله وشقيق على وأخو حمزة ، هذا يستشهد فى أحد وذاك يستشهد فى مؤتة ، وكان جعفر من السابقين الأولين ، هاجر الهجرتين ، فكان الرسول ﷺ يقول له « أشبهت خَلْقِي وَخُلُقِي » (١) ولذلك كان أبو هريرة يقول : إنه أفضل الناس بعد النبى ﷺ وعن عكرمة قال : سمعت أبا هريرة يقول : ما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا وطىء التراب بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبى طالب (٢).

وفى استشهاد جعفر يقول أحد بنى مرة بن عوف : والله لكانى أنظر إلى جعفر بن أبى طالب يوم مؤتة اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم تقدم فقاتل حتى قتل ، وقال ابن إسحاق : هو أول من عقر فى الإسلام (٣) ، وإكمالاً لأحداث استشهاد جعفر يقول ابن هشام : حدثنى من أثق به أن جعفرأ أخذ اللواء بيمينه - بعد استشهاد زيد - فقطعت ، فأخذه بشاله فقطعت ، فاحتضنه بعضده حتى قتل ، فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما حيث يشاء ، يقول عبد الله بن عمر : كنت معهم فى تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفراً فوجدنا فيما أقبل من جسمه بضعا وتسعين بين طعنة ورمية .

هذا ، وكان رسول الله ﷺ يحمل لجعفر حبا عظيما ينم عنه هذا الخبر . قال عبد الله ابن جعفر : أنا أحفظ حين دخل رسول الله ﷺ على أمى فنعى لها أبى ، فأنظر إليه وهو يمسح على رأسى ورأس أخى وعيناه تهرقان الدموع ثم قال : « اللهم إن جعفرا قد قدم إلى أحسن ثواب ، فاخلفه فى ذريته بأحسن ما خلقت أحداً من عبادك فى ذريته » ثم قال : « يا أسماء ، ألا أبشرك ؟ » قالت : بلى ؛ بأبى أنت وأمى ، قال : « إن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما فى الجنة » (٤).

وأما عبد الله بن رواحة فقد أتينا بشيء من أخباره فى فصل « شعر الغزوات » وهو يستعد للقتال فى غزوة مؤتة ، وإذا كان كل من زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب من

(١) رواه البخارى ومسلم من حديث البراء .

(٢) الإصابة جزء أول الترجمة رقم ١١٦٦ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المغازى للواقدي ٧٦٦/٢ ، ٧٦٧ .

المهاجرين فإن عبد الله بن رواحة خزرجي من الأنصار ، وهو أحد النقباء الاثنى عشر في بيعة العقبة ، وشاعر رسول الله ، وقد جمع الإسهام في الدعوة والمنافحة عنها إلى خوض غمار الحرب بسيفه في كثير من الغزوات ، وعلى وجه الخصوص بدر وأحد والخندق والحديبية ، كما أنه صحب رسول الله ﷺ في عمرة القضاء ، وبلغ من ثقة رسول الله فيه أن استخلفه على المدينة في إحدى غزواته ، ولعله في ذلك الشاعر الوحيد بين شعراء رسول الله الذي جمع في الجهاد بين سلاحين : سلاح السيف ، وسلاح الشعر ، أو بلغة عصرنا : كان أمير السيف والقلم ، والأمر الجدير بالذكر هنا أنه كان يكتب في الجاهلية ، وهو أخو أبي الدرداء لأمه ، وخال الصحابييين الفارسين : النعمان ابن بشير ، وزيد بن أرقم (١) .

وكان عبد الله بن رواحة يجمع بين الشعر والخطابة ، فحين نزل جيش المسلمين بأرض الشام وعلموا أنهم أمام جيوش يبلغ تعدادها مائتي ألف مقاتل من الروم والمستعربة من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلج ، ترددوا وقالوا : نكتب لرسول الله فنخبره بعدد عدونا ، فقام عبد الله بن رواحة خطيبا وقال : والله يا قوم إن الذي تكرهون للذي خرجتم له تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل العدو بعدة ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين ، إما ظهور - يعني نصراً - وإما شهادة ، فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة (٢) .

وحين نشبت المعركة واستشهد صاحبا القائدان زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه وجعل يشجع نفسه منشدا :

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّ
لَتَنْزِلَنَّ أَوْ لَتُكْرِهَنَّ
إِذْ جَلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّثَّةَ
مَالِي أَرَاكِ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ

(١) مغازي الذهبي ٤١٤ .

(٢) حلية الأولياء .

لَطَافًا قَدْ كُنْتَ مَطْمَئِنَّةً هَلْ أَنْتِ إِلَّا نَظْفَةٌ فِي سَنَةٍ (*)

ثم عاد يخاطب نفسه مرة أخرى قائلا :

يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي هَذَا جِأَمُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَبَتْ
وَمَا تَمْنَيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ إِنَّ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدَيْتِ (**)

ثم تقدم وخاض غمار الحرب واستشهد .

وهؤلاء هم الأمراء الثلاثة الذين خاضوا الغمار ببسالة فريدة ، فقد قادوا جيشا من بضعة آلاف في مواجهة جيش تعداده مائتا ألف مقاتل ، ومن ثم تكون معركة مؤتة من حيث توصيفها غير مسبوقة في تاريخ الحروب .

وهؤلاء الثلاثة هم الذين بكى عليهم سيد البشر وترقرقت الدموع في عينيه الشريفتين وعم الحزن قلوب المسلمين في المدينة كلها ، وتسابق شاعرا رسول الله - بعد استشهاد ثالثهم - في البكاء عليهم وإنشاد المراثي بعد فقدهم .

إن حسان بن ثابت يذرف الدموع السخان على شهداء مؤتة الثلاثة الذين تتابعوا في الاستشهاد تتابعهم في حمل اللواء فيرسل هذه البكاية المسربلة بالأسى ، الموشاة بالأحزان ، ولمعرفة حسان بمكانة جعفر عند رسول الله ، خاصة وأنه كان واحدا من أقرب أهل البيت شَبَها برسول الله خَلَقًا وَخُلُقًا . فإنه يخصه بقدر مستقل من الآيات يذكر فيها شِماله ، ويعدد أسماء نجوم آل بيت النبوة : علي وحمة والعباس وعقيل ، وعلى رأسهم سيد البشرية وخاتم الرسل ﷺ قال حسان : (***)

تَأَوَّبَنِي لَيْلٌ بِيَشْرِبُ أَعْسَرُ وَهَمٌّ إِذَا مَا نَوَّمَ النَّاسُ مُسْهِرٌ (١)

(*) الرنة : صوت القوس . والشنة : القرية الخلقية .

(**) الضمير في فعلهما يعود على صاحبيه : زيد وجعفر .

(***) ديوان حسان ص : ١٠٦ .

(١) تأوَّبني : عاودني ورجع إلى . وأعسر : عسير . ومسير : مانع من النوم .

لذكرى حبيبٍ هيَّجت لى (١) عبّرة
 بكى ، إن فقدان (٣) الحبيبِ بليّةٌ
 رأيتُ خيارَ المؤمنينَ تَوَارَدُوا
 فلا يُبْعِدَنَّ اللهَ قتلى تَتَابَعُوا
 وزيدٌ وعبد الله حين تَتَابَعُوا
 غداةَ مضوا بالمؤمنين يقودُهم
 أغرَّ كضوءِ البدر من آل هاشم
 فطاعَنَ حتى مال غير مؤسَد
 فصار مع المُستشهدين ثوابُهُ
 وكنا نرى في جعفر من محمد
 فما زال في الإسلام من آل هاشم
 همُ جبل الإسلام والناس حوهم (١٠)

سَفُوحاً وأسباب البكاء التَذَكُّرُ (٢)
 وكم من كريمٍ يُبْتلى ثم يَصْبِرُ
 شُعوبٌ وخَلْقاً بعدهم يتأخَّرُ (٤)
 بمؤتةٍ منهم ذو الجناحين جَعْفَرُ
 جميعاً وأسبابُ المنيّةِ تَخْطُرُ (٥)
 إلى الموت ميمونُ النقيبة أزهَرُ (٦)
 أبى إذا سيم الظلّامة مجسَرُ (٧)
 لمُعتَرِك (٨) فيه قنا مُتَكَسِّرُ (٩)
 جنانٌ وملتفُ الحدائقِ أخضرُ
 وفاءً وأمرًا حازماً حين يأمرُ
 دعائمُ عز لا يزلن ومفخرُ
 رضامٌ إلى طَوْدٍ يروق ويقهرُ (١١)

(١) في ديوان حسان : ثم .

(٢) سفوح : سائلة غزيرة

(٣) في ديوان حسان (بلاء وفقدان) .

(٤) قال أبو ذر : من رواء بضم الشين ، فهو جمع شعب ، وهى القبيلة ؛ وقيل : هو أكثر من القبيلة ؛ ومن رواء بفتح الشين ، فهو اسم للمنية ، من قولك : شعبت الشيء : إذا فرقته ، ويجوز فيه الصرف وتركه . وخلفا : أى من يأتى بعد . ورواية هذا الشطر الأخير في ديوانه :

شعوب وقد خلقت فيمن يؤخر

(٥) تخطر : تختال وتهتز .

(٦) ميمون النقيبة : مسعود الجد ، وأزهَر : أبيض .

(٧) أبى : عزيز الجانب . وسيم : كلف وحمل (بالبناء للمجهول فيها) . والمجسر : المقدام الجسور .

(٨) المعتريك : موضع الحرب .

(٩) في الديوان . « فيه القنا يتكسر » .

(١٠) في الديوان : « حوله » .

(١١) الرضام : جمع رضم ، وهى الحجارة يتراكم بعضها فوق بعض . والطود : الجبل .

بِهَالِيلٍ مِنْهُمْ جَعَفَرُ وَابْنُ أُمِّهِ عَلَى وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ الْمَتَخَيْرُ (١)
وَحِمْرَةُ وَالْعَبَّاسُ مِنْهُمْ وَمِنْهُمْ عَقِيلٌ وَمَاءُ الْعُودِ مِنْ حَيْثُ يُعْصَرُ
بِهِمْ تُفْرَجُ اللَّأْوَاءُ فِي كُلِّ مَازِقٍ عَمَّاسٍ إِذَا مَا ضَاقَ بِالنَّاسِ مَصْدَرُ (٢)
هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ أَنْزَلَ حُكْمَهُ عَلَيْهِمْ ، وَفِيهِمْ ذَا الْكِتَابِ الْمُطَهَّرُ

وعلى نفس النهج من البكاء والحزن والوجد والأسى ينشئ كعب بن مالك بكائيته اللامية ممجدا ثباتهم معظما بسالتهم ، فقد جادوا بنفوسهم رخيصة في سبيل الله متتابعين واحدا بعد الآخر ، ولقد تطابقت الخواطر عند كل من حسان وكعب في تخطيط منهج القصيدة حين جعل كل منهما الأبيات الأولى في البكاء على الأبطال الثلاثة ثم كان شيء من التخصيص لتمجيد جعفر ، ثم بعد ذلك تمجيد أبناء بيت النبوة بذكر شئائهم وتفصيل محامدهم على هذا النهج البليغ : (*)

نَامَ الْعُيُونُ وَدَمَعُ عَيْنِكَ يَهْمُلُ سَحًّا كَمَا وَكَفَ (٣) الطَّبَابُ الْمُخْضَلُ (٤)
فِي لَيْلَةٍ وَرَدَّتْ عَلَى هُمُومِهَا طُورًا أَحْنُ (٥) وَتَارَةً أَتَمَلَّمُ (٦)
وَاعْتَادَنِي حُزْنٌ فَبِتَّ كَأَنَّنِي يَبْكُنَاتِ نَعْيٍ وَالسَّامِكِ ، مُوَكَّلِ (٧)
وَكَأَنَّمَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالْحَشَى مِمَّا تَأْوِيَنِي شِهَابٌ مُدْخَلُ (٨)

(١) البهاليل : جمع البهلول : وهو السيد الوضيء الوجه .

(٢) اللأواء : الشدة . والعباس : المظلم . يريد ظلامه من كثرة النقع المثار وقت الحرب .

(*) السيرة ٢ / ٣٨٥ .

(٣) همل الدمع : سال ، وسحا : صبا ، ووَكَفَ : قطر .

(٤) الطباب : جمع طبابة ، وهى سير بين خريزتين في المزايدة ، فإذا كان غير محكم وكف منه الماء . وفي رواية الضباب . والمخضل : السائل الندى .

(٥) أحْن (بالحاء المهملة) : من الحنين ، وفي رواية : « أنحن » (بالحاء المعجمة) . والحنين : صوت يخرج من الأنف عند البكاء .

(٦) أَتَمَلَّمُ : أتقلب متبرما بمضجعى .

(٧) يريد أنه بات يرمى النجوم طول ليله من طول السهاد .

(٨) المدخل : النافذ إلى الداخل .

وَجَدَا عَلَى النَّفَرِ الَّذِينَ تَتَابَعُوا
صَلَّى إِلَهِهَ عَلَيْهِمْ مِنْ فِتْنَةٍ
صَبَرُوا بِمَوْتِهِ لِلَّهِ نَفْسُهُمْ
فَمَضَوْا أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُمْ
إِذْ يَهْتَدُونَ بِجَعْفَرٍ وَلِوَالِيهِ
حَتَّى تَفَرَّجَتِ الصُّفُوفُ وَجَعْفَرٌ
فَتَغَيَّرَ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ لَفَقَدَهُ
قَرْنٌ^(٦) عِلَابُ بَنِيهِ مِنْ هَاشِمٍ
قَوْمٌ بِهِمْ عَصَمَ إِلَهُ عِبَادُهُ
فَضَلُّوا الْمَعَاشِرَ عِزَّةً وَتَكْرُمًا
لَا يُطْلِقُونَ إِلَى السَّفَاهِ حُبَاهُمْ
بَيضُ الْوُجُوهِ تُرَى بُطُونُ أَكْفُهُمْ

يَوْمَا بِمَوْتِهِ أُسْنِدُوا لَمْ يُنْقَلُوا
وَسَقَى عِظَامَهُمُ الْغَمَامُ الْمُسْنِلُ^(١)
حَذَرَ الرَّدَى وَمَخَافَةَ أَنْ يَنْكَلُوا^(٢)
فُنُقُّ عَلَيْهِنَّ الْحَدِيدَ الْمُرْفَلُ^(٣)
قُدَّامَ أَوْلِيهِمْ فَنِعَمَ الْأَوَّلُ
حَيْثُ التَّقَى وَغُثُّ الصُّفُوفِ مَجْدَلُ^(٤)
وَالشَّمْسُ قَدْ كَسَفَتْ وَكَادَتْ تَأْفَلُ^(٥)
فَرَعَا أَشَمَّ وَسُودُّدَا مَا يُنْقَلُ^(٧)
وَعَلَيْهِمْ نَزَلَ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ
وَتَغَمَّدَتْ أَخْلَامُهُمْ مِنْ يَجْهَلُ^(٨)
وَيُـرَى خَطِيئَتُهُمْ بِحَقِّ يَفْصِلُ^(٩)
تَنْدَى إِذَا اعْتَدَرَ الزَّمَانُ الْمُمَحِّلُ^(١٠)

(١) المسبل : المطر .

(٢) صبروا نفوسهم : حبسوها على ما يريدون . وينكلوا : يرجعوا هائبين لعدوهم .

(٣) الفنى : الفحول من الإبل ، الواحد : فنيق . المرفل : الذى تنجر أطرافه على الأرض ، يريد أن دروعهم سابعة .

(٤) وعت الصفوف : التحامها حتى يصعب الخلاص من بينها ، تشبيها بالوعث ، وهو الرمل الذى تغيب فيه الأرجل

ويصعب فيه السير . ومجدل : مطروح على الجدالة ، وهى الأرض .

(٥) تأفل : تغيب .

(٦) القرم : السيد .

(٧) فى رواية : ما ينفل - بالفاء - ومعناه : لا يحجر .

(٨) تغمدت من يجهل : سترت جهل الجاهلين .

(٩) إطلاق الحبة : كناية عن النهضة للنجدة . والحبة (فى الأصل) : أن يشبك الإنسان أصابع يديه بعضها فى بعض .

ويجعلها على ركبته إذا جلس . وقد يحتبى بحائل السيف وغيرها .

(١٠) الممحل : وهو الشديد الفخط .

وَيَهْدِيهِمْ رُضِيَ إِلَهُ لَخْلِقِهِ وَبَجَدَهُمْ نُصِرَ النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ (١)

لقد كانت غزوة مؤتة ينبوعا للشعر النبيل قبل التحام الرماح واطراد الصدام واقتحام المكاره ممثلا في شعر عبد الله بن رواحة وهو يعد نفسه لخوضها ، وكانت مرة أخرى معيناً للشعر الحزين ، ومصدراً للألم المبرح في نفس رسول الله ونفوس صحابته حين وضعت الحرب أوزارها ، واستشهد ثلاثة من خيار قواد المسلمين من صحابة رسول الله ، غير أن البلوى كانت أكثر جسامة بفقد جعفر لمكانته من رسول الله وصحابته ، ولأنه كان في مرحلة الشباب من عمره ، وقد خلف أبناء صغاراً كزغب القطا لم يكادوا يستوعبون نكبتهم في مصرع أبيهم ، ورسول الله يعزى والدتهم في أبيهم . إن عبد الله بن رواحة لم ينبج فكانت المصيبة بفقدته في نطاق الاحتمال ، وإن زيدا قد خلف ولده أسامة وهو أقرب إلى اليفاع بل أدنى إلى الشباب ، وأما جعفر فكانت المصيبة فيه على النحو الذي ذكر ، ومن ثم احتشدت قرائح الشعر للإمعان في بكائه والإكثار من رثائه .

يقول حسان في مرثية خصصها للبكاء على جعفر ، وقد خصه بعدد من المراثي ، ونحا في نسجها منحى جديداً غير مسبوق في تتابع المعاني على مساحة القصيدة على الرغم من انتهاء البيت بالقافية . (٢) :

وَلَقَدْ بَكَيْتُ وَعَزَّ مُهَلِّكَ جَعْفَرٍ	حَبَّ النَّبِيِّ عَلَى الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا
وَلَقَدْ جَزِعْتُ وَقُلْتُ حِينَ نُعِيَتْ لِي	مَنْ لِلْجَلَادِ لَدَى « الْعُقَابِ » وَظَلُّهَا (٣)
بِالْبَيْضِ حِينَ تُسَلَّ مِنْ أَعْمَادِهَا	ضَرْباً وَإِنْهَالِ الرِّمَاحِ وَعَلَّهَا (٤)
بَعْدَ ابْنِ فَاطِمَةَ الْمُبَارِكِ جَعْفَرٍ	خَيْرَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا وَأَجَلُّهَا (٥) .

(١) وفي رواية : « ويحدهم » بالخاء المهملة . فمن رواه بالخاء المهملة فمعناه بشجاعته وإقدامهم ؛ ومن رواه

« بجدهم » بالجيم المكسورة ، فهو معلوم .

(٢) ابن هشام ٣٨٦/٢ والديوان ص ١٩٨ .

(٣) العقاب : اسم لرأية رسول الله ﷺ .

(٤) الإنهال : الشرب الأول . والعلل : الشرب الثاني أو المتتابع .

(٥) فاطمة : هي أم جعفر وعلى بن أبي طالب ، وهي فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي .

رِزْءًا وَأَكْرَمِيهَا جَمِيعًا مَحْتَدًا وَأَعَزَّهَا مُتَظَلِّمًا وَأَزَلَّهَا (١)
 لِلْحَقِّ حِينَ يَنْوِبُ غَيْرَ تَنْحُلٍ (٢) كَذِبًا ، وَأَنْدَاهَا يَدًا (٣) ، وَأَقْلَّهَا
 فُحْشًا ، وَأَكْثَرَهَا إِذَا مَا يُجْتَدَى (٤) فَضْلًا ، وَأَبْدَلَهَا نَدَى ، وَأَبْلَّهَا (٥)
 بِالْعَرُفِ غَيْرِ مُحَمَّدٍ لَا مِثْلَهُ حَتَّى مِنْ أَحْيَاءِ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا

إن مرائي شعراء الرسول ﷺ من الوفرة بمكان ، سواء أكان ذلك في أحد أم في مؤتة أم في غيرهما من الغزوات والمناسبات الحزينة ، وهي من الشعر المتميز بالوقع الحزين ، الموشى باللون الإيماني والسمت الإسلامي الذي ظهر لأول مرة في سماء الشعر العربي ، ولم يكن معروفًا قبل فيما سلف من سنين ، ومن ثم كان له الصدى الجديد الذي يكافيء جدته ، والوقع العميق الذي يلائم عواطفه الجياشة ومناوله الدافقة .

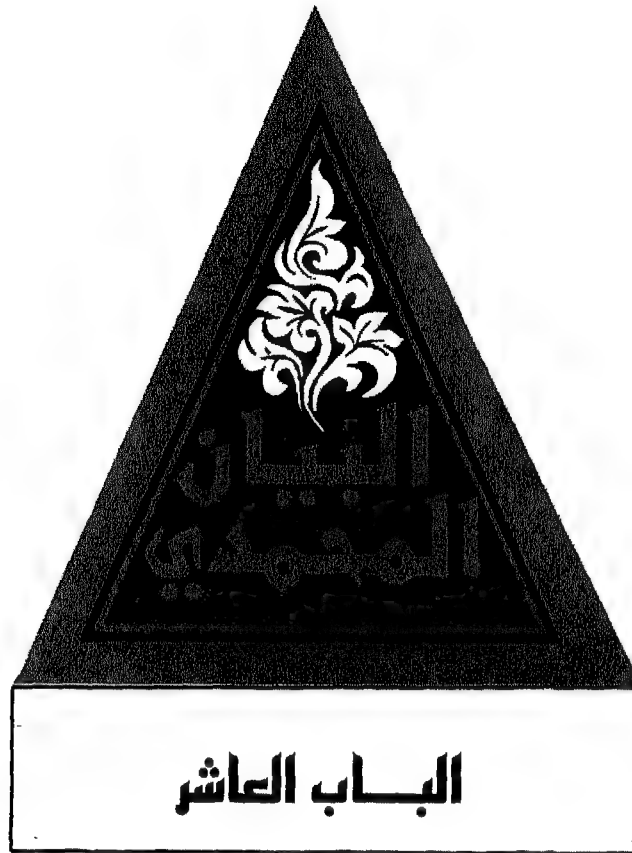
(١) المحتد : الأصل .

(٢) التنحل : الكذب .

(٣) في رواية : « وأغمرها ندى » .

(٤) الاجتداء : طلب الجدوى ، وهي العطية .

(٥) وفي رواية : « وأنداهها يدًا » .



الأنواع البلاغية في كلام الرسول

- الفصل الأول : المعانى .
- الفصل الثانى : البيان .
- الفصل الثالث : البديع .



الفصل الأول

المعاني

- تمهيد
- الإيجاز
- الإطناب
- الإبهام والتفسير
- المساواة

المعاني

(١)

تمهيد :

كان رسول الله ﷺ رأس الفصاحة ، ومجمع البلاغة ، وذروة البيان ، وقد مرّ بنا في الفصول الأولى شرح واف لهذه القضية بحيث صارت من المسلّمات ، إنه ﷺ القائل : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش » . وهو القائل أيضا : « أنا أفصح من نطق الضاد » (١) .

وقال ﷺ : « أوتيت خسأ لم يُعْطَهُنَّ قبلي أحد : كان كل نبي يُبعثُ إلى قومه ، ويُبعثُ إلى كل أحر وأسود ، وأُحِلَّت لي الغنائم ، وجُعِلَتْ لي الأرض مسجدا وطهوراً ونُصِرْتُ بالعرب بين يدي مسيرة شهر ، وأوتيت جوامع الكلم » (١) .

وأيّ ما كانت مدلولات مصطلحات الفصاحة والبلاغة والبيان فهي جميعا تنبع من فيض بيانه ، وتصبّ في ساحة سنته الفينانة المباركة .

لقد قرر الأقدمون أن الفصاحة راجعة إلى الألفاظ ، والبلاغة راجعة إلى المعاني ، فإذا صح ذلك فإنه منطبق على كلام رسول الله ﷺ وإذا قيل - طبقا لمذاهب بعض البلاغيين - : كل كلام فصيح فهو بليغ ، وكل بليغ من الكلام فهو فصيح ، انصرف ذلك أيضا إلى كلام رسول الله ﷺ ومن البدهة بمكان أنه ينطبق قبل ذلك على كلام الله - سبحانه وتعالى - وينصرف إليه .

كان الرسول ﷺ يخاطب العرب بلغاتهم على اختلاف قبائلهم ، لقد وقف بين

(١) الطراز : لأمر المؤمنين الإمام يحيى بن حمزة ١ / ٣٣ .

يديده ﷺ طهغه بن أبى زهير النهدى يتكلم بكلام فيه كثير من الألفاظ الغريبة ، فلما أجابه الرسول باللغة نفسها وبعدد من الألفاظ الغريبة على أسماع القرشيين ، قال له على - رضى الله عنه - : يارسول الله ، نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، فقال ﷺ : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

ولأبى بكر - رضى الله عنه - نفس الملاحظة حول موضوع مماثل مضى ذكره في فصل سابق ، مما يؤكد انفراد الرسول ﷺ دون بقية العرب بمعرفة لغة القبائل جميعها فهماً وكلاماً .

رؤى أنه ﷺ قال لأبى تميمه الهجيمى : « إياك والمخيلة » فقال : يارسول الله ، نحن قوم عرب ، فما المخيلة ؟ فقال ﷺ : « سَبَلُ الإزار » .

والمعنى المراد هنا هو الكبر أو نحوه (١) ، وكان الرافعى - رحمه الله - يقول عن فصاحة الرسول : لا نعرف في الناس من يتهاى له الأسلوب الجامع المانع على توثق السرد وكمال الملاءمة كما نراه في الكلام النبوى .

لقد كان أسلوبه - صلى الله عليه وسلم - السهل الممتنع حقاً وكمالاً واكتمالاً ، مثال ذلك ما قاله عن ماء البحر ، وقد سأله رجل قائلاً : يارسول الله إنا نركب أرماتاً في البحر ، فتحضر الصلاة وليس معنا ماء لشفاها ، أنتوضأ بماء البحر ؟ قال : « هو الطهور ماؤه الحِل ميته » .

ومن روائع فنون البيان التي كانت تجزى على لسانه ﷺ إجاباته عن أسئلة صحابته ، وما أكثر ما سأل الصحابة رسول الله في مختلف القضايا التي كانت تشغلهم في أمور دينهم ودنياهم .

فيل : يارسول الله : أمتك ستفتتن من بعدك . فسئل ما المخرج من ذلك ؟ فقال : « بكتاب الله العزيز الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من عزيز حميد ، من ابتغى العلم في غيره أضله الله ، ومن ولى هذا من جبار فحكم بغيره قصمه »

(١) عن إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعى ، ص ٣٤٩ .

الله ، وهو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، فيه خبر مَنْ قَبْلَكُمْ ، وتبيان مَنْ بَعْدَكُمْ ، وهو فصل ، ليس بالهزل ، وهو الذى لما سمعته الجن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَكُنْ مَنَابِهَ * لا يَخْلُقُ عَلَى طَوْلِ الرَّدِّ ، ولا تنقضى عِزُّهُ ، ولا تنفى عجائبه ^(١) .

إن علماء البلاغة - والأمر كذلك - لما عزموا على منهجة فنهم ، وأقبلوا على تخطيط موضوعاتهم فقسموها إلى علوم ثلاثة ، هى : المعانى ، والبيان ، والبديع ، ثم قسموا كل علم من هذه العلوم الثلاثة إلى موضوعات حدودها ، وعناوين ابتكروها ، كان زادهم الذى استقوا منه مادتهم القرآن الكريم والحديث الشريف ، فكل من كتاب الله وكلام رسوله ﷺ متضمن هذه الموضوعات ، محتو لهذه الفنون بما حفل به من أمثلة لا تحصى ونماذج لا تُستقصى ، ومن ثم فسوف يكون عرضنا لما صارت أنواعا بلاغية من كلام رسول الله ﷺ متسقا مع النهج الذى انتهجه البلاغيون القدماء ، منسجا مع الأسماء التى سموها ، والعناوين التى اصطلاحوا على تحديدها ، واتخذها الدارسون بعد ذلك منهجا وطريقا .

وحتى يكون القارئ على بينة من العلوم الثلاثة - البيان والمعانى والبديع ، وفهم لارتباط بعضها ببعض ، واشتباك الواحد منها بالآخر ، وتداخلها جميعاً ببعضها ببعض وانتسابها إلى أصل واحد هو علم البلاغة والفصاحة - فإننا نعرض فى هذا الشأن توصيف الإمام البلاغى أمير المؤمنين يحيى بن حمزة لهذه العلوم ، وارتباط بعضها ببعض الآخر . يقول الإمام يحيى بن حمزة ^(٢) :

اعلم أن هذه الأنواع الثلاثة - أعنى المعانى وعلم البيان وعلم البديع - مآخذها مختلفة ، وكل واحد منها على حظ من علم البلاغة والفصاحة ، ولنضرب لها مثلاً يكون دالاً عليها ، ومبيناً لموقع كل واحد منها ، وهو أن تكون حَبَّاتٍ من ذهبٍ ودُرَرٍ ولآلِءٍ ويواقيت ، وغير ذلك من أنواع الأحجار النفيسة ، ثم إنها أَلَفَتْ تاليفاً بديعاً ،

(١) القاضى ابن قتيبة فى (عيون الأخبار) ٢ / ٣١٣ .

(٢) الطراز ٣ / ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

بأن حُلِطَ بعضها ببعض ، وَرُكِّبَتْ تركيباً أنيقاً ، ثم بعد ذلك التأليف ، تارة تجعلُ تاجاً على الرأس ، ومرة طَوْقاً في العنق : ومرة بمنزلة القُرْطِ في الأذن ، فالألفاظ الرائقة بمنزلة الدُّرَرِ واللآلئ ، وهو علم المعاني ، وتأليفُها وضُمُّ بعضها إلى بعض ، هو علم البيان ؛ ثم وَضَعُها في المواضع اللائقة بها عند تأليفها وتركيبها ، هو علم البديع ، فوَضَعَ التاج على الرأس بعد إحكام تأليفه هو وَضَعُ له في موضعه ، ولو وُضِعَ في اليد أو الرجل ، لم يكن موضعاً له ، وهكذا الكلام بعد إحكام تأليفه يُقصد به مواضعه اللائقة به ، وما ذكرناه من المثال هو أقرب ما يكون في هذه العلوم الثلاثة وتمييز مواقعها .

لقد اصطلح البلاغيون على أن « المعاني » أحد علوم البلاغة الثلاثة التي هي المعاني والبيان والبديع ، وقالوا : إنها قواعد يعرف بها أحوال اللفظ العربي التي يطابق بها مقتضى الحال ، وإن المراد بأحوال اللفظ ، الأمور العارضة له من التقديم والتأخير والإثبات والحذف وغير ذلك^(١) .

ولقد حصر البلاغيون مسائل « علم المعاني » في ثمانية موضوعات هي :

١ - أحوال الإسناد الخبري .

٢ - أحوال المسند إليه .

٣ - أحوال المسند .

٤ - أحوال متعلقات الفعل .

٥ - القصر .

٦ - الإنشاء .

٧ - الفصل والوصل .

٨ - الإيجاز .

٩ - الإطناب .

(١) معجم البلاغة العربية ، مادة « المعاني » ص : ٤٥٣ .

١٠ - المساواة .

وعرّف السكاكى فى كتابه « مفتاح العلوم » علم المعانى بأنه تتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ؛ ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره .

ثم استطرد قائلاً : وأعنى بتراكيب الكلام التراكيب الصادرة عن له فضل تمييز ومعرفة ، وهى تراكيب البلغاء وليس التراكيب الصادرة عن سواهم .
وقد زاد بعض البلاغيين إلى هذه الموضوعات : الإبهام والتفسير ، والخبر والإنشاء ، والفصل والوصل .

ولما كان موضوع كتابنا هو البيان المحمدى فإن المنهج الذى اتبعناه لا يكاد يعنيه من هذه التقاسيم إلا ما كان متصلاً بالحديث الشريف ، ومن ثم سوف تكون عنايتنا - تطبيقاً - منصرفة إلى الإيجاز والإطناب ، والإبهام والتفسير ، والمساواة .

(١)

الإيجاز:

عرّف بعض القدماء - مثل الرماني - الإيجاز بأنه تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى ، والإيجاز على وجهين : حذف وقصر ، فالحذف إسقاط كلمة للإجزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام . وذلك مثل قوله - تعالى - :
﴿ وَسَلِّ الْقَرْبَةَ ﴾ . والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف ، مثل قوله - تعالى - : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾ .

ويقول صديقنا الأستاذ الدكتور بدوى طبانة : إن معنى الإيجاز فى اصطلاح علماء البيان هو اندراج المعانى المتكاثرة تحت اللفظ القليل ، وأصدق مثال فيه قوله - تعالى - :
﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فهاتان الكلمتان قد جمعتا معانى الرسالة كلها ، واشتملت على كليات النبوة وأجزائها وكقوله - تعالى - :

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١).

ولقد مر بنا في الباب السابق ما رواه أبو عبيدة من أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرّ ساجدا وقال : سجدت لفصاحة هذا الكلام .

وقد بالغ بعضهم في تمجيد الإيجاز إلى المدى الذي جعل فيه البلاغة هي الإيجاز ، فقد سئل : ما البلاغة ؟ فقال : الإيجاز ، قيل : وما الإيجاز ؟ قال : حذف الفضول ، وتقريب البعيد (٢) .

أما وتلك فضائل الإيجاز ومحاسنه فإننا نجد داء موفورا في كلام الرسول ﷺ . قال رسول الله ﷺ لربيعة بن كعب الأسلمي وقد سأله مرافقته في الجنة : « أَعِنِّي على نفسك بكثرة السجود » .

بهذا البيان الناصح ، وبهذا الإيجاز البليغ ، وبهذا الأسلوب السهل الممتنع الذي لا يحاكيه أسلوب ولا يماثله بيان ، يحيب رسول الله ﷺ واحدا من صحابته وقد سأله أمنية يتركز حولها مسعى كل مسلم ؛ ويستقطب جوهرها آمال كل مؤمن . يقول الرسول لربيعة : « أَعِنِّي على نفسك » (٣) يعني : دخول الجنة لا يكون بدعائي لك وحسب ، وإنما بعونك لي في الساحة الربانية بكثرة السجود لله ؛ لأن السجود لله أشرف حالات العبودية ، « وأقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد » ، ولأن في السجود لله عزة للعبد ، وفي الخضوع للخالق تمتع على الخضوع للمخلوق ، فالذي يسجد لله يمتنع عليه السجود لغير الله ، وفي ذلك كمال العبودية لله ، التي هي كمال الإيمان ، والجنة طريقها التوحيد للخالق ، والإيمان به ربًّا واحدا لا شريك له ، وهنا يستطيع اللبيب أن يتنبه إلى القيم الإيمانية الأساسية التي استقطبتها أول آية أنزلت على الرسول الكريم ، حيث بدأت بـ « اقرأ » وتضمنت العلم والقلم ، وختمت بطلب السجود في قوله - تعالى - :

(١) معجم البلاغة العربية ، مادة الإيجاز ، وقم ٨٨٨ ص : ٧٠٢ .

(٢) المصدر السابق ، المادة نفسها .

(٣) زاد المعاد في هدى خير العباد ١ / ٨٠ .

﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ .

والإيجاز نوعان طبقا لما ذكرنا قبل قليل بالحذف وبالقصر ، ولكن الإمام يحيى بن حمزة اليمنى يرى أن النوع الأول هو الإيجاز بالتقرير ، وأما النوع الثانى فهو بالقصر ، ومفهومه هنا لا يختلف عن مفهوم سابقه ولاحقيه ، ويختلف فى تعريف الأول قائلًا^(١): الإيجاز بالتقرير وهو الذى تكون ألفاظه مساوية لمعناه ، لايزيد أحدهما على الآخر ، مثل قوله - صلى الله عليه وسلم - : « الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، ويَبَيِّنُ ذلك مشتهات » .

ومن ذلك قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى » . وقوله ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

وهكذا يختلف الإمام يحيى بن حمزة مع جمهرة البلاغيين فى تعريف الصنف الأول من الإيجاز ، وهو فى الوقت نفسه يدعم رأيه بثلاثة نماذج كلها من حديث رسول الله ﷺ .

وما ورد فى جملة الإيجاز عن رسول الله ﷺ كثير ، فمن ذلك قوله : « لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ فِي الْإِسْلَامِ » ومعنى « لا ضرر » أى : لا ينبغي لأحد أن يضر غيره ، ومعنى قوله : « لا ضرار فى الإسلام » أنه لا ينبغي لك أن تضر أحدا ، ولا ينبغي له أن يضرك .

ومن هذا أيضا قوله ﷺ : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ، وعودوا كل جسم ما اعتاد » .

ومن ذلك أيضا قوله ﷺ : « الطمع فقر ، واليأس غنى »^(٢) .

إن هذه النماذج من أقوال الرسول ﷺ هى من جوامع الكلم التى خص بها دون غيره من البشر .

ومن روائع الإيجاز النبوى قوله ﷺ حكاية عن الله - تعالى - : « أعددتُ لعبادى

(١) الطراز ٢ / ١٢٠ .

(٢) المصدر السابق ٢ / ١٢٨ .

الصالحين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .
 ومن الإيجاز الرشيق قوله ﷺ في طلب الرزق : « إن الرزق ليطلب الرجل كما يطلبه
 أجله » وقوله ﷺ : « الرزق رزقان : رزق تطلبه ، ورزق يطلبك » .
 ومن فرائد الإيجاز في كلام النبي ﷺ ما رواه سفيان بن عبد الله - رضى الله عنه -
 قال : قلت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً
 غيرك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » .
 ومن جواهر إيجاز رسول الله ﷺ وإعجازه قوله : « الضعيف أمير الركب » . وقوله :
 « إن من البيان لسحرا » .

وأما الإيجاز القرآنى فمن الكثرة بمكان ، وقد تقتضينا اللياقة - ونحن نذكر الإيجاز
 فى كلام النبي - أن نتمثل لبعض ضروب الإيجاز القرآنى .

فمن الإيجاز القرآنى فى صفة الجنة قوله - تعالى - :
 ﴿ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .
 ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ .
 ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ .
 ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ .

وفى صفة أهل النار قوله - تعالى - :

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ .
 ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ * لَا يُفَرِّغُهُمْ فِيهِمْ مُبَلِّسُونَ .

(٢)

الإطناب :

الإطناب : هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة جديدة من غير ترديد ، هكذا جاء

تعريف الإطناب تعريفا موجزا ، ومن ثم يكون التعريف بالإطناب قد جاء بأسلوب الإيجاز .

ولمزيد من تعريف الإطناب قيل : إنه الاشتداد في المعانى أخذاً من قولهم : أطنبت الريح : إذا اشتد هبوبها ، وأطنب الرجل في سيره : إذا اشتد فيه .

والإطناب - كما هو معروف - مقابل للإيجاز ؛ لأن الإيجاز دلالة اللفظ على معناه من غير نقصان فيخل ، ولزيادة فيمل ، وأما التطويل فهما متساويان في تأدية المعنى خلا أن الإطناب مختص بفائدة جديدة ، ولأجلها كان ممتازا عن التطويل ، ومثال ذلك كمن سلك لطلب مقصد من المقاصد ثلاث طرق ، فإنها كلها موصلة إلى مايريده ، فأحدها أقرب الطرق - وهو نظير الإيجاز - والطريقان الآخران متساويان في الإطالة ، وهما نظير الإطناب والتطويل ، خلا أن أحدهما مختص إما بمتنزه حسن أو بمياه عذبة ، أو بزيارة صديق أو غير ذلك من الفوائد ، فهو نظير الإطناب ، أما التطويل فلا فائدة وراءه ، وهو مذموم في الكلام^(١).

ويقول أبو الحسن الرمانى في الإطناب وقد قرن الحديث عنه بحديث عن الإيجاز : الإيجاز بلاغة ، والتقصير عى ، كما أن الإطناب بلاغة ، والتطويل عى . والإيجاز لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه ، وليس كذلك التقصير ؛ لأنه لا بد فيه من الإخلال .

وأما الإطناب فإنها يكمن في تفصيل المعنى وما يتعلق به في المواضع التى يحسن فيها ذكر التفصيل ، وأما التطويل فعيب وعى ؛ لأنه تكلف الكثير فيما يكفى فيه القليل ، فكان كالمسالك طريقا بعيدا جهلا منه بالطريق القريب ، وأما الإطناب فليس كذلك ؛ لأنه كمن سلك طريقا بعيدا لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة^(٢).

والإطناب واضح الظهور في الأسلوب القرآنى ، مثلما هو كامل الوضوح في الحديث النبوى .

(١) معجم البلاغة العربية ، المادة رقم ٤٨٥ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

(٢) إعجاز القرآن للرمانى ، ص : ٣ .

ففى أهل الجنة نورد الآيات التى تناولتهم بالإطناب ، مثل : قوله - تعالى - :
﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ (١).
وقوله - تعالى - : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ *
فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَارٌ مِصْفُوفَةٌ * وَزَوَاجٌ مُبْتَوِّئَةٌ ﴾ (٢).
وقوله - تعالى - : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ
لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا *
وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُهَا أَنْقَدِيرًا *
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ
لِدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ﴾ (٣).

لك ذلك وردت فى كتاب الله آيات بينات وضح فيها الإطناب فى وصف أهل النار ،

وله - تعالى - : ﴿ وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي
هَئِمَّةٍ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ (٤).
توله - تعالى - : ﴿ فَأَلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ
بِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِّنْ
حَدِيدٍ ﴾ (٥).

(١) سورة محمد ، الآية : ١٥ .

(٢) سورة الغاشية ، الآيات : ١٥ - ١٠ .

(٣) سورة الإنسان ، الآيات : ١٢ - ١٩ .

(٤) سورة المؤمنون : ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٥) سورة الحج ، الآيات : ١٩ - ٢١ .

ومثلما سقنا نماذج من الأسلوب المعجز من كلام الله في أطر من الإطناب فإننا نسوق نماذج من كلام سيد المرسلين في نفس الأطر من أساليب الإطناب ، وسوف نرى أنها دون كلام الله ، ولكنها فوق كلام البلغاء من البشر .

قال ﷺ : « مَنْ سَقَى مُؤْمِنًا شَرْبَةً سَقَاهُ اللَّهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ . أَوْ قَالَ : مَنْ نَهَرَ الْكَوْثَرَ ، وَمَنْ كَسَا مُؤْمِنًا كِسَاءَ اللَّهِ مِنْ سُندُسِ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ أَطْعَمَ مُؤْمِنًا لُقْمَةً أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ طَيِّبَاتِ الْجَنَّةِ وَفَوَاحِيهَا » (١) .

ومن الإطناب قوله ﷺ : « لَا يَكْمُلُ إِيْمَانُ الْعَبْدِ بِاللَّهِ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ : التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ ، وَالتَّفْوِضُ إِلَى اللَّهِ ، وَالتَّسْلِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَالرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ ، وَالصَّبْرُ عَلَى بَلَاءِ اللَّهِ ، إِنَّهُ مِنْ أَحَبِّ لَلَّهِ ، وَأَبْغَضُ لِلَّهِ ، وَأَعْطَى لِلَّهِ ، وَمَنْعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيْمَانَ » .

إنه ﷺ ذكر خصالا خمسة جعلها أصلا في كمال الإيْمَان ، ثم أتبعها بما يمكن أن يكون ثمرات لها ، والمصادق لأمرها ، فكل من اكتملت فيه هذه الخصال وكانت تصرفاته كلها لله : من حب ، وبغض ، ومنع ، ومنع ، كان كامل الإيْمَان .

ومن الإطناب البديع في الأسلوب المحمدي قوله ﷺ : « إِنَّ الْعَبْدَ لَا يُكْتَبُ فِي الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَسْلَمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ ، وَلَا يُعَدَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْمَنَ أَخُوهُ بِوَأَيْقَهُ ، وَجَارُهُ بِوَادِرِهِ ، وَلَا يَنَالَ دَرَجَةَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَارًا مَا بِهِ الْبَأْسُ » .

فهذا الإطناب البليغ هو نفسه ترجمة لإيجاز بليغ في نفس المعنى في قول رسول الله ﷺ : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » وفي قوله أيضا : « وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ » قيل : من يارسل الله ؟ قال : « الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بِوَأَيْقَهُ » .

هكذا يتناول رسول الله ﷺ القضية الواحدة فيسوقها في إطار من الإيجاز فتكون في قمة البلاغة ، ويصوغها في ثياب من الإطناب فتجىء في أنصع بيان .

(١) أحاديث الإطناب منقولة عن الإمام يحيى بن حمزة ، من كتابه (الطراز) الجزء الثاني ص : ٢٤٨ وما بعدها .

ومن قبيل الإطناب الذي يتدفق عمقا وجمالا في كلام رسول الله ﷺ قوله :
 « يا ابن آدم ، تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن ، وينقص كل يوم من أجلك وأنت
 تفرح ، تعطى ما يكفيك وتطلب ما يطغيك ، لا من كثير تشبع ، ولا بقليل تقنع » .
 لقد منح الله - سبحانه وتعالى - رسوله محمدا جوامع الكلم ، فجرت أساليب
 البلاغة سلسلة في كلامه ، وتفجرت عيون البيان خصبة في قوله ، سواء أكان هذا
 القول إيجازا أم إطنابا ، وعلى أى نهج جاء كان الكمال إطاره ، والجلال محتواه .

(٣)

الإبهام والتفسير :

هذا ضرب آخر من ضروب البلاغة في نطاق علم المعاني ، حفل القرآن الكريم
 بالكثير من ضروبه ، مثلما اشتمل حديث رسول الله ﷺ على غير قليل من نماذجه .

يقول الإمام يحيى بن حمزة العلوي اليمنى :

اعلم أن المعنى المقصود إذا ورد في الكلام مبهما ، فإنه يفيد بلاغة ،
 ويكسبه إعجابا وفخامة ، وذلك لأنه إذا قرع السمع على جهة الإبهام فإن
 السامع له يذهب في إبهامه كل مذهب ، ومصدق هذه المقالة قوله - تعالى - :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ ﴾ ثم فسره بقوله - عز وجل - : ﴿ أَنْتَ دَابِرَ هَوْلَاءِ
 مَقْطُوعِ مُصْبِحِينَ ﴾ (١) . وهكذا في قوله - تعالى - : ﴿ إِنْ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِ ﴾

أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا ﴾ فأبهمه أولا ثم فسره بقوله : ﴿ بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (٢)
 ففي إبهامه في أول وهلة ثم تفسيره بعد ذلك تفخيم للأمر وتعظيم لشأنه ، فإنه لو قال :
 وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع ، وإن الله لا يستحي أن يضرب مثلا بعوضة ، لم
 يكن فيه من الفخامة وارتفاع مكانة في الفصاحة مثل مالو أبهمه قبل ذلك .

(١) سورة الحجر ، الآية : ٦٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٦ .

ويستطرد الإمام العلوى فى مزيد من الإبانة لموضوع الإيهام والتفسير قائلا : يؤيد ما ذكرناه هو أن الإيهام أولا يوقع السامع فى حيرة وتفكر واستعظام لما قَرَعَ سَمْعَهُ ، فلا تزال نفسه تنزع إليه ، وتشتاق إلى معرفته والاطلاع على كنه حقيقته ، ألا ترى أنك إذا قلت : هل أدلك على أكرم الناس أباً ، وأفضلهم فعلاً وحسباً ، وأمضاهم عزيمة وأنفذهم رأياً ؟ ثم تقول : فلان ، فإن هذا وأمثاله يكون أدخل فى مدحته مما لو قلت فلان الأكرم الأفضّل الأنبل ، وما ذاك إلا لإيهامه أولاً وتفسيره ثانياً (١) .

وتمت ضربان فى هذا النسق من علم المعانى ، أى : من الإيهام والتفسير .

فأما الضرب الأول : فهو ما يرد مبهماً من غير تفسير ، وهو وارد كثيراً فى القرآن الكريم ، مثل قوله - تعالى - فى قصة موسى : ﴿ وَفَعَلَتْ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ (٢) فلم يذكر الفعلية بعينها مع كونها معلومة ؛ لما فى ذلك من المبالغة فى أمرها وتعظيم شأنها ، وكقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ يريد بذلك الطريقة أو الحالة أو الخصلة إلى غير ذلك من المحتملات المتعددة ، وأى شئ من هذه الأمور قَدَرْتَهُ فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ لَهُ مِنَ الْبَلَاغَةِ - وإن بالغت فى الإفصاح به - الذى تجده من مذاق الفصاحة مع الإيهام .

ومن هذا قوله - تعالى - : ﴿ فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (٣) ، يريد أنه بلغ مبلغا تقاصرت العبارة عن كنهه ، فحذف ذاك وأقام الإيهام مقامه .

إن مواقع هذا الضرب فى القرآن الكريم أكثر من أن تحصى ، فإذا ما اتجهنا إلى السنة الشريفة وجدنا الرسول ﷺ يقول : « عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من أحببت فإنك مفارقة ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه » .

فالإيهام هنا يشتمل على معان جمة ، ونكت كثيرة ، ومواعظ زاجرة .

(١) الطراز ٢ / ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ١٩ .

(٣) سورة طه ، الآية : ٧٨ .

ومن هذا الضرب أيضا قوله ﷺ : « أحب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هونا ما ، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » .

يقول الإمام يحيى بن حمزة : فهذا من رشيقي الإيهام وبديعه ، ومن عجيب أمره ودقيق سره أنه أمر بالاعتدال في حالتى الحب والبغض ، ومجانبة الإفراط والتفريط ، فقال : أحب حبيبك على الهون من غير إفراط في حبه ؛ فلعلك أن ترجع عن ذلك في بعض الأيام وإن قلّ ، فأتى بالهون منكراً مبهماً ، وباليوم منكراً مبهماً ؛ ليدل بهما على شدة المبالغة في المفقود .

ومن هذا الضرب الأول أيضا قوله ﷺ : « خذوا العطاء ما كان عطاء ، فإذا تجاحفت^(١) قريش ملكها فاتركوه » وفي حديث آخر أو رواية أخرى : « خذوا العطاء ما كان عطاء ، فإذا تجاحفت قريش الملك فلا تأخذوه ؛ فإنما هو رشوة » فالإيهام هو قوله : « ما كان عطاء » لاشتراكه على مقاصد عظيمة .

الضرب الثانى :

وهو في الإيهام الذى ظهر تفسيره ، مثل قوله - تعالى - : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنْ دَايرَهُتُولَاءَ مَقْطُوعٌ نُصْبِحِينَ ﴾ فقوله : ﴿ ذَلِكَ الْأَمَرَ ﴾ مبهم وقد فسر بقوله : ﴿ أَنْ دَايرَهُتُولَاءَ مَقْطُوعٌ ﴾ وفي إيهامه أولاً ثم تفسيره ثانياً ، تفخيم للأمر وتعظيم لشأنه ، ولو قال من أول وهلة : « وقضينا إليه أن دابر هؤلاء القوم مقطوع » لم يكن فيه ما كان مع الإيهام من الفخامة .

ولم يكن الأسلوب النبوى يعيد عن هذا الضرب الثانى من الإيهام الذى ظهر تفسيره فثبت أحاديث عدة في هذا المجال :

قال ﷺ : « ألا أنبئكم بأمرين خفيفة مؤنتهما عظيم أجرهما لن تلقى الله بمثلهما ؟ » ثم قال بعد ذلك تفسيراً لهما : « الصمت وحسن الخلق » .

(١) تجاحفوا : يعنى تناوشوا وتقاتلوا .

وقوله ﷺ : « ألا أدلكم على ما إذا فعلتموه تحاببتم ؟ قالوا : نعم ، قال : أفشوا السلام »

إن تفسير ما أهتم في الحديثين السابقين يعظم من شأن ما اشتملا عليه من البلاغة .
وفي مثال آخر يقول رسول الله ﷺ : « ألا أدلكم على أخسر الناس صفقة ؟ قالوا : نعم ، قال : من باع آخرته بدنياه غيره »^(١).

إن هذا الباب من الإيهام والتفسير واسع الجنب في كتاب الله ، مثلما هو عظيم الشأن في حديث رسول الله ، وهو ضرب عظيم من ضروب البلاغة القرآنية والمحمدية .

(٤)

المساواة :

ذهب أكثر البلاغيين إلى تقسيم « المعانى » إلى الإيجاز والإطناب والمساواة ، ولقد عرضنا لفرعى الإيجاز والإطناب بالدراسة في الفصلين السابقين ، وأما المساواة فإن جاز تناولها في كلام البلغاء فإن ذلك لا يجوز مع كلام الله ولا مع حديث رسول الله ؛ لأن الأصل في أسلوب القرآن وإعجازه هو المساواة ؛ لأن الإيجاز والإطناب يعدان من الظواهر ، أما المساواة فهي الأصل ، وهي البنية الأسلوبية القرآنية ، وهي نفسها البنية الأساسية في كلام النبي ﷺ وأسلوبه إذا تكلم ، ونستطيع القول إنه إذا ما عزلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تعاملت مع الإيجاز والإطناب ، فإن سائر القرآن وسائر حديث رسول الله ليست إلا أسلوب المساواة .

وقد يكون من التوفيق في هذا الفصل أن نعرض لأسلوب رسول الله من زاويتي الجزالة والركة ، وسنلتقى بمثلين لكل زاوية ، ليس من باب التخفيف على القارئ . ولكن لأن القارئ الحصيف لا يخطيء الجزالة ، ولا تفوته الرقة وهو يستعبر أحاديث رسول الله ﷺ .

ففى الجزالة : (١).

قال ﷺ : « يا ابن آدم تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن ، وَيُنْقُصُ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ عَمْرِكَ وأنت تفرح ، أنت فيما يكفيك ، وتطلب ما يطغيك ، لابقيل تقنع ، ولا من كثير تشبع » .

وقال ﷺ : « أما رأيت المأخوذِينَ على الغرّة ، المزعجين بعد الطمأنينة ، الذين أقاموا على الشبهات ، وجنحوا إلى الشهوات ، حتى أتتهم رسلهم ، فلا ما أملوا أدركوا ، ولا إلى ما فاتهم رجعوا ، قدموا على ما عملوا ، ونذموا على ما خلفوا ، ولن يغنى الندم ، وقد جف القلم » .

وفى رقة الأسلوب :

يقول ﷺ معبرا عن هذا المذهب (٢):

« كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، واعدد نفسك فى الموتى ، فإذا أمسيت فلا تحدثها بالصباح ، وإذا أصبحت فلا تحدثها بالمساء ، وخذ من صحتك لسقمك ، ومن شبابك لهرمك ، ومن فراغك لشغلك » .

وقوله ﷺ :

« رحم الله امرأ تكلم فغنى ، أو سكت فسلم ، إن اللسان أملك شئ للإنسان » .

وقوله ﷺ :

« عائد المريض على مخارف الجنة حتى يرجع » .

(١) الطراز ١ / ١١٧ .

(٢) الطراز ١ / ١١٨ .



الفصل الثاني

البيان

- التمثيل والمماثلة
- التشبيه
- المجاز
- الاستعارة

البيان

البيان لغة : هو الكشف والتوضيح والظهور .

وهو فى الاصطلاح : المنطق الفصيح المعبر عما فى الضمير ، وقد يستعمل بمعنى الإثبات بالدليل .

والبيان عند البلاغيين : هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بتركيب مختلفة فى وصوح الدلالة على المعنى المراد ، بأن تكون دلالة بعضها أجلى من بعض (١).

ويعالج الجاحظ موضوع البيان ومفهومه فيقول : إن الدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان الذى سمعت الله - عز وجل - يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه ، بذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف العجم .

ويمضى الجاحظ فى علاجه لمصطلح البيان قائلا : والبيان اسم جامع لكل شىء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضى السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصولة كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أى جنس كان ذلك الدليل ؛ لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأى شىء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع (٢).

وعلم البيان هو الذى يحتز به عن التعقيد المعنوى ، وسمى كذلك - أى : سمي علم البيان - لأنه له مزيد تعلق بالوضوح والبيان من حيث إن علم البيان يعرف به

(١) معجم البلاغة العربية ، مادة (البيان) ورقمها ٩٣ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ٧٥ ، ٧٦ .

اختلف طرق الدلالة في الوضوح والبيان ، وإن كثيرا من البلاغيين يسمي علوم البلاغة الثلاثة - المعانى والبيان والبديع - علم البيان ، لتعلقها جميعا بالبيان ، وهو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير (١).

ويذهب الإمام يحيى بن حمزة في تعريف البيان مذهبا مغايرا حين يقرر أن البيان مورده المجاز على أنواعه ، وذلك في قوله : اعلم أن علم البيان من عوارض الألفاظ ، ومورده المجاز على أنواعه ، ومعناه : إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه والنقصان ، فعلى قدر إغراق المجاز وحسنه يزيد المعنى وضوحاً ، وعلى قدر نزوله وبُعْده ، ينتقص المعنى (٢).

ومهما كان الأمر فقد استقر البلاغيون على موقف شبه محدد في أن موضوعات البيان هي التشبيه والتمثيل والاستعارات والمجاز والكنائيات .

(١)

التمثيل والمماثلة والمثل :

لقد عمدنا إلى إيراد العنوان على هذا النمط حتى لا ينصرف ذهن القارئ إلى التمثيل الذي هو التشبيه ، أو إلى المثل السائر ، ومن ثم أوردنا لفظ المماثلة ، وهي أن تمثل شيئا بشيء آخر مثل قوله ﷺ :

« ظَهَرُ الْمُؤْمِنِ مَشْجَبُهُ ، وَخِرَانَتُهُ بَطْنُهُ ، وَرَاحِلَتُهُ رَجُلُهُ ، وَذَخِيرَتُهُ رَبُّهُ » .

ومثل قوله أيضا : « الْمُؤْمِنُ فِي الدُّنْيَا ضَيْفٌ ، وَمَا فِي يَدَيْهِ عَارِيَّةٌ ، وَالضَّيْفُ مَرْتَحِلٌ ، وَالْعَارِيَّةُ مُؤَدَاةٌ ، وَنَعَمُ الصَّهْرِ الْقَبْرُ » .

ولقد ورد عن الرسول ﷺ في مجال الاعتصام بالكتاب والسنة والاستمسك بعرى الإيمان ، وعلاقته بالآخرين كثير من المماثلات التي كان ﷺ أحد طرفيها ، ولقد أرسلها جميعا لهدى الناس ووضعهم على المحجة البيضاء .

(١) معجم البلاغة العربية ، مادة (البيان) .

(٢) الطراز ٣ / ٢٢٨ .

عن أبي موسى عبدالله بن قيس الأشعري - رضى الله عنه - قال : (١)

قال رسول الله ﷺ : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قِيلَتِ الْمَاءُ ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءُ فَفَنَعَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا . فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلِمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ » (*) .

والحديث هو مثل للنبي في إبلاغه عن الله - عز وجل - ودعوته إلى سبيله وأنه بعثه رحمة للعالمين ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط مستقيم .

قال النووي : ضرب النبي ﷺ لما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه . وكذا كان حال الناس قبل مبعثه ، فكما أن الغيث يحيى البلد الميت فكذا علوم الدين تحيى القلب الميت ، ثم شبه السامعين له بالأرض المختلفة التي نزل الغيث بها ، فمنهم العالم المعلم فهو بمنزلة الأرض الطيبة التي شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها .

ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله ولم يتفقه فيما جمع لكنه أداه لغيره ، فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به ، وهو المشار إليه بقوله : « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها » .

ومنهم من سمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره ، فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء ، أو تفسده على غيرها .

(١) صحيح البخارى (كتاب العلم) وصحيح مسلم (كتاب الفضائل) حديث رقم ١٥ ، وأمثال الحديث للرامهرمزي ص ٢٤ .

(*) المفردات : الغيث : المطر . الكلا : الحشيش رطبه ويابس ، العشب : هو الرطب منه ، الأجادب : جمع أجداب ، من جذبت الأرض فلا تنبت شيئاً .

وقريب من التمثيل السابق ما عبر عنه رسول الله ﷺ بأن رسالته منجاة لمن تبعها ، ومهلكة لمن خالفها ، وذلك في الحديث الشريف : (١)

« إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم ، إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء ، فأطاعه طائفة منهم فأدجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة فأصبحوا مكانهم ، فصباحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، كذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق » (*) .

لقد خاطب رسول الله القوم بالأسلوب الذي هو مألوف عندهم بحيث يكونون أكثر استيعاباً له وأخذاً به ، وهو إلى الإطناب أقرب وإلى التفصيل أوفى ؛ حتى تستقر المعاني في نفوسهم ، وتنفذ إلى عقولهم وقلوبهم .

ولقد رَوَى الحديث السابق بصيغة أكثر تفصيلاً وتوضيحاً عن عبدالله بن يزيد عن أبيه أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم فنَادَى ثلاث مرات : « أيها الناس إن مثلي ومثلي ما بعثني الله به كمثل قوم خافوا عدواً أن يأتيهم فبعثوا رجلاً يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك إذ أبصر العدو فأقبل لينذر قومه ، فخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه : أيها الناس أتيتكم - ثلاث مرات - يا قوم إني رأيت الجيش بعيني ، وأنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذب طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصباحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به من الحق ، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق » (٢) .

ومن الأمثال التي تصور حاله ﷺ وحال بعض الناس الذين ينير لهم الطريق ،

(١) أمثال الحديث للرامهرمزي . ص ٢٠ .

(*) النذير العريان : الذي قد ظهر صدقه ، ومنها عرى الأمر : إذا ظهر . والطائفة من كل شيء : قطعة منه ، تقول : طائفة من الناس ، وطائفة من الليل . قال عز وجل : ﴿ وطائفة من الذين معك ﴾ .

(٢) صحيح البخاري (كتاب الرقاق) و (كتاب الاعتصام) . وصحيح مسلم (كتاب الفضائل) حديث رقم ١٦

وَيَمَهِّدُ لَهُمُ الْمَسَالِكَ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ، فَيَنْصَرِفُونَ عَنْهُ إِلَى الْمَهَالِكِ ، رَغْمَ حِرْصِهِ عَلَيْهِمْ ، وَالْأَخْذِ بِحُجَزَاتِهِمْ ، قَوْلُهُ ﷺ فِي حَدِيثٍ اسْتَمَدَ صِيغَتَهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ :

رَوَى الشَّيْخَانُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مِثْلِي وَمِثْلُ النَّاسِ : كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدُّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا ، وَجَعَلَ يَحْجِزُهُنَّ وَيَغْلِبُنَّهُ فَيَقَعْنَ فِيهَا ، فَأَنَا أَخَذَ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ ، وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا » .

وَلَفِظَ مُسْلِمٌ : « فَذَلِكَ مِثْلِي وَمِثْلُكُمْ ، أَنَا أَخَذَ بِحُجَزِكُمْ هَلَمَّ عَنِ النَّارِ فَتَغْلِبُونَنِي تَقْتَحِمُونَ فِيهَا » (١) .

وُثِمَتْ حَدِيثٌ آخَرُ عَنِ مَثَلِ الرَّسُولِ وَمَثَلِ مَنْ أَطَاعَ رِسَالَتَهُ ، وَمَنْ شَذَّ عَنْهَا ، وَفِيهِ حَبِيكَةُ التَّشْبِيهَاتِ ، وَرَقَّةُ الصُّوْغِ ، وَبِهَاءُ الْمَعَانِي ، مَعَ جَمَالِ التَّرْغِيبِ الَّذِي يَغْنَى عَنِ مَسَالِكِ التَّرْهِيْبِ .

عَنِ الْحَسَنِ قَالَ : (٢) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّمَا مَثَلِي وَمِثْلُكُمْ كَمِثْلِ قَوْمٍ سَلَكُوا مَقَازَةً غَيْرَاءَ ، لَا يَدْرُونَ مَا قَطَعُوا أَكْثَرَ ، أَوْ مَا بَقِيَ مِنْهَا ، فَحَسِرَتْ ظُهُورُهُمْ ، وَنَفِدَ زَادُهُمْ ، وَسَقَطُوا بَيْنَ ظَهْرِي الْمَفَازَةِ فَأَيَقِنُوا بِأَهْلَاكِ (فِي النَّصِّ : الْهَلَاكَةِ) فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ فِي حُلَّةٍ يَقْطُرُ رَأْسُهُ ، فَقَالُوا : إِنَّ هَذَا لَحَدِيثٌ عَهْدٍ بِرَيْفٍ ، فَانْهَى إِلَيْهِمْ فَقَالَ : يَا هَؤُلَاءِ مَا شَأْنُكُمْ ؟ فَقَالُوا مَا تَرَى كَيْفَ حَسِرَتْ ظُهُورُنَا وَنَفِدَتْ أَزْوَادُنَا بَيْنَ ظَهْرِي هَذِهِ الْمَفَازَةِ ، لَا نَدْرِي مَا قَطَعْنَا مِنْهَا أَكْثَرَ أَمْ مَا بَقِيَ ، فَقَالَ : مَا تَجْعَلُونَ لِي إِنْ أَوْرَدْتَكُمْ مَاءَ رِوَاءٍ وَرِيَاضًا خُضْرًا ؟ قَالُوا حُكْمَكَ . قَالَ : تُعْطُونَنِي عُهْرِدُكُمْ وَمَوَائِقَكُمْ أَلَّا تَعَصُونَنِي . ففعلوا ، فَمَالَ بِهِمْ فَأَوْرَدَهُمْ مَاءَ رِوَاءٍ وَرِيَاضًا خُضْرًا ، فَمَكَثَ يَسِيرًا ثُمَّ قَالَ : هَلُمُّوا إِلَى رِيَاضٍ أَعْشَبَ مِنْ رِيَاضِكُمْ هَذِهِ ، وَمَاءٍ أَرْوَى مِنْ مَائِكُمْ هَذَا ، فَقَالَ جُلُّ الْقَوْمِ : مَا قَدَرْنَا عَلَى هَذَا حَتَّى كُنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَيْهِ ،

(١) صحيح البخاري (كتاب الرقاق) وصحيح مسلم (الفضائل) حديث رقم ١٧ .

(٢) الزمهرزمي : أمثال الحديث ص : ٥٧ وقد ورد الحديث بصيغة مختلفة قليلا في مسند الإمام أحمد ١ / ٢٦٧ .

وقالَتْ طائفة منهم : أَلَسْتُمْ قد جعلتم لهذا الرجلِ عهدكم ومواثيقكم ألا تَعْصُوهُ وقد صَلَّاهُكُمْ في أوَّل حديثه ، فأخِرُ حديثه مثل أوَّلِهِ ، فراح وراحوا معه ، فأورَكَهُمْ رياضاً خُضْرًا وماءً رِواءٍ ، وأتى الآخرين العدو من ليلتهم فأصبحوا بين قتيلٍ وأسير .

وفي شأن الرسالة وكونها الخاتمة ، وشأن الرسول ﷺ وكونه خاتم الأنبياء المكمل لما جاءوا به من رسالات ، يضرب الرسول ﷺ مثلاً لنفسه ومثل الأنبياء السابقين على هذا النحو المتناهي بلاغة ، المتسامي صيغة وصورة وبياناً .

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضعَ لبنةٍ من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلاًّ وضعت هذه اللبنة !! قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » (١) .

إن الله أكمل بمحمد دينه ، وختم به رسالته ، وأتم به نعمته على المؤمنين ، والعرب تمثل ما يبالغون فيه من الوثاقة والأصالة وعقد المكارم وما شابه ذلك بالبيان ، والله - سبحانه - يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِينَ مَرْصُوصِينَ ﴾ (٢) .

وللمؤمن والفاجر في صيغ التمثيل التي رويت عن رسول الله ﷺ نصيب وافر ، إنه ﷺ يضرب مثلاً للمؤمن الذي يقرأ القرآن ، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ، والفاجر الذي يقرأ القرآن ، والفاجر الذي لا يقرأ القرآن ، ويصوغ لكل واحد من هؤلاء مشبهاً به لا تتوفر أسباب اكتمال الصورة المثلّي له إلا بمثل هذا النهج من البلاغة المحمدية . قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مرٌّ ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مرٌّ ولا ريح لها ، ومثل جليس السوء كصاحب الكير

(١) البخارى ، باب خاتم النبيين ٤ / ٢٢٦ .

(٢) سورة الصف ، الآية : ٤ .

إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه « (١). متفق عليه .

ولأن المؤمن لا يتأتى منه إلا النفع ، ولا يصدر عنه إلا الخير ، فإن رسول الله ﷺ قد اختار النحلة له مثلاً فقال - صلوات الله وسلامه عليه - :

« مثل المؤمن كمثل النحلة ، إن أكلت أكلت طيباً ، وإن وضعت وضعت طيباً ، وإن وقفت على عود نخر لم تكسره » (٢).

وفي مقام التربية المحمدية واختيار الجليس ، يتمثل الرسول ﷺ للجليس الصالح كما يتمثل لجليس السوء .

عن أبى موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكبر ، فحامل المسك إما أن يُحْدِثَكَ (*) ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكبر إما أن يُحْرِقَ ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة » (٣).

وتمثيل رسول الله ﷺ للصلاة مثل « فريد » أنيق ، فقد شبهها بنهر جارٍ على باب المسلم ، يغتسل فيه خمس مرات كل يوم ، وذلك في قوله الشريف : (٤)

« مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جارٍ غمرٍ على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات » .

ومن الطبيعي أن تكون « الدنيا » مجالاً للتناول في صيغ التمثيل التي طرحها رسول الله ﷺ في أحاديثه ، مثلما هو مجال للتناول في الكتاب العزيز ؛ لأن الدنيا مرتبطة بالآخرة إيجاباً وسلباً ، فالدنيا مزرعة الآخرة ، من زرعها بالخير جناه جنات في الآخرة وحسن ثواب ، ومن زرعها شروراً ومعصية جناه جحيماً وسوء مآب .

(١) ورواه النسائي ، وأورده النووي في رياض الصالحين في (كتاب الفضائل) باب فضل قراءة القرآن .

(٢) فتح القدير ٥ / ٥١٤ رقم ٨١٥٣ .

(*) يحْدِثَكَ : يعنى يعطيك .

(٣) رواه الشيخان والإمام النووي في رياض الصالحين في باب (زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبهم) ص ١٦٣ .

(٤) رواه مسلم ، وأورده الإمام النووي في رياض الصالحين في باب (فضل الأذان) .

لقد ورد ذكر « الدنيا » في القرآن الكريم في نحو مائة وثلاث عشرة آية ، وورد ذكرها في مقام التمثيل مرات غير قليلة ، ففي مقام التمثيل يقول - عز وجل - :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١).

ويقول - جل من قائل - : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعُ الْغُرُورِ ﴾ وذلك اجتزاء من الآية الكريمة : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعُ الْغُرُورِ ﴾ (٢).

ويقول - عز وجل - : ﴿ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لَمْتَعٌ ﴾ (٣).

ويقول - عز وجل - : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَتْ وَظَرْبَ أَهْلِهَا أَنْتَهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرٌ نَالِيلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤).

ويقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (٥).

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١١٧ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٥ .

(٣) سورة الرعد ، الآية : ٢٦ .

(٤) سورة يونس ، الآية : ٢٤ .

مُقَدِّراً ﴿١﴾.

إن القارئ الفطن وهو يستقرى آيات التمثيل المختصة بالدنيا في القرآن الكريم يلاحظ أن السياق المعنوي فيها منصرف إلى التحذير منها والاحتراز من شرورها ، وكذلك فعل رسول الله ﷺ وهو يعرض لها .

قال رسول الله ﷺ : « نَعِمَتِ الدَّارُ الدُّنْيَا لِمَنْ تَزَوَّدَ فِيهَا خَيْرًا لِآخِرَتِهِ مَا يُرْضِي بِهِ رَبَّهُ ، وَبُشَّتِ الدَّارُ الدُّنْيَا لِمَنْ صَدَّقَتْهُ عَنْ آخِرَتِهِ وَقَصَّرَتْ بِهِ عَنْ رِضَى رَبِّهِ ، وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : قَبِّحَ اللَّهُ الدُّنْيَا قَالَتِ الدُّنْيَا : قَبِّحَ اللَّهُ أَعْصَانَا لِرَبِّهِ » (٢) .
 إن قوله ﷺ :

« قصرت به عن رضى ربه » يعنى قصّر هو بها عن رضى ربه . وقوله : « قالت الدنيا : قبح الله أعصانا لربه » يعنى أن العاصي هو المقبوح فيها ، فجعل الاتعاظ بها بمعنى القول منها .

وعن عبدالله بن مسعود قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير قد أثر الشريط في جنبه ، فقلت : لو نِمْتُ يا رسول الله على ما هو ألين من هذا ؟! فقال : « مَالِي وَلِلدُّنْيَا ، إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ الدُّنْيَا كَمِثْلِ رَجُلٍ مَرَّ بِأَرْضٍ فَلَاحَ ، فَرَأَى شَجَرَةً فَاسْتَظَلَّ تَحْتَهَا ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا » (٣) .

والمعنى المستخلص من هذا الحديث : هو سرعة انقطاع الدنيا بصاحبها .
 وثبت حديث آخر في شأن حقارة الدنيا ورخص شأنها وهوانها على الله ، ما رواه المستورد بن شداد عن النبي ﷺ قال : وإني لفي ركب مع النبي ﷺ إِذْ مَرَّ بِسَخْلَةٍ (*) منبوعة ، فقال : « أَتُرُونَ هَذِهِ هَانَتْ عَلَى أَهْلِهَا ؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا » (٤) .

(١) سورة الكهف ، الآية : ٤٥

(٢) أمثال الحديث لابن خلاد الرامهرمزي ص : ٥٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص : ٥٥ .

(*) السخلة : ولد الشاة ، وهى اسم يجمع الذكر والأنثى . والمنبوعة : الملقاة ، من نبذت الشيء : إذا ألقيته .

(٤) المصدر السابق . ص : ٥٦ .

وعن مجتمع المسلمين وما يحدث فيه من انحرافات تؤدي إلى فساد وإيقاع الضرر بالجمهرة فيما لو ترك للمنحرفين الحبل على الغارب ، يعالج رسول الله ﷺ هذه القضية التي شاعت في مجتمع زماننا ، ويشبه المجتمع بسفينة فيها أخلاط من الناس : ملتزم ومتهاون ، ومستمسك ومترخص ، وفطن وساذج ، فكيف يكون علاج الموقف ؟ هذا هو ما يتناوله الرسول ﷺ في حديث السفينة : (١).

عن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : « مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلَامًا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ ، فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ تُؤَدِّ مَنْ فَوْقَنَا ، لَفَانَ تَرَكَوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَّوْا وَنَجَّوْا جَمِيعًا » (*) . رواه البخارى .

إن كثيرا من الأميين الدينيين - ويطلقون على أنفسهم صفة العلمانية - يطالبون بحرية القول ، وتعنى حرية القول عندهم الطعن في دين الله ، والدعوة إلى الإباحية والمجون ، والخوض في قضايا الجنس ، وتسفيه ما اصطلاح مجتمع المسلمين عليه من تماسك وعفة وأدب ، إن مثل هؤلاء كمثل ركاب السفينة ، لو خُلِّ بينهم وبين ما يريدون غرقوا وأغرقوا معهم الآخرين ، وإن حِيلَ بينهم وبين ما يريدون فعله نَجَّوْا ونجا معهم سائر المجتمع .

وعلى النهج نفسه من تربية المجتمع أخلاقيا وإسلاميا ما ضربه الرسول ﷺ مثالا للإسلام والقرآن وحدود الله ، ليكون ذلك سبيلا إلى الجنة ، وطريقا يؤدي إلى دخولها .

أما الحديث الشريف الذى ساق الرسول ﷺ المثل من خلاله ، فهو قوله ﷺ (٢):

(١) رياض الصالحين : باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ص : ٩٧ .
(*) القائم في حدود الله : هو المنكر لها القائم في دفعها ومقاومتها ، والمراد بالحدود : ما نهى الله عنه . استهموا : يعنى اقترعوا .

(٢) الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام ، ص : ٣٤ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٤ / ١٨٢ .

« ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَعَلَى جَنْبَيْ الصِّرَاطِ سُورٌ فِيهِ أَبْوَابٌ مَفْتُوحَةٌ ، وَعَلَى تِلْكَ الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرَخَّاءٌ ، وَعَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : ادْخُلُوا الصِّرَاطَ وَلَا تَعُوجُوا » .

قال : فالصِّراط : الإسلام ، والسُّتُور : حدود الله ، والأبواب المفتحة : محارم الله ، وذلك الداعي : القرآن .

ومن أحاديث رسول الله ﷺ المشتملة على التمثيل الذي يُعَلِّمُ به الصحابة الصبر وسعة الصدر والحلم في مواقف الغضب ، وضرورة الالتزام بهذه الصفات ما رواه القاضي عياض قال :

روى أن أعرابيا جاءه ﷺ يطلب منه شيئا فأعطاه ، ثم قال : « أحسنت إليك ؟ » قال الأعرابي : لا ، ولا أجملت . فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار ﷺ إليهم أن كُفُّوا ، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئا ، ثم قال : « أحسنت إليك ؟ » قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال له النبي ﷺ : « إنك قلت ما قلت ، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك » قال : نعم ، فلما كان الغد أو العشي جاء ، فقال ﷺ : « إن هذا الأعرابي قال ما قال فردناه فرغم أنه رضى ، أكذلك » ؟ قال - أى : الأعرابي - : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال النبي ﷺ : « مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفورا ، فناداهم صاحبها : خلّوا بيني وبين ناقتي فإنني أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قهام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها واستوى عليها ، وإنني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه ، دخل النار » (١) .

تلك نماذج بيانية من أحاديث رسول الله ﷺ في المثل أو التمثيل أو المماثلة ، وما من حديث منها إلا وهو قمة الإعجاز الأسلوبى البشرى ، مستهدفا الهداية والتربية وسداد السلوك وحسن الخلق وكمال الدين ، وهى في جملتها نبراس للبلغاء ، بها يستضيئون ، ونبع للفصحاء ، منها يرتوون ، وهدى للدهماء والأسوياء بها ينصرون ويهتدون .

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١ / ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٢)

التشبيه :

التشبيه - طبقا لتعريف البلاغيين - : هو الإخبار بالشبه ، وهو اشتراك الشيئين في صفة أو أكثر ولا يستوعب جميع الصفات ، أو هو الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ، أو هو صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة ، لا من جميع جهاته ، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه .

ولقد جعل البلاغيون للتشبيه أركاناً أربعة ، هي : المشبه ، والمشبّه به - ويسميان طرفي التشبيه - وأداة التشبيه ، ووجه الشبه الذي يجب أن يكون أقوى وأظهر في المشبه به منه في المشبه .

هذا والتمثيل ضرب من ضروب التشبيه ، غير أن التشبيه عام والتمثيل أخصّ منه ، فكل تمثيل تشبيه - وقد لاحظنا ذلك عند تعرضنا للتمثيل - وليس كل تشبيه تمثيلاً (١).

ففى بيت قيس بن الخطيم :

وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى

كعنقود ملاحية حين نَوَّرَا

تشبيه حسن ولكن لا نستطيع القول إنه تمثيل ، وكذلك الحال في قول ابن المعتز

قد انقضت دولةُ الصيام وقد

بَشَّرَ سَقْمُ الهلال بالعيدِ

يتلو الثريا كفاغبر شره

يفتحُ فاه لأكل عُقُودِ

وأما التمثيل فمثل قول صالح بن عبد القدوس :

(١) أسرار البلاغة ، ص : ٨٤ .

وإنَّ من أدبته في الصِّبا كالعود يُسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً بعد الذي أبصرت من يُبسِّه

ولقد أوردنا في الصفحات السابقة قبائل من نماذج التمثيل التي جاءت في أحاديث رسول الله ﷺ .

ومن الأمور التي لاحظناها في موضوعنا هذا ، أن التمثيل في كلام الرسول ﷺ من الوفرة بمكان ، وليس الأمر كذلك في التشبيهات ، ذلك لأن طبيعة التمثيل أقرب إلى نهج التربية والتوجيه ومضمار الخير وطريق الشر .

وأما التشبيهات فوظيفتها بلاغية أكثر منها تعليمية تبشيرية ، وها نحن نعرض نماذج من التشبيهات النبوية :

عن أنس : كان النبي في بعض أسفاره ، وغلّام أسود يقال له أنجشة يحدو ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أنجشة : رُوَيْدًا سَوْقَكَ بالقَوَارِيرِ » (١) .

إن الرسول كنّى عن ذكر النساء بالقوارير ، شَبَّهَنَّ بها لرقتهن ، وضعفهن من الحركة ، وضعف البنية ، وقلة التحمل ، وهناك من جعل معنى الحديث : سقهن كسوقك بالقوارير .

ومن تشبيهات رسول الله ﷺ قوله في الصحابة : « مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام ، لا يصلح الطعام إلا بالملح » .

وهذا تشبيه عقلى أو هو صورة عقلية ، وهو أن الناس يصلحون بالصحابة كما يصلح الطعام بالملح ، والشبه بين صلاح العامة بالخاصة وبين صلاح الطعام بالملح لا يتصور أن يكون محسوساً (٢) .

وهناك من أقوال رسول الله ﷺ ما يعد تشبيه مفرد بمركب ، والمثال على ذلك : « الكمأة جذرى الأرض » (٣) والكمأة : ثمرة درنية مثل البطاطة تنمو تحت الأرض ، ثم

(١) أمثال الحديث لابن خلاد الرامهرمزي ، ص : ١٢٧ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ٦٤ .

(٣) المثل السائر ٢ / ١٢٤ ، ١٣٨ طدار الرفاعي .

إذا ما قاربت النضوج ظهرت قرية على وجه الأرض كالفقاعة ، ولذلك فإن سكان الأقطار الخليجية يسمونها الفقع .

وهذا التشبيه فضلا عن كونه تشبيه مفرد بمركب ، فهو أيضا تشبيه بليغ ، لعدم إثبات أداة التشبيه ، وهو كذلك من التشبيهات التي تقع موقع المبتدأ والخبر .

على أن أكثر التشبيهات النبوية قد جاءت في صورة تشبيه مركب بمركب مع اختلاف صيغ التشبيه نفسه .

يقول ﷺ : « وهل يكُبُّ الناس على مناخرهم في نار جهنم إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ »^(١).

فكان الرسول ﷺ قال : كلام الألسنة كحصائد المناجل ، وهو نوع من التشبيه لا يكون المشبه به مذكورا فيه ، وإنما تذكر صفته ، فالمنجل هنا - وهو المشبه به - لم يذكر، وإنما ذكرت صفته وهو الحصد . والتشبيه - كما أسلفنا - تشبيه مركب بمركب .

هذا ، وإن فحوى هذا التشبيه النبوى الشريف هو النهى عن الغيبة والنميمة ، وهو أبلغ مرات عديدة من النهى المباشر .

ومن التشبيهات النبوية الفريدة في بنيتها ومرماها البعيد ، قوله ﷺ : « الناس كإبل المائة ، لا تكاد تجد فيها راحلة »^(٢).

(١) المصدر السابق ٢ / ١٢٥ ، ورياض الصالحين ، باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان ص : ٤٩٣ ط- مصطفى محمد . وقام الحديث هو : عن معاذ - رضى الله عنه - قال : قلت : يا رسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار ، قال : « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يشاء الله تعالى عليه ، تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل من جوف الليل » ثم تلا : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ ﴿ يعملون ﴾ ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ » قلت : بلى يا رسول الله . قال « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد » ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » قلت بلى يا رسول الله . فأخذ بلسانه قال : « كفَّ عليك هذا » قلت : يا رسول الله : وإنا لمؤاخذون بها نتكلم به ؟ فقال : « تكلمك أمك ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلاَّ حصائد ألسنتهم » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) أسرار البلاغة للإمام الجرجاني ، ص : ١٠٠ .

والتشبيه هنا مثل سابقه من حيث كونه تشبيه مركب بمركب ، ولكن الخلاف بينهما هو أن التشبيه السابق لم يكن يتحتم فيه ذكر المشبه به ، بينما يجمل في هذا الحديث أن يذكر المشبه به ، وإلا كان المعنى مختلا ، والتعسف ظاهرا ، وهو ما يتنزه أسلوب رسول الله ﷺ عن التورط فيه . والمقصود بالراحلة : كل بعير نجيب قوى على الأسفار والأعمال ، ومناطق التشبيه هنا أن الكامل في الخير والزهد في الدنيا مع رغبته في الآخرة والعمل لها قليل ، مثلما أن الراحلة النجبية نادرة في الإبل الكثيرة .

ومن تشبيهات رسول الله ﷺ الفريدة المثل في اختيار الجليس - وقد سبق ذكره - قوله: (١)

« إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ؛ فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحا خبيثة » . متفق عليه

ومن التشبيهات النبوية . المركبة وقد سبق رواية الحديث بصيغة أخرى - قوله ﷺ :

« مَثَلُ الْمُؤْمَنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرَجَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ ، وَمَثَلُ الْمُؤْمَنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الثَّمَرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحُهَا ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْخَنْزَلَةِ ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا مَرٌّ » .

إن النبي ﷺ شبه المؤمن القارئ وهو متصف بصفتين هما الإيمان والقراءة بالأترجة ، وهى ذات وصفين ، هما الطعم والريح الطيب ، وكذلك يجري القياس في المؤمن غير القارئ ، وفي المنافق القارئ ، والمنافق غير القارئ ، وهذا التشبيه أيضا من باب تشبيه المركب بالمركب .

ونعود فنكرر القول بأن الرسول ﷺ كان يعالج قضايا الإسلام عن طريق التمثيل ، وهو النهج الذى بدا واضحا في القرآن الكريم ، والعلة في ذلك هو ما سبق أن ذكرناه من أن كل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا .

(١) أورده الإمام النووي في رياض الصالحين ، في باب زيارة أهل الخير ومجالستهم ، ص : ١٦٣ كما أورده ضياء الدين ابن الأثير في المثل السائر ٢ / ١٤٥ طه الرفاعي .

(٣)

المجاز:

المجاز - كما يعرفه عبد القاهر الجرجاني - : هو كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز ، وإن شئت قلت : كل كلمة جرت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعها للملاحظة بين ما تُجَوِّزُ بها إليه وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز^(١).

وأما ابن رشيق فهو يقدم للمجاز تعريفاً أسهل من ذلك الذي قدمه عبد القاهر ، وذلك إذ يقول : معنى المجاز : طريق القول ومأخذه ، وهو مصدر « جُرْتُ بِجَازٍ » كما تقول : قمتُ مقاما ، قلتُ مقالا . ويمضي ابن رشيق إلى القول : والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة ، وأحسن موقعا في القلوب والأسماع ، وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن مُحَالاً مُخَضّاً فهو مجاز لاحتيماله وجوه التأويل ، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز ، إلا أنهم خصّصوا به - أعنى اسم المجاز - بابا بعينه ، وذلك أن يسمى الشيء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب ، كما قال جرير :

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا

أراد المطر ؛ لقربه من السماء ، ويجوز أنه أراد بالسماء السحاب لأن كل ما أظلك فهو سماء ، وقال « سقط » يريد سقوط المطر الذي فيه ، وقال : « رعيناه » والمطر لا يرعى ، ولكن أراد النبت الذي يكون عنه ، فهذا كله مجاز^(٢).

ويذهب الإمام يحيى بن حمزة إلى أن المجاز هو مورد البيان وذلك في قوله : اعلم أن علم البيان من عوارض الألفاظ ، ومورده المجاز على أنواعه ، ومعناه إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه والنقصان ، فعلى قدر إغراق المجاز وحسنه يزيد المعنى وضوحا ، وعلى قدر نزوله وبُعْده يتقص المعنى^(٣).

(١) أسرار البلاغة ، ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٢) العمدة ١ / ٢٦٥ ، ٢٦٦ ط دار الجيل .

(٣) الطراز ٣ / ٢٢٨ .

ويعلل ابن رشيق كون التشبيه من المجاز وكون الكناية من المجاز بقوله : وأما كون التشبيه داخلاً تحت المجاز فلأن المتشابهين في أكثر الأشياء إنما يتشابهان بالمقاربة على المسامحة والاصطلاح ، لا على الحقيقة ، وكذلك الكناية في مثل قوله - عز وجل - عن عيسى ومريم - عليهما السلام - : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ كناية عما يكون عنه من حاجة الإنسان ، وقوله - تعالى - عن آدم وحواء - صلى الله عليهما - ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا ﴾ كناية عن الجماع ، وقول النبي ﷺ لحاد كان يحدو به : « إياك والقوارير » كناية عن النساء لضعف عزائمهن (١).

ونحن حين نعرض للمجاز النبوي ومن قبله مجاز القرآن ، فإنه ينبغي أن نفطن إلى أن القرآن الكريم نزل بالأسلوب الإلهي المعجز حاوياً كل أسباب البلاغة ، حاملاً كل ألوان البيان ، حيث لم يكن هناك حين نزول الوحي نقاد أو دارسون قد تعارفوا على أن يطلقوا هذا النوع أو ذاك من الأشكال البلاغية : اسم التشبيه أو المجاز أو الاستعارة أو الكناية ، أو الجناس أو المقابلة أو التصريح إلى غير ذلك من الأسماء . والشئ ذاته ينطبق على كلام رسول الله ﷺ فالقرآن ممثلاً في كتاب الله ، والسنة ممثلة في حديث رسول الله ﷺ متعاصران : الوحي ينزل مفرقاً ، والرسول ﷺ تصدر عنه الأحاديث متتابعة ، شرحاً للعقيدة وإكمالاً للأحكام وتبييناً للقرآن وإرساءً للشريعة وتعليماً للصحابة .

فلما تفتحت الآفاق في العلوم الدينية واللغوية والأدبية كان علم البلاغة والبيان واحداً من هذه العلوم التي كان ههما الأول دراسة إعجاز القرآن ، ثم دراسة الحديث النبوي الشريف ، ومنها إضافة إلى التراث الأدبي وبخاصة الشعر ، كان استخلاص العلوم البلاغية والبيانية ، إنهم جمعوا المادة ، ومنها استنبطوا القواعد ثم قاموا على تطبيقها ، ولذلك سوف يكون عرضنا للمجاز في حديث رسول الله ﷺ مرتبطاً بالمعاني السامية التي تناوها الرسول بأسلوبه البشري المعجز ، وليس ارتباطاً بما تعارف عليه النقاد من مجاز لغوي أو مجاز عقلي .

إن أول ما نعرض له من المجازات النبوية فريق منها مرتبط بالإسلام كعقيدة ثابتة

(١) العمدة ١ / ٢٦٨ .

الأركان لا تهتز بالأحداث ، ومن ثم ينبغي أن يكون التعامل معها صادراً من هذا الثبات .

يقول ﷺ في هذا المقام :

« إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

يقول الشريف الرضي في هذا المجاز : إنه وصف الدين بالمتانة ، والمراد أنه صعب الظهر ، شديد الأسر ، مأخوذ من متن الإنسان وهو ما اشتد من لحم منكبيه ، وقد وصفه رسول الله بذلك لمشقة القيام بشرائطه ، والأداء لوظائفه ، فأمر - عليه الصلاة والسلام - أن يدخل الإنسان أبوابه مترقياً ، ويرقى هضابه متدرجاً ، ليستمر على تجشم متاعبه ، وشبه - عليه الصلاة والسلام - العابد الذي يتعب نفسه ويستنفد طاقته بالمنبت ، وهو الذي يغذ السير ويتعب ظهر الدابة منقطعاً من رفقته ، ومنفرداً عن صحابته ، فتعجز مطيته عن إكمال المسير ، ولا يقطع شقة الطريق (١).

ثم يكون المجاز التالي حول فضل الإسلام على معتنقيه ، وأنه مستأصل للذنوب المسلم قبل إسلامه ، وفيه يقول ﷺ :

« الإسلام يجب ما قبله » وهو مجاز ، لأن الفعل (جب) يعنى اختزال سنام الإبل من أصله ، فكأنه ﷺ جعل الإسلام مستأصلاً لكل الذنوب التي اقترفها المسلم قبل إسلامه ، ويعفى على كل ما تقدم من الجنايات والسوءات (٢).

والمجاز الثالث حول الإسلام يتسق في جلاله مع سمو الصياغة المحمدية ، والإعجاز البشري للبلاغة النبوية ، يقول ﷺ :

« إن الله - سبحانه - جعل الإسلام داراً ، ولجنة مأدبة ، والداعي إليها محمداً - صلى الله عليه وعلى آله » (٣).

(١) المجازات النبوية ، ص : ١٧٦ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ٥١ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ١٤٣ .

والمجاز هنا هو أنه ﷺ أقام الإسلام مقام الدار ، والجنة مقام المأدبة ، والنبي مقام الدال عليها والداعى إليها ، وهو مجاز غير مسبوق في موضوعه ، ولا ملحق في رفته وبلاغته .



أما وقد أوردنا مجازات الرسول ﷺ عن الإسلام ، فمن الطبيعي أن نعرض الحديث التالى عن كتاب الإسلام ، وهو القرآن الكريم ، وذلك في قوله - عليه الصلاة والسلام - : « إن القرآن شافعٌ مشفعٌ ، ومَاحِلٌ مُصَدِّقٌ » ^(١) وهذا القول مجاز ، والمراد هنا أن القرآن سبب لثواب العامل به ، وعقاب العادل عنه ، والماحل : هو الشاكى .

والصلاة عماد الإسلام ، أو هى - طبقا للحديث النبوى الشريف - عماد الدين ، وهى لذلك تستأثر بهذا النطق النبوى الشريف البليغ الرفيع :

« لكل شىء وجه ، ووجه دينكم الصلاة ، فلا يشين أحدكم وجه دينه ، ولكل شىء أنف ، وأنف الصلاة التكبير » ^(٢) .

والمراد هنا أن الصلاة يعرف بها جملة الدين ، كما أن الوجه يعرف به جملة الإنسان ؛ لأنها أظهر العبادات ، وجعل أنفها التكبير ، لأنه أول ما يبدو من أشراتها ، ويسمع من أركانها .

والتكبير مثلما يكون فى الصلاة إحراماً وركوعاً وقياماً وسجوداً ، فهو أيضا استهلال الأذان ، ثم يكون النطق الثانى فيه - يعنى فى الأذان - : شهادة أن لا إله إلا الله .

سمع رسول الله ﷺ مؤذناً يقول : « أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال : صدَّقَكَ كُلُّ رطبٍ ويابسٍ » ^(٣) .

والمجاز هنا أن الرطب واليابس من الشجر والعشب والماء والتراب لا كلام لهما ، ولا روح فيهما ، وإنما أراد ﷺ أن تصديقهما بلسان الخلق لا بلسان النطق ، فجميع

(١) المصدر السابق ، ص : ٢٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، ١٦٧ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ١٧٨ .

المخلوقات شاهدة بأن لا إله إلا الله من شواهد الصانع الحكيم ، فهي من هذه الوجوه متكلمة وإن كانت خرساء ، ومفصحة وإن كانت عجماء .



والعلم في الإسلام فريضة بنص حديث رسول الله ﷺ وإن السورتين الأولى والثانية في ترتيب النزول القرآني تحضان على العلم ، الأولى ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمَاءِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ والثانية قسم بالحرف والقلم وما يسطره ﴿ تَوَلَّى الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ومن ثم كان العلم حرياً بتشريف رسول الله لذكره ، فقال في ذلك أكثر من حديث ، بعضها من قبيل المجاز الرفيع ، قال ﷺ :

« العلم خزائن ، ومفتاحها السؤال ، فاسألوا رحمكم الله ، فإنه يؤجر أربعة : السائل ، والمجيب ، المستمع ، والمحِبُّ لهم »^(١).

وهذا القول أيضاً مجاز ، والمراد تشبيه العلم في قلوب العلماء بالخزائن المستغلقة ، وإنما تفتح بسؤال السائلين ، ويستخرج ما فيها يبحث الباحثين .

ثم يكون الحديث النبوي التالي مجازياً مرتبطاً بالعلم والعقل والنفس . يقول الهادي البشير - صلوات الله وسلامه عليه - :

« العلم رائد ، والعقل سائق ، والنفس حرون »^(٢)

إن كل جملة هنا مجاز ، فقد شبه العلم بالرائد الذي يتقدم أمام الحى فيدهم على المنزل الخصيب ، وشبه العقل بالسائق لأنه يحث الإنسان على سلوك النهج الأسلم ، ويحمله على الذهاب في الطريق الأقوم ، وشبه النفس بالدابة الحرون ؛ لأنها تتقاعس عن الرشد ، وتضرب بالسوط حتى تسلك الطريق الصالح .



(١) المجازات النبوية ، ص : ١٦٩ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٦١ .

وَلَمَّا لِلْأَنْصَارِ مِنْ مَكَانَةٍ فِي قَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِقِيَامِهِمْ بِنَصْرَتِهِ يَوْمَ أَنْ عَادَاهُ الْأَهْلُ
وَانْفَضَّ عَنْهُ الْقَرِيبُ ، فَقَدْ وَرَدَتْ كَثِيرٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي فَضْلِهِمْ ، وَالْإِشَادَةِ
بِشِمَائِلِهِمْ ، وَتَكْرِيمِ الرَّسُولِ لَهُمْ .

فَمِنْ مَجَازَاتِهِ ﷺ قَوْلُهُ لِلْأَنْصَارِ : « أَنْتُمْ الشُّعَارُ ، وَالنَّاسُ الدُّثَارُ » (١) .

وَالشُّعَارُ : هُوَ الثُّوبُ الَّذِي يَلْبَسُ بِهِ الْإِنْسَانُ ، وَالدُّثَارُ هُوَ مَا يَتَدَثَّرُ بِهِ وَيَكُونُ فَوْقَ
الْمَلَابِسِ الدَّاخِلِيَةِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ الْأَنْصَارَ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ، وَبَقِيَّةُ النَّاسِ
أَبْعَدُ مِنْهُمْ مَكَانًا وَمَكَانَةً .

وَمِثْلُهَا احْتِفَالُ الرَّسُولِ ﷺ بِالْأَنْصَارِ تَكْرِيمًا وَثَنَاءً ، فَقَدْ رَوَى عَنْهُ ﷺ كَثِيرٌ مِنَ
الْأَحَادِيثِ حَوْلَ الصَّحَابَةِ خَاصَّةً مِنْ مُهَاجِرِينَ وَأَنْصَارٍ ، وَحَوْلَ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً فِي كُلِّ
الْأَزْمَةِ وَجَمِيعِ الْأَمَكَةِ ، وَهُوَ ﷺ يَشْرَعُ لِلْعَلَاqَاتِ الَّتِي تَرْبِطُهُمْ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ عَلَى هَذَا
النَّحْوِ النَّبِيلِ مِنَ الْقَوْلِ الرَّفِيعِ :

« الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ » (٢) .

وَالْمَعْنَى أَنَّ مِثْلَهُمْ مَعَ كَثْرَتِهِمْ فِي وَجوبِ الْإِنْفَاقِ بَيْنَهُمْ مِثْلَ الْيَدِ الْوَاحِدَةِ ، فَكَمَا لَا
يَتَصَوَّرُ أَنْ يَخْذُلَ بَعْضُ أَجْزَاءِ الْيَدِ بَعْضًا ، وَأَنْ تَخْتَلِفَ بِهَا الْجِهَةُ فِي التَّصَرُّفِ ، كَذَلِكَ
سَبِيلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَعَاظُدِهِمْ عَلَى الْمَشْرِكِينَ ؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ جَامِعَةٌ لَهُمْ ، فَلِذَلِكَ
كَانُوا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ .



وَالْجَنَّةُ هِيَ جَائِزَةُ الْمَوْلَى - جَلَّ وَعَزَّ - لِلْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ . وَالنَّارُ جَزَاءُ الْمَشْرِكِينَ
الْكَافِرِينَ ، وَقَدْ وَرَدَتْ كَثِيرًا فِي أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ ﷺ يُعَرِّضُهَا هُنَا فِي مَجَالِ
التَّعْبِيرِ الْمَجَازِيِّ النَّبَوِيِّ الرَّفِيعِ :

قَالَ ﷺ : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » (٣) .

(١) المجازات النبوية ، ص : ٤٢ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص : ٣٣٦ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ٣٠٣ .

والمراد أن جميع الأعمال التي تؤدي إلى الجنة وتوصل إليها طريقها وعر ، ومذاقها مرّ، ولذلك قيل : « حفت الجنة بالمكاره » على سبيل المجاز .

وعلى عكس ذلك لما كانت الأفعال المؤدية إلى دخول النار كثيرة الملائد ، صار من البلاغة أن يقال : « حفت النار بالشهوات » .

ثمت حديث آخر حول مؤهلات أهل الجنة ومواصفاتهم ، إنه لا يدخلها إلا من كان مؤهلاً لها ، وهو ما يصوره الرسول ﷺ في كلمات قليلة .

يقول ﷺ في مقام المجاز : « لا يدخل الجنة لحمٌ نَبَتَ من سُحْتٍ » (١).

هذا القول مجاز ؛ لأنه ﷺ شبه أعضاء الجسم بنبات أغصان الشجر لما بينهما من التشابه ، فالعروق كالعروق ، واللحاء كالجلد ، والإبراق كالحياة ، واليبس كالوفاة .



ومثلما كرم الرسول ﷺ الأنصار وهم أهل المدينة المنورة ، فكذلك انصرف اهتمامه كثيراً إلى تكريم المدينة نفسها ، وذلك في الأمر الإلهي الذي صدر إليه باختيارها مهاجراً له ولصحابته .

قال ﷺ : « أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى ، تَنْفِي الْخَبَثَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ » (٢).

فقوله : « أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى » مجاز ، والمراد أن أهلها يقهرون أهل القرى فيملكون بلادهم ويغنمون أمواهم ، فكأنهم يأكلونهم . والمراد بقوله : « تَنْفِي الْخَبَثَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ » أن أهلها يتمحصون فينتفي عنها الأشرار ، ويبقى بها الأخيار .

ولقد كرم رسول الله ﷺ المدينة المنورة بامتداحها حين امتدح جبل « أحد » ولعل الرسول الكريم قد اختار جبل أحد بذاته لما يرتبط به من ذكرى ماثلة في أذهان المسلمين

(١) المجازات النبوية ، ص : ٨٥ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ٢٥٥ .

لما أصيبوا بجواره من الهزيمة المعروف خبرها ، فأراد الرسول أن يلبسه ثوبا من التكريم
تزلزل معه ذكريات الهزيمة الأليمة .

قال رسول الله ﷺ وقد نظر إلى جبل « أحد » منصرفه من غزاة خيبر : « هذا جبل
يحبُّنا ونحبُّه »^(١) وهو قول محمول على المجاز ؛ لأن الجبل لا يحب ولا يُحَبُّ ، والمراد
أن « أَحَدًا » جبل يحبنا أهله ونحبُّ أهله ، وأهله هم أهل المدينة من الأنصار ، وهم
الأوس والخزرج .

وكانت الخيل مناط اهتمام رسول الله ﷺ فهي عدة الإنسان في الحرب والسلام ،
وللرسول فيها أقوال كثيرة ما بين مجازات واستعارات وتشبيهات .

قال ﷺ في الخيل : « ظهورها حِرْزٌ ، وبطنها كنزٌ »^(٢) والمراد أنها منجاة من
المعاطب وملجأة عند المهارب إذا ركبت ، وأنها تنمى الأموال باستيداع بطنها نطف
الفحولة فتلد لهم الجياد النجبية .

ومن أقوال الرسول ﷺ التي جرت مجرى الأمثال السائرة في الخيل ، وهي في الوقت
نفسه تدخل تحت باب المجاز، عبارته البليغة : « الخيل معقودٌ بنواصيها الخير »^(٣) ففي
« الحقيقة » لا يتصور أن نواصي الخيل ينقذ بها الخير ، وإنما المراد أن الخير كثيرا ما
يدرك بواسطة الخيل ويوصل إليه عليها ، فهي كالوسائل إلى بلوغه ؛ لأنهم عليها
يفوقون الأعداء ، ويبلغون العلياء ، ويصيبون المغانم ، فكأنه معقود بنواصيها لشدة
ملازمته لها .



وفي تمجيد الكرماء وتشجيع العطاء والترغيب في الإنفاق والإكثار من بذل
الصدقات تروى كثير من أحاديث رسول الله ﷺ .

قال ﷺ : « اليد العليا خير من اليد السفلى »^(٤) وهو في فن المجاز من القمة ؛ لأن

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢٥ .

(٢) المجازات النبوية ص : ٢٨ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ٤٩ .

(٤) المجازات النبوية ، ص : ٣٨ .

الرسول - عليه الصلاة والسلام - أراد باليد العليا يد المعطى ، وأراد باليد السفلى يد المستعطى ، وفى الحقيقة أنه ليس ثمت يد عالية ويد نازلة سافلة ، وإنما المراد أن المعطى أعلى رتبة من الآخذ فى مجال الرغد .

وقد جاء مجاز آخر من المجازات النبوية فيه ذكر ما هو متصل بتحسين الإنفاق والبذل ، غير أنه جاء فى مجال ما كان يجرى من حوار بين الرسول ﷺ وبين أزواجه .

فقد قال رسول الله ﷺ لأزواجه : « أَشْرَعُكُمْ لِحَاقَا بِي أَطْوَلُكُمْ يَدًا » (١) فلما سمعن منه هذا القول أخذت كل واحدة منهن تقيس ذراعها لتظهر أطولهن يدا ، إلى أن توفيت زينب بنت جحش وكانت كثيرة التصدق ، فعلمن حينئذ أن المراد بطول اليد كثرة البر ووفرة البذل .

ومن المجازات التى يربى الرسول من خلالها مجتمع المسلمين ما روى عنه ﷺ فى شأن زيارة المريض ، قال ﷺ :

« عائد المريض على مخارف الجنة » (٢).

جعل ﷺ زائر المريض كالماشى فى طريق يفضى به إلى الجنة ، ويوصله إلى دار الإقامة .

تلك نماذج قليلة من المجازات النبوية التى وردت فى أحاديث رسول الله ﷺ ومحاوراته مقتندين فيها بالمجازات القرآنية التى ألف فيها علماء الأمة عشرات الكتب النفيسة التى حفلت بها المكتبة الإسلامية ، وازدانت بها خزائن كتب التراث الإسلامى .

(٤)

الاستعارة فى كلام الرسول :

اهتم اللغويون والبلاغيون والنقاد بالأنواع البلاغية ، منذ أواخر القرن الثانى والثالث ، وقد لقيت « الاستعارة » منهم عناية غير قليلة .

(١) المجازات النبوية ص : ٥٨ ، وأسرار البلاغة ، ص : ٣٣٠ وفيها جاء بصيغة أخرى وهى : قال النبى ﷺ وقد قالت له نسائه : أيتنا أسرع بك لحاقا يا رسول الله ؟ فأجاب : « أطولكن يدا » يريد السخاء والجود وبسط اليد والبذل .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ٨٨ والمخارف : جمع مخرفة ، وهى الطريق .

يقول ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ : إن العرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى أو مجاوراً لها أو مشاكلاً ، فيقولون للنبات : نوء ؛ لأنه يكون عن النوء عندهم ، ويقولون للمطر : سماء ، لأنه من السماء ينزل ويقولون : ضحكت الأرض : إذا أنبت ؛ لأنها تبدى عن حسن النبات ، وتتفتق عن الزهر ، كما يفتّر الضاحك عن الثغر (١).

ويقول ابن المعتز المتوفى ٢٩٦ هـ عن الاستعارة : هي استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها لشيء عرف بها (٢).

ويقول أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩١ هـ : هي نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض ، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه ، أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه (٣).

ولما كانت الاستعارة فرعاً من المجاز ، فإن ابن رشيق القيرواني المتوفى ٤٦٣ هـ يقول فيها : الاستعارة أفضل المجاز ، وأول أبواب البديع ، وليس في حلي الشعر أعجب منها ، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ، ونزلت موضعها (٤). ويعرض ابن رشيق أمثلة كثيرة من أقوال الشعراء منها المعجب ومنها القبيح ، ويذكر تعريفات بعض البلاغيين لها كالقاضي الجرجاني وأبي الحسن الرماني ، وابن جني ، ثم ينتهي إلى القول : والاستعارة إنما هي من اتساعهم في الكلام اقتداراً ودالة ، ليس ضرورة ، لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم ، وليس ذلك في لغة أحد من الأمم غيرهم ، فإنما استعاروا مجازاً واتساعاً ، ألا ترى أن للشيء عندهم أسماء كثيرة وهم يستعيرون له مع ذلك ؟ على أننا نجد أيضاً اللفظة الواحدة يعبر بها عن معاني كثيرة ، نحو « العين » التي

(١) كتاب (تأويل مشكل القرآن) ص : ١٠٢ .

(٢) كتاب البديع ص : ١٩ .

(٣) كتاب الصناعتين ، ص : ٢٦٨ .

(٤) العمدة ١ / ٢٨٦ .

تكون جارحة ، وتكون الماء ، وتكون الميزان ، وتكون المطر الدائم الغزير ، وتكون نفس الشيء وذاته ، وتكون الدينار ، وما أشبه ذلك كثيراً^(١).

وينسج عبد القاهر الجرجاني المتوفى ٤٧١ على منوال ابن رشيق فيعدّ الاستعارة فرعاً من المجاز ، ثم يقول عنها : الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء ، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره ، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيّره المشبه وتجريه عليه^(٢).

فالأساس الذي تقوم عليه الاستعارة هو التشبيه ، ولذلك عُدَّ أصلاً وَعُدَّتْ الاستعارة فرعاً . ومنذ ابتداء البحث فيهما - التشبيه والاستعارة - والعلماء يخلطون بينهما فيجعلون بعض الاستعارات تشبيهات ، وكثيراً ما يعكسون فيطلقون على بعض التشبيهات لقب الاستعارة^(٣) على أن معالم الاستعارة ما لبثت أن استقلت عن أصلها الذي استمدت منه وهو التشبيه ، وأصبح التفريق بينهما أمراً معنوياً .

ولقد وضع البلاغيون للاستعارة تعريفات عديدة ، ينبع أكثرها من معين واحد ، وتصب في بحر واحد ، فمن أمثلة هذه التعريفات قولهم :

* الاستعارة : استعمال العبارة في غير ما وضعت له في الأصل .

* الاستعارة : تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة .

* الاستعارة : ذكر الشيء باسم غيره وإثبات ما لغيره له ؛ لأجل المبالغة في التشبيه .

* الاستعارة أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر ، مدّعياً دخول المشبه في جنس المشبه به ، دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به .

* الاستعارة : مجاز لغوي علاقته المشابهة .

* الاستعارة : تشبيه حذف أحد طرفيه .

(١) المصدر السابق ١ / ٢٧٤ .

(٢) دلائل الإعجاز ، ص : ٥٣ .

(٣) معجم البلاغة العربية : للدكتور بدوي طبانة ، ص : ٤٦٠ .

فإذا أردنا أن ننتهى فى الاستعارة إلى تعريف مبسط موحد عمدنا إلى ما عرفها به الأستاذان على الجارم ومصطفى أمين فى قولهما :

الاستعارة من المجاز اللغوى ، وهى تشبيهٌ حذف أحد طرفيه ، فعلاقتها المشابهة دائما . وهى قسمان :

١ - تصريحية وهى ما صرح فيها بلفظ المشبه به .

٢ - مكنية : وهى ما حذف فيها المشبه به ورمز له بشىء من لوازمه . وتنقسم الاستعارة أيضا إلى أصلية وتبعية :

١ - فهى أصلية إذا كان اللفظ الذى جرت فيه اسماً جامداً .

٢ - وتكون تبعية إذا كان اللفظ الذى جرت فيه مشتقاً أو فعلاً .

والشئ الجدير بالذكر فى هذا السياق هو أن تقسيم الاستعارة إلى أصلية وتبعية عام فى الاستعارة سواء أكانت تصريحية أو مكنية .

تلك تعريفات كان لابد من ذكرها للتعرف على الاستعارة وأقسامها المختلفة ، ولتكون المعايير بين يدى القارئ إذا ما عُنَّ له فى مجال قراءته لهذا الفصل أن يتعرف بواسطتها على نوع الاستعارة ، تصريحية كانت أم مكنية ، أصلية كانت أم تبعية .

أما هدفنا نحن من ذكر الاستعارات النبوية فهو الإبانة عن البلاغة المعجزة للرسول ﷺ فى نطاق بشريته وهو يتناول قضايا الإسلام وأحكامه ، وتبصيره المسلمين بما ينبغى أن يلتزموه أو يتركوه فى مجال تربيته لهم وتوجيهه إياهم وتنوير الطريق وإضاءة السبيل فى كل ما يعن له ﷺ أن يزودهم به ، أو ما يتبادر إلى أذهان الصحابة من أمور يودون معرفتها أو يريدون استيضاحها ، فجاء ذلك كله فى ثوب من البلاغة الأرفع ، والبيان الأسمر والصوغ الأنصع ، ولم يكن كلام الله أو أقوال رسوله ﷺ مستهدفة تقسيم الكلام على النحو البيانى الذى ورد فيما قمثلنا له من الكتاب العزيز أو الحديث الشريف ، ففيهما - الكتاب والحديث - ما ينوف مرات ومرات على المسميات التى استخرجها البلاغيون منها ، وكلما مرّ الزمان وتعاقبت السنون ظهر من آيات الإعجاز

وعلاماته في كتاب الله وحديث رسوله ما هو زادٌ للمؤمنين تقرّ به أعينهم ، وتنشرح به صدورهم ، وما هو حجة على المنكرين ، تسودّ به وجوههم وتضيّق به حياتهم ، ويستكن منه مكرهم .

كان من الأمور الطبيعية أن تشمل الاستعارات النبوية الإسلام عقيدة وشريعة وأركاناً وإخباراً ، والاستعارات في هذا الموضوع من الكثرة بمكان ، فالجماعة في الإسلام تشمل وجوده مظهرًا ومخبرًا ، ومن ثم فقد جرت هذه الاستعارة على لسان رسول الله .

قال ﷺ: « من خالف الجماعة فقد خلع ربة الإسلام من عنقه » (١).

وهذه استعارة ؛ لأن الربة حبل يربط بين عودين ، ثم تُجعل فيه عرى فتربق فيه السخال ، أى : تربط فيه . فالإبل تُعقل ، والغنم تُربق ، فشبه ﷺ ما في عنق الإنسان من لوازم الإسلام ومعاهد الإيمان بالربة التي في عنق السخل ، لأنها تصدّه إذا هم بالشroud ، وكذلك الإسلام يمنع صاحبه من الارتكاس في المحظورات .

ومن محاسن الاستعارات في شأن الإسلام وتقاعس المسلمين في بعض مراحل المستقبلية قوله ﷺ: « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً » (٢) فقد جعل الإسلام في أول أمره شبيهاً بالرجل الغريب الذي قلّ أنصاره ، وبعدت دياره ؛ لأن الإسلام كان على هذه الصفة في أول ظهوره ، ثم اشتد ساعده ، واستقرت قواعده . وقوله ﷺ: « وسيعود غريباً » أى : يعود إلى مثل الحال التي كان عليها في أول أمره في قلة عدد العاملين بشريعته ، والقائمين بأحكامه .

وشبيهة بالاستعارة السابقة قوله ﷺ: « إن الإسلام بدأ جدّاً ثم نبيّاً ثم ربّاعياً ، ثم سديساً ثم بازٍ لا ، وما بعد البزول إلا النقصان » (٣).

إن هذا الكلام كله استعارات ، والمراد تمثيل الإسلام في تنقل أحواله وتغاير أوصافه

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢٠١ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ٣٦ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ٢٨٤ .

بولد الناقة ينتقل في أسنانه ، فيكون أول أمره جَدْعاً - يعنى في الخامسة من عمره - ثم ثَنِيّاً - يعنى في السادسة - ثم رَبَاعِيّاً - يعنى في السابعة - ثم سَدِيساً - يعنى في الثامنة - ثم بَازِلاً - يعنى في التاسعة - وهى سن التّمام ، وليس بعدها إلا النقصان . ومدار القصد النبوى أن الإسلام بدأ في غاية الصغر ثم انتهى إلى غاية الكبر ، وأنه ﷺ يخشى عليه نقيصة التمام .

وعن عماد الإسلام وحقيقة وجوده مظهراً ومخبراً يقول ﷺ لمعاذ بن جبل : « أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ » قال : بلى يا رسول الله . قال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذُرْوَةُ سَنَامِهِ الجهاد » .

كأنه ﷺ جعل الإسلام رأس دين الله المتقدم ، ورئيسه المعظم ، وجعل الصلاة عموده الذى به قوامه ، أى : نظامه وعماده وملاكه ، وجعل الجهاد ذروة سنامه ؛ لأنه بعد الرأس أعلى مشارفه وأرفع مراتبه ، وبه - أى : الجهاد - يشاد بناؤه ، ويقام لواؤه . ويقمع أعداؤه (١) .

والقرآن الكريم هو كتاب الله وكلامه ، وحامل تشريعه وضامنه أحكامه ، وهو مصدر العقيدة وعماد التوحيد ، ومعجزة الإسلام الخالدة ، ومن ثم كانت عناية الرسول بالقرآن الكريم لا يحدها قول ، ولا ينتهى إليها مطاف ، ولذلك فقد كثرت فيه الأحاديث التى تشمل جميع الأنواع البلاغية من تمثيل ومجاز وتشبيه واستعارة .

قال ﷺ في عهد كتبه لعماله على اليمن : « فَإِنْ هَذَا الْقُرْآنُ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينِ ، فِيهِ إِقَامَةُ الْعَدْلِ ، وَبِنَايِعِ الْعِلْمِ ، وَبِرِيْعِ الْقُلُوبِ » (٢) .

وهنا ثلاث استعارات :

الأولى : قوله ﷺ : « فَإِنْ هَذَا الْقُرْآنُ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينِ » فشبه القرآن بالحبل الممدود بين الله - سبحانه - وبين خلقه في أنه عصمة لمن استعصم به ، ومسكة لمن استمسك به .

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٥٤ .

الثانية : قوله : « ينابيع العلم » فإن ما يفتحه القرآن من أبواب العلم وطرقه ينقع الغليل بعد الشك المحيّر كما يبرد الماء الغلة بعد الطقس المبرح ، فلذلك شبهه ﷺ بعيون الماء ، وينابيع الرواء .

الثالثة : قوله : « ربيع القلوب » فجعل القرآن للقلوب الواعية بمنزلة الربيع للإبل الراحية ؛ لأن القلوب تنتفع بتدبر القرآن وتأمله ، كما تنتفع الإبل بما يجود به الربيع ، فهذا غذاء للأرواح كما أن ذاك غذاء للأجسام .

وعن تلاوة القرآن السليمة المجودة المؤثرة في النفوس النافذة إلى القلوب يقول ﷺ : « من سره أن يقرأ القرآن غصّاً كما أنزل ، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد »^(١) فالغصّ صفة للثمر أو النبت الذي لم يطل مكثه بعد مجتنائه ، فيؤثر فيه الزمان ، ويعتريه التغير والفساد ، فأراد النبي ﷺ أن من يأخذ القرآن عن ابن أم عبد وهو عبد الله بن مسعود أو يسلك في القرآن نهجه ، فقد أخذه سليماً من الفساد والتغير، بريئاً من التحريف والتبديل .

وقد روى هذا الخبر على نحو آخر ، وهو قوله - عليه الصلاة والسلام - : « من سرّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل » والمعنى في الروایتين واحد .

وروى أبو هريرة : « من أحب أن يقرأ القرآن غريضاً كما أنزل . . » والغريض : هو الطرى . وهو أيضاً في معنى الروایتين السابقتين .

وعن الدنيا وفنائها والآخرة وبقائها ، ورخص الأولى ونفاضة الثانية يقول رسول الله ﷺ في مقام تقويمهما في إحدى خطبه :

« ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة » .

والاستعارة هنا أن الدنيا بمثابة الهارب المولّى ، فالارتحال بمعنى الرحيل ، والارتحال أيضاً بمعنى امتطى الرحل استعداداً للسفر ، وأن الآخرة بمثابة القادمة الباقية أو هي

(١) المجازات النبوية ، ص : ١٢٣ .

بمنزلة الطالب السابق في الحلبة . وفي هذا القول الشريف أكثر من عنصر من عناصر البديع ، وهو ما سوف نبينه في الفصل القادم إن شاء الله .

والصلاة في الإسلام هي عماد الدين ، وقد ذكرنا قبل قليل قول رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه . . » الحديث ، وفيه يذكر الرسول أن « عماد الأمر الصلاة »

وإن أحاديث الرسول ﷺ في الصلاة كثيرة وفيرة ، وفي الاستعارة التي بين أيدينا الآن يربط رسول الله ﷺ بين الوضوء والصلاة ؛ فالصلاة لا تجوز بغير الوضوء ، فيقول :

« إن المسلم إذا توضأ ثم صلى الخمس تحاّت خطاياها كما يتحاّت الورق » (١) والمراد أن الله تعالى يكفر عنه خطاياها بسرعة ، فتتحط أوزارها كما تتساقط الأوراق عن أغصانها إذا زعزعتها الرياح ، وغنى عن البيان أن الصلاة ينبغي أن تكون مقرونة باجتناب الكبائر .

ويذكر الرسول ﷺ أوقات الصلاة في عدة أحاديث ، وفي عهده إلى عماله باليمن الذي مر ذكره قبل قليل يقول في وقت العصر والعشاء : « والعصر إذا كان ظل كل شيء مثله ، وكذلك ما دامت الشمس حيّة . والعشاء إذا غاب الشفق إلى أن تمضي كواهل الليل » (٢).

فنحن هنا أمام استعارتين ، الأولى : قوله - عليه صلاة الله وسلامه - : « ما دامت الشمس حية » والمراد بحياة الشمس هنا كونها في بقية من الاحمرار من قبل أن يفضى لونها إلى التغير والاصفرار ، ولذلك قالوا : شمس مريضة إذا ولّى احمرارها وأقبل اصفرارها ، والاستعارة الثانية قوله ﷺ : « إلى أن تمضي كواهل الليل » والمراد أن تمضي أوائله ، فساها كواهل تشبيها لليل بالمطايا السائرة التي تتقدم أعناقها وهواذها ، ويتبعها أعجازها وتواليها ، ومن هنا قالوا في السارى ليلا : اتخذ الليل جملا ، ويقولون أيضا : ركب الليل ، لما جعلوه بمنزلة الظهر المركوب ، والبعر المرحول : يعنى الذى يتخذ للرحيل والسفر .

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢١٠ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٥٥ .

ومن الفرائض التى جاءت فى أحاديث رسول الله ﷺ فى صيغة الاستعارة قوله ﷺ فى جملة قليلة الكلمات ولكنها وافرة الخير والبركات .

« الصوم جُنَّةٌ ما لم يَحْرِقْهَا » والجُنَّةُ : كل ما وقى ، ويحرقها ، أى : يمزقها ويجعل فيها خرقاً ، وفى هذه الاستعارة شبه الرسول ﷺ الصوم الذى يجنّ صاحبه من وقوع العَذَابِ إذا أخلص له النية ، فجعل من اعتصم فى صومه من الزلل ، وتوقّى ذنوب القول والعمل ، كمن صان تلك الجنة وحفظها .

إن الشريف الرضى يصف هذه الاستعارة فيقول : إنها من أحسن التمثيلات وأوقع التشبيهات (١).

ومن أجلّ نعم الله على عباده أن الصوم لا يكون فى فصل بذاته ، وإنما هو مثلما يكون فى الصيف بحرارته ونهاره الطويل ، يكون كذلك فى الشتاء بطقسه المقبول المحمول ، ونهاره القصير الذى لا يكاد يحس الصائم فيه جوعاً أو عطشاً ، والله - سبحانه - فضلاً منه وكرماً يثيب صائم رمضان فى الشتاء - إذا كان صومه مصوناً من جارحات الصوم - بوافر الثواب وعميم المغفرة ، فشهر رمضان أيّاً ما كان موقعه من فصول السنة « أوله رحمة ووسطه مغفرة وآخره عتق من النار » يستوى فى ذلك مجيئه فى الصيف أو الربيع أو الخريف أو الشتاء .

قال ﷺ : « الصوم فى الشتاء الغنيمة الباردة » (٢).

يقولون : هذه غنيمة باردة إذا حيزت بغير استعمال السلاح والتعرض للجراح ، لأنه ليست كل الغنائم كذلك ، فكأنه ﷺ فى هذه الاستعارة جعل صوم الشتاء غنيمة باردة ؛ لأن الصائم يحوز فيه الثواب الجزيل بلا معاناة مشقة ، أو مكابدة تعب ، لقصر نهاره وعدم التعرض للشمس وحرارتها والعطش وضراوته .

ويتناول الرسول ﷺ المؤمن وعلاقته بالمؤمن ، والمؤمن وعلاقته بالمشرك ، وطبيعى أن

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٦ .

تكون علاقة المؤمن بأخيه المؤمن في نطاق الإيجابية ، وليس كذلك الموقف في علاقة المؤمن بالمشرك .

يقول ﷺ في الحالة الأولى : « المؤمن مرآة المؤمن » ذلك لأن المرأة سبب للعلم بما لولها لم يعلم ؛ لأن ذلك العلم طريقه الرؤية ، ولا سبيل أن يرى الإنسان وجهه إلا بالمرآة وما يجري مجراها من الأجسام الصقيلة ، فقد جمع الرسول ﷺ بين المؤمن والمرأة في صفة معقولة ، وهى أن المؤمن ينصح أخاه ويريه الحسن من القبيح كما تُرى المرأة الناظر فيها ما يكون بوجهه من الحسن وخلافه (١) .

وفي الحالة الثانية يقول ﷺ : « لا تستضيئوا بنار المشركين » فاستعار النار للرأى والمشورة ، أى : لا تهتدوا برأى المشركين ولا تأخذوا بمشورتهم (٢) .

وأدعية رسول الله ﷺ واستغفراته من العمق الروحاني ، والإشراق البياني ، بحيث تجلب إلى الصالح فضلا عن العاصي طُرُقَ باب التَّوْبَةِ ، وغشيان عتبات الابتهالات والاستغفار ، وقد مر بنا باب كامل في أدعية رسول الله ﷺ وابتهالاته ، وهى في حالاتها - مجازات كانت أو حقيقة - سلّم إذا ارتقاه التائب نال نعمة المغفرة . فمن هذه الأدعية التى جاءت في صيغة استعارة ما كان ﷺ يقول في دعاء يدعو به : « ربّ تقبل توبتى واغسل عني حوبتى » (٣) والحبوبة : هى المأثم ، والمراد في هذه الاستعارة : احطط عني وزرى واغفر ذنبى وخطيئتى . ولما كانت المعصية ، كالأقذار التى تصيب الإنسان فيقبح منظره ، أقام - عليه الصلاة والسلام - إماطة وزرها وإسقاط إثمها مقام غسل الأدران ، لأن الإنسان يعود بعدها نقى الثوب طاهراً من العيب .

وغنى عن البيان أن الرسول ﷺ معصوم من الزلل والخطايا ، ولكنه يعلم العصاة من أمته كيف يكون الاستغفار وكيف يكون الندم على الإثم المقترف والخطيئة المرتكبة .

وإن مدن الإسلام وأقاليمه كانت موضع عناية الرسول ﷺ ورعايته ، كانت هكذا

(١) عبد القاهر : أسرار البلاغة ، ص : ٢٥٢ .

(٢) المثل السائر لابن الأثير ٢ / ١٠٣ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ١٨٣ .

مكة والمدينة ، وكانت هكذا أيضا الحجاز واليمن ومصر والشام ، وأحاديثه الشريفة في تلك المدن والأقاليم ملء السمع والبصر ، ولكنه ﷺ حين يتناول مدينة أو قطراً يكون تناوله من زاوية بعينها أو بسبب حادثة بذاتها ، لقد تحدث عن مكة كثيرا ، حباً وإكباراً مرة ، وشوقاً وحنيناً مرات ، ولكن المناسبة التي بين أيدينا كانت بمناسبة غزوة بدر وفيها قال :

« هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها » وفي رواية :
« قد ألفت إليكم أفلاذ كبدها » .

قال رسول الله ﷺ ذلك عند خروجه إلى بدر للقتال ، وكان المسلمون قد ظفروا ببعض فرط قريش - وهم الذين يتقدمون القوم - فأتوا بهم النبي ﷺ فسأهم عن خرج في ذلك اليوم من علية القوم ، فقالوا : فلان وفلان ، وعددوا قاداتهم وفرسانهم ، فقال الرسول ﷺ : « هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها » والمراد بذلك أعيان القوم ورؤسائهم . فكانه ﷺ أقام مكة مقام الحشا التي تجمع الأعضاء الشريفة كالقلب والكبد والفؤاد ، وجعل رجال قريش كشعب الكبد التي تحنو عليها الأضالع وقاية لها .
يقول الشريف الرضى في هذا السياق : وهذه من أنصع العبارات وأوقع الاستعارات^(١).

والمدينة المنورة هي الأخرى كثيرا ما جرى ذكرها في حديث رسول الله ، وكل أحاديثه فيها إطراء لها ، وتمجيذاً لأهلها الأنصار من الأوس والخزرج ، ولكن المدينة بلد غير مطير ، وربما كان ذلك من باب إشفاق رسول الله عليها وعلى سكانها ، مع أنها تقع بين قطرين مطيرين : الشام في الشمال واليمن في الجنوب .

يذكر الرسول ﷺ المدينة المنورة وسكنه فيها ، فيقول : « أُسْكِنْتُ بِأَقْلٍ الْأَرْضِ مَطَرًا ، وهى بين عيني السماء : عين بالشام وعين باليمن »^(٢) والشاهد هنا هو تشبيه كل من الشام واليمن - وهما قطران بمطران - بعيني السماء ، وقد تكون العين هنا هي العين

(١) المجازات النبوية ، ص : ٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص : ٨٢ ، ٨٣ .

الإنسانية الدّامعة ، أو هى الينبوع الذى يجود بالماء ، فكما أن ماء العين موصول لا ينقطع ، فكذلك قطر السماء فى هذين البلدين متصل غير منقطع .

هذا ما كان من أمر ذكر البلدان ، فأما الأقطار فقد أشرنا إلى أنه ﷺ ذكر الشام واليمن والحجاز ، كما ذكر ﷺ فارس ومصر ، والرسول - صلاة الله وسلامه عليه - يذكر الحجاز هنا فى ثلاثة ألفاظ ، ولكنها تغنى عن عشرات الصفحات مدحاً وتكريماً وتشريفاً ، يقول رسول الله ﷺ فى صفة الحجاز هذه الجملة المكونة من ثلاث كلمات : « الْحِجَازُ قَطِيفَةُ الْإِيمَانِ » (١).

والقطيفة : هى الكساء الغليظ الذى يضم جسم الإنسان ، والمراد بالاستعارة أن الحجاز يحيط بالإيمان ، ويجمع شمله ، ويضم أهله ، كما تضم القطيفة جملة بدن الإنسان إذا اشتمل بها ودخل فيها ، ذلك أن أهل الحجاز من قريش ثبتوا على الإسلام بعد دخولهم فيه ، ولم يرتد منهم أحد ، وقد جاء فى الأخبار أنه ما من قبيلة من قبائل العرب بعد وفاة النبى إلا وقد فشا فيها الارتداد إلا قريشا وثقيفا ، فإنه لم يرتد منهم أحد .

هذا وإن أحاديث رسول الله ﷺ فى توجيه المسلمين وتربيتهم على الخير ، وتنشئتهم على الإيمان ، وغرس الرحمة فى قلوبهم وصلة أرحامهم ، وتثبيت أركان مجتمعهم ، وغير ذلك من الأغراض التى صيغت بأساليب البيان المختلفة من الوفرة بمكان ، ومن الحكمة بحسبان ، ومن الرقة بمقدار ، يقول ﷺ فى خير الزواج :

« اغتربوا لا تُضْبُوا » (٢) وهى استعارة ، والمراد هنا تزوجوا الغرائب ولا تتزوجوا القرائب .

والضُّبَى : ضُبُول الجسم ودقته ، ويقال : أضوت المرأة إذا أتت بولد ضاؤ ، وهم يقولون : الغرائب أنجب .

ويقول الرسول ﷺ فى الثقة بنعم المولى - سبحانه - ودوام جوده على خلقه :

(١) المجازات النبوية ، ص : ٩٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص : ٧٥ .

« يمين الله ملأى سحاً لا يغيضها الليل والنهار »^(١) والمراد باليمين في هذه الاستعارة نعمة الله ، وقد وصفها بالامتلاء لكثرة منافعتها فجعلها كالعين الثرة التي لا يغيضها المواتح ولا تنقصها النوازح ، والسحّ : شدة المطر .

وفي تشجيع المسلمين على صلة ذوى رحمهم ولو بكلمة طيبة يقول الرسول ﷺ :

« بُلُّوا أرحامكم ولو بالسّلام »^(٢) وفي رواية « انضحوا أرحامكم » والمراد من هذه الاستعارة : صلُّوا أرحامكم ولو بالسّلام ، يعنى جدّدوا المودة بينكم وبين أقربائكم ولو بالسّلام عليهم تشبيها ببلّ السقاء اليابس ؛ لأنه لا يتبلل إلا بملء الماء ، وهذا القول أبلغ ما نصّح به امرؤ ليصل ذوى رحمه .

وفي عودة المريض والسؤال عنه يصدر عن رسول الله ﷺ من طيب القول ما لو وعاه الناس لجعلوا من عودة المرضى فرضاً عليهم كالصلاة والصدقات ، يقول رسول الله ﷺ :

« من عاد مريضاً لم يزل يخوض الرحمة حتى يجلس ، فإذا جلس اغتمس فيها »^(٣).

والمراد من الاستعارة التعبير عن كثرة ما يناله عائد المريض من جزيل الأجر وعظيم الثواب . فشبهه - عليه الصلاة والسلام - بالذى يخوض الماء الوفير في مشيته ، والمنغمس فيه عند جلسته .

وإذا كانت الشعوب الغربية ترى في عودة المريض إثقلاً عليه فإن الإسلام ورسول الإسلام يريان أن في عيادة المريض إسهاماً في شفائه وربطاً بينه وبين الحياة العامة التي يتمنى أن يعود إليها سليماً معافى ، وقد جاء في الحديث الشريف كلام إنسانى جليل في مقام عيادة المريض مثل ذلك المجاز البديع الذى سقناه في مكانه من « فصل المجاز » ممثلاً في قول رسول الله ﷺ : « عائد المريض على مخارف الجنة » .

(١) المجازات النبوية ، ص : ٧٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٣) المجازات النبوية ، ص : ٢٥٠ .

ومن الاستعارات النبوية التي تربي المسلمين على العمل والاعتماد على النفس هذا الحديث الشريف الجليل :

« من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » ^(١) إنها استعارة المراد منها أن من تأخر بسوء عمله عن مواقف الفخر ومقتضيات الفضل ، لن يتقدم إليها بشريف نسبه ، فجعل ﷺ الإبطاء والإسراع مكان التأخر والتقدم .

ومن توجيهات الرسول ﷺ وتربية أبناء المسلمين على التريث في اختيار المرأة الصالحة زوجاً ، والتخلي عن الإسراع في ذلك بدافع من جمال ظاهر يستتر وراءه لؤم خاف وانحراف محجوب ، قوله ﷺ : « إياكم وخضراء الدمن » ^(٢) .

ووجه البلاغة في الاستعارة هنا أن المقصود ليس لون النبات النامي على الدمنة أو طعمه أو شكله ، بل القصد منه شبه عقلي بين المرأة الحسنة في المنبت السوء وبين تلك النابتة على الدمنة ، وهو حُسْنٌ في الظاهر في رأى العين مع فساد في الباطن ، وطيبُ الفرع مع خُبثِ الأصل .

وهذا الحديث الشريف مجاز مثلما هو استعارة ، مثلما هو كناية .

ومن الأحاديث النبوية التي تصلح تشبيها ، مثلما تصلح مجازا ، مثلما تصلح استعارة مثلما تصلح كناية ، حديث القوارير ، والحديث قد سبق ذكره ، وهو قول رسول الله ﷺ للحادى الذى كان يحدو للإبل فتسرع وكان اسمه أنجشة :

« يا أنجشة ، رفقا بالقوارير » .

فقد شبه الرسول ﷺ النساء المرتحلات في ضعفهن بالقوارير الرقيقة التي لا تحتمل المشاق ، فنهى الحادى أنجشة عن الاستمرار في حدائه الذى يجعل الإبل تزيد من سرعتها .

(١) المصدر السابق ، ص : ٣١٧ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص : ٦٢ والدمن : مفردا دمنة ، وهى ما اختلط من البحر والطين ، أى : المزيلة ، وهى أيضا آثار الدار .

ومن المعروف أن المجاز يشمل الاستعارة والكناية والتشبيه . وسوف نعرض لهذا الحديث مرة أخرى حين نعرض للكناية .

(٥)

الكناية :

الكناية موضع لاختلاف كثير من البلاغيين مع سهولة فهم معناها ويسر الوقوع على هدفها ومرماها ، فقد ذهب كل عالم من علماء البلاغة إلى حصر تعريف لها ، ثم لا يلبث خَلَفَهُ أن ينقضوا فعله ، وكان أكثرهم مناقضة البلاغى الإمام يحيى بن حمزة العلوى .

يقول ابن الأثير : حدّ الكناية الجامع لها هو أنها كل لفظة دلّت على معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز ؛ لأن الكناية فى أصل الوضع أن تتكلم بشيء وتريد غيره . ثم يزيد ابن الأثير الأمر إيضاحاً فيقول : اعلم أن الكناية مشتقة من الستر ، يقال : كَنَيْتَ الشيء : إذا سترته ، وأُجِرَى هذا الحكم فى الألفاظ التى يُسْتَرُّ فيها المجاز بالحقيقة فتكون دالة على الساتر وعلى المستور معا ، ألا ترى إلى قول الله - تعالى :- ﴿ أَوَلَمْ نَسْمُكُمُ النِّسَاءَ ﴾ فإنه إن حُمِلَ على الجماع كان كناية ، وإن حمل على الملامسة التى هى مصافحة الجسد الجسد كان حقيقة (١) .

وَيَنْقُضُ الإمام يحيى بن حمزة كلام ابن الأثير ومن سبقه ممن تصدوا لتعريف الكناية من أمثال عبد القاهر الجرجانى وابن سراج المالكى وغيرهم ، ثم يقول : والمختار عندنا فى بيان ماهية الكناية أن يقال : هى اللفظ الدال على معنيين مختلفين : حقيقة ومجاز من غير واسطة لا على جهة التصريح .

وبعد أن ينتهى يحيى بن حمزة العلوى من تفسيره لقوله ، يعود إلى تقرير أن أكثر علماء البيان يعدّون الكناية من أنواع المجاز خلافا لابن الخطيب الرازى فإنه أنكر كونها

(١) المثل السائر ٣ / ٦٢ ، ٦٣ .

مجازاً ، وزعم أن الكناية عبارة عن أن تذكر لفظة وتفيد بمعناها معنى ثانيا هو المقصود^(١).

وذهب ابن الأثير وغيره إلى أن الكناية جزء من الاستعارة ، لأن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له ، وكذلك الكناية فإنها لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المكنى عنه . ونسبة الكناية إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام ، فيقال : كل كناية استعارة وليست كل استعارة كناية .

ويجىء العالم البلاغى الشاعر المعاصر على الجارم - رحمه الله - ويسر على الدارسين مفهوم الكناية وتعريفها فيقول : الكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى . وتنقسم الكناية باعتبار المكنى عنه ثلاثة أقسام ، فإن المكنى عنه قد يكون صفة ، وقد يكون موصوفاً ، وقد يكون نسبة .

أما أمثلة الكنايات من حديث رسول الله ﷺ فهي كثيرة .

عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « من شقَّ عصا المسلمين فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام »^(٢).

والشقاق : المخالفة ، يقال : شُقَّتْ عصا المسلمين : إذا اختلفت كلمتهم وتبدد شملهم ، والربقة : القلادة ، والكناية هنا يدل ظاهرها على موقع المراد منها .

ومن الكنايات النبوية الطريفة قول رسول الله ﷺ : « ويحك يا أنجشة سوقك بالقوارير » وفي رواية « رفقا بالقوارير »^(٣) وقد مر بنا هذا الحديث في آخر فصل الاستعارات - السابق على هذا الفصل - حيث اعتبر الحديث استعارة ، ولا بأس في ذلك ، لكن الأصل فيه أنه كناية ، وكل كناية استعارة وليست كل استعارة كناية تبعاً لما ذكرنا قبل سطور قليلة .

(١) الطراز ١ / ٣٧٣ - ٣٧٥ .

(٢) أمثال الحديث لابن خلد الرامهرمزي ، ص : ١٢٤ .

(٣) الطراز ١ / ٤٠٧ والمثل السائر ٣ / ٧٤ ، ٧٥ .

إنها - كما يقول يحيى بن حمزة العلوى - كناية لطيفة ، فقد كنى الرسول ﷺ عن النساء بالقوارير من وجوه ثلاثة :

أولها : لما هُنَّ عليه من حفظ الأجنة ، والوعاء : كالقارورة تحفظ ما فيها .

ثانيها : لاختصاصهن بالصفاء والصقالة ، والحسن والنضارة .

ثالثها : لما فيهن من الرقة والمسارة إلى التغير والانثلام كما يتسارع الانكسار إلى القارورة لرقتها .

يقول يحيى عن الوجه الثالث : « وهذا هو الوجه الذى يومىء إليه الرسول ﷺ حيث قال فى حديث غير هذا : « رفقا بالقوارير » .

ومن الكنايات ما ورد فى الأخبار النبوية فى قول النبى ﷺ : « إنه كانت امرأة فيمن كان قبلنا ، وكان لها ابن عمٌ يحبها ، فراودها عن نفسها فامتنعت عليه ، حتى إذا أصابته شدة فجاءت إليه تسأله ، فراودها فمكنته من نفسها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة ، قالت له : لا يحل لك أن تفضّ الخاتم إلا بحقه ، فقام عنها وتركها»^(١) فهذه كناية واقعة فى موقعها .

وفى الرواية التى جاء بها يحيى بن حمزة اختلفت الألفاظ بعض الشيء ، يقول : « فلما قعد منها مقعد الخائن ، قالت له : اتق الله ولا تفضض الخاتم إلا بحقه ، فقام وتركها » فكنت المرأة بالخاتم عن بكارتها ، وأنها بمنزلة الشيء المختوم الذى لم ينكسر ختمه^(٢) .

ومن الأحاديث التى صُوِّرت استعارة وصورت فى الوقت نفسه كناية قوله ﷺ حين رأى أهل مكة يتقدمون يريدون لقاءه للحرب : « هذه مكة قد ألفت إليكم بأفلاذ كبدها يريدون أن يحادوا الله ورسوله » .

لقد عدّ الشريف الرضى هذا الحديث من باب الاستعارات واستفتح به الأمثلة التى

(١) المثل السائر ٣ / ٧٤ .

(٢) الطراز ١ / ٤٠٨ .

ساقها في كتابه « المجازات النبوية » وقد أوردناه في فصل الاستعارات السابق على هذا الفصل .

ولكن الحديث كناية أيضا ، فكنى الرسول ﷺ بقوله : « أفلاذ كبدها » عن الرؤساء الأكابر ؛ لأن الكبد من أهم أعضاء جسم الإنسان وأعزها ، فكنى بها عنهم .

ومن الكنايات اللطيفة ما ورد عن بُذَيْل بن ورقاء الخزاعي وقد جاء إلى الرسول ﷺ في عام الحديبية حين نزل على الركبة في نفر من قومه من تهامة فقال : « أتى ركب كعب ابن لؤى وعامر بن لؤى ، نزلوا على مياه الحديبية ، معهم العودُ المطافيلُ ، وهم مقاتلون وصادقون عن البيت » .

فقوله : « العود المطافيل » جعلها كناية عن النساء والصبيان ، والعود : جمع عائد ، وهى الناقة التى قوى ولدها ، والمطافيل : جمع مُطْفِل ، وهى الناقة التى معها ولدها لقرب عهدها بالنتاج .

ويجوز أيضا حمل هذا الكلام على حقيقته ، أى : معهم الأموال الكريمة التى تكون قواما لهم في الحرب وعونا لهم ، والأموال هنا هى الإبل ، والإبل جلّ أموال العرب^(١) .

ومن الكنايات النبوية أيضا قوله ﷺ : « إياكم وخضراء الدمن » وهذا تحذير ، وكنى بقوله : « خضراء الدمن » عن المرأة الحسناء فى المنبت السوء ، وإنما كنى بذلك عنها لأمرين :

الأمر الأول : لأن أول عشرتها يكون حسنا موافقا ، ومن بعد ذلك تعود إلى الفساد والرداءة كزراع المزابل ، فإنه يعجب أولا ، ثم يذبل ويحجف ويزول على القرب .
والأمر الثانى : لأن غضارتها ورونقها مُدَّتْهُنَّ أيام قليلة ثم تصير مقحلة يابسة^(٢) .

ومن الطريف أن هذا الحديث تنازعه ثلاثة من البلاغيين ، هم : الشريف الرضى

(١) المثل السائر ٣ / ٧٥ والطراز ١ / ٤٠٩ ، ٤١٠ .

(٢) الطراز ١ / ٤١٠ .

وقد عدّه من المجاز (١) وقد تناولناه عند حديثنا عن المجاز . وعبد القاهر الجرجاني (٢) وقد تناولناه في حديثنا عن الاستعارات ، وها هو أمير المؤمنين الإمام يحيى ابن حمزة العلوي يعدّه كناية ، وقد صدق الثلاثة العلماء البلغاء ، فهذا الحديث مجاز واستعارة وكناية في وقت واحد .

وليس ذلك بمستبعد أن يصدر عن أفصح الفصحاء ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم .

(١) المجازات النبوية ، ص : ٦٠ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص : ٦٢ .



الفصل الثالث

علم البديع

● المحسنات اللفظية:

السجع ، الجناس.

● المحسنات المعنوية :

الطباق والمقابلة ، لزوم ما لا يلزم ، الإحصاء ، اللف والنشر .

علم البديع

البديع : علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقتها لمقتضى الحال ، وهو أحد علوم البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع .

ومن البلاغيين من يسمى هذه العلوم الثلاثة : علم البديع ، ويعلمون هذا الإطلاق بأن البديع هو الشيء الذى يستحسن لطرافته وغرابته وعدم وجود مثاله من جنسه ، وهذه العلوم كذلك . ومنهم من يسمى علمى (البيان والبديع) علم البيان تغليبا للبيان المتبوع على البيان التابع .

ووجوه تحسين البيان التى يبحث فيها علم البديع قسمان : قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ ، ومن ثم فهو علم المحسنات اللفظية ، والمحسنات المعنوية^(١).

وغنى عن البيان أن أول من ألف كتابا فى هذا الفن هو الخليفة الأديب الناقد الشاعر عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ وقد جعل عنوان كتابه « البديع » يعنى الجديد المستحدث ، وقد اشتمل منهجه فى كتابه على خمسة فنون ، هى : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، وردّ أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامى .

وهكذا فإن مفهوم ابن المعتز لفنون البديع مغاير للمفهوم الاصطلاحي الذى انتهى إليه البلاغيون وارتضوه ، الذى أشهر موضوعاته فى المحسنات اللفظية : الجناس - أو التجنيس - والاقتراس ، والسجع ، وفى المحسنات المعنوية : التورية ، والطباق ، والمقابلة ، وحسن التعليل ، وتأکید المدح بما يشبه الذم وعكسه ، ولزوم ما لا يلزم ، والإرصاد ، وأسلوب الحكيم ، وغيرها .

وفنون البديع التى ذكرها ابن المعتز موجودة أصلا - طبقا لكلامه - فى القرآن الكريم

(١) الدكتور بدرى طبانة : معجم البلاغة العربية : مادة علم البديع ، ص : ٦٧ .

وأحاديث رسول الله ﷺ وكلام الصحابة والأعراب وأشعار المحدثين من أمثال بشار بن برد ، ومسلم بن الوليد ، وأبى نواس ، ودعبل الخزاعي ، والعكوك ، والعتابي ، وأبى تمام ، ومن سلك نهجهم وسار في دريهم . وينبئ ابن المعتز في نهاية مقدمته لكتاب «البديع» إلى أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع التي جاءت في كتابه ، مع أن الواقع أنهم استحدثوا أمورا مستجدة فيما أطلقوا عليه المحسنات المعنوية .

المحسنات اللفظية

المحسنات اللفظية - طبقاً لاصطلاح البلاغيين - التجنيس أو الجناس ، والاقتراس ، والسجع ، وإذا كان البلاغيون القدامى قد درجوا على تقديم التجنيس عند دراستهم للمحسنات اللفظية ، فنحن نفضل في منهجنا هذا أن نبدأ بالسجع ؛ لأن ثمت تحفظات ارتبطت باستعماله والإيغال فيه ، ولأنه الأكثر استعمالاً ، والأوفر وروداً في كلام البلغاء .

وأما الاقتراس فإن صح تناوله في الدراسات العامة فإنه لن يجد مكاناً في هذا الكتاب ؛ لأن رسول الله ﷺ ظل استعماله للاقتراس محصوراً في الاقتراس من كتاب الله ولم يتعدده إلى غيره ؛ لأنه لا يعلو على كلامه كلام إلا القرآن الكريم ، وإن اقتباس الرسول ﷺ من القرآن في خطبه ورسائله ومواعظه وسائر كلامه من الوضوح بمكان بحيث لا يحتاج إلى تناول في هذا الفصل من كتابنا .

(١)

السجع :

يختص السجع بالنثر دون الشعر ، مثلما يختص التصريح بالشعر ، وقد عرّفه القدماء : بأنه تواطؤ الفواصل في الكلام المنشور على حرف واحد ^(١) ، وبعبارة أوضح : هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير ، وأفضله ما تساوت فقره .

(١) المثل السائر ١ / ٣٠٨ .

ولقد تخرج بعض الأقدمين من استعمال السجع بحجة أن رسول الله ﷺ قد نهى عنه ، والحقيقة أن الرسول لم ينه عن استعماله ، وإنما كره السجع الذي غلا قائله في تصنعه ، فقال ﷺ : « أسجعاً كسجع الكهان ؟ » .

وبيان ذلك ما رُوي من أن رسول الله ﷺ أمر رجلاً بدفع دية جنين ، وبين له مقدار الدية ، فقال الرجل : أرأيت من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح ولا استهل ، ليس مثل ذلك يُطلُّ ؟ - أى : يهدر دمه - فقال الرسول ﷺ مستنكراً هذا التقعر في الكلام - : « أسجعاً كسجع الجاهلية ؟ » وفي رواية : « أسجعاً كسجع الكهان ؟ » وفي رواية : « أسجع كسجع الجاهلية » .

وكان سجع الكهان ثقيلاً على السمع كره الوقع على الأذن ، فمن أمثلة سجع الكهان قول سطيح الكاهن - وهو ابن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب - : « عبد المسيح ، جاء إلى سطيح ، وهو موفٍ على الضريح ، لرؤيا الموبدان ، وارتجاس الإيوان » (١) .

ومن ذلك ما فعل الكاهن في قصة هند بنت عتبة حين قال لما امتحن قبل السؤال عن قصتها : « ثَمَرَةٌ فِي كَمِيرَةٍ » ف قيل له : نريد أئينَ من هذا ، فقال « حَبَّةُ بُرٍّ فِي إِحْلِيلٍ مُهَرٍّ » (٢) .

لم يكن السجع نفسه إذن هو المنهى عنه ، ولكن النهى كان عن هذا النمط منه ، وما يتضمنه من معانٍ مغلوطة ، وتنبؤات مكذوبة .
يحلل الجاحظ هذا الموقف بقوله : (٣)

الذي كره الأسجاع بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ، أن كهان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيساً من الجن ، مثل حازي جهينة ، ومثل شق ، وسطيح ، وعزى سلمة وأشباههم ، كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع كقوله : والأرض والسماء ، والعقاب

(١) المثل السائر ١ / ٣١١ ، ٣١٢ .

(٢) المثل السائر ١ / ٣١١ . نقد النثر ، ص : ١٠٧ .

(٣) البيان والتبيين ١ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

والصَّقْعَاء ، واقعة ببقعاء ، لقد نفر المجد بنى العشاء ، للمجد والسَّناء» (★).

أما قدامه بن جعفر فيعلل إنكار الرسول ﷺ لهذا الأسلوب «لأنه - أى : الرجل - أتى بكلامه مسجوعاً كله ، وتكلّف فيه السجع تكلف الكهان ، وأما إذا أتى به فى بعض كلامه ومنطقه ولم تكن القوافى مختلقة متكلفة ، ولا متمحلة مستكرهة ، وكان ذلك على سجيّة الإنسان وطبعه ، فهو غير منكرو ولا مكروه » .

ويعود ابن الأثير لمحاورة من ذموا النثر والرد عليهم ، فيقول :

« وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم عن أن يأتوا به ، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد فى القرآن الكريم حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعاً مسجوعة ، كسورة الرحمن ، وسورة القمر ، وغيرها » .

ويمضى ابن الأثير قائلاً : « وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام النبى ﷺ شيء كثير أيضاً » .

فمن ذلك ما رواه ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :

« استحيوا من الله حق الحياء » قلنا : إنا لنستحيى من الله يا رسول الله ، قال : « ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا » .

فإن قيل : إن النبى ﷺ قال لبعضهم منكراً عليه وقد كلمه بكلام مسجوع :

« أسجعاً كسجع الكهان ؟ » ولولا أنه مكروه لما أنكره النبى ﷺ ، فالجواب عن ذلك - والقول لابن الأثير - أننا نقول : لو كره النبى ﷺ السجع مطلقاً لقال : « أسجعاً ؟ » ثم سكت ، ولكنه قال : « أسجعاً كسجع الكهان ؟ » ، فصار المعنى معلقاً على أمر ، وهو إنكار الفعل لما كان على هذا الوجه ، فعلم أنه ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير ، وإنه لم يذم السجع على الإطلاق .

(★) المعانى : الرئى : هو الذى يعتاد الإنسان من الجن يحبه ويؤلفه ، الحازى : الكاهن ، شق : هو شق بن أنهار ، زعموا أنه كان شق إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة . الصقعاء : التى فى وسط رأسها بياض . البقعاء من الأرض : هى ذات الحصى الصغار . نفر - بتشديد الفاء - حكم لهم بالغلبة على غيرهم ، بنو العشاء : من بنى مازن بن فزارة بن ذبيان .

بل إنه ﷺ غير الكلمة عن وجهها إتباعا لها بأخواتها من أجل السجع ، فقال لابن ابنته : « أعيذه من الهامة والسامة ، وكل عين لامة » لأن الأصل فيها من « ألم » فهو « ملم » .

وكذلك قوله ﷺ : « أرجعن مأزورات غير مأجورات » وإنما أراد « مؤزورات » من الوزر ، فقال : « مأزورات » لمكان « مأجورات » طلبا للتوازن والسجع ، وهذا يدل - ولا يزال القول لابن الأثير - على فضيلة السجع (١) .

وإذن فاستكراه الرسول للسجع ليست ظاهرة تشيع بين الدارسين ، وإنما هي حادثة بعينها أسوء فهمها ، ذلك أن السجع من علامات رقة الأسلوب ونصاعته ، ورويقه وجزالته ، وقد سرى السجع الجميل في كلام رسول الله ﷺ بأشكاله الأنيقة ، وصياغاته الرقيقة . طبقاً لما سوف نتمثل به بعد قليل .

وأما سجع الكهان فهو نمط من القول تضيق بسماعه الأذن ، ويتأذى منه السمع ، مثل ذلك الذى أثر عن شق وعن سطيح .

ولكن إذا كانت الألفاظ المسجوعة ذات رقة ورين ، ومعنى كريم ، وأناقة وحسن ترسيم ، فإن النفس تشتاق إلى سماعها ، والأذن تتراح إلى إيقاعها ، وهذا النوع الجميل من السجع يشيع في أسلوب القرآن الكريم ، ويكثر في كلام الرسول ﷺ .

والأمثلة من القرآن الكريم من الوفرة بمكان ، كقوله - تعالى - : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَأْصَحْبُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ (٢) أو قوله - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (٣) وقوله - تعالى - : ﴿ وَالْعَدِيدَ صَبَحًا * فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَتِ صُبْحًا * فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ (٤) .

(١) المثل السائر ١ / ٣٠٨ - ٣١١ .

(٢) الواقعة ، الآيات : ٢٧ - ٣٠ .

(٣) الضحى ، الآيتان : ٩ ، ١٠ .

(٤) العاديات ، الآيات : ١ - ٥ .

والسجع على أشكال مختلفة ، فمنه الطويل ، ومنه القصير ، ومنه المعتدل المتساوي ، وهذا الأخير أفضل أنواع السجع ما لم تطل فقرة وتقصّر أخرى ، أو ما لم يكن السجع مجافيا للطبع : ثِقْلٌ وَقَع ، وَغَثَاثَةٌ لَفِظٌ .

فمن أمثلة السجع القصير قوله - تعالى - :

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ (١)

ومن أمثلة السجع المتوسط قوله - تعالى - : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ * الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ * سَنُقَرِّثُكَ فَلَا تَنْسَىٰ * إِلَّا مَآشَاءَ اللَّهِ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ * وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَىٰ * فَذَكَرْنَا نَفْعَ الذِّكْرِىٰ * سَيَذَكَّرُنَّ يَخْشَىٰ * وَيَجْنِبُهَا الْأَشْقَىٰ * الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (٢)

ومن أمثلة السجع الطويل قوله - تعالى - :

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ * وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضُرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (٣)

وكذلك الحال في كلام رسول الله ﷺ فالسجع في الأسلوب المحمدي عذب الإيقاع ، كريم المعنى ، ترتاح إليه النفوس ، وتقر برقته الأسعاع ، وتنشرح لمضامينه الصدور ، ومنه السجع القصير والمعتدل والطويل ، وهو في جميع حالاته - قصيرا كان أو معتدلا أو طويلا - لا يدانيه قول إنسان ، ولا يرقى إلى مستواه حديث بشر .

(١) سورة النجم ، الآيات من : ١ - ٧ .

(٢) سورة الأعلى كلها .

(٣) سورة هود ، الآيتان : ٩ ، ١٠ .

فمن سجعه القصير مارواه عبد الله بن سلام قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس قِبَلَهُ - يعنى مضوا مسرعين - وقالوا : قدم رسول الله ، فجئت لأنظر ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شيء سمعته منه قوله : « أيها الناس : أطعموا الطعام ، وأفشوا السلام ، وصِلُوا الأرحام ، وصَلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » (١).

سجع قصير ، موافق للطبع ؛ ناعم الجرس ، عميق الوقع ، ينسرب إلى القلب ، يضافح السمع ، ويمازج العقل . ولا تصلح لفظة أخرى لتحل محل الكلمة المسجوعة وتؤدي وظيفتها أو تعمل عملها .

وأما سجعه المعتدل فمنه قوله ﷺ : (٢)

« واعلموا أنكم عن قليل راحلون ، وإلى الله صائرون ، فلا يغنى عنكم هناك إلا عمل صالح قدمتموه ، أو حسن ثواب حُرِّمْتُمُوهُ ، إنكم إنما تُقَدِّمون على ما قَدَّمْتُمْ ، وتُجَاوِزُونَ على ما أَسْلَفْتُمْ ، فلا تَحْذَرْنَكُمْ زخارف دنيا دنية ، عن مراتبِ جَنَاتٍ عَلِيَّةٍ » .

ومن سجعه الطويل قوله ﷺ : (٣)

« ألا وإن من علامات العقل ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والتزود لسكنى القبور ، والتأهب ليوم النشور » .

وتلك نماذج مختلفة من السجع في كلام صاحب الرسالة ﷺ :

● « نزلت المعونة على قدر المؤونة » (٤).

● قوله ﷺ للأَنْصار : « إنكم تكثرون عند الفزع ، وتقلُّون عند الطمع » وفيه أيضا طباق .

(١) مسند أحمد ٥ / ٤٥١ وسنن الترمذى ٢ / ٧٩ .

(٢) الطراز ٣ / ٣٠ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) أعلام النبوة ، ص ١٦٧ .

● قوله ﷺ: (١)

« تعوذوا بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء » .

● وقوله ﷺ :

« الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان » .

● وقوله ﷺ :

« هو أوضح دليل ، إلى خير سبيل » .

● وقوله ﷺ :

« ربنا تقبل توبتي ، واغسل حوبتي » .

والحوبة : هى المأثم ، وهو من دعاء الرسول ﷺ وقد أورده الشريف الرضى بقوله - صلى الله عليه وسلم - : « رب تقبل توبتي واغسل حوبتي » (٢).

● وقوله ﷺ :

« الناس معادن كمعادن الفضة والذهب ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ، والأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » متفق عليه .

● وقوله ﷺ :

« إن الرفق لا يكون فى شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » .

● وقوله ﷺ :

« بشر خديجة - رضى الله عنها - ببيت فى الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصَب » متفق عليه .

(١) البخارى (كتاب القدر) باب من تعوذ بالله من درك الشقاء ٨ / ١٥٧ ومسلم (كتاب الذكر) باب التعوذ وسوء القضاء ٤ / ٢٠٨٠ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٨٣ .

والقصب : اللؤلؤ المجوف .

● وقوله ﷺ :

« لا تزال أمتى بخير ما لم تر الفء مغنيا ، والصدقة مغرما » يقول عبد القاهر الجرجاني : « لا تجد في جميع ما ذكر لفظا اجتلب من أجل السجع ، وتترك له ما هو أحق بالمعنى منه ، وأبر به ، وأهدى إلى مذهبه » (١) .

(٢)

التجنيس أو الجناس :

التجنيس والجناس بمعنى واحد ، ومعناه في مصطلح علماء البيان : هو أن تتفق اللفظتان في وجه من الوجوه ويختلف معناهما .

والجناس قسمان : تام وناقص .

الجناس التام :

ويسمى أيضا بالكمال والمستوفى والحقيقى ، وهو أن تتفق الكلمتان في لفظهما ووزنهما وحركاتهما ، ولا تختلفان إلا من جهة المعنى ، ومثاله قوله - تعالى - : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (٢) .

ويذكر الإمام يحيى بن حمزة العلوى أن ليس في القرآن من التجنيس الكامل غير هذه الآية (٣) . والساعة الأولى بمعنى القيامة ، والساعة الثانية هي الساعة الزمنية التي يتكون من مجموعها الليل والنهار .

وفي كلام رسول الله ﷺ لم ننع إلا على مثال واحد ، وهو قوله ﷺ لما نازع الصحابة جرير بن عبد الله يوم أحد أيهم يقبض زمام ناقة الرسول ، فقال ﷺ : « خلوا بين جرير

(١) أسرار البلاغة ، ص : ١٢ .

(٢) سورة الروم ، الآية رقم : ٥٥ .

(٣) الطراز ٢ / ٣٥٦ .

والجَرِير « وجريـر هو الصحابي جريـر بن عبد الله ، وجريـر الثانية (المعرفة بأل) تعنى زمام الناقة .

الجناس الناقص :

ويقال له أيضا : المشبه ، وغير التام ، وهو يأتي على أنحاء مختلفة ، وهو : ما اختلف فيه اللفظان في واحد أو أكثر من المواصفات التي ذكرت في الجناس التام .

وهو على ضرب كثيرة ، منها : المختلف ، والمطلق ، والمصحف ، والمضارع ، والمعكوس ، والمركب ، والمذيل ، والمزدوج أو المردد ، والمشوش ، والمجنب ، والمردوف ، والمكتنف ، والمطرف ، والمحرف ، وغير ذلك مما لم يضعوا له اسما .

وطبيعي أن لا يجيء من كلام رسول الله ﷺ ما تنطبق عليه هذه المسميات جميعا ؛ لأن أكثر هذه المسميات تنطبق على الشعر ، وليس جميعها مما يدخل في حوزة النثر ، كما أن هذه التسميات وضعت في مراحل متأخرة بدأت في القرن الثالث الهجري حتى القرن التاسع ، ومن هنا فإن المصطلحات البديعية وعناصرها قد تكاثرت وتعددت وتضخمت إلى آماـد بعيدة ، ولكننا سوف نعرض لنماذج من أقوال الرسول ﷺ التي ينطبق عليها بعض الأضرب التي سلف ذكرها .

● قال رسول الله ﷺ : « اللهم كما حَسَنْتَ خَلَقِي حَسِّنْ خُلُقِي » .

إن الحروف هنا متساوية في (خَلَقِي وَخُلُقِي) في تركيبها ، ولكنها مختلفة في وزنها ، ومن ثم فقد اصطلح على تسمية هذا الضرب من التجنيس « بالمختلف » (١) .

● وقال رسول الله ﷺ : « أَسْلَمَ سَالِمُهَا اللَّهُ ، وَغِفَارٌ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا ، وَعُصْبَةُ عَصَتِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَنُجَيْبٌ أَجَابَتِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » وروى الحديث بترتيب آخر في تقديم القبايل وتأخيرها فقدم « عَصْبَةُ » وآخر « أَسْلَمَ » .

ويسمى هذا الضرب بالجناس « المطلق » لأن اللفظتين مشتركتان في الاشتقاق ،

(٢٢) الطراز ٢ / ٣٥٩ وأسرار البلاغة ١ / ٣٨٦ .

ويدخل في هذا الضرب قوله ﷺ : « الظلم ظلمات يوم القيامة » وقوله : « لا يكون ذو الوجهين وجيها عند الله » وقوله ﷺ : « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده » .

● وقال رسول الله ﷺ : « عليكم بالأبكار ؛ فإنهن أشد حُباً ، وأقل حُباً » والخب : هو الخداع ، وقد جرى التصحيف في لفظي : حب ، وخب . ولذلك فإنه يطلق على هذا الضرب : التجنيس « المصحف » ^(١) لأن من لا يفهم المعنى يصحف أحدهما إلى الآخر لتشابههما في الخط ، كما يطلق أيضا على هذا الضرب : « المرسوم » .

وهذا الضرب من المصحف ينطبق على قول رسول الله ﷺ في إحدى خطبه : « ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة » ^(٢) .

● يقول ﷺ : « الخيل معقود بنواصيها الخير » والأمر الواضح أن اللام والراء متقاربتان في « الخيل والخير » حتى إن أكثر الأطفال يبدأون عند تعلم الكلام بنطق الراء لاما .

إن هذا الضرب من القول هو التجنيس الذي يطلق عليه التجنيس « المضارع » وهو الجمع بين كلمتين متجانستين لا تفاوت بينهما إلا بحرف واحد ، سواء وقع متقدما أو وقع متأخرا ^(٣) .

ويدخل في نطاق هذا الضرب قوله ﷺ : « بَشُرْ خديجة - رضى الله عنها - بيت في الجنة من قصب (*) ، لا صخب فيه ولا نصب » متفق عليه .

ومن هذا النوع أيضا من المضارع قوله ﷺ : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا يُنزع من شيء إلا شانه » .

ومنه أيضا قوله ﷺ : « رب تقبل توبتي ، واغسل حوبتي » (والحب والحوبة : المأثم) .

(١) الطراز ٢ / ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٣٩ .

(٣) الطراز ٢ / ٣٦٧ .

(*) القصب : هو اللؤلؤ المجوف .

● وقال ﷺ : « جار الدار أحق بدار الجار » وهذا الضرب يسمى المعكوس ، أو التجنيس بالتبديل ، وهذه التسمية الأخيرة أطلقها عليه قدامة بن جعفر .

وهذا النوع من التجنيس المعكوس نوعان :

الأول منهما : هو عكس الألفاظ ، وهو ما يدل عليه حديث رسول الله حول : « جار الدار »^(١).

والنوع الثانى : هو عكس الحروف ، مثل كرسى ، يسرك ، فلوقرأت « يسرك » من اليسار إلى اليمين ، يعنى عكست قراءتها فإنها ستكون « كرسى » .

وقد جاء هذا المثل فى شعر أحد المغرمن بالصنعة :

أهديت شيئا يقلّ لولا

أحدوثة الفال والتبرك

كُرسى تفاءلت فيه لما

رأيت مقلوبة يسرك

وقد جاء ذلك فى لفظ عقرب ، وبرقع ، مثلما جاء فى الجملة القرآنية : ﴿ كُلُّ فِي فَلَكٍ ﴾ من الآية الكريمة ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾^(٢).

يقول ابن الأثير : وهذا النوع الثانى من الجناس المعكوس نادر الاستعمال ، لأنه قل ما يقع كلمة تقلب حروفها فيجىء معناها صوابا^(٣).

● بقى ضرب من الجناس غير التام يمكن أن يستمد له اسم من بعض كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولكن البلاغيين لم يفعلوا أكثر من أنهم قدموا توصيفا لهذا الضرب دون أن يقدموا له تسمية ، فقالوا :^(٤)

(١) الطراز ٢ / ٣٧٠ .

(٢) سورة يس ، من الآية : ٤٠ .

(٣) المثل السائر ١ / ٣٩٦ .

(٤) المثل السائر ١ / ٣٩٧ .

« من المشبه بالتجنيس - أى : الجناس غير التام - وهو مايساوى وزنه تركيبه غير أن حروفه تتقدم وتتأخر ، وقد ضرب ابن الأثير مثلاً لهذا الضرب من الجناس الناقص بيت أبى تمام فى قصيدة عمورية .

بيض الصفائح لا سود الصحائف فى

متوهم جلاء الشك والرّيب

وقد ورد ذلك فى كلام رسول الله ﷺ فى فضيلة تلاوة القرآن الكريم : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وأزق ورثك كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ » فقله ﷺ : « اقرأ » و « ارق » من التجنيس المشار إليه .

ويمكن أيضاً أن يربح هذا الضرب من التجنيس المشار إليه مثلاً آخر من كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ يقول : « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى فى كُلِّ مِحْنَةٍ مِّنْحَةٌ » ، ذلك أن قوله الشريف « محنة » و « منحة » من نوع التجنيس نفسه .

المحسنات المعنوية

(١)

الطباق والمقابلة :

عدّ أكثر البلاغيين الطباق ضرباً مستقلاً من ضروب البديع مثله فى ذلك مثل المقابلة ، ولقد سُمّيَ الطباق : تطبيقاً ، وتضاداً ، وتكافؤاً ، وعرفوه بأنه يُؤتى بالشئ وبضده فى الكلام ، وضربوا مثلاً بذلك من قوله - تعالى - : ﴿ فليضحكوا قليلاً وليبْكُوا كثيراً ﴾ (١) .

إن الإمام يحيى بن حمزة العلوى صاحب « الطراز » يعترض على هذه التسمية ،

(١) الطراز ٢ / ٣٧٧ .

ويقول في ذلك - وفي قوله كثير من النصفة - : والأجود تلقيبه بالمقابلة ؛ لأن الضدين يتقابلان ، كالسواد والبياض ، والحركة والسكون ، وغير ذلك من الأضداد من غير حاجة إلى تلقيبه بالطباق والمطابقة (١).

غير أن جمهرة البلاغيين لما عرّفوا الطباق بالجمع بين الشيء وضده في الكلام ، فقد وقفوا عند الكلمة وضدها ، فإذا زاد الأمر عن ذلك لم يعد يسمى طباقا ، وإنما يسمى حينئذ مقابلة .

وللطباق أمثلة ليست كثيرة في حديث رسول الله ﷺ مثل قوله : « خير المال عين ساهرة لعين نائمة » (٢) بمعنى أن خير المال عين ماء ينام صاحبها وهي تظل فائضة تسقى .

ومن الطباق أيضا قول رسول الله ﷺ للأنصار : « إنكم تكثرون عند الفرع ، وتقلّون عند الطمع » يعني يكثرون عند الملمات والحرب ، ويقلّون عند المغائم ويتعففون عنها ، والطباق هنا بين « تكثرون » و « تقلّون » .

فأما المقابلة فهي : أن يؤتى بشيئين أو أكثر - وليس بشيء واحد ، فذاك هو الطباق - ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب .

مثال ذلك ما روته السيدة عائشة عن النبي ﷺ أنه قال لها : « عليك بالرفق يا عائشة ؛ فإنه ما كان في شيء إلا زانه ، ولا نزع من شيء إلا شانه » (٣).

إنه من الطريف أن المؤلف أورد هذا الحديث يستشهد به على الطباق قائلا : « فجمع بين الزين والشين ، وهما ضدان » والصواب أنه مقابلة لأنه أتى بشيئين هما وجود الرفق والزين ، وأتى بما يقابلهما وهما نزع الرفق والشين .

وها نحن نعرض عددا من أحاديث رسول الله ﷺ تشتمل جميعا على العنصر البديعي « المقابلة » وهي جميعها من الوضوح بمكان .

(١) المصدر السابق ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

(٢) المثل السائر ٣ / ١٧٢ .

(٣) الطراز ٢ / ٣٨٠ .

● عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال :

« الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ، والأرواح جنود مجنّدة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » (١). رواه مسلم

● « ما من يوم يُصبح العبد فيه إلّا مَلَكَانِ ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفاً . متفق عليه

● يقول الماوردى : من « بديع » الحديث :

قال ﷺ : « صنائع المعروف تقي مصارع السوء » رواه الترمذى

وهكذا نجد أحاديث « المقابلات » السالف ذكرها تتضمن الإتيان بشيئين يقابلها مثلها .

وها نحن نأتى بنماذج من المقابلة تضم ثلاثة أشياء يقابلها مثلها .

● قال ﷺ من خطبة : « ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة » (٢).

إن أطراف المقابلة هى الدنيا وارتحلتها مدبرة ، يقابلها الآخرة ومجيئها - الارتحال - عكس الارتحال - مقبلة .

● وقوله ﷺ : « المؤمن غرّ كريم ، والفاجر خبّ لئيم » (٣).

إن أطراف المقابلة الثلاثة من الوضوح بمكان .

● وقوله ﷺ : « الدنيا سجن المؤمن وبلاؤه ، وجنة الكافر ورخاؤه » (٤).

(١) رياض الصالحين : باب زيارة أهل الخير ومجالستهم ، ص : ١٦٤ ، والمجازات النبوية ، ص : ٦٥ .

(٢) المجازات النبوية ، ص : ١٣٩ .

(٣) أعلام النبوة ، ص : ١٦٧ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

تلك كانت نماذج من أحاديث رسول الله التي احتوت صُرْبِي الطباق والمقابلة في فن البديع ، وفيها تتجلى الفصاحة المحمدية والبيان النبوي الذي استمد منه كثير من فنون البلاغة العربية .

(٢)

لزوم ما لا يلزم :

لا يخطر على بال أحد أن رسول الله ﷺ قد عمد إلى قول ما تنطبق عليه مظاهر الفن البديعي المتأخر « لزوم ما لا يلزم » ذلك أن الذين أسهموا بإبداعهم في هذا الفن قد خلوا إلى أنفسهم ساعات طوالا لكي يدبجوا هذا اللون البديعي من أمثال المعري في الشعر ، وكتاب العصر المملوكي في النثر ، وتبدو الصنعة المتعسفة في كلامهم شعرا كان أو نثرا .

إن ضياء الدين بن الأثير يصف هذا الفن فيقول : إنه من أشق هذه الصناعة مذهبا ، وأبعدها مسلكا ، وذلك لأن مؤلفه يلتزم ما لا يلزم^(١) .

وأما رسول الله ﷺ فبالقطع لم يعمد إلى ذلك ولا جال بخاطره أن يرتب كلامه على ذلك النسق البديعي الذي شاع متأخرا زمانا ، وإنما هي فصاحته الأصيلية وبلاغته التي أنعم الله بها عليه ، وتكوينه البياني الرباني ، وتملكه لمجامع الكلم ، كل ذلك جعل كلامه ﷺ يستوعب مختلف أساليب البيان ، ويستعمل أغلب ضروب البديع .

إن لزوم ما لا يلزم يقال له « الإعنات » - وهي تسمية صادقة دقيقة - يرد في المشور والمنظوم على حدّ سواء ، وهو التزام حرف مخصوص قبل حرف الروي ، وهو قليل في « الكتاب العزيز » ومن أمثلة ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَالطُّورِ * وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴾ .

(١) المثل السائر ١/ ٤٠١ .

وفي الحديث الشريف نتف من هذا اللون من البديع^(١)، ولكنها بالقطع غير مقصودة ، مثل قوله ﷺ : « وَلِيُحْسِنْ عَمَلَهُ ، وَلِيُقَصِّرَ أَمَلَهُ » وقوله : « إن أفضل الناس عبداً أخذ من الدنيا الكفاف ، وصاحب فيها العفاف » وقوله ﷺ في صفة الدنيا : « واهجروا لذيق عاجلها لكريه آجلها » .

وهذا الضرب من فن البديع قليل أيضا في السنة الشريفة ، مثل قلته في القرآن الكريم .

(٣)

الإرصاد :

هو أن يكون أول الكلام مرصدا لفهم آخره ، ويكون مشعرا به ، فمتى قرع سمع الإنسان أول الكلام فإنه يفهم آخره ، ويسرى ذلك على المشور والمنظوم .

وهو في الشعر كثير ، كما أنه موجود في القرآن الكريم في أكثر من موضع وأكثر من آية على نحو ما جاء في قوله - تعالى - : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ ﴾ فإذا قرع السمع جملة ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ ﴾ توقع أن يسمع بعدها ﴿ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ ﴾^(٢) . ويقع ذلك أيضا في مثل قوله - تعالى - : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾^(٣) .

ومثلما وقع الإرصاد في القرآن الكريم فإنه جرى أيضا على لسان سيد المرسلين ﷺ في مثل قوله : « فما بعد الموت من مستعجب ، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » فمتى سمع السامع قوله : « فما بعد الدنيا من دار » فإنه يتوقع أن بقية الكلام هو « إلا الجنة أو النار » لما بينهما من شدة الملاءمة .

(١) الطراز ٢ / ٣٩٨ .

(٢) المثل السائر ٣ / ٢٤٦ .

(٣) الطراز ٢ / ٣٢١ .

ومن الإِرصاد أيضا قول رسول الله ﷺ لما سار لفتح خيبر ، إذ أنه حين رآها قال :
«الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » فقوله ﷺ :
«إذا نزلنا بساحة قوم » فيه وعيد بالبوار ، ومن ثم فهو دال على قوله : «فساء صباح
المنذرين» (١).

ويتعدد الإِرصاد في قوله ﷺ في صفة القرآن وتكرر صيغه . والعبارات المقصودة
بذلك قوله ﷺ : « فإذا التبست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن ، فإنه
شافع مشفع ، وشاهد مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه
ساقه إلى النار ، وهو أوضح دليل إلى خير سبيل ، من قال به صدق ، ومن عمل به
أجر ، ومن حكم به عدل » (٢).

(٤)

اللف والنشر:

هو في مفهوم البلاغيين : ذكر الشئين على جهة الاجتماع مطلقين عن التقييد ، ثم
يؤتى بما يليق بكل واحد منهما ، اتكالا على أن السامع - لوضوح الحال - يرد إلى كل
واحد منهما ما يليق به ، وهو في الحقيقة جمع وتفريق ، واشتقاقهما من قولهم : لفّ
الثوب : إذا جمعه ، ونشر الثياب : إذا فرّقها .

ومثال اللف والنشر من القرآن الكريم قوله - تعالى - :

﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾
فجمع بين الليل والنهار بواو العطف ، ثم أضاف إلى كل واحد منهما ما يليق به ،
فأضاف السكون إلى الليل ؛ لأن حركات الخلق تسكن ليلا ، ثم قال بعد ذلك :
﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٣) إضافة إلى النهار ؛ لأن ابتغاء الأرزاق إنما يكون نهارا ،

(١) المصدر السابق ٢ / ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٢) الطراز ٢ / ٣٢٤ .

(٣) القصص ، الآية : ٧٣ .

واكتفى في الإضافة بما يعلم من ظاهر الحال ، وهو أن السكون مضاف إلى الليل لما فيه من الاستراحة ، وأن الابتغاء مضاف إلى النهار لما يظهر فيه من الحركة ، ولم يقل : جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ، والنهار لتبتغوا من فضله إثارا لما يظهر في اللف بعده النشر^(١).

أما اللف والنشر في كلام رسول الله ﷺ فمثل قوله :

« فإن المرء بين يومين : يوم قد مضى أحصى فيه عمله فحتم عليه ، ويوم قد بقى لا يدرى لعله لا يصل إليه » فقله : « بين يومين » يكون من اللف لاشتغالها على ما يكون ماضيا ومستقبلا ، وهذه هي فائدة اللف ، ثم إذا نشرهما بعد ذلك بقوله : « يوم قد مضى أحصى فيه عمله » فهذا يتناول الماضي ، « ويوم قد بقى لا يدرى ما يفعل فيه » وهذا يتناول المستقبل ، فهذه حقيقة اللف والنشر ، ولو لم يرد اللف والنشر لقال فيه : إن المرء بين يومين ، يوم قد مضى ويوم قد بقى^(٢).

ومن هذا أيضا قوله ﷺ : « وقد رأيتم الليل والنهار كيف يبليان كل جديد ، ويقربان كل بعيد ، ويأتیان بكل موعود » فلفّ الليل والنهار جميعا ، ثم فصل أحكامهما بعد ذلك ، ولو لم يرد اللف والنشر لقال : وقد رأيتم الليل كيف يبلى كل جديد ، ويقرب كل بعيد ، ويأتى بكل موعود ، ورأيتم النهار كيف يبلى كل جديد ويقرب كل بعيد ويأتى بكل موعود .

ومن اللف والنشر كذلك في كلام الرسول ﷺ قوله : « إنما يؤتى الناس يوم القيامة من إحدى ثلاث : إما من شبهة في الدين ارتكبوها ، أو شهوة للذة آثروها ، أو عصبية لحمية أعملوها ، فإذا لاحت لكم شبهة فاجلوها باليقين ، وإذا عرضت لكم شهوة فاقمعوها بالزهد ، وإذا عنّت لكم عصبية فادراًوها بالعفو » .

إن هذا الكلام حوى قدرا جميلا من لطائف الإجمال والتفصيل ، واشتمل على

(١) الطراز ٢ / ٤٠٤ .

(٢) المصدر السابق ٤٠٥ .

محاسن اللف والنشر ، ومن يتأمل كلام الرسول ﷺ يجد فيه نماذج من هذا الضرب
البليغ من ضروب البلاغة والبديع .

إن فصاحة رسول الله وبيانه لم يقف عند حدود ما تعارف عليه معاصروه - وهم من
صفوة البلغاء وزبدة الفصحاء - وإنما امتد على مساحة الأرض والزمان كنزا زاخرا
للبلاغة ، ومعينا لا ينضب من البيان .

تم بحمد الله وفضله قبيل فجر السبت ٥ من المحرم ١٤١٦ هـ الموافق ٣ من يونية
١٩٩٥ م ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

مراجع الكتاب

- القرآن الكريم .
- الإتيقان في علوم القرآن : لجلال الدين السيوطي ٩٩١ طـ الحلبي .
- كتاب الأحاديث الأربعين في أمثال أفصح العالمين ليوسف بن إسماعيل النبهاني ١٣٥٠ هـ .
- كتاب الأحاديث الأربعين النووية ، للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي ٦٧٦ هـ .
- الأحاديث القدسية ، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة .
- الأحاديث القدسية الأربعينية ، للدكتور عز الدين إبراهيم .
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، لأبي الحسن الماوردي ٤٥٠ هـ طبعة الحلبي .
- أخبار القضاة : للقاضي وكيع محمد بن خلف بن حيان ٣٠٦ هـ طبعة عالم الكتب ، بيروت .
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق ، ت : ٢٤٤ هـ . ط : الماجدية - مكة .
- أخلاق النبي وآدابه : للحافظ أبي محمد عبدالله بن جعفر الأصبهاني ٣٦٩ هـ المعروف بأبي الشيخ . ط الدار المصرية اللبنانية / مصر .
- أدب الدنيا والدين : لأبي الحسن الماوردي ط الدار المصرية اللبنانية / مصر .
- أدب الكاتب : لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكوفي الدينوري ٢٧٦ هـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية / مصر .
- الأدب المفرد : للإمام البخارى طبعة السلفية القاهرة .
- الأذكار : للإمام الحافظ أبي زكريا يحيى بن شرف النووي ط الدار المصرية اللبنانية .

- الاستيعاب في معرفة الصحاب : لأبى عمر بن عبد البر ط نهضة مصر .
- أسرار البلاغة : لعبد القاهر الجرجاني ، طبعات عديدة .
- إسلام النجاشى : للواء محمود شيت خطاب ، ط بغداد .
- الإسلام والعلاقات الدولية : للدكتور محمد الصادق عفيفى ، دار الرائد العربى بيروت .
- أسنى المطالب فى أحاديث مختلفة المراتب : للشيخ محمد السيد الحوت إدارة إحياء التراث الإسلامى / مصر .
- الإصابة فى تمييز الصحابة : للإمام شيخ الإسلام أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى ٨٥٢ هـ ، ط دار صادر بيروت .
- أصول علم السياسة : للدكتور طه بدوى ، جامعة الإسكندرية .
- إعجاز القرآن : لأبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى ٤٠٣ هـ ، دار المعارف ، القاهرة .
- إعجاز القرآن للفقهاء المحدث أبى سليمان أحمد بن محمد الخطابى ٣٨٨ هـ .
- إعجاز القرآن : لمصطفى صادق الرافعى ، دار الكتاب العربى ، بيروت .
- أعلام الحديث فى شرح حديث البخارى : لأبى سليمان الخطابى . تحقيق الدكتور محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود . أم القرى .
- إعلام الساجد بأحكام المساجد : لمحمد بن عبد الله الزركشى ٧٩٤ هـ عالم الكتب / بيروت .
- إعلام المسلم بما اتفق عليه البخارى ومسلم فى الترغيب والترهيب : سميح عباس ، الدار المصرية اللبنانية .
- أعلام النبوة لأبى الحسن الماوردى ، دار إحياء العلوم / بيروت .
- أعلام النساء : لعمر رضا كحالة - ط دمشق .
- أفضية رسول ﷺ لابن الطلاع أبى عبد الله محمد بن فرج المالكي ٤٩٧ هـ تحقيق محمد ضياء الرحمن الأعظمى ، دار الكتاب اللبنانى / مصر .

- الأمالي : للشريف المرتضى على بن الحسين الموسوى ٤٣٠ هـ ، ط القاهرة .
- إمتاع الأسع لتقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقرزى ٨٤٥ هـ . ط : القاهرة
- الأمثال : لأبى عبيد القاسم بن سلام ٢٢٤ هـ . جامعة أم القرى .
- الأمثال : لأبى هلال العسكري (سنذكره بعنوانه الأصلى وهو « جمهرة الأمثال » فى مكانه من الترتيب الهجائى) المؤسسة العربية الحديثة / القاهرة .
- الأمثال : للميدانى (وسوف نذكره بعنوانه الأصلى وهو : مجمع الأمثال) .
- الأمثال للواحدى (وسوف نذكره بعنوانه الأصلى وهو : الوسيط فى الأمثال) ط الكويت .
- أمثال الحديث : لابن خلاد الرامهرمى ٣٦٠ هـ . ويسمى أيضا : أمثال النبى .
- الأمثال والحكم : لأبى الحسن الماوردى ، دار الحرمين ، قطر .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوى) لناصر الدين أبى سعيد عبدالله ابن عمر الشيرازى البيضاوى ٦٨٥ هـ مؤسسه شعبان للنشر والتوزيع ، بيروت .
- بحر العلوم (تفسير) لأبى الليث نصر بن محمد السمرقندى ٣٧٣ هـ ط الإرشاد / بغداد .
- البداية والنهاية للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير ٧٧٤ هـ ، ط بيروت .
- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن : لكمال الدين عبد الواحد الزملىكانى ٦٥١ هـ تحقيق د . أحمد مطلوب .
- بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز : لمجد الدين الفيروزابادى ٨١٧ هـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد : للقاضى عياض بن موسى اليحصبى السبى ٥٤٤ هـ ، ط وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الرباط .
- بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة : لجلال الدين السيوطى ٩١١ هـ .
- بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب : لمحمود شكرى الألوسى ، مطبعة الرحمانية .

- البيان والتبيين : للجاحظ ٢٥٥ هـ لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- تاريخ الإسلام : للإمام أبى عبدالله شمس الدين الذهبى ٧٤٨ هـ مجلد المغازى ، دار الكتاب اللبنانى / القاهرة .
- تاريخ بغداد : للخطيب البغدادى أبى بكر حمد بن على ٤٦٣ هـ دار البيان العربى / بيروت .
- تاريخ التراث العربى « المجلد الأول » لفؤاد سيزجن ، ترجمة الدكتور محمود حجازى .
- تاريخ الرسل والملوك : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ٣١٠ هـ ، مكتبة خياط / بيروت .
- التاريخ الصغير : للإمام محمد بن إسماعيل البخارى ٢٥٦ هـ دار التراث ، القاهرة .
- التبر المسبوك فى نصائح الملوك : للإمام أبى حامد الغزالى ٥٠٥ هـ ، ط بيروت .
- تحفة المودود فى أحكام المولود : لمحمد بن أبى بكر بن أيوب بن قيم الجوزية ٧٥١ هـ دار الكتب العلمية / بيروت .
- تذكرة الحفاظ : للإمام أبى عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبى ٧٤٨ هـ ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك : للقاضى عياض بن موسى اليحصبى ٥٤٤ هـ ، مكتبة الحياة ، بيروت .
- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف : للحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى ٦٥٦ هـ . الدار المصرية اللبنانية .
- التعريفات : للشريف على بن محمد الجرجانى ٨١٦ هـ .
- تهذيب الأسماء واللغات : للإمام يحيى بن شرف الدين النووى ٦٧٦ هـ ط المنيرية / القاهرة .
- تهذيب التهذيب : لشيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى ٨٥٢ هـ ، مكتبة صادر ، بيروت .

- جامع مسانيد النساء ، وذكرهن وأحوالهن : لإبراهيم محمد الجمل ، الدار المصرية اللبنانية .
- جامع الأصول من أحاديث الرسول : للمحدث الأصولي مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير ٦٠٦ هـ ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة .
- جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٣١٠ هـ ، مصطفى البابي الحلبي .
- جامع التحصيل في أحكام المراسيل : للحافظ صلاح الدين أبي سعيد خليل بن كيكلي العلاني ، ط بغداد .
- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير : للحافظ جلال الدين السيوطي ٩١١ هـ ، ط مصطفى البابي الحلبي .
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم : للإمام الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد بن رجب البغدادي ٧٩٥ هـ تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية / القاهرة .
- الجامع لأحكام القرآن (تفسير) لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ٦٧١ هـ ، دار القلم ، القاهرة .
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع : للخطيب البغدادي (أبي بكر أحمد بن عل) ٤٦٣ هـ مكتبة الفلاح ، الكويت .
- جمع الجوامع (أو الجامع الكبير) للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد ، جمعها محمد بن محمد بن سليمان الروداني المغربي ، إصدار إبراهيم أمين فودة ، مكة المكرمة .
- جهرة الأمثال : لأبي هلال العسكري ، الحسن بن عبدالله ٣٩٥ هـ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، ود . عبد المجيد قطامش ، القاهرة .
- جهرة خطب العرب ، محمد زكي صفوت ، ط مصطفى البابي الحلبي .

- حجة الوداع : لمحمد زكريا الكاندهلوى ، منشورات المجلس العلمى بالهند
- حديث أم زرع (انظر بغية الرائد فى حرف الباء) للقاضى عياض .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : لأبى نعيم الأصفهاني ٤٣٠ هـ . دار صادر بيروت .
- الحماسة الشجرية : لضياء الدين أبى السعادات هبة الله بن الشجرى ٥٤٢ هـ دار المعرفة / بيروت .
- حياة محمد ﷺ للدكتور محمد حسين هيكل باشا ، دار المعارف ، القاهرة .
- خزانة الأدب ولب لباب العرب : لعبد القادر بن عمر البغدادى ١٠٩٣ هـ ، الهيئة المصرية للكتاب .
- الخصائص الكبرى : للإمام الحافظ جلال الدين السيوطى ، دار الكتب العلمية / بيروت .
- الدرر فى اختصار المغازى والسير: لأبى عمر يوسف بن عبد البر ٤٦٣ هـ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : للبيهقى أحمد بن الحسين ٤٥٨ هـ دار الكتب العلمية / بيروت .
- ديوان حسان بن ثابت ، دار إحياء التراث العربى / بيروت .
- الروض المسلول فى بيان أسنان إلى ألوف : لمجد الدين الفيروزابادى ٨١٧ هـ .
- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين : لأبى زكريا يحيى بن شرف النووى ، مكتبة عبد الرحمن محمد بالأزهر / القاهرة .
- زاد المعاد فى هدى خير العباد : لشمس الدين أبى عبدالله محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية ٧٥١ هـ ط مصطفى البابى الحلبي .
- سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد : للإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى ٩٤٢ هـ ، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

- سنن الترمذى (الجامع الصحيح) لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة ٢٩٧ هـ تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ، دار الحديث القاهرة .
- سنن الدارمى (مسند الدارمى) للحافظ أبى محمد عبدالله بن عبد الرحمن بن الفضل ٢٥٥ هـ .
- سنن أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدي ٢٧٥ هـ الدار المصرية اللبنانية / القاهرة .
- سنن ابن ماجه : أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ٢٧٣ هـ تحقيق محمد مصطفى الأعظمى ، الشركة السعودية العربية .
- سنن النسائى : الحافظ أبى عبد الرحمن محمد بن شعيب بن على . . . بن دينار ٣٠٣ هـ شرح الحافظ جلال الدين السيوطى ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة .
- السير : لمحمد بن الحسن الشيبانى ١٨٩ هـ .
- السيرة النبوية : لابن هشام عبد الملك ٢١٣ هـ تحقيق الأستاذ مصطفى السقا وآخرين مكتبة مصطفى البابى الحلبي / القاهرة .
- السيرة النبوية لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ٣١٠ هـ تحقيق جمال بدران الدار المصرية اللبنانية / القاهرة .
- شرح السنة : للحسين بن مسعود بن محمد البغوى الحافظ ٥١٠ هـ المكتب الإسلامى ، دمشق .
- شرح الشفا فى شمائل صاحب الاصطفا : للإمام نور الدين القارى الهروى ١٠١٤ هـ تحقيق الشيخ حسنين محمد مخلوف ، مطبعة المدنى ، القاهرة .
- الشعر والشعراء : لابن قتيبة الدينورى ٢٧٦ هـ / تحقيق محمود شاكر ، دار المعارف .
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى : للقاضى عياض بن موسى اليحصبى ، مصطفى البابى الحلبي .
- الشفا فى مواظ الملوك : لعبد الرحمن بن الجوزى ٥٩٧ هـ دار الحرمين / الدوحة .

- الشبائل المحمدية : للترمذى بشرح البيجورى .
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا : لأبى العباس أحمد بن على القلقشندى ٨٢١ هـ -
وزارة الثقافة والإرشاد القومى / مصر .
- صلح الحديبية الفتح المبين : لشوقى أبو خليل ، دار الفكر ، دمشق .
- صحيح البخارى ، دار إحياء التراث العربى / بيروت .
- صحيح البخارى ، لجنة إحياء كتب السنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ،
القاهرة .
- صحيح مسلم ، شرح الإمام النووى ٦٧٦ هـ ، المطبعة العصرية / القاهرة .
- طبقات الحفاظ : للحافظ جلال الدين السيوطى ، مكتبة وهبة ، القاهرة .
- طبقات الشافعية : لتاج الدين السبكي ٧٧١ هـ ، تحقيق محمود الطناحى ، وعبد
الفتاح الحلوى .
- طبقات الشعراء : لابن المعتز ٢٩٦ هـ ، تحقيق عبد الستار فراج ، دار المعارف /
القاهرة .- الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٣٠ هـ ، دار صادر / بيروت .
- الطبقات الكبرى : للإمام عبد الوهاب الشعرانى ٩٧٣ هـ ، مصطفى البابى
الحلى .
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز ؛ للإمام يحيى بن حمزة العلوى ٧٤٥
هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- العقد الفريد : لأحمد بن عبد ربه ٣٢٧ هـ ، تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ،
دار الكتاب العربى / بيروت .
- عقيدة الموحدين : لعبد الله بن سعدى الغامدى ، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز .
- علم الحديث : لشيخ الإسلام ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ٧٢٨ هـ عالم الكتب ،
بيروت .
- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده : لأبى على الحسن بن رشيق القيروانى ٤٥٦ هـ -
تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ، دار الجيل / بيروت .

- عمل اليوم والليلة لابن السنّي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة .
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير : لفتح الدين أبي الفتح محمد بن سيد الناس اليعمرى الإشبيلي الأندلسي المصري ٧٤٣ هـ ، دار المعرفة / بيروت .
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينوري ٢٧٦ هـ ، وزارة الثقافة والإرشاد / القاهرة .
- غريب الحديث : لابن قتيبة الدينوري ٢٧٦ هـ .
- غريب الحديث : لمجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير ٦٠٦ هـ ، وعنوانه الأصلي (النهاية في غريب الحديث) .
- غريب القرآن : للراغب الأصفهاني ٥٦٥ هـ ، وعنوانه الأصلي (المفردات في غريب القرآن) مكتبة الأنجلو المصرية .
- الفتاوى الكبرى : لشيخ الإسلام ابن تيمية ٧٢٨ هـ ، تحقيق الشيخ حسين محمد مخلوف ، دار المعرفة / بيروت .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري : لشيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلاني ، ط مصطفى البابي الحلبي .
- فهرسة ما رواه ابن خير عن شيوخه : لأبي بكر محمد بن خير بن عمر اللمتوني الإشبيلي ٥٧٥ هـ ، دار الآفاق الجديدة / بيروت .
- في ظلال القرآن : للأستاذ سيد قطب ١٩٦٥ م ، دار الشروق ، القاهرة .
- في النظام الإسلامي للدولة الإسلامية : للدكتور محمد سليم العوا ، المكتب المصري الحديث / القاهرة .
- الكامل في الأدب : لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد ٢٨٦ هـ ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر .
- الكامل في التاريخ : لأبي الحسن عز الدين محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الجزري ٦٣٠ هـ ، دار الكتاب العربي / بيروت .

- الكشاف (في تفسير القرآن) لجار الله محمود بن عمر الزمخشري ٥٣٨ هـ .
- الكشف والبيان : لأبى عبد الله محمد بن سعيد القلهايتى ، تحقيق الدكتورة سيدة الكاشف ط- القاهرة .
- لسان الميزان : لشيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلانى ٨٥٢ هـ ، ط بيروت ١٣٩٠ هـ .
- المتجر الرابع فى ثواب العمل الصالح : لأبى محمد شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى ٧٠٥ هـ ، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ، النهضة المدنية ، مكة المكرمة .
- المتخير من حديث رسول الله ﷺ تخيّر جمال الدين الألوسى ، بغداد .
- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر : لضياء الدين أبى الفتح نصر الله بن محمد بن الأثير ٦٣٧ هـ ، تحقيق الدكتور أحمد الحوفى والدكتور بدوى طبانة ، دار الرفاعى ، الرياض .
- المجازات النبوية : للشريف الرضى أبى الحسن محمد بن الحسين ٤٠٦ هـ مصطفى البابى الحلبي .
- مجمع الأمثال : للميدانى أحمد بن محمد ٥١٨ هـ ، ط القاهرة .
- مجموعة الوثائق النبوية للعهد النبوى والخلافة الراشدة : للدكتور محمد حميد الله ، دار النفائس .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر: لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى ٣٤٦ هـ . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد- المكتبة التجارية الكبرى / القاهرة .
- المسند : للإمام أحمد بن محمد بن حنبل ٢٤١ هـ شرح الشيخ أحمد محمد شاكر، دار المعارف / القاهرة .
- مشارق الأنوار على صحاح الآثار : للقاضى أبى الفضل عياض بن موسى اليحصبى السبتي ٥٤٤ هـ ، دار التراث / القاهرة .
- مطلع الفرائد ومجمع الفوائد : لجمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصرى ، مجمع اللغة العربية ، دمشق .

- معاهد التنصيص للعباسي . .
- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لياقوت الحموي الرومي ٦٢٦ هـ ، مرجوليوث .
- معجم البلاغة العربية : للدكتور بدوى طبانة ، دار المنار ، جدة .
- معجم البلدان : لياقوت الحموي الرومي ٦٢٦ هـ دار صادر / بيروت .
- معجم ما ألفت عن رسول الله ﷺ للدكتور صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد / بيروت .
- المغازي النبوية للواقدي : محمد بن عمر ٢٠٧ هـ .
- مفتاح العلوم : لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي ، ت ٦٢٦ هـ ، طبع مطبعة التقدم العلمية بمصر .
- مفتاح كنوز السنة للدكتور أ . ي . فنسك ، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربى .
- المفردات في غريب القرآن : للراغب الأصفهاني الحسين بن محمد ، ٥٦٥ هـ ، مكتبة الأنجلو المصرية .
- المفهم في شرح صحيح مسلم : لأبي العباس أحمد بن عمر الأنصارى القرطبي ٦٥٦ هـ ، دار الكتاب اللبنانى ، القاهرة .
- منال الطالب في شرح طوال الغرائب : للمحدث الأصولي مجد الدين أبي السعادات مبارك بن محمد بن الأثير ٦٠٦ هـ جامعة أم القرى .
- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية : للشيخ العلامة أحمد بن محمد القسطلاني ٩٢٣ هـ ، المكتب الإسلامى ، دمشق .
- موطأ الإمام مالك ١٧٩ هـ وشرحه تنوير الحوالك لجلال الدين السيوطى ٩١١ هـ ، مصطفى البابى الحلبي ، القاهرة .
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال : للإمام محمد بن أحمد الذهبي ٧٤٨ هـ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

- النبي في القرآن الكريم : للإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق ، ط الأمانة العامة للدعوة الإسلامية .
- نثر الدرّ : للوزير الكاتب أبي سعد منصور بن الحسين الآبي ٤٢١ هـ ، الهيئة المصرية للكتاب .
- نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ للدكتور عون الشريف قاسم ، دار الكتاب اللبناني .
- نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي : لطاهر القاسمي ، بيروت .
- نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية : للشيخ عبد الحى الكتانى دار الكتاب العربى / بيروت .
- نقد النثر : لقدامية بن جعفر ٣٣٧ هـ .
- نهاية الأرب في فنون الأدب : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى . طبع دار الكتب المصرية .
- النهاية في غريب الحديث للحافظ مجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد بن الأثير ٦٠٦ هـ .
- هداية البارى إلى صحيح البخارى : للسيد عبد الرحيم عنبر الطهطاوى ، دار الرائد العربى / بيروت .
- الوثائق السياسية اليمنية : لمحمد بن الأكوع ، مركز الدراسات / صنعاء .
- وثيقة إنشاء الدولة الإسلامية : للدكتور جعفر عبد السلام ، بحث بمجلة كلية الشريعة والقانون ، عدد (٢) جامعة الأزهر .
- الوسيط في الأمثال : للواحدى ، على بن أحمد ٤٦٨ هـ دار الكتب الثقافية / الكويت .

- وصايا الرسول ﷺ لعطية محمد سالم ، دار التراث ، المدينة المنورة .
- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى : للسهمودي ، على بن عبد الله بن أحمد ٩١١ هـ .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : للقاضي شمس الدين أحمد بن خلكان ٦٨١ هـ - ط دار الثقافة / بيروت .



فهارس الكتاب

- ☐ فهرس الآيات
- ☐ فهرس الأحاديث
- ☐ فهرس الأعلام
- ☐ فهرس القبائل والأجناس
- ☐ فهرس القوافي
- ☐ فهرس الأماكن والبلدان

فهرس الآيات

الصفحة	السورة	أول الآية
٣٨٣	البقرة	﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة . . ﴾
٣٨٣	البقرة	﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾
٤٨٢	البقرة	﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾
٧٢٢	البقرة	﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما . . ﴾
٤٣٤	البقرة	﴿لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك﴾
٥١٧	البقرة	﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله . . ﴾
٤٨٢	البقرة	﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة . . ﴾
٣٠٤	البقرة	﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾
		﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾
٥٠٤ ، ٥٠٣	البقرة	
١٧٢ ، ١٧١	البقرة	﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . . ﴾
٤٣٥	البقرة	﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾
٧١٥	البقرة	﴿ولكم في القصاص حياة﴾
٤٣٦	البقرة	﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة﴾
٣٩٤	البقرة	﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم . . ﴾
٤٣٤	البقرة	﴿أو لم تؤمن قال بلى ولكن . . ﴾
٣١١	البقرة	﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم . . ﴾
٣١٢	البقرة	﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا﴾

٤٣٦	البقرة	﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾
٢٥	البقرة	﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . . ﴾
٤٣ ، ٤٢	آل عمران	﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء . . ﴾
٤٣٥	آل عمران	﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾
٥٢٢	آل عمران	﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير . . ﴾
٥٢٢ ، ٣٦٨	آل عمران	﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس . . ﴾
٧٣٦	آل عمران	﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح . . ﴾
٤٠٠	آل عمران	﴿ والكاذمين الغيظ والعافين عن الناس . . ﴾
٣١٢	آل عمران	﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة . . ﴾
٣٦٥	آل عمران	﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . . . ﴾
٧٣٦	آل عمران	﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم . . ﴾
٧٣٦	آل عمران	﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾
٥٠٤	آل عمران	﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبواب . . . ﴾
٣٨٥	النساء	﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى . . ﴾
٦٥٥	النساء	﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت . . ﴾
٣٦٣	النساء	﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾
١٤٣	النساء	﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله . . ﴾
٣١١	النساء	﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . . ﴾
١٩١	النساء	﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾

٥١٤	النساء	﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر . . ﴾
٢٤٩	المائدة	﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾
٣٢١ ، ٣١٠ ، ٢٥٠	المائدة	﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي . . ﴾
٧٦٦	المائدة	﴿ أو لامستم النساء ﴾
٤٣٥	المائدة	﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾
٤٣٦	المائدة	﴿ لا يستوى الخبيث والطيب ﴾
٧٤٥	المائدة	﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾
٥٢٠	الأنعام	﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما . . ﴾
٤٨٥	الأنعام	﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال . . ﴾
٥١٧	الأنعام	﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾
٣٦٤	الأنعام	﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾
٧٢٠	الأعراف	﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم . ﴾
٥١٢	الأعراف	﴿ أتهلكنا بها فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك . . ﴾
٣٦٣	الأعراف	﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾
٧٤٥	الأعراف	﴿ فلما تغشاها ﴾
٧١٦	الأعراف	﴿ خذ العفو وأمر بالعرف . . ﴾
٤٣٦	الأنفال	﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ﴾
٥١	الأنفال	﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم . . ﴾
٥١٧	الأنفال	﴿ واعلموا أنها غنمتم من شيء فأن لله خمسة . . ﴾
٥٢٠	الأنفال	﴿ والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا ﴾
١٧٤	التوبة	﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر . ﴾
٥٤١	التوبة	﴿ ويخزيهم وينصرهم عليهم . . ﴾

٣١٤	التوبة	﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس . . ﴾
٣١٥	التوبة	﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا . . ﴾
٣١٦	التوبة	﴿ إنما النسيء زيادة في الكفر . . ﴾
٥٢٣	التوبة	﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . . ﴾
٧٨٤	التوبة	﴿ فليضحكوا قليلاً . . ﴾
٤٣٥	التوبة	﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾
١٨٩	التوبة	﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم . . ﴾
١٧٣ ، ٥١٤	التوبة	﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم . . ﴾
١٧٤	التوبة	﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾
٢٩٦	التوبة	﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار . . ﴾
٧٣٦	يونس	﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء . . ﴾
٣٦٩	يونس	﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾
٤٣٤	يونس	﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾
٧٧٧	هود	﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه . . ﴾
٤٦٧ ، ٤٦٨	هود	﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك . . ﴾
٣٦٤	هود	﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . . ﴾
٤٨٠ ، ٤٨١	هود	﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي . . ﴾
٤٣٥	هود	﴿ أليس الصبح بقريب ﴾
٤٣٥	يوسف	﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾
٤٣٥	يوسف	﴿ الآن حصحص الحق ﴾
٧١٥	يوسف	﴿ واسأل القرية ﴾
		﴿ هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ
٥٠٠ ، ٥٠١	الرعد	السحاب . . ﴾

٧٣٦	الرد	﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا . . ﴾
٤٦٨	الرد	﴿ ولو أن قرآننا سيرت به الجبال . . ﴾
٤١٥	الرد	﴿ لكل أجل كتاب ﴾
٤٨٣	الحجر	﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾
٧٢٤ ، ٧٢٢	الحجر	﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن . . ﴾
٧١٥ ، ٥٢٥ ، ٤٧٤ ، ١٦	الحجر	﴿ فاصدع بها تؤمر ﴾
٧١٦		
١٧٢ ، ١٤٢	النحل	﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . ﴾
١٧٢	النحل	﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان . . ﴾
٧٢٣	الإسراء	﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾
٤٣٤	الإسراء	﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾
٥٠٥	الإسراء	﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل . . ﴾
٤٣٥	الإسراء	﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾
٤٨٦ ، ٤٦٧	الإسراء	﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا . . ﴾
٤٣٤	الإسراء	﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها . . ﴾
٧٣٦	الكهف	﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كياء . . ﴾
٥٠٢ ، ٥٠١	الكهف	﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم . . ﴾
٣١٤	مريم	﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان . . ﴾
٦٦٦ ، ٥٤٦	مريم	﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾
٧٢٣	طه	﴿ فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾
٣٩٤	طه	﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم . . ﴾

٦٣٩	الأنبياء	﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾
٤٣٥	الحج	﴿ذلك بما قدمت يدك﴾
٧٢٠	الحج	﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ . . ﴾
٥٠٣ ، ٥٠٢	الحج	﴿أُذُنٌ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا . . ﴾
٤٣٦	الحج	﴿ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾
٥٠٠	المؤمنون	﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . . ﴾
١٩٥	المؤمنون	﴿رَبِّ أَنْزَلْنِي مَنَزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾
٤٣٦	المؤمنون	﴿كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾
٥٠٥ ، ٥٠٤	النور	﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ . . ﴾
٤٣٤	الفرقان	﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا . . ﴾
٧٢٣	الشعراء	﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾
٧٠	الشعراء	﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . . ﴾
٢٦٥	الشعراء	﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾
٥٣٢ ، ١٨	الشعراء	﴿وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . . . ﴾
٥٣٢	الشعراء	﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا . . ﴾
٤٨١	القصص	﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ . . ﴾
٧٨٩	القصص	﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . . ﴾
٧٨٨	العنكبوت	﴿مِثْلَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾
١٢٢	العنكبوت	﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . . ﴾
٤٣٦	الروم	﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾
٧٨٠	الروم	﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾
٧١٨	السجدة	﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾

٦٥٥ ، ٢٢٧	الأحزاب	﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم . . ﴾
١٧١	الأحزاب	﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . . ﴾
٥١	الأحزاب	﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي . . ﴾
٢٧٩	الأحزاب	﴿ وقولوا قولاً سديداً . يصلح لكم أعمالكم . . ﴾
٥٤١	سبأ	﴿ وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾
٤٣٦	سبأ	﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾
٤٣٦	فاطر	﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾
٤٠٥	فاطر	﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾
٤٣٥	فاطر	﴿ ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله ﴾
		﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات
٥٠٣	فاطر	مختلفاً ألوانها . . ﴾
٥١	يس	﴿ يس . القرآن الحكيم . . ﴾
٧٨٣	يس	﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾
٥٣٧ ، ٥٣١ ، ١٨ ، ١٧	يس	﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾
٤٣٦	الصفات	﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾
٤٣٦	ص	﴿ وقليل ما هم ﴾
٥٧	ص	﴿ وما أنا من المتكلفين . . ﴾
٥١١	الزمر	﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم . . ﴾
٣٢٧	غافر	﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾
٤٧١ ، ٤٧٠ ، ١٦	فصلت	﴿ حمّ . تنزيل من الرحمن الرحيم . . ﴾
١٦	فصلت	﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم . . ﴾
٤٧٢	فصلت	﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . . ﴾
٥٠٠	فصلت	﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة . . ﴾

٤٦٨	فصلت	﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم . . ﴾
٦٣٩	فصلت	﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها . . ﴾
٧١٨	الزخرف	﴿ وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين . . ﴾
٧١٨	الزخرف	﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون . لا يفتّر عنهم ﴾
٤٣٤	الأحقاف	﴿
٧٢٠	محمد	﴿ وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾
١٢ ، ٥١ ، ٢٢٨ ، ٢٨٣ ،	الفتح	﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار . . ﴾
٢٨٩ ، ٦٦٥		﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . . ﴾
١٧١ ، ٢٢٠	الفتح	﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله . . ﴾
١٢ ، ٢٢٠	الفتح	﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك . . ﴾
١٧٦	الفتح	﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم . . ﴾
		﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم . . ﴾
٢٢٨	الفتح	
٦٣٨	الحجرات	﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات . . ﴾
١٩٧ ، ٣١٩ ، ٣٦٧	الحجرات	﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾
٢٨٩	الحجرات	﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . . ﴾
٩٦	الحجرات	﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا . . ﴾
٣٥٩	الذاريات	﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾
٧٨٧	الطور	﴿ والطور . وكتاب مسطور ﴾
٥٤١	الطور	﴿ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾
٧٧٧	النجم	﴿ والنجم إذا هوى . . ﴾
٤٣٥	النجم	﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾

٤٨٢	القمر	﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾
٧١٨	القمر	﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾
٣٧٨	الرحمن	﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾
٧٨٨ ، ٤٣٦	الرحمن	﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾
٧٨٧ ، ٧٧٦	الواقعة	﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾
٤٣٦	الحشر	﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾
٥٢٠ ، ٤١٠ ، ١٩٢	الحشر	﴿ والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم . . ﴾
٤٣٦	الحشر	﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾
١٨١	الممتحنة	﴿ يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً . . ﴾
٧٣٤	الصف	﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا . . ﴾
		﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إني رسول
١٢٢	الصف	الله إليكم . . ﴾
٥١٤	الصف	﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة . . ﴾
٣٨٣ ، ٢٧٩	الطلاق	﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . . ﴾
٧٤٨	القلم	﴿ نَ . والقلم وما يسطرون ﴾
٤٠٢ ، ٣٥٧ ، ٥١ ، ٣١ ، ٧	القلم	﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾
٤١٠		
٥٠٦ ، ٣٧٩	الجن	﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا . . ﴾
٤٣٥	المدثر	﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾
٧٢٠	الإنسان	﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . . ﴾
٧١٨	الإنسان	﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً . . . ﴾
٧١٨	المطففين	﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾
٧٧٧	الأعلى	﴿ سبح اسم ربك الأعلى . . ﴾

٧٢٠	الغاشية	﴿ في جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية . . ﴾
٥١٨	الفجر	﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه . . ﴾
٢٨٨ ، ٥١	البلد	﴿ لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد ﴾
٥١	الضحى	﴿ والضحى . والليل إذا سجى . . ﴾
٧٧٦	الضحى	﴿ فأما اليتيم فلا تقهر . . . ﴾
٣١	الشرح	﴿ ورفعنا لك ذكرك . . ﴾
٧٨٧ ، ٧٤٨	العلق	﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . . . ﴾
٧١٧	العلق	﴿ واسجد واقترب ﴾
٧٧٦	العاديات	﴿ والعاديات ضبحا . . . ﴾
٥٤١	الماعون	﴿ فذلك الذى يدعُ اليتيم ﴾
٢٨٣	النصر	﴿ إذا جاء نصر الله والفتح . . . ﴾
٤٧٣	الإخلاص	﴿ قل هو أحد ﴾
٤٧٣	الفلق	﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾
٤٧٣	الناس	﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾

فهرس الأحاديث النبوية

(حرف الألف)

٥٢١	« آية الإيمان حب الأنصار . . . »
٣٨٦	« آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب . . . »
١٨٣	« أبايكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم »
٢٩٣	« أبشر فوالذى نفس محمد بيده لقد كتبت فى الزكاة المتقبلة »
٥٧	« أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون »
٨١	« أتحب لأملك ؟ . . . »
٧٣٧	« أَتُرُونَ هذه هانت على أهلها . . . »
٥١٢	« أَتُرُونَ هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ . . »
٦٠	« اتق الله حيثما كنت . . »
٤٤٠	« أجر المعلم كأجر الصائم القائم »
٧٢٤	« أحب حبيبك هونا ما . . . »
٣٩٠	« أحب أن تعرض أعمالى وأنا صائم »
٤٤٢	« أحسن النساء بركة أحسنهن وجها . . . »
٧٣٩	« أحسنت إليك ؟ . . . »
٤٢ ، ٤١	« أخبرنى أبو سفيان أنه كان بالشام . . »
	حديث أبى سفيان مع هرقل
١٨٣	« أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا . . »

- « أدبني ربي فأحسن تأديبي »
٣٥٧ ، ١٠١ ، ٤٨ ، ٢٥ ، ٧
٣٧٥ ، ٤٠٩ ، ٤٠٢ ، ٣٩٥
٧١٢
٥٠٧
« أد الأمانة إلى من ائتمنك . . . »
« إذا انصرفت من صلاة المغرب فقل : اللهم أجرني من النار . . . »
٣٣٥
« إذ أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة . . . »
٣٤٣
« إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع . . . »
٣٣٧
« إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة . . . »
٣٣٢
« إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه »
٤٥٤
« إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه »
٥٠٦
« إذا اشتكى المؤمن أخلصه ذلك . . . »
٤٥٢
« إذا تزوجت المرأة لدينها وجمالها كان . . . »
٤٤٢
« إذا تقارب الزمان انتقى الموت خيار أمتي . . . »
٤٥١
« إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليحلل داخله إزاره . . . »
٣٤٥
« إذا أصبح أحدكم فليقل : أصبحنا وأصبح الملك لله »
٣٤١
« اذهب فاحتمل غيره ؛ فإنك لست بأفقر إلى الله مني »
١٩٦
« اذهبوا به إلى فلانة . . . »
٦٦
« ارجعن مأزورات غير مأجورات »
٧٧٦
« ارحموا عزيزاً ذل . . . »
٤٤٣
« ارفعوا ولا تكيلوا . . . » قاله لجابر بن عبد الله
٨٢
« أريت دار هجرتي ذات نخل وحرة . . . »
١٩٢

٤٥٥	«استعينوا بالله من الرُّغْبِ»
٤٥٥	«استعينوا على كل صناعة بأهلها»
٧٧٥ ، ٧٧٤	«أسجعا كسجع الكهان»
٧٧٤	«أسجعا كسجع الجاهلية؟»
٧٧٥	«استحيوا من الله حق الحياء . . .»
٧٥٢	«أسرعكن لحاقا بى أطولكن يداً»
٧٦٢	«أسكنت بأقل الأرض مطرا . . .»
٦٠	«أسلم تسلم . . .»
٧٨١	«أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها . . .»
٦٩٩ ، ٢٢	«أشبهت خَلْقِي وَخُلُقِي»
٤٥٩	«اشتدى أزمة تنفرجى»
١٨٢ ، ١٧٣	«أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . . .»
٣٤١	«أصبحنا وأصبح الملك لله . . .»
٣٤١	«أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد كله لله . . .»
٤٥٠	«اصطناع المعروف يقى مصارع السوء»
٣٨٦	«اضمنوا لى ستاً أضمن لكم الجنة . . .»
٧١٨	«أعددت لعبادى الصالحين . . .»
٤٥٩	«اعقلها وتوكل»
٧١٦	«أعنى على نفسك بكثرة السجود»
٣٣١	«أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر . . .»
٧٧٦	«أعيذه من الهامة والسامة ، وكل عين لامة»

٧٦٣	« اغتربوا لاتضووا »
٣٨٠ ، ٣٧٩	« اغزوا باسم الله وفي سبيل الله . . . »
٤٥٥	« أفرخ روعك »
٦٧٥	« أَفْصَالُهُ ؟ ماذا كنت تحدث نفسك ؟ . . »
٦٠ ، ٥٩	« أفضل الصدقة جهد المقل . . . »
٥٢٤	« أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر »
٤٠٥	« أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم . . . »
٥٠٦	« أفضل الصدقة جهد المقل »
٦٦٠	« أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد . . . »
٥٨٠	« أفيكم من يعرف قس بن ساعدة ؟ »
٣٣٤	« أقرب ما يكون العبد إلى ربه في الصلاة »
٤٤٩	« أقبلوا ذوى الهيئات عثراتهم »
٢٢٣	« اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . . . »
٣٣٤	« أكثر ما يكون المؤمن قربا من ربه في الصلاة »
٤٥٤	« أكثروا من قول : سبحان الله ، والحمد لله . . . »
٦٧	« أكرمى مثواه ، ولا يخلصن إليك . . »
٥٤٥	« اكشفوا عن المناكب واسعوا في الطواف »
٤٥٣	« ألقت إليكم مكة أفلاذ كبدها »
٥٣٦	« إلى الجنة إن شاء الله »
٤٥٤	« أما أعرافها فإنها أدفاؤها . . . »
١٤٠	« أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبئ . . . »
١٠٣	« أما إن خير الماء الشَّيْمُ ، وخير المال الغنم . . . »

- ١٦١ « أما بعد ذلکم : فإني أحمد إليکم الله الذی لا اله إلا هو . . . » (کتاب النبی إلى حمیر)
- ٧٢٦ « أمّا رأيت المأخوذین علی العِرة ؟ . . . »
- ٦٢٥ « أما ما كان لی ولبنی عبد المطلب فهو الله ولکم . . . »
- ٦٧ « أما والذی نفسی بيده ما علمت بشيء حتى . . . »
- ١٧٥ « أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقکم . . . »
- ١٩٠ « أمرت بقرية تأکل القرى . . . »
- ٣٨٣ « أمسک عليك لسانک »
- ٧٥ ، ٧٤ « أنا ابن عبد المطلب . . . » حديث ضیام بن ثعلبة . . .
- ٧٧ « أنا أعطیکه وأعطیک ضعفه . . . »
- ٦٢٤ ، ٢٦٣ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٩ ، ٧ « أنا أفصح العرب بيد أنى من قریش »
- ٥١٩ « أنا وامرأة سفعاء الخدين . . . »
- ٤٤٢ « أنا وسفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة »
- ٥١٩ « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا »
- ٥١٩ « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين »
- ٥٥١ « أنت له ، اذهب إلى أبى بكر . . . »
- ٧٤٩ « أنتم الشعار ، والناس الدثار »
- ٤٥٠ « انصر أخاک ظالما أو مظلوما »
- ٢٢٥ « انطلق يا أبأ بصیر ؛ فإن الله . . . »
- ١٣٤ « انطلقا إلى باذان فأعلماه أن ربى : عز وجل . . . قد قتل كسرى . . . »
- ٥٧ ، ٥٦ « إن أبغضکم إلیّ وأبعدکم منى مجالس . . . »

- ٦٠ « إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس . . . »
- ٥٤٦ « إن أصيب فجعفر . . . »
- ٥٣٣ « إن أعظم الناس جرما إنسان شاعر يهجو . . . »
- ٧٨٨ « إن أفضل الناس عبد أخذ من الدنيا . . . »
- ٣٦١ ، ٣٦٠ « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد . . . »
- ٣٦٢ « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته . . . »
- ٦٧ « إن تحسنوا وتردوا عليه المال . . . »
- ٣٠٥ « إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام . . . »
- ١٢٧ « إن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذى مات فيه . . . »
- ٣٢٢ « إن عبدا خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده . . . »
- ٩٢ « إن قريشا حديثو عهد بجاهلية ومصيبة . . . »
- ٥٣٥ « إن كاد لیسلم »
- ٧٨٤ « إن لله تعالى في كل محنة منحة »
- ٣٦٠ ، ٣٥٩ « إن لله - تبارك وتعالى - ملائكة سيارة فضلا . . . »
- ٤٤٠ « إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء . . . »
- ٤٥٣ ، ٤٥٢ « إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم . . . »
- ٧٣٤ « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا . . . »
- ٧٣٢ « إن مثلى ومثل ما بعثنى الله به . . . »
- ٦٤ « إن من أحبكم إلى . . . »
- ٥٣٤ « إن من البيان كالسحر . . . »
- ٧١٨ ، ٥٣٣ ، ٤٥٦ ، ٤٤٨ « إن من البيان لسحرا »
- ٥٣٤ « إن من الشعر لحكمة »

- « إن هذا الحى من الأنصار محنة . . . » ٥٢٢
- « إن هرقل (قيصر) أرسل إليه في ركب من قريش . . . (حديث
أبى سفيان مع هرقل) ١١٦ ، ١١٧
- « إن يك شاعر أحسن فقد أحسنت » ٥٧٢
- « إن الإسلام بدأ جذعا . . . » ٧٥٦
- « إن الإسلام بدأ غريبا . . . » ٧٥٦
- « إن الجنة لا يدخلها عجوز » ٤٤٣
- « إن الجنة تحت ظلال السيوف » ٤٥١
- « إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه . . . » ٢٧٢ ، ٢٧١
- « إن الرائد لا يكذب أهله . . . » ٢٦٦
- « إن الرزق ليطلب الرجل كما يطلبه أجله » ٧١٨
- « إن الفرق لا يكون في شيء إلا زانه . . . » ٧٨٢ ، ٧٧٩
- « إن الشياطين قد يئست أن تعبد في بلدى » ١٩١
- « إن الصراط بين أظهر جهنم . . . » ٤٥٣
- « إن العبد لا يكتب في المسلمين حتى تسلم الناس . . . » ٧٢١
- « إن الله أمدنى بأشد الناس ألسنا . . . » ٥٢١
- « إن الله أمرنى أن أسمى المدينة طابة » ١٩٢
- « إن الله - تبارك وتعالى - يعرض على عبده نصيحة . . . » ١٠٥
- « إن الله تعالى سمي المدينة طابة » ١٩٢
- « إن الله تعالى يؤيد حسان بروح القدس . . . » ٥٥٢
- « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار . . . » ٥١٣
- « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ؟ . . . » ٢٧١

٧٤٦	« إن الله سبحانه جعل الجنة دارا . . . »
١٢٣	« إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر . . . »
٤٠	« إن الله عز وجل اختار خلقه . . . »
٥٢٠	« إن الله قد أوجب لها بهما الجنة . . . »
٣٦٩ ، ٣٦٨	« إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . . . »
٥٧	« إن الله يكره الانبعاث فى الكلام . . . »
٤٥٢	« إن الله ينشئ السحاب فتتطرق . . . »
٧٥٩	« إن المسلم إذا توضأ ثم صلى الخمس تحاتت خطاياه . . . »
٤٤٧	« إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى . . . »
٤٠٦	« إن الناس لكم تبع ، وإنهم سيأتونكم . . . »
١٢٧	« إن النبى ﷺ صلى على أصحمة فكبر أربعاً . . . »
٧٨٥ ، ٧٧٨	« إنكم تكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع . . . »
٢٠٨	« إنكم لا تأمنون عندى إلا بعهد . . . »
٧١٧ ، ٦١ ، ٥٩	« إنها الأعمال بالنيات . . . »
٧٤٣ ، ٧٣٥	« إنها مثل الجليس الصالح وجليس السوء . . . »
٧٣٣	« إنها مثل ومثلكم كمثلى قوم سلكوا مفازة . . . »
٤٥٠	« إنها المرء بخليله . . . »
٤٥٧	« إنها الناس كأسنان المشط . . . »
٧٩٠	« إنها يؤتى الناس يوم القيامة من إحدى ثلاث . . . »
٧٦٨	« إنه كانت امرأة فيمن كان قبلنا . . . »
٤٤٩	« إنها بضعة منى »
٦٦	« إنها كانت وكانت ، وكان لى منها ولد . . . »

- ٦٨٥ « إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن »
- ٢٢٣ « إني عبد الله ورسوله ، ولست أعصيه . . . »
- ٣٩٥ « أمجى المعاصى ؛ فإنها أفضل الجهاد . . . »
- ٤٢٩ « أوتيت جوامع الكلم ، واختصرت إلى الحكمة اختصارا »
- ٩ « أوتيت جوامع الكلم . . . »
- ٧١١ « أوتيت خمسا لم يعطهن قبل أحد . . . »
- ٤١٥ « أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله . . . »
- ٣٨٥ « أوصانى الله بذى القربى ، وأن أبدا بالعباس »
- ٣٨٨ « أوصانى جئى بثلاث لا أدعهن إن شاء الله أبدا . . . »
- ٣٨٨ « أوصانى خليلي بثلاث . . . فلا أدعهن حتى أموت . . . »
- ٣٨٢ « أوصيك بتقوى الله ، فإنه زينة الأمر كله . . . »
- ٣٨٨ « أوصيك يا أبا هريرة بخصال أربع لا تدعهن أبدا . . . »
- « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن كان عبدا حبشيا . . . »
- ٤١٦ « أوصيكم بالأنصار ؛ فإنهم كرشى وعييتى . . . »
- ٤٠٩ « أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ؟ . . . »
- ٩٤ « ألا أخبركم برأس الأمر وعموده وذروة سنامه . . . »
- ٧٥٧ ، ٣٨٤ « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ . . . »
- ٦٣ « ألا أدلكم على أخسر الناس صفقة ؟ . . . »
- ٧٢٥ « ألا أدلكم على ما إذا فعلتموه تحاببتهم ؟ . . . »
- ٧٢٥ « ألا أنبئكم بأمرين خفيفة مثونتهما ؟ . . . »
- ٧٢٤ « ألا إن الأيام تطوى ، والأعمار تفنى . . . »
- ٥٠٧

- « ألا إن الأيام تطوى . . . » ٢٦٩
- « ألا إن الدنيا خضرة حلوة . . . » ٢٧٠
- « ألا إن هذا الدين متين . . . » ٤٥٥
- « ألا أيها الناس : توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا . . . » ٢٧٨
- « ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة . . . » ٧٨٦ ، ٧٨٢ ، ٧٥٨
- « ألا مشمر لها ؟ هي ورب الكعبة . . . » ٤٥٣
- « ألا وإن من علامات العقل التجافى عن دار الغرور . . . » ٧٧٨
- « ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بنى قريظة » ٦٥٧
- إياك والتشادق . . . ٥٧
- « إياك والقوارير » ٧٤٥
- « إياك والمخيلة . . . » ٧١٢
- « إياكم والمشاورة فإنها تميمت الغرة . . . » ٥٠٧
- « إياكم وخضراء الدمن » ٧٦٩ ، ٧٦٥
- « إياكم وخضراء الدمن . . . » ٤٥١ ، ٤٤٧ ، ٤٤٢
- « إياكم والجلوس في الطرقات . . . » ٥٢٣
- « إيمان بالله ورسوله . . . الجهاد في سبيل الله . . . » ٥١٥
- « أين المتصدق ؟ فليقم » ٢٩٣
- « أيها الناس : أطعموا الطعام . . . » ٧٧٨
- « أيها الناس : كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب . . . » ٥٠٨ ، ٢٦٨
- « أيها الناس : ليس أحد منكم آمنٌ على . . . » ٥٤٩
- « أيها الناس : مالكم حين نابكم شيء في الصلاة . . . » ٨٣

(المحلى بأل من حرف الألف)

- ٧٨٩ « الله أكبر ، خربت خير . . . »
- ١٩٣ « اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ما جعلت بمكة من البركة . »
- ٣٣٦ « اللهم اجعل خير عمرى آخره . . »
- ١٩٤ « اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا حسنا . »
- ٧٩ « اللهم اجعل له آية . . . دعا به للطيفيل بن عمرو . . . »
- ٣٣٥ « اللهم اجعلها لى عندك ذخرا ، وأعظم لى بها أجراً . . »
- ٣٨٤ « اللهم أحيى مسكينا وأمتنى مسكينا . . . »
- ٣٢٩ « اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى . . . »
- ٣٢٩ « اللهم اغفر لى خطيئتي وجهلى وإسرافي فى أمرى . . . »
- « اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت . . . »
- ٣٣٥ « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى . . »
- ٣٥١ « اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك . . . »
- ٣٢٨ « اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء . . . »
- ٣٤٤ « اللهم أنت خلقت نفسى وأنت تتوفاه . . . »
- ١٣ « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت . . . »
- ٥٢١ « اللهم أنتم من أحب الناس لى »
- ٣٢٨ « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق . . . »
- ٥٢٢ « اللهم تعلم أنى لأجِبُكن »
- ٦٥٥ « اللهم إن العيش عيش الآخرة . . . »
- ٦٩٩ « اللهم إن جعفرا قد قدم إلى أحسن ثواب . . . »

- «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة . . . » ٣٤٢
- « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي . . » ٣٣٠ ، ٦٠
- « اللهم إني أسألك علماً نافعاً . . . » ٣٣٤
- « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك . . . » ٣٣٥
- « اللهم إني أعوذ بك من البرص والجنون . . . » ٣٣٨
- « اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر . . . » ٣٣٩
- « اللهم إني أعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر . . . » ٣٣٦
- « اللهم إني أعوذ بك من الجوع ؛ فإنه بثس الضجيع . . . » ٣٣٨
- « اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع » ٣٣٨
- « اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر . . » ٣٣٦
- « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والهزم والبخل . . . » ٣٣٩
- « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل . . . » ٣٣٨
- « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع . . . » ٥٠٧ ، ٤٤٠
- « اللهم إني أعوذ بك من الكسل ، وأعوذ بك من الجبن . . . » ٣٣٩
- « اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار . . » ٣٣٨
- « اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم ، وبكلماتك التامة . . . » ٣٣٨
- « اللهم إني وجهت وجهي إليك ، وأسلمت نفسي إليك . . . » ٣٤٤
- « اللهم اهد دوسا واثت بهم » ٤٧٤ ، ٣٣٣ ، ٨٠
- « اللهم اهدني فيمن هديت . . . » ٣٣٤

- « اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت . . . » ٣٤٩ ، ٣٣١
- « اللهم بارك لهم فى مَحْضِهَا وَمَحْضِهَا . . . » ١٤٩ ، ١٠٠
- « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش . . . » ٢٨٦
- « اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم
ورب كل شىء . . . » ٣٤٤
- « اللهم كما حَسَّنْتَ خُلُقِي حَسِّنْ خُلُقِي » ٧٨١
- « اللهم لك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض . . . » ٣٥٠
- « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت . . . » ٣٢٩
- « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى . . . » ١٤
- « اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض . . . » ١٤
- « اللهم لك سجدت ، وبك آمنت . . . » ٣٣٥
- « الأرواح جنود مجندة . . . » ٤٥٤
- « الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله . . . » ٩٥
- « الإسلام يُحِبُّ ما قبله » ٧٤٦
- « الأنصار كرشى وعييتى » ١٨٥
- « الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن . . . » ٥٢١
- « الأيم أحق بنفسها من وليها . . . » ٤٤٢
- « الإيمان بالله ، والجهاد فى سبيله » ٥١٦
- (حروف الباء إلى الظاء ..)
- « باسمك اللهم أحيا وأموت . . . » ٣٤٦
- « بئس الكلام ، بل هو أعظم الفتح . . . » ٢٢٧
- « بسم الله ، توكلت على الله ، اللهم إنى أعوذ بك من أن
أضل . . . » ٣٤٢

- ٢٤٩ ، ٢٤٨ « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا بيان من الله ورسوله . . . »
- « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبي رسول الله ﷺ لثقيف . . . »
- ٢٤٥ ، ٢٤٤ « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما كتب محمد النبي رسول الله ﷺ لأهل نجران . . . »
- ٢٣٦ « بسم الله الرحمن الرحيم : هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنه بين رؤبة وأهل أيلة . . . »
- ٢٣٣ « بشر خديجة - رضى الله عنها - بيت في الجنة . . . »
- ٧٨٢ ، ٧٧٩ « بكتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . . »
- ٧١٢ ، ٥٠٦ « بل الدم الدم ، والهدم الهدم . . . »
- ١٨٣ « بُلُّوا أرحامكم ولو بالسلم »
- ٧٦٤ « بنى رسول الله ﷺ مسجده فقرب اللين . . . »
- ١٩٦ « تأخوا في الله أخوين أخوين »
- ١٩٧ « تباعونى على السمع والطاعة في النشاط والكسل . . . »
- ١٨٢ « تحروا الصدق وإن رأيتم أن الهلكة فيه . . . »
- ٣٨٦ « ترك الشر صدقة »
- ٥٠٦ ، ٦٠ « تزوجوا الزرق فإن فيهن يمنا »
- ٤٤٢ « تزوجوا الشواب فإنهن أغر أخلاقا »
- ٤٤٢ « تضمّن الله لمن خرج في سبيله . . . »
- ٥١٦ « تعوذوا بالله من جهد البلاء . . . »
- ٧٧٩ ، ٣٤٠ « تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس . . . »
- ٣٦٧ « تنكح المرأة لماها ولحسبها ولجماها ولدينها . . . »
- ٤٤٢

- « ثلاث منجيات وثلاث مهلكات . . . » ٥٠٧، ٦١
- « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان . . . » ٢٧١
- « جبار الدار أحق بدار الجار » ٧٨٣
- « جعل الله الرحمة مائة جزء . . . » ٥١٣
- « حب الأنصار إيمان . . . » ٥٢٢
- « حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمَى وَيُصَمُّ » ٤٤٩
- « حبك للشئ يعمى ويصم » ٥٠٦، ٥٩
- « حسن السؤال نصف العلم » ٤٤٠
- « حفت الجنة بالمكاره . . . » ٧٤٩
- « حولها ندندن » ٤٥٧
- « خذ بيدى يا فضل . . . » ٣٢١
- « خذوا العطاء ما كان عطاء . . . » ٧٢٤
- « خَلَّ عنه يا عمر ، فلهى فيهم أسرع . . . » ٥٤٦
- « خَلُّوا بين جرير والجرير » ٧٨٠
- « خير أمتى علماءها ، وخير علمائها فقهاؤها . . . » ٤٤٠
- « خير الأمور أوساطها . . . » ٦٠
- « خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه . . . » ٥١٩
- « خيركم خيركم لأهله . . . » ٣١٩
- « خيركم من لم يترك دنياه لأخوته . . . » ٥٠٨
- « خير النساء الولود الودود » ٤٤٢
- « خير نساء ركن الإبل صوالح قریش . . . » ٤٤٢
- « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم . . . » ٤١٧، ٤١٦

٣٩٣	« خياركم خياركم لنسائهم »
٤٤٢	« خياركم خيركم لأهله »
٤٤٣	« دخلت امرأة النار في هرة »
٧١٧ ، ٥٩	« دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »
١٨٩	« دعوها فإنها مأمورة . . . »
٦٠	« ذو الوجهين لا يكون عند الله وجهيه . . . »
٣٧٨	« رأس الحكمة مخافة الله »
٥٤٨	« رأيت النبي ﷺ ينقل معنا التراب . . . »
٥١٦	« رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا . . . »
٥١٦	« رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه . . . »
٧٨٢ ، ٧٧٩ ، ٧٦١	« رب تقبل توبتي ، واغسل حوبتي »
٧٧٩	« ربنا تقبل توبتي واغسل حوبتي »
٥٣٦	« ربح البيع ، ربح البيع »
٧٢٦	« رحم الله أمراً تكلم فغنم . . . »
٥٠٧ ، ٤٤١ ، ٦٠	« رحم الله عبداً قال خيراً فغنم . . . »
٥٨٥	« رحم الله قسا ، أرجو أن يبعثه الله أمة وحده »
٤٤٢	« رفقا بالقوارير »
٤٥٧	« زُرْ غَبّاً تَزِدْ حَبّاً »
٦٨٧	« زملوهم بدمائهم ؛ فإنه ليس أحد . . . »
٣٤٥	« سبحانه الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . . . »
٢٧١	« سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله . . . »
٣٧٩	« ستكون فتنة . قلت : فما المخرج منها يا رسول الله . . . »

- ٣٥٠ « سجد وجهي للذي خلقه وصوره . . . »
- ٣٧ « سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يعيب كل ما ذبح لغير الله . . »
- ٤٠٦ « سيأتيكم أقوام يطلبون العلم . . . »
- ٣٤٩ « سيد الاستغفار : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت . . . »
- ٥٥١ « شَنَّ الغطاريف على بنى عبد مناف . . . »
- ٥٥٠ « صدقت يا حسان ، دعوا إلى صاحبي »
- ٧٤٧ « صَدَّقْ كُلَّ رطب ويايس »
- ٥١١ « صلوا كما رأيتموني أصلى »
- ٧٨٦ « صنائع المعروف تقى مصارع السوء »
- ٣٩٠ « صوم يوم عرفة أحسب على الله أن . . . »
- ٧٣٩ « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً . . . »
- ٤٣٩ ، ٤٠٥ « طلب العلم فريضة على كل مسلم »
- ٧٣٠ « ظهر المؤمن مشجبه ، وخزائنه بطنه . . . »
- (المحلى بأل من حرف الباء إلى حرف الظاء)
- ٤٥٧ « البلاء موكل بالمنطق »
- ٤٥٧ ، ٤٥٠ « التائب من الذنب كمن لا ذنب له »
- ٤٥٠ « الجار قبل الدار . . . »
- ٧٦٣ « الحجاز قطيفة الإيمان »
- ٤٥٧ ، ٤٤٨ « الحرب خدعة »
- ٤٥٤ « الحسب المال ، والكرم التقوى »
- ٢٧٥ ، ٢٧٤ « الحمد لله أحمدته وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه . . . »
- ٢٦٣ « الحمد لله نحمده ونستعينه . . . »

٦٧٤	« الحمد لله الذى هداك للإسلام ، إن الإسلام . . . »
٧١٧ ، ٥٩	« الحلال بيِّنٌ ، والحرام بيِّنٌ . . . »
٥٠١ ، ٦٠	« الخير كثير وقليل فاعله »
٧٨٢	« الخيل معقود بنواصيها الخير »
٧٨٦ ، ٥٠٧	« الدنيا سجن المؤمن وبلاؤه . . . »
٣٩٣	« الدنيا كلها متاع ، وخير متاعها . . . »
٤٥٠	« الدين النصيحة . . . »
٧١٨	« الرزق رزقان »
٥١٩	« الساعى على الأرملة والمساكين . . . »
٥٠٦ ، ٥٩	« السعيد من وعظ بغيره »
٥٣٣	« الشعر بمنزلة الكلام ، حسنه كحسن الكلام . . . »
٧٦٠	« الصوم جنة ما لم يخرقها »
٧٦٠	« الصوم فى الشتاء الغنيمة الباردة »
٦٤	« الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة . . . »
٥١٥	« الصلاة على وقتها . . . بر الوالدين . . . »
٧١٨	« الضعيف أمير الركب »
٧١٧	« الطمع فقر ، واليأس غنى »
٧٧٢ ، ٣٤٧	« الطهور شرط الإيمان . . . »
٧٨٢	« الظلم ظلمات يوم القيامة »
	(حرف العين)
٧٦٤ ، ٧٥٢ ، ٧٢٦ ، ٦٥	« عائد المريض على مخارف الجنة . . . »
٧٥٣	« عش ما شئت فإنك ميت . . . »

٧٨٥	« عليك بالرفق يا عائشة ؛ فإنه . . . »
٣٨٩	« عليك بركعتي الفجر ؛ فإن فيهما فضيلة »
٧٨٢	« عليكم بالأبكار فإنهن . . . »
(المحلى بأل من حرف العين)	
٤٤٠	« العالم والمتعلم شريكان في الخير »
٤٥٨	« العبد حر إذا قنع . . . »
٥٠٦ ، ٤٤٩	« العِدَّةُ عطية »
٥٠٦ ، ٥٩	« العقل ألوف مألوف »
٧٤٨ ، ٤٤٠	« العلم خزائن ومفتاحها السؤال . . . »
٧٤٨	« العلم رائد ، والعقل سائق . . . »
٤٤٠	« العلماء ورثة الأنبياء »
(حرف الغين)	
٤٥٤	« الغنم بركة ، والإبل عز لأهلها . . . »
(حرف الفاء)	
٣٩٣	« فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها »
٤٤٢	« فاطمة سيدة نساء العالمين . . . »
٧٨٩	« فإذا التبست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم . . . »
٧٩٠	« فإن المرء بين يومين : يوم قد مضى أحصى فيه عمله . . . »
٧٥٧	« فإن هذا القرآن جبل الله المتين . . . »
٤٤٠	« فضل العالم على العابد . . . »
٤٣٩	« فضل العلم خير من فضل العبادة »
٥٠٥	« فضل كلام الله على سائر الكلام . . . »

- ٥٥٠ « فكيف تصنع بي ؟ ... اهجهم وروح القدس معك . . . »
 ٧٠ « فلعلّ لصاحبكم عند الله أفضل من ملك سليمان . . . »
 ٧٨٨ « فما بعد الموت من مستعجب . . . »

(حرف القاف)

- ٣٦٩ « قال الله : أعددت لعبادي الصالحين . . . »
 ٣٦٣ « قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني . . . »
 ٣٦٧ « قال الله عز وجل : المتحابون في جلالي . . . »
 « قال الله - عز وجل - وقوله الحق : إذا هم عبدي بحسنة . . . »
 ٣٦٤ « قال الله تعالى : كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك . . . »
 ٣٥٩ ، ٣٥٨ « قد فعلت ، فلا تعجلني بخروج حتى . . . »
 ٨٧ « قل : آمنت بالله ، ثم استقم »
 ٧١٨ ، ٦٢ « قل : اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني . . . »
 ٣٣٢ « قل : اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي . . . »
 ٣٣١ « قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت . . . »
 ٣٣٧ ، ٣٣١ « قليل العلم خير من كثير العبادة »
 ٤٤٠ « قيدوا العلم بالكتاب »
 ٤٣٩

(حرف الكاف)

- ٥١٩ « كافل اليتيم له أو لغيره . . . »
 ٥١ « كان خلقه القرآن . . . »
 ٤٠ « كان رسول الله ﷺ أجود الناس . . . »

« كان رسول الله ﷺ فمخما مفعهما . . . » في صفة رسول الله
الْخُلُقِيَّة

٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨

٧٣

« كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر ، ويقل اللعن . . . »

٥٤٤

« كذب من قاله ، وله أجران . . . »

٢٩٦

« كذبوا ، ولكن خلفت لما تركت ورائي . . . »

٣٤٧

« كلمتان خفيفتان على اللسان . . . »

٤٥٩

« كل الصيد في جوف الفرا »

١٧٥

« كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل . . . »

٥١٦

« كل ميت يختم على عمله إلا المرباط في سبيل الله . . . »

٧٢٦ ، ٦١

« كن في الدنيا كأنك غريب . . . »

٤٤٠

« كونوا علماء صالحين ، فإن لم تكونوا . . . »

٦٦

« كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ . . . »

٩٣

« كيف ترون قواعدها ؟ أو ميسها ؟ . . . »

(حرف اللام)

٨٥

« لأننا وهو أحوج إلى غير هذا . . . »

٥٣٣

« لأن يمتليء جوف أحدكم قيحا خيرا له من . . . »

٦٠

« لعله كان يتكلم بها لا يعنيه . . . »

٣٨ ، ٣٧ ، ٨

« لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان . . . »

٤٤٠

« لكل شيء فترة ، فمن كانت فترته . . . »

٧٤٧

« لكل شيء وجه ، ووجه دينكم الصلاة . . . »

٤٤٠

« للأنبياء على العلماء فضل درجتين . . . »

١٩٠

« للمدينة عشرة أسماء ، هي : المدينة ، وطيبة . . . »

- ١٨٥ « لم نؤمر بعدُ ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم . . . »
- ٥١٣ « لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده . . . »
- ٣٣٣ « لما رقيت الدرجة الأولى جاء نبي جبريل . . . »
- ٤٤١ « لن يهلك امرؤ بعد مشورة »
- ٤٥٨ « لن يهلك الناس حتى يُعذِّروا »
- ٥٣٦ « لو أدرك هذا الإسلام لأسلم »
- ٥٣٦ « لو أدركته لأسلم »
- ٦٢٣ « لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه »
- ٥٠٦ ، ٥٩ « لو تكاشفتُم ما تدافنتُم »
- ١٨٥ « لو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً . . . »
- ٤٠٠ « ليس الشديد بالصرعة . . . »
- ٤٤٢ « ليس للنساء سراوات الطريق »
- ٤٣٩ « ليس من أخلاق المؤمن الملق . . . »
- ٤٥٨ « ليّ الواجد ظلمٌ »

(حرف الميم)

- ٣٨٣ « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يقرأون القرآن . . . »
- ٥١٦ « ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا . . . »
- ٢٨٨ « ما أحلت الحرمة لأحد قبلي . . . »
- ٧٣ « ما أخرج رسول الله ﷺ ركبته قط بين يدي جليس له . . . »
- ٦٩ « ما أطيبك من بلد وأحبك إليَّ !! »
- ١٧٥ « ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله ؟ . . . »
- ٤٤١ « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار »

- « ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن . . . » ٢١٥
- « مازلت اليوم على الحالة التى فارقتك عليها ؟ . . . » ٣٤٨
- « ما شملت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله . . . » ٧٣
- « ما ضرب النبى ﷺ امرأة قط ، ولا ضرب خادما . . . » ٧٤
- « ما على عثمان ما عمل بعد اليوم » ٢٩٣
- « مالكم ولابن سمية ؟ يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار » ٤٤٣
- « مالى وللدنيا ؛ إنما مثلى ومثل الدنيا . . . » ٧٣٧
- « ما من عبد يقول فى صباح كل يوم ومساء كل ليلة : باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ . . . » ٣٤٠
- « ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته . . . » ٥٢٣
- « ما من يوم يصبح العبد فيه إلا ملكان ينزلان . . . » ٧٨٦
- « ما هلك امرؤ عرف قدره » ٥٠٦ ، ٦٠ ، ٥٩
- « ما وقى الرجل به عرضه كتب له به صدقة » ٤٥٨
- « ما يمنعك أن تسمى ما أوصيك به ؟ » ٣٩٤
- « مثل أصحابى كمثل الملح فى الطعام . . . » ٧٤١
- « مثل المجلس الصالح مثل العطار . . . » ٤٥٣
- « مثل الصلاة الخمس مثل نهر جارٍ » ٤٥٢
- « مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر . . . » ٧٣٥
- « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها . . . » ٧٣٨
- « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة . . . » ٧٣٤
- « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة . . . » ٧٤٣
- « مثل المؤمن كمثل النحلة . . . » ٧٣٥

- ٤٥٢ « مثل المسلمين في تواصلهم وتراحهم . . . »
- ٧٣١ « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم . . . »
- ٧٣٣ « مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً . . . »
- ١٠٤ « مرحباً بالمهاجر الأول ؛ ما الذي بطأ بك يا خزيمة ؟ . . . »
- ٤٤٩ « مَطْلُ الغنَى ظُلْمٌ »
- ٧٦٥ « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه »
- ٧٥٨ « من أحب أن يقرأ القرآن غريضا كما أنزل »
- ٥٢٢ « من أجنبني أحب الأنصار . . . »
- ١٩٤ « من أحدث في ديني هذه حدثا أو آوى محدثا . . . »
- ٦٩ « من أصبح منكم آمناً في سربه . . . »
- ٤٤٠ « من تعلم علماً لم يغير الله ، وأراد به غير الله . . . »
- ٤٥٠ ، ٥٩ « من حسن إسلام المرء . . . »
- ٤٤٩ « من حَفَنَّا أو رَفَنَّا فليقتصد »
- ٤٥١ « من خاف أدلج . . . »
- ٧٥٦ « من خالف الجماعة فقد خلع . . . »
- ٢٩٠ « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن . . . »
- ٦٥ « من دعا إلى هدى كان له من الأجر . . . »
- ٥٢٣ « من رأى منكم منكراً فليغيره . . . »
- ٢١٤ « من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم ؟ . . . »
- ٧٥٨ « من سره أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل »
- ٧٥٨ « من سره أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل . . . »
- ٧٢١ « من سقى مؤمناً شربة سقاها الله من الرحيق المختوم . . . »

- ٧٦٧ « من شق عصا المسلمين فقد خلع . . . »
- ٣٨٩ « من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال . . . »
- ٤٤٧ « من صدق نجا »
- ٤٤٠ « من ظن أن للعلم غاية . . . »
- ٧٦٤ « من عاد مريضاً لم يزل يخوض الرحمة . . . »
- ٤٣٩ « من غدا في طلب العلم صلت عليه الملائكة »
- « من قال حين يسمع النداء : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده . . . »
- ٣٤٨ « من قال حين يصبح وحين يمسي : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، عليك توكلت . . . »
- ٣٤٥ « من قال حين يصبح : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . . . ﴾ الآيات . »
- ٣٤١ « من قال حين يمسي : رضيت بالله ربا ، وبالإسلام ديناً . . . »
- ٣٤٨ « من قال في دبر صلاة الصبح وهو ثان رجله قبل أن يتكلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . . »
- ٣٣٦ « من قال - يعنى إذا خرج من بيته : « بسم الله ، توكلت على الله . . . »
- ٣٤٣ « من كتم علماً يحسنه ألجمه الله يوم القيامة . . . »
- ٤٤٠ « من كثر كلامه كثر سقطه »
- ٤٥٦ « من لم يأكله أصابه من غباره »
- ٤٤٨ « من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا . . . »
- ٤٧٥ « من نوقش في الحساب عُدّب »
- ٤٦١

٥٤٤	« من هذا السائق ؟ . . . يرحمه الله »
٤٤٠	« من وقّر عالماً فقد وقّر به »
	« من يأخذ منى السيف بحقه ؟ . . . أن تضرب به في العدو . . . »
٦٨٥	
١٤٣	« من محمد رسول الله إلى أكثم بن صيفى . . . »
١٢٠	« من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر . . . »
١٢١	« من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط »
١٣٨ ، ١٣٩	« من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى . . . »
١٥٥	« من محمد رسول الله إلى المهاجر بن أبى أمية . . . »
٢٥	« من محمد رسول الله إلى النجاشى أصحمة . . . »
٢٣٤	« من محمد رسول الله إلى بنى جنية وإلى أهل مقنا . . . »
١٠٠ ، ١٥٠	« من محمد رسول الله إلى بنى نهد . . . »
	« من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابنى الجبلندى . . . »
١٣٥	
١٣٢	« من محمد رسول الله إلى كسرى أبرويز . . . »
١٤١	« من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . . . »
١١٥ ، ١١٧	« من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . . . »
١٣٩	« من محمد رسول الله إلى هوزة بن على . . . »
١٥٦	« من محمد رسول الله إلى وائل بن حجر والأقيال . . . »
٣٨٠	« من محمد رسول الله : عليكم بتقوى الله . . . »

(المحلى بال من حرف الميم)

٧٨٦ ، ٥٠٧

« المؤمن غر كريم . . . »

٧٣٠	« المؤمن في الدنيا ضيف ، وما في يديه عارية . . . »
٧٦١	« المؤمن مرآة المؤمن »
٧٤٩	« المؤمنون تتكافأ دماؤهم . . . »
١٩٣ ، ١٩٢	« المدينة قبة الإسلام . . . »
١٩٤	« المدينة مشتبكة بالملائكة . . . »
٦٠	« المرء مع من أحب . . . »
٧٨٢ ، ٧٢١	« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »
٦٠	« المسلمون تتكافأ دماؤهم . . . »
٤٤١	« المشاورة حصن من الندامة . . . »
٤٤١	« المستشار بالخيار ، إن شاء قال . . . »
٤٤١ ، ٦٠	« المستشار مؤتمن »
٤٤١	« المستشار معان »
٧١٧	« المعدة بيت الداء . . . »

(حرف النون)

٣٩٠	« نحن أحق بموسى منكم »
٧٧٨ ، ٥٠٦ ، ٦٠	« نزلت المعونة على قدر المؤونة »
٢٨٥ ، ٢٨٤	« نُصرت يا عمرو بن سالم . . . »
٧٣١	« نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها . . . »
٤٥٢	« نعم الجمل جملكما . . . »
٧٣٧	« نعمت الدار الدنيا لمن تزود فيها خيراً . . . »
٤٥٨	« نعوذ بالله من الخور بعد الكور »

(المحلى بأل من حرف النون)

٥٠٦ ، ٥٩	« الناس بزمانهم أشبه »
٧٤٢	« الناس كإبل المائة . . . »
٦٠	« الناس كأسنان المشط »
٥٠٦	« الناس كمعادن الذهب »
٧٨٦ ، ٧٧٩ ، ٦٠	« الناس معادن كمعادن الذهب والفضة . . . »

(حرف الهاء)

١٩٥ ، ١٨٩	« هاهنا المنزل إن شاء الله »
٦٧٤	« هذا ابن الزبير ومعه وجه فيه نور الإسلام »
٢٢٩	« هذا الذى وعدتكم به »
٤٥٩	« هذا جبل يحبنا ونحبه »
٥٢١	« هذا رسول عامر بن الطفيل يتهددنى . . »
٤٥٩	« هذا سيد أهل الوبر »
	« هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب . . . »
١٩٨	
١٦٤	« هذا كتاب من محمد رسول الله حين أجاب إلى الإسلام . . »
١٦٢	« هذا كتاب من محمد رسول الله لبارق . . . »
١٨٠ ، ١٧٩	« هذا كتاب من محمد رسول الله لتميم بن أوس . . . »
١٥٩	« هذا كتاب من محمد رسول الله لعنات كلب وأحلافها . . »
١٥٢	« هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لمخلاف خارف . . »
٧٨	« هذا كتاب من محمد النبى لوائل بن حُجر . . . »
٧٧	« هذا وائل بن حُجر جاء حبا لله ولرسوله . . . »

- ٧٦٨ « هذه مكة قد ألفت إليكم بأفلاذ كبدها . . . »
- ٧٦٢ « هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها . . . قد ألفت . . . »
- ٢٩٣ « هل تركت لأهلك شيئاً ؟ قال : نعم . . . » قاله لعبد الرحمن ابن عوف .
- ٦٧ « هل سمعتم ما سمعت ؟ . . . »
- ٥٠٧ « هل يطمع أحدكم إلا غنى مطغيا . . . »
- ٧٧٩ « هو أوضح دليل إلى خير سبيل »
- ٧١٢ « هو الطهور ماؤه . . . »
- ٥٣٣ « هو كلام ، حسنه حسن . . . »

(حرف الواو)

- ٤٤٠ « واضع العلم في غير موضعه . . . »
- ٢٩١ « والذي بعثني بالحق إنهم لحزب الشياطين . . . »
- ١٩٣ « والذي نفسى بيده إن تربتها لمؤمنة »
- ٥٢١ « والذي نفسى بيده إنكم . . . »
- ٥٢٤ « والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف . . . »
- ٦٥٧ « والذي نفسى بيده لقد أشرت فيهم . . . »
- ٥١٣ ، ٣٢٧ « والذي نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم . . . »
- ٢٧١ « والذي نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا . . . »
- ٧٥٩ « والعصر إذا كان ظل كل شيء مثله . . . »
- ٧٢١ « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن . . . الذي لا يأمن جاره . . . »
- ١٩٢ « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون . . . »
- ٧٧٨ « وأعلموا أنكم عن قليل راحلون ، وإلى الله صائرون . . . »

- ٧٨٨ « واهجروا لذئذ عاجلها . . . »
- ٥٠٧ « وتقبلوا لى بست أئقبل لكم بالجنة . . . »
- ٤٤٨ « وجدته بحرا »
- ٧٩٠ « وقد رأئتم اللئل والنهار كئف يئلان كل جئدئ . . . »
- ٣٨٧ « وكفى بالمرء جبئا أن كئون فئه ثلاث خصال . . . »
- ٧٨٨ « ولئحسن عمله ، ولئقصر أمله »
- ٢٦٣ ، ٥٥ « وما لئمنعنى وقد نزل القرآن بلسانى . . . »
- ٤٥٢ « ومثل المؤمن الذى قئرا القرآن مثل الأئرجة . . . »
- ٧٤٢ « وهل كئب الناس على مناخرهم فى نار جهنم إلا . . . »
- ٧٦٧ « وئحك يا أنجشة سوقك بالقوارئر »
- ٢٢٥ « وئل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال !! »
- (المئلى بأل من حرف الواو)
- ٤٥٣ « الولد مئبئة مئبلة »
- (حرف « لا »)
- ٢٨٩ « لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . . »
- ٣٤٦ « لا إله إلا أنت سبحانك اللهم ، أستغفرك لذئبئ . . . »
- ١٩٠ « لا تئذعوها يئرب ؛ فئانها طئبة . . . »
- ٥٠٧ ، ٦١ « لا تزال أمتئ بئئر ما لم تر الأمانة مئبئا . . . »
- ٧٨٠ « لا تزال أمتئ بئئر ما لم تر الفئء مئبئا . . . »
- ٣٨١ « لا تستأخرن عن الله فتسبئ إلهه . . . »
- ٧٦١ « لا تستضبئوا بنار المشركن »
- « لا تشرك بالله شئئا وإن قطعت أو حرقت ، ولا تتركئ الصلاة . . . »
- ٣٧٨

- « لا تشرك بالله شيئا وإن قتلت وحرقت . . . » ٣٧٧
- « لا تغالوا بالنساء ؛ فإنهن سقيا الله » ٤٤٢
- « لا تغضب » ٣٩٩
- « لا تقل : عليك السلام ؛ عليك السلام تحية الميت . . . » ٤٠١
- « لا تمنعوا العلم أهله فظلموا . . . » ٤٤٠
- « لا حلیم إلا ذو أناة . . . » ٤٥٨
- « لا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له » ٦٠
- « لا ضرر ولا ضرار في الإسلام » ٧١٧
- « لا نبرح حتى نناجز القوم » ٢١٩
- « لا والله ما أبدلني الله خيرا منها . . . » ٦٨
- « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ٢٧١
- « لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله . . . » ٥٢٢
- « لا يجنى عليك ، ولا تجنى عليه » ٤٥٨
- « لا يفضض الله فاك » ٥٣٧
- « لا يكمل إيمان العبد بالله حتى يكون فيه خمس خصال . . » ٧٢١
- « لا يكون ذو الوجهين وجيها عند الله » ٧٨٢
- « لا يلسع المؤمن من جحر مرتين » ٤٦٠
- « لا ينتطح فيها عنزان » ٤٦٠

(حرف الياء)

- « يا أبا بصير : إنا قد أعطينا هؤلاء القوم . . . » ٢٢٥
- « يا أبا جندل : اصبر واحتسب . . . » ٢٢٤ ، ١٧٦
- « يا أبا ذر : لا عقل كالتدبير . . . » ٣٨٨

- ٧٢٦ « يا ابن آدم : تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن . . . »
- ٥٧ « يا أعرابي : كم دون لسانك من حجاب ؟ . . . »
- ٧٦٥ « يا أنجشة : رفقا بالقوارير »
- ٧٤١ « يا أنجشة : رويدا سوقك بالقوارير »
- « يا أيها الناس إن مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل قوم خافوا
عدوا أن يأتيهم . . . »
- ٧٣٢ « يا أيها الناس : هذا وائل بن حُبَيْر . . . »
- ٧٧ « يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا . . . »
- ١٩٥ « يا بني : عليك بمجالسة العلماء . . . »
- ٤٥٣ « يا جارية : هذه صفة المؤمنين حقا . . . »
- ٨٧ « يا زيد : أنت مولاي ومنى وإلى . . . »
- ٦٩٨ « يا صباحاه . . . يا بني عبد المطلب . . . »
- ٢٦٦ « يا عائشة : إنها كانت تأتينا زمن خديجة . . . »
- ٦٦ « يا عائشة : عليك بجُمْل الدعاء وجوامعه . . . اللهم إني
أسألك من الخير كله . . . »
- ٣٣٠ « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته
محراما . . . »
- ٣٦٦ « يا عِدِيّ : أخبرك أن لا إله إلا الله . . . »
- ٨٨ « يا عدى : لعلك إنما يمنعك من الدخول فى هذا
الدين . . . »
- ٨٩ « يا عمرو : إني قد بعثت معك المهاجرين قبلك . . . »
- ٣٨١ « يا معشر الأنصار : ألم آتكم ضُلَالاً فهداكم الله ؟ . . . »
- ٩١ « يا معشر الأنصار : ما مقالة بلغتني عنكم . . . »
- ٤١١

- ٢٦٥ « يا معشر قريش : اشترُوا أنفسكم . . . »
- ٢١٤ يا ويح قريش ؛ لقد أكلتهم الحرب !! . . .
- ١٥٤ « يأتِيكم وائل بن حُجْرٍ من أرض بعيدة . . . »
- ٣٦٥ « يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله عز وجل . . . »
- ٣٦٤ ، ٣٦٣ « يدنى المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه . . . »
- ٤٥١ « يذهب الصالحون أسلافا . . . »
- ٥٨٢ « يرحم الله قسا ، أما إنه سيبعث يوم القيامة . . . »
- ١٠٣ « يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذى يمن . . . »
- ٣٦٢ « يعجب ربك من راعى غنم فى رأس شظية الجبل . . . »
- ٧٨٤ « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وازق . . . »
- « يقول الله - تبارك وتعالى - : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها
أو أزيد . . . »
- ٣٦٤
- ٣٦٢ « يقول الله - عز وجل - : الصوم لى وأنا أجزى به . . . »
- ٣٦٩ « يقول الله : يا أهل الجنة إن لكم عندى موعدا . . . »
- ٧٦٤ « يمين الله ملأى سحّاء . . . »
- (المحلى بال من حرف الياء)
- ٥٠٦ ، ٦٠ « اليد العليا خير من اليد السفلى » .

فهرس الأعلام

الاسم	الصفحات
حرف الألف	
آدم	١٢٥ ، ٢٨٩ ، ٣١٧ ، ٥٧٠ ، ٧٢٦ ، ٧٤٥
آربرى	٤٧٥
آسية بنت مزاحم	٦٦ ، ٣٩٤ ، ٤٤٢
الابى	٢٧٥ ، ٣٧٩
أبان بن سعيد بن العاص	٢١٨
إبراهيم عليه السلام	٣٧ ، ٣٩ ، ١٢٣ ، ٢٥٨ ، ٢٩٧ ، ٣١٤ ، ٣٥١
إبراهيم ابن النبى ﷺ	١٢٣
إبراهيم بن محمد بن عرفة (نفطويه)	٤٣٢
إبراهيم بن هرمة	٣٠٣
ابن أبى أوفى	٧٣
ابن أبى حاتم	١٩٠
ابن أبى الدنيا	٤٥٠ ، ٣٨٦
ابن أبى عاصم	٨٤
ابن إسحاق	٨٧ ، ٩٠ ، ٢٩٤ ، ٣٠٨ ، ٥٦٣ ، ٦٤٠ ، ٦٥٤
	٦٩٩ ، ٦٥٧
ابن الأعرابى	٥٨٩

٤٢٤	ابن الأنباري
٣٢٨	ابن تيمية
٣٠١	ابن جريج
٧٣٥	ابن جنى
٣٨٦	ابن حبان
١٤٢ ، ٣٥٩ ، ٥٦٥ ، ٥٧٩	ابن حجر العسقلاني
١٦ ، ٢٦٤ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٤٧ ، ٤٥٠ ،	ابن خلاد الرامهرمزي
٤٥١ ، ٤٥٤ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٧ ، ٧٤١ ،	
٧٦٧	
٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤	ابن خير الأشبيلي
٧٦٦	ابن الخطيب الرازي
٥٧٩	ابن درستويه
٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٣	ابن ربيعة بن الحارث
٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤	ابن رشيق القيرواني
٧٦٦	ابن سراج المالكي
٢٢٩ ، ٦١٩ ، ٦٢٤	ابن سعد
١٣٣ ، ٥٦٣ ، ٥٨٠ ، ٥٩١	ابن سيد الناس
٣٣٦ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦	ابن السني
٤٠٩	ابن السمعاني
٥٤١	ابن شهاب الزهوي
٦١٧	ابن الشجري
٥٦٣	ابن عبد البر

٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣٢٠ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ،	ابن عبد ربه
٥٣٦ ، ٥٤١ ، ٥٥١ ، ٥٧٩	
٤٠٥	ابن عدى
٨٠	ابن عوف
١٠٢ ، ٢٦٣ ، ٤٨٤ ، ٥٠٦ ، ٥٨٩ ، ٦١٤ ، ٧١٢	ابن قتيبة
٧١٣ ، ٧٥٣	
٦٨٦	ابن قمينة
١٣٩ ، ٢٩٧ ، ٥٤٥	ابن قيم الجوزية
٢٢٩ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠	ابن كثير
٣١٩ ، ٣٣٤ ، ٣٤٣ ، ٣٤٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٨٤	ابن ماجه
٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٥١٩	
٥٢٢	
١٩٠	ابن مردويه
٦٩	ابن منده
٧٤٠ ، ٧٥٣ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣	ابن المعتز
٦٣٢	ابن المنذر
٤٥٨	ابن المنكدر
٤٣٢	ابن النديم
٧٤ ، ٧٨ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٩٨	ابن هشام
٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٤٦ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٤١١	
٥٤٨ ، ٥٦٣ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٦١٩ ، ٦٢٠	
٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٣٣ ، ٦٤٠	
٦٤٦ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦١ ، ٦٦٦ ، ٦٧١ ، ٦٨٠	

٧٠٥ ، ٦٩٩ ، ٦٩٦ ، ٦٩١ ، ٦٩٠ ، ٦٨٨ ، ٦٨٧

٤٢٨ ، ٤٢٧ أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري

٣٦٧ ، ٣٦٦ أبو إدريس الخولاني

٤٣٤ أبو إسحاق إبراهيم بن مضارب

٤٥٣ ، ٤١٥ ، ٨٠ أبو أمامة

١٥٤ أبو أمية

٥٤٢ أبو أنيس موهب بن رباح

١٩٧ ، ١٩٥ ، ١٨٩ أبو أيوب الأنصاري

٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥ أبو بصير عتبة بن أسيد

٤٢٣ أبو بكر بن دريد

١٥٣ ، ١٤١ ، ٨٤ ، ٨٣ ، ٦٨ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ٤٨ أبو بكر الصديق

٣٣٦ ، ٣٣١ ، ٣٣٠ ، ٣٢٢ ، ٢٩٢ ، ٢٨٦ ، ١٧٤

٥٢٤ ، ٤٨٤ ، ٤٠٩ ، ٣٨٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨١ ، ٣٣٧

٦٢٤ ، ٥٨٣ ، ٥٨١ ، ٥٥١ ، ٥٥٠ ، ٥٤٩ ، ٥٤١

٧١٢ ، ٦٨١ ، ٦٥١ ، ٦٣١

٤٣٣ أبو بكر محمد بن طرخان

٦٥١ أبو البختری العاص بن هشام

٧٨٤ ، ٧٧٣ ، ٦١٦ أبو تمام

٧١٢ أبو تيمية الهجيمي

٤٣٢ أبو ثور

٤٩ ، ٤٨ أبو جحيفة

٦٢٥ أبو جرول الجشمي

٤٠٢ ، ٤٠١ ، ٤٠٠ ، ١٥ أبو جرى جابر بن سليمان (سليم)

١٧٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧	أبو جندل بن سهيل بن عمرو
٤٦٩ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٣ ، ٦٧٩	أبو جهل بن هشام
١٤٢ ، ٥٣٦ ، ٥٧٩	أبو حاتم السجستاني
١٩٧	أبو حذيفة بن عتبة
٣٨٩	أبو حنيفة (الإمام)
٤٣٣	أبو الحسن عباد بن سرحان المعافري
٤٢٣ ، ٤٣١	أبو الحسن علي بن أحمد الواحدى
٤٣٣	أبو الحسن علي بن غنائم بن عمير
	المالكي
٤٨٥ ، ٧١٥ ، ٧١٩ ، ٧٥٣	أبو الحسن الرماني
١٧ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩	أبو الحسن الماوردي
٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٧٠ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠	
٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٥٠٨	
٥٤٢ ، ٦٢٢	أبو الحكم بن سعيد بن يربوع
٢٩٤ ، ٢٩٥	أبو خيثمة زهير بن معاوية
٦٦ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢	أبو داود (صاحب السنن)
٣٤٣ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٦٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩	
٣٩٠ ، ٤٠٥ ، ٤١٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٥١٩ ، ٥٢١	
٥٢٤	
٦٨٥ ، ٦٨٦	أبو دجانة سمالك بن خرشة
١٤ ، ١٩٧ ، ٣٤٥ ، ٣٧٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٤ ، ٧٠٠	أبو الدرداء
٦١٨	أبو ذؤيب الهذلي
١٥ ، ٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٦	أبو ذر الغفاري

٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ،

٣٨٩ ، ٤٨١ ، ٥١٦

أبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن

١٩٧

الختعمي

٨٤ ، ٨٥

أبو زرعة

٥٤٢

أبو زيد الأنصاري

٨١

أبو الزبير

٣٦٩

أبو الزناد

٥٦٥

أبو سعد النيسابوري

٦٩٠

أبو سعيد بن أبي طلحة

٦١٦

أبو سعيد الثغري

٩٠ ، ٩١ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٣٦٨ ، ٣٨٤ ، ٤٠٥ ،

٤٠٦ ، ٤٥١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٦٨٧

٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،

١٢٣ ، ٢١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٧ ، ٢٥٥ ، ٢٨٥ ،

٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٥٥١ ،

٥٥٢ ، ٥٥٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥٧ ،

٦٦٠ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٦ ، ٦٩٠ ، ٦٩٧

أبو سفيان بن حرب

٥٣٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٨ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٦ ، ٦٠٢ ،

٦٨٠

أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب

٦٨٧

أبو سلمة بن عبد الأسد

٣١٦ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٩٩

أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي

٩ ، ٢٠ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٣٥١ ،

أبو طالب (عم النبي ﷺ)

٥٧٢ ، ٥٥٦ ، ٣٨٥	
٦٨٦	أبو طلحة
٤٩	أبو الطفيل
٦٦٢ ، ٦٤٩ ، ٥٦٥	أبو الطيب المتنبي
٦٢٤ ، ٤٤٨	أبو عبد الله الزبير بن بكار
٤٣٣ ، ٤٣١ ، ٤٣٠ ، ٤٢٩ ، ٤٢٨	أبو عبد الله القضاعى
١٨١	أبو عبد الرحمن بن يزيد
٣٨١ ، ٢٢٣ ، ١٩٧ ، ١٦٢	أبو عبيدة بن الجراح
٧١٦ ، ٦٣٨ ، ٥٢٥ ، ٤٧٤	أبو عبيدة معمر بن المثنى
١٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٩	أبو عبيد القاسم بن سلام
٧٣٨	
٤٣٤ ، ٤٢٥	أبو عروبة الحسين بن محمد الحرانى
٦٢٦	أبو عروة الأزدي
٤٦٠	أبو عزة
٤٢٣	أبو عكرمة الضبى
٥٨٠	أبو على الحسن بن محمد البكرى
٦٢	أبو عمرة سفيان بن عبد الله
٣٩٣ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٦٦	أبو العاص بن الربيع
٧٨٧	أبو العلاء المعرى
٤٢٣	أبو فيد مؤرج السدوسى
٥٨	أبو الفتح يوسف بن يعقوب الشيبانى
٤٢٦	أبو الفضل بن العميد

٤٢٣	أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي
٥٧٩	أبو الفرج الأصبهاني
٣٩٠	أبو قتادة
٢١٧، ٨٣	أبو قحافة
٩٠	أبو القاسم <small>رحمته الله</small>
٦٨٦، ٤٧١، ٤٧٠	أبو لهب
٢٩٣	أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب
٣٤٧، ٣٤١	أبو مالك الأشعري
٤٤٨	أبو محمد سلمة
٤٢٦	أبو محمد المهلبى
	أبو محمد عبد الله بن محمد الأصبهاني (أبو
٧٣	الشيخ)
٧٣٥، ٧٣١، ٥١٣، ٤٥٢، ٣٢٩	أبو موسى الأشعري
٥٧٩، ٤٤٩	أبو نعيم
٧٧٣، ٦١٦، ٤٩٢، ٤٥٤	أبو نواس
٣٦	أبو هاشم محمد بن ظفر
٩، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٦٦، ١٢٧، ١٣٣، ٣٣٧،	أبو هريرة
٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٥٨، ٣٥٩،	
٣٦٠، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٨٣،	
٣٨٦، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠٥،	
٤٥١، ٤٥٣، ٥١٣، ٥١٥، ٥١٩، ٥٤٧،	
٦٩٩، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٥٨، ٧٨٦،	
١٦، ٣٢٣، ٤٢٨، ٤٤٧، ٤٥٤، ٥٧٩، ٧٥٣،	أبو هلال العسكري

١٨٣ ، ١٨١	أبو الهيثم بن التيهان
٥٢١	أبو واقد الليثي
	أبو يزيد بن عمير بن هاشم بن عبد مناف
٦٩١	ابن عبد الدار
٤٦٩	أبي بن خلف
٥٣٤ ، ١٩٧ ، ١٦٢	أبي بن كعب
٧٠٣ ، ٦٩٦ ، ٦٥٩ ، ١٢٣ ، ١٢٢ ، ١١٨	أحمد <small>رحمته الله</small>
٨٠ ، ٩٠ ، ١٩٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٧٧ ،	أحمد بن حنبل (الإمام)
٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٩ ،	
٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ،	
٤٥٠ ، ٥١١ ، ٥٢٢ ، ٦٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٨ ،	
٧٧٨	
٤٤٩ ، ٤٢٣	أحمد بن محمد الميداني
٣٦٢	أحمد محمد شاكر
٦٩٠	أرطاة بن عبد شرحبيل
١٤٠	أركون دمشق
٥٥٦	أروى بنت عبد المطلب
١٢٧	أريحا بن أصحمة بن أبحر
٢٢٥	أزهر بن عبد عوف الزهري
١٩٦ ، ٣٠٥ ، ٣٩٠ ، ٤٥٣ ، ٦٩٨ ، ٧٠٥	أسامة بن زيد
٥٧٩	أسامة بن منقذ
١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٥	أسعد بن زرارة
٦٩٩	أسماء

٣٠٣	أسماء بنت عميس
٢٥٨ ، ٣٩ ، ٣٧	إسماعيل عليه السلام
٦٨٧ ، ٥٤٤ ، ٢٢٣ ، ١٩٦ ، ١٨٤	أسيد بن حضير بن سهاك
١٢٧ ، ١٢٦ ، ١٢٥ ، ١٢٤	أصحمة بن الأبحر (النجاشي)
٤٥٥	أعشى باهلة
٦٣٢	أعشى بنى مازن
١٤٣ ، ١٤٢ ، ١٤١ ، ٣٦ ، ١٠	أكثم بن صيفى
١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٣ ، ١٤٧	أكيدر بن عبد الملك
٥٢٥ ، ٤٧٥	ألان جونس
٦٨٦ ، ٣٩٥ ، ١٥	أم أنس (أم سليم بنت ملحان)
٢٨٥ ، ١٢٦	أم حبيبة رضى الله عنها
٦٢١ ، ٣٤٢ ، ٣٣٤ ، ١٩٦ ، ١٥٤	أم سلمة رضى الله عنها
٢١٩ ، ١٨٢	أم عمارة نسيبة بنت كعب
٥٦ ، ٤٩	أم معبد
١٨٣	أم منيع أسماء بنت عمرو بن عدى
٥٨٠	أمة الحق شامية
٦١٥ ، ٥٨٩	امرؤ القيس
٥٣٥	أمية بن أبى الصلت
٦٥٠ ، ٤٦٩	أمية بن خلف
٥٥٦	أميمة بنت عبد المطلب
٧٦٧ ، ٧٦٥ ، ٧٤١ ، ٤٤٢	أنجشة
٦٧٢ ، ٥٦٥ ، ٥٦٤ ، ٥٦٣ ، ١٩	أنس بن زنيم
١٩٥ ، ١٩٣ ، ٩١ ، ٧٣ ، ٦٦ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ٤٧	أنس بن مالك

٢٧١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٩٤ ،

٤٠٥ ، ٤٠٩ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٥١٦ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ،

٥٢٢ ، ٥٤٠ ، ٥٤٦ ، ٥٤٩ ، ٥٦٩ ، ٥٧١ ، ٦٨٥ ،

٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٧٤١

٦٨٧ أنس بن النضر

٤٨١ أنيس الغفاري

٦٢٤ أنيسة بنت الحارث

١٩٧ ، ٦٩٧ أوس بن ثابت

٦٨٨ الأخطل

٢٣٨ ، ٢٣٩ الأسود العنسي

٥٩ الأشعث بن قيس

٤٢٤ ، ٤٢٩ ، ٥٣٦ ، ٦١٧ الأصمعي

١٢٤ الأصم

٣٥٨ ، ٣٦٩ الأعرج

٦١٤ الأعشى أبو بصير

٤٢٦ الأعمش

٢١ ، ١٤٣ ، ٢٣٧ ، ٢٨٨ ، ٦٣٢ ، ٦٣٧ الأقرع بن حابس

حرف الباء

١٣٣ ، ١٣٤ باذان

١٩ ، ٢٠ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٦٠٦ ، ٦٧٠ بجير بن زهير بن أبي سلمى

٦٧٣ بديل بن عبد مناف

٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٨٧ ، ٧٦٩ بديل بن ورقاء الخزاعي

٧١٥ ، ٧٥٤ ، ٧٧٢ بدوى طبانة

٥٥٦	برة بنت عبد المطلب
١٩٧	برير بن جنادة
٧٧٣	بشار بن برد
٢١٤	بشر بن سفيان الكعبي
٢٩٧ ، ١٩٧ ، ١٦١ ، ٨٣ ، ٨٢	بلال (مؤذن الرسول)
٢٢٠ ، ٢١٩ ، ٢١٨	بيعة الرضوان
٢٨٩ ، ٢٧٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٠ ، ١٣٢ ، ١٢٥ ، ١٧	الباقلاني
٤٩١ ، ٤٩٠ ، ٤٨٩ ، ٤٨٦ ، ٤٨٥ ، ٤٨٤ ، ٣٠٦	
٥٠٦ ، ٤٩٩ ، ٤٩٥ ، ٤٩٤ ، ٤٩٣	
٤٩٢	البحترى
١٩٢ ، ١٩٠ ، ١٧٥ ، ١٢٧ ، ١١٥ ، ٧٧ ، ٦٩	البخاري
٣١٦ ، ٣١٠ ، ٣٠٦ ، ٢٦٥ ، ٢٢٩ ، ١٩٤ ، ١٩٣	
٣٤٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٧ ، ٣٣٦ ، ٣٣٣ ، ٣٣١ ، ٣٣٠	
٣٦٩ ، ٣٦٤ ، ٣٦٢ ، ٣٦٠ ، ٣٤٩ ، ٣٤٧ ، ٣٤١	
٤٤٩ ، ٤٤٨ ، ٤٠٩ ، ٣٩٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٠ ، ٣٨٦	
٥٤١ ، ٥٤٠ ، ٥٣٣ ، ٥٢١ ، ٥١٩ ، ٥١٦ ، ٤٥٠	
٧٣٣ ، ٧٣٢ ، ٧٣١ ، ٦٩٩ ، ٥٤٩ ، ٥٤٨ ، ٥٤٤	
٧٧٩ ، ٧٣٨ ، ٧٣٤	
٥٢١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٣ ، ٢١٥ ، ١٩٠ ، ٤٩ ، ٩	البراء بن عازب
٦٩٩ ، ٦٣٢ ، ٥٤٨ ، ٥٤٣ ، ٥٣٩	
١٨٤ ، ١٨٣	البراء بن معرور
٤٤٩ ، ٧٧ ، ٦٩	اليزار
٦١٤ ، ٦٠٨ ، ٥٨٩ ، ٥٧٩	البغدادي

البلاذرى	١٣٨
البيجورى	٥٥٢ ، ٥٤٢
البيهقى	٦٩ ، ٧٧ ، ٢٢٧ ، ٢٩٧ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٨٦ ، ٥٨٠ ، ٥٦٥ ، ٥٣٣ ، ٤٢٤ ، ٤١٥ ، ٤٠٥

حرف التاء

تميم الدارى	١١ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٥٣٢
الترمذى	٦٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ ، ٤٠٥ ، ٤١٦ ، ٤٤٧ ، ٤٥٠ ، ٤٥٦ ، ٥٠٦ ، ٥٢٤ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ، ٥٤٦ ، ٧٧٨ ، ٧٤٢ ، ٧٨٦ .

حرف الثاء

ثابت بن أقرم	٥٤٧
ثابت بن قيس بن شماس	١٥٩ ، ١٩٧ ، ٦٣٣
ثابت بن المنذر	٦٩١
ثوبان	٣٤٨
ثوبية	٦٨٧

حرف الجيم

جابر بن حميد	٣٣٠
جابر بن سمرة	٤٩
جابر بن عبد الله بن حرام	٦٤ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٢٧ ، ١٨٠ ، ١٩٢ ، ٢١٩ ، ٢٦٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢

١٨٠	جابر بن عبد الله (غير السابق)
٣٩٩	جارية بن قدامة
٣٧	جبير بن مطعم
٤٠ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٤٠ ، ٣٣٣ ، ٣٥٦ ، ٥٥١ ،	جبريل عليه السلام
٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٧ ، ٦٩٥	
٤٠٢	جرموز الجهني
٩ ، ٢٤ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ٧٨٠ ، ٧٨١	جرير بن عبد الله البجلي
٦١٥ ، ٦١٨ ، ٦٨٨ ، ٧٤٤	جرير (الشاعر)
٢٢ ، ١٢٦ ، ١٩٧ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ،	جعفر بن أبي طالب
٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ،	
٧٠٥	
١٩٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٣	جعفر الصادق
٢٠٦	جعفر عبد السلام (دكتور)
٤٣٥	جعفر بن محمد بن شمس الخلافة
٥٤٣	جعيل بن سراقه الضمري
١٩٧	جندب بن جنادة (أبو ذر)
٥٤٢	جندب بن سفيان البجلي
٣٤٨	جويرية بنت الحارث
١٠ ، ١١٤ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٢	جيوفر وعبد ابنا الجلندي
٥٧ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣٢٠ ،	الجاحظ
٤٩٣ ، ٥٩٧ ، ٧٢٩ ، ٧٧٣	
٥٨٢ ، ٥٨٣	الجارود بن عبد الله
٦٢٩ ، ٦٣٢ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١	الجارود بن المعل

٢٢٠	الجد بن قيس
٧٤٢ ، ٧٤٤ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٦١ ، ٧٦٦ ، ٧٧٠ ،	الجرجاني (عبد القاهر)
٧٨٠	
٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤	الجنيد بن محمد الجنيد
٦٩٠	الجلال بن طلحة
	حرف الحاء
٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٦١٥	حاتم بن سعد الطائي
٤٣٢	حاجي خليفة
٦٣	حارثة بن وهب
٧٧٤	حازي جهينة
١٠ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٩٧ ، ٢٨٦	حاطب بن أبي بلتعة
٣٥١	حبيب بن عمرو بن عمير
١٤٢	حبش بن أكرم بن صيفي
	حذافة (الشيءاء) انظر الشيءاء
٦٢٤	حذيفة بن الحارث
٩٩ ، ١٤٨ ، ١٩٧ ، ٣٤٦ ، ٥٢٤	حذيفة بن اليمان
٣٥ ، ٥٧٤	حرب بن أمية
٥٥٨	حزن بن مرداس السلمى
٩ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٤٨ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٦٣ ،	حسان بن ثابت
٢٥٧ ، ٢٨٨ ، ٥٣٢ ، ٥٤١ ، ٥٤٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ،	
٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٦٠٢ ،	
٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٩ ، ٦٢٢ ، ٦٢٦ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ،	
٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٨ ، ٦٦٠ ،	

٦٦١ ، ٦٧٤ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٨٠ ، ٦٨٨ ، ٦٩٠ ،

٦٩١ ، ٦٩٣ ، ٦٩٧ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٣ ، ٧٠٥ ،

٤٩ ، ٢٨٧

حكيم بن حزام

٣١

حليمة السعدية

٦٩٨

حماد بن زيد

٤٢٣

حمزة بن حسن الأصفهاني

٢١ ، ٢٢ ، ١٩٧ ، ٥٥٦ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢١ ،

حمزة بن عبد المطلب

٦٢٣ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٥٠ ، ٦٦٥ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ،

٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٣ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ،

٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٣ ،

٦٥٠

حنظلة بن أبي سفيان

٣١٧ ، ٧٤٥

حواء

٢٢١

حويطب بن عبد العزى

٦٩

الحارث بن أسامة

١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ٢٥٥

الحارث بن أبي شمر

٦٥١

الحارث بن زمعة

٦٩٠

الحارث بن طلحة

٥٥٠

الحارث بن عبد المطلب

١١٤ ، ١٥٤ ، ١٦٠

الحارث بن عبد كلال الحميري

١٤٢

الحارث الغساني

٢٩٧ ، ٣٢٨ ، ٣٨٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٩ ، ٤٥١

الحاكم

٨١

الحجاج بن أبي عبد الله الصواف

٥٧٩

الخريري

٨٦٨

٧٣٣ ، ٦٤٠ ، ١٧٣	الحسن البصرى
٣٣١ ، ٣٣٠ ، ٢٨٥ ، ٢٣٧ ، ٤٨ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ٤٣	الحسن بن على
٤٥٣ ، ٤٥٢ ، ٤٢٦ ، ٣٩٣ ، ٣٤٩ ، ٣٣٤	
٤٣٤ ، ٤٣٣ ، ٤٣١	الحسن بن الفضل
٤٢٧	الحسن العسكرى (الإمام الحادى عشر للشيعة)
٤٥٣ ، ٤٥٢ ، ٤٢٦ ، ٣٩٣ ، ٢٣٧ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٤٦ ، ٤٥	الحسين بن على
٤٥٣ ، ٤٥٢	
٤٥٢	الحسين بن يطمى الأسدى
٦٠٤ ، ٦٠٣	الخطيئة (جرول بن أوس)
٤٨٥	الحكم
٢٢١ ، ٢١٦	الحليس بن علقمة بن زبان
٣٨	الحميدى
حرف الخاء	
١٩٧	خارجة بن زهير
٥٣٢ ، ١٩٦	خارجة بن زيد بن ثابت
٦٩٨	خالد بن سلمة المخزومى
٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢١٤ ، ١٦٤ ، ١٦٣	خالد بن الوليد
٥٤٢	خبيب بن عدى
٢٥٨ ، ١٠٤ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٦٦ ، ٤٣ ، ٣٩ ، ٩	خديجة رضى الله عنها
٧٨٢ ، ٣٩٤ ، ٣٥١ ، ٢٥٩	
٣٢	خدامة (الشيء)
٢١٨	خراش بن أمية الخزاعى

٤٩	خريم بن فاتك
٦٣١	خزاعي بن عبد نهم
١٠٧ ، ١٠٤ ، ٩	خزيمة بن ثابت السلمى
١٧٩	خزيمة بن قيس
٦٣٢ ، ٥٩٥ ، ٥٣٤ ، ١٩	خفاف بن نضلة الثقفى
٦٠٢	خلف الأحمر
٢٢٥	خنيس بن جابر العامرى
٢٥٥	خويلد بن عمر الغطفانى
٢٥٨	الخرمى
٤٨٢	الخضر
١٧	الخطابى
٤٠٥	الخطيب
٥٨٩	الخنساء بنت أبى سلمى
٦١٥ ، ٦١٤ ، ٦١٣ ، ٦١١ ، ٥٥٨ ، ٥٤٢ ، ٢٠	الخنساء (تماضر بنت الشريد)
٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩	

حرف الدال

٤٨٣ ، ٦٠١ ، ٦٠٦	داود عليه السلام
١٠٩ ، ١١٧ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ٤٠ ، ١٠	دحية بن خليفة الكلبي
٧٧٣ ، ٥٦٥	دعبل الخزاعي
٥٣٩ ، ١٢٣ ، ١٢٢	دلدل
٤٥١	الدارقطنى
٥٠٦ ، ٣٨٠ ، ٣١٩	الدارمى
٤٥١	الديلمى

حرف الذال

٥٣٤ ، ٥٦٥	ذابل بن الطفيل بن عمرو الدوسي
٦٣٢	ذباب بن الحارث
١٨١	ذكوان بن عبد قيس
٧٦ ، ٧٥	ذو العقيصتين
٤٨٢	ذو القرنين
١٠ ، ٥٩ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣	ذو المشعار الحمداني
١٨٠ ، ١٩٧	ذو النورين عثمان بن عفان
١١٥ ، ١١٦ ، ٢٢٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦	الذهبي
٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٤٢٧ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٤	
٥٤٥ ، ٥٤٨ ، ٦٣٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧	
٦٩٨ ، ٧٠٠	
١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٤	رافع بن مالك بن العجلان
١٤٣	رباح بن الربيع
٤٧	ربيعة بن أبي عبد الرحمن
٣٠٩	ربيعة بن أمية بن خلف
٧١٦	ربيعة بن كعب الأسلمي
٣٦٦	ربيعة بن يزيد
١٨٤	رفاعة بن عبد المنذر
٣٢ ، ٣٥ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤	رقية بنت أبي صيفي
٤٢٧	رمضان عبد التواب
٤٢٧	رودلف زهايم
٦٨٨	الراعي

الرافعى ٥٣٩

الربيع بن سليمان ٦٢

الرشيد (هارون) ٦١٧

حرف الزاى

زمعة بن الأسود بن عبد المطلب ٦٥١

زمل بن عمرو العذرى ٦٣١

زهير بن أبى سلمى ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣

زهير بن خباب ٥٣٦

زيد بن أرقم ٣٣٨ ، ٦٦٩ ، ٧٠٠

زيد بن حارثة ٢٢ ، ١٩٧ ، ٥٣٢ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٦٦٤ ، ٦٩٨ ،

٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٥

زيد (الإمام) ٣٨٠

زيد بن سعة ٩ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٠

زيد بن عمرو بن نفيل ٣٧

زينب بنت رسول الله ﷺ ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٣٩٣

زينب بنت جحش ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٥

الزبرقان بن بدر ٢١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٦ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ،

٦٣٣ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧

الزبعرى ٦٩٢

الزبير بن عبد المطلب ٣٧ ، ٣٨

الزبير بن العوام ١٩٧ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٥٥٢ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ،

الزركشى ١٩٠

الزخشري ١٠٢ ، ١٥٤ ، ٥٧٠

١٩٦ ، ٦٨٠ ، ٦٩٨

الزهرى

حرف السين

٥٣٢

سالم البراد

٣٠٤

سراقة بن مالك بن جعشم

٥٢٨

سراقة بن مرداس السلمى

٧٧٦ ، ٧٧٤

سطيح بن ربيعة بن مسعود بن

مازن بن ذئب (الكاهن)

٢٢٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٨ ، ٦٨٦ ، ٦٩٠ ، ٦٩١

سعد بن أبى وقاص

١٨٤

سعد بن خيثمة

١٨٤ ، ١٩٧ ، ٦٨٧

١. بن الربيع

٢٧٤

سعد بن عبد الرحمن الجمحى

٩٠ ، ٩١ ، ١٥٩ ، ١٨٤ ، ٢٢٣ ، ٢٨٨ ، ٤١١ ،

سعد بن عبادة

٥٢٢ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٩٨

١٧٩ ، ٢٨٧ ، ٦٥٧ ، ٦٨٧

سعد بن معاذ

٢٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٤ ، ٦٠٤

سعاد

١٩٧

سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل

٣٦٧ ، ٣٦٦

سعيد بن عبد العزيز

٥٦٣ ، ٥٦٢

سعيد بن المسيب

٩ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٤٣٣

سفانة بنت حاتم الطائى

٣٨ ، ٧١٨

سفيان بن عبد الله بن محمد

٣٠١ ، ٤٤٨

سفيان بن عيينة

١٤٢

سفيان بن مجاشع

١٩٧ ، ٥١٣ ، ٥١٦

سلمان الفارسى

٢٢٢	سلمة بن أسلم بن حريش
٥٤٤ ، ٢٢٠ ، ٢١٩	سلمة بن الأكوع
٦٤١ ، ٦٣٩ ، ٦٣٨ ، ٦٣٢ ، ٦٢٩	سلمة بن عياض
١٧٦	سلمة بن هشام
١٩٧	سلامة بن سلامة بن وقش
٥٨٩	سلمى بنت أبي سلمى
١٤٠ ، ١٣٩ ، ١١٤	سليط بن عمرو
٧٩	سليمان عليه السلام
٤٤٣	سمية (أم عمار بن ياسر)
٢٢١ ، ٢٢٠	سنان بن أبي سنان الأسدي
١٩٥	سهل بن رافع بن أبي عمرو
٥١٦ ، ٨٣	سهل بن سعد الساعدي
١٩٥	سهيل بن رافع بن أبي عمرو
٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢١ ، ١٧٦ ، ١٧٥	سهيل بن عمرو
٢٥٦ ، ٢٢٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥	
٥٣٦ ، ٥٣٥ ، ١٩	سويد بن عامر المصطلقى
٤٣٢	سيوية
١٢٣ ، ١٢٢	سيرين
٦٦٢	سيف الدولة الحمداني
٤٣٢	البرى السقطى
٧١٥	السكاكى
٦٧٨	السهيلي
١٩٢ ، ١٩٠	السيد نور الدين السهمودى

٥٧٩ ، ٤٧٢ ، ٤٥٠ ، ٤٤٧ ، ٤١٥ ، ١٧٥	السيوطى (جلال الدين)
حرف الشين	
١٢٠ ، ١١٤	شجاع بن وهب الأسدى
٣٤٩	شداد بن أوس
٢٤٦	شداد بن عبد الله القناني
١٧٩	شرحبيل بن حسنة
٦٧٨	شعثاء
٧٧٦ ، ٧٧٤	شق بن أنمار
٣٣١	شكل بن حميد
٦٩٧ ، ٦٢٢ ، ٦٢١ ، ٥٤٢ ، ٢٠	شماس بن عثمان
٣٠٨	شهر بن حوشب الأشعري
٥٧٤ ، ٥٧٣ ، ٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٢	شيبة الحمد (عبد المطلب بن هاشم)
٦٥٣ ، ٦٥١ ، ٦٥٠ ، ٦٤٩ ، ٦٢٧ ، ٤٦٩ ، ٣٥١	شيبة بن ربيعة
٥٣٨ ، ٥٣١ ، ٤٣٠ ، ٦٢	الشافعى (الإمام)
٥٧٩	الشريشى
٧٦٩ ، ٧٦٨ ، ٧٦٢ ، ٧٦٠ ، ٧٤٦ ، ٥٥٤٣ ، ٢٤	الشرىف الرضى
٧٧٩	
٦١٧٠ ، ٦١٦٠	الشرىف المرتضى
٥٨٠ ، ٥٥٠ ، ٤٤٩ ، ١٨٢ ، ٨٨	الشعبى
٦٠٣	الشمخ
٢٣٦	الشياني
٦٢٦ ، ٦٢٥ ، ٦٢٤ ، ٦١٣ ، ٦١١ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٢١	الشيءاء بنت الحارث

حرف الصاد

٧٤٠	صالح بن عبد القدوس
٦٩١	صواب (غلام أبي يزيد)
٢٤٣	صخر بن العيلة الأحسى
٦١٨ ، ٦١٧ ، ٦١٣	صخر بن عمرو بن الشريد
٢٠ ، ٢٢ ، ٢٦٥ ، ٥٤٢ ، ٥٥٦ ، ٦١١ ، ٦١٨ ،	صفية بنت عبد المطلب
٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٩٥	
٦٢١	صفية بنت ربيعة بن عبد شمس
١٤٣	صفوان بن أسيد
٤٦٠	صفوان بن أمية بن خلف
٣٤٩	صهيب الرومى
٤٢٨ ، ٤٢٦	صلاح الدين المنجد
٤٢٨	الصاحب بن عباد

حرف الضاد

٢٢ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٧٦ ، ٦٨٨	ضرار بن الخطاب الفهرى
٩ ، ٧٤ ، ٧٦	ضمام بن ثعلبة
١٥١	ضمام بن مالك السلماني
٢٨٦	ضمرة بن سعد الضمرى
٧٤٣ ، ٧٦١ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٨٣ ،	ضياء الدين بن الأثير
٧٨٧ ، ٧٨٤	
٥٥٨ ، ٥٥٩	الضحاك بن سفيان

حرف الطاء

٣٣٢	طارق
-----	------

٥٤١	طالب بن أبي طالب
٥٣٧ ، ١٣٨	طرفة بن العبد
٦٩٠	طلحة بن أبي طلحة
٦٥١ ، ٢٧٨ ، ١٩٧	طلحة بن عبيد الله
١٤٨ ، ١٤٧ ، ١٠٢ ، ١٠٠ ، ٩٩ ، ٥٩ ، ١٠ ، ٩	طهفة بن زهير النهدي
٧١٢ ، ١٥٠ ، ١٤٩	
٣٠٧ ، ٣٠٦ ، ٢٩٤ ، ٢٧٤ ، ٢٢٩ ، ١٢٠ ، ١١٥	الطبري
٥٣٢ ، ٣٨١ ، ٣٠٩	
٥٢١ ، ٤٠٥ ، ٣٩٥ ، ٣٩٤ ، ١٩٤ ، ٧٧ ، ٦٩	الطبراني
٤٧٤ ، ٤٧٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٠ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٧٨ ، ٩	الطفيل بن عمرو الدوسي
حرف الظاء	
٢٠٧	ظافر القاسمي
حرف العين	
٧٤ ، ٦٨ ، ٦٦ ، ٥٦ ، ٥١ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٣٦ ، ٩	عائشة رضي الله عنها
٤٥٢ ، ٣٥٠ ، ٣٤٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٠ ، ٢٨٦ ، ٢٧٣	
٦٨٦ ، ٦٢١ ، ٥٥٢ ، ٥٤٣ ، ٥٣٦ ، ٥٣٣ ، ٥٢٠	
٧٨٥	
٥٥٦	عائكة بنت عبد المطلب
٢٩٣	عاصم الأنصاري
٦٩٠	عاصم بن ثابت بن الأفلح
٦٥٥ ، ٥٤٥ ، ٥٤٤ ، ٥٤٢	عامر بن الأكوع
٧٦٩	عامر بن لؤي
٢٢٢ ، ١٩٧	عباد بن بشر بن وقش

٦١٦	عباد بن شبل
٣٠٩	عباد بن عبد الله بن الزبير
٣٨٦ ، ١٨٤ ، ١٨١	عبادة بن الصامت
٣٤١	عبد الله بن أبي أوفى
٢٣٧ ، ٢١٩	عبد الله بن أبي بكر
٢٩٦ ، ٢٧٣	عبد الله بن أبي بن سلول
١٥٩	عبد الله بن أنيس
٦٨٧ ، ٣٨٠	عبد الله بن جحش
٥٧٤ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٥ ، ٩ ، ٨	عبد الله بن جدعان
٦٩٩	عبد الله بن جعفر بن أبي طالب
٦٢٤ ، ٥٤٢ ، ٥٤١	عبد الله بن الحارث السهمي
١٣٢ ، ١٣١ ، ١١٤ ، ١٠	عبد الله بن حذافة السهمي
١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ١٧٣ ، ١٨٤ ، ١٩٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٥٣٢ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٥١ ، ٦٠٢ ، ٦١١ ، ٦٢٦ ، ٦٤٨ ، ٦٥٥ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٩٦ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠٢ ، ٧٠٤ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٥٩١ ، ٦٥٧ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٧٣ ،	عبد الله بن رواحة
٦٩١ ، ٦٨٨ ، ٦٧٥ ، ٦٧٤	عبد الله بن الزبير
٢٢٥	عبد الله بن سهيل بن عمرو
٧٧٨ ، ٢٧٣ ، ٨٤ ، ٩	عبد الله بن سلام
٤٠ ، ٤١ ، ٤٩ ، ٧٦ ، ١٠٢ ، ١١٦ ، ١٤٣ ، ١٩٠ ، ٢٧٥ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ،	عبد الله بن عباس

٣٣١ ، ٣٤١ ، ٣٥٠ ، ٣٩٠ ، ٣٩٤ ، ٤٤٩ ، ٥٢١ ،	
٥٣٣ ، ٥٨٠ ، ٧٦٧	
٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩	عبد الله بن عبد المطلب
٢٢٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٦٣ ، ٣٨٩ ، ٥٤٨ ،	عبد الله بن عمر
٦٥٧ ، ٦٩٩	
٣٩٣ ، ٤٢٦ ، ٥٣٣	عبد الله بن عمرو
١٨٤	عبد الله بن عمرو بن حرام
٢٤٦	عبد الله بن قواد الزياتي
٤٥	عبد الله بن قيس
٦٩	عبد الله بن محصن الأنصاري
٤٢٧	عبد الله بن محمد بن جعفر الأنصاري
٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٢٨ ، ٣٤٢ ، ٣٨٦ ، ٤٠٩ ، ٥١٥ ،	عبد الله بن مسعود
٥٢٣ ، ٥٤٩ ، ٧٣٧ ، ٧٥٨ ، ٧٧٥	
٢٩٣	عبد الله بن المغفل
٧٣٢	عبد الله بن يزيد
٨٢	عبد الله (أبو جابر بن عبد الله)
٦٢٧	عبيد الله بن الحارث
١٣٥ ، ١٣٦	عبد بن الجلندي
٣٨٤	عبد بن حميد
٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨	عبيدة بن الحارث بن المطلب
٣٨ ، ٦٥٣	عبد الرحمن بن أبي بكر
٦٩	عبد الرحمن بن أبي عقيل الثقفي
١٢٣	عبد الرحمن بن حسان بن ثابت

٥١٣	عبد الرحمن محمد (ناشر)
٢٩٣	عبد الرحمن بن خباب
٦٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٢٤ ، ١٩٧	عبد الرحمن بن عوف
٤٤٩	عبد الرزاق
٦٣١	عبد عمرو بن جبلة بن وائل الكلبي
٨ ، ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١٨٩ ،	عبد المطلب بن هاشم
٢٧٣ ، ٤٦٩ ، ٥٥٧ ، ٥٧٣ ، ٦٢٠ ، ٦٢٥ ، ٦٨٠	
٥٦٢	عبد الملك بن مروان
٦٦١	عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد
	الله بن الزبير
٣٥١	عبد ياليل بن عمرو بن عمير
٣٠٨	عتاب بن أسيد
١٩٧	عتبان بن مالك
١٦ ، ٣٥١ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ،	عتبة بن ربيعة
٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٩٥ ،	
٦٩٧	
٦٩٠	عثمان بن أبي طلحة
٦٢١	عثمان بن عثمان (شماس)
٣٥١	عداس
٩ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٦١٥	عدى بن حاتم الطائي
٦١٧ ، ٦٠٣	عدى بن الرقاع
٦٠٥ ، ٥٩٤	عرقوب
٨٨٠	

٢٢١ ، ٢١٧ ، ٢١٦	عروة بن مسعود الثقفي
٤٥٥	عروة بن مضر
٤٦١ ، ٤٦٠	عصماء بنت مروان
٣٦١ ، ٣٥٥	عز الدين إبراهيم (دكتور)
٧٧٤	عزى سلمة
٤٢٦	عضد الدولة بن بويه
٣٦٨	عطاء بن يسار
٦٣٢ ، ٢١	عطارد بن حاجب بن زرار
٦٥٠	عقبة بن أبي معيط
٤٩	عقبة بن الحارث
٣٨٣ ، ٣٦٢ ، ٢٩٧ ، ١٨١ ، ١٨٠	عقبة بن عامر
١٧٣	عقبة بن عمرو
٥٨٩	عقبة الملقب بالمضرب
٧٠٣ ، ٧٠١	عقيل بن أبي طالب
٦٩٩ ، ٦٥٦ ، ٤٨٥	عكرمة
٦٠٣	عكرمة بن جرير
٢٩٣	علبة بن زيد
١٢٠	علقمة (الشاعر)
٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٨٤ ، ٨٦ ،	على بن أبي طالب
٨٧ ، ١٠١ ، ١٥٠ ، ١٦٦ ، ١٩٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،	
٢٣٤ ، ٢٤٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ،	
٣٣٥ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣ ، ٤٣٠ ، ٤٤٩ ، ٥٠٦ ،	
٥٤١ ، ٥٥٦ ، ٥٧١ ، ٥٧٣ ، ٦١٥ ، ٦٢٧ ، ٦٥٦ ،	

٦٥٧ ، ٦٨٥ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٣ ،

٧١٢ ، ٧٠٥

٧٦٧ ، ٧٥٥

على الجارم

٣٥٥

على بن محمد الجرجاني

٤٢٣

على بن الفضل الطالقاني

٣٥٦

على بن محمد القاري (الملا)

٦٠٨

على بن مسعود بن مازن الغساني

١٩٧ ، ٢٧٠ ، ٤٤٣

عمار بن ياسر

٦٩٧

عمارة بن زياد بن السكن

٨٠

عمر بن حمزة

٥٠ ، ٦١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٥ ، ١٩٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،

عمر بن الخطاب

٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٥٦ ،

٢٥٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣١٠ ،

٣٨١ ، ٥١٢ ، ٥٤٦ ، ٦١٤

٩٩ ، ١٤٨

عمران بن حصين

١٠ ، ١١٤ ، ١٢٤ ، ١٢٦

عمرو بن أمية الضمري

٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٦ ، ٦٣٢

عمرو بن الأهم

٦٨٧

عمرو بن الجموح

٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

عمرو بن حزم

٣٠٨

عمرو بن خارجة

٤٤٨

عمرو بن دينار

١٩ ، ٢٤٨ ، ٢٨٥ ، ٥٦٢ ، ٥٦٦ ، ٥٧٢

عمرو بن سالم الخزاعي

٥٤٣

عمرو بن سراقه الضمري

٥٣٥	عمرو بن الشريد
١٤ ، ٢٢ ، ٥٠ ، ١١٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،	عمرو بن العاص
٥٤٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٠	
٦٨٨	عمرو بن العباس
٢٤٦	عمرو بن عبد الله الضبابي
٦٥٨ ، ٦٥٦	عمرو بن عبد ود
٦٥٨	عمرو بن كلثوم
٦٣١	عمرو بن مرة الجهني
٥٥٨	عمرو بن مرداس السلمي
٦١٥	عمرو بن معد يكرب
٤٦١ ، ٤٦٠	عمير بن عدى
٢٩٥	عمير بن وهب الجمحي
١٥١	عميرة بن مالك الخفاري
٥١٩ ، ٤١٦	عوف بن مالك الأشجعي
١٨١ ، ١٨٠	عوف بن الحارث بن رفاعه
١٩٧	عويمر بن ثعلبة
١٩٧ ، ١٨١	عويم بن ساعدة بن عائش
٧٣٩ ، ٣٣٠ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٥٨ ، ٥٥ ، ٥٠ ، ٤٩	عياض (القاضي)
١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،	عيسى عليه السلام
١٤٠ ، ٤٧٩ ، ٤٨٣ ، ٥٥٨ ، ٦٣٨ ، ٧٤٥	
٥٨٢	عيسى بن قدامة الأسدي
٢٨٨ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٦٣٢	عينه بن بدر
٦٦٠	عينه بن حصن الفزاري

١٧٦	عباس بن أبي ربيعة
١٨٤ ، ١٨١	العباس بن عباد بن نفضلة
١٩ ، ٢١ ، ٢٨٨ ، ٥٣٧ ، ٥٤٢ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ،	العباس بن مرداس السلمى
٥٦٣ ، ٦٠٢ ، ٦١٤ ، ٦٧١	
٣٨ ، ٣٧	العاصى بن وائل السهمى
٧٧٣ ، ٦١٦	العتابى (الشاعر)
٤٩	العداء بن خالد
٤١٦	العرباض بن سارية
٣٠٢	العضباء
٧٧٣	العكوك
١٣٨ ، ١١٤	العلاء بن الحضرمى
٢٦٤	العلاء بن مسروح
٥٨٩	العوام بن عقبة
حرف الغين	
٥٢١	غيلان بن جرير
٢٣٧	غيلان بن عمرو
حرف الفاء	
١٥ ، ٤٦ ، ٦٦ ، ٢٣٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٨٥ ،	فاطمة الزهراء رضى الله عنها
٣٠٤ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤٤٢ ، ٤٤٩ ،	
٧٠٥	فاطمة بنت أسد
٤٣٠	فارس بن الحسين الهذلى
٦٤٨	فروات بن حيان
٦٦ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ٣٩٠	فرعون

٦٣٢	فروة بن مسيك المرادى
٥١٦	فضالة بن عبيد
٦٧٥	فضالة بن عمير الليثى
٦٨٨	الفرزدق
٣٨	الفضل بن الحارث
٦١٧ ، ٦١٦	الفضل بن الربيع
٣٨	الفضل بن شراة
٣٢١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥	الفضل بن العباس
٣٨	الفضل بن فضالة
٣٨	الفضل بن قضاة
٣٨	الفضل بن وداعة
حرف القاف	
٥٦٢	قبيصة بن ذؤيب
٣٦٧	قتيبة بن سعيد
٦٢٤ ، ٦٢٣ ، ٦١٣ ، ٦١١ ، ٥٦٦ ، ٥٤٢ ، ٢٠	قتيلة بنت النضر
٧٨٣ ، ٧٧٥	قدامة بن جعفر
	قرة بن هبيرة بن سلمة الخير بن
٦٣١	قشير
٦٩١ ، ٦٩٠	قزمان حليف بنى ظفر
٥٣٩ ، ٥٢٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٠	قس بن ساعدة الإيادى
٥٨٤ ، ٥٨٣ ، ٥٨٢ ، ٥٨١ ، ٥٨٠ ، ٥٧٩ ، ٥٧٧	
٥٨٦ ، ٥٨٥	
١٨١ ، ١٨٠	قطبة بن عامر بن حديدة

١٠ ، ٥٩ ، ١٤٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩	قطن بن حارثة العليمي الكلبى
٦٤٨	قيس بن امرئ القيس
٦٣٢	قيس بن الحارث
٢٤٧ ، ٢٤٦	قيس بن الحصين (ذو الغصة)
٧٤٠	قيس بن الخطيم
٢٥٥	قيس بن رفاعه
٦٧٧	قيس بن سعد
٢٥٥	قيس بن سنان
٦٣٢ ، ٤٥٩ ، ٢٥٧	قيس بن عاصم المنقرى
٩ ، ١٠ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٨٨ ، ١١٤ ، ١١٥ ،	قيصر الروم
١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ،	
١٣١ ، ١٤١ ، ٢١٧ ، ٢٢٩ ، ٢٥٥ ، ٥٥٥	
	القاسط بن شريح بن هاشم بن
٦٩١	عبد مناف بن عبد الدار
٣٨	القتبى
	القرشى (صاحب جمهرة أشعار
٥٥٠	العرب)
١٧٣ ، ٢٧٤	القرطبى
١٨٩ ، ٢٧٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥	القصواء (ناقة النبى ﷺ)

حرف الكاف

٢٠ ، ٥٢٧ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ،	كعب بن زهير .
٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ،	
٦٠٩ ، ٦١٣ ، ٦٧٠	

٧٦٩ ، ٢٥٥	كعب بن لؤى
١٠ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٣١ ،	كسرى (بن هرمز)
١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ٢١٧ ، ٢٢٩ ،	
٤٩٤ ، ٢٥٥	
١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٩٧ ، ٢٩٥ ،	كعب بن مالك
٥٣٢ ، ٥٤١ ، ٥٥١ ، ٦٠٢ ، ٦١٣ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ،	
٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ،	
٦٦٢ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩٣ ، ٦٩٥ ، ٧٠٣ ،	
٦٣١	كليب بن أسد بن كليب
٦٩٠ ، ٦٩١	كلاب بن طلحة
٢٢٥	كوثر (دليل خنيس العامرى)
٣٠٢ ، ٣١٣	الكاند هلوى
٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦١٦	الكميت
حرف اللام	
٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٧١	ليد
٤٥٠ ، ٤٥٣	لقمان الحكيم
٣٠٨	ليث بن أبى سليم
حرف الميم	
١٢٢ ، ١٢٣	مارية القبطية
٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٥١٩ ،	مالك بن أنس (الإمام)
١٥١	مالك بن أيفع
٦٦٧	مالك بن زافلة
٢٣٧	مالك بن عوف من بنى النصر

١٠ ، ١٤٧ ، ١٦٠	مالك بن مرارة الحميري الرهاوى
١٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ٥٦١ ، ٥٦٤ ، ٦٣١	مالك بن نمط
١٤٢ ، ١٤٣	مالك بن نوية
١٢٣	مايور
٥٨٠	مجالد بن سعيد
٣٠١	مجاهد
١٠٠ ، ١٠٤ ، ١١٥ ، ١٥٤ ، ٢٢٩ ، ٣٠٦ ، ٥٨٠ ،	مجد الدين بن الأثير
٥٨٢	
١٩٠	مجد الدين الفيروزابادى
٢٢٨	مجمع بن جارية بن عامر الأنصارى
١٨ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ،	محمد ﷺ
٤٢ ، ٤٣ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٧٤ ،	
٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٣ ،	
٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ،	
١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،	
١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ،	
١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ،	
١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،	
١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،	
٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ،	
٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،	
٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،	
٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ،	

٢٨٩ ، ٢٨٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٣ ، ٢٧٦ ، ٢٦٩ ، ٢٦٨
 ، ٣٢٢ ، ٣٢١ ، ٣١١ ، ٣٠٧ ، ٢٩٧ ، ٢٩٣ ، ٢٩٠
 ، ٣٨٠ ، ٣٥٨ ، ٣٥٥ ، ٣٥٠ ، ٣٤٨ ، ٣٤٧ ، ٣٣٠
 ، ٤٦٠ ، ٤١١ ، ٤١٠ ، ٤٠٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠١ ، ٣٩٥
 ، ٤٧٢ ، ٤٧١ ، ٤٧٠ ، ٤٦٩ ، ٤٦٨ ، ٤٦٧ ، ٤٦٣
 ، ٥١٦ ، ٤٨٠ ، ٤٧٩ ، ٤٧٧ ، ٤٧٥ ، ٤٧٤ ، ٤٧٣
 ، ٥٥٦ ، ٥٥٢ ، ٥٤٩ ، ٥٤٠ ، ٥٣٥ ، ٥٢٢ ، ٥١٨
 ، ٥٧١ ، ٥٦٤ ، ٥٦٣ ، ٥٦٢ ، ٥٦١ ، ٥٥٩ ، ٥٥٨
 ، ٦٣١ ، ٦٢٦ ، ٦٢٥ ، ٦٢٤ ، ٦٢٣ ، ٦١٥ ، ٥٧٣
 ، ٦٥٥ ، ٦٥٣ ، ٦٤٠ ، ٦٣٩ ، ٦٣٨ ، ٦٣٧ ، ٦٣٢
 ، ٦٨٠ ، ٦٧٩ ، ٦٧٥ ، ٦٧٢ ، ٦٧١ ، ٦٦٤ ، ٦٥٦
 ، ٧٢٢ ، ٧٠٦ ، ٧٠٢ ، ٦٩٥ ، ٦٩٤ ، ٦٨٧ ، ٦٨٦
 ٧٩١ ، ٧٤٦ ، ٧٣٤

٣٠٣

محمد بن أبي بكر

٣٠٣ ، ٣٠١

محمد الباقر

محمد بن الحسين بن موسى السلمى

٤٣٢

الأزدى النيسابورى

٢٢٩ ، ٢٠١ ، ١٢٠

محمد حميد الله

١٤٢

محمد بن سفيان بن مجاشع

١٧٥

محمد الصادق عفيفى

٢٣٦

محمد بن على الأكوع

٢٣٩ ، ٢٣٨

محمد الغزالى (الشيخ)

٢٩٤

محمد بن كعب القرظى

٢٩٦	محمد بن مسلمة الأنصاري
٢٢٩ ، ١٩١ ، ١٩٠ ، ٣٧ ، ٣٦	محمد بن يوسف الشامي الصالحى
٥٥٦	محمود <small>رحمته الله</small>
١٢٧ ، ١٢٤	محمود شيث خطاب
٢٢٥	محمود بن مسلمة
٥٨٠	محمود محمد الطناحي
٥٧٣	مخرمة بن نوفل
٦١٦	مخلد بن يزيد بن المهلب
٢٩٥	مرارة بن الربيع
٤٥١	مرداس الأسلمى
٥٥٨	مرداس السلمى
٧٥٤ ، ٤٤٢ ، ٣٩٤ ، ١٢٥ ، ٦٦	مريم عليها السلام
٦٠٣	مزد أخو الشياخ
٦٩٠	مسافع بن طلحة
٦٥٨	مسافع بن عبد مناف بن وهب
٣٥١	مسعود بن عمرو بن عمير
٣٠٦ ، ٢٦٥ ، ١٩٢ ، ١٢٧ ، ٩٥ ، ٩٤ ، ٦٥ ، ٦٤	مسلم (الإمام)
٣٤٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٧ ، ٣٣٥ ، ٣٣٢ ، ٣٢٩ ، ٣٢٧	
٣٦١ ، ٣٦٠ ، ٣٤٨ ، ٣٤٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٤ ، ٣٤٢	
٣٩٠ ، ٣٨٩ ، ٣٨٦ ، ٣٦٩ ، ٣٦٧ ، ٣٦٤ ، ٣٦٢	
٥٢٣ ، ٥١٩ ، ٥١٦ ، ٥١٣ ، ٤١٧ ، ٤٠٥ ، ٣٩٣	
٧٣١ ، ٦٩٩ ، ٥٤٩ ، ٥٤٨ ، ٥٤٤ ، ٥٤٠ ، ٥٣٥	
٧٧٩ ، ٧٣٥ ، ٧٣٣ ، ٧٣٢	

٣٣٥	مسلم بن الحارث
٥٣٦ ، ٥٣٥	مسلم الخزاعي (المصطفى)
٧٧٣ ، ٤٩٢	مسلم بن الوليد (الشاعر)
٦٩٢ ، ٦٩١ ، ٢٥٧	مسلمة بن مخلد بن الصامت
١٠ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٧٥ ، ٢٣٨ ، ٤٨٤ ،	مسيلم الكذاب
٦٨٦	
٧٥٥	مصطفى أمين
٦٢١	مصطفى السقا
٧١٢ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٥٦	مصطفى صادق الرافعي
٤٨٤	مصطفى كمال أقاتورك
٧٤٢	مصطفى محمد (ناشر)
	مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد
٦٩٧ ، ٦٩١ ، ٦٧٦ ، ٦١٨ ، ٢٧٦ ، ١٩٧ ، ١٨٢	مناف
٣٦٨	معاذ بن أسد
٣٨٣ ، ٣٧٨ ، ٣٧٧ ، ٣٦٧ ، ٢٤٦ ، ١٩٧ ، ١٤	معاذ بن جبل
٧٥٩ ، ٧٥٧ ، ٧٤٢ ، ٤٥٧ ، ٣٨٤	
١٨١	معاذ بن الحارث
٦٠٢ ، ٥٣٩ ، ١٥٨ ، ١٢٢ ، ٧٨ ، ٧٧	معاوية بن أبي سفيان
٦١٣	معاوية بن عمرو بن الشريد
٤٩	معرض بن معيقب
٢٢٥ ، ٢٢١ ، ٢١٦ ، ٢١٥	مكرز بن حفص بن عامر بن لؤي
٤٦٩	منبه بن الحجاج
٣٨٦	منصور بن المعتمر

١٢١ ، ١٢٦ ، ٢٩٦ ، ٣٩٠ ، ٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ،	موسى عليه السلام
٥١٢ ، ٥٤٧ ، ٦٦٦ ، ٧٢٣	
١٨١ ، ١٨٢	موفق الدين بن قدامة
٦١٧	المأمون
٦١٦	المؤمل بن أميل الكوفي المحاربى
٢٥٨	المبرد
١٣٨	المتلمس
٧٣٧	المستورد بن شداد
٣٩٣	المسور بن مخرمة
١٢١ ، ٧٧٤	المسيح عليه السلام
٣٣٦ ، ٥٠٧	المسيح الدجال
٤٢٧	المعتصم العباسى
٢١٧ ، ٢٣٧	المغيرة بن شعبة
٤٢٣	المفضل بن سلمة
٤٢٣	المفضل الضبى
٢٨٦	المقداد بن الأسود
٢٣٥ ، ٢٣٦	المقرئى
١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،	المقوقس
١٣١ ، ١٤٢ ، ٢٢٩ ، ٥٣٩	
١١٨	المنذر بن الحارث الغسانى
٢٥٧	المنذر بن حرام
١٠ ، ١١٤ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢	المنذر بن ساوى
١٨٤ ، ١٩٧	المنذر بن عمرو بن خنيس
	٨٩٢

المنصور ٦١٦

المهاجر بن أبي أمية المخزومي ١٥٥ ، ١١٤

المهدي العباسي ٦١٦

المهلب بن أبي صفرة ٤٣٢

المويزان ٧٧٤

حرف النون

ناجية بن جندب بن عمير ٥٤٢ ، ٢١٥

نافع ٤٢٦

نافع بن جبير ٢٩٢

نبيه بن الحجاج ٤٦٩

نصر بن غالب ٥٨٢

نعم بنت سعيد (امراة شساس) ٦٢٢ ، ٦٢١ ، ٦١١ ، ٥٤٢ ، ٢٢ ، ٢٠

نعيم بن عبد كلال ١٦٠

نعيم بن مسعود ٦٥٧

نعيم بن يزيد ٦٣٢

نوفل بن الحارث ٥٥٠

نوفل بن خويلد بن أسد ٦٥١

الناطقة الذبياني ٦١٤ ، ٦٠٥ ، ٥٨٩ ، ١٢٠

الناطقة الجعدي ٥٣٦

النجاشي ١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،

١٣١ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ٢١٧ ، ٢٢٩ ، ٤٩٤

النسائي ٣٢٨ ، ٣٣٤ ، ٣٤٣ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ،

٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٥٢١ ، ٧٣٥

٦٥٠ ، ٤٨٥ ، ٤٦٩	النضر بن الحارث
٦٢٤ ، ٦٢٣	النضر بن الحارث المخزومي
١٦١	النعمان قيل ذي رعين
٧٣٨ ، ٧٠٠ ، ٤٥٢	النعمان بن بشير
٢٥٨	النعمان بن الحارث الغساني
٦٩٢ ، ٢٥٥	النعمان بن المنذر
١٩٥	النوار بنت مالك
٦١ ، ١٢٧ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٥١٣ ، ٥١٩ ، ٧٣١ ،	النووى
٧٤٣ ، ٧٣٥	
٥٦٥	النويرى
١٣٦	النياق (أخو هرقل)
حرف الهاء	
٢٩٦	هارون عليه السلام
٤٠٦	هارون العبدى
٢٢ ، ٥٩١ ، ٦٥٨ ، ٦٨٨	هيرة المخزومي
٤٢ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٦ ، ٥٤٧ ، ٦٦٧	هرقل
٥٥٢	هشام بن عروة
٣٥	هشام بن المغيرة
٣٨٨	هشيم
٩ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٩	هند بن أبى هالة التميمى
٢١ ، ٥٤٢ ، ٦١١ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧	هند بنت أثانة
٢١ ، ٢٢ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٥٠ ، ٦٧٧ ، ٦٨٦ ،	هند بنت عتبة
٦٩٣ ، ٦٩٥ ، ٦٩٧ ، ٧٧٤	

١٠ ، ١١٤ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢	هوذة بن على الحنفى
٢٩٥	هلال بن أمية
٥٧٩ ، ٥٣٣ ، ٤٥٠	الهيشمى
حرف الواو	
٩ ، ١٠ ، ٥٩ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥	وائل بن حجر الحضرمى
١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩	
٦٢٦ ، ٦٥٠ ، ٦٨٦	وحشى
٣٩	ورقة بن نوفل
٣٠١	وكيع
١٩٢	وهب بن منبه
١٤٠ ، ٢٣٥ ، ٣٠٦ ، ٦٥٤ ، ٦٩٩	الواقدى
٦٩٧ ، ٦٥٠	الوليد بن عتبة
١٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٨١	الوليد بن المغيرة
١٧٦	الوليد بن الوليد بن المغيرة
حرف الياء	
١٦٤ ، ٤٣٢ ، ٥٨٢	ياقوت الرومى
٢٩٣	يامين بن عمرو
٢٧٣ ، ٤٧٢ ، ٧١١ ، ٧١٣ ، ٧١٧ ، ٧٢١ ، ٧٢٢	يحيى بن حمزة العلوى
٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٣٠ ، ٧٤٤ ، ٧٦٦ ، ٧٦٨ ، ٧٧٠	
٧٨٠ ، ٧٨٤	
٣٨٢	يزيد بن أبى سفيان
٩١	يزيد بن عاصم
٢٤٦ ، ٢٤٧	يزيد بن عبد المدان

٥٥١	يزيد بن عمرو بن تميم الخزاعي
٢٤٦	يزيد بن المحجل
١٢٣	يعفور
٢٩٨ ، ٢٣٣	يوحنا بن رؤبة

فهرس القبائل

الصفحات	اسم القبيلة
حرف الألف	
٣٨	آل فهر
٧٠٢، ٦٣٧، ٦١٨، ٥٧١، ٥٥١، ٥٥٠	آل هاشم
١٥١	أرحب اليمنية
١٢٢، ١١٧، ١١٥، ٤٢	الأريسيون
٧٨١، ٢٨٨، ٢٢٦، ٢١٤	أسلم
٦٥٤	أشجع
٣٢٠	الأفغان
٤٨٢	أهل الكهف
٢٧٣، ٢٥٨، ٢٠٤، ١٩٨، ١٨٤، ١٨٣، ٥٦	الأوس
٧٦٢، ٧٥١، ٦٧٧، ٦٥٣، ٦٥٢، ٦٤٩، ٥٢١	
٢٥٧	إياد
حرف الباء	
١٦٣، ١٦٢، ١٤٧	بارق
١٠٣	بجلة
٧٠٠، ٦٦٧، ٨٧	بلى
٢٤٥	بلية

٦٧٨ ، ٦٥٤ ، ٦٥١ ، ١٢٠ ، ٥٦	بنو أسد
٦٣٢	بنو أسد الله بن سعد العشيرة
٤٧٩	بنو إسرائيل
٢٠٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٠ ، ١٩٩	بنو الأوس
٤٦٠	بنو أمية بن زيد
٦٨٨	بنو أمية
٥٦٣ ، ٥٦٢ ، ٢٨٨ ، ٢٨٤ ، ٢٢٢	بنو بكر
٦٣٦ ، ٦٣٤ ، ٦٣٢ ، ٦٣١ ، ٦٢٩ ، ١٤٢ ، ٢١	بنو تميم
٦٣٨ ، ٦٣٧	
٢٠٤ ، ٢٠٠	بنو ثعلبة
٢٠٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٠ ، ١٩٨	بنو جشم
٤١٠ ، ٣٨	بنو جهم
٢٣٤	بنو جنية
٦٣٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٢	بنو الحارث بن الخزرج
٢١٦	بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة
٢٤٧ ، ٢٤٦	بنو الحارث بن كعب
٦٧٨	بنو الحسحاس
١٤١ ، ١٤٠ ، ١٣٩	بنو حنيفة
٦٧٠	بنو خفاف
٦٩٧	بنو ربيعة
٥٦	بنو زهرة
٢٠٤ ، ٢٠٢ ، ١٩٩ ، ١٩٨	بنو ساعدة
٢٧٤ ، ١٨٤	بنو سالم بن عوف

٦٢٤، ٢٦٣، ١٥١، ١٠١، ٥٦، ٥٥، ٩، ٨، ٧	بنو سعد
٦٥٤، ٦١٤، ٥٦٦، ٥٦٠، ٥٥٩، ٥٥٨	بنو سليم
٤١٠، ٣٨	بنو سهم
٢٠٤، ٢٠٠	بنو الشطبية
٦٨٧	بنو عبد الأشهل
٦٩٠، ٤١٠، ٣١٤، ١٧٩، ٣٧	بنو عبد الدار
٣٠٦، ٢٦٦، ٢٦٥، ٨٤	بنو عبد المطلب
٥٥١، ٤٦٠، ٤١	بنو عبد مناف
٤١١، ٢١٨	بنو عدى بن كعب
٦٣١، ٣٨١، ٢١	بنو عذرة
٧٧٥	بنو العشاء
١٥٨	بنو عليم
٢٧٢، ٢٠٢، ١٩٩، ١٩٧، ٨٣، ٥٦	بنو عمرو
٢٠٤، ٢٠٣، ٢٠١، ٢٠٠، ١٩٩، ١٩٨	بنو عوف
٢٢٦	بنو غفار
٢٢٦	بنو فهر
٦٥٧، ٢٢١، ٢١٤، ٢١٣، ٢٠٩، ١٩٨، ٢١	بنو قريظة
٦٣١، ٢١	بنو قشير
٦٩٣	بنو قصي
٦٤٥، ١٩٨	بنو قينقاع
٥٦٣، ٤١١، ٢٨٧، ٢٨٥، ٢٨٤، ٢٦٦	بنو كعب
١٦٠	بنو كلال
٦٣١، ١٥٩، ١٥٨، ٢١	بنو كلب

٤٦٠ ، ٢٨٥	بنو كنانة
٤٧٤	بنو لؤى
٢١٣	بنو لحيان
٣١٣ ، ٣٠٧	بنو ليث
٧٧٥	بنو مازن بن فزارة بن ذبيان
٢٤٥ ، ٢١٧	بنو مالك
٤١٠ ، ٣٨	بنو مخزوم
٦٥٤	بنو مرة
٦٩٩	بنو مرة بن عوف
٢٥٧	بنو منقر
١٥٤	بنو المغيرة المخزومي
١٥٠ ، ١٤٨ ، ١٠٢ ، ١٠٠	بنو نهد
٢٠٢ ، ١٩٩	بنو النبيت
٢٠٤ ، ٢٠٢ ، ١٩٩ ، ١٩٧ ، ١٩٥ ، ١٨٩ ، ١٨٠	بنو النجار
٦٥٣ ، ٦٥٢ ، ٦٤٩ ، ٦٤٦ ، ٥٢٢ ، ٢٧٣	
٦٥٤ ، ٦٤٥ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ١٩٨	بنو النضير
٢٦٣ ، ٥٦ ، ٤٠	بنو هاشم
٧٠٠ ، ٦٦٧	بهراء

حرف التاء

٧٨١	تجيب
٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٦	تغلب
٦٣٧ ، ٦٣٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦ ، ٢١	تميم
٣٨	تيم

٤٨٩	الترك
حرف الثاء	
١٢ ، ١٤ ، ٧٠ ، ١٦٧ ، ٢١٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ،	ثقيف
٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٣٥١ ، ٧٦٣	
حرف الجيم	
٧٠٠ ، ٦٦٧	جذام
٣٨	جرهم
٢٠٠ ، ٢٠٤	جفنة
٢١ ، ٢٢٦ ، ٥٩٢ ، ٦٣١	جهينة
حرف الحاء	
١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦١	حمير
حرف الخاء	
١٥١ ، ١٥٢	خارف
١٤٧	خشعم
١١٨ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣	خزاعة
٥٦ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩٨ ، ٢٥٨ ، ٢٧٣ ،	الخزرج
٥٢١ ، ٦٧٧ ، ٧٥١ ، ٧٦٢	
حرف الدال	
٦٣٥ ، ٦٣٧	دارم
٨٠ ، ٣٣٣ ، ٤٧٤	دوس
١٧٩	الداريون
حرف الراء	
٣٠٧ ، ٣١٥	ربيعة

٤١ ، ٤٣ ، ٩٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ،	الروم
١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٥٤٧ ،	
٦٦٤ ، ٧٠٠	
١٢١	الرومان
حرف الزاي	
٣٧	زبيد
٣٨ ، ٥٥١	زهرة
حرف السين	
٧٤	سعد بن بكر (قبيلة)
٤١١ ، ٦٧٠	سليم
حرف الشين	
١٥١ ، ١٥٢	شاكر
حرف الضاد	
١٥٥	ضمعج
حرف الطاء	
٨٦ ، ٨٩	طىء
حرف الظاء	
٦٨٧ ، ٦٩٠	ظفر
حرف العين	
٦٤٩	عامر
٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣	عبد القيس
٧٨١	عُصِيَّةُ
٤٨٩	العجم
	٩٠٢

حرف الغين

٤١١

غطفان

٧٨١ ، ٢٨٨

غفار

١٦٣ ، ١٣١ ، ١٢٠

الغساسنة

حرف الفاء

٦٥٤

فزارة

٦٤٦ ، ٦٣٥

فهر

١٣٨ ، ١٣١ ، ١٢٤ ، ١١٤ ، ٤٠

الفرس

حرف القاف

٩ ، ١٢ ، ١٦ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

قريش

٤٠ ، ٤١ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٩١ ،

٩٢ ، ١٠٣ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٣ ،

١٣٧ ، ١٤١ ، ١٧٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،

٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،

٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،

٢٢٩ ، ٢٣٨ ، ٢٤٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ،

٢٦٦ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٣٠٤ ،

٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٨٥ ، ٤١٠ ، ٤٤٢ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ،

٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٨٤ ، ٤٩٤ ، ٥٥٠ ، ٥٦٢ ،

٥٧٤ ، ٥٩١ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٢٤ ،

٦٢٦ ، ٦٣٧ ، ٦٤٦ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ،

٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٦٥ ، ٦٧٢ ، ٦٧٤ ،

٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩١ ،

٧٦٣ ، ٧٦٢ ، ٧٢٤ ، ٧١١ ، ٦٩٧ ، ٦٩٣

٣٨١ ، ٣٨٠ ، ٢٨٨ ، ٧٨

٤٦٩

١٢٣ ، ١٢٢ ، ١٢١

٧٠٠ ، ٦٦٧

حرف الكاف

٦٤٩ ، ١٥٩

٥٧٢

حرف اللام

٧٠٠ ، ٦٦٧ ، ١٧٩

حرف الميم

٦٩٣

٦٧٠ ، ٦٣١ ، ٢١

٦١٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٢ ، ٣١٥

٦٧٩ ، ٥٥٢

١٥٥

١٣٨ ، ١٣٣

حرف النون

٦٠٨

٢٣٧

٢٣١ ، ١٢

٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣١ ، ١٢

قضاة

قيس بنى ثعلبة

القبط

القين

كعب

كنانة

لخم

مخزوم

مزينة

مضر

معدّ

معشر

المجوس

نزار

نصارى أوروبا

نصارى الشام

نصارى نجران

الحرف الميم

٧٠٤ ، ٦٩٦ ، ٦٩٤ ، ٦١٨ ، ٣٨

هاشم

٣١٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٥

هذيل

٦٣١ ، ٥٦٤ ، ٥٦٢ ، ١٥١ ، ٢١

همدان

٦٣١ ، ٦٢٥ ، ٦٢٤

هوازن

٣٢٠

الهندوس

حرف الياء

١٥٢ ، ١٥١

يام

فهرس القوافي

صدر البيت	قافية البيت	بحره	الصفحة	السطر	الشاعر
الهمزة					
مستضحك	الأفذاء	الكامل	٤٥٢	١٠	الحسين بن مطير
وأحسن منك	النساء	الوافر	٤٨	٩	حسان بن ثابت
ألا أبلغ	الحفَاء	الوافر	٥٥٢	١	حسان بن ثابت
عَفَتْ	خَلَاء	الوافر	٦٧٨	١	حسان بن ثابت
يأتي	لجاء	الخفيف	٦٧٦	١٧	ضرار بن الخطّاب الفهري
عدمت	كداء	الوافر	٢٨٨	١٨	حسان بن ثابت
إذا أدّيتني	الحساء	الوافر	٦٦٩	١٢	عبد الله بن راحة
(ب)					
وقد قال	غِبًا	الوافر	٤٥٨	١	(مجهول)
إذا سقط	غضابا	الوافر	٧٤٤	١٦	جرير بن عطية
للحرب	وحَسَابُ	البيسيط	٤٩٢	٢٠	(مجهول)
سائل	الهَرَبِ	البيسيط	٦٨٩	٦	كعب بن مالك
رأيتك	كُغِبِ	الطويل	١٥٩	٢	قطن بن حارثة العليمي
نَصَرَ	بضراب	الكامل	٦٥٦	١٤	علي بن أبي طالب
أعيت	الأعراب	الكامل	٦٦١	٤	كعب بن مالك
فدغ	كعاب	الكامل	٦٦٠	٨	حسان بن ثابت
فيها الجياد	الأقرب	الكامل	٦٦٠	١	عبد الله بن الزبير
عرفت	القشيب	الوافر	٦٥٢	١٣	حسان بن ثابت
(ت)					
يا نَفْسُ	نَمُوتِي	الرجز	٧٠١، ٥٤٨	٢٠، ٢١	عبد الله بن راحة
كم قَدْ	الفلوات	الكامل	٥٦٥، ٥٣٤	٧، ٨	خفاف بن فضلة

هل أنت	دميت	الرجز	٥٤٢	١٣	عبد الله بن رواحة
خابت	وقُضِصَ	المتقارب	(خ)	١٤	حسان بن ثابت
لكنني	الزُّبدا	البسيط	(د)	١٠، ٢٠	عبد الله بن رواحة
ياربِّنا	وأمردا	الرجز	٦٦٦، ٥٤٦	١٠، ٨	الشيءاء
ياربِّ	محمدًا	الرجز	٥٦٢، ٢٨٤	١٠، ١٢	عمرو بن سالم الخزاعي
لا تياسَنَّ	شدائدُ	الكامل	٤٥٩	١١	(مجهول)
وإنَّ ولاءَ	العَبْدُ	الطويل	٥٥٠	٢١	حسان بن ثابت
بكى	وتبعُدُ	الطويل	٦٧٣	٩	بدليل بن عبد مناف
وأنت إله	أشْهَدُ	الطويل	٥٥٦	٧	حسان بن ثابت
أغرُّ	ويُشْهَدُ	الطويل	٥٥٥	١٥	حسان بن ثابت
طرقْتُ	الأَغْيَدُ	الكامل	٦٩٤	١	كعب بن مالك
ألا أبلغًا	حميدُ	الطويل	٤٦٠	٨	أبو عزة الشاعر
ألا بلغ	المردى	الوافر	٤٧٤	٩	الطفيل بن عمرو الدوسي
ذكرْتُ	وصلدٍ	الطويل	٥٦١، ١٥٣	٥، ١٢	ذو المشعار، مالك بن نَمَط
أأنت الذي	أشْهَدُ	الطويل	٦٧٢، ٥٦٣	١٢، ١١	أنس بن زنيم
سَتُبْدِي	تزوِّدُ	الطويل	٥٣٧	١٤	طرفة بن العبد
ولولا الشعرُ	لبيدٍ	الوافر	٥٣٨، ٥٣١	٧، ١٦	محمد بن إدريس الشافعي
لقد علمتُ	الشديدِ	الوافر	٦٤٦	٦	حسان بن ثابت
قد انقضت	بالعيدِ	المنسرح	٧٤٠	١٦	عيد الله بن المعتز
أرقْتُ	الصعيدِ	الوافر	٦٢٠	٩	صَبْقِيَّة بنت عبد المطلب
في الداهيين	بصائرُ	مجزوء الكامل	(ر)	٩	قس بن ساعدة
محمدُ	عَبْرُ	الرجز	٦٢٥	١٢	الشيءاء (حذافة بنت الحارث)

لك الحمد	المطر	المتقارب	٥٧٢	٢	رجل من كنانة
اللهم	والمهاجرة	الرجز	٥٤٠ ، ١٦٩	١٢ ، ٣	عبد الله بن رواحة
سماه	عمرا	الرجز	٥٤٩	٨	
بلغنا	مظهرا	الطويل	٥٤٣	٧	من أرجازهم في حفر الخندق
وقد لاح	نورا	الطويل	٥٣٦	١٦	النايعة الجعدى
ما أنت	الخابر	السريع	٧٤٠	١٣	قيس بن الخطيم
لو كنت	القدر	البسيط	٤٢٤	١٦	(مجهول)
فنت	نصروا	البسيط	٦٠٥	٨	كعب بن زهير
بشبة الحمد	المطر	البسيط	٦٦٦ ، ٥٤٧	١٦ ، ٣	عبد الله بن رواحة
امتن	ونتظر	البسيط	٥٧٤ ، ٣٦	٦ ، ١	رقية بنت أبي صيفى
تكفيه	العمر	البسيط	٦٢٥	٤	أبو جرول الجشمى
تأويني	مسهر	الطويل	٤٥٥	٤	أعشى باهلة
عجبت	قاهر	الطويل	٧٠١	١٨	حسان بن ثابت
يا رسول	بور	الطويل	٦٤٩	١٣	كعب بن مالك
قومي	كفار	الخفيف	٦٧٥	١	عبد الله بن الزبير
أسائلة	وتخير	البسيط	٥٥٧	١٢	حسان بن ثابت
أيا عين	تنزرى	الطويل	٦١٩	١٦	صفية بنت عبد المطلب
ألا ليت	العسر	المتقارب	٦٢٧	١١	كعب بن مالك
والحرب	شعر	الطويل	٦٥١	١	حسان بن ثابت
يا بنت	الكفر	الرجز	٦٢٦	١٥	هند بنت عتبة
يا آل فهر	والنفر	الرجز	٦٢٧	٢	هند بنت أثاثة
نحن جوار	النجار	البسيط	٣٨	٤	(رجل من زبيد)
من سره	الأنصار	الرجز	٥٢٢	٣	(نشيد لجوار في المدينة)
		الكامل	٦٠٧	٩	كعب بن زهير
		(ز)			
صفية	حزة	المتقارب	٦٩٥	١٥	كعب بن مالك

يا أيها الرَّجُلُ	عرشُ	الكامل	٥٦٠	٣	العباس بن مرداس
وإنَّ من	غرسه	السَّريع	٧٤١	١	صالح بن عبد القدوس
فلولا	نفسه	المتقارب	٦١٨	٨	الخنساء (تماضر بنت عمرو)
يا عَيْنُ	أَبَاسِ	البسيط	٦٢٢	٥	نُعم بنت سعيد بن يربوع
إنَّ الزَّمانَ	الرَّاسِ	البسيط	٦١٥	٩	الخنساء بنت عمرو
اقتني	النَّاسِ	البسيط	٦٢٢	١٥	أبو الحكم بن سعيد بن يربوع
(ض)					
شهدتُ	والنَّهْضِ	الطويل	٦٤٠	١٣	الجارود بن المعلَّى
(ع)					
إنَّ الدَّوائِبَ	تَنبُعُ	البسيط	٦٣٥	١	حسان بن ثابت
فإنَّكَ	واسعُ	الطَّويل	٦١٤	١٥	النابعة الديباني
نحنُ	البيَّعُ	البسيط	٦٣٣	٢١	الزبرقان بن بدر
أَتَجْمَعُ	والأقرعِ	المتقارب	٥٣٧	٢٠	العباس بن مرداس
قل لابنِ	الجامع	السَّريع	٤٢٦	١٧	ابن خلاد (الحسن بن عبد الرحمن)
(ف)					
إنَّ القُلُوبَ	تأْتلفُ	البسيط	٤٥٤	٢١	أبو نواس (الحسن بن هانيء)
فما نخشى	الزَّخوفُ	الوافر	٦٤٧	٢	حسان بن ثابت
نفى	خفافِ	الوافر	٦٧٠	١٧	بجير بن زهير
إليكِ	الريفِ	الرجز	١٥١	١٢	(مجهول)
(ق)					
يا ناعيَ	خِرْقُ	البسيط	٥٨٥	١	قس بن ساعدة
من قَتَلها	الورقُ	المنسرح	٥٥٦	١٧	العباس بن عبد المطلب
يا راكباً	موفِّقُ	الكامل	٦٢٣	٧	قُتَيْلَة بنت النضر
ما إن	يلحقِ	الكامل	٦١٦	٩	الكميت بن زيد

من سرّة	المحرق	الكامل	٦٦٢	٧	كعب بن مالك
(ك)					
يا ذا الكفين	عُبادكا	الرجز	٨٠	١٥	الطفيل بن عمرو الدّوسي
لعمري	مشارك	الطويل	٥٥٨	١٠	العباس بن مرداس
ألا أبلغا	هل لك	الطويل	٥٩٠	١٠	كعب بن زهير
يا حاتم	هداكا	الكامل	٥٥٩	١	العباس بن مرداس
خليلي	كراكما	الطويل	٥٨٢	٨	قس بن ساعدة
أهديت	والثبرك	مجزوء البسيط	٧٨٣	٩	(مجهول)
دعوا	الأوراك	الطويل	٦٤٧	١١	حسان بن ثابت
(ل)					
همدان	وأقيال	الرجز	١٥١	٩	مالك بن نَمَط
يابني	فالا	الخفيف	٦٤١ ، ٥٨٣	١٣ ، ٣	الجارود بن عبد الله
إذا تذكّرت	فعلاً	البسيط	٥٥٠	١	حسان بن ثابت
تركت	وابتهالاً	المتقارب	٥٣٦	١١	(مجهول)
ألا كل	زائل	الطويل	٥٣٨ ، ٥٣٧	١٥ ، ٩	ليبد بن ربيعة
نام	المخضّل	الكامل	٧٠٣	١١	كعب بن مالك
وما العيث	التهلّل	الطويل	٦١٧	١٥	الخنساء (تماضر بنت عمرو)
لئن قعدنا	يَعْمَلُ	الرجز	١٩٦	٩	نشيد للمهاجرين والأنصار
مهذبة	يعمل	المتقارب	٦٠٤	٢	الكميت بن زيد
بانة	مكبور	البسيط	٥٩٢	١٥	كعب بن زهير
فمن للقوافي	جرو	الطويل	٦٠٣	١٢	كعب بن زهير
بكت	العويل	الوافر	٦٩٦	٨	عبد الله بن ربيعة
أبلغ	الساحل	الخفيف	٢٢٦	١٢	أبو جندل بن سهيل بن عمرو
أتيناك	الطّفل	الطويل	٥٧١	٤	أعرابي يشد الرسول ﷺ
لقد ضُمنَ	والعقل	الطويل	٦٢٨	١	هند بنت أثانة
ولقد بكيث	كلها	الكامل	٧٠٥	١٦	حسان بن ثابت

وأبيض	للأرامل	الطويل	٥٧١	١٨	أبو طالب بن عبد المطلب
إن كنت	الجاهل	السريع	٦٠٨	١٤	كعب بن زهير
بيض	الأول	الكامل	١٦٣	١٥	حسان بن ثابت
خلوا	سبيله	الرجز	٥٤٥	٢١	عبد الله بن رواحة
(م)					
أبا بني	الرزاء	الرجز	٤٦٠	١٥	أبو عزة الشاعر
رائتك	معلما	الطويل	٦٤١	٥	سلمة بن عياض
إن تغفر	جما	الرجز	٥٣٩	١٣	أمية بن أبي الصلت
من مبلغ	أحزم	الطويل	٥٩١	١٤	بجير بن زهير
منع	النجوم	الخفيف	٦٩١	٩	حسان بن ثابت
إن خالي	يقوم	الخفيف	٢٥٨	١	حسان بن ثابت
جلبنا	العكوم	الوافر	٦٦٨	٣	عبد الله بن رواحة
منا بمكة	مُسوم	الكامل	٦٧١	١٢	العباس بن مرداس
قالت	والإسلام	الكامل	٦٧٥	١٥	فضالة بن عمير الليثي
هل المجذ	العظام	الطويل	٦٣٧	٢	حسان بن ثابت
أتيناك	المواسم	الطويل	٦٣٦	٨	الزبرقان بن بدر
منعنا	وراغم	الطويل	٦٣٤	١٠	حسان بن ثابت
يؤخر	فيقيم	الطويل	٥٩٠	١	زهير بن أبي سلمى
إن الشهاب	والحكم	البسيط	٤٣٠	٢١	فارس بن الحسين الهذلي
لا تعدمن	لثيم	الكامل	٦٧٤	٥	حسان بن ثابت
(ن)					
أقسمت	لتنزلته	الرجز	٧٠٠ ، ٥٤٧	٢٠ ، ٢١	عبد الله بن رواحة
ومشفقة	طحونا	الوافر	٦٥٨	٨	ضرار بن الخطاب الفهري
وسائلة	صابرينا	الوافر	٦٥٩	٧	كعب بن مالك
اللهم	اهتدينا	الرجز	٥٤٨ ، ٥٤٣	١٦ ، ١٩	عبد الله بن رواحة
			٦٥٥	١٢	

سويد بن عامر	١٠٤٩	٥٣٥، ١٩	البسيط	إنسان	لا تأمننَّ
قيس بن عاصم المنقري	١٦	٢٥٧	السريع	أفئ	إني امرؤ
(هـ)					
عدي بن الرقاع	٣	٦١٧	الكامل	نسجها	يتعاونان
(مجهول)	٩	٤٥٥	البسيط	باريها	يا باري
الألف المقصورة					
زهير بن حجاب	٦	٥٣٦	الكامل	جنى	ارفع
(ي)					
عبد الله بن رواحة أو	١٢	٦٤٨	الطويل	وافيا	وعدنا
كعب بن مالك					

فهرس الأماكن والبلدان

الصفحات	اسم المكان أو البلد
حرف الألف	
٢١٤	آبار على
١١٤	آسيا الوسطى
٥٧٣ ، ٣٨ ، ٣٥ ، ٣٤	أبو قبيس
١٩١	أثرب
٥٤٢ ، ٤٧٤ ، ٤٦٠ ، ٤٥٩ ، ١١٣ ، ٨٠ ، ٢٢	أحد
٦٦٥ ، ٦٥٨ ، ٦٥٦ ، ٦٤٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢١ ، ٦١٩	
٦٩١ ، ٦٩٠ ، ٦٨٩ ، ٦٨٨ ، ٦٨٧ ، ٦٨٦ ، ٦٨٥	
٧٨٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٠ ، ٧٠٦ ، ٧٠٠ ، ٦٩٩ ، ٦٩٧	
١٢٤	أخميم
٢٩٨	أذرح
١٩١	أرض الله
٨٠	أرض دوس
١٦١	أرض الروم
٢٩٨	أرض سورية الجنوبية
١٢٤	استامبول
١٩١	أكالة القرى

٤٧٥	أكسفورد
١٢٠	إمارة الغساسنة
٦٩ ، ٦٦	أم القرى
٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ١٢	أيلة
١١٦ ، ٤١ ، ٤٠	إيلياء
٤٣١	الآستانة
٦٦٧ ، ٥٤٦	الأردن
١٣١ ، ١٢٣ ، ١٢١	الإسكندرية
١٣٣	الامبراطورية الكسروية
٤٣٠ ، ٢٣٧	الأندلس
٤٢٧	الأهواز
حرف الباء	
٨٩	بابل
٣٠٦	بئر زمزم
٢٠ ، ٨٠ ، ١١٣ ، ١٩٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،	بدر
٢٢٢ ، ٢٨٧ ، ٤٥٣ ، ٤٦٠ ، ٤٧٤ ، ٤٨٢ ، ٥١٥ ،	
٥٤٧ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ،	
٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ،	
٦٥٣ ، ٦٥٦ ، ٦٨٥ ، ٦٩٠ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ،	
٧٠٠ ، ٧٦٢	
١١٧ ، ٤٠	بصرى
٦٤٧	بطن عالج
٤٠٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢	بغداد
	٩١٦

١٩٦	بقيع الخبجة
١٤	بلاد قضاة
١٩١	بلد رسول الله
١٧٩	بيت إبراهيم
١٧٩	بيت عيون
١٨٠ ، ١١٥ ، ٤٠	بيت المقدس
٤٣١ ، ١٦٣	بيروت
١٣١	بيزنطة
١٠٣	بيشة
١٩١	البارة
١٩١	البحرة
١٩١	الْبَحِيرَةُ
١٩١	الْبَحِيرَةُ
١٣٩ ، ١٣٨ ، ١١٤	البحرين
١٩١	الْبَرَّة
٦٧٦	البطحاء
٨٤	البيق
٥١	البلد
١١٥ ، ١١٤	البلقاء
٢٣٧	البلقان
٣٢٠ ، ٢٣٧	البوسنة والهرسك
٨٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ،	البيت (بيت الله الحرام)
٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ،	

٧٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٦٥ ، ٥٧٣ ، ٥٤٦ ، ٥٤٥ ، ٣١٤

حرف التاء

٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ١٦١ ، ١٥١ ، ١٣
٥٦١ ، ٥٥٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٥ ، ٢٩٤

٦٤٥ ، ٦٣١

١٠٢ ، ١٠٠

تعار

٧٦٩ ، ٦٣٨ ، ١٠٤ ، ١٠٢ ، ١٠٠

تهامة

١٤٨

تهامة اليمن

١٢٤

توب قابى

٢٣٣

تيماء

حرف الثاء

٣٨

ثبير

٢١٥

ثنية المزار

٢٩٦ ، ٢٧٣

ثنية الوداع

حرف الجيم

١٩٠

جابهة

٦٩١ ، ٦٣٧ ، ٦٣٤ ، ٢٥٨

جابية الجولان

١٩١

جبار

٢٠٧

جبل ثور

٢٠٧

جبل عير

٢٩٨

جرباء

٢٥٥

جلقى

٢٣٨

جنوب الجزيرة العربية

١٩١	الجابرة
١٩١	الجبارة
١٤١	الجبيلة
٦٣١ ، ٢٤٦ ، ١١٤ ، ١١٣	الجزيرة العربية
٣٠٦	الجمرة الكبرى
٤٨١	الجودى
٨٦	الجوشية
حرف الحاء	
١٨٠ ، ١٧٩	حبرون
٢١٦	حُبَيْشَى (جبل)
٣٨	حراء
٦٣١ ، ١٥٩ ، ١٥٦ ، ١٥٥ ، ١٥٤ ، ٧٨ ، ٧٧ ، ٥٩	حضر موت
٦٣٥	حلية
٢٨٦	حراء الأسد
٤٠	حمص
٨٠	حمى ذى الشرى
٥٥٨ ، ٥٤٨ ، ٥٣٩ ، ٤١٠ ، ٩١ ، ٩٠ ، ٢١	حنين
٦٣٢ ، ٦٢٥ ، ٦٢٤ ، ٥٦٠	
٤٣١	حيفا
١٣١ ، ١٢٥ ، ١٢٤ ، ١١٥ ، ١١٤	الحبشة
٦٧٠	الحبلىق
٣١٤ ، ٢٧٢ ، ٢٣٣ ، ١٥٥ ، ١١٤ ، ٥٩ ، ٩	الحجاز
٧٦٣ ، ٧٦٢ ، ٦٧١	

٣٨	الحجر
٦٦٦ ، ٢٨٨ ، ٦٦	الحجون
١٢ ، ٤١ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٣١ ، ١٦٧ ، ١٧١ ،	الحديبية
١٧٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،	
٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٥٦ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٤٩٤ ، ٥٤٢ ،	
٦٦٤ ، ٧٠٠ ، ٧٦٩	
١٩٢ ، ٧٧	الحرّة
٢٥٥ ، ٨٩	الحيرة
حرف الخاء	
٢٣٢	خليج العقبة
٨٠ ، ١٩٦ ، ٤٧٤ ، ٥٤٠ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٩ ،	خيبر
٦٥٤ ، ٧٥١ ، ٧٨٩	
١٣٨	الخليج العربي
٢١ ، ٨٠ ، ٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٩١ ، ٤٧٤ ، ٥١٥ ،	الخندق
٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٩ ، ٦٤٥ ،	
٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦١ ،	
٦٦٢ ، ٧٠٠	
٢٨٨	الخندمة (جبل)
١٩٢	الخَيْرَةُ
١٩٢	الخيرة
حرف الدال	
١٩٢	دار الأبرار
١٩٢	دار الإيمان
٩٢٠	

١٩٢	دار الخرار
١٩٢	دار السنة
٣٨ ، ٩ ، ٨	دار عبد الله بن جدعان
١٩٢	دار المختار
٢٧٥ ، ١٩٠ ، ٧٣	دار الهجرة
٢١٣ ، ١٦٤ ، ١٦٣ ، ١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٤٧	دومة الجندل
١٤٣	ديار بنى تميم
٣١	ديار بنى سعد
١٤٠	ديار حنيقة
١٩٢ ، ١٩٠	الدار

حرف الذال

٣٨٠ ، ١٤	ذات السلاسل
١٩٢	ذات النخل
٣٠٣ ، ٢٢٥ ، ٢١٤	ذو الحليفة
٢٨٨ ، ٢١٤	ذو طوى
٢٢٦	ذو المروة

حرف الراء

٥٦١ ، ١٥٣	رحرحان
١٦١	رعين
٢٨٦	روضة خاخ
٢٩٤	الريضة
١٦٠	الرها

حرف السين

٢٧٣ ، ١٣٨	ساجلي عمان
٤٢٧	شامرا
٤٢٧	سرمين رأى
٢٥٨	نسيمحة (بئر)
٤٣٠	سوق بربر
٢٢٦	سيف البحر

حرف الشين

١٥٥	شبو
١٩٢	الشافية
١٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٤ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ،	الشام
١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٦٧ ، ١٨٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ،	
٢٣٤ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٧٠٠ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣	
١١٤	الشمال الأفريقي

حرف الصاد

٥٦١ ، ١٥٣	صلدد
٣٠٤ ، ٢٦٥	الصفاء
٦٢٨	الصفراء

حرف الطاء

١٩٢	طائب
١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣	طابة
١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣	طبيّة
١٩٢	طبيّة

١٤ ، ٢٤٣ ، ٣٥١ ، ٥٩١ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٤٥

الطائف

حرف العين

١٦٨ ، ٢٢٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ،

عرفة

٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٢١ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠

١١٤

عسفان

٤٢٧ -

عسكر مُكْرَم

٢٤٤ ، ٢٥٦ ، ٥٨٠ ، ٥٨٣ ، ٦١٤

عكاظ

١١٤ ، ١٣٤ ، ١٣٥

عمان

١٩٣

العاصمة

١٩٣

العذراء

١١٤ ، ٢٩٤

العراق

٤٢٧

العسكر

حرف الغين

٦٩

غارثور

١٩٣

الغراء

١١٤

الغرب الآسيوي

حرف الفاء

١٣٢

فارس

٢٣٧ ، ٤٣١

فلسطين

٣٧ ، ٢٥٥

الفجار

٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠

الفسطاط

حرف القاف

١٩٣

قبة الإسلام

قران ١٣٩

قردد ٥٦١

قزح ٣٠٩

القادسية ١٣٣ ، ٨٩

القدس ١٩٥

حرف الكاف

كداء ٦٧٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٤

كراع الغميم ٢٢٨ ، ٢١٤

كشمير ٣٢٠

الكعبة ٦٧٥ ، ٤٧٣ ، ٤٧٠ ، ٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٥

٦٧٦

الكوفة ٨٩

حرف الميم

مآب ٦٦٨ ، ٦٦٧

مجبورة ١٩٠

محجر ١٥٥

محجن ١٥٥

محسر ٣٠٦

مدينة الخليل ١٨٠

مدينة الرسول ١٩١ ، ١٤٣

مدينة رسول الله ٢٠٩ ، ١٩٤

مربع ١٦٢

مسجد قباء ١٨٩

١٩٠	مسكينة (من أسماء المدينة)
٥٤٧ ، ١٥٣	مشارف
٤٣٠ ، ٤٢٩ ، ١٢٤ ، ١٢٣ ، ١٢١ ، ١١٥ ، ١١٤	مصر
٧٦٣ ، ٧٦٢ ، ٤٣٥	
١٦٢	مصيف
١٦١	معاقر
٦٦٨ ، ٦٦٧ ، ٥٤٧	معان
٣٠٣	مقام إبراهيم
٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ١٢	مقنا
٧٨ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٦٦ ، ٤٠ ، ٣٧ ، ٣٤ ، ١٣ ، ١٢	مكة
٨٠ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٤٠ ، ١٥٥ ، ١٨٢ ، ١٩٢	
٢٠٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨	
٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ ، ٢٨١	
٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٦	
٤٥٣ ، ٤٦٠ ، ٤٧٢ ، ٤٨٢ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٨	
٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٧٣ ، ٥٨٠ ، ٥٩٠ ، ٦٠٦ ، ٦٢١	
٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٤٥ ، ٦٥١ ، ٦٥٩	
٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٦	
٦٧٧ ، ٦٨١ ، ٦٨٦ ، ٧٦٢ ، ٧٦٨	
١٥٣ ، ١٨٤ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٥٦١	منى
١٩٣	المؤمنة
١٩٣	المباركة
١٩١	المجبورة

١٩٣	المحبة
١٩٣	المحبة
١٩٣	المحبوبة
١٩٤	المحبورة
١٩٤	المحروسة
١٩٤	المختارة
١٣٢	المدائن
١٢ ، ١٣ ، ٢١ ، ٦٨ ، ٨٠ ، ٩٩ ، ١١٣ ، ١٢٣ ،	المدينة المنورة
١٢٦ ، ١٣٥ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ،	
١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ،	
٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،	
٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٤٦ ، ٢٥٨ ، ٢٧٢ ،	
٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،	
٢٨٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،	
٣٠٤ ، ٣٩٣ ، ٤٣١ ، ٤٥٩ ، ٤٧٤ ، ٥٢٢ ، ٥٤٠ ،	
٥٤١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٥ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٩٢ ، ٦١٩ ،	
٦٢١ ، ٦٢٨ ، ٦٣١ ، ٦٦٠ ، ٦٧٠ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ،	
٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٦٢ ، ٧٧٨ ،	
١٩٤	المرحومة
١٧٩	المرطوم
٣٠٤	المروة
٣٠٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥	المزدلفة
٣٠٥ ، ٣٠٤	المشعر الحرام

١٩٤	المقر
١٣٨	المملكة العربية السعودية
٧٧	المنبر
٣٠٩ ، ٣٠٦	المنحر
حرف النون	—
٦٧١ ، ١٠٢ ، ٥٩	نجد
٦٧٤ ، ٦٧٣ ، ٢٤٦ ، ٢٣١ ، ١٦٧ ، ١٢	نجران
٣٨٠	نخيلة
٣٠٤	نمرة
٤٣٢	نيسابور
حرف الهاء	
١٤٠	هجر
٢٤٧ ، ١٥٣	الهند
حرف الواو	
٢٣٣	واحة تيباء
٢٠٧	وادي العقيق
٤٣٢	واسط
٢٤٥ ، ٢٤٤	وج
٦٧٢ ، ٥٦٢ ، ٢٨٤	الوتير
حرف الياء	
٥٤٥	يأجيج
١٩٨ ، ١٩٥ ، ١٩٠ ، ١٨٣ ، ١٨٢ ، ١٨٠ ، ١١٣	يثرب
٧٠١ ، ٦٤٠ ، ٢٧٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٠	

١٩٠

يندد

١٤٠ ، ١٣٩ ، ١١٤

اليامة

، ١٥٤ ، ١٣٤ ، ١٣٣ ، ١١٤ ، ٨٨ ، ٦٨ ، ٥٩ ، ١٢

اليمن

، ٢٤٦ ، ٢٤١ ، ٢٣٨ ، ٢٣٣ ، ١٦٢ ، ١٦١ ، ١٦٠

٧٦٢ ، ٧٥٩ ، ٧٥٧ ، ٥٦١ ، ٢٤٨



فهرست المحتويات

مقدمة الكتاب : ١٩-١

الباب الأول

سمات الرسول وصفاته وشمائله

في الجاهلية والإسلام

الفصل الأول : شخصية محمد قبل المبعث وبعده : ٢٩

في الجاهلية ٣١

بعد المبعث ٤٠

الفصل الثاني : فصاحة محمد صلى الله عليه وسلم وبلاغته ٥٣

القاضي عياض يصف فصاحة الرسول ٥٥

قمة أدب التعبير ٦٦

الفصل الثالث : أدب الحوار في كلام النبي ٧١

الفصل الرابع : الرسول يتحدث لغات القبائل ٩٧

الباب الثاني

كتب الرسول صلى الله عليه وسلم ورسائله

الفصل الأول : كتب الرسول إلى الملوك من أهل الكتاب ١١١

كتاب الرسول ﷺ إلى قيصر ١١٥

كتاب الرسول ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ١٢٠

٩٣١

- ١٢١ كتاب الرسول ﷺ إلى المقوقس
- ١٢٤ نص كتاب الرسول إلى النجاشي
- ١٢٩ الفصل الثاني: كتب الرسول ﷺ إلى غير أهل الكتاب
- ١٣٢ كتابا إلى قصرا
- ١٣٤ كتابه ﷺ إلى ملكي عمان مع عمرو بن العاص
- ١٣٨ كتابه ﷺ إلى صاحب البحرين وإسلامه
- ١٣٩ كتابه ﷺ إلى هوزة بن علي صاحب اليمامة
- ١٤١ كتابه ﷺ إلى مسيلمة الكذاب
- ١٤١ كتابه ﷺ إلى أكثم بن صيفي
- ١٤٥ الفصل الثالث: كتب النبي ﷺ مع الوفود العائدة
- ١٤٨ كتاب الرسول ﷺ إلى بني نهد مع طهفة
- ١٥١ حديث ذي المشعار الهمداني وكتاب النبي لقومه
- ١٥٤ مقدم وائل بن حجر الحضرمي
- ١٥٨ كتب الرسول لقبيلة كلب مع قطن بن حارثة العليمي
- ١٦٠ كتابه ﷺ مع رسول حمير
- ١٦٢ وفود قبيلة بارق وكتاب الرسول ﷺ لهم
- ١٦٣ كتاب الرسول وخبر الأكيدر بن عبد الملك
- الباب الثالث**
- عهود الرسول ﷺ ومعاهداته**
- ١٦٩ الفصل الأول: العهود في القرآن الكريم
- ١٧٤ سمات المعاهدات في الإسلام كما طبقها النبي ﷺ

١٧٧	الفصل الثاني : عهود ما قبل الهجرة
١٧٩	عهد الدارين
١٨٠	بيعة العقبة الأولى
١٨٢	بيعة العقبة الثانية
١٨٧	الفصل الثالث : عهد المودعة بين المسلمين واليهود :
١٩٠	الرسول ﷺ يغير اسم يثرب إلى المدينة
١٩٥	الرسول ﷺ يبنى مسجده
١٩٧	المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
١٩٨	نص وثيقة المودعة ونشأة دولة المدينة
٢١١	الفصل الرابع : هدنة الحديبية :
٢١٤	المسير إلى مكة
٢١٥	جولات المحادثات
٢١٩	بيعة الرضوان
٢٢١	الجلوة الأخيرة من المفاوضات وعقد الصلح
٢٢٣	شروط الصلح
٢٢٥	أبو بصير وأبو جندل
٢٣١	الفصل الخامس : عهوده ﷺ مع نصارى الشام ونجران :
٢٣٣	عهده ﷺ ليوحنه صاحب أيلة
٢٣٤	معاهدته ﷺ مع أهل مقنا
٢٣٥	معاهدته ﷺ مع نصارى نجران
٢٤١	الفصل السادس : عهوده ﷺ لثقيف ولعمرو بن حزم :
٢٤٣	عهده ﷺ لثقيف
٩٣٣	

٢٤٦ عهدہ ﷺ لعمر بن حزم حين بعثه إلى اليمن

الباب الرابع

خطب الرسول ﷺ

٢٥٣ الفصل الأول : الخطابة قبل الاسلام :

٢٦١ الفصل الثاني : خطب الدعوة إلى الله :

٢٧٢ أول خطبه جمعة في المدينة

٢٨١ الفصل الثالث : خطبة ﷺ في فتح مكة وبعض الغزوات

٢٨٧ جيش الرسول ﷺ في الطريق إلى مكة

٢٨٩ خطبة فتح مكة

٢٩١ خطب الرسول في الغزوات

٢٩٢ في الطريق إلى تبوك

٢٩٤ أبو ذر وأبو خيثمة

٢٩٧ نص خطبة الرسول ﷺ في تبوك

٢٩٩ الفصل الرابع : حجة الوداع وخطبة الوداع :

٣٠١ في رحاب حجة الوداع

٣٠٦ خطبة الوداع

٣١٠ بين يدي خطبة الوداع

٣٢١ خطبة الفراق

الباب الخامس

أدعية رسول الله ﷺ وروحانياته

٣٢٥ الفصل الأول : الدعاء والتسبيح والابتهال

٣٢٨ مطلق الدعاء

٣٣٠	الرسول يعلم آل بيته وأصحابه الدعاء
٣٣٣	دعاء الرسول في الصلاة
٣٣٧	دعاء التعوذ
٣٤٠	أدعيته ﷺ في الصباح والمساء والليل
٣٤٣	أدعيته ﷺ عند النوم
٣٤٦	أدعية التعبد والتهجد والتسبيح والابتهال
٣٥٣	الفصل الثاني : الأحاديث القدسية :
٣٥٥	التعريف بها
٣٥٦	موضوعاتها
٣٥٨	الوحدانية والبعث
٣٥٩	التوحيد والتكبير والحمد والغفران
٣٦٠	عمل الخير لغير الله
٣٦١	فضل فريضة الصلاة والصيام
٣٦٢	حب الله سبحانه لعباده ورحمته بهم
٣٦٥	فضل الشهادة والجهاد في سبيل الله
٣٦٥	تحريم الظلم
٣٦٧	الأخوة والتحاب في الله
٣٦٨	أهل الجنة

الباب السادس

الوصايا

٣٧٣	الفصل الأول : وصايا الرسول ﷺ للصحابه القواد
٣٧٥	تمهيد
٩٣٥	

٣٧٧	وصايا الرسول ﷺ للصحابة من قواد وموجهين
٣٧٩	وصاياه ﷺ للغزاة
٣٨٢	وصيته لأبى ذر
٣٨٣	وصايا الرسول ﷺ لأبى هريرة
٣٩١	الفصل الثانى: بعض وصايا الرسول للنساء :
٣٩٤	وصيته ﷺ لفاطمة
٣٩٥	وصيته ﷺ لأم أنس
٣٩٧	الفصل الثالث: وصيتان لأحد العامة ولآخر غير مسلم :
٣٩٩	وصيته العامى
٤٠٠	وصيته للثانى (أبى جرى)
٤٠٣	الفصل الرابع: الرسول يوصى بطلاب العلم .
٤٠٧	الفصل الخامس: وصية الرسول بالأنصار.
	الفصل السادس: وصية الرسول إلى الخليفة من بعده
٤١٣	ووصيته للمسلمين حيال حكاهم
٤١٦	وصيته ﷺ للمسلمين بحكامهم

الباب السابع

الأمثال النبوية السائرة

٤١٩	الفصل الأول: الأمثال ومن صنف فيها من العلماء
٤٢١	الأمثال ومن صنف فيها
٤٢٣	الأمثال النبوية السائرة والتأليف فيها
٤٢٥	المصنفون فى أمثال القرآن

٤٣٧	الفصل الثاني : من موضوعات الأمثال النبوية :
٤٣٩	أمثال في العلم والعلماء
٤٤١	أمثال في المشورة
٤٤١	أمثال في المرأة
٤٤٥	الفصل الثالث : نماذج من الأمثال النبوية السائرة :
٤٤٧	نماذج من أمثال الحديث من كتاب أبي عبيد
٤٥٠	نماذج من كتاب أمثال النبي للرامهرمزي
٤٥٤	نماذج من جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري
	الباب الثامن
	أسلوب القرآن وأسلوب النبي
٤٦٥	الفصل الأول : التسليم الفطري بأن القرآن كلام الله :
٤٦٧	تمهيد
٤٦٨	التسليم الفطري بأن القرآن كلام الله
٤٦٩	عتبة بن ربيعة ساعة سماعه القرآن
٤٩٠	الوليد بن المغيرة
٤٧٢	الطفيل بن عمرو الدوسي
٤٧٤	أعرابي يسجد عند سماعه جملة قرآنية
٤٧٧	الفصل الثاني : القرآن معجزة محمد
٤٨٠	وجوه الإعجاز كما يراها الماوردي
٤٨٥	الباقلاني وإعجاز القرآن
٤٨٦	إعجاز القرآن عند الخطابي
٩٣٧	

٤٨٩	عودة إلى الباقلانى
٤٩٤	الفرق بين أسلوب القرآن وكلام النبى
٤٩٧	الفصل الثالث : نماذج تلقائية من الكتاب العزيز ومن حديث رسول الله :
٥٠٠	الآيات القرآنية
٥٠٦	نماذج من كلام الرسول
٥٠٩	الفصل الرابع : تناول القرآن والتناول النبوى لقضية بذاتها :
٥١١	رحمة الله
٥١٣	الجهاد فى سبيل الله
٥١٧	اليتامى والمساكين
٥٢٠	مكانة الأنصار
٥٢٢	الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

الباب التاسع

الرسول والشعر

٥٢٩	الفصل الأول : الرسول وموقفه من الشعر :
٥٣١	موقف الرسول من الشعر
٥٣٣	الرسول يمتدح الشعر الجاد
٥٤١	الرسول يردد الشعر ولا يقرضه
٥٤٩	الرسول يستنشد الشعراء الصحابة
٥٥٣	الفصل الثانى : شعراء الصحابة يمدحون الرسول .
٥٦٧	الفصل الثالث : استسقاء النبى ﷺ :
٥٧١	الشعراء يناشدون الرسول الاستسقاء

٥٧٣	الرسول يستسقى به وهو غلام
٥٧٧	الفصل الرابع : الرسول وخبر قس بن ساعدة .
٥٨٧	الفصل الخامس : كعب بن زهير يعلن إسلامه :
٥٨٩	بيت زهير شعراء
٥٩٠	كعب يوبخ أخاه بجيرا
٥٩١	بجير يحض كعبا على الإسلام
٥٩٢	كعب يسلم وينشد قصيدته
٦٠٤	بين يدى القصيدة
٦٠٧	كعب يمدح الأنصار
٦١١	الفصل السادس : الصحابييات الشاعرات :
٦١٣	الخنساء
٦١٨	صفية بنت عبد المطلب
٦٣١	نعم امرأة شماس بن عثمان
٦٢٣	قتيلة بنت النضر
٦٢٤	الشيءاء بنت الحارث
٦٢٦	هند بنت أثاثة
٦٢٩	الفصل السابع : الشعر فى عام الوفود :
٦٣١	تمهيد
٦٣٢	وفد بنى تميم
٦٣٨	وفود الجارود بن المعلى وسلمة بن عياض
٦٤٣	الفصل الثامن : شعر الغزوات والسرايا :
٦٤٥	الشعر فى غزوة بدر
٩٣٩	

٦٥٤	الشعر في غزوة الخندق
٦٦٤	الشعر في غزوة مؤتة
٦٧٠	الشعر في فتح مكة
٦٨٣	الفصل التاسع : مرثى شعراء الرسول شهداء الغزوات :
٦٨٥	رثاء شهداء أحد
٦٩٧	رثاء شهداء مؤتة

الباب العاشر

الأنواع البلاغية في كلام الرسول

٧٠٩	الفصل الأول : المعانى :
٧١١	تمهيد
٧١٥	الإيجاز
٧١٨	الإطناب
٧٢٢	الإبهام والتفسير
٧٢٧	الفصل الثانى : البيان :
٧٣٠	التمثيل والمماثلة في كلام الرسول
٧٤٠	التشبيه في كلام الرسول
٧٤٤	المجاز في كلام الرسول
٧٥٢	الاستعارة في كلام الرسول
٧٦٦	الكناية في كلام الرسول
٧٧١	الفصل الثالث : البديع :
٧٧٢	علم البديع

٧٧٣	المحسنات اللفظية
٧٧٣	السجع
٧٨٠	التجنيس أو الجناس
٧٨٠	الجناس التام
٧٨١	الجناس الناقص وأنواعه
٧٨٤	المحسنات المعنوية :
٧٨٤	الطباق والمقابلة
٧٨٧	لزوم ما لا يلزم
٧٨٨	الإرصاد
٧٨٩	اللف والنشر
٧٩٣	مراجع الكتاب

الفهارس

٨٠٩	فهرس الآيات
٨١٩	فهرس الأحاديث
٨٥٣	فهرس الأعلام
٨٩٧	فهرس القبائل والأجناس
٩٠٧	فهرس القوافي
٩١٥	فهرس الأماكن والبلدان
٩٢٩	فهرس الموضوعات

DM-100





